أنا مدينة العلم وعلي بابها

في ظلال

نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الثالث

وثق أصوله وحققه وعلق عليه
سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

www.haydarya.com

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الثالث

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة

دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الروضة الحيدرية

BP
٣٨/٠٢
/م٩٦
ف٩٠٣
١٩٩٩ق.
ج. ٣

النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... فى ظلال نهج البلاغة (ج ٣)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر............................. دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥هـ. ق / ٢٠٠٥ م

المطبعه.. مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٦ – ١٠٠ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 100 - 6

الترقيم الدولي (ج ٣): ٠ – ١٠٣ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 103 - 0

فهرس الموضوعات

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٢ ـ ١٥

قَاتَلُوا ٱلآبَاء والأَبْنَاء .. فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٥

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ عُشَّاق الكَرَاسِي: ١٦

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٣ ـ ٢٧

أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ: ٢٧

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٤ ـ ٣١

الْيَوْمَ تُبْلَىٰ الأَخْبَارُ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣١

السِّلاَح بَيْنَ القَدِيم وَالجَدِيد: ٣٢

لا دَوَاء لِلعِنَاد إلّا الطَّعْن والضَّرْب .. فِقْرَة ٣: ٣٥

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٥ ـ ٣٧

لَا بُدَّ لِلْقُرْآنِ مِن تَرْجُمَانٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٧

أُفٍّ لَكُمْ!...فِقْرَة ٣: ٤١

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٦ ـ ٤٥

لَا أَطْلُب النَّصْرَ بِالْجَوْرِ: ٤٥

ٱلإِسْلاَم وَٱلْمَال: ٤٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٧ ـ ٥٣
مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٣
الجَمَاهِير: ٦١
ٱلْحَكَمَانِ...فِقْرَة ٣: ٦٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٨ ـ ٧١
لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٧١
ثَوْرَةُ الزِّنْج: ٧٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٩ ـ ٨٧
الأَغْنِيَاء والْفُقَرَاء... فِقْرَة ١ ـ ٢: ٨٧
اللهُ لاَ يُخْدَعُ...فِقْرَة ٣: ٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٣٠ ـ ٩٥
الغَضَبُ للهِ: ٩٥
أَبُو ذَرّ: ٩٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٣١ ـ ١٠٧
مَتَىٰ يَأْمَن الْمَظْلُوم: ١٠٧
شُرُوط الْوَالِي: ١١٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٣٢ ـ ١١٧
عَاقِبَةُ المُتْرَفِين...فِقْرَة ١ ـ ٢: ١١٧
فَلْسَفَة الأَمَل: ١١٩

اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٣ ـ ١٢٣
الله، وَمُحَمّد، وَاَلْقُرْآن..فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٢٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٤ ـ ١٣١
إِعْزَازُ الْحَوْزَة: ١٣١
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٥ ـ ١٣٥
أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ: ١٣٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٦ ـ ١٤١
بَيْعَةُ الإِمَام: ١٤١
بَيْعَة أَبِي بَكْر فَلْتَة: ١٤٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٧ ـ ١٤٧
يَطْلُبُونَ دَماً هُمْ سَفَكُوهُ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٤٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٨ ـ ١٥٥
الْهَوَىٰ وَالْهُدَىٰ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٥٥
الدَّوْلَة اَلإِنْسَانِية: ١٥٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٣٩ ـ ١٦٥
اَلشُّورَىٰ: ١٦٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٤٠ ـ ١٧٣
يَعِيْبُ مَا فِيهِ مِثْلَهُ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٧٣
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ التَّعبِير بالذَّنبِ: ١٧٦
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٤١ ـ ١٧٩

أَرْبَعُ أَصَابِعَ: ١٧٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٢ ـ ١٨٣
صَانِع الْمَعْرُوفِ: ١٨٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٣ ـ ١٨٧
الَّتمحِيص بالْبَلاَءِ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٨٧
أَللَّهُمَّ فَاْسْقِنَا غَيْثَكَ..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ١٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٤ ـ ١٩٥
حُجَّة الله عَلَىٰ خَلْقِهِ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٩٥
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْل أَهْل ٱلْبَيْت:: ١٩٨
أَيْنَ الْعُقُولُ..أَيْنَ الْقُلُوبُ..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٢٠٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٥ ـ ٢٠٥
مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ: ٢٠٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٦ ـ ٢٠٩
الْعَرَب كَثِيرُونَ بالإِسْلاَمِ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٠٩
لاَ نَصرَ إِلّا بالإِخْلاَصِ وَالَّتمَاسُكِ: ٢١٠
لاَ نُقَاتِلُ بِالْكَثْرَةِ..فِقْرَة ٣: ٢١٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٧ ـ ٢١٥
نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٢١٥
جَارَ اللهِ آمِنٌ..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٢٢٠
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤٨ ـ ٢٢٩

لِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ: ٢٢٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٤٩ ـ ٢٤١
اَلإِنْسَان فِي مَهَبِّ الرِّيحِ: ٢٤١
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٥٠ ـ ٢٤٩
لاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٤٩
حَوْلَ السُّرْعَة: ٢٥١
حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٢٥٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٥١ ـ ٢٧١
يَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٧١
لاَ تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ الْحَرَامِ....فِقْرَة ٣ ـ ٥: ٢٧٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٥٢ ـ ٢٨١
صِفَات الله تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٨١
الْأَئِمَّة قُوَّامُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٢٨٥
لِلمِنْبَرِ ـ الْإِسْلاَم سلاَمَة، وكَرَامة: ٢٨٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٥٣ ـ ٢٩٣
الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ...١ ـ ٣: ٢٩٣
سَيِّئَاتٌ لاَ تَنْفَعُ مَعهَا الْحَسَنَات... فِقْرَة ٤: ٢٩٨
٥ ـ (أَوْ يَلْقَىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ). ذُو الوَجْهِين يُثْنِي فِي ... ٣٠١
الْمَرْأَة زِينَةَ اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا: ٣٠٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٥٤ ـ ٣٠٣

الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٠٣
طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ..فِقْرَة ٣: ٣٠٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥٥ ـ ٣١٣
لِمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُول..فِقْرَة ١: ٣١٣
الْخَفَافِيش..فِقْرَة ٢ ـ ٤: ٣١٥
ٱلأدِلَّة عَلَىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ: ٣١٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥٦ ـ ٣٢٣
الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ... فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٢٣
لاَ إِيمَانَ بِلاَ عَمَلٍ: ٣٢٨
أَينَ الْفِتْنَة، وَالرِّدَّة..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٣٣٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥٧ ـ ٣٣٩
الْفَاجِرُ ذَلِيل..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٣٩
نَفْسَكَ تَشْهَد عَلَيْكَ..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٣٤٥
الضَّمِير: ٣٤٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥٨ ـ ٣٥١
سَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٥١
مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآن: ٣٥٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥٩ ـ ٣٥٧
أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ: ٣٥٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٠ ـ ٣٥٩

عَظَمَتُهُ تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٥٩
مَعْنَىٰ الْحَمْدُ الدَّائِم: ٣٦١
يَدَّعِي أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ...فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٣٦٣
فَلْسَفَة الْخَوْف والرَّجَاء: ٣٦٤
مُحَمَّدٌ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ...فِقْرَة ٦ ـ ٩: ٣٦٩
الدُّنْيَا وَمُحَمَّد...فِقْرَة ١٠ ـ ١٣: ٣٧٣
مِدْرَعَة الْإِمَام تَنصُ عَلَيْهِ: ٣٧٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦١ ـ ٣٨١
رَسُول اللهﷺ...فِقْرَة ١: ٣٨١
كُلّ مَنْ اَسْتسلَم لِلحَقِّ فَهُو مُسْلِمٌ: ٣٨٣
أَغْلَب نَفْسَكَ...فِقْرَة ٢ ـ ٣: ٣٨٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٢ ـ ٣٨٩
حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٨٩
سَلْمَان الْفَارِسْي وَالنَّقابَات: ٣٩٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٣ ـ ٣٩٥
لاٰ يُقَالُ لَهُ: «مَتَىٰ»؟...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٩٥
اَبنْ تَيْمِيَّة، والإِسْرَائِيلِيات: ٣٩٨
أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٣٩٩
الكَوْن، وَالنِّظَام: ٤٠٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٤ ـ ٤٠٩

شَرَّ النَّاسِ إِمَامٌ جَائِرٌ..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٤٠٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٥ ـ ٤١٧
الخَلْق العَجِيب..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤١٧
كُلّ مَا فِي الكَوْن عَجِيب: ٤١٩
جَنَاح الطَّاوُس وَذَنَبَهُ..فِقْرَة ٣: ٤٢٢
الطَّاوُسُ، وَالجِنْسُ..فِقْرَة ٤: ٤٢٤
كُلّ الأَلْوَان فِي الطَّاوُس..فِقْرَة ٥ ـ ١٠: ٤٢٦
ٱلْجَنَّة..فِقْرَة ١١ ـ ١٢: ٤٣٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٦ ـ ٤٣٧
اَعْقِلُوا عَنِ اللهِ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٣٧
يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ..فِقْرَة ٣: ٤٤١
الحَائِط الوَاطِيء: ٤٤٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٧ ـ ٤٤٥
حُرْمَة الْمُسْلِم: ٤٤٥
كَرَامَة ٱلإِنْسَان: ٤٤٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٨ ـ ٤٥١
أَمْسِكْ الأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ: ٤٥١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦٩ ـ ٤٥٥
سُلْطَان الإِسْلاَم: ٤٥٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٧٠ ـ ٤٥٩

الرَّائِدُ لا يَكْذِب أَهْلِهِ: ٤٥٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧١ ـ ٤٦١
دُعَاء: ٤٦١
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧٢ ـ ٤٦٧
الْإِمَام وَقُرَيْش...فِقْرَة ١: ٤٦٧
أَصْحَاب الْجَمَل...فِقْرَة ٢: ٤٧٠
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧٣ ـ ٤٨١
أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٨١
مَنْ هُو اَلْخَلِيفَة؟ ٤٨٢
الدُّنْيَا...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٤٨٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧٤ ـ ٤٩١
تَهْدِيد الْإِمَام بِالْحَرْبِ: ٤٩١
طَلْحَة، وَعُثْمَان: ٤٩٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧٥ ـ ٤٩٩
أَيُّهَا الْغَافِلُون: ٤٩٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٧٦ ـ ٥٠٥
النَّارَ وَالشَّهَوَاتِ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٠٥
الْقُرْآن وَفَنْ الْإِعْلاَن: ٥٠٧
الْقُرْآن...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٥١٠
اللِّسَان وَالاِسْتِقَامَة...فِقْرَة ٥ ـ ٦: ٥١٦

بَيْنَ الْعَقْل، وَاللِّسَان: ٥٢٠
الْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللهُ.. فِقْرَة ٧ ـ ٨ : ٥٢٢
التَّحْلِيل وَٱلتَّحْرِيم بَيْنَ الإِسْلاَم وٱلْمَسِيحِيَة: ٥٢٣
الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ..فِقْرَة ٩: ٥٢٩
لاَ إِسْلاَم مَع ظُلم: ٥٣٠
الْوِحْدَة الْوَطَنِيَة: ٥٣٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٧٧ ـ ٥٣٧
مَهْزَلَة الحَكَمَيْن: ٥٣٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٧٨ ـ ٥٣٩
الله، وَمُحَمَّد....فِقْرَة ١: ٥٣٩
الدُّنْيا..فِقْرَة ٢: ٥٤١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٧٩ ـ ٥٤٧
مِنْ صِفَاته تَعَالىٰ: ٥٤٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٨٠ ـ ٥٥١
أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٥١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٨١ ـ ٥٥٩
بُعْداً لَهُمْ: ٥٥٩
الخِرِّيت بن رَاشد: ٥٦٠
فَهْرَس الْمُوضُوعَات ٥

الخطبة

-١٢٢-

قَاتلُوا الآبَاء والأَبْنَاء .. فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فَقَالُوا مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَ مَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ، حَتَّىٰ أُكَلِّمَ كُلّاً مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَ نَادَىٰ النَّاسَ ، فَقَالَ أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَ أَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَ أَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عليه السلام :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً ، وَ غِيلَةً ، وَ مَكْراً ، وَ خَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا ، وَ أَهْلُ دَعْوَتِنَا ، اسْتَقَالُونَا وَ اسْتَرَاحُوا إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَ التَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ ، وَ بَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَ آخِرُهُ نَدَامَةٌ . فَأَقِيمُوا عَلَىٰ شَأْنِكُمْ ، وَ الْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَ عَضُّوا عَلَىٰ الْجِهَادِ بَنَوَاجِذِكُمْ ، وَ لاَ تَلْتَفِتُوا إِلَىٰ نَاعِقٍ نَعَقَ : إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَ إِنْ تُرِكَ ذَلَّ ، وَ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ ، وَ قَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا[1] . وَ اللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا ، وَ لاَ حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا . وَ وَ اللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ ، وَ إِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي ، مَا

فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ : فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَ إِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَىٰ ٱلْآبَاءِ ، وَ الْأَبْنَاءِ ، وَ الْإِخْوَانِ ، وَ الْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَىٰ كُلِّ مُصِيبَةٍ ، وَ شِدَّةٍ إِلاّٰ إِيمَاناً ، وَ مُضِيّاً عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَ تَسْلِيماً لِلْأَمْرِ ، وَ صَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الْجِرَاحِ . وَ لَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلاَمِ عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَ الاِعْوِجَاجِ ، وَ الشُّبْهَةِ ، وَ التَّأْوِيلِ . فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا ، وَ نَتَدَانَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ، رَغِبْنَا فِيهَا ، وَ أَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا[٢] .

اللُّغَة:

التَّنْفِيسُ : التَّفْرِيجُ . ونَعَقَ : صَوَّت . والمَضَضِ : الْأَلَم . ولَمُّ الشَّعَثَ : جَمع الشَّمل . وَنَتَدَانَىٰ : نتقارب .

الْإِعْرَاب:

حِيلَةً مَفْعُول من أَجله لرَفْعِهِم ، وما بَعْدَها عَطف عَلَيْهَا ، وٱلْمَعْنَىٰ حِين رَفعوا ٱلْمَصَاحِف حِيلَةً ، وَغِيلَةً ، وَمَكْراً ، وَخَدِيعَةً ، وإِخْوَانُنَا خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذوف أي هُم إِخْوَانُنَا ، والجُملة من المُبْتَدَأ والخَبَر مَفْعُول تَقولوا ، واللام في «لَئِنْ» للاِبْتدَاء ، وجَواب القَسم مَا وَجَبَتْ ، وإِيمَاناً تَمْيِيز .

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ عُشَّاق الكَرَاسِي:

(أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً ، وَ غِيلَةً ، وَ مَكْراً ، وَ خَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا ، وَ أَهْلُ دَعْوَتِنَا ، ٱسْتَقَالُونَا وَ ٱسْتَرَاحُوا إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَ

التَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ؟) كلّ من أَحبّ السُّلطة ، وتَمسك بِكُرسِي الحُكْم فإِنَّه يَحتال ، ويغتَال ، ويَغدر ، ويَمكر ، ولو وَاجه موقِفاً يَفرض عَلَيْهِ أنْ يُضحي بالمُنصف لَمصلحَة الوَطن ، أو يُضحي بالوَطن لَمصلحَة الكُرسِي لآثر هَذِه علىٰ تِلك ... ومُعظم زُعماء العَالم مِن هَذَا النَّوْع ، وسَيّدهُم مُعَاوِيَة ، وإذَنْ فَلا يَدع أنْ يَنشر علىٰ المِنْبَر ، حِيلَةً ، ومَكْراً ، قَميص عُثْمَانَ ، وأَصَابع زَوجته نَائلة ، وأنْ يَرفع ٱلْمَصَاحِف في صِفِّين غِيلَةً ، وَخَدِيعَةً ، وأنْ يَدس السُّم في العَسل لِلْإِمَامِ الحَسَن ، والأَشْتَر ، وعبدٱلرَّحْمَان بن خَالد بن الوليد ، ثُم يَقُول : إنّ لله جنوداً من عَسل .

وَتَقول : أَجْل ، من يَتمسك بالكُرسِي يُضحي من أجْلِها بالمَلايِين ، ولكن مَا الدَّلِيل أنّ مُعاوِيَة كَذَلِكَ ؟

الجَوَاب:

ٱلأَدِلَّة كَثِيرة ، ومِنْهَا علىٰ سَبيل المِثال :

١ ـ حَارب مُعَاوِيَة عَلِيّاً تَحت رَايَة قَميص عُثْمَانَ ، والمُطالبة بدَمه ، وٱلْقِصَاص مِن قَتَلته ، ولمّا حَكم وسَيطر لَم يُفكر في ذَلِكَ ، ولَم يَلتفت إِلَيْهِ إطلاقاً حَتَّىٰ كأنّ عُثْمَانَ لَم يُقتل ... قَالَ الْعَقَّاد : «مُعَاوِيَة أنْكرَ عَلىٰ عليّ بَيعته لأنّه لَم يُسلّمه قَتَلَة عُثْمَانَ ، وآلَ الْأَمْر كُلّه بَعد حِين إِلىٰ مُعَاوِيَة يَصنع بهَؤُلَاء ما يَشاء ... ولَكِنَّهُ كَان يَلقىٰ الرَّجُل مِنْهُم فلاَ يَزيد علىٰ قَوْله : ألستَ من قَتَلَة عُثْمَانَ ؟ ثُم يَصرفه في أَمان ، وقَد يَسكت عن سؤاله ، ويَصرفه مُزوداً بالْعَطَاء»[1] .

(١) أُنظر ، كتابه الموسوم بـ(مُعَاوِيَة اَبن أبِي سُفْيَانَ : ٩٢ طَبع بمطَابع مؤسسة دَار الهِلال.

وَقَالَ الأستاذ عَبدالكَرِيم الخَطِيب: «إنّ عَائِشَةَ ٱبنة عُثْمَانَ طَلبت من مُعَاوِيَة أنْ يقتص من قَاتلِي أَبيها، فَقَالَ لَهَا: لأنْ تكونِي ٱبنة عَمّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ خَير مِن أنْ تَكوني إمْرَأَة مِن عَرض النَّاس»[1].. ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ المُطالبة بدَم عُثْمَانَ ذَرِيعَة لأنْ يَكُون مُعَاوِيَة «أَمِير المُؤْمِنِينَ» وقدكَان وصَار، وإذَنْ لمَاذا المُطالبة بدَم عُثْمَانَ؟ وهَكذا نَقضَ مُعَاوِيَة بَعد ٱلخِلَافَة مَا كَان قَد أبرَمَه وحَارب من أجْله قَبل ٱلخِلَافَة... ولا يَأس مَا دَامت الْغَايَة تُبرر الوَاسطة... لقد سَبق مُعَاوِيَةُ بِمِئات السِّنين «ميكيافيللي» الّذي قَالَ: كلّ الوَسَائِل صحيحة، وخَيرة ما دَامت تُؤَدِّي إلىٰ بلُوغ المَطلوب، وتَحقِّيق الْغَايَة الْفَرْدية بصَرف النَّظر عن الدِّين، والمبَادىء، والقَوَانِين.

٢ ـ كَتب مُعَاوِيَة إلىٰ الإمَام أنْ يُبَايعَه، ويُسلّم لهُ الأَمْر شَرِيطَة أنْ تَكون الشَّام ومِصْر طُعمَة لهُ، فأبىٰ عَلَيْهِ ذَلِكَ...[2] أَراد مُعَاوِيَة أنْ يُمثل دَور ٱبن العَاص عَلىٰ أنْ يَكُون عَليّ بن أبي طَالب مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ... ولمّا أَخفق ٱنضم إلىٰ شَاكلته، وتَلاحم التّوأمان... قَالَ الْعَقَّاد: «قَالَ عَمْرُو بن العَاص لمُعَاوِيَة: أترىٰ أننا خَالفنا عَلِيّاً لفضلٍ منا علينا؟ لا والله. إنْ هِي إلّا الدُّنْيَا نَتكالبُ عَلَيْهَا، وأيمَ الله لتقطعن لِي قُطعة من دُنْيَاكَ وإلّا نَابذتك... وعلىٰ هَذِه الخِطة المَكشوفة بَدأت المُعَامَلَة بَيْنَ الرَّجُلِين»[3]. وَقَالَ «فلهوزن»: (إنّ تَحَالف عَمْرُو ومُعَاوِيَة أَشبه مَا يَكُون بِالتَّحَالف

---

(١) أُنظر، عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوّة، وخَاتَم ٱلخِلَافَة للأستاذ عبدالكريم الخَطيب: ٣٦٤ وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلَاغَة لِابن أبي ٱلحَديد المُعْتَزلي: ١/٢٥٠ الطّبعة القَدِيمَة. (مِنهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، كتابه الموسوم بـ(مُعَاوِيَة ٱبن أبي سُفْيَانَ: ٣٤ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

بَيْنَ الصِّبيَة الأشْقِياء)[1].

٣ ـ قَالَ ٱبن الأثير: «قَالَ سعد بن أبي وَقَّاص لمُعَاوِيَة: السَّلام عَـلَيْكَ أيّهـا المَلك. فسأله مُعَاوِيَة: لمَاذا لا تَقول: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ؟ فَـقَالَ سَـعد: واللهِ أنّي مَـا أُحبّ أنْ وَلِيتَها بمَا وَلِيتَها»[2]. أي أنّ سعداً لا يَطلب ٱلخِلاَفَة بالْغَدْر والمَكر كمَا فعل مُعَاوِيَة. هَذِه هِي سِياسة مُعَاوِيَة: ٱنتهَاب الفُرص، وٱستغلاَل الظّرُوف.. ولتّطبق الدُّنْيَا علىٰ أَهْلها.

(فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَ بَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَ أَوَّلُهُ رَحْـمَةٌ، وَ آخِـرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَىٰ شَأْنِكُمْ، وَ ٱلْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَ عَضُّوا عَلَىٰ الْجِهَادِ بَنَوَاجِذِكُمْ) إنّ تَأرِيخ الشُّهداء هو تَأرِيخ الْعَقِيدَة بالذّات. وَهِي وحدها أَساس الْجِهَاد وفَلسفته، ومِن أَجْل هَذَا ما حَاول النَّبِيّ ﷺ قطّ أنْ يَحمل أحداً علىٰ الْجِهَاد إلّا بوازع الدِّين الضَّمِير، وكَذَلِكَ كَان الْإِمَام: وبهَذا الوَازع ٱنحَاز إِلَيْهِ من ٱنحار في صِفّين، ومُعَاوِيَة يَعْرِف هَذِه الْحَقِيقَة، ولذَا رَفع ٱلْمَصَاحِف حِيلَةً، وغِيلَةً، ومَكْراً، وخُدَاعاً، وأَعلَن الْإِمَام ذَلِكَ لأَصْحَابه، وَقَالَ، لهُم: لا تُصدقُوا مُعَاوِيَة... إنّه يَغْدِرُ، وَيَفْجُرُ، وَيَنْعَق بالْكَذِب والضَّلال، فإذَا أجْبتمُوه أضلكُم عن الْهُدَىٰ وسواء ٱلسَّبِيل[3]... ولَكِنَّهُمْ

---

(١) أُنظر، تَأرِيخ الدّول العَربِيَّة: ٩٦.

(٢) أُنظر، الكَامِل في التَّأرِيخ: ٣/ ٢٠٥ طَبْعَة ١٣٥٦ هـ. (مِنْهُ ﷺ)، ومثل ذَلِكَ قَالَ له سعد بن مالك كما ذكر اليعقوبي في تَأرِيخه: ٢١٧/٢، مروج الذهب: ٢ /٣١٧، علل الشرائع: ١ / ٢٢٠، العقد الفريد: ٣ / ١٣١، تَأرِيخ البديع: ورق ٢١٦ مخطوط، أمالي الشيخ الطوسي: ١ / ١٧٤.

(٣) وَقْفَةٌ مَع رَفع ٱلْمَصَاحِف:

أَطبق المؤرّخون وأهْل السِّير علىٰ أنّ الجَيْش الإِسْلاَمي العَلوي قَد ٱقترَب مِن الفَتح ولاَح لهُم النَّصر،

↩ والظَّفر وتوجّه الخطر إلىٰ مُعَاوِيَة، وأصحابه، وهَذَا مَا بيّنه الإِمَام عَليّ عليه السلام في خُطْبَته ٱلَّتي ذَكرها صَاحب وَقْعَة صِفِّين: ٤٧٦ وفيها: أيّها النّاس، قَد بَلَغ بِكُم الأَمر وبِعَدُوِّكم مَا قَد رَأَيْتُمْ، ولَمْ يَبْقَ مِنهُم إلاّ آخر نَفَس، وإنَّ الأُمُور إذَا أقْبلت أُعتبرَ آخرها بأوّلها، وقَد صَبر لَكُم القَوْم عَلىٰ غَيْر دِينٍ حَتَّىٰ بَلغْنا، وأنَا غَادٍ عَلَيهِم بِالغَداة أُحَاكمهُم إلىٰ الله عزّ وجلّ.

ولَمْ يَستطع مُعَاوِيَة المُقَاومة إلاّ عن طَرِيق الخُدعَة والمكر، فٱستعَان بِعَمْرُو بن العَاص ـ كما أشرنا سَابقاً ـ فأمر مُعَاوِيَة أصحَابه في جُوف اللَّيْل أنْ يَربطوا المـصَاحِف عَلىٰ رُؤُوس الرِّماح، وأَصْبَحَ الصَّـباح وإذَا بِأَهْل العرَاق يُشاهدُون خَمسمئة مصحف عَلىٰ رُؤُوس الرِّماح، وأَهْل الشَّام يُنادُونَ... ويَستعطِفُون أَهْـل العرَاق ويَطلبُون مِنهُم تَرك الحَرْب وقَالُوا: هَذَا كتَاب الله عزّ وجلّ بيننَا وبَيْنَكُمْ. وفِي هَذَا قَالَ النَّجاشي:

فَأَصْبَحَ أَهْل الشَّام قَد رَفعُوا القَـنا ... عَـليها كِـتَاب الله خَـير قُـرانِ

ونَـادُوا عَـلِيّاً: يَاٱبْـن عَـمّ مُحَـمّد ... أمَـا تَـتقِي أنْ يَهـلك الثَّـقلانِ

أُنظر، كتَاب الخَيْل لأبي عُبَيْدَة: ١٦٢ وبَعْض أبيَات هَذِه القَصِيدة، ورواها ٱبن الشَّجري في حَمَاسته: ٣٣، وأنظرها في وَقْعَة صِفِّين: ٥٢٤ ـ ٥٢٦، وأقبل عديّ بن حَاتم فَقَالَ: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، إنْ كَان أهلُ البَاطِل لا يَقُومُون بأهل الحَقّ فإنّه لَم يُصَب عُصبةٌ مِنّا إلاّ وقَد أُصِيب مثلُهَا مِنهُم، وكَان مَقرُوح....

وَقَالَ الأَشْتَر: يَا أمير الْمُؤْمِنِينَ، إنّ مُعَاوِيَة لا خَلَف لهُ من رِجَاله، ولَك بحمد الله الخَلَف، ولو كَان لهُ مثلُ رِجَالك لَمْ يَكُن لهُ مثلُ صَبرِك ولا بَصَرِك، فٱقرَع ٱلْحَدِيد بِٱلْحَدِيد، وٱستَعن بالله الحَمِيد....

ثُمّ قَالَ عَمْرُو بن الحَمِق: يَا أمير الْمُؤْمِنِينَ، إنّا والله ما أجبنَاك ولا نَصرنَاك عَصبِيةً عَلىٰ البَاطِل ولا أجبْنا إلاّ لله عزّ وجلّ ولا طَلَبنَا إلاّ الحَقّ.....

لكن الأَشعَث بن قَيس قَالَ: يا أمير الْمُؤْمِنِينَ، إنّا لَك اليوم عَلىٰ ما كُنّا عَلَيْهِ أَمس، ولَيْس آخر أمرنا كأوّله. ومَا مِنَ الْقَوْم أحدٌ أحْنَىٰ عَلىٰ أهْل العرَاق ولا أوْتَر لأَهْـل الشَّـام مـنّي، فأجِب الْقَوْم... فـقَال عَليّ عليه السلام: إنّ هَذَا أمرٌ يُنتظر فِيهِ... وكَانَ الأَشعَث وهُو المُسوَّد من كِندة فإِنّه لَم يَرض بالسُّكُوت بل هُو من أعظم النّاس قولاً في الرّكُون إلىٰ المُوادعة، وأمّا كَبشُ العرَاق وهو الأَشْتَر فَلم يَكُن يرىٰ إلاّ الحَرْب ولكنّه بَعد كلّ ٱلَّذي ذَكرناها من أنّه يُرِيد فوَاق نَاقة أو عَدو الفَرس فإِنّه سكَت عَلىٰ مَضَض، وأمّا سَـعِيد بـن قَيْس، فتَارةً هَكذا وتَارة هَكذا.

أمّا عَليّ عليه السلام فقَال: إنّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَىٰ مَا أُحِبُ حَتَّىٰ نَهِكَتْكُمُ الْحَـرْبُ، وَقَـدْ، وَاللهِ أَخَـذَتْ ↩

⇐ مِنْكُمْ، وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُونَ.

ثُمّ قعد، وتكلّم رؤساء القبائل... من رَبِيعَة كردوس بن هانئ البَكري فَقَالَ: أيُّها النّاس، إنّا والله ما تولّينا مُعَاوِيَةَ منذ تبرّأنا مِنْهُ، ولا تبرّأنا مِن عَليٍّ منذُ تولّيناه، وإنّ قَتْلانا لَشُهداء، وإنّ أحياءَنا لأبرار، وإنّ عَلِيّاً لَعلىٰ بَيِّنَة من رَبِّه، ما أحدث إلّا الإنْصَاف، وكلّ مُحقٍّ مُنْصِف، فمن سَلَّم لهُ نَجا، ومَنْ خَالَفَه هَلك...

ثُمّ قَام شقيق بن ثور البكريّ فَقَالَ: أيّها النّاس، إنّا دَعونا أَهْل الشّام إلىٰ كتاب الله فردّوه علينا فقاتَلْناهُم عَلَيْهِ ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ وقد أكلتنا هَذِه الحَرْب ولا نرىٰ البقَاء إلّا في الموادَعة....

ثُمّ قَام حُرَيْث بن جابر البَكري فقَال: أيُّها النّاس، إنّ عَلِيّاً لو كَان خَلْفاً من هَذَا الأَمر لكَان المَفْزَع إليه، فكيف وهو قَائدُه وسَائقُه، وإنّه والله ما قَبِل من القَوْم اليوم إلّا ما دَعاهُم إليهِ أمسِ، ولو ردّه عَليهم كُنتم لهُ أعْنَت، ولا يُلحد في هَذَا الأَمر إلّا رَاجعٌ عَلىٰ عَقبيه أو مُستدرَجٌ بغرُور، فمَا بيننا وبَيْنَ من طَغَىٰ علينا إلّا السَّيْف....

ثُمّ قَام خالد بن المُعمّر فقَال: يا أمير المُؤمِنِينَ، إنَّا والله ما اخترنا هَذَا المقَام أنْ يَكُون أحدٌ هو أَوْلَىٰ بِهِ منّا، غَيْر أنّا جَعلناهُ ذُخْراً... فإنّا لا نرىٰ البقَاء إلّا فيمَا دَعاكَ إليهِ القَوْم....

ثُمّ إنّ الحُصين الرّبعي وهو أصغَر القَوْم سِنّاً قَام فقَال: أيّها النّاس، إنَّما بُنِي هَذَا الدِّين عَلىٰ التّسلِيم فَلا تُوفّروه بالقِيَاس ولا تَهدمُوه بالشّفقة ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ وإنّ لنَا دَاعياً قَد حمِدنا ورِدَه وصَدَرَه، وهو المُصدَّق عَلىٰ مَا قَالَ: المَأمُون عَلىٰ مَا فَعل، فإنْ قَالَ: لا، قُلنا: لا، وإنْ قَالَ: نَعم، قُلنا: نَعم... وبَلغ مُعَاوِيَةَ ذَلِكَ فَبعث إلىٰ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة فقَال: يَا مَصْقَلَة، مَا لقيتُ مِن أحدٍ مَالقيتُ من رَبِيعَة... فَبعث مَصْقَلَة إلىٰ الرّبعيِّين شِعراً... وَقَالَ النّجاشي شِعراً... وَقَالَ خَالد بن المُعمّر شِعراً... وَقَالَ الصَّلْتَان شِعراً... وَقَالَ حُرَيْث شِعراً... وَقَالَ رفَاعة بن شداد كلاماً وشِعراً...

والسّؤال الّذي يَطرح نَفْسَه هو: مَن هُو المَظلُوم فِي وَقْعَة صِفِّين ومَا سَبَقهَا ومَا بَعدها؟

والجَوَاب يوضحه قَول الرّسول ﷺ كما ورد في عُيُون أخبار الرّضا: ١/٢٣٦ الباب ٢٧ ح ٦٣ عن الحُسَيْن بن عَليّ عليه السلام قَالَ: قَالَ: رَسُول الله ﷺ: يَا عَليّ، أنتَ المَظلومُ مِن بَعدي، فَويلٌ لِمَن ظَلمك واعتدىٰ عَلَيْكَ، وطُوبىٰ لِمَنْ تبعك ولَم يَختر عَلَيْكَ. يَا عَليّ، أنت المُقَاتَل بَعدي، فويلٌ لِمَنْ قَاتَلك، وطُوبىٰ لِمن قَاتل مَعك.

⇐

↔ لَم يُحدّثنا التّأريخ عَن مَظلوم غُصب حَقّه كـالإمَام عَـليّ عليه السلام وهَـذَا مَـا وَرد فِي تَـفْسِير الدُّر المـنثُور للسّيوطي: ٢/ ٢٩٨. نَعم، لقَد صَبر عليه السلام وتَحمّل كلّ المظَالم والمشَاق لأجل بقَاء الإسْلاَم والقُرآن والحفَاظ عَلىٰ وَحدة الأمّة مِن التّشتّت والتّمزّق. وهَا هُو يَقُول: فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا وَقَالَ عليه السلام أيضاً: لقد ظُلمتُ عَدَد الحَجَرِ، وَالمَدَرِ. ولسنَا بِصَدد بيَان كلّ الأحَادِيث الوَاردة بِهَذا الخصُوص بل نُحيل القَارئ الكَرِيم إلىٰ المصَادر التّالية:

سَفِينَة البحار: ٢/ ١٠٨ مَادّة «ظلم»، الشّافي في الإمَـامة للسّـيّد المُـرتضىٰ: ٣/ ٢٢٣، و: ٤/ ١١٤، التّأريخ الكَبِير: ١/ق ٢/ ١٧٤ طَبْعَة حيدر آباد، الخَرايج والجَرائح للرّاوندي: ١/ ١٨٠ نشر مـؤسّسة الإمَام المَهدي عليه السلام، المُسْتَدرَك: ٣/ ١٤٢، البحار: ٢/ ٢١ و ٦٠، و: ٢٨/ ٤٥ و ٧٦، و: ٤٠/ ١٩٩، و: ١٠٠/ ٢٦٥، شَرح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٣/ ٣٠٠، وشرح النَّهج لِلفِيض: ٨٣ خُطْبَة ٢٦، وشَرح النَّهج للعلاّمة الخُوئي: ١/ ٤٥٨ و٥٦٩، و: ٣/ ٣٧٣، العقد الفريد: ٤/ ٢٥٩، كتاب سُليم بن قَيْس: ٢٥ و٩٦ و٩٧، الإمَامَة والسِّيَاسَة: ١/ ١٣، تَفْسِير العيّاشي: ٢/ ٣٠٧، مرآة الْعُقُول: ٥/ ٣٢١، الكَـامِل في التّأريخ: ٢/ ٢١٩، تأريخ الطَّبَري: ٣/ ٢٩٤.

أمّا بخصوص مَعْرَكة صِفّين فانظر شَرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/ ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٠ وما بَعدها ولذَا قَالَ الشّارح المُعْتَزِلي: عن أبي جعفر: ثُمّ قَام الطّفيل بن أدهم حِيال عَليّ عليه السلام وقَام أبو شُرَيْح الجذامي حِيال المَيْمَنَة، وقَام ورقاء بن المعمّر حِيال الميسرة، ثُمّ نادوا: يَا معشر الْعَرَب: الله الله في النّساء، والبنَات، والأبْنَاء من الرّوم، والأترَاك، وأهْل فَارس غداً إذَا فَنِيتم.... فأختلف أصحَاب عَليّ عليه السلام في الرّأي فطَائِفَة تَقول الْقِتَال، وأُخرىٰ تَقول المُحَـاكـمة إلىٰ الكـتَاب...لكـن الأَشْتَر كَـان يَـقُول: أصـبرُوا فـقَد حَـمي الوَطيس...وقَد خَالف الأشْعَث في جيش عليّ عليه السلام حين الظّفر، والفَتح...وأستغلّ مُعَاوِيَة الْفُرْصَة وَقَالَ: اربطوا الْمَصَاحِفَ علىٰ أطْرَاف القَنا...والإمَام عَليّ عليه السلام يُطلع جَيْشَه عَـلىٰ حِـيلَة مُـعَاوِيَة وعَـمْرُو لكـن أصحَاب الجبَاه السّود يَتقدّمهم مسعر بن فَدَكي...ومَعهُم زُهاء عشرين ألفاً مُقنّعين بٱلحَدِيد... وقَـالُوا: أبعث إلىٰ الأَشْتَر ليَأتِينك...وقَد أشرَف الأَشْتَر عَلىٰ عَسكر مُعَاوِيَة ليُدخله...فأرسل إليهِ الإمَام عَليّ عليه السلام أنْ يَرجع.

ثُمّ أنظر إلىٰ خِطْبَته عليه السلام الّتي يُبيّن فيها مَظلوميته وتثاقل أصحَابه كما وَردت في شَرح النّهج لِلفِيض: ٨٥ الخُطْبَة ٢٧، و: ١٠٧ الخُطْبَة ٣٥، و: ٢٧٥ الخُطْبَة ٩٦، وأنظر وَقْعَة صِفّين: ٤٨٠ ـ ٤٩٤، تَأْرِيخ الطَّبَرِيّ:

↔

أعرضوا عن دَعْوَة الْحَقّ، وآستجابوا للخدَاع والضّلال، ولمّا كشفت الدَّعْوَة الخَادعة عن أسرارها قَامت قِيامة الْخَوَارِج، وقَالُوا لِلْإِمَامِ: أَخطأت.. فذكرهُم بِتحذِيره، ولكن أبوا إلّا هَكذا كما هو شأن المَارق المُعاند.

(وَ اللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَ لاَ حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا. وَ وَ اللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ، وَ إِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ). الضّمير فِي أَبَيْتُهَا يَعود إِلىٰ الْحُكُومَة، وٱلْمَعْنىٰ لَيْسَت الْحُكُومَة واجبَة ولا بِمُحرمة، ومَن قَبلها يَجوز له العدُول عَنْهَا، وإذَنْ فلِلْإِمَامِ أَنْ يَقبلها وأَنْ يَرفضها، بل له أَنْ يقبلها ثُمّ يَردها، وبالعَكس حَسبما يَقتضِيه واقع الحَال، ولا خِلاف بَيْنَ ٱلْمَذَاهِب أنّ تَصرف الوَلِي مَنوط بالْمَصْلَحَةِ وجُوداً وعَدَماً.. وقد روىٰ السُّنَّة عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّه أَحَل الْمُتْعَة، ثُم حَرمها، بل قَالَ الشَّافعي: لا أَعلم شَيْئاً أَحله الله ثُم حَرمه، ثُم أَحله، ثُم حَرمه إلّا الْمُتْعَة... نقل هَذَا عَنْه آبن قُدَامَة[1].

⇔ ٢٧/٦، وشَرح النَّهج لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ١/١٨٦ ـ ١٨٨، الْإِصَابَة: ٨٨٤٩ فيها تراجم بَعض المُعترضِين، والمعَارف: ٤١ ـ ٤٢، وخزانة الأدب: ٤٦٢/٣ وفيها بَعض الأشعار، وكَذَٰلِك الأصمعِيات: ٤٣ ـ ٤٥، والْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١٨٦/٢ ـ ١٨٨ ومَا بعدها، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣١٦/٣، وتَارِيخ الطَّبَرِيّ: ٣٥/٤ ومَا بعدها طَبعَة أُخرىٰ، الْأَخْبَار الطِّوَال: ١٨٩.

(١) أُنظر، الْمُغْنِي: ٦/ ٦٤٥ الطَّبعة الثَّالِثة. (مِنْهُ ﷺ).

وهنا حَقِيقَة يجهلها الكَثِيرُون فقد آتفق الشيعة والسُّنَّة: علىٰ أنّ نكاح الْمُتْعَة كَانَ حَلاَلاً بِحُكم الرَّسُول، وأَنّ ٱلْمُسْلِمِينَ تَمتعوا في عَهْدِه، ولَكِنَّهُمْ آختلفوا في ثبوت النَّسخ.

فَقَالَ السُّنَّة: إِنّ الْمُتْعَة نُسخت، وحُرمت بعد أنْ كَانَتْ حَلاَلاً.

أُنظر، التَّفْسِير الْكَبِير للفخر الرّازي: ٤٩/١٠، أَحْكَام ٱلْقُرْآن للجصاص: ١٧٨/٢، روح الْمَعَانِي للآلوسي: ٧٠/٢، شرح النّووي علىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٧٩/٩، صَحِيح مُسْلِم: ١٣١/٤، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ⇔

وإذَا صَحّ هَذَا في الْمُتْعَة صَحّ في غَيْرِها بطريق أَوْلَىٰ، وفي سَائر الأَحْوَال فإنّ الإمَام أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام هو الحَقّ، وعلىٰ النَّاس أنْ يَسْمعُوا، ويَطِيعُوا الحَدِيث: «عَلِيّ مَع الحَقّ، والحَقّ مَع عَلِيّ». ومن الَّذِين رووه التِّرمِذي في صَحيحه، والحَاكِم

⇐ ١٢/٥، الخِلاَف: ٣٤٠/٤، الكَافِي: ٣٧٢/٤، من لا يَحضره الْفَقِيه: ٢٣٠/٢، التّهذيب: ٣٢٨/٥، جامع المقاصد: ٧/١٣، ومابعدها.

وَقَالَ الشّيعة: لم يثبت النّسخ، كَانَتْ حَلاَلاً ولَم تَزل كَذَلِكَ إِلىٰ يَوْم الْقِيَامَة. وممَّا أستدل به الشّيعة الآيَة: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، وما رواه مُسْلِم في صحيحه «أستمتع الأصحاب في عهد رسول الله، وأبي بَكْر، وعُمَرَ».

أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ١٠٢٣/٢، الإِصَابَة: ٦٣/٢، الموطأ: ٥٤٢/٢، سُنن النّسائي: ٦٧/٦، كنز الْعُمَّال: ٥٢٠/١٦.

وزواج الْمُتْعَة زواج إِلىٰ أَجل معين، وهو عند الشّيعة كالزّواج الدّائم لا يتم إلّا بعقد صَحِيح دال علىٰ قصد الزّواج صراحة، وكلّ مقاربة تحصل بَيْنَ رجل، وإمْرَأَة من دُونَ عقد، فلا تكون مُتعة حَتَّىٰ مع التّراضي، والرَّغبَة، ومتىٰ تَم العقد كَانَ لازماً يَجب الوفاء به.

ولا بُدّ في عقد الْمُتعَة من ذكر المهر، وهو كمهر الزَّوْجَة الدّائمة، لايتقدر بقلة، أو كثرة، ويسقط نصفه بهبة الأَجَل، أو أنقضائه قبل الدّخول، كما يسقط نصف مهر الزَّوْجَة الدّائمة بِالطَّلَاقِ قبل الدّخول.

وعلىٰ المتمتّع بها أنْ تَعتد بعد أنقضاء الأَجَل كالمُطلقة، سوىٰ أنّ الْمُطَلَّقة تعتد بثلاثة أشهر، أو ثلاث حيضات، وَهِي تعتد بحيضتين، أو خمسة وأَرْبَعِين يوماً، أمّا عدة الوفاة فأَرْبَعَة أشهر، وعشرة أَيَّام كالزَّوْجَة الدّائمة، سواء حصل الدّخول، أو لم يحصل.

ووَلَد الْمُتْعَة وَلَد شَرعي، له جميع ما للأَوْلاَد الشّرعيين من غَيْر أستثناء لحقّ من الحقوق الشَّرْعِيَّة، والأَخلاقية.

ولا بُدّ في الْمُتعَة من أجل معين، يذكر في متن العقد، ولا ترث الزَّوْجَة المتمتع بها من تركة الزّوج، ولا تَجب لها النّفقة علىٰ الزّوج، والزَّوْجَة الدّائمة لها الميراث والنّفقة، ولكن للمتمتّع بها أنْ تشترط علىٰ الزّوج ضمن العقد النّفقة والميراث، وَإِذَا تمّ هَذَا الشّرط كَانَتْ الزَّوْجَة من الْمُتعَة كالزَّوْجَة الدّائمة.

أُنظر، من لا يحضره الْفَقِيه: ٢٩٧/٣، الكَافِي: ٤٦٥/٥، الوَسَائِل: ٤٤٢/١٤، الإِسْتبصَار: ١٥٠/٣، التّذكرة: ٦٤٦/٢.

فِي مُستدكه «بَاب فَضَائِل الْإِمَام»[١].

(فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَىٰ الآباءِ ، وَ الْأَبْنَاءِ ، وَ الْإِخْوَانِ ، وَ الْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَىٰ كُلِّ مُصِيبَةٍ ، وَ شِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً ، وَ مُضِيّاً عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَ تَسْلِيماً لِلْأَمْرِ ، وَ صَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الْجِرَاحِ) . إذَا كَانَ صَاحب الْعَقِيدَة يُضحي بنَفْسِه من أجْلها فبالأحرىٰ أنْ يُضحي بولدِهِ ، ووالده للذَّب عَنْهَا . . هَـذَا ، إلىٰ أنّ ٱلْإِسْلاَم أَمر بجهَاد الظَّالِم قَريباً كَانَ أم غَريباً ، إنّ التّسَامُحَ ، والغُفران جَائِز فِي كُلِّ شَيء إلّا في حَلال الله ، وحرَامه[٢] .

(وَ لَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلاَمِ عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَ الاِعْوِجَاجِ ، وَ الشُّبْهَةِ ، وَ التَّأْوِيلِ) ٱتفقت ٱلْمَذَاهِب الإسْلاَمِيّة قَولاً واحداً علىٰ أَنّه إذَا ٱقتتلت طَائِفتَان من ٱلْمُسْلِمِين فَعَلىٰ الَّذِين لَيْسَوا طَرفاً فِي النِّزاع أنْ يُصلحوا بَيْنَهما ، فإنْ أصرَت الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ علىٰ موقفها وَجَبَ رَدعها بالْقُوَّة عَملاً بقَوْله تَعالىٰ : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

(١) أُنظر ، جامع التِّرمِذي : ٢١٣/٢ ، صَحِيح التِّرمِذي : ٢٩٧/٥ ح ٣٧٩٨ و : ١٢٦/١٢ ، المُستَدرَك : ١٩/٣ و ١٢٤ ، التَّفْسِير الْكَبِير للفخر الرّازي : ٢٠٥/١ ، فيض القدير : ٣٥٦/٦ ، مَجْمَع الزّوائد : ٢٣٥/٧ و : ١٣٤/٩ ، تَأرِيخ بغداد : ٣٢١/١٤ ، الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ٧٨/١ ، شرح الأَخْبَار للقاضي النّعمان المغربي : ٦٠/٢ ، ربيع الأبرار للزمخشري : ٨٢٨/١ ، فرائد السّمطين : ١٧٧/١ ح ١٣٨ ، المناقب لِابْن المغازلي : ١١٧ و ٢٤٤ ، العقد الفريد : ١٠٨/٣ الطبعة الثالثة ، تَأرِيخ أبن عساكر ترجمة الإِمَام علِيّ : ١١٩/٣ ح ١١٦٢ و : ٤٤٩/٤٢ ، كنز العُمَّال : ٦٠٣/١١ ح ٣٢٩١٢ ، أنْسَاب الأَشْرَاف : ٢٨١/٢ الطبعة الأُولىٰ ، فضل آل البَيْت للمَقْرِيزي : ٦٠ ، جواهر المطالب في مناقب الإِمَام عليّ لِابْن الدِّمَشْقِي : ٣٤٣/١ ، الملل والنّحل : ١٠٣/١ ، دَلاَئِل الصِّدْق للشّيخ مُحمّد رِضا المُظفر : ٢٥٣/١ ، طَبْعَة القاهرة ١٣٩٦ هـ.

(٢) أُنظر ، شَرح ٱلخُطبَة : ٤٧٧/١ ٱلْخُطْبَة (٥٦) من هَذَا الكتاب (مِنْهُ ﷺ).

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[١]. ثُمّ ٱختلف عُلَمَاء ٱلْمَذَاهِب فِي أنّ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ الّتِي أصرّت علىٰ الْبَغْي، ووَجَبَ قتَالها للرّدع: هَل تَخرج ذَلِكَ عن دِين الْإِسْلاَم؟. والصَّحِيحَة إنّ مَن أَصَرّ عَلىٰ الْبَاطِل لشُّبهة دَخَلْت عَلَيْهِ فَهُوَ مُسْلِم، له ما لِلمُسْلِمِين، وعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ إلاّ إذَا نَصب العِداء لأَهْل ٱلْبَيْت ﷺ لأنّه فِي ذَلِكَ يُعاند ٱلْقُرْآن فِي قَوْله الصَّرِيح: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢] والْأَحَادِيث الكَثِيرَة المُتواتِرة. ولأنّ الْحُدُود تُدرأ بالشُّبهات عَبّر الْإِمَام عَن الَّذِين دَخَلْت عَلَيْهِمْ الشُّبهة من أَهْل الشَّام، عَبّر عَنهم بقَوْله: «إِخْوَانَنا فِي الْإِسْلاَمِ». وأشَار إِلىٰ السَّبب المُوجب لهَذه الأُخُوّة بكلاَمة «وَالاِعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ، وَالتَّأْوِيلِ». أمّا الَّذِين يُنْكِرون الْحَقّ عِناداً وبلا شُبهة فلاَ رَيب فِي كُفرهم، وخرُوجهم عن دِين الْإِسْلاَم. (فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَ نَتَدَانَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَ أَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا) أي الْإِمَام يَكف عن قِتَال من يأمل بِهِ الْخَيْر، ويَرجُو فِيهِ الصَّلاح، والْمُرَاد بقَوْله: (وَ نَتَدَانَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَقِيَّة) إنّ الْبَاقِيَة من إسْلاَم الَّذِين حَاربُونا هِي كَلِمَة لا إله إلّا الله مُحَمّد رَسُول الله، ونَحْنُ نَتقَارب إِلَيْهِمْ بهَذه الكَلِمَة فيهَا لا فِيهِمْ، ونُمسك عن غَيْرها من أَفعالِهِم بِشَرط أنْ يَتركوا الْبَغْي، والْعُدْوَان، وإلّا ٱرْتَفعت عَنهم الحصَانَة، وإنْ نَطقوا بالشَّهادتِين.

---

(١) ٱلْحُجُرَاتِ: ٩.

(٢) ٱلشُّورَىٰ: ٢٣.

الخطبة

-١٢٣-

أَكْرَمُ الْمَوْتِ الْقَتْلُ:

وَ أَيُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَ رَأَىٰ مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاٰ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَ لاٰ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَ الَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَىٰ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ! وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ: لاٰ تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَ لاٰ تَمْنَعُونَ ضَيْماً. قَدْ خُلِّيتُمْ وَ الطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَ الْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ.

اللُّغَة:

جَأْش قَلْبُهُ: ٱضْطرَب. ورَبَاطَةَ الجَأْش: شِدَّتِهِ، وقُوَّتِه. والنَّجْدَة: الشَّجَاعَة.

وكَشِيشَ الضِّبَابِ: من ٱحتكاك بَعْضهَا بِبَعْض لاَ مِن فَمِهَا، وتَلَوَّمِ في الأَمْر: تَمَكَّث فيهِ.

الإعْرَاب:

أَيُّ ٱمْرِئٍ «أَيُّ» شرطية، وفيها مَعْنَىٰ العمُوم، ومحلها الرَّفع بالابْتِدَاء، وَفَلْيَذْبَّ جَواب أَيٌّ، والجُملة خَبَرها، وقِيل: الخَبَر فعل الشّرط لا جَوابه، والقَتْلُ خَبَر «إنَّ» والطَّرِيقَ مَفْعُول معهُ.

ٱلْمَعْنَىٰ:

(وَ أَيُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَ رَأَىٰ مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ). كُونوا في الْحَرْب كَنفْسٍ وَاحِدَة وجِسمٍ واحد يُعاضد بَعْضكُمْ بَعضاً، عَنْه تَمَاماً كما يَذّب الْمَرْء بيده عن عَينِيه، فإنْ كَان أحدكُم أقوىٰ، وأشجَع من أَخيه. ورآه في حَاجَة إِلىٰ نَجدته فلْيُسَرع إِلَيْهِ، وَيقف إِلىٰ جَنبه يَدفع الْعَدُوّ عَنْه، وَيقصد ذَلِكَ وَجه الله حَيثُ أغناه عن معُونة معين (فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ) فِي ٱلْحَاجَة إِلىٰ العُون (إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاٰ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَ لاٰ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ) ومَا دَام الأَمْر كَذَلِكَ فَلِمَاذَا الْخَوْف، والهَرب من الْجِهَاد؟.

(إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ). إنّ الشَّريف الحُرّ لا يَسْتَطِيع العَيش في مُجتمع يُستعبَد فِيهِ ويُستغل هُو أو أَخُوه ٱلإِنْسَان، ويَبحث جَاهِداً عن طَريق الْحُرِّيَّة، والخَلاَص من العبُودية، فإنْ أَعيَته الحِيّل آثر ٱلْمَوْت علىٰ ٱلْحَيَاة، وأَقدم عَلَيْهِ عن طِيب خَاطر، ولكن كَيْفَ، وفي أيّة صُورة يَمُوْت؟ هَل يَنتحر كَما فَعل كَثير في الهِند الصِّينِية، وغَيْرها ٱحتجاجاً علىٰ الظُّلم، والْعُدْوَان، أو يَشهر السِّلاَح عَلىٰ المُعتدِين، ويُجاهدهم حَتَّىٰ ٱلْمَوْت؟ لَيْسَ من شكٍّ أنّ المُنتحر يَفر من سَيٍّ إِلىٰ أَسوأ،

من رقِ ٱلحَيَاة إِلىٰ قَتل ٱلحَيَاة، أمّا المُجاهد الَّذي يُقتل في سَاحة الوغىٰ ضِد أَعْدَاء الحَقّ والحُرِّيَّة فإِنَّه يَمُوْت شَهِيداً، ويَفر مـن الرَّذيـلة إِلىٰ الفَضِيلة، مـن الرّقِ إِلىٰ الدِّفاع عن الحُرِّيَّة، والعَدْل.

(وَ الَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ) جِهاداً في سَبِيل الله وتَحرير ٱلمُسْتَضْعَفِين تَلبيةً لِنداء الضَّمِير ولأمـر الله تَـعَالىٰ في قَـوْله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَاتُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1] (أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَىٰ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ) والَّتي هِـي الجِهَاد، والْقِتَال في سَبِيل الله، وٱلْمُسْتَضْعَفِين. وهَذَا يَدل بوضوح عَلىٰ أنّ أي إنْسَان يؤثر السّلم، والدِّعة علىٰ جِهاد الطُّغاة العُتاة فَهُوَ مُجرم، وآثم يَحـيا فِي غَـضب الله، ومَعْصِيَة، ويَمُوْت مُدبراً عَنْه، ومُعانداً له. وفي الحَدِيث: «إنّ رَجُلاً سأل النَّبِيّ: هَل مِن عملٍ يَعدل الجِهَاد؟ فَقَالَ له: لا أَجد هَذَا ٱلعَمَل»[2].

(وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ): جَمع ضَبّ، وهُو حَيُوان يَشـبه الحِرْذَوْنُ[3]: وذَنْبه كَثِير العُقد، وٱلمَعْنىٰ إنّكم سـتُحَارِبُون قَـوماً لا تَـثبتُون لهـم، وتَفرُون من سيُوفهم حَتَّىٰ أنّ بَعْضكُمْ يَحتك بِبَعْض من الهَلَع حِين الفِرَار، والهَزِيمة،

(١) ٱلنِّسَاء: ٧٥.

(٢) أُنظر، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٥/٢٠٤، السُّنَن الكُبْرىٰ: ٣/١٣ ح ٤٣٣٦، سُنن النَّسائي: ٦/١٩ ح ٣١٢٨، مُسْنَد أبي شيبة: ٤/٢٢١، مُسْنَد أحمد: ٢/٣٤٤ ح ٨٥٢١، شعب الإيمان: ٣/٤٠٥ ح ٣٨٩٤، الإيمان لإبْن منده: ١/٣٩٩ ح ٢٤١، فتح الباري: ٢/٤٦٠، نيل الأوطار: ٣/٣٨٥.

(٣) الحِرْذَوْنُ: دُوَيْبَّةٌ، ويُقَال: هِي ذَكر الضَّبِّ. أُنظر، لِسَان العَرَب: ١٣/١١١، الصحاح: ١/٥٥.

ويَكُون لَكم أو لاِحتكَاككم غَمغَمة كأصُوات الضِّبَابِ المُجتمعة.. وغَرض الإِمَام من هَذَا هو التَّقريع بالجُبْن، والتّخاذل، والحَثّ علىٰ الثَّبات، والتَّعَاون (قَدْ خُلِّيتُمْ وَ الطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَ الْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ) هَذِه هِي طَرِيق النَّجاة أَمَامكم، ولا أَحد يَصدكُم عَنْهَا، وَهِي التَّضحية، والجِهَاد. فإمّا أنْ تَقدمُوا فَتسلمُوا، وأمّا أنْ تحجمُوا فَتهلكُوا.

الخطبة

-١٢٤-

الْيَوْمَ تُبْلَىٰ الْأَخْبَارُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَ أَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَ عَضُّوا عَلَىٰ الْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَ الْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ، وَ غُضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَ أَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَ أَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ، وَ رَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا وَ لاَ تُخِلُّوهَا، وَ لاَ تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَ الْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَ يَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَ وَرَاءَهَا، وَ أَمَامَهَا، لاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَ لاَ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا[1]، أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَ آسَىٰ أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَ لَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَىٰ أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَ قِرْنُ أَخِيهِ، وَ آيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَ أَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَ السَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ، وَ الذُّلَّ اللاَّزِمَ، وَ الْعَارَ الْبَاقِيَ. وَ إِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَ لاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ يَوْمِهِ. مَنِ الرَّائِحُ إِلَىٰ اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبْلَىٰ الْأَخْبَارُ! وَ اللهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَىٰ لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ[2].

اللُّغَة:

الدَّارِعَ: لاَبِسُ الدِّرع. والْحَاسِرَ: مَن كَان بِلا دِرْع، وأَنْبَا: اَرْتَد. والْهَام: جَمع الهَامَة، وَهِي الرَّأْس. والْتَوَوا: أَمِيلُوا. وأَمْوَرُ: أَشد حَركة للأسِنَّة. والْجَأْشِ: الْخَوْف، واَضْطِرَاب الْقَلْب. الذِّمَارَ ـ بكسر الذّال ـ كلّ مَا يَلزمُك حِفظه، والذّود عَنْه. والْمُرَاد بِالحقَائِق هُنا الوقَائِع والشَّدَائِد. وَيَكْتَنِفُونَهَا: يَصُونُونَهَا، ويُحِيطُونَهَا. والحِفَاف ـ بكسر الحَاء ـ الجَانب، وحِفَافَيْهَا: مُثنىٰ أي جَانِبَيهَا. وَاللَّهَامِيمُ: الأجْوَاد. والمَوْجِدَةَ ـ بكسر الجيم ـ الغَضب. والْعَوَالِي: الرِّمَاح. وتُبْلَىٰ: تُمْتَحَن. والأَخْبَارُ: الْحَقَائِق.

الإِعْرَاب:

حِفَافَيْهَا مَنصوب بِنزع الخَافِض، ووَرَاءَها، وَأَمَامَهَا عَطف عَلىٰ حِفيفَيْهَا أي يُحِيطُونَهَا من كلِّ جَانب، فَيُسْلِمُوهَا نُصب بأنْ مُضمرة، وكَذَلِكَ فَيُفْرِدُوهَا.

وَأَجْزَأَ فعل مَاضٍ، والرَّائِحُ مُبْتَدأ، وكَالظَّمْآنِ خَبَر.

السِّلاَح بَيْنَ الْقَدِيم وَالْجَدِيد:

(فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَ عَضُّوا عَلَىٰ الأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَ الْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلأَسِنَّةِ، وَ غُضُّوا الأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَ أَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَ أَمِيتُوا الأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ). هَذِه تَعَالِيم حَرْبِية كَانَ لَهَا شأنٌ، ووزنٌ يَوْم كَانَ السِّلاَح دِرْعاً، وسَيْفاً، ورُمْحاً، وسَهْماً ومُلخص هَذِه التَعَالِيم أنْ يَتقدم عِند الْقِتَال لاَبِسُ الدِّرعَ عَلىٰ غَيْره، والضَّارِب

بالسَّيْف يَعض عَلىٰ أضرَاسه عِند الضَّرب، والطَّاعن بـالرُّمح يَـلْتَوِي مَـعه حِـين الطَّعْن، ولا يَنظر هَذَا وذَاكَ هُنا وهُـناك، ولا يَـرفع المُـقاتل صَـوْته لأنّ الصِّـياح للجبَان. وتَقَدَّم مثلهُ(١). ولا صِلة لِهٰذه التَعَالِيم بأسْلِحَة هَذَا العَـصر... ويَـا لَـيت ٱلْعِلْم تَخطىٰ الأسْلِحَة بل يَا لَيتها تَقهْقَرت إِلىٰ العَصر ٱلْحَجْري... تَقَدَّم ٱلْعِلْم في كُلِّ مَجال، ولكن تَقدمهُ في مَيدَان الأسْلِحَة لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، أَنَّهَا لا تَتطور، بل تَطفر من قَتل الواحد برصَاصَة مـن مُسـدس، أو بُـندقِية إِلىٰ قَـتل المَـلايِين وتَـدمِير الحضَارات بضَربَة وَاحِدَة في لَحظَة وَاحِدَة، وتَزدَاد، وتَترَاكم في كُـلِّ آنٍ بـصُورة تَفوق التَّصور... حَتَّىٰ أَصْبَحَ العَالم كُلّه يَعِيش فوق بَحر من الألْغَام لا يَدرِي مـتىٰ يَتفجر فِيهِ، أمّا مِيزَانِية التَّسلح فيَقُول العَارفون: إنّ نصفها يَسد حَاجَات المعوزِين في شَرق الأرْض، وغَرْبِهَا.

وقرأت مقالاً للدّكتور سعاد جَلال جَاء فِيهِ: «إنّ ثَلاثَة أرْبَاع مِيزَانِية العَـالم، وأَكْثَر تُنفق علىٰ صنع النّعوش، وإعداد الأكْفَان للبَشرِية الّتي أَصْبَحَ مَصيرها في مصَانِعِ القنَابل الذّرية، وصَارت ـ أي البَشرِية ـ تَسمع كَلِمَة الفنَاء المُدمر الشَّامل كُلمّا أَصغت إِلىٰ الْحَدِيث الهَامس فِي بَاطن كلّ قُنبلة، أو صَاروخ»(٢).

(وَ رَايَتَكُمْ فَلاٰ تُمِيلُوهَا وَ لاٰ تُخِلُّوهَا، وَ لاٰ تَـجْعَلُوهَا إِلاّٰ بِـأَيْدِي شُـجْعَانِكُمْ، وَ الْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ نُـزُولِ الْـحَقَائِقِ هُـمُ الَّـذِينَ يَـحُفُّونَ بِرَايَـاتِهِمْ، وَ يَكْـتَنِفُونَهَا: حِـفَافَيْهَا، وَ وَرَاءَهَـا، وَ أَمَـامَهَا، لاٰ يَـتَأَخَّرُونَ عَـنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَ لاٰ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا) يَجب أنْ تَكـون الرَّايَـة مـع الشُّـجاع

(١) أنظر، ٱلخُطْبَةَ: ١١ و٦٦، من هَذَا الكتاب.

(٢) أنظر، جَرِيدة «الجمهُورِية المِصْرية» عَدد ٣٧ نِيسَان ١٩٧٢م.

المِقدَام، وأنْ يَحف بها الأبطَال البُواسل، لِأَنَّهَا النِّظام الَّذي يَجمَع المُحاربِين، وعَلَيْهَا تَدور رحىٰ المَعركة (أَجْزَأَ آمْرُؤٌ قِرْنَهُ). أَجْزَأَ كَفىٰ، والقِرْن ـ بكسر القاف ـ الخَصم الَّذي يَبرز للمُجاهد، وٱلْمَعْنىٰ عَلىٰ المُجاهد أنْ يَصمد لِخَصمَه، ولا يَدعه يَفلت مِنْهُ (وَ آسَىٰ أَخَاهُ بِنَفْسِهِ) إنْ آستطَاع المُجاهد أنْ يُعين من يَحتاج إلىٰ المعُونة من إِخْوَانِهِ فَعَلَيْهِ أنْ يُؤازره ويَذُود عَنْه.

(وَ لَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَىٰ أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَ قِرْنُ أَخِيهِ). عَلىٰ المُجاهد أنْ يَثبت للعَدُوّ الَّذي يُبارزه ولا يَفرّ منهُ آتكالاً عَلىٰ مَن ثَبت وصَبر، لأنّ هَذَا الفِرار يُؤدي إلىٰ أنْ يَنضم خَصم الَّذي فَرّ إلىٰ خَصم الَّذي ثَبت، فيَجْتَمِع علىٰ المُجاهد الثَّابت الصَّابر خَصمان، ومَعْنَىٰ هَذَا في واقعه أنّ الفَّار قَد نَاصر الْعَدُوّ، وأَمدَه بالْقُوَّة من حَيْث يُريد أو لا يُريد (وَ آيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ). أَتَفرُون من الْجِهَاد خَوْف الْقَتْل؟ وهَل من ٱلْمَوْت والْجَزَاء مَفَرٌّ؟.. أنّكم تَفرُون من مَوْتِ العِزّ، والْكَرَامَة إلىٰ مِيتَة الذّل، والهُوان، ومن مَرضاة الله إلىٰ غَضبه.

(وَ أَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ) سَادة أجوَاد (وَ السَّنَامُ الْأَعْظَمُ) فِي الجاه والأنْسَاب ـ ولو عَلىٰ زَعمهم ـ وَالسَّنَامُ حِدبَة فِي ظَهر البَعِير، يُقَال: فُلاَن سِنَام قَومه أي كَبِيرهم (إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ) أي غَضبه تَعَالَىٰ وسَخطه (وَ الذُّلَّ اللَّازِمَ) للعَار مَا دَام حَيّاً (وَ الْعَارَ الْبَاقِيَ) فِي الوَلد، والذُّرِيَّة (وَ إِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَ لاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ يَوْمِهِ) وَأوضَح من هَذَا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

---

(١) ٱلأَحْزَاب: ١٦.

(مَنِ الرَّائِحُ إِلَىٰ اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟) إذا كَان من المُجاهِدِين الأبْرَار (الْـجَنَّةُ تَـحْتَ أَطْـرَافِ الْـعَوَالِـي!) أي الرِّمَـاح، وفِي الحَـدِيث: «الْجَـنَّة تحتَ ظِـلاَل السُّيُوف»[1]. وفِي الْقُرْآن: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ﴾[2]. أَبَداً لا ثمن للجَنّة إلّا الفِداء، والصَّبر علىٰ الْبَلاَء (الْيَوْمَ تُبْلَىٰ الأَخْبَارُ!). الجِهَاد هو المَحك الَّذي يُميِّز الخَبيث من الطَّيِّب، والكَذُوب من الصَّدُوق (وَ اللهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَىٰ لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ). إنّ شَوْق الإِمَام الىٰ لِقَاء الله سُبْحَانَهُ تَمَاماً علىٰ قَدر عِلمه به، وطَاعته له، وأسْهل الطُّرق، وأقربَها إِلىٰ هَذَا اللِّقَاء هُو جِهاد أَعْدَاء الله، ولِقَاؤهم في مَيدان الْقِتَال، وإذَنْ فَلا بِدع أنْ يكون الْإِمَام أَشْوَق إلىٰ لِقَاء أَعْدَاء الله بالسَّيْف منهُم إِلىٰ أَهْلِهم، وديَارِهم.

لا دَوَاء لِلعِنَاد إلّا الطَّعْن والضَّرْب .. فِقْرَة ٣:

أَللّٰهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَ شَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَ أَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ. دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ: يَخْرُجُ مِنْهُمُ النَّسِيمُ، وَ ضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَ يُطِيحُ الْعِظَامَ، وَ يُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَ الْأَقْدَامَ، وَ حَتَّىٰ يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ، وَ يُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ، وَ حَتَّىٰ يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ، وَ حَتَّىٰ تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَـوَاحِـرِ أَرْضِـهِمْ، وَ بِـأَعْنَانِ مَسَـارِبِهِمْ، وَ مَسَارِحِهِمْ[3].

---

(١) أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٣/١٣٦٢ ح ١٧٤٢، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/١٠٣٧ ح ٢٦٦٣، صَحِيح أبن حبّان: ٩/٦٦ ح ٣٧٥٠، سُنن التِّرمِذي: ٤/١٨٦ ح ١٦٥٩، المُسْتَدرَك: ٢/٨٠ ح ٢٣٨٨.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.

اللُّغَة:

أَبْسِلُهُمْ: أَسْلَمهُم لِلهَلَكَة. وطَعْنٍ دِرَاكٍ: مُـتتَابع. والْهَـامَ: الرُّؤُوس. ويُـنْدِرُ: يُسْقِط. والْمَنَاسِرُ: قِطع فِي الجَيْش. وحَلاَئِب وحَلبَات: جَمع حَلبَة أي خَيل تَجْتَمِع للسِّبَاق. والْخَمِيس: الجَيْش. وتَدْعَقَ: تَـطَأَ. وَقَـالَ الشَّرِيـف الرَّضِي: نَـوَاجِـرِ أَرْضِهِمْ: مُتقَابلاتِها، يُقَال مَنازل بَـنِي فُـلاَن تَـتناحَر أي تَـتقَابل[1]. والأعْـنَان: النَّواحي والأَطرَاف. وسَرب ٱلْمَاء: جَرىٰ، وسَربَت المَاشِية: تَـوجهت لِـلرَّعِي. والْمَسَارِح: كلّ مكان يُسْرَح فيهِ.

الإِعْرَاب:

دِرَاكٍ صِفة لِطَعْنٍ، ويُرْمَوْا نُصب بأَنْ مُضمرة بَعد حَتَّىٰ، وجُمـلة يَتْلُوهُ حَال من الْخَمِيس.

ٱلْمَعْنىٰ:

يَدعو الإِمَام عليه السلام بهَذا عَلىٰ جَيش الضَّلال إنْ عَاندوا، وأَصَروا عَلىٰ الْبَغْي، يَدعو عَلَيْهِمْ بالتَّفريق، والهلاَك، ثُمّ قَالَ: أنّهم لا يَرتدعُون، ولا يَفهمُون إلّا بلُغة الْقُوَّة، فَلقنُوهم هَذَا الدَّرس بِحشد الْجُيُوش تِلُو الْجُيُوش، وبـالطَّعْنِ المُـتتابع، والضَّرْب المُتواصل، ولا تَأخذكُم بِهِمْ رَأفة، وإنْ ٱنهَزمُوا فاَتبعُوهم بخـيُولِكُم حَـتَّىٰ تَـطأُوا أرْضهم، ودِيَارهم.

---

(١) أُنظر، بِحَار الأَنْوار: ٣٣/٤٥٦، النّهاية في غريب الحديث: ٥/٢٧، لِسَان الْعَرب: ٥/١٩٧.

الخطبة

-١٢٥-

لَا بُدَّ لِلْقُرْآنِ مِن تَرْجُمَانٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَ إِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَ إِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَ لَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَىٰ أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ، وَ قَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] فَرَدُّهُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَ رَدُّهُ إِلَىٰ الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ[1]. وَ إِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَ أَوْلاَهُمْ بِهَا. وَ أَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَ يَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ، وَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَ لاَ تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَ تَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ـ وَ إِنْ نَقَصَهُ، وَ

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٥٩.

كَرَثَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَ إِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً، وَ زَادَهُ[٢].

اللُّغَة:

الدَّفَّة: الجَنب من كلّ شَيء. ودَفتَا المُصحَف: جَانِبَاه، ويُقَال لهُما جِلد المُصحَف، أو جِلد ٱلْكِتَاب. وَقَالَ ٱبن أَبي ٱلحَدِيد: وَكَان النّاس يَعملونَهُما قَدِيماً من خَشَبٍ، وَيَعملونَهُما الآن مِن جِلد[١]. والْمُتَوَلِّيَ: ٱسم فَاعِل أي المُعْرِض. والأَكْظَامِ: جَمع كَظَمَ، وهو مَخْرَجُ النَّفس. وكَرَثَهُ: ٱشتد عَلَيْهِ الغَمُّ.

الإِعْرَاب:

ٱلْقُرْآن عَطف بَيان من «هَذَا» وبَيْنَ مُتَعَلِّق بمَسْطُورٌ، والْمَصْدَر من أَنْ يُصْلِحَ فَاعِل لفعل مَحذوف أي لعلَّ الله أنْ يُحقِّق الصُّلح.

ٱلْمَعْنىٰ:

(إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَ إِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاٰ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَ لاٰ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَ إِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ). أَنْكَر الْخَوَارِج عَلىٰ الإِمَام قَبُول التَّحْكِيم، فقَال: نَحنُ حَكّمْنَا ٱلْقُرآن في بَيان الْحَقّ وإعْلاَنه، ومَا حَكّمنَا الرِّجَال كَمصدر لِلحَقّ... وكَيْفَ يَأخذ الإِمَام الْحَقّ مِن أَفْوَاه الرِّجَال، وهو القَائل: «إنّ الْحَقّ لاَ يُعْرَف بِالرِّجَال... إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقّ فَتَعْرِفَ

---

(١) أنظر، شَرح النَّهج: ١٠٣/٨.

مَنْ أَتَاهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ»[١]. إنّ ٱلْقُرْآن مَصْدَر ٱلْعِلْم بِالْحَقِّ، مَا فِي ذَلِكَ رَيبٌ، ولَكِنَّهُ حرُوف جَامِدَة وَ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ أي عَالم قَدير بمعَانِيه ومقَاصده. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[٢]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ﴾[٣]. ولو كَانَتْ معَانِي ٱلْقُرْآن بِكاملها وَاضحة بَيِّنَة لمَا وَقع الْإِخْتِلاَف فِي تَفْسِير آية من آيَاته مع أنّ هَذَا الإِخْتِلاَف قَد حَدث بَيْنَ الصَّحَابَة أنفسهم، وفي عَهد النَّبِيّ ﷺ بالذَّات، فلاَ بُدّ مِن عَالم عَادل يَفصل بَيْنَ الْمُختلفِين.

(وَ لَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَىٰ أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّي عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ . . . . أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ. وَ إِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَ أَوْلاَهُمْ بِهَا). دَعَا مُعَاوِيَة، وأَهْل الشَّام إِلىٰ تَحكِيم ٱلْقُرْآن، وتَذرعُوا بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٤]. ولِلْإِمَامِ أنْ يَرفض هَذَا التَّحْكِيم بالنَّظر إِلىٰ عِلمه بالمكر والخدِيعَة، ولهُ أنْ يَستجيب، فَعسىٰ، ولَعَلَّ أنّ ٱللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا، وتَقَدَّمَت

(١) أُنظر، نَهْج الْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٦٢). وفيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٢٣/٤ ح ٤٤٠٩، التِّبيان للطوسي: ١٩٠/١، مَجْمَع الْبَيَان: ١٨٧/١، تَأريخ اليعقوبي: ٢١٠/٢، أنساب الأشرف: ٢٣٩، بشارة الْمُصْطَفَىٰ: ٢٢.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٧.

(٣) ٱلْأَنْبِيَاء: ٧.

(٤) ٱلنِّسَاء: ٥٩.

الْإِشَارَة إِلىٰ ذَلِكَ[١]، وبهَذِه النِّيَّة قَبل الْإِمَام التَّحْكِيم بَعد أَنْ أَخذ العَهد أَنْ يحكمُوا بالْعَدْل، ولا يَتجاوزُوا حدُود ٱلْقُرْآن، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ الْإِمَام قَد ٱستجاب لِلْقُرْآن فِي حُكمه، لا لمُعَاوِيَة وجماعته، قَالَ الْإِمَام فِي رِسَالَة بَعث بِهَا إِلىٰ مُعَاوِيَة: «قَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ، وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا ٱلْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ»[٢]. ومن البدَاهَة أنّ ٱلْقُرْآن يَشهد بالْوِلَايَة لأَهْل ٱلْحَقّ، والْعَدْل، ويَنفِيها عَن المُبطِلِين، والظَّالِمِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣] والْوِلَايَة مِن أَظهر المصَادِيق لِعَهْدِه تَعَالَىٰ. وَهِي مُحرَمة علىٰ مُعَاوِيَة لأنّه من الْفِئَةُ الظَّالمة الْبَاغِيَةُ الّتِي قَتلت عَمّار بن يَاسر[٤].

(وَ أَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَ يَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ). جَاء فِي كتَاب الاِتفَاق عَلىٰ التَّحْكِيم هَذِه الجُملة «وأَجل الْقَضَاء إِلىٰ ٱنسلاخ رَمضان، وإِنْ أحبّا أنْ يؤخّرا ذَلِكَ أخّراه، وأنّ مكان قضيّتهما مَكاناً عَدلاً بَيْنَ أَهْل الْكُوفَة وأَهْل الشَّام[٥]. فٱعترض جَماعَة عَلىٰ الْأَجَل، فأجَابهم الْإِمَام بأنّ القصد من الأَجَل أنْ يسأل الجَاهِل، ويَبحث ليظهر لهُ المُحق مِن

(١) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (١٢١)، مِن هَذَا الكتَاب. (مِنْهُ ﵀).
(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: رَقْم الكتَاب (٤٨).
(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٢٤.
(٤) تَقدَّم إستخرَاج ذَلِكَ.
(٥) أُنظر، شَرح النَّهج لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٣٤، ٢ / ١٩١ بإختلاف يَسير فِي اللّفظ، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ١٩، الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٥٢، وَقعَة صفّين: ٥٠٤ ـ ٥٠٦ فزاد فِيهِ شَيْئاً علىٰ ما ذكره أصحاب السِير والتَّأرِيخ فراجع، وأُنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٣٨ ـ ٣٩، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣ / ٣٢١، مروج الذَّهب: ٢ / ٤٠٤، أعيان الشِّيعة: ١ / ٥١٤، الأَخْبَار الطِّوال: ١٩٤ ـ ١٩٥، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٢٠١.

المُبطل، وأنْ يَزداد العَالم يَقيناً، وثبَاتاً عَلىٰ عِلمه... هَذَا، إِلىٰ أنّ هُناك بَارقة أَمل فِي رجوع البَاغي عَن بَغيه مُدَّة الهُدْنَة.. وإنْ ضَعُف الأَمَل.

(وَ لاَ تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا) الهَاء تَعود إِلىٰ الأُمَّة، والْمَعْنىٰ أنّ مِن فَوائِد الهُدْنَة أنْ تَتَنفس الأُمَّة، وتَرتَاح بَعْض الشَّيء من الْقِتَال، وأنْ يُفكر من أَساء فِي أَمْرِه عسىٰ أنْ يَعود إِلىٰ رُشده (فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَ تَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ) أي لَو أنّ الإِمَام رَفض الهُدْنَة، وتَعجل فِي الأَمْر لكان مَعْنَىٰ هَذَا أَنّه قَطع الطَّرِيق عَلىٰ مَن أخطأ، وأسَاء، وضَرب حوله حِصاراً مُحكماً، ولَم يُعالجه بِالْحِكْمَة، ويَترك لهُ فُرصة يَدرأ فيها السَّيِّئَة بِالْحَسَنَة (إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ـ وَ إِنْ نَقَصَهُ، وَ كَرَثَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَ إِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً، وَ زَادَهُ) إنّ حَبيب الله هو الَّذي يَتبع الْحَقّ، وإنْ خَسر دُنياه، وتَراكمت عَلَيْهِ الْمَصَائِب، والكوارث، ولا يَتبع البَاطِل وإنْ زَاد فِي مَاله وجَاهه، ومثله قول الإِمَام: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وَأَلَّا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ اللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ»[1].

أُفٍّ لَكُمْ!...فِقْرَة ٣:

فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَ مِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! اَسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَىٰ قَوْمٍ حَيَارَىٰ عَنِ الْحَقِّ لاٰ يُبْصِرُونَهُ، وَ مُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاٰ يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَ لاٰ زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!

(١) أنظر، نَهج الْبَلاَغَة: الْحِكْمَة (٤٥٨).

أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً، يَوْماً أُنَادِيكُمْ، وَ يَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَ لاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ(٣).

اللُّغَة:

يُتَاهُ بِكُمْ: يُسار بِكُم إِلىٰ الهَلاك. وَمُوزَعِينَ: جَمع مُوْزع ـ بسكون الواو ـ مِن أَوْزَع بِهِ أي أغرىٰ بِهِ. والزَّوَافِر: الأَنْصَار. وحُشَّاش ـ بضم الحَاء، وتَشديد الشِّين الأُولىٰ ـ جَمع حَاش من حَشَّ النَّار إذَا أَوْقدهَا. والبَرْح: الشِّدَّة والأَذَىٰ والشَّر. والنَّجَاء: المُنَاجَاة.

الإِعْرَاب:

حَيَارَىٰ، وَجُفَاةٍ، ونُكُبٍ صِفَاتٌ لِقَوْمٍ، وبِوَثِيقَةٍ البَاء زَائِدَة، وَوَثِيقَةٍ صِفَة لخَبر مَحذوف أي مَا أَنْتُمْ عُرْوَة وَثِيقَةٍ، وفي بَعْض النُّسخ الرَّاء من زَوَافِر مَفتوحة، والصَّحيح كَسرها لأنّ زَوَافِرِ مُضافة إِلىٰ عِزّ، وَأُفٍّ ٱسم فعل بِمَعْنَىٰ أَتضَجر، ويَوْماً الأَوَّل مُتَعَلِّق بأُنَادِيكُمْ، والثَّانِي بأُنَاجِيكُمْ.

ٱلمَعْنىٰ:

(فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَ مِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ؟) لِمَاذَا تَعمُون عَن الحَقّ؟ ومَا الَّذي أعْمَاكُم عنهُ؟ أنّكُم تَسيرُون فِي طَرِيق التَّهْلكَة مِن حَيْث لا تَشْعرُون (ٱسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَىٰ قَوْمٍ حَيَارَىٰ عَنِ الْحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ، وَ مُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاَ يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ). مَالكُم ولوَسَاوس الشَّيْطَان، وألاَعِيبَه؟.

أَجْمِعُوا أَمْرَكُم وقَاتلوا أَعْدَاء الله، وأَعْدَاءكُم، فَلقد ٱستحوَذ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَان، وأعْمَاهُم عن الْحَقِّ، وأغْراهُم بالجَوْر، والْبَاطِل، ويَسْتَحِيل أنْ يَعدلوا عنهُ بَعد أنْ هَجرُوا ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيمِ، وٱتبعُوا الشَّيْطَان الرَّجِيم (مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا) لَسْتُم برُكن يُعتمد عَلَيْهِ، ولا بِعُرْوَة يَتمسك بِها.. وتَقَدَّم قَول الإِمَام: «أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ، وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا»[1].

(وَ لاَ زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا) وَلستُم من أَهْل النَّجدة وأنْصَار ٱلْحَقّ (لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ) لا تُغْنُون فِي الْحَرْب شَيْئاً (أُفٍّ لَكُمْ) ولجُبْنُكُم وتَخاذُلكُم (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً) الشَّدَائِد (يَوْماً أُنَادِيكُمْ، وَ يَوْماً أُنَاجِيكُمْ). هَذَا مثل قَوْله: «وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً، وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا»[2]. (فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ) لا تَسْتَجِيبُون لِمن يَسْتَغِيث بِكُم (وَ لاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ) ولا تكتمُون لأحدٍ سِرّاً.

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَةُ (١٢١). (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٩٧). من هَذَا الكتَاب. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٢٦-

لَا أَطْلُب النَّصْرَ بِالْجَوْرِ:

أَ تَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ ! وَ اللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَ مَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً ! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَ إِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ ! أَلاَ وَ إِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ، وَ إِسْرَافٌ، وَ هُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا، وَ يَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَ يُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ، وَ يُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَ لَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَ لاَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَ كَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ، وَ أَلْأَمُ خَدِينٍ.

اللُّغَة:

الطُّورُ: الْقَدَر والحَدّ، يُقَال: تجَاوزه طَوره أي تَعدىٰ حَدّه: ولا أَطُورُ بِهِ: لاَ أَقرَب منهُ. وَسَمَرَ النَّاس: تَحدثُوا لَيلاً، ومِن مَعَانِي السَّمِير مَدىٰ الدَّهْر.

وَأَمَّ: قَصد أَو تَبع. والخَدِين: الصَّدِيق، وأيضاً الخَليل صَدِيق، ولكن لهُ زِيَادَةُ اختِصَاصٍ.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ أَطْلُبَ مجرور بالبَاء المَحْذُوفة أي أَ تَأْمُرُونِّي بِطَلَب النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ... ومَا سَمَرَ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة، وأَمَّ فعل ماضٍ، وإلّا أداة ٱسْتفتَاح.

ٱلْمَعْنىٰ:

قَالَ ٱبن قُتَيْبَة: «قَالَ رِجَالٌ مِن أَصْحَاب عَليّ: أَعط هَؤُلآء هَذِه الأَمْوَال، وفَضِّل الأَشْرَاف مِن الْعَرَب، وقُرَيْش عَلىٰ الموالي مِمَّنْ يُتخوف خِلاَفة، وفِرَاقه... وهَذَا مَا يَصنعه مُعَاوِيَة فإنّ النَّاس هَمهُم الدُّنْيَا، وفِيها يَكدحُون... ٱعْطِ الأَشْرَاف، فإذَا ٱستقَام لَك مَا تُرِيد عِدتَ إِلىٰ أَحسن مَا كُنتَ عَلَيْهِ مِن القَسم... فَقَالَ لَهُم: أَ تَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ.. إلخ»[1].

ٱلْإِسْلاَم وَٱلْمَال:

(أَ تَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَ اللهِ لاٰ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَ مَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً) وهَل الْغَايَة تُبرر الواسطة عَلىٰ حِساب الدِّين والضَّمِير؟ وهَل أَنَا ٱنْتهَازِي يَنتَهب الفُرص، ويَستغل الظُّرُوف؟ وبماذا أَعتذر إِلىٰ الله؟ وبأَي وَجه أُقَابله؟ أَتُرِيدُون أنْ أَملك أَيَّاماً، ثُمَّ أُخلد في عَذَاب الحَرِيق؟.

(لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَ إِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ) ٱلْمَال لله، والنَّاس

---

(١) أُنظر، الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١٥٣ طَبعة عَام ١٩٥٧م. (مِنْهُ ﷺ). و: ١٣٢/١. أمالي الشّيخ الطّوسي: ١٩٤، تُحف الْعُقُول: ١٨٥، الغَارات: ٨٢٧/٢، أمالي الشَّيخ المفيد: ١٧٥.

عِيَاله، والإِمَام خَلِيفَة فِي عِيَاله، ومَسْئُول عن كلّ واحدٍ مِنْهُم أمَام الله كَبِيراً كَان أَم صَغِيراً، أَسْوَد أَم أَبْيَض، وإِذَنْ فكلّ مَا نَأخذ من مالٍ هُو مُلك لله ربّ العِيال... من أين جَاء أَمِير الْمُؤْمِنِينَ بهَذا؟ هَل أخذه مِن مَاو، وغيفارا، أَم قَرأ في كِتاب رَأس ٱلْمَال، أَم هو مُجرد مُشاركة وجدَانِية، وعَاطفة إنْسَانِية؟ أَبَداً لا عَاطفة، وشَهوة لِعَليٍّ، ولا عَقل، وفِطْرَة إلّا الإِسْلاَم.. وٱلإِسْلاَم خَير بكُلّ مَا فيهِ؛ ولأِنّه خَير فَهُوَ يُصدّق برسَالاَت مَن سَبقه مِن ٱلأَنْبِيَاء، ويُبارك من الأَدْيَان، والتَّقاليد، والأَنْظمة والشَّرائِع ـ كلّ مَا فِيها مِن خَير يُصلح شأناً من شُؤُون ٱلحَيَاة، ويَشبع حَاجَة من حَاجَات النَّاس، سواء أَكَانَتْ تِلك الأَنْظمة، والتّقالِيد قَدِيمة أَم جَدِيدَة، شَرقِية أَم غَرِبية... ولا يَهم الاِسم، والشّكل. ولاَ الطّقُوس، والمَراسِيم مَا دَام الجُوهر محفوظاً ومصُوناً.

إنّ قِيم الْإِسْلاَم لا يُنْكِرها عَالم علىٰ وَجه الأَرْض إلّا إذا كَان فِي قَلبه مَرض، لأَنّ أَمر ٱلإِنْسَانِية لا يَستقيم بدُونها، وَهِي كَافِية وَافِية لسّد حَاجَاتها المَادِية والرُّوحِية، وٱلْمُسْلِمُون في غِنىٰ بدِينهم، وشَرِيعتهم عن ٱستِيراد الشَّرائع، والمبادىء... ولكن لَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنّ الْخَيْر بشَتَّىٰ صوره، وأنواعه وقَف علىٰ دِين من الأَدْيَان. أو عَلىٰ قَوْم دُونَ قَوْم، فإنّ كثيراً من الأنظمة فيها جِهة خَيرٍ، وجهة شَرٍّ، وٱلإِسْلاَم يَلتقِي مَعَهَا في هَذِه، ويَفترق عَنْهَا في تِلك، وأيضاً قَد يَلتقِي غَير الْمُسْلِم مع ٱلإِسْلاَم فِي بَعْض الجِهات من حَيْث لا يُشعر، ويُريد... قَالَ الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «قَد تَجد فِي أُوروبا «ٱلْمُسْلِمِين» بغير إسْلاَم، وفِي البَلاد الإِسْلاَمِيّة «إِسْلاَماً» بغير مُسْلِمِين»[1].

---

(١) أُنظر، محاضرات للشّيخ مُحَمّد عَبْدَه: ١٢٧، فِقه السُّنّة للسّيد سَابق: ٢/٢١٧ وما بعدها.

وَقَالَ الفَيْلَفُوس، والشَّاعر الشَّهير مُحَمّد إقْبَال: «إنّ ٱلإسْلاَم يَتفق مع الشّيُوعِية فِي أنّه ضِدّ الرَّأسْمَالِية، والإقْطَاع، والمُلُوك، والقَياصِرة.... ولكنْ هَـذِه المَـبادىء موجُودة فِي ٱلْقُرْآن، ولا حَاجَة لِلمُسْلِمِين أنْ يَلتمسُوها فِي كتاب آخر... أنَـا لا أَعتقد أنّ الرُّوس بطبيعتهم شَعب غَيْر مُتدين، بل علىٰ العَكس، وموقفهُم من الدِّين حَالة طَارئة، ولا يُمكن أنْ يَدُوم نظام، ويقُوم عَلىٰ الإلحَاد... أمّا لِينِين فإنَّه حِـين ٱنتقل إلىٰ عَالم الآخِرَةِ ٱنكشف الغِطاء عَن عَقْله، وآمن بالله، وٱعتذر إلَيْهِ بأنّه قَد عمي عَنْه تَعَالىٰ لأنّه عَاش في عَالم يَستغل الضَّعِيف، ويَستعبد الشّعُوب، وتَرفع فيهِ البنُوك عَلىٰ المعَابد»[1]. ونَسي إقْبَال أنّ الإيمَان فِي الآخِرَةِ لا يجدي شَيْئاً.

وبعد، فإنّ الدِّين، والوَطن، وٱلْمَال كلّ أُولَئِكَ لله وحده، ولا شَيء لقيصر: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ﴾[2].

وَإذَاكَان ٱلْمَال لله، والنَّاس عَبيد لهُ، وعِيال عَلَيْهِ فٱلْمَال ـإذَنْ ـبَيْنَهُمْ بالسَّوية إلّا مالاً ٱكْتَسَبَه من ٱكْتَسبه بكَد اليَمِين وعَرق الجَبِين، أو ورّثه هَـذَا العَـامل لأهْـله وأَوْلاَده.. حَتَّىٰ ٱلْمَال الَّذي يَكْتَسِبه عَليّ بكَد يَمِينه وعَرق جَبِينَه ـيُقسمه بَيْنَ النَّاس بالسَّوِية: «لَوْ كَانَ ٱلْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَ إنَّمَا ٱلْمَالُ مَالُ اللهِ»[3].

قَدِم عَلىٰ الْإِمَام أخُوه عَقِيل، فقَال لهُ: مَرحباً بِكَ وأهلاً، مَا أقدمك يَا أخي؟

قَالَ: تَأخرَ الْعَطَاء عَنّا، وغَلاَ السِّعر بِبلدنا، ورَكبنَا دَين عَظِيم فجئتُ لتَصلنِي.

---

(١) أنظر، دِراسة قَيمة عن إقبال للأستاذ مُحَمّد عُودَة فِي جَرِيدَة الجمهُوريَة المِصْرية بتَأريخ ١٩٧٢/٤/٢٧م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) ٱلْمَائِدَة: ١٢٠.

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٢٦).

فَقَالَ الْإِمَام: والله! مَا تَرىٰ لِي شَيْئاً إلّا عَطائِي، فَإذَا خَرج فَهُوَ لكَ.

فقَال عَقِيل: آشخوصٌ من الحجَاز إِلَيْك من أجْل عَطائك! ومَاذا يَبلغ من عطَاؤك؟ ومَاذا يَدفع من حَاجتِي؟.

فَقَال الْإِمَام الوَرِع عليه السلام: هَل تَعلم لِي مَالاً غَيْره؟ أَم تُريد أنْ يُحرقنِي الله فِي نَارِ جهنَّم فِي صِلتك بأَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِين»[1].

وحِين آنتقل الْإِمَام عليه السلام إِلىٰ خَالقه مَا وجدَ فِي بَيْتِه، ولا فِي بَيْت ٱلْمَال بَيْضَاء، ولا صَفْرَاء[2]... هٰذَا هو الإِسْلاَم فِي جوهرِهِ «إِنَّ اللهَ تَعَالىٰ فَرَضَ عَلىٰ أَئِمَّـةِ الْـعَدْلِ أَنْ

(١) أنظر، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابن قُتَيْبَة: ١/١٠١، نظرَات فِي الكُتب الخَالدة للدّكتور حامد حنفي: ١٤٧، مجلة رِسَالَة الإِسْلاَم العَدد (١٤) تنظيم الصَّدَقَة فِي الإِسْلاَم لحَامد حَنفي داود.

(٢) لَسْنَا بصدد بيَان الزُّهد لغةً، وآصطلاحاً، ومَوْضُوعاً، بل نُشير إشارة عَابرة إِلىٰ زُهد عليّ عليه السلام وخير كَلاَم نفتتح به هٰذِه الإشارة هو كَلاَم آبن أبي ٱلْحَدِيد ٱلْمُعْتَزِلي في شَرحه للنَّهج: ١/٢٦ تحقِّيق مُحَمّد أبو الفَضْل، قَالَ: وأمّا الزُّهد في الدُّنْيَا فهُوَ سَيّد الزُّهَاد، وبَدل الابدال، وإِلَيْهِ تُشدُّ الرِّحَال، وعِنده تُنْقضُ الأحْلاس، ما شَبعَ من طعامٍ قطّ، وكَانَ أخشنَ النَّاس مَأْكلاً، ومَلبساً... ومثل هٰذَا ورد فِي حلية الأَوْلِيَاء: ١/٨١.

ولا خِلاف في أنّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أزهد الأُمَّة بَعد رَسُول الله صلى الله عليه وآله وهو الَّذي بَيّن مَرَاتب الزُّهْد وأعلىٰ درجاته حَيْث قَالَ: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ» (أُنظر شرح النَّهج للفيض: ١١٨٢ ٱلْحِكْمَة ٢٢٩، والبحار: ٤١/١٤). وعن النَّبيّ صلى الله عليه وآله: لَيس الزُّهْد فِي الدُّنْيَا لَبس الخشن، وأكل الجَشب ولكن الزُّهد فِي الدُّنْيَا قصر الأَمَل. (أُنظر قصار الجُمل: ١/١٨٤ و٢٨٤، الغرر والدُّرر: ٢/٦٣ ح ١٨٤٤ وقَرِيب مِنْهُ فِي أُصول الكَافِي: ٥/٧١ و٧٠).

آستُشْهِدَ عليه السلام ولم يَضع لِبنة علىٰ لِبنة، ولا تَنعّم بشيءٍ من لذّات الدُّنْيَا، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الحَجَرَ وَ يَلْبَسُ الْخَشِنَ وَ يَأْكُلُ الْجَشِبَ، ويَعمل في أرْضه فَيستنبط مِنْهَا العُيُون، ثُمّ يوقفها فِي سَبِيل الله، ويَصرف ما يَصل إِلَيْهِ من مالٍ علىٰ الْفُقَرَاء، والْمَسَاكِين وفي سَبِيل الله.

قَالَ المسعودي في تَارِيخه: ٢/٤٣٣: لَم يَلبس عليه السلام فِي أَيَّامه ثَوباً جَدِيداً، ولا أقتنىٰ ضَيعةً ولا رَيعاً إلّا

⟸ شيئاً كَانَ له بينبع مِمّا تصدّق به، وحبّسه.

وأنظر مروج الذهب أيضاً: ٢ / ٣٤٤: دَخل عَلَيْهِ رجل من أصحابه فَقَالَ: كَيْفَ أَصْبَحت يـا أَمِـيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: أَصْبَحتُ ضعيفاً مُذنباً، آكل رزقي، وأنتظر أجلي. قَالَ: وما تقول في الدُّنْيا؟ قَالَ: ومَـا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

وأنظر الوسَائِل: ١١ / ٨٣، وتذكرة الخواصّ: ١٠٥: كَانَ عليه السلام يكنس بَيْت المَال كلّ يَـوْم جـمعة، ثمّ ينضحه بالمَاء، ثمّ يُصلّي فِيهِ ركعتين، ثمّ يَقُول: تشهدان لِي يَوْمِ الْقِيامَة.

وأنظر روضة الكَافي: ١٦٥ ح ١٧٦: كَانَ عليه السلام يستقي ويحتطب، وكَانَتْ فَاطِمَة عليها السلام تطحن وتـعجن، وتخبز، وترقع....

أمّا ما قاله صلى الله عليه وآله في زُهد عليّ عليه السلام كمَا جَاء في أُسـد الغَـابَة: ٤ / ٢٣، وكشـف الغـمّة بَـاب المـناقب: ١ / ٢١٨، ومناقب الخوارزمي: ١١٦ ح ١٢٦ ط مؤسّسة النّشر الإسْلاَمي بِقُم، وكفاية الطالب: ١٩١: عن عَمّار بن ياسر قَالَ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يَقُول لعليّ عليه السلام: يا عليّ إنّ الله عزّوجلّ قد زيّنك بـزينَة لَمْ يَتزيّن الْعِبَاد بزينَة أحبّ إِلَيْهِ مِنْهَا، الزُّهد في الدُّنْيا... وقَريب من هَذَا في فرائد السّمطين: ١ / ١٣٦ ح ١٠٠ ومثله أيضاً في شرح النّهج للعلّامة الخوئي: ٢ / ٤٠٨، وكفاية الطالب: ٦٦.

وأنظر بَهج الصّباغة في شرح نَهْج ٱلْبلاَغَة للعلّامة مُحمّد تقي التُّستري: ١ / ١٠٣ الطبعة الثّانِيَة طهران تحقيق أحمد پاكتچي: زاهِدُ الزُّهادِ. فقد طلّق عليه السلام الدُّنْيا ثلاثاً وَقَالَ لها «غُرّي غَيْري لاَ حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَ أَمَلُكِ حَقِيرٌ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ» وهَذِهِ وردت في نَهْجِ ٱلْبلاَغَة: ٤ / ١٦ حِكْمَة ٧٧ من حَدِيث ضرار قالها عند مُعَاوِيَةَ، ولذا قَالَ عليه السلام: مَا لِعَلِيٍّ وَ لِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَىٰ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِـهِ نَسْتَعِينُ: ٢ / ٢١٨ ضمن خُطْبَة ٢٢٢ وَقَالَ عليه السلام: لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَ لاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَ لَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ. قَالُوا: وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْـلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَىٰ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ فَنَاوَلَهُ كِتَاباً قِيلَ إِنَّ فِيهِ مَسَائِلَ كَانَ يُرِيدُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ. كما ورد في نَهْجِ ٱلْبلاَغَة: ١ / ٣٧ خُطْبَة ٣ الْمَعْرُوفَة بالشِّقشِقيّة.

⟸

وأُنظر وَسَائِل الشّيعة: ١/٦٦، ومَجْمَع الْبَيَان: ٩/٨٨ روايات كثيرة عن أهْل بَيْت العِصْمَة عليهم السلام في زهده عليه السلام مِنْهَا ما رواه عن محمّد بن قَيْس عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قَالَ: والله إنْ كَانَ عليّ عليه السلام ليأكُل أكل العَبد، ويجلس جِلسة العبد... ولقد ولّي خمس سنين ما وضع آجرة علىٰ آجرة... ولا أورث بَيْضاءً، ولا حمراءً... وإنْ كَانَ ليطعم النّاس خبز البُرّ واللَّحم، وينصرف إلىٰ منزله ويأكُل خبز الشّعير، والزَّيت والخَل... وقَريب من هَذَا في الرّوضة: ١٤٤ ح ١٧٣، والغارات: ١/٨١ وأُنظر قول عُمَر بن العزيز في تذكرة الخواصّ: ١٥٠: قَالَ عُمَر بن عبدالعزيز: ما علمنا أحداً كَانَ في هَذِهِ الأُمَّة أزهد من عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد النَّبيّ صلى الله عليه وآله. وأُنظر تَأرِيخ دمشق ترجمة الإمَام عليّ: ٢/٢٠٢ ح ١٢٥٤، ومناقب الخوارزمي: ١١٧ ح ١١٧.

وَقَالَ العَقَّاد في عبقرية الإِمَام: ٢٩... فلم يَعْرِف أحد من الخُلَفَاء أزهد مِنْهُ عليه السلام في لذّة دُنيا أو سبب دولة، كَانَ وهو أمِير الْمُؤْمِنِينَ يَأْكُل الشّعير وتَطحنه امْرَأته بيديها، وكَانَ يختم علىٰ الجراب الّذي فِيهِ دقيق الشَّعير فيَقُول: لا أُحبّ أنْ يدخل بطني ما لا أعلم... وَقَالَ سُفْيَانَ: إنّ عَلِيّاً لَم يَبنِ آجرة علىٰ آجرة... قد أبىٰ أنْ ينزل القصر الأبيض بالْكُوفَة إيثاراً للخصاص الّتي يسكنها الْفُقَرَاء، ورُبَّمَا بَاع سَيْفه ليشتري بثمنه الْكِسَاء، والطعام.

وأُنظر زهده أيضاً في فرائد السّمطين: ١/٣٥٢ ح ٢٧٨ وقِصّة سويد بن غفلة معه عليه السلام. وقَريب من لفظ الفرائد في البحار: ٤١/١٣٨، والغارات: ١/٨٠، والمناقب لِابن شهرآشوب: ٢/٩٨، وكشف الغمّة: ١/٢١٨، وتذكرة الخواصّ: ١٠٧ و ١١٠ عندما دخل عَلَيْهِ سويد بن غفلة قَالَ: دَخَلْت علىٰ عليّ عليه السلام يوماً وليس في داره سوىٰ حَصِير رثّ وهو جَالس عَلَيْهِ، فقلت: يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، أنْتَ ملك الْمُسْلِمِينَ، والحَاكِم عَلَيْهِمْ، وعلىٰ بَيْت المَال، وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوىٰ هَذَا الحصير شيء؟ فَقَالَ عليه السلام: يا سويد، إنّ اللبيب لايتأثث في دار النقلة، وأمامنا دار المقامة قد نَقلنا إلَيْهَا متاعنا، ونَحْنُ منقلبون إلَيْهَا عن قَريب. قَالَ: فأبكاني والله كَلاَمه.

وأُنظر قِصّة الأحنف بن قَيْس عند مُعَاوِيَة وقول الأحنف له في وصف الإِمَام عليّ عليه السلام كما وردت في تذكرة الخواصّ: ١٠٦، ونهج السّعادة في مُسْتَدرَك نَهْج الْبَلاَغَة: ٢/٤٨. وقصته عليه السلام مع عُقْبَة بن علقمة كما جاء في الغارات: ١/٨٤، أسد الغَابَة: ٤/٢٣. وقصته عليه السلام مع رجلٍ من ثقيف كما في التّذكرة: ١٠٧، وكشف الغمّة: ١/٢٣٣، وسفينة البحار: ٢/٤٥٨ في قِصّة الكبد المشوي. وقِصّة الفالوذج في الغارات:

يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[1] كما قَالَ الإِمَام.

وفِي الحَدِيث عَن النَّبِيّ أنّه قَالَ: «مَا أُحب أنْ يَكُون لِي مِثْل أُحُد ذَهَباً أنْفقه فِي سَبِيل الله، أمُوْت وأَتْرُك مِنْهُ قِيراطِين»[2]. من أَين جَاء بهَـذا رَسُـول الله؟ وهَـل يَنطق، ويَفعل إلّا بوحي من الله؟.

⇐ ١ / ٦٢ و٨٨ و٩٧ وغَيْر هَذَا كثير.

وأُنظر المصادر الّتي تبحث عن زهده ﷺ مثل المناقب: ٢ / ٩٧، وشرح النَّهج للفيض: ٩٥٦ الكتاب ٤٥ وقصار الجُمل: ١ / ٢٨٤ و٢٨٥ وجامع السّعادات: ٢ / ٥٢. وأُنظر أنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٣٠ و١٤٠ وما بعدها تحقيق المحمودي الطبعة الأُولَىٰ مؤسّسة الأعلمي بيروت، الطَّبَقات الْكُبْرَىٰ: ٣ / ٢٨ ط بيروت، تَأريخ ابْن عساكر: ح ١٢٤٢، ومُسْنَد أحمد بن حنبل ح ٧ و١٦ و٢٤، الْمُغْني: ٢٠ / ١٤١، وأُنظر نَهج ٱلْبَلاَغَة تحقيق (صُبحي الصّالح): ٢٨٣ خُطْبَة رقم ١٩١، والمناقب للخوارزمي: ٦٦، وكشف الْيَقِين: ٨٥ وما بعدها، وكشف الغمّة: ١ / ١٦٣ و٧٠، ونهج الحَقّ وكشف الصِّدْق لِابْن المطهّر الحـلّي، ودَلاَئِـل الصِّدْق للشّيخ المظفّر: ٢ / ٥٣٦ و٥٣٨، المعيار والموازنة: ٢٣٨ و٢٣٩ و٢٤١، وكشف المُرَاد: ٤١٢. والمناقب لِابْن شهرآشوب: ١ / ٣٦٤ ط النجف، و: ٢ / ٥٢ ط النّجف أيضاً، و: ٢ / ٩٤ ط إيران، وتحف العُقُول تحقيق الغفاري: ١٨٠ وما بعدها.

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كَلاَم لهﷺ بِالْبَصْرَةِ تَحتَ رَقم (٢٠٩).

(٢) حَقّاً مَا تَرك دِينَاراً، ولاَ دِرهماً، ولاَ عَبداً، ولاَ وَليدةً، بل تَرَك دِرعَه مَرهُونةً عِند يَهودِي عَلىٰ ثَلاثِين صَاعاً مِن شَعِير. أُنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ٣ / ١٢٠، كَنز الْعُمَّال: ٦ / ٣٥٦ ح ١٦٠٣٨، مُسْنَد أحمد: ١ / ٣٠٠، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٤ / ٧، تَركَة النَّبيّﷺ لحمّاد بن زِيد البَغدادي: ٧٦، البِداية والنَّهاية: ٥ / ٣٠٥.

الخطبة

ـ ١٢٧ ـ

مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ... فِقْرَة ١ ـ ٢:

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ، وَ ضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَلَالِي، وَ تَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَ تُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ، وَ السُّقْمِ، وَ تَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَ قَتَلَ الْقَاتِلَ وَ وَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَ قَطَعَ السَّارِقَ، وَ جَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَ نَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذُنُوبِهِمْ، وَ أَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَ لَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ(١). ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَ مَنْ رَمَىٰ بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَ ضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَ سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَ مُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَ خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَ الْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَ إِيَّاكُمْ وَ الْفُرْقَةَ!

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَىٰ

هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ[٢].

اللُّغَة:

الْمُحْصَنَ ـ بفتح الصَّاد ـ الْمُتَزُوج. والْفَيْء: ٱلْغَنِيمَة. وَضَرَبَ بِهِ التِّيه: سَلك بِه فِي مسَالِك الضَّياع، والهلاك. والنَّمَطُ الْأَوْسَطُ: المَذْهَب، أو النَّوْع الأَوْسَطُ. والشِّعَارِ: العَلاَمَة عَلىٰ شَيء خَاص.

الإِعْرَاب:

ضَمِير التَّثنية في نَكَحَا يَعود إِلىٰ السَّارِقَ، والزَّانِيَ، ومُحِبٌّ، وَمُبْغِضٌ بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل منهُ صِنْفَانِ. وحَالاً تَمْيِيز.

ٱلْمَعْنىٰ:

الْمَعْرُوف عن مَذْهَب الْخَوَارِج أنّهم يُكفّرون أَهْل الكبَائِر دُونَ الصَّغائِر، ولكنْ عِبارة المَوَاقف للإيجي تَدل أنّهم لا يُفرقون بَيْنَ الذّنُوب الْكَبِيرة والْصَّغِيرة، وهَذَا نصّها: «قالت الْخَوَارِج: كلّ مَعْصِيَة كُفْر»[١] وكَلِمَة «كلّ» تُفيد العمُوم، وٱستخراج الأفراد، والشَّيخ أبو زُهرة علىٰ هَذَا الرَّأي في كتاب ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَميّة، بـل أَلزم الْخَوَارِج بإشكال لا مَفَرّ لهم منهُ، وهو أنّ تَكفِيرهم لِلْإمَام بِسبب التَّحْكِيم مَعناه أنّ كلّ من يُخالفهم الرّأي فَهُوَ كَافر يجب قَتله، وإنْ ٱجْتهَد فأخطأ! وهَذِه عِبارة الشَّيخ

---

(١) أنظر، المواقف: ٤/ ٣٨٠، وما بعدها، كشف القناع للبهوتي: ١/ ٢٧٠، الملل والنّحل للشّهرستاني: ١/ ٤٨، الحُور العِيْن: ١٧٧، البدء والتّأريخ: ٥/ ١٤٢، الْمُعْتَزِلَة وأصولهم الخَمْسَة، وموقف أَهْل السُّنّة مِنْهُم: ١٤ـ٢١.

في كتاب ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَمِيّة: «يرىٰ الْخَوَارِج تكفير أَهْل الذّنُوب، ولَم يُفرقوا بَيْنَ ذَنْبٍ وذَنْب، بل ٱعتبرُوا الخَطَأَ في الرّأي ذَنْباً إِذَا أدىٰ إِلىٰ مُخالفة وَجه الصّواب في نَظرهم، ولذا كَفَروا عَلِيّاً بالتَّحْكِيم مع أنّه لَم يَقدم عَلَيْهِ مُختاراً... فلجاجهم في تَكفِيرة دَليل علىٰ أنّهم يرُون الخَطَأَ في الاِجْتِهاد يُخرج عَن الدِّين»[1]، وبناءً عَلىٰ قولهِم هَذَا يَجب حَصر الإِسْلاَم بالْخَوَارِج وحدهم، وبَاقي النَّاس كلّهم ضَالّون ومُلحدون، بل بناءً علىٰ هَذَا الْقَوْل يَجب تَخطئة النّبيّ ﷺ فِي قَوْله المُتواتر: «إذَا حَكَمَ الْحَاكِم فٱجْتهد فأَصَابَ فلهُ أجرَان، وَإِذَا حَكَمَ فٱجْتهد فأخطأ فلهُ أجرٌ»[2].

(فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ، وَ ضَلَلْتُ). والخِطَاب للخوَارِج الّذين كَفّروا الإِمَام بسبب التَّحْكِيم، وقَوْله: «أَخْطَأْتُ، وَضَلَلْتُ» بِزَعم الْخَوَارِج يُؤَيد مَا نَسبه إِلَيْهِمْ الشَّيخ أبو زُهرة من أنّهم يُكفرون مَن خَالفهم في الرّأي والاِجْتِهَاد. وفي شرح ٱبن أبي ٱلْحَدِيد «أنّهم يَعتبرون دَار الإِسْلاَم دَار كُفر لا يجُوز الكفّ عن أحدٍ من أَهْلِها... وإنّ قوماً منهُم كَانوا يَقتلون الأَطْفَال حَتّىٰ البهائم»[3].

وقد ٱحتج الإِمَام عَلَيْهِمْ بِمَا يَلي:

(فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَلاَلِي). لنفترض أنّي أخطأتُ كَما تَزعمُون فأي ذَنبٍ للأبرياء حَتّىٰ قَطعتم عَلَيْهِمْ الطّرِيق، وقتلتمُوهم ظُلماً، وعُدْوَاناً:

---

(١) أُنظر، كتاب ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَمِيّة: ٢٤١، (مِنْهُ ﷺ)، كشف القناع للبهوتي: ٢٧٠/١، الأنساب للسمعاني: ٢١٥، اللُباب: ١٧٤/٣.

(٢) أُنظر، كتاب الأُمّ للشّافعي: ٢١٦/٦، المجموع: ٢٠/ ١٤٩، فتح الوهاب: ٣٦٢/٢، ٱلرِّسَالَة: ٤٩٤، مختصر المزني: ٢٩٩، المحلىٰ: ٧٠/١، سُبل السّلاَم: ١١٧/٤، الطّرائف: ١٩٢.

(٣) أُنظر، شَرح النّهج: ١٣٦/٤ و: ١١٣/٨.

(سُيُوفُكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ، وَ السُّقْمِ، وَ تَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ) والله سُبْحَانَهُ يَقُول: ﴿وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)].

فكَيْفَ تُكفِّرُون بٱسم الْإِسْلاَم من نصّ ٱلْقُرْآن عَلىٰ براءته؟

ثُمّ لنفترض أنّي عَصِيتُ كَمَا تَزعمُون فإنّ ٱلْمَعْصِيَة لا تَستدعِي الْكُفْر، والخرُوج عن دِين ٱلْإِسْلاَم، والدَّلِيل علىٰ ذَلِكَ أنّ رَسُول الله كَان يُعامل مُرتكب الْكَبِيرة مُعَامَلَة الْمُسْلِم، ويَجري عَلَيْهِ جَمِيع أَحْكَام الإِسْلاَم... ثُم ذَكر الإِمَام أَرْبَعَة أَمثلة تَشهد عَلىٰ أنّ الذَّنب وإنْ كبُر لا يَخرج الْمُسْلِم بِهِ من دِينه إلىٰ الْكُفْر والإلحَاد.

١ ـ (وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ) ٱتفقَ الْمُسْلِمُون عَلىٰ أنّ المُتزُوج الَّذي يَملك فَرجاً يَغدو عَلَيْهِ ويَرُوح مَتىٰ شَاء ثُمّ زنَا ـ يُقام عَلَيْهِ الرَّجم، ولَكِنَّهُ لا يَخرج ذَلِكَ عن ٱلْإِسْلاَم، وقد صَلَّىٰ عَلَيْهِ النَّبِيّ، وَوَرَّثه مِن قَرِيبه الْمُسْلِم، وهَدي النَّبِيّ ﷺ هو الحُجّة، والدَّلِيل. وكُلنا يَعلم أنَّ الزِّنَا من الكبَائِر.

٢ ـ (وَ قَتَلَ الْقَاتِلَ وَ وَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ). وأيضاً ثَبت عَن رَسُول الله ﷺ أنّه حَكم بِقتل من قَتل مُؤمِناً مُتعمداً، وقَسّم مِيراثه بَيْنَ أقربائه ٱلْمُسْلِمِين، الْقَتْل من أكبَر الكبَائِر، ولو كَان مُستوجباً للكُفْر لمَا وَرِّث الْمُسْلِم شَيْئَاً من تَركة القَاتل، لأنّ الْمُسْلِم لا يَرث الْكَافِر عِند ٱلْمَذَاهِب الْأَرْبَعَة، ولا عِند الْخَوَارِج ـ كَمَا يَظهر من رَدّ الْإِمَام، ونقضة عَلَيْهِمْ ـ وإنْ كَان الْمُسْلِم يَرث من الْكَافِر «عِند سَعيد بن المُسيب، ومَسرُوق، وعبدالله بن مَعقل، والشّعبِي، والنَّخَعِيّ، ومُعمر، وروي ذَلِكَ عن عُمَرَ،

(١) ٱلأَنْعَام: ١٦٤.

ومعاذ»[١].

٣ و ٤ ـ (وَ قَطَعَ السَّارِقَ، وَ جَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَ نَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ). وأيضاً ثبت أنّ رسول الله قَطَعَ يَد السَّارِق، وجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ المُتزُوج بالشُّرُوط المَذكورة في كُتب الفِقْه، ثُم أجرىٰ عَلَيْهِمَا حُكم الْإِسْلاَم من المُناكحة، والمِيرات، ومشاركة ٱلْمُسْلِمِين في الخَرَاج، وٱلْغَنِيمَة، والصَّلاة عَلىٰ الجنَازَة، والدَّفن في مقابر ٱلْمُسْلِمِين، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ الذَّنب يُوجب الفُسق دُونَ الْكُفْر (فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذُنُوبِهِمْ) وَهِي الزِّنَا، وقتل العَمد، والسَّرقة فِي غَيْر سَنَة المجَاعة (وَ أَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ)، وهُو حَدّ الْقَتْل عَلىٰ القَاتل عَمداً، والرَّجم عَلىٰ الزَّانِي الُمحْصَنِ، والجَلد عَلىٰ غَيْرَ الُمحْصَنِ، والقَطع عَلىٰ السَّارِق (وَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلاَمِ، وَ لَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ) بل أَبقاهُم عَلىٰ دِين الْإِسْلاَم، وأعطاهُم كُلّ ما لِلمُسْلِمِين مِن حَقّ (ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَ مَنْ رَمَىٰ بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ) يُشير إِلىٰ أنّ الْخَوَارِج من الَّذِين يَصدق عَلَيْهِمْ قَوْله

(١) أنظر، المُغني لِابْن قُدَامَة: ٦ / ١٦٦، كتاب الْفَرَائِض. (مِنْهُ ﷺ). اللُباب: ٣٢٤/٣، أسهل المدارك: ٢٨٨/٣، الأُم: ٧٣/٤، المبسوط للسّرخسي: ٣٠/٣٠، الرّوضة البهية: ٣١/٨، الموطأ: ٨٦٨/٢، الشّرائع: ١٤/٤، الخِلاَف: ٢٨/٤، بداية الُمجْتَهِد: ٣٥٤/٢، أسهل المدارك: ٢٨٨/٣، المجموع: ٦١/١٦، الوجيز: ٢٦٧/١، مغني المحتاج: ٢٥/٣، السّراج الوهّاج: ٣٢٩، الشّرح الْكَبير: ٢١٩/٧، حاشية ردّ المحتار: ٧٦٧/٦، نيل الأوطار: ١٩٥/٦، الفتاوىٰ الهندية: ٤٥٤/٦/٦، البَحْر الزَّخّار: ٣٦٧/٦.

وأُنظر، ترجمة هَؤُلآء في: أعيان الشّيعة: ٧ / ٢٤٩، والخُلاَصة: ١ / ٧٩، ورجال الطوسي: ١/ ٩٠، ورجال الكشّي: ١ / ٣٣٢، ورجال أبي داود: ١ / ٦٩٥، وتنقيح المقال: ٢ / ٣٠، وطَبقَات أبن سعد: ٥ / ١١٩، والمعارف: ٢٤٨، وتذكرة الحفّاظ: ١ / ٥١، وسير أعلام النُبلاء: ٤ / ٢١٧ / ٨٨، وتأريخ الإِسْلاَم: ٤ / ٤، وتهذيب التّهذيب: ٤ / ٧٤، والبداية والنّهاية: ٩ / ٩٩، وطَبقَات الحفّاظ: ١٧، والنّجوم الزّاهرة: ١ / ٢٢٨، شذرات الذّهب: ١ / ١٠٢.

تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(١)].

(وَ سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَ مُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَ خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ). المُفْرِط بتخفيف الرَّاء هُو المُسرِف الَّذي يَتجاوز الحَدّ، ويُقَال لهُ: المُغالِي، والمُفَرِّط بتشديد الرَّاء هو المُقصر المُهمل، فإنْ أظهر العداوة، والبَغضاء فهُو نَاصبيّ، والنَّمَطُ الأَوْسَطُ بَيْنَهما لا مُسرف، ولا مُقصر، لَيْسَ بِغَالٍ، ولا بِقَالٍ، وفي الاِسْتِيعَاب مَا نصّه بالحَرف: «رَوت طَائِفَة من الصَّحَابَة أنّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِعَليّ: «يَا عَلِيُّ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[(٢)]... ويَهلك فِيك رَجُلان: مُحِبّ مُفْرِط،

---

(١) اَلمُجَادِلَة: ١٩.

(٢) أُنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٥/٦٠١، ح ٣٨١٩، و: ٨/١١٦ كتاب الإِيمَان بَاب المناقب ح ٣٧٣٦ بإختلاف يسير في اللفظ. خصائص النسائي: ٨٣ ح ٩٥ و٩٦. وفرائد السِّمطين: ١/١٣٣ ح ٩٥. تَأريخ دمشق لِابْن عساكر: ٢/١٩٠ ح ٦٧٤ و١٩٢ ح ٦٧٩ و٢٠٢ ح ٦٩٣ و٢٠٣ ح ٦٩٤. صَحِيح مُسْلِم: ١/٨٦ ح ١٣١، كنز الفوائد: ٢/٨٣ و ٨٤. بشارة المُصْطَفَىٰ: ٦٤ و٧٦ و١٤٨. كـفاية الطالب: ٦٨ و ٢٠ ط الغري، فتح الباري: ٧/٥٧. البحار: ٣٩/٢٥٥ ح ٢٨ ـ ٣٠. مُسْنَد أبي يعلىٰ الموصلي: ١/٣٤٧. مُسْنَد أحمد: ١/٩٥. و: ٦/٢٩٢. سُنَن أبن ماجه: ١/٤٢ ح ١١٤. سُنَن النَّسائي: ٨/١١٧. تَأريخ بغداد: ٢/٢٥٥. و: ١٤/٤٢٦ الاِسْتِيعَاب: ٢/٣٧. مناقب أبن شهرآشوب: ٣/٢٠٦.

وأُنظر، إرشاد المفيد: ٣٧ الفصل ٣ من الباب ٢ رقم ١. شرح النَّهج للفيض: ١٠٩٩ اَلحِكْمَة ٤٢. وفي صُبحي الصَّالح: ٤٧٧ من اَلحِكْمَة ٤٥ قَالَ عليه السلام: يا عليّ لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق. وفي شرح النَّهج لِابْن أبي اَلحَدِيد: ١٨/١٧٣. و: ٤/٨٢. وكشف الغمّة: ١/٥٢٦. المناقب لِابْن المغازلي: ٩٠ ح ٢٢٥ و٢٣٢. المناقب لأَحْمَد بن حنبل: ٢/٥٣٦ ح ٩٤٨. الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٢ و٧٣ ط الميمنية و: ١٢٠ ط المحمدية. ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٩١. الفضائل لأَحْمَد: ٢/٦١٩ ح ١٠٥٩. حلية الأَوْلِيَاء: ٤/١٨٥. مشكاة ⇔

وكَذّاب مُفترٍ[1]... وتَفرق فِيكَ أُمّتي كمَا أفـترقت بَـنُو إِسْرَائِـيلَ فِي عِـيسَىٰ»[2].
يُشيرﷺ إِلىٰ النَّصارىٰ الَّذِين أَلهوا عِيسَىٰ، وإِلىٰ اليَهُود الَّذِين قَالُوا: هو آبن زِنَا.

ونَقل السَّيِّد مُحسن الأَمِين، عن مُسْنَد أحمد، وصَحِيح التِّرمِذي، وإِسْتِيعَاب آبن عبد البَر، ومُسْتَدرَك الحَاكِم، نَقل: أنّ بُغض علـيّ كـان العَـلاَمَة عـند الـصَّحَابَة

⇔ المَصَابيح: ٣/١٧٢٢ ح ٦٠٩١. يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/١٤٩ ومابعدها،٢/٣٩٢ و١٨٠ ط أسوة و: ٤٧ و٤٨ و٢١٣ و٢٨٢ ط اسلامبول و٥٢ و٥٣ و٢٥٢ و٣٢٧ ط الحيدرية، نور الأَبْصَار: ٧٢ ط العُثْمَانِية، و: ٧١ ط السعيدية، تذكرة الخواصّ: ٢٨، مطالب السؤول: ١/٤٨، نظم درر السِّمطِين: ١٠٢، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٧٠.

وأنظر، إسعاف الراغبين بهامش نـور الأَبـصَار: ١٥٤ ط السـعيدية و: ١٤٠ ط العُـثْمَانِـية، أَنْسَـاب الأَشْرَاف: ٢/٩٧ ح ٢٠، مصابيح السُّنّة: ٢/٢٧٥، الرّياض النّضرة: ٢/٢٨٤، كنوز الحقائق: ١٩٢ ط بولاق و: ٢٠٣ ط أُخرىٰ، جامع الأُصول لِإبْن الأثير: ٩/٤٧٣ ح ٦٤٨٨، مشكاة المَصَابِيح: ٣/٢٤٢، كنز العُمّال: ١٥/١٠٥ ح ٣٠٠ الطبعة الثَّانِيَة، الغـدير: ٣/١٨٢، إحـقاق الحـقّ: ٧/١٩٠، الشَّـذرات الذَّهبية لِإبْن طولون: ٥٦، أسنىٰ المطالب للجزري: ٥٤، نزل الأبرار: ٥٥، مُسْنَد الحميري: ٣١ ح ٥٨ ط المَدِينَة المُنَوَّرَة، المُصَنَّف لِإبْن أبي شيبة: ٢/٥٧، أُسد الغَابَة: ٣/٦٠٢ ط بيروت، معجم الشّيوخ: ٢٣٧ رواه محمّد بن أحمد بن جميع الصّيداوي.

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١/١٦٠، مَجْمَع الزّوائد: ٩/١٣٢، مناقب آل أبي طالب لِإبْن شهر آشوب: ١/٢٢٧، كنز العُمّال: ١١/٣٢٦، تَفْسِير فرات: ٤٠٥، تَفْسِير نور الثقلين: ١/٣٥٨، كنز الدّقائق: ٢/١٣٧، مناقب أَمِير المُؤْمِنِينَ الكوفيّ: ٢/٢٨٣، العُمدة لِإبْن البطريق: ٢١٢، شرح الأَخْـبَار للـقاضي النّـعمان المـغربيّ: ٢/٤٠٥، عوالي الئالي: ٤/٨٧.

(٢) أُنظر، الإِسْتِيعَاب لِإبْن عبد البر المَالكي: ٣/٣٦، طَبْعَة سَنَة ١٩٣٩م (مِنْهُ ﷺ).

وأُنظر، المناقب لِإبْن المغازلي: ٢٣٧ الرقم (٢٨٥)، الكَافِي: ٨/٥٧ ح ١٨، كنز الـعُمّال: ١٣/١٢٥، العُمدة: ٢١٣، المسترشد في الإِمَامَة: ٦٣٦، بشارة المُصْطَفَىٰ: ٢٤٦، شرح الأَخْبَار: ٢/٤٠٥، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣/١٢٣، فرائد السِّمطِين: ١/٣٥ ح ١٣٣، نهج البَلاَغَة: حِكْمَة «١١٧»، المعيار والموازنة: ٣٢، شرح نهج البَلاَغَة للمعتزلي: ٤/٥، تَفْسِير فرات الكوفي: ٤٠٥، شـواهـد التـنزيل: ٢/٢٣٣، تهـذيب الكَمَال: ٢٠/٤٨٥، العدد القَوِيَّة: ٢٤٨، أمالي الصدوق: ١٥٦، كشف اليَقِين: ٤٣٠، روضة الواعـظين: ١١٢، كتاب سليم بن قَيس تحقيق، الأَنْصَاري: ٤١٢.

للمُنافق فِي دِينه، وتَمْيِيزه عن المُؤْمِن الصَّادق[1]... وثَبت بطَرِيق القَطع أنّ مُعَاوِيَة كَانَ يَسب عَلِيّاً، ويَدعو إِلىٰ سَبّه[2].

(١) أُنظر، أعيان الشّيعة: ٣/١٥٤، (مِنهُ ﷺ). وقد تَقَدّمت تخريجاته بالإضافة إِلىٰ ذَٰلِكَ أُنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٥/٢٩٨ بَاب ٨٣ ح ٣٨٠٠، جامع التِّرمِذي: ٢/٢٩٩، صَحِيح التِّرمِذي: ٥/٥٩٣ ح ٣٧١٧ فَضَائِل الإِمَام عليّ ﵇ ولكن بلفظ: كنّا لنعرف المُنَافِقِين نَحنُ مَعَاشِر الأَنْصَار ببغضهم عليّ بن أبي طالب، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٢، مُسْنَد أحمد: ٢/٦٣٩ ح ١٠٨٦، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/١٣٢، المناقب: ٣٣٢ ح ٣٥٣، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٩١.

وفي مُسْنَد أحمد: ٢/٥٧٩ ح ٩٧٩ عن أَبِي سعيد الخدري ولكن بلفظ «منافقي» بدل «منافقينا»، أُنظر يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/١٥٠ و١٥١، و: ٢/١٨٠ و٤٦١ و٢٧٧ ط أُسوة. شرح النهج لِابْن أَبِي الحَدِيد: ٤/٨٣، شرح النهج للعلّامة الخوئي: ٢١/٨٤. والحديث بلفظه في فرائد السّمطين: ١/٣٦٥ ح ٢٩٤ و٢٩٥ باختلاف يسير وح ٢٩٣.

ولَسْنَا بصدد ردّ ابن تيمية في مِنْهَاج السُّنَّة: ٢/١٧٩ وإيراده علىٰ هَٰذَا الحديث وإنكاره بعدم مَعْرِفَة سنده بل نُحيل القارئ الكريم إِلىٰ الغدير: ٣/١٨١ ـ ١٨٨ مع العِلْم أنّ الحديث روي عن ابن عُمَر، وأَبِي ذَرّ الغفاري، وجابر الأَنْصَاري، وأَبِي سعيد محمّد بن الهَيْثَم، وأَبِي الدّرداء وقد ذكر ذَٰلِكَ صاحب الرّياض: ٢/٢١٥، وحلية الأَوْلِيَاء: ٦/٢٩٥، والاِسْتِيعَاب: ٣/٤٦، أسنىٰ المطالب: ٨، والتّذكرة: ١٧.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١/١٨٨، ٢/٥٩٤ ح ١٠١١ و: ٦/٣٢٣، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ١/١٢١، و: ٣/١٣٨، مَجْمَع الزوائد: ٩/١٣٠، نظم درر السّمطين: ١٠٦، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ١/١٨٧ ح ١٥٢، سُنَن أَبِي داود: ٢/٤٠٢، كتاب السُّنَّة: ٦٠٦ ح ١٤٢٣، كفاية الطالب: ٨٢ و٨٣، المَحَاسِن: ١/٢٦٠، الغارات: ٢/٨٤٣، مناقب أَمِير المُؤْمِنِينَ للكوفي: ٢/٥٤٧، شرح الأَخْبَار: ١/١٥٥ ح ١٠١، الثاقب في المناقب: ٢٧١، مناقب آل أَبِي طالب: ٢/١٠٤، المُعْجَم الكَبِير: ٣/٨٢ ح ٩٤ طَبْعَة بغداد، كشف اليَقِين: ٢٣٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٣/١١ الطبعة الأُولَىٰ، فرائد السّمطين: ١/٣٠٢ و٣٠٣ ح ٢٤١ مروج الذّهب: ٢/٤٣٥، بحَار الأَنْوَار: ٣٩/٣١١، الغدير للأميني: ٢/٢١٩، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٤ ط الميمنية و: ١٢١ المحمدية بتفاوت، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٦٦، المناقب للخوارزمي: ١٣٧ ح ١٥٤ و: ٣٩٤ و٣٩٥، خصائص النّسائي: ٢٤، كنز العُمَّال: ٦/٤٠١، ومشكاة المَصَابِيح: ٥٦٥ و٣/١٧٢٢ ح ٦٠٩٢ ط أُخرىٰ، وتَأْرِيخ الخُلَفَاء: ٦٧، والرّياض النضرة: ٢/١٦٦ بأَلفَاظ متقاربة.

الجَمَاهِير:

(وَ ٱلْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ) أي الجَمَاعَة بدليل قَوْله بلاَ فَاصل: (فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ) أي مَعَهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[1] أي مَع حُبِّه، والمُرَاد بِالجَمَاعَة الكَثْرَة المُعبر عَنْهَا الآن بالجَمَاهِير، كأَهْل الزِّراعَة، والصِّنَاعَة، والتِّجَارَة الّتي لا غنىً عَنْهَا لِحيَاة النّاس، وأَهْل الْفِكْر، وٱلْقَلَم، وكَانَتْ طَبقة «الْأَشْرَاف» تُعبر من قبل عن هَؤُلَاءِ بالهَمَل ـ بفتح الهاء ـ أي الإِبْلِ المترُوكة مع ٱلْعِلْم، والْيَقِين بأَنّ مَا مِن أُمّة تَأمل فِي النّهُوض إلاّ بِكَد الجَمَاهِير، وجهُودهم. فَهُم الَّذِين صَنعوا التَّأرِيخ، والحضَارة، ومَا زَالت بصمَاتِهم إِلىٰ الْيَوْم، وإِلىٰ آخر يَوْم علىٰ الأهرام، وسَدّ الصِّين، وقنَاة السُّويس، وأُلُوف القِلاع، والصّرُوح... وبِهَذَا نَجِد التَّفْسِير الصَّحيح لقول الرَّسُول الأَعْظَمﷺ: «مَن سَرَّه بَحبُوحَة ٱلْجَنَّة فَلْيَلْزَم الجَمَاعَة»[2]... «ومَن خَرَج قَيد شِبْرٍ عَن الجَمَاعَة فَقد خَلع رَبقة ٱلإِسْلاَم عَن

وأُنظر تهذيب الكَمَال: ٣٢٧/٤، تَأرِيخ أَبن معين الدّوري: ٣٢٦/٢، الْعِلَل لأَحْمَد: ١٧٦/٣ ح ٤٧٨١، التَّأرِيخ الْكَبِير للبخاري: ٣١٩/٨ ح ٣١٦٣، التَّأرِيخ الصَّغِير للبخاري: ٢٣٨/١، كَذَٰلِكَ بناء المقالة الفاطمية: ٩٥، الثقات لِابْن حبّان: ٥٣٧/٥، تَأرِيخ بغداد: ٤٦٣/٧، تَأرِيخ دمشق: ١٩٤/١١، سير أعلام النبلاء: ١٠٥/١، نور الأَبْصَار: ٩٩ فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٢ /٢٢٣، أمالي الشّيخ الصّدوق: ٦٠ و ٥٢ و ٥٣ المجلس الحادي عشر ح ٢، مُنْتَخَب كنز الْعُمَّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٣٠، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/ ١٥٢، و: ٢/ ١٠٢ و ٢٧٤ و ٢٧٧ ط أُسوة، الجَامِع الصَّغِير: ٢ /٦٠٨ ح ٨٧٣٦، مَوَدَّة القُربىٰ: ١٥، كشف الغمّة: ٣٢.

(١) ٱلإِنْسَان: ٨.

(٢) أُنظر، كنز الْعُمَّال: ٢٠٧/١ ح ١٠٣٣، الفائق في غريب الحديث: ٧٣/١، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٢٣/٨، مُسْنَد الشّهاب: ٢٥٠/١ ح ٤٥٠، الْمُعْجَم الأوسط: ١٩٣/٧، مُنْتَخَب مُسْنَد عبد بن

عُنقه»[1] ... «ومَن فَارق الجَمَاعَة مَات مِيتَة جاهِلية»[2] أي مُجرماً، سفّاحاً.

(فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ) أي يُقِيم العَقبَات، ويَبنِي السّدُود فِي طَرِيق الجَمَاهِير العَاملة، وتَقدمها إِلىٰ الأمَام فهُو من إِخوَان الشَّيَّاطِين، والشّذاذ الملاَعِين (أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَىٰ هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ) لأنّه عَدُوّ الْحَيَاة، والإِنسَانِية (وَ لَوْكَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ) أي ولو كُنتُ «أَنَا» ذَاكَ الْعَدُوّ الَّذي يُضايق الجَمَاهِير بأسَاليبه، وأَطمَاعه.

ٱلْحَكَمَانِ...فِقْرَة ٣:

فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَ يُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَ إِحْيَاؤُهُ الاِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَ إِمَاتَتُهُ الاِفْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ ٱتَّبَعْنَاهُمْ، وَ إِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا ٱتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ ـ لاٰ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَ لاٰ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَ لاٰ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ. فَتَاهَا عَنْهُ، وَ تَرَكَا الْحَقَّ وَ هُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَ قَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا ـ فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَ الصَّمْدِ لِلْحَقِّ ـ سُوءَ رَأْيِهِمَا،

⇐ حميد: ٣٧، المُصَنَّف لعبدالرّزاق الصّنعاني: ٣٤١/١١، مَجْمَع الزّوائد: ٢٥٥/٥، سُنن التِّرمِذي: ٣١٥/٣، مُسْنَد أحمد: ٢٦/١، كتاب المُسند للشّافعي: ٢٤٤.

(١) أنظر، المجموع: ١٩٠/١٩، المبسوط للسرخسي: ٢٦٣/٧، روضة الطّالبين: ٢٧/٧، مغني المحتاج: ١٢٤/٤، حَوَاشِي الشّرواني: ٦٥/٩، كشف القناع: ٢٠٦/٦، إعانة الطّالبين: ١٧٨/٤، نيل الأوطار: ٣٥٧/٧، المَحَاسِن: ٩٤/١، الكَافِي: ٤٠٥ ح ٤.

(٢) أنظر، مُنْتهىٰ المطلب للعلاّمَة الحِلي: ٩٨٣/٢، سُبل السّلام: ٢٦١/٣ ح ٥، نيل الأوطار: ٣٥٦/٧ ح ٣١٨١، سُنن البَيْهَقِيّ: ١٥٧/٨، تيسير الوصول: ٣٩/٢، صَحِيح مُسْلِم: ٢١/٦.

وَ جَوْرَ حُكْمِهِمَا.

اللُّغَة:

البُجْر ـ بضم البَاء وسكون الجِيم ـ الشَّر والدَّاهِية. والخَتَلْ: الخِدَاع.

والمَلأ: الجَمَاعَة، وقيل: هُم «الأَشْرَاف» الَّذِين يَمْلأُون الْعَيْن أُبْهَة، والصَّدر هَيْبَة. والصَّمْد ـ بسكون المِيم ـ القَصد.

الإِعْرَاب:

ٱلْحَكَمَانِ نَائب فَاعِل لحُكِّم، ولِيُحْيِيَا نُصب بأنْ مُضمرة بَعد اللاَّم، وآتِ مُضَارِع مَجزُوم بِلَمْ، وبُجْراً مَفْعُول لآتِ، ولاَ أَبَا لَكُمْ «لاَ» نَافِية للجنس وأَب آسمها وَلَكُمْ خَبَر، والجُملة مُعترضة، وٱسْتِثْنَاؤُنَا فَاعِل سَبق، وسُوءَ رَأْيِهمَا مَفْعُول.

ٱلْمَعْنىٰ:

(فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَ يُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ). إنّ الإِمَام قَاتل مُعَاوِيَة، وحِزبَه عَلىٰ ٱلْقُرْآن كَمَا قَاتل النَّبِيّ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ من قَبل عَلىٰ تَنزِيله، ويَشهد ذَلِكَ حَدِيث «خَاصف النّعل» الَّذي رواه النّسائي في الخصَائص، وأبو نَعيم في «الحُلية»، والحَاكِم في «المُسْتَدرَك»، وهو أنّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إنّ رَجُلاً مِنكُم يُقَاتل النَّاس عَلىٰ تأويل ٱلْقُرْآن كَمَا قَاتلتُ عَلىٰ تَنزِيله»[1]، ولمّا سُئل عَن هَذَا

(١) كَانَ المشركون إذَا أبصروا عَلِيّاً في الحَرْب عَهد بعضهم إلىٰ بَعْض. وهو الَّذي رَكز الرَّاية في أصل الحُصن

المُقاتل ؟ قَالَ : هُو خَاصف النّعل ، وكَان عَليّ يَخصف نَعل رَسُول الله حِين نَطق بهَذا الحَدِيث... وعلىٰ هَذَا الأَسَاس ، أَساس اَلْعَمَل بِاَلْقُرْآن رَضِي الإِمَام بالحَكَمَيْن ، أو سَكت عَنها بَعد أنْ اَشترط عَلَيْهِمَا اَلْعَمَل بكتَاب الله ، لا بَالْهَوَىٰ ، والرّأي . وتَقَدَّم ذَلِكَ[1] .(وَ إِحْيَاؤُهُ الاِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ ، وَ إِمَاتَتُهُ الاِفْتِرَاقُ عَـنْهُ) . إنْ اَجـتمعت كَـلِمَة

⇔ يَوْم اَلأَحْزَاب ، وهو الَّذي قَالَ فِيهِ رَسُول الله ﷺ في غَزْوَة الحُدَيْبِيَة في حَدِيث طويل : ...لتنتهينّ يا مَعشر قُرَيش ، أو ليبعثنّ الله عَلَيْكُم رَجُلاً اَمتحن الله قلبه بالإِيمَان يَضرب رقَابكُم علىٰ الدِّين . فَقَالَ بعضهم : مَن هو يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : خَاصف النّعل في الحُجرة ، فتبادَرُوا إِلَيْهَا ليعرفوا مَن هو ، فَإِذَا هو أَمِير اَلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام . (سُنن التِّرمِذي : ٥/ ٦٣٤ ح ٣٧١٥ ، الفضائل لأَحْمَد : ٢/ ٥٧١ ح ٩٦٦ و ١١٠٥ ، مُسْنَد أحمد : ٣/ ٣٣ ح ١١٣٠٧ و ١١٧٩٠ ، المُسْتَدرَك لِلْحَاكِم : ٢/ ١٤٩ ح ٢٦١٤ و : ١٣٢/٣ ح ٤٦٢١ و : ٣٣٢/٤ ح ٧٨١٩).

وهو الَّذي قَالَ فِيه ﷺ : إنّ بَيْنَكُمْ من يُقَاتل علىٰ التّأويل ، كمَا قاتلت علىٰ التّنزِيل . (جمع الفوائد : ١/ ٣٢٤ ، مَجْمَع الزّوائد : ٥/ ١٨٦ و : ١٣٣/٩ ، خصائص النّسائي : ٤٠ و ١٦٦) . ولذا قَالَ الإِمَام الشّافعي : أخذ المُسْلِمُون السِّيرَة في قتال اَلْمُشْرِكِين من رَسُول الله ﷺ . وأخذوا السِّيرَة في قِتال البُغاة من عَليّ عليه السلام . (شرح النّهج لِاِبْن أبي اَلْحَدِيد : ٩ / ٢٣١ نقلاً عن كتاب الأُمّ للشّافعي : ٤ / ٢٣٣ بَاب الخِلاَف في قتال أَهْل البَغي).

وأنظر ، الإِصَابَة : ٢٩٠/٤ ح ٥٠٩٠ ، موارد الظّمآن : ٥٤٤/١ ح ٢٢٠٧ ، صَحِيح اِبن حبّان : ٣٨٥/١٥ ح ٦٩٣٧ ، معجم المحدثين : ١٢٦/١ ، العِلَل المتناهية : ٢٤٢/١ ح ٣٨٦ ، السُّنن الكُبْرَىٰ : ١٢٧/٥ ح ٨٤٥٧ ، المُصَنّف لِاِبن أبي شيبة : ٣٦٧/٦ ح ٣٢٠٨١ و ٣٢٠٨٢ ، شرح مَعَاني الآثَار : ٣٥٩/٤ ، معتصر المختصر : ٢٢٠/١ ، المُعْجَم الأوسط : ١٥٨/٤ ح ٣٨٦٢ ، مُسْنَد البزار : ١١٨/٣ ح ٩٠٥ ، مُسْنَد أبي يعلىٰ : ٣٤١/٢ ح ١٠٨٦ ، تَأريخ بغداد : ١٣٤/١ و : ٤٣٣/٨ رقم (٤٥٤٠).

(١) أنظر ، ذلِكَ مُفصلاً في شَرح اَلْخُطْبَة : ١٢٥ مِن هَذَا الكتَاب . (مِنْهُ رحمه الله).

وخُلاَصة التَّحكِيم :

قَالَ أبو موسىٰ : «أيّها النّاس ، إنّا قَد نَظرنا في أمر هَذِه الأُمّة فَلم نَرَ أَصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها مِن أمرٍ قَد جَمع رأيي ، ورأي عَمْرُو عَلَيْهِ ، وهو أنْ نَخلع عَلِيّاً ومُعَاوِيَة ، وتَستقبل هَذِه الأُمّة هَذَا الأمر بأنفسها

⇔

ﻫ فيولّوا مِنْهُم مَنْ أحبّوا، وٱختاروا، وإنّي قَد خَلعتُ عَلِيّاً، ومُعَاوِيَة فٱستقبلوا أمركم وولّـوا عـليكُم مـن رأيتموه أهلاً لذلك. ثمّ تنحّىٰ.

أُنظر، تأريخ الطبري: ٤ / ٥٢ مع اختلاف يسير في اللفظ من حَيْث التقديم والتأخير بِبَعْض الْكَلِمَات والزِّيَادَة. وانظر أيضاً الْفُتُوح: ٢ / ٢١١ بإضافة: وإني قد خلعت عَلِيّاً من ٱلخِلاَفَة كما خلعت خاتمي هَذَا من أصبعي، والسَّلاَم. وانظر شرح النهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٢ / ٢٥٦ تحقيق محمّد أبو الْفَضْل. وانظر وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦ وفِيهِ: ثمّ تنحّىٰ فقعد.

وأقبل عَمْرُو بن العَاص فقَام مقامه فحمد الله وأثنىٰ عَلَيْهِ، ثُمّ قَالَ: أيّها النّاس، إنّ أبَا موسىٰ قَد خَلع صَاحبه عَلِيّاً وقَد قَالَ ما سَمعتم، وأنَا أيضاً قَد أخلع صاحبه عَلِيّاً وأُثبت صَاحِبِي مُعَاوِيَة علىٰ ٱلخِلاَفَة فإنّه وليّ عُثْمَانَ بن عَفّان، والطّالب بدمه، وأحقّ النّاس بمقامه ثُمّ تنحّىٰ.

تَأريخ الطبري: ٤ / ٥٢، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٢١١، شرح النهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٢ / ٢٥٦ وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦. ولا نريد التعليق علىٰ كَلاَم ورأى ٱبْن كثير في البداية: ٧ / ٢٨٤ في التَّحْكِيم حَيْث قَالَ: فأقرّ ـ يعني ٱبْن العَاص ـ مُعَاوِيَةَ لمّا رأى ذَٰلِكَ من الملحة والاجتهاد يخطئ ويصيب،... وٱبْن العَاص خافَ علىٰ الأُمَّة أن تنام لَيْلَة واحدة بدون إمام؟ لأنّ من مات في هَٰذِهِ ٱللَّيْلَة فستكون مِيتَته مِيتَة جـاهلية. فـلهذا أسرع بتنصيب إمام الزمان مُعَاوِيَة... ولو لم يفعل ذَٰلِكَ لوصل الأمر إلىٰ مفسدة طويلة... ولكن نـطرح عَلَيْهِ سؤالاً لِمَاذَا لم يقل ذَٰلِكَ ٱبْن كثير عندما يتطرّق إلىٰ الإِمَامَة والوَصِيّة وٱلخِلاَفَة بعد الرسول ﷺ وكَيْفَ يترك رسول الإِنْسَانِية الأُمَّة بدون إمَام؟

فَقَالَ أبو موسىٰ: مَالك لا وفّقك الله غدَرت، وفجَرت؟! وإنّما مثلك كمثل الكلب إنْ تَحمل عَلَيْهِ يَلهث، أو تَتركه يَلهث.

تَأريخ الطبري: ٤ / ٥٢ وانظر الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٢١١ بلفظ: عَلَيْكَ غضب الله فوالله ما أَنْتَ إلّا كما قَالَ تَعَالىٰ: فمثله كمثل الكلب... الآيَة: ١٧٦ من سُورَة ٱلأَعْرَافِ، الأَخْبَار الطوال: ٢٠١، شرح النهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٢ / ٢٥٦ تحقيق محمّد أبو الْفَضْل.

فَقَالَ عَمْرُو لأبي موسىٰ: أَنْتَ إنّما مثلك كمثل الحِمَار يَحمل أسفاراً.

تأريخ الطبري: ٤ / ٥٢ أمّا ٱبْن أَعْثَمْ لم يذكر الآيَة: ٥ من سُورَة ٱلجُمُعَةِ ٱلّتي قالها عَمْرُو بن العَاص بل قَالَ: وتشاتموا جميعاً. وضجّ الناس وقَالُوا: هَٰذِهِ خديعة ونَحْنُ لا نرضى بِهَذَا، ودخل عَمْرُو من ساعته إلىٰ ﻫ

⇔ رحله وكتب إِلىٰ مُعَاوِيَةَ بِهَٰذِهِ الأبيات:

أتـــتك ٱلْخِـــلاَفَة في حـــذرها — هـــنيئاً مـــريئاً تـقرّ الـعُيُونَا
تزفّ إِلَـيْك زفـاف العـروس — بأهون من طـعنك الدار عـينا

إِلىٰ آخرها: ثمّ قَالَ: وشتمَ، وشمتَ أَهْل الشام بأهل الْعِرَاق.

وفي مروج الذهب: ٢/ ٤٤٢ وفِيهِ: قَالَ أبو موسى: كذب عَمْرُو. لم نستخلف مُعَاوِيَةَ، ولكنا خلعنا مُعَاوِيَةَ وعَلِيّاً معاً، وَقَالَ عَمْرُو: بل كذب عبدالله بن قَيْس، قد خلع عَلِيّاً ولم أخلع مُعَاوِيَةَ.... فَقَالَ أبو موسى: مالك لا وفّقك الله غدرت وفجرت انّما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَم﴾ فَقَالَ له عَمْرُو: بل إِيَّاكَ يلعن الله. كذبت وغدرت إنما مثلك مثل ﴿ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وَهَذَا يعني أَنّ الآيتين قالها غَيْر ما ورد في الطبري.

وأضاف صاحب المروج والكَامِل: ٣/ ١٦٨ والبداية: ٧/ ٢٤٨ وٱبْن أَبِي ٱلْحَـدِيد في شرح النهـج: ١/ ٤٥١ والطبري: ٦/ ٤٠ ط أُخرى: وكز أبا موسى فألقاه لجنبه وانطلق عَمْرُو إِلىٰ مُعَاوِيَةَ وسلّم عَلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ. وانظر شرح النهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ٢٥٦ تحقيق محمّد أبو الْفَضْل، وانظر الْعَقِيدَة أيضاً في: ٢/ ٢٥٧ باختلاف يسير في اللفظ، ووَقْعَة صِفِّين: ٥٤٧. وانظر عبقرية الإِمَام عليّ عليه السلام للعقاد: ٨٥ حَيْث قَالَ: كلب وحِمَار فيا حكم به علىٰ نفسيها غاضبين. وهما يقضيان علىٰ العالم بأسره ليرضىٰ بِمَا قـضياه، وانتهت المأساة بِهَٰذِهِ المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذة المأساة.

وَقَالَ سعد لأبي موسىٰ: ما أضعفك يا أبَا موسىٰ عن عَمْرُو، ومكائده؟!

فَقَالَ أبو موسىٰ: مَا أصنع؟! وافقني علىٰ أمرٍ، ثُمّ غَدر.

فَقَالَ ٱبن عبّاس رضي الله عنه: لاَ ذَنب لكَ يا أبَا موسىٰ إنما الذّنب لِمن قدّمك، وأقامك في هَذَا المقام.

وَقَالَ عبدٱلرَّحْمَان بن أَبِي بَكْر: «لو مَات هَذَا الأَشْعَرِيّ قَبل هَذَا اليوم كَان خَيراً له».

انظر الكَامِل لِابْـن الأثـير: ٣/ ٣١١، مـروج الذهب: ٢/ ٤١١، شرح النهـج لِابْـن أَبِي ٱلْحَـدِيد: ٢/ ٢٤٦.

وحمل شُرَيْح بن هانئ علىٰ عَمْرُو فقنعه بالسّوط، وحمل ٱبن عَمْرُو عـلىٰ شُرَيْح فـضربه بـالسّوط، وحجز النّاس بَيْنَهُمْ.

انظر تَأْرِيخ الطبري: ٤/ ٥٢ مع اختلاف يسير في اللفظ، شرح النهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ٢٥٦ تحقيق ⇔

↩ مُحَمّد أبو الْفَضْل، وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣ / ٣٣٠، مروج الذهب: ٢ / ٤١٠، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٥.

انظر تَأرِيخ الطبري: ٥٢/٤ مع اختلاف يسير في اللفظ، شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢٥٦/٢ تحقيق مُحَمّد أبو الْفَضْل، وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣ / ٣٣٠، مروج الذهب: ٢ / ٤١٠، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٥.

فكان شُرَيْح يَقُول بعد ذَلِكَ: ما نَدمت علىٰ شيءٍ نَدامتي أنْ لا أكون ضَربت عَمراً بالسَّيْف عِوضاً عن السّوط.

انظر تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٥٢ مع اختلاف يسير في اللفظ، انظر شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٥٦ مع إضافة: أتى الدَّهر بِمَا أتى به... وقَريب من هَذَا في وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦: يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٥.

وٱلتمس النّاس أبَا موسىٰ فوجدوه قَد رَكِب راحلته ولحق إلىٰ مَكَّة.

وانظر شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢٥٦/٢ وكَانَ ٱبن عبّاس يَقُول: قَبّح الله أبا موسى، لقد حذّرته وهديتهُ إلىٰ الرأي فما عَقَل، وانظر الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٥٧، وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦، تَأرِيخ الطبري: ٦ / ٤٠ ط أخرىٰ، الكَامِل في التّأرِيخ: ٣ / ٣٣١، مروج الذهب: ٢ / ٤١١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٦/٢.

وكَانَ أبو موسىٰ يَقُول: حَذّرني ٱبن عبّاس غَدر عَمْرُو، ولكنّي ٱطمأننت إلَيْهِ لما يظهر لِي، وظننت أنّ هَذَا الغَادر لا يؤثِر شَيْئاً علىٰ مصالح ٱلْمُسْلِمِينَ ونصيحة الأُمّة.

وانظر شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٥٦ مع اختلاف يسير في اللفظ، ووَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦.

وٱنصرف عَمْرُو بن العَاص وأهْل الشّام إلىٰ مُعَاوِيَة، وسلّموا عَلَيْهِ بِالخِلاَفَةِ.

انظر تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٥٢، و: ٦ / ٤٠ ط أخرى، وَقْعَة صِفِّين: ٥٤٦ و ٥٥٠، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣ / ٣٣١، مروج الذهب: ٢ / ٤١١.

فقيل: إنّ مُعَاوِيَةَ قام في النّاس فَقَالَ: أمّا بعد، فمن كَانَ مُتكلّماً في هَذَا الأمر بَعد ذَلِكَ فليطلع لنا قرنه.

تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٤٢

قَالَ ٱبن عُمَرَ فأطلقت حبوتي فأردت أنْ أقول له: يَتكلّم فِيهِ رِجال قاتلوك، وأباك علىٰ الإسْلاَم، ثُمّ خشيت أنْ أقول كَلمة يَتفرّق بها جَمَاعَة، ويسفك فيها دم فقلت: مَا وعدالله في الحِسَاب أحبّ من ذَلِكَ.

تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٤٢ باختلاف يسير في اللفظ.

↩

ٱلْحَكَمَيْن علىٰ ٱلْعَمَل بِٱلْقُرْآن فقد أَحْيَيَا ٱلْقُرْآن والأُمّة، وإنْ ٱجْتَمَعَا مَعاً علىٰ إهْمَاله، والإعْرَاض عَنْه كَان ذَلِكَ إمَاتَة لهَا، ولهُ، ونَفس الشّيء إنْ ٱخْتَلَفَا لأنّ إخْتِلاَف الحَكَمَيْن يُؤدي حَتماً إلىٰ إخْتِلاَف الأُمّة، وفَشَلهَا، وذِهَاب رِيحهَا.

(فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ ٱتَّبَعْنَاهُمْ، وَ إِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا ٱتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ ـ لاَ أَبَا لَكُمْ ـ

↔ فلمّا أنصرفت إلىٰ منزلي جاءني حبيب بن مَسْلَمَة فَقَالَ: مَا منعك أنْ تتَكَلّم حِين سمعت هَذَا الرّجل يَقُول؟ قُلت: أردت ذَلِكَ، ثُمّ خَشيت أنْ أقول كَلمة يَتفرّق بها جَمَاعَة، ويسفك بها دِماء.

فَقَالَ حبيب: فقد وفقت وعصمت.

تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٤٢.

وخرج شُرَيْح بن هاني مع ٱبن عبّاس ﷺ إلىٰ عليّ ﷺ وأخبراه الخَبَر.

انظر تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٥٢ لكن دُونَ ذكر «واخبراه الخَبَر».

فقام في الْكُوفَة فخطبهم فَقَالَ: «الحَمْدُ للهِ وَإِنْ أَتَىٰ الدَّهْرُ بِالخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالحَدَثِ الجَلِيلِ. وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّىٰ ٱرْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَىٰ
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلاَّ ضُحَىٰ الْغَدِ

أُنظر، نَهْج الْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٣٥)، تَأرِيخ الطبري: ٤ / ٥٧ مع إختلاف يسير في اللفظ، وأُنظر شرح النهج لِٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٥٩ تحقيق محمّد أبو الفَضْل ولَكِنَّهُ بدل أنْ يذكر «يَوْم الاثْنَيْن» ذكر «يَوْم كَذا». وأُنظر مروج الذهب: ٢ / ٤١٢ وشرح النّهج للفيض: ١٠٧ وفيها «أحق هوازن» و«أمرتُكم» بدل «أمرتهم» و«مُنعرج» بدل «بمنعرج» وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْدبن الصّمة والأبيات مذكورة في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي: ٢ / ٨١٣. وأُنظر أيضاً شرح التبريزي للحماسة: ٢ / ٣٠٤ وفِيهِ «أَمَرْتُهُم». وأُنظر الْفُتُوح لِٱبْن أَعْثَم: ٢ / ٢١٣.

بُجْراً، وَ لا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَ لا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ). إنّ عمل الْحَكَمَان بِٱلْقُرْآن حَقّاً وواقعاً ٱلتِّزَامنَا بِهِ، ومَضينَا عَلَيْهِ، سَواء أكَانَ لنَا أَم علينَا. وَهَذَا مثل مَا جَاء في الآيَة: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. وعَلىٰ أيَة حَالٍ فإنّ الإِمَامﷺ ـكَمَا أشار ـمَا تَرَك بقَبُول هَذَا التَّحْكِيم حَقّاً، ولا فعل باطلاً، ولا سَلك سَبِيل الخِدَاع، والتَّدلِيْس.

(إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَ تَرَكَا الْحَقَّ وَ هُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَ قَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا ـفِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَ الصَّمْدِ لِلْحَقِّ ـسُوءَ رَأْيِهِمَا، وَ جَوْرَ حُكْمِهِمَا) أَنْتُمْ رَضِيتُمْ بالحَكَمَيْن، وأَبَيْتُمْ إلاّ الأَشْعَرِيّ، أمّا أنا فَرفضتَه وأردتُ ٱبن عبّاس، وحِين أَبَيْتُمْ عَليَّ سَكتُّ مُكْرِهاً، ولكنِّي ٱشْتَرَطتُ وَأَخَذتُ الْعَهْدَ عَلىٰ الحَكَمَيْن أنْ لاَ يَنْحرفَا عَن كِتَاب الله، وإلاّ فَلا حُكم لهُما عَلىٰ أحدٍ من ٱلْمُسْلِمِين، لأنّ من ٱنْتَهك حُرمَة ٱلْقُرْآن يَكُون الْحُكْم عَلَيْهِ، لَا لهُ، وقَد أَمَاتَ الْحَكَمَان كِتَاب الله، وأَرْتَكَبَا جِنَايَة لاَ كَفَّارَة لهَا، ولا غُفْرَان، ولَم يَعملاَ علىٰ ٱطْفَاء الْفِتْنَة ـكَمَا هو الغَرض ـبل زَادَا مِن لَهِيبهَا... وإذَنْ فَلا سَبِيل إلاّ المُضِي فِي جِهَاد أَهْل الْبَغْي حَتّىٰ يَفِيئُوا إِلىٰ أَمْرِ الله.

---

(١) سَبأ: ٢٤.

الخطبة

-١٢٨-

لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَ قَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ، وَ لاَ لَجَبٌ، وَ لاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَ لاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ. يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَ الدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَ خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ، مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَ لاَ يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَ قَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَ نَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا[1].

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً ﴿كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ﴾[1]، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ، وَ

---

(١) أُنظر، البداية والنّهاية: ٢٥٠/٦، سُبل الْهُدَىٰ والرشاد: ٧٩/١٠، يَنَابِيع الْمَوَدَّة: ٢٠٦/١، النهاية في غريب الحديث: ١٢٢/٣، أُسد الغَابَة: ٦٣٤/٥، تهذيب الكَمَال: ٣٦٤/٢٨ ح ٦١٢٧، كتاب الْفِتَن لِابْن حماد: ٤١٤، الجَامِع الصَّغِير: ٦٥٤/١ ح ٤٢٥٣، كنز الْعُمَّال: ٢٠٥/١٤ ح ٣٨٤٠٤، الدُّر المنثور: ٥٤/٦، الكَامِل لِابْن الأثير: ١٣٠/٢، علل الدار قطني: ١٨٣/٩ ح ١٧٠٤، مُسْنَد الشاميين: ٢٦٧/٤ ح ٣٢٣٥، صَحِيح اَبن حبّان: ١٤٤/١٥، الْمُعْجَم الأوسط: ١٩/١ و: ٣١٧/٨، المجموع: ٨٨/٢٠، صَحِيح مُسْلِم: ١٨٤/٨، سُنَن أَبِي داود: ٣١٥/٢ ح ٤٣٠٤، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ١٧٦/٩، الديباج علىٰ مُسْلِم: ٢٣٢/٦ ح

الدِّيبَاجَ، وَ يَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ. وَ يَكُونُ هُنَاكَ ٱسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّىٰ يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَىٰ الْمَقْتُولِ، وَ يَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ عليه السلام، وَ قَالَ لِلرَّجُلِ، وَ كَانَ كَلْبِيّاً:

يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَ إِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَ مَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَ مَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1]. فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أُنْثَىٰ، وَ قَبِيحٍ، أَوْ جَمِيلٍ، وَ سَخِيٍّ، أَوْ بَخِيلٍ، وَ شَقِيٍّ، أَوْ سَعِيدٍ، وَ مَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ، وَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ، وَ دَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَ تَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي[2].

اللُّغَة:

اللَّجَبُ: الصِّيَاح. والقَعْقَعَةُ: الصَّوْت. وحَمْحَمَةُ الفَرَس: صَوْته إذا طَلَب العَلف، أو رأىٰ الَّذي يَأنس به. والسِكَك: الطُّرق. والمَجَانُّ ـ بفتح المِيم ـ جَمع مِجَن ـ بكسرها ـ وهو التُّرس. ومُطَرَّقَةُ: وضَع بَعْضهَا فوق بَعْض حَتَّىٰ صَارت طَبقتين،

↔ ٦٢ و٦٣، مَجْمَع الزَّوائد: ٣١١/٩، سُنَن ابن ماجه: ١٣٥٤/٢ ح ٤٠٧٢، مُسْنَد أحمد: ٤/١، صَحِيح البُخاريّ: ٢٣٣/٣، مُسْنَد أبي داود: ١٦١، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٣٧٥/١١ ح ٢٠٧٨٢.

(١) لُقْمَان: ٣٤.

أوْ أَكْثَر. والسَّرَقَ: الحَرِير، والدِّيبَاجَ: سِدَاه، ولحِمتَه حَرِير.

ويَعْتَقِبُونَ: يَحْتَسِبُون. وعِتَاقَ الخَيْلَ: كَرَائِمِها. وأَسْتِحْرَارُ القَتْل: آشْتِدَادَه.

وتَضْطَمَّ: تَنضَمّ. والجَوَانِحِ: الأَضْلاَع مِمَّا يَلِي الصَّدر، والمُرَاد بِهِ هُنا القَلْب.

الإِعْرَاب:

وَيْلٌ مُبْتَدَأً، ومعناه العَذَاب، ويَجُوز نَصبه علىٰ آضمَار الفِعْل أي أَنزل الله وَيلاً، وَقَوْماً بَدل من مَفْعُول أَرَاهُمْ، وجُمْلة كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صِفة لِقَوْم، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ «مَا» زَائِدَة لأنّ الكلاَم يَستَقِيم بدُونها.

المَعْنىٰ:

(يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ، وَ قَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ). هو الأَحْنَف بن قَيْس كَبِير بَنِي تَمِيم، وكَان فِي عَصر النَّبِيّ ﷺ، ولَكِنَّهُ لَم يَكُن مِن الصَّحَابَة، لأَنَّ الصَّحَابِي فِي الاِصْطلاَح هُو الَّذي رأَىٰ رَسُول الله ﷺ. ويـروىٰ أَنْ رَسُـول لله ﷺ أرسل بَنِي تَمِيم يَدعُوهم إِلىٰ الإِسْلاَم، فَلم يَسْتَجِيبُوا، فَقَال لَهُم الأَحْنَف: إِنَّه يَدعُوكُم إِلىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاَق فأَجِيبُوه فأَسْلَمُوا وأَسْلَم الأَحْنَف. وكَان من سَادَة التَّابِعِين لرجَاحة عَقْله، وحُسن سِيرته، ومن أَشد المُناصِرِين لِلإِمَام عليه السلام. بَعث يَوْم الجَمَل إِلىٰ الإِمَام بِرِسَالَة: «إِنْ شِئتَ أَتيتك فِي مِئَتِي مُقاتل من أَهْل بَيتِي، وإِنْ شِئتَ كَففتَ عَنكَ أَرْبَعَة آلاَف سَيْف»[1].

---

(١) أنظر، تَاريخ الطبري: ٤/٥٨ وفيه ما يلي: فشخص معه مِنْهُم ألف وخمسمئة رجل فاستقلّهم عبدالله بن ↩

فأجَابه الإِمَام: بل كَفّ عني أَرْبَعَة آلاف سَيْف، وكَفىٰ ذَلِكَ نَصراً، وحَارب معهُ في صِفِّين ونَصح، قَالَ ٱبن قُتَيْبَة: «قَالَ الأحْنَف لِلإِمَامِ: والله لوددنا أنّ أمواتنا رَجعوا إلينا فٱستعنّا بِهِمْ علىٰ عَدُوّنا، ولَيْسَ لكَ من كَانَ معكَ، ولنا من قومنا عَدد، ولا نلقىٰ بِهِمْ عَدُوّاً أعدىٰ من مُعَاوِيَة»[1]. وحين ٱختلف النّاس في التَّحْكِيم قَالَ الأحْنَف لِلإِمَامِ من جُملة مَا قَالَ: «إنّك أَوْلَىٰ النّاس بِالحَقِّ، وأحقنا بالتّوفِيق، ولا أرىٰ إلّا الْقِتَال»[2].

⇔ عبّاس فقام في النّاس فحمدالله وأثنىٰ عَلَيْهِ ثمّ قَالَ: أمّا بعد يا أَهْل الْبَصْرَة فإنّه جاءني أمر أَمِير الْمُؤْمِنِينَ يأمرني بإشخاصكم فأمرتكم بالنفير إلَيْهِ مع الأحنف بن قَيْس، ولم يشخص معه منكم إلّا ألف وخمسمئة وأنتم ستون ألفاً سوىٰ أبنائكم، وعبدانكم، ومواليكم، ألا ٱنفروا مع جَارِيَة بن قُدَامَة السّعدي ولا يجعلن رجل علىٰ نفسه سبيلاً فإنّي موقع بكلّ من وجدته متخلّفاً عن مكتبه عاصياً لإمَامَه، وقد أمرت أبا الأسود الدؤلي بحشركم فلا يَلُم رَجُل جعل ٱلسَّبِيل علىٰ نفسه إلّا نفسه. فخرج جَارِيَة، وخرج أبو الأسود فحشر النّاس فٱجتمع إلىٰ جَارِيَة ألف وسبعمئة، ثمّ أقبل حَتَّىٰ وافاه عليّ بِالنُّخَيْلَة فلم يزل بِالنُّخَيْلَة حَتَّىٰ وافاه هَذَان الجَيْشَان من الْبَصْرَة ثلاثة آلاف ومائتا رجل... وأنظر الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٥، الأَخْبَار الطوال: ٢٠٨، ومروج الذّهب: ٢ / ٤٤٩.

(١) أنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٨٦ طَبْعَة سَنَة ١٩٥٧م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) هو أبو بحر الضَّحَّاك، وقيل: صخر بن قَيْس بن مُعَاوِيَةَ بن حصين أو حصن بن عبّاد بن مُرة بن عبيد، الْمَعْرُوف بالأحنف التّميمي السّعدي أمّه إمرَأَة من باهلة. سمّي بالأحنف لحنف كَانَ في رجله، فإنّه كَانَ يطأ علىٰ ظهرها، أسلم في عهد النبيّ ﷺ ولم يره، وكَانَ سيّد قَوْمه موصوفاً بالْعَقْلِ، والدهاء، والعِلْم، والحِلْم. شهد بَعْض الْفُتُوح في زمن عُمَرَ وعُثْمَانَ. وٱعتزل الجَمَل، وشهد صفّين مع عليّ ﷺ ولمّا بَايَعَ مُعَاوِيَةَ ليزيد تَكَلَّم النّاس في مدحه، فَقَالَ له مُعَاوِيَةَ: ما بالك لا تقول يا أبا بَحر؟ فَقَالَ: أخاف الله إنْ كذبت، وأخافكم إنْ صدقت. وخرج مع مُصْعَب بن الزُّبَيْر إلىٰ الْكُوفَة ومات بها سَنَة (٦٧ هـ) علىٰ الأشهر عن ثمانين سَنَة ودُفن عند قبر زياد بالثّوية ـ موضع بظاهر الْكُوفَة ـ وقيل: ولد الأحنف مُلتصق الأليتين، حَتَّىٰ شُقّ ما بَيْنَهما، وكَانَ الأحنف أعور.

⇔

↔ أُنظر، ترجمته في الاِسْتِيعَاب: ١/ ٥٦ التّرجمة رقم ١٦٠، أُسد الغَابَة: ١/ ٥٥، وفيات الأَعْيان: ١/ ١٨٦ ـ ١٩٢ التّرجمة رقم ٢٨٢، المعارف لاِبْن قُتَيْبَة تحقيق ثروة عكاشة: ٤٢٣.

ومن الجدير ذكره أنّ الإِمَام عليّ عليه السلام بعث إِلىٰ الأحنف بن قَيْس عندما وصل جند المَرْأة إِلىٰ حفر أبي موسىٰ الأَشْعَرِيّ ـ وهو مياه عذبة علىٰ جادة البَصْرَة إِلىٰ مَكَّة حفره أبو موسىٰ الأَشْعَرِيّ. بينه وبَيْنَ البَصْرَة خمس ليال كما ذكر صاحب معجم البلدان ـ فَقَالَ له: إِنّ هَؤُلَاء القَوْم قدموا علينا ومعهم زَوْجَة رسول الله، والنّاس إِلَيْهَا سراع كما ترىٰ. فَقَالَ الأحنف: إِنّهـم جاؤوك للطلب بدم عُثْمَان، وهم الّذين ألبوا علىٰ عُثْمَان النّاس وسفكوا دَمه، أراهم والله لا يزايلونا حَتَّىٰ يلقوا العداوة بيننا، ويسفكوا دماءنا، وأظنّهم والله سيركبون منك خَاصَّة مالا قبل لك به إِنْ لم تتأهّب لهم بالنّهوض إِلَيْهِمْ في مَن معك من أَهْل البَصْرَة، فإِنّك اليوم الْوَالِي عَلَيْهِمْ، وأنْتَ فِيهِمْ مُطاع، فسر إِلَيْهِمْ بالنّاس وبادرهم قبل أنْ يكونوا معك في دار واحدة، فيكون النّاس لهم أطوع مِنْهُم لك.

وَقَالَ ٱبن أَعْثَمْ في الفُتُوح: ١/ ٤٦٠: إِنّهم ـ طَلْحَة والزُّبَيْر وعَائِشَة ـ بعثوا إِلىٰ الأحنف بن قَيْس فدعوه وقَالُوا: إِننا نريد منك أنْ تنصرنا علىٰ دَم عُثْمَانَ بن عفّان، فإِنّه قُتل مظلوماً، قَالَ: فالتفت الأحنف إِلىٰ عَائِشَة وَقَالَ: يا أُمّ المُؤْمِنِينَ! أنشدك الله أما قلتِ لي ذَلِكَ اليوم إِنْ قتل عُثْمَانَ فمن أُبايع؟ قلت: عليّ بن أبي طالب؟ فقالت عَائِشَة: قد كَانَ ذَلِكَ يا أحنف، ولكن هاهنا أُمور نَحْنُ بها أعلم منك، فَقَالَ الأحنف: لا والله لا أُقاتل عليّ بن أبي طالب أبداً، وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وآله، وٱبن عمّه، وزوّج ٱبنته، وأبو سبطيه، وقد بايعه المُهَاجِرُون، والأَنْصَار. قَالَ: ثمّ وثب الأحنف حَتَّىٰ صار إِلىٰ ديار قَوْمه من بني تميم، ثمّ نادىٰ فِيهِمْ فاجتمع إِلَيْهِ أَرْبَعَة الآف رجل، فسار بِهِمْ حَتَّىٰ نزل بِهِمْ علىٰ فرسخين من البَصْرَةِ.

وروى البَيْهَقِيّ في المَحَاسِن والمَسَاوِيء: ١/ ٣٥ عن الحَسَن البصري أنّ الأحنف بن قَيْس قَالَ لعَائِشَة يَوْم الجَمَل: يا أُمّ المُؤْمِنِينَ هل عهد إِلَيْك رسول الله هَذَا المسير؟ قالت: اَللَّهُمَّ لا، قَالَ: فهل وجدته في شيء من كتاب الله جلّ ذكره؟ قالت: ما نقرأ إِلّا ما تقرأون قَالَ: فهل رَأَيْت رسول الله صلى الله عليه وآله ٱستعان بشيء من نسائه إِذَا كَانَ في قلّة، والمشركون في كثرة؟ قالت: اَللَّهُمَّ لا، قَالَ الأحنف: فإِذاً ما هو ذنبنا؟ وفي رواية أُخرىٰ أنّه قَالَ لها: يا أُمّ المُؤْمِنِينَ إِنّي سائلك ومغلظ لك في المسألة فلا تجدي عليّ، فقالت له: قل تسمع. قَالَ: أعِنْدَكَ عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله في خروجك هَذَا؟ فقالت: لا... أعِنْدَكَ عهد مِنْهُ صلى الله عليه وآله إِنّك معصومة من الخَطَأ؟ قالت: لا... إِلىٰ أنْ أحرجها فقالت: إِلىٰ الله أشكو عقوق أبنائي. (أُنظر الغدير: ٨/ ٩٩ وشرح ↔

↔ النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٥٠٠ قَرِيب مِنْهُ).

وهنالك موقف آخر للأحنف بن قَيْس يذكره ٱبن أعْثَمْ في الْفُتُوح: ١/٤٦٥، قَالَ: وأقبل الأحنف بن قَيْس فِي جَمَاعَة من قَوْمه إِلىٰ عليّ عليه السلام فَقَالَ: يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ! إِنّ أَهْل الْبَصْرَة يَقُولُون بأنك إِنْ ظفرت بِهِمْ غداً قتلت رجالهم، وسبيت ذرّيتهم، ونِسَآءهم، فَقَالَ له عليّ: ليس مثلي من يخاف هَذَا مِنْهُ، لأنّ هَذَا ما لا يحلّ إلاّ مِمَّنْ تَوَلَّىٰ وكفر، وأَهْل الْبَصْرَة قَوْم مسلمون، وسترىٰ كَيْفَ يكون أمري وأمرهم، ولكن هل أَنْتَ معي فٱعلم، فَقَالَ الأحنف: يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ! ٱختر مني واحدة من ٱثْنَيْن، إمّا أن أكون معك مع مئتي رجل من قومي، وإمّا أنْ أردّ معك أَرْبَعَة الآف سَيْف. فَقَالَ عليّ عليه السلام لابل ردّهم عنّي. فَقَالَ الأحنف: أفعل ذَٰلِكَ يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، ثمّ ٱنصرف. (وٱنظر تَأرِيخ الطبري: ٣ / ٥١٠ ـ ٥١٣ مع إختلاف يسير في اللفظ).

وموقف الأحنف هَذَا يذكّرنا بموقف ومواقف أُخرىٰ لكن نذكر مِنْهَا موقف لاهيان بن صيفي: روي أَنّ الإِمَام عليّ عليه السلام ذهب إِلىٰ لاهيان بن صيفي، وكَانَ له صحبة. فقام الإِمَام علىٰ بَاب حجرته وَقَالَ له: كَيْفَ أَنْتَ يا أبا مُسْلِم؟ قَالَ: بخير، فَقَالَ الإِمَام: ألا تخرج معي إِلىٰ هَؤُلآء الْقَوْم فتعينني؟ قَالَ: إِنّ خليلي عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلاَم وٱبن عمّك. عهد إِليّ إِذَا كَانَتْ فتنة بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَنْ ٱتخذ سَيْفاً من خشب، فهذا سَيْفي فإِنْ شئت خرجت به معك. فَقَالَ الإِمَام: لا حَاجَة لنا فيك ولا في سَيْفك. ورجع من بَاب الحُجرَة ولم يدخل. (رواه أحمد، والترمذي، وحسّنه ٱبن ماجه، ونعيم بن حمّاد، وأورده ٱبن حجر في الإِصَابَة، وٱبن كثير في البداية، وٱلْفَتْح الربّاني: ٢٣ / ١٣٨، وجامع التِّرمِذي: ٤ / ٤٩٠).

لم يكن الإِمَام عليّ عليه السلام بحاجة إِلىٰ هَؤُلآء ولَكِنَّهُ عليه السلام قام بِهَذَا الْعَمَل من بَاب أنّ المقام مقام حجّة والاختيار مفتوح دُونَ أنْ يوجّه أيّ ٱتهام لأحد. ولكن السؤال الّذي يطرح نفسه هو: ما السّبب الّذي دعا هَؤُلآء إِلىٰ الاعتزال؟ هل هِي فتوىٰ أبو بَكْرة (نُفَيع بن الحارث) كما تطرّقنا إِلَيْهَا سابقاً وأشرنا إِلىٰ مصادرها؟ أم هنالك شيء آخر؟ أم أنّه عهد معهود مِن قِبل الله تَعَالىٰ ورسوله صلى الله عليه وآله بأنّ الإِمَام عليه السلام يُقَاتل النَّاكِثِينَ، والمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ؟ أم أَنَّهَا الْفِتْنَة الّتي تَكَلَّم عَنْهَا رسول الله صلى الله عليه وآله والإِمَام عليّ عليه السلام؟ حَيْث ينقل ٱبن أبي ٱلْحَدِيد في شرح النهج: ١/٦٦٧، و: ٣/٢٧٧، وكنز الْعُمَّال: ١٦/١٨٣، و: ١١/٦٠٦، والْبَيَان والتبيين للجاحظ: ٢/١١٢، وتَأرِيخ اليعقوبي: ٢/١٥٢، وصَحِيح مُسْلِم: ١٨/١١، وصَحِيح البُخَاريّ: ٤/١٢٢، وفتح الباري: ١٣/٥٦، والجَامِع: ٤/٥٢٨، والْمُسْتَدرَك: ٣/١١٩، والكَامِل في التَّأرِيخ: ٣/١٢٢ و٢٣١، والطبري في تَأرِيخه: ٥/١٩٨، وغَيْرهم كثير من الأَحَادِيث في هَذَا المقام، ↔

ثَوْرَةُ الزِّنْج:

(كَأَنِّي بِهِ وَ قَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ). قَالَ الشَّارِحُون: يُشِير الإِمَام بِهَذا إِلَىٰ صَاحِب الزِّنْج الَّذي ظَهر فِي الْبَصْرَةِ (٢٥٥ هـ)، ومُلخص الحِكَايَة أنّه ظهر في هَـذِه السَّـنَة رَجُل اسمه عليّ بن مُحَمّد(١)، ودَعا العَبيد إِلىٰ التّمرد علىٰ سَاداتهم، فانضموا إِلَيْهِ

↔ ولكننا نكتفي بذكر حَدِيث واحد.

روي عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قَالَ له: إنّ الله قد كتب عَلَيْكَ جهاد المفتونين كما كتب عليّ جهاد ٱلْمُشْرِكِين، فَقَالَ عليّ: يا رسول الله، ما هَذِه الْفِتْنَة الّتي كتب عليّ فيها الْجِهَاد؟ قَالَ: قَوْم يشهدون أنْ لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالفون للسُّنّة، فقلت: يا رسول الله فعلام أُقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قَالَ: علىٰ الإحداث في الدِّين ومخالفة الأمر، فقلت: يا رسول الله، إنّك كنت وعدتني الشّهادة فاسأل الله أنْ يجعلها لِي بَيْنَ يَدَيْكَ، قَالَ: فمن يُقَاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ...(رواه وكيع في كنز الْعُمّال: ١٦/ ١٨٣، وابن أبي الْحَدِيد في شرح النهج: ٣/ ٣٧٧، المناقب للخوارزمي: ١٢٥، تَأريخ ابن عساكر: ٣/ ٢٠٠ ط بيروت، سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣/ ٢٣١.

ومن هَذَا وذَاكَ جاءت فكرة الاعتزال الّتي بشّر بها أبو بَكْرة عندما قَالَ: يا أحنف ارجع فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يَقُول: إذَا تواجه الْمُسْلِمُون بِسَيفيهما فالقاتل والْمَقْتُول في النّار... ولذا نرى الأُستاذ سعيد حوىٰ يعقّب علىٰ هَذَا الحديث في كتابه الأَسَاس في السُّنّة: ٤/ ١٧١١ فيَقُول: إنّ الْقِتَال مع عليّ بن أبي طالب كَانَ حقّاً وصواباً، ولكن أبو بَكْرة حمل حديثاً ورد في غَيْر الحالة الّتي قاتل فيها عليّ، علىٰ حالة قتال عليّ للباغين. وهو فهم من أبي بَكْرة. ولَكِنَّهُ فهم في غَيْر محلّه...

كَذَٰلِكَ التبس العنوان علىٰ الحارث بن حوط اللّيثي عندما دخل علىٰ أمير الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: يا أمير الْمُؤْمِنِينَ ما أرىٰ طَلْحَة، والزُّبَيْر، وعَائِشَة. أضحوا إلّا علىٰ الْحَقّ. ولكن الإِمَام عليه السلام أجاب بقَوْله: يا حارث إنّك نَظَرت تحتك ولم تنظر فوقك، إنّ الْحَقّ والْبَاطِل لا يُعرفان بالنّاس، ولكن اعرف الْحَقّ باتباع من اتبعه، والْبَاطِل باجتناب من اجتنبه. (انظر تَأريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٢، والْبَيَان والتبيين: ٢/ ١١٢).

وعلّق الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال علىٰ هَذَا الْقَوْل فَقَالَ: الْعَاقِل من يقتدي بسيد العقلاء عليّ كرّم الله وجهه حَيْث قَالَ: لا يُعرف الْحَقّ بالرّجال، اعرف الْحَقّ تعرف أهله.

(١) زعم أنّه علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن عِيسَىٰ بن زيد بن علي بن الْحُسَيْن بن علي بن أبي طالب، ولكن ذكره ↔

بِالمئَات، ثُمّ بالألوف، وكَانَ يَعدهم، ويُمنيهم، ويَقُول لهم: أُريد أنْ أُحـرركم مـن الرّق، وأَرفع من شأنّكم، وأملّككُم السَّادة الَّذِين كَانوا يَملكونكُم مع أَمـوَالهـم، وضَياعهم، فتسَارعُوا إِلَيْهِ من كلّ حَدبٍ، وصُوبٍ حَتَّىٰ أَلّف مِنْهُم جَيشاً عَظِيماً، وكَانَ إِذَا ظَفر بالسَّادة المُتْرَفِين يأمر عَبِيدهم أنْ يَجـلدواكلّ واحـد مِـنْهُم (٥٠٠) جَلدة، وكَانَ يأسر العَرَبِيات، ويَبيع الوَاحِدَة منهُن بِدرهمِين أو ثَـلاثَة، ويُـعطي العَديد منهن للزِّنجِي للخِدْمَة، الزِّنْجِيات كَما تَخدم الوصَائِف[1].

وكلّ ما أخبر بِهِ الإِمَام من الخَرابِ، والتَّدمِير فِي ثـورة صَـاحب الزِّنْج ذكـره

⇐ صاحب الأعلام: ٣٢٤/٤، وابن خلدون: ١٨/٤، فقالا: هو علي بن مُحَمَّد الورزنيني العلوي، المُلقب بصاحب الزِّنج، من كبار أصحاب الفِتَن في العصرالعَبّاسيّ، وفتنته معروفة بفتنة الزِّنْج، لانّ أَكثَر أنصاره مِنْهُم، ولد ونشأ في ورزنين، إحدىٰ قرىٰ الري، وظهر في أَيّام المهتدي باللهالعَبّاسيّ سَنَة (٢٥٥ هـ).

كَانَ يرىٰ رأي الأزارقة، والتف حوله سودان أَهْل الْبَصْرَة، ورعاعها، وبلغ عدد جَيْشه ثمانمئة ألف مقاتل، وقد عجز عن قتاله الخُلَفَاء، حتىٰ ظفر به الموفق بالله فقتله سَنَة (٢٧٠ هـ)، وبعث برأسه إِلىٰ بغداد.

قَالَ المرزباني: تروىٰ له أشعار كثيرة في البسالة، والفتك كَانَ يَقُولها وينحلها غَيْره.

وفي نسبه العلوي طعن وخلاف. أنّه من عبد القَيس، وأنّه عليّ بن مُحَمَّد بن عبدالرحيم، وأمّه سدية من أسد بن خُزَيْمَة جدها مُحَمَّد بن حكيم الأسدي، من أَهْل الْكُوفَة، أحد الخارجين مع زيد بن علي بن الحُسَيْن بن علي بن أبي طالب عليه السلام علىٰ هشام بن عبدالملك، ولمّا قتل زيد عليه السلام، هـرب ولحـق بـالري، وسكن القرية الّتي يُقَال لها ورزنين، وكَانَ مولد أبوه في طالقان، ثم قدم الْعِرَاق وأشترىٰ جَارِيَة سـدية فأولدها مُحَمَّداً أباه.

أُنظر، مروج الذهب: ١٩٤/٤، شرح نهج البَلاَغَة لِابْـن أَبِي ٱلْحَـدِيد: ١٣٠/٨، مـعجم ٱلشُّـعَرَاء للمرزباني: ٢٩، تَأرِيخ الطبري: ١٧٤/١١، تَأرِيخ دمشق: ٢٢٠/٥٢، سير أعـلام النـبلاء: ١٤٣/١٥، البداية والنهاية: ٤١/١١، الكَامِل في التَّأرِيخ: ٢٠٥/٧.

(١) أُنـظر، بحـوث في التَّأرِيخ العَـبّاسيّ، للـدكتور فـاروق عُـمَرَ: ١٢٥ الطـبعة الأُولىٰ بـيروت ١٩٧٧م، العـصرالعَـبّاسيّ الأوّل لعبدالعـزيز الدوري: ٢٠٥ طَـبْعَة بـغداد سَـنَة ١٩٤٤م، العـالم الإسـلامي في العصرالعَبّاسيّ الثّاني لأَحْمَد إِبْرَاهِيم: ٣٥١.

الطَّبرِي في تَأرِيخه[١]، والمَسعُودِي في «مرُوج الذَّهب»[٢]، وأَطال الحَدِيث عن ذَلِكَ آبن أبي آلحَدِيد فِي «شَرح النَّهج»[٣]، ومِمَّا ذكره المَسعُودِي: أنّ صَاحب الزِّنْج كَانَ يَقتل الكَبِير والصَّغِير، والذَّكر، والأُنثىٰ، ويَحرق، ويُخرب، وأتىٰ فِي وَقْعَة وَاحِدَة بالْبَصْرَةِ علىٰ ثلاثمئة ألف قَتِيل من النّاس، والَّذِين سَلموا من القَتْل كَانوا يَخرجُون بِآللَّيْل، فيأخذُون الكِلاب، والفِيران، والسَّنَانِير، ويأكلونها حَتَّىٰ أفنوها، وكانوا إِذَا حضرت الوفاة أحدهم قَطعوه، وأكلوا لَحمه قَبل أنْ تَخرج الرُّوح من جَسده، وقيل: إنّ إمْرَأَة كَانَتْ في حَال النَّزع، والاِحْتضَار، وعندها أُختها تَنتظر موْتها لتأكلها، ولكن الجِياع آبتدرُوها قَبل أنْ تَمُوت، وقَطعوها، وأكلوها، ومَا أبقوا لأُختها إلّا الرَّأْس، فَبكت، وتظلمت.. ثُمّ قَالَ المَسعُودِي، ومثلُ هَذَا كثير، وأعظم[٤].

وعَظُم أَمر صَاحب الزِّنْج حَتَّىٰ أوشك أنْ يَأْتِي علىٰ الدَّوْلَة العبَّاسِية، فَحشد الجُيُوش لحَرْبِهِ أبو أحمد المُلقب بالمُوفق أخو آلخَلِيفَة العَبّاسيّ، فَقتله، بَعد حَرْبٍ طَوِيلةٍ، ودَامية، فِي شَهر صَفر سَنَة (٢٧٠ ه)، وكَانَتْ أَيَّامه (١٤) سَنَة، و (٤) أشهر، وسِتة أَيَّام، وتَكَلَّم النَّاس عنهُ، وأَكْثَروا، ووضعوا فِيهِ العَدِيد من المُؤلَّفات في العَصر العَبّاسيّ وبَعْدَه، وقَرأتُ عَنه كَثِيراً في الكُتب الحَدِيثَة، والقَدِيمَة، وفِي

(١) أُنظر، تأريخ الطبري: ٥٤٤/٧ وما بعدها، و: ٨/٨ وما بعدها، و: ٤١٠/٩ وقائع سَنَة ٢٥٥.

(٢) أُنظر، مرُوج الذّهب: ٤/ ١٩٤ و ٢٠٨.

(٣) أُنظر، شَرح النَّهج: ٢٨٨/٣ و: ١٣٢/٥ و: ١٠٤/٧ و: ١٢٧/٨.

(٤) أُنظر، تأريخ الطبري: ٤١٠/٩ وقائع سَنَة ٢٥٥، مروج الذّهب: ١٩٤/٤، شرح نهج البَلاَغة لاِبن أبي آلحَدِيد: ١٥٠/٨.

الصُّحف، ويرىٰ بَعْض البَاحِثِين أنّ الزَّنْج فِي البَلاد العَرَبِيّة تَمَاماً كثورة العَبِيد في إيطاليا سَنَة (٧٣) قَبل المِيلاد بقيادة «سبارتاكوس» الَّذي جَمع حَوله الآلاف من العَبِيد، وحَارب بِهِمْ السَّادة المُتْرَفِين للتَّحرِير من عَسفهم، وطُغيانهم، ثُمّ آنتهت حَياته بالْقَتْل مع (٤٠) ألفاً من العَبِيد تَمَاماً كمَا آنتهت حَيَاة صَاحب الزَّنْج[1].

والثّورة تَحت وطأة الظُّلم غَرِيزَة في الأسود، والأبيض، في الطّفل الصَّغِير، الشَّيخ الكَبِير، وأيضاً فِي ٱلْحَيَوَان... ولَن تَمُوت هَذِه الغَرِيزَة إلّا بموْت صاحبها... أجل، وقَد تَهدأ قَليلاً، وتَختفِي تَحت الرّمَاد إلىٰ حِينٍ... ثُمّ تَنفجر فُجأةً، وبلاَ سَابق إنذَار... وكلّ حَيّ يُعبر عَنْه بأُسلوبه، وبمَا يَملك من طَاقات، هَذَا يَحتج بالْبُكَاءِ، والصّياح، وذَاكَ بالسُّباب، والشّتائم، وآخر بالوثُوب، والْقِتَال، وقَد يُعبر عن ثورته بالاِنْتِحَار... وأنْبَل الثّورات عَلىٰ الإطلاَق مَا كَانَ مِنْهَا في سَبِيل الْحَقّ والْحُرِّيَّة.

غَرِيبة الغَرائِب أنّ الْوِلاَيَات المُتحدة الّتي أَلغت نظام الرِّق بقيادة ٱلإِنْسَانِي إبراهَام لنكولن ـ تَصطهد الزّنُوج الآن، وفي بَلدها، وتُذِيقهم أَلْوَاناً من قَسوة التّفرقة العُنْصُرِية، وتوحشها... إنّ الزّنُوج في الْوِلاَيَات المُتحدة يُؤَلِّفُون عَشرة بالمئة من المواطِنِين، ومع هَذَا لا يَضم مَجلس الشّيوخ زُنجِياً واحداً، وأمّا مجلس النّواب فيضم (٣) زنُوج من أصل (٤٣٥)[2].

(كَأنّي أَرَاهُمْ قَوْماً) قَالَ الشَّارحُون، والمُعلقُون: هَذِه إشَارة إلىٰ التّتار، ومَا فَعله جَنكِيز خَان، وخلفاؤه في البَلاد الإِسْلاَمِيّة من التّدمِير، والتّقتِيل... والأوصَاف

---

(١) أُنظر، كتاب حُرُوب العصيان والثّورة من فَجر التَّأرِيخ إلىٰ الْيَوْم لغبريال بونه (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، مَجلة «المجلات» المِصْرية عَدد آذار سَنَة ١٩٥٨م. (مِنْهُ ﷺ).

الّتي ذكرها الْإِمَام‌ﷺ تنطبق علىٰ ما نَعتهم بِهِ المُؤرخُون.

قَالَ ٱبْن أبي ٱلحَدِيد وكَان مُعاصراً للتّتار: «تَغلبوا علىٰ المَمَالِك، والأقطار، وكَانوا من أَصبر النّاس علىٰ الْقِتَال، لا يَعرفُون الفِرار، ويَعملون ما يَحتاجُون إِلَيْهِ من السّلاَح بأَيْدِيهم، وخَيلهم لا تَحتاج إِلىٰ الشَّعِير، بل تَأكل النَّبات، والعرُوق، أمّا التّتار أنفسهم فيأكلُون ٱلميتّة، والكِلاب، والخنَازِير، وهُم أَصبر النّاس علىٰ الجُوع، والعَطش، والشّقاء... وكانوا يَقتلون النّاس بمِئات الألوف، ويَحرقُون المُدن بِمَا فيها بَعد سَلبها ونَهبها، وكَانوا يُؤْمنُون النّاس عَلىٰ أرواحهم، وأَمْوَالهم حَتَّىٰ إِذَا ٱستسلموا لهُم ٱعْمَلُوا فِيهِمْ السَّيْف»[1].

وأطال ٱبن أبي ٱلحَدِيد الحَدِيث عن ضراوتهم، وفظائعهم، ونُشير من هَذِهِ الفظائع إِلىٰ حَادثة وَاحِدَة عَسىٰ أَنْ تكون دَرساً نَافعاً لنا نَحنُ ٱلْمُسْلِمِين، قَالَ في شَرح هَذِهِ ٱلخُطْبَةُ: دوّخ التّتار بِلاد العَجم إِلّا إِصفهان، فإِنَّهُم لَم يَبلغوا مِنْهَا غَرضاً حَتَّىٰ ٱختلف أَهْلها سَنَة (٦٣٣ هـ) وهم طَائِفتَان: حَنفِية، وشَافِعِية، وبَيْنَهُمْ حُرُوب، وعصبِية، فخرج قَوم من الشَّافعِية إِلىٰ التّتار، وقَالُوا لهُم: نَحْنُ نُسلّم ٱلْبَلَد إِلَيْكُمْ علىٰ شرط أَنْ تَقتلوا الْحَنَفِيَّة، وتَعفوا عن الشّافعِية. وبعد أَنْ تَمّ الاِتفاق علىٰ هَذَا الشّرط حَاصر التّتار إِصفهان، وفي سَاعة الحِصار بالذَّات نَشبت الْحَرْب بَيْنَ الشَّافعِية، والْحَنَفِيَّة، وقُتل الكَثِير من الفِئتين، وفَتح الشّافعِية أبواب الْمَدِينَة، وسلّموها للتّتار، ولكن هَؤُلَآء لَم يَفوا بالعَهد للشّافعِية، فَبدأوا أوّلاً بالشَّافعِية، وقَتلوهم قَتلاً ذَرِيعاً، ثُمّ قَتلوا الْحَنَفِيّة، ثُمّ سَائر النَّاس، وسَبُوا ٱلنِّسَاء، وشَقّوا

---

(١) أُنظر، شرح نهج البَلاَغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٨/٢٢١.

بطُون الحُبالىٰ، ونَهبُوا الأَمْوَال، وصَادرُوا الأَغْنِيَاء، ثم أَضرمُوا النّار في إصفهان حَتَّىٰ صَارت تِلالاً من الرَّمَاد[1].

هَذِه هِي بالذّات سِياسَة كلّ غَاصب، وطَامع قديماً، وحديثاً: مَكر، وخُداع، ثُمّ غَدر، وإبَادة لمِن سَالم، ومَن قَاوم، إنْ أُتيحت لهُ الفُرْصَة، إبَادة الجَمِيع بقتل الأجْسَام، أو قتل الشَّخْصِية، والحُرِّيَّة، وتَقع المَسْئُولية بكاملها علىٰ من خَان، وتآمر، وعلىٰ من سَكت عن الخَونَة، والمتآمرين، ولا فَرق بَيْنَ الفئتين... فَهل يَتعظ بِهَذِه الحَادثة، وغَيْرها كَثِير ـ الَّذِين بَاعوا دِينهم لِلشَّيْطَانِ طَمعاً بحُطامٍ، أو بمنصبٍ، أو تَعَصُّباً ضِدّ مُنافسٍ، ومُزاحمٍ فِي شَيء من ذَلِكَ[2]؟

(لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ). أي مِن رَسُول الله ﷺ بشَرٌ بطبيعته، أبوهُ آدَمَ، وآدَمَ من تُراب، ولو كَان النَّبِيّ عَالماً بِالْغَيْب لذَاته، وبذَاته لوَجَبَ أنْ يكون قَادراً كَذَلِكَ... عفوك رَبّي وغُفرانك وحدَك لا شَرِيك لك، واستمع مَعِي أَيُّها القَارِىء إلىٰ عَبد الله، وَرسُوله في قَوْله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا

(١) أُنظر، شرح نهج البَلاَغَة لإبْن أبي الحَدِيد: ٨/٢٣٧.

(٢) لَسْنَا بصدد دراسة ثَوْرَة الزَّنْج، ولكن نحيل القارىء الكريم إلىٰ بَعْض مصادر ثورتهم.

أُنظر، شرح نهج البَلاَغَة لمحمد عَبْدَه: ١/١٩٦ و: ٢/٩، لِسَان الميزان: ٦/٣٢٥، البداية والنهاية: ١١/٢٤، شذرات الذهب: ٢/١٥٥، تأريخ أبن خلدون: ٢/٢٨١ و: ٤/٣٢٥، كمال الدين وتمام النّعْمَة: ٢٤٦، وَسَائِل الشيعة: ١٧/١٤٠، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٦/٤١٠، دَلاَئِل الإمَامَة: ٤٢٥، الفصول العشرة للشيخ المفيد: ٩٩، أمالي الشيخ المفيد: ٢٤٥، الثاقب في المناقب: ٦٠٨، الخرائج والجرائح: ٣/١١٠٤، مناقب آل أبي طالب: ٣/٥٢٩، شرح منة كلمة لإبن مِيثَم البحراني: ٢٣٩، التنبيه والإشراف: ٣١٩، تأريخ بغداد: ٢/١٢٥ و: ٣/٤٢٤ و: ٥/٢٨٤، الكَامِل لإبن الأثير: ٧/٢٠٥، البداية والنهاية: ١١/٤١، سير أعلام النبلاء: ١٣/١٢٩ و: ١٥/١٤٣، تأريخ دمشق: ٥٢/٢٢٠ و: ٦٠/٤٠١، المجدي في أنساب الطالبين: ٢٨.

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ... ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2]. ومع هَذَا يَروي الرُّواة «أنّ مُحَمّداً يَعلم مَا فِي ٱلسَّماوَات، ومَا كَان فِيهِمَا ويَكُون إِلىٰ يَوْم يُبعثُون»!. وقَد ثَبت عن رَسُول ﷺ أنّ أيَّ نَقلٍ عنهُ يُخالف كِتاب الله فَهُوَ من الشَّيْطَان، وعَلىٰ رَغم كلّ حَقّ، وواقع يُؤْمِن بَعْض الشِّيوخ بِٱلْقُرْآن وبِهذا الحَدِيث، وبأنّ النَّبِيّ ﷺ يَعلم ٱلْغَيْب، يُؤْمِن بهَذا التَّناقض، ولا يُشعر بوطأته، وقَسوته... وَإِذَا كَانَ النَّبِيّ ﷺ لايَعلم ٱلْغَيْب فِبالأَوْلىٰ تِلميذه وخَليفته.

(وَ إِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ) يُشير إِلىٰ الأُمُور الخَمْسَة الّتي جَاءت فِي آخر سُورَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[3]. والإِنْسَان العَارف يَتنبأ بنزُول المَطَر، وقَد يَصدق تَنبؤه، ولكنْ بعد ٱطلاعه، ومَعْرِفَته بعلاَمَات المَطَر، ودلاَئله. أمّا نزُول المَطَر الصِّناعِي فَهُوَ تَحوِيل ٱلسَّحَابة الّتي تَحمل ٱلمَاء إِلىٰ مَطرٍ، لا إِيجَاد المَطَر، وتكوِينه، وفَرقٌ بَعِيد بَيْنَ إِيجَاد الشَّيء مُباشرة، أو عن طَرِيق أسْبَابه، وبَيْنَ تَحوِيله من صُورةٍ إِلىٰ صُورة أُخرىٰ.

وأيَضاً قَد يَعلم ٱلإِنْسَان العَارف بواسطة الأشْعة مَا فِي الرّحم من ذَكرٍ، أو أُنثىٰ، ولكن الأشْعة تَعكس الجَنِين الموجُود بالفِعْل، أمّا الصِّفَات الّتي سَوف يَكون عَلَيْهَا فِي المُسْتَقْبَل، وبَعد خروجه من بَطن أُمّه كالطُّوْل، والقِصر، والسّواد، والبَياض،

---

(١) ٱلْأَعْرَاف: ١٨٨.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٩٣.

(٣) لُقْمَان: ٣٤.

والبُخل، والكَرم، والجُبْن، والشَّجَاعَة، والشَّقاء، والسَّعَادَة، أمّا هَـذَا ومَـا إِلَـيْهَا فعلمها عند الَّذي لاَ إله إلاّ هو.

(وَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَعَلَّمَنِيه). عِلم ٱلْغَيْب كلّه لعَالِم ٱلْغَيْب والشَّهادة، ولَكِنَّهُ تَعَالَىٰ يَطلع من ٱرتضىٰ، وٱجتبي من عِبَادِه عَلىٰ شَيء من هَـذَا ٱلْغَيْب بواسطة وَاحِدَة، كَعلم النَّبِيّ عن جِبْرِيلَ عن الله، أو أَكْثَر كِعلم الْإِمَام عـن النَّبِيّ عن جِبْرِيلَ عن الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[1] ... ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2] (وَ تَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي) أي يَـعِيه قَـلبِي، وجَـاء فِي تَـفْسِير الرَّازي والمُراغي عند قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[3] أَنّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِعلّي: «إنّي دَعُوت الله أنْ يجعلها أُذنك يَا عَليّ. قَالَ الإِمَام: فَمَا سَمِعت شَيْئَاً بعد هَذَا فنسِيته، ومَا كانَ لِي أنْ أنسىٰ»[4].

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٧٩.

(٢) الجِنّ: ٢٧.

(٣) ٱلحَاقَّة: ١٢.

(٤) أُنظر، تَفْسِير الكشّاف للزمخشري: ٤ / ٦٠٠ ط قم منشورات البَلاَغَة ولكن بدون لفظ «فـفعل» وقـول عليّ ﷺ بلفظ «فما نسيت شَيْئاً بعدما كان لِي أنْ أنسىٰ»، تَفْسِير الطَّبَرِي: ١٢ و٢٩ / ٣٥ و٥٥ و١٢٣ ط دار الكتب العلمية بيروت روىٰ بسنده عن مكحول يَقُول: قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَتَـعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِـيَةٌ﴾ ثُمّ ٱلتفت إِلىٰ عليّ ﷺ فَقَالَ: سألت الله أنْ يجعلها أذنك يـا عـليّ، قَـالَ عـليّ ﷺ: فـما سـمعت شَـيْئاً مـن رسول الله ﷺ فنسيته. وكَذَلِكَ رواه الطَّبَرِيّ عن بريدة ولكن بلفظ آخر: يا عليّ إنّ الله أمرني أنْ أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك، وأنْ تعي، وحقّ علىٰ الله أنْ تَعي: قَالَ: فنزلت الآيَة. ورواه فِي: ٣٦ عن بريدة أيضاً بإختلاف يَسير. وأُنظر، بحَار الأَنْوَار: ٨ / ٧٣٦ ط الكمباني ب ٣٣، وفي ط الحديثة ج ٣٢، وزين الفتىٰ ↔

↔ للعاصمي: ٦٠٥ مخطوط، المناقب للمغازلي: ٣١٨ ح ٣٦٣، فرائد السّمطين: ١٩٨/١ ح ١٥٥ و١٥٦ بَاب ٤٠.

وأُنظر، مجْمَع الزوائد: ١٣١/١، و: ١١٤/٩، وكنز العُمّال: ١٥٧/١٥ الطبعة الثّانِيَة، و: ٣٩٨/٦ و٤٠٨ عن عليّ عليه السلام عن بريدة ما يقرب من ذٰلِكَ، خصائص الوحي المبين: ٩٨ الطبعة الأُولَىٰ، حلية الأَوْلِيَاء: ٦٢/١ و٦٧ بسنده عن الإِمَام عليّ عليه السلام بإضافة قَوله صلى الله عليه وآله «فأَنْتَ أُذن واعية لعلمي»، الدُّر المنثور: ٢٦٠/٦ عن مكحول في ذيل تَفْسِير الآيَة، أَسْبَاب النزول للواحدي: ٣٢٩، نور الأَبْصَار: ٧٠، وذكر فِيهِ الحديث الّذي نقله أبن الصبّاغ المالكي: ٥٧٨/١، تحقيق سامي الغريري: «ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله كلاماً إِلّا وعيته، وحفظته ولم أَنسه»، المناقب للخوارزمي: ٢٨٢ ح ٢٧٦ و٢٧٧، تَفْسِير فرات: ٥٠١ ح ٦٥٩، أُصول الكَافِي: ٤٢٣/١ ح ٥٧، غَايَة المرام: ٣٦٧ بَاب ٧٠ ح ١ و٢ و٨، شرح المواقف: ٦١٦ ط القسطنطنية ١٢٣٩، المواقف: ٢٧٦/٣.

أُنظر، بصائر الدَّرجَات: ١٣٥/٣ بَاب ١٠ ح ٣، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٦٠/١ وما بعدها، مجْمَع الْبَيَان ٩ و١٠ ص ٣٤٥ ط دار إحياء التراث العَرَبِي بيروت، تَفْسِير أبن كثير: ٤١٣/٤، فتح القدير: ٢٨٢/٥، تَفْسِير غرائب ٱلْقُرْآن بهامش جامع الْبَيَان: ٣١/٢٩، الغدير: ٣٩٤/٣، تَفْسِير الثعلبي: ٣٠٢، مخطوط الإِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣٨/٢، قواعد المرام: ١٨٣، كشف الغمّة: ١١٩/١ و٣٢٢، أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٢١/٢، تأرِيخ دمشق: ح ٩٢٣، شواهد التنزيل: ٣٦١/٢ وح ١٠٠٧ ـ ١٠٢٩، تأرِيخ بغداد: ٤٣١/١١، تَفْسِير البرهان: ٣٧٦/٤ الطبعة الأُولَىٰ، فتح الملك العلي: ٤٩ ما نزل من ٱلْقُرْآن في علي: ب ١٠٨/٢، الذّريعة: ٩٢/٧، سمط النجوم للعاصمي: ٥٠٤/٢ ح ١٣٧، المناقب للصنعاني: ١/ح ٩٠ و١٢١ الورق ٣٥، و: ٢/ورق ٤٣.

الخطبة

-١٢٩-

الْأَغْنِيَاء والْفُقَرَاء... فِقْرَة ١ ـ ٢:

عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ ـ وَ مَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ـ أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَ مَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَ عَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَ رُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاٰ يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ اِلاّٰ إِدْبَاراً، وَ لاٰ الشَّرُّ فِيهِ اِلاّٰ إِقْبَالاً، وَ لاٰ الشَّيْطَانُ فِي هَلاٰكِ النَّاسِ اِلاّٰ طَمَعاً. فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَ عَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَ أَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ[1]. اَضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ اِلاّٰ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً! أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ، وَ صُلَحَاؤُكُمْ! وَ أَيْنَ أَحْرَارُكُمْ، وَ سُمَحَاؤُكُمْ! وَ أَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَ الْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَ الْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ[2].

اللُّغَة:

أَثْوِيَاءُ: ضيُوف، والمُفرد ثوي. ومُقْتَضَوْنَ: مُطَالَبُون، يُقَال: اَقتضاهُ بدِين أي

طَالبهُ بِهِ، وٱفعل مَا يَقْتَضِيه كَرمك أي يُطالبكَ بِهِ. والدَّائِبِ: المُداوم. والكَادِح: السَّاعِي يَجهد. وَأَمْكَنَتْ: سَهُلَت. وَالوَقْر: الثّقل في الأُذن.

الإِعْرَاب:

أَجَلٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذوف أي أَجلكُم أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، ومثله عَمَلٌ مَحْفُوظٌ، وَرُبَّ حَرف جَرٍّ، وتدخل علىٰ النّكرة، ولا يَتعلق مَجرُورها بِشّيء لِأَنَّهَا بِحُكم الزَّائِدة، وَإِذَا دَخَلَت «مَا» عَلَيْهَا كفتها عن ٱلْعَمَل، وحِينئذ تَدخل علىٰ الفِعْل وٱلْمَعْرِفَة مثل رُبَّمَا قَام زَيد، ورُبَّمَا زَيد قَائم، ومُضَيَّعٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذوف أي هو مُضَيَّعٌ، والجُملة صِفة دَائِب، وإِدْبَاراً تَمْيِيز. والهَاء في عُدَّتُهُ، ومَكِيدَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، وحَيْثُ ظَرف مَبنِي علىٰ الضّم، ومَحله النَّصب بٱضْرِبْ.

ٱلْمَعْنىٰ:

(إِنَّكُمْ ـ وَ مَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ـ أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ). كُلّ مَا في الدُّنْيَا إِلىٰ زوال إلّا ما يَنفع النَّاس، فإنّ أَجره باقٍ مَا بَقِي الدَّهْر: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. (وَ مَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ) أي مَسْئُولون، ومُطالَبُون بالاِلتزام، وٱلْعَمَل بشَرِيعَة الْعَدْل، والرَّحْمَة الّتي تقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] (أَجَلٌ مَنْقُوصٌ) تَنتقص الأَعْمَار بِتعَاقب ٱللَّيْل، والنَّهَار (وَ عَمَلٌ مَحْفُوظٌ) مَع الجَزَاء، إِنْ خَيرّاً فخِير وإنْ شَرّاً فشَر (فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَ رُبَّ

---

(١) ٱلرَّعْد: ١٧.

(٢) ٱلشُّعَرَاء: ١٨٣.

كَادِحٍ خَاسِرٌ). لَيْسَت الْعِبْرَة بالكَثْرَة، ولا بالمُواظبة، وإنّما بالتَّقْوىٰ، بالْعَقِيدَة الصَّحِيحة، والْعَمَل الصَّالح، والنَّافع، «فكم من صَائمٍ لَيْسَ لهُ من صِيامه إلّا الجُوع والظّمأ، وكَم من قَائمٍ لَيْسَ لهُ من قِيامه إلّا السَّهر، والعَناء»[1]... «لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ، وَوَلَدُكَ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ؛ فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللهَ، وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ. وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ ـ كَمَا قَالَ الإِمَام[2].

(وَ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَ لاَ الشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَ لاَ الشَّيْطَانُ فِي هَلاَكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً. فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَ عَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَ أَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ) كلّ زَمَانٍ، أو مكانٍ يَنتشر فِيهِ الْفَسَاد، ويُخذل فِيهِ الْمَظْلُوم، ويَركن إِلىٰ الظَّالِمِ فَهُوَ زَمَان الشَّيْطَان، ومكَانه، ولَيْسَ لله فِيهِ نَصِيب، وعن ابن عبّاس: «أنّه تَلا هَذِه الآيَة: ﴿وَلَاتَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ﴾[3] قَالَ: إِذَا كَان هَذَا هو حَال مَن لَم يَصدر عنهُ

---

(١) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٤٤١/٢، سُنَن الدارمي: ٣٠١/٢، سن ابن ماجه: ٥٣٩/١ ح ١٦٩٠، مُسْنَد ابن المبارك: ٤٤، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٢٣٩/٢ ح ٣٢٤٩ و ٣٣٣٣، كنز العُمَّال: ٤٧٣/٣ ح ٧٤٩٠، الجامع الصَّغِير: ٨/٢ ح ٤٤٠٤، شرح نهج البَلاَغَة لِابْن أبي الحَدِيد: ٣٤٤/١٨، مُسْنَد الشهاب: ٣٠٩/٢ ح ١٤٢٤، كشف الخَفَاء: ٤٢٥/١ ح ١٣٦٥، فيض القدير: ٦١٢/٣.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٩٤)، عُيُون الحِكَم والمواعظ: ٤١١، شرح نهج البَلاَغَة لِابْن أبي الحَدِيد: ٢٥٠/١٨، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ١٦٧/٨ ح ٧، دستور مَعَالِم الحِكَم: ١٤٠، نظم درر السِّمطين: ١٥٧، كنز العُمَّال: ٢٠٨/١٦ ح ٤٤٢٣٣، جواهر المطالب لِابْن الدِّمَشقي: ٣٠٤/١، سُبل الهُدَىٰ والرشاد: ٢٩٩/١١، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٢١/١٢ ح ٩.

(٣) هُود: ١١٣.

إلاّ مُجرد ركُون، ولَم يَشترك فِي قَولٍ، أو فِعلٍ فَالوَيل كلّ الوَيل لِمَن أطرىٰ، وشَارك[1]!. إنّ المَسْئُولية تُلاحق ٱلإنْسَان، وتُطارده مُنذ رُشده، وإدراكه، فيسأل عَن عَدم ٱلْعَمَل كمَا يُسأل عن ٱلْعَمَل، ويُسأل عن السُّكُوت كمَا يُسأل عن الكلاَم ... وإذَنْ فالشَّر يَزداد، ويَنتشر بفَاعله، وبالسُّكُوت عَنْه.

(ٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا ٱتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً). كأنّ سَائلاً يَسأل، ويَقُول: بأي شَيء ٱزداد الشّرّ، وٱنتشر، وأَصْبَحَ النّاس فَرِيسة لِلشَّيْطَانِ؟.

فَأجاب الإِمَام بأنّ الشّرّ ٱزداد، وٱنتشر بٱنتشار الْفَقْر... أنّه يُعرض الْمُؤْمِن لِلْفِتْنَةِ فِي دِينه، ويقُوده إلىٰ كلّ سوء. ومِن حِكم الإِمَام: «إذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ»[2]. وقرأتُ قِصَّة تَقول: إنّ رَجُلاً صِينياً أنهكَهُ الجُوع، والمَرض، وكَانَ يَعول زَوْجَةً، وأطفَالاً، ولا يَملك مِن حُطام الدُّنْيَا شَيْئاً، ولمّا تَراكمت عَلَيْهِ الدّيُون، وضَايقهُ أربَابها أجّر زَوجته لاِقطاعِي بدُرِيهمَات بَعد أنْ أَيقن بهلاَك الجَمِيع... فهل يَبْقَ مَع الْفَقْر ضَمير، وأخلاَق؟ وَقَالَ كُونفُوشيُوس: لا يَدخُل الشَّيْطَان بَيتاً فِيهِ قَمح. وتَقَدَّم الكلاَم عن ذَلِكَ[3].

والخُلاَصة: أنّ نَمط ٱلْحَيَاة لهُ أَبلغ الأثَر في الأفكَارِ، والأقوالِ، والأفعالِ، ومن

---

(١) أنظر، تَفْسِير الطبري: ١٢/١٢٦ و ١٢٧، تَفْسِير ٱبن كثير: ٢/٤٦٢، فيض القدير: ١/٤٤١ و: ٤/١٣٢، حلية الأَوْلِيَاء: ٢/١٥٨، تفسِير القُرطُبي: ٩/١٠٨.

(٢) أُنظر نَهْج البَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٧٢).

(٣) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَةُ ١٢٦ بِفَقْرَة «ٱلإِسْلاَم وٱلْمَال»، (مِنْهُ ﷺ).

الَّذي يَصغي لصَوْت الضَّمِير، وأطفاله من حَوله يَصرخُون من الجُوع؟ وحِين دَعا سُبْحَانَهُ الْعِبَاد إلىٰ طَاعته، ذكّرهم بِنعمه عَلَيْهِمْ تَمَامَاً كَمَا نَبهم إلىٰ خَلق ٱلسَّمَاوَات والأَرْض. قَالَ عَزَّ من قَائل: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّـذِىٓ أَطْـعَمَهُم مِّن جُـوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1]... ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾[2].

(وَ أَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ؟). الوَرَع في المَكَاسِب أنْ تَأكل من عَمل يَدك، وتَعيش عَلىٰ حِساب جهُودك لا عَلىٰ حِساب الآخرين، وفي رِوايَة: «أَفضَل النَّاس مَن يَعمل بِيده، ويَأْكُل مِن كَسْبه». وفي ثَانِيَة: «أَفضَل العِبَادَة طَلب الحَلَال» (وَ الْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ) جَمع مَذْهَب، يَطلع علىٰ الْعَقِيدَة، والطَّرِيقة، ويَصحح إرَادَة ٱلْمَعْنَيين مَعاً مِن الكلاَم، والنَّزَّاهَة فِي الْعَقِيدَة صحتها، وصَوابها، وفِي الطَّريقة الاِسْتِقَامَة علىٰ الْحَقّ، والْعَدْل (أَ لَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّة، وَ الْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ) إلىٰ رَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ.

اللهُ لاٰ يُخْدَعُ...فِقْرَة ٣:

وَ هَلْ خُلِقْتُمْ إلاّٰ فِي حُثَالَةٍ لاٰ تَلْتَقِي إلاّٰ بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، ٱسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَ ذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّـآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]! ﴿ظَهَرَ ٱلْـفَسَادُ﴾[4]، فَلاٰ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَ لاٰ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَ فَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ،

(١) قُرَيْش: ٣ ـ ٤.

(٢) الضُّحىٰ: ٨.

(٣) ٱلْبَقَرة: ١٥٦.

(٤) ٱلرُّوم: ٤١.

وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لاَ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَ لاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ اِلاَّ بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللهُ ٱلآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ[٣]!

اللُّغَة:

حُثَالَة الدُّهن: رَدِيئة، وحُثَالَة النَّاس: أَرَاذِلهُم.

الإِعْرَاب:

ٱسْتِصْغَاراً مَفْعُول مِن أَجله لِتَلْتَقِي، وهَيْهَاتَ ٱسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد.

ٱلْمَعْنىٰ:

(وَ هَلْ خُلِقْتُمْ اِلاَّ فِي حُثَالَةٍ؟) لَقد وَجدتُم فِي زَمَانٍ لاَ خَير فِي أَهْله، اللاَزم لِلحَقّ مِنهُم ذَلِيل، وغَرِيب، والعَامل بالْبَاطِل عَزِيز، وقَرِيب (لاَ تَلْتَقِي اِلاَّ بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، ٱسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَ ذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ) يُنزه الْمَرْء ٱلْكَرِيم لِسَانه عن النُّطق بِٱسمهم ٱحتقاراً لأهدافهم، وأفعالهم... أَنّهم يُفسدون، ويَبغُون، وأَنْتُم غَيْر مُبالِين، لا تُجابهُونهم بقولٍ، ولا تَقومُون ضُدهم بأي عَمل (أَ فَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَ تَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لاَ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَ لاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ اِلاَّ بِطَاعَتِهِ) فِي نَعِيم لاَ عَينٌ رَأت، ولا أُذن سَمعت، ولاَ خَطر علىٰ قَلب بشرٍ[١]، وهو سُبْحَانَهُ القَائل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

(١) أُنظر، صَحِيح البُخاريّ: ٨٦/٤، صَحِيح مُسْلِم: ١٢١/١، مُسْنَد أَحمَد: ٣٧٠/٢، سُنن ٱبن مَاجه:
↔

يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1] أي الصَّابِرِين عَلىٰ أَلم الجِـهَاد، وَوَطْأته.

(هَيْهَاتَ! لاٰ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَ لاٰ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاّٰ بِطَاعَتِهِ) وثَمنُهَا مَحدود لا مُساومَة فيهِ، ولا شَفَاعَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2] (لَعَنَ اللهُ ٱلآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ). هَذِه اللّعنَة لاَ تَختص بِمن أَمر وَلَم يَأتمر، ونَهىٰ دُونَ أنْ يَنتهي، بَل تَعم، وتَشمل كلّ واحد لا تَنسجم أَقْوَاله، وأفعَاله مَع دِينه، وعقِيدته، فمَن آمن برِسَالَة مُحَمّد ﷺ، دُونَ أنْ يَنسجم مَعَهَا فِي سلوكه فَهُوَ مَلعُون، وإنْ أحجَم، وسكَت عَن الأمر بِالمَعْرُوفِ، والنَّهِي عَن المُنْكَر.

⇐ ١٤٤٧/٢، سُنن الدَّارمي: ٣٣٢/٢، الغَارَات: ٨٥٥/٢، وَسَائِل الشّيعة: ٤٧٨/١٠ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٢/٦، ثواب الأعمال: ٥٦، نَيل الأوطَار: ١٥٥/٢، المُحلىٰ: ١٢/١.

(١) آلِ عِمْرَان: ١٤٢.

(٢) ٱلتَّوْبَة: ١١١.

الخطبة

-١٣٠-

الغَضَبُ للهِ:

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَ خِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَ اهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَ مَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَ سَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَ الْأَكْثَرُ حُسَّداً، وَ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى اللهَ، لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لاٰ يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ الْحَقُّ. وَ لاٰ يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَ لَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ.

اللُّغَة:

الرَّتْق: ضِدّ الفَتق وهو الاِلتئام. وقَرَضْتَ: أَخَذْتَ.

الإِعْرَاب:

مَا أَحْوَجَهُمْ للتَّعجُب، وَ«مَا» نَكرة تَامة بِمَعْنَىٰ شِيء، ومحلها الرَّفع بـالاِبْتِدَاء،

وأَحْوَجَ فِعل مَاضٍ، وضَمِير الجَمع مَفْعُول، والفَاعل مُستتر، والجُملة خَبَر، ومثلهُ مَا أَغْنَاكَ، وحُسَّداً تَمْيِيز، والمَصْدَر مِن أَنَّ ٱلسَّمَاوَات، وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً.. إلخ فَاعِل لِفعل مَحذوف أي لَوْ ثَبتَ.

أَبُو ذَرّ:

مَا كَان أَبو ذَرّ[1] نَبِيّاً من ٱلأَنْبِيَاء، ولا قَائِداً من قَادة الحَرْب، ولا الرُّؤسَاء، والأُمَرَاء، أو المُؤَلِّفِين، وٱلشُّعَرَاء، أَو من أَصْحَاب الأَمْوَال، والأَطيَّان... فكلّ مَا حَازة فِي دُنياه كَانَ كُوزاً، وعكَازاً... ولَكِنَّهُ كَان جَرِيئاً فِي الحَقِّ، ومُخلصاً لهُ، يَجهر بِهِ بِعَزمٍ وصَلابة، ولا يُسكته عنهُ خَوْف، أو سَيْف، ولا يُساوم عَلَيْهِ بثَمن بَالِغاً مَا بَلغ.

---

(١) أبو ذرّ الغفاري: هو جُنْدُب بن السكن، ولقبه: بُرَيْر، وقيل: أسمه بُريد بن جُنادة، وقيل: أسمه جُنْدُب بن جنادة. وهو من غفار قَبِيلة من كنانه وهو: غفار بن مُليل بن حَمْزَة بن بكيٰ بن عبد مَناة بن كنانه بن خُزَيْمَة. قدم علىٰ رسول الله ﷺ وأسلم ورجع إلىٰ بلاد قَوْمه فأقام فيها، ثمّ رجع إلىٰ رسول الله ﷺ ولكن عُثْمَانَ سيّره إلىٰ الرَّبَذَة ـ بَيْنَ مَكّة والمدينه فمات بها سَنَة (٣٢ هـ) وليس له عقب، كَانَ رابع أَرْبَعَة سيقوا إِلىٰ الإِسْلَام، وكَانَ من المتألّهين في الجَاهِلِيّة والّذين عبدوا الله وتركوا الأصنام. ولمّا أسلم أجهر بـإسلامه في ٱلبَيْت ٱلحَرَام، فضربه رجال من قُرَيْش حَتَّىٰ ضرّجوه بدمه وأُغمي عَلَيْهِ فتركوه ظنّاً مِنْهُم أنّه قد مات.
وسُيّر إلىٰ الشّام بعد وفاة الرسول ﷺ ومكث هناك حَتَّىٰ شكاه مُعَاوِيَةَ إِلىٰ عُثْمَانَ فٱستقدمه ٱلخَلِيفَة وعنّفه ونفاه إِلىٰ الرَّبَذَة، وقد وردت أحاديث كثيرة عن الرّسول ﷺ في مدحه، أُنظر الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابْن سعد: ٤ ق ١ / ١٦١، مُسْنَد أحمد: ٢ / ١٦٣ و ١٧٥ و ٢٢٣، و ٥ / ١٤٧ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٧٢ و ١٧٤ و ٣٥١ و ٣٥٦، و: ٦ / ٤٤٢، المُسْتَدرَك: ٣ / ٣٤٢، صَحِيح البُخَاريّ: مناقب أبي ذرّ، صَحِيح الترمذي وصَحِيح مُسْلِم في بَاب المناقب. سُنن ٱبن ماجه: الباب الأوّل من المقدّمة. مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ح ٤٥٨. وأُنظر الطبري. وٱبن الأثير في ذكر غَزْوَة تَبُوك. ولاحظ ترجمته في التّقريب: ٢ / ٤٢٠، وجوامع السِّيرَة: ٢٧٧). روىٰ عَنْه أصحاب الصحاح ٢٨١ حديثاً.

وبكَلِمَةٍ كَان صَادق الْإِيمَان، وكفَىٰ... وقَد يُقَال: أنّه نموذج أعلىٰ للإِيمَان، لا لمجرد نَوْعه، وحَقِيقَته فَحسب. ونَحْنُ لا نَشك في ذَلِكَ، ومع هَذَا نَقول: إنّ الْإِيمَان لا يَتجزأ، وإنّ مَن أَطاع الله في بعضٍ، وعَصاه في بعضٍ فقد أَشرك الشَّيْطَان في طَاعَة الله... ولو أنّ قَلبه عَمُر بالتَّقْوىٰ، والْإِيمَان لمَا وَجد الشَّيْطَان إِلَيْهِ سَبِيلاً.

وسرّ العَظمة في أَبِي ذَرّ يُمكن في أنّه مَا قَصد شَيْئاً من مواقفه كلّها إلّا وَجه الله، ولو أنّه قَصد سواه في مَوقفٍ واحد فقط مَا كَان وَجِيهاً عِند الله، والنَّاس، بل كَان واحداً مِنْهُم كسَائر الآحَاد، وبهَذا يَتبَيَّن مَعناه أنّ الشّمول، والْعمُوم في طَاعَة الله هو من قوام الْإِيمَان، وأنّ مَن يَتعَدّىٰ حَدّاً واحداً من حدُود الله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَلاً مُّبِيناً ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾[1].

أمّا اهتمام أَبِي ذَرّ بالنَّاحية الْإِقْتِصَادية، وثورة علىٰ الْأَغْنِيَاء، والمُتْرَفِين فَسببها وَاضح، ومَعلوم عِند الجَمِيع، وهو أنّ عُثْمَانَ انْحَرَف عن سُنَّة الرَّسُول، وخَالف شَرِيعَة الْإِسْلَام، واستأثر هُو وذَوُوه بأَمْوَالِ المُسْلِمِين، فامتلكُوا بها القصُور والمَزارع، والرِّيَاش، والخيُول، والعَبِيد، والإمَاء، ومن حَولهم مَلاَيين الجِياع والمُعدَمِين[2]. وإذَنْ فثورة أَبِي ذَرّ علىٰ الْأَغْنِيَاء كَانَتْ بدَافع من حُبِّ العَدْل،

---

(١) الْفُرْقَانِ: ٧٠.

(٢) أرسل عُثْمَانَ إلىٰ بطانة السُّوء من أمثال مُعَاوِيَة، وعبدالله ابن أبي سرح، وسعيد بن العَاص، وعَمْرُو بن العَاص، وعبدالله بن عُمَرَ، فجمعهم ليشاورهم فلما اجتمعوا عنده قَالَ لهم: «أنّ لكلّ امرئ وزراء، ونصحاء، وإنّكم وزرائي، ونصحائي، وأَهْل ثقتي، وقد صنع النّاس ماقد رأيتم، وطلبوا إليّ أنْ أعزل عُمالي، وأنْ أرجع عن جميع مايكرهون إلىٰ مايحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ».
أنظر، مروج الذّهب: ٢/٣٧٢، تَأرِيخ الطَّبرِيّ: ٥/٩٤.

↔ وهَذِه إشارة صريحة وواضحة بأنّ السّاحة فيها أكْثَر من تيار يعمل ضده كما قَالَ في العقد الفريد: «ومِمّا نقم النّاس علىٰ عُثْمَانَ أنّه آوىٰ طريد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العَاص... وسيّر أبَا ذَرّ إلىٰ الرَّبَذَة... وسيّر عَامر بن عبد قَيْس، من الْبَصْرَةِ إلىٰ الشّام، وطلب مِنْهُ عبدالله بن خَالد بن أُسيد صِلة فأعطاه أربعمئة ألف... وتَصدق رسول الله بمهزون موضع سوق بالْمَدِينَة علىٰ الْمُسْلِمِينَ فأقطعها الحَارث بن الحكم أخا مَرْوَان... وأقطع مَرْوَان فَدَك وَهِي صدقة لرسول الله، وافتتح أفريقيا، وأخذ خُمسها فوهبه لمَرْوَان».

أنظر، العقد الفريد: ٧٧/٣.

وَقَالَ ابن هُشام في السِّيرَة الحَلَبية: «وسبب هَذِه الْفِتْنَة أنّهم نَقموا عَلَيْهِ أُموراً مِنْهَا عزله لأكابر الصَّحَابَة مِمَّنْ وَلّاهُ رسول الله ﷺ، ومِنْهُم من أوصىٰ عُمَرَ بأَنْ يَبْقَىٰ علىٰ ولايته وهو أبوموسىٰ فعزله عُثْمَانَ وولىٰ ابن خالد عبدالله بن عامر محله، وعزل عَمْرُو بن العَاص عن مِصْر ووَلّاهَا ابن أبي سرح، وعزل الْمُغِيرَة عن الْكُوفَةِ، وعزل ابن مسعود عَنْهَا، وأشخصه إلىٰ الْمَدِينَة، وعزل سعد بن أبي وَقّاص عن الْكُوفَةِ وولىٰ أخَاه لأُمّه الوليد بن عُقْبَة الَّذي سماه الله تَعَالىٰ فاسقاً...

ومِنْهَا أنّه أدخل عمّه الحكم وكَانَ يُقَال له طريد رسول الله ﷺ ولعينه... وأنّه حَبس عطاء عبدالله بن مسعود وهجره، وحبس عطاء أُبي بن كعب، ونفىٰ أبَا ذَرّ إلىٰ الرَّبَذَة، وأشخص عبادة بن الصّامت من الشّام لما شكاه مُعَاوِيَةَ... وضرب عَمّار بن ياسر، وكعب بن عُبَيْدَة، ضربه عشرين سوطاً ونفاه إلىٰ بَعْض الْجِبَال، وَقَالَ لِابْن عوف إنّك منافق... وأنّه أحرق الصُّحف الَّتي فيها الْقُرْآن، وأنّه أتم الصَّلاة بمنىٰ... وأنّه ترك قتل عُبَيْد الله وقد قتل الْهُرْمُزَان...».

أنظر، السِّيرَة النَّبَوِيَّة: ٨٢/٢، طَبْعَة ٢ مِصْر، شرح النَّهج: ٦٦/١ و ٢٣٣، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣٣٧/٣ و: ٣٤٥، ابن الأثير: ٦٥/٣ و ٧٣، الطَّبريّ: ٨٠/٥ و ٩٤، مُسْنَدأحمد: ١٥٥/٥ و ١٦٦، و: ٦/ ٤٥٧، كنز الْعُمّال: ١٧٠/٦، العقد الفريد: ٩١/٣، المارف لِابْن قُتَيْبَة: ٨٤، ابن كثير: ٤٥٢/٧، تَأريخ أبي الفداء: ١٦٨/١، الْإِصَابَة: ٦١٩/٣، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦١/٨، الطَّبَقَات لِابْن سعد: ٨/٥، أَنْسَاب الأشْراف: ٢٨/٥، مرآة الجنان: ٨٥/١، كلّ هَذِه المصادر وغَيْرها نقلت لنا هَذِه المَسَاوِىءِ العُثْمَانِية بشكل مفصل. فمن أراد المزيد فليراجع.

وعُثْمَانَ هو الَّذي عطل الْحُدُود، وجاء وجوه أَهْل الْكُوفَةِ عَلِيّاً فَشَكَوْا إِلَيْهِ ماصنع بِهِمْ عُثْمَانَ بعد أن ↔

↔ زبرهم، وضرب الشّهود أسواطاً، ثُمّ ذهبوا إِلىٰ عَائِشَة فأخبروها بِمَا جرىٰ عَلَيْهِمْ فنادت وقالت: إِنّ عُثْمَانَ أبطل الْحُدُود، وتوعد الشّهود.

وقد أخرج صاحب الأغاني قول عُثْمَانَ: «...أمَا يجد مُرّاق أَهْل الْعِرَاق، وفُساقهم ملجأً إلّا بَيْت عَائِشَة؟ فسمعت عَائِشَة فرفعت نَعل رسول الله، وقالت: تركتَ سُنّة رسول الله صاحب هٰذَا النّعل، فتسامع النّاس فجاءوا حَتّىٰ ملأوا الْمَسْجِدِ فمن قَائِل: أحسنت، ومن قَائِل: ماللنّساء ولِهٰذَا؟ حتىٰ تحاصبوا، وتضاربوا بالنّعال...وقد واجهه جُنْدُب، وما أدراك ما جُنْدُب، وزيد بن صوحان فقد قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ: «مَن سَرّه أنْ يَنظر إِلىٰ رَجُل سَبقه بَعْض أعضائه إِلىٰ الْجَنّة فلينظر إِلىٰ زَيد أن صوحان».

أنظر، كنز الْعُمّال: ٦٨٥/١١، البداية والنهاية: ٢١٤/٦.

وَقَالَ فِيهِمَا ﷺ: «جُنْدُب وما جُنْدُب، وزَيد الْخَيْر ومَا زَيد الْخَيْر. أمّا أحدهما فيضرب ضَربة يفرق بَيْنَ الْحَقّ، والْبَاطِل، وأمّا الآخر فَيسبقه عُضْو من أعضائه إِلىٰ الْجَنّة، ثمّ يَتبعه سَائر جَسده».

أنظر، كنز الْعُمّال: ٦٨٩/١١.

فجُنْدُب واجه الوليد بشربه لِلْخَمْر وقاد المعارضة ضده.

أنظر، تَأريخ الطّبرى: ١٧/٢.

وزيد هو القائل لعُثْمَانَ: «مِلت فَمَالت أُمتك أعتدل تَعتدل أُمتك».

أنظر، الطّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ١٢٤/٦.

وقد سيرهما عُثْمَانَ مع ـ كُمَيْل بن زياد، وجُنْدُب بن زهير، وعَمْرُو بن الحمق، وعُرْوَة بن الجعد، وصَعْصَعَة بن صوحان، ومالك بن عامر الأَشْتَر ـ إِلىٰ الشّام، وكلّ واحد من هٰؤُلَاءِ قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ قولاً جَميلاً.

أُنظر، ترجمة حَيَاة هٰؤُلَاءِ الأبطال في الإِصَابَة: ٣٢٥/٥ و: ٢١٥٩/١ و: ٤/ ٢٩٤ و ٢٣٦ و ٣/ ٢٥٩، تَأريخ الطّبريّ: ٩٠/٥ .

أمّا بِطانة السُّوء العُثْمَانِية فَكَانَتْ تُبدي آراء مُتناقضة عندما طَلب مِنْهُم عُثْمَانَ الْمَشُورَة، فَقَالَ مُعَاوِيَة: إِنْ تأمر أُمَرَاء أجنادك فيكفيك كلّ رجل مِنْهُم ما قبله وأكفيك أنا أَهْل الشّام.

أنظر، مروج الذّهب ٢: ٣٧٢، الطّبريّ ٥: ٩٤.

وأُنظر قول عبدالله بن عامر، وسعيد بن العَاص، وعَمْرُو بن العَاص في الطّبريّ، والمروج للمسعوديّ. ↔

والصَّلاح، وبَاعث من دِينه، وإيمَانه بسُنَّة الرَّسُول ﷺ، وتَعَالِيمَ الإِسْلاَم، وبقصد الحِرْص والمحافظة علىٰ حقُوق ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وتَقسِيم الْفَيْء بالسَّوية علىٰ الجَميع، لا بَدَافع من إيمَانه بالإِشْتَرَاكِية، وإلغَاء المُلكِية، وقَد جَاهر ذَلِكَ عَمَّار بن يَاسر كما جَاهر أبو ذَرّ، ثُم الْصَّحَابَة، وعَامة ٱلْمُسْلِمِين، ثُمّ تَراكُم الاِسْتِياء الَّذي أدىٰ إلىٰ مَقتل عُثْمَانَ، ولكن أبَا ذَرّ أُوذي فِي سَبِيل ذَلِكَ إيذاءً كَثِيراً حَتَّىٰ نَفاه عُثْمَان إلىٰ الشَّام، ثُمّ إلىٰ صَحرَاء الرَّبَذَة، ولو كَان أَبو ذَرّ إشتراكِياً لثَار عَلىٰ عُمَرَ بن الخطَّاب الَّذي قَسم الأَمْوَال بالتّفاوت، ومَيّز بَيْنَ الْفِئَات، والأفرَاد.

كَان أَبو ذَرّ يَأمر بِالْمَعْرُوفِ، ويقُول أوصَانِي خَلِيلي رَسُول الله ﷺ أَنْ أَقول الْحَقّ

↔ وتجري الأحداث يوماً بعد يَوْم ضد عُثْمَانَ عندما كشر عن نواياه السَّيِّئة وأظهرها في خطبته حين قَالَ: «فقد والله عِبتم عليَّ بِمَا أقررتم لِابْن الخَطَّاب بمثله، ولَكِنَّهُ وطئكم بـرجـله، وضربكم بـيده، وقـمَعَكُمْ بِلسَانِه...» وَهَذَا إعتراف صريح وخطير من قبل أَمِيركم، أمِير الْمُؤْمِنِينَ ـ ذي النّطاقين، والنّورين ـ كما تسمونه بوصف صاحبكم ـ الفَاروق ـ لو صدر هَذَا الْقَوْل من عَمَّار، أو سَلْمَان، أو أَبِي ذَرّ لقلتم ما قلتم، ولأولتم ما أولتم... ولَكِنَّهُ صَدر من عُثْمَانَ، ولم يرو من مصادر أَهْل الشّيعة أو مِمَّنْ أتهمتموه بالتَّشيعَ أو بالزَّيغ، بل نقله الطَّبريّ في تَأرِيخه، وصاحب البداية والنّهاية.

أُنظر، تَأرِيخ الطبريّ: ٩٧/٥، البداية والنّهاية: ١٦٩/٧.

ويستمر عُثْمَانَ في خطبته...« ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عَلَيْكُمْ فضولاً، وكشرت لكم عن نابِي...»، ولذا عندما طلب مِنْهُ أَهْل مِصْر تغيير عبدالله بن أَبِي سرح قَالَ لهم عُثْمَانَ: أختاروا رَجُلاً نوليه علىٰ مِصْر فوقع أختيارهم علىٰ محمّد بن أَبِي بَكْر.... إلاّ أنّ عُثْمَانَ أرسل شخصاً آخر ومعه أمر إلىٰ عبدالله بن أَبِي سرح يطلب مِنْهُ أنْ يقتل محمّد بن أَبِي بَكْر و... و... ويقره علىٰ عمله، لكن شاءت الأقدار أنْ تفضح الخؤون الغادر ويُلقىٰ القبض علىٰ هَذَا الشّخص الَّذي أرسله عُثْمَانَ وبيده الكتاب المختوم بخاتم ذي النّورين، إلاّ أنّه تبين إنّه من صنع مَرْوَان بن الحكَم، فرجعوا وأخبروا عُثْمَانَ وطالبوه بتسليم مَرْوَان لهم، لكنّ ذا النّطاقين أبىٰ ذَلِكَ.

أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٣٤/١ ـ ٣٨، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣/ مقتل عُثْمَانَ.

ولو كَان مُرّاً ، ولا أَخشىٰ في الله لَومة لائِم ، وأعُوذ بالله من الجُبْن . . .

يا مَعشر الْأَغْنِيَاء اجْعَلُوا في أَمْوَالكم حَقّاً للسَّائِل والمحرُوم . . . يا مَعشر الْأَغْنِيَاء واسوا الْفُقَرَاء ، ولا تكنزُوا الذَّهب ، والفِضَّة فتمسكُم النَّار . . . يا مَعشر الْأَغْنِيَاء قَالَ رَسُول الله : «مَا مَلأ ابن آدَمَ ، وعَاءً شَرّاً من بَطنه ، حَسِب ابن آدَمَ لُقيمَات يُقمن صُلبه . . .»[1] ، وهَذِه هِي دَعْوَة الْقُرْآن بالذَّات : ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[2] . . ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[3] .

وكَان يُخاطب الْفُقَرَاء بقَوْله : «اجمعوا مع صَلاتكُم ، وصُومكُم غَضباً لله إِذَا عُصي فِي الْأَرْض ، ولا ترضوا الْوُلَاة بِسخط الله إنْ أَسخطوا الله ، فجَانبُوهُم وازرُوا عَلَيْهِمْ ، فإنّ الله أكبر ، وأعلىٰ»[4] . . . وهَذِه دَعْوَة الْإِسْلَام ، والْقُرْآن ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾[5] .

فَقال لهُ عُثْمَانَ : انْتَه عن هَذَا يَا أَبا ذَرّ . قَالَ : أَتنهانِي عن قِراءة كِتاب الله ؟ والله لأنْ أرضي الله بسخطك أحبّ إليَّ من أنْ اسخطه برضَاك . فنفاه عُثْمَانَ إِلىٰ الشَّام ، ولمّا دَخل دِمشق ورأىٰ الخَضْرَاء ، قَصر مُعَاوِيَة الجَدِيد ، وقفَ ذَاهِلاً عن كلّ شيء

---

(١) أُنظر ، سُبل الْهُدَىٰ والرشاد : ١٠٢/١٢ ، الجازات النَّبويَّة : ٤٤٣ ح ٣٦٠ ، مُسْنَد الشَّاميين : ١٣٦/٣ ح ١٩٤٥ ، فيض القدير : ٣١٩/٤ ، إعانة الطالبين : ٢٨٠/٢ ، المبسوط للسرخسي : ٢٦٦/٣٠ ، السُّنن الكُبْرَىٰ : ١٧٧/٤ ح ٦٧٦٨ ، الْمُسْتَدرَك لِلحَاكِم : ٣٣١/٤ .

(٢) الذَّاريَات : ١٩ .

(٣) التَّوْبَة : ٣٤ .

(٤) أُنظر ، مُسْتَدرَك الوَسَائِل : ١٩٩/١٢ ح ١٣٨٧٥ ، أمالي المفيد : ١٦٣ ، البحار : ٣٦٩/٢٢ .

(٥) الْمَائِدَة : ٤٤ .

إلّا عن أمر الله، وطَاعته، فٱستأنف سِيرته الْأُولىٰ، وَقَالَ: هَذِهِ هِـي الخِـيانة، أو الإسْرَاف. فَقَالَ له مُعَاوِيَة: مَا الَّذي أَغضبك عَلينا يَا أَبَـا ذَرّ؟ قَـالَ إنّك أَغـنِيت الْأَغْنِيَاء، وأفقرت الْفُقَرَاء. فحَاول مُعَاوِيَة أنْ يَشتري أَبا ذَرّ بٱلْمَال كمَا حَاول عُثْمَانَ من قبل!.. ولكن ما لأبي ذَرّ بُدّ من طَـاعَة الله، وٱلْـعَمَل بـوصية رَسُـول الله ﷺ فٱستمر فِي ثَورته، وشعارها العَودة إِلىٰ سِـيرة النَّـبِيّ، وسـنُّتّه، وتَـعَالِيم ٱلْـقُرْآن ومبادئه، فٱهتزت الْأَرْض من تَحت مُعَاوِيَة، وكَادت الثَّورة تَأتِي أُكلها، وتَـعمل السُّيُوف فِي مُعَاوِيَة عَملها قبل أنْ تَصل إِلىٰ عُثْمَانَ لَوْلاَ أنّ مُعَاوِيَة أَسرع وعَمل علىٰ ٱرجَاع أَبِي ذَرّ إِلىٰ عُثْمَانَ.

وطَار صواب عُثْمَانَ حِين رأىٰ أَبا ذَرّ مُنتصباً أَمام عَينيه، وقَد كَان يَظن أنّه قَد تَخلص منهُ، وٱستراح... فٱشتد بِهِ الْغَيْظ، وَقَالَ: «لاَ أنعم الله بِكَ عَيناً. فَقَالَ أبـو ذَرّ: والله ما نَقمت منِي إلّا الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ، والنَّهـي عن الْمُـنْكَر. فَـغضب عُـثْمَانَ، وَقَالَ: ٱشيروا عليَّ فِي هَذَا الكَذاب!. النَّبِيّ ﷺ يَـقُول: «مـا أَقَـلّت الغَـبراء، ولا أظلّت الخَضْرَاء أَصدق لَهجة من أَبِي ذَرّ»[1]، وعُثْمَانَ يَقُول: هَذَا الكذاب! فأيـهـما

(١) أنظر، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ٣٨٥/٣ ح ٥٤٦١ و٥٤٦٧، الطَّـبَقَات الْكُبْرَىٰ لِابْـن سـعد: ٤ ق ١٦١/١، مُسْـنَد أحمـد: ١٦٣/٢ و١٧٥ و٢٢٣، و١٤٧/٥ و١٥٥ و١٥٩ و١٦٥ و١٦٦ و١٧٢ و١٧٤ و٣٥١ و٣٥٦، و: ٤٤٢/٦، صَحِيح البُخَاريّ: مناقب أَبِي ذَرّ، صَحِيح التّرمِذي، وصَحِيح مُسْلِم في بَاب المناقب، سُنن ٱبن ماجه: ٥٥/١ ح ١٥٦، مُسْنَد الطَّيَالسِي: ح ٤٥٨، وأنظر الطبري، وٱبن الأثير في ذكر غَزْوَة تَبُوك، ٱلْفَتح الرّبانِيّ: ٢٧٠/٢٢، كشف الْخَفَاء: ٢٣١/٢ ح ٢١٧٣، الجَامِع الْـصَّغِير: ٥/ ٦٧٩، كنز الْعُمَّال: ٢٢٨/٤ و: ١١/ ٦٦٧، تذكرة الحفاظ: ١٨/١، سير أعلام النبلاء: ٥٩/٢، الكاشف: ٤٢٤/٢ ح ٦٦١٣، الإسْتِيعَاب: ١٦٥٥/٤ و١٨٩٦، الْإِصَابَة: ١٢٩/٧، كشف الخَفَاء: ٢٣١/٢ ح ٢١٧٣، تدريب الراوي: ٩٤/١.

الكَاذب ؟.

ثُمّ دَعا عُثْمَانَ مَرْوَان بن الحكم، وأمّره أنْ يَخرج بأبِي ذَرّ إلىٰ صَحرّاء الرَّبذَة ونَهىٰ النّاس أنْ يَصحبُوه، أو يُشيعُوه... ولكن الإمَام أمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام، شَيعة هو وولدَاه الحَسَن، والحُسَيْن، وأخوه عَقِيل، وابن أخيه عبد الله بن جعفر، وعَمّار بن يَاسر، ولمّا وَدعه الإمَام قَالَ له: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ... إلخ) فَقَالَ أبو ذَرّ لِلإمَامِ، والَّذِين معهُ: «بأبِي وأُمّي هَذِه الوجُوه إنّي إذَا رأيتكُم ذكرت رسول الله صلى الله عليه وآله وما لِي بالمَدِينَة شَجن، ولا سَكن غَيْركم... ومَات أبـو ذَرّ غـرِيباً بفَلاة من الأرْض لا يَملك حَتّىٰ الكفْن... ولَوْلاَ بَعْض المَارة يُكفنه برداء من مَلابسه لدُفن من غَيْر كَفْن... وكثير من الصَّحَابَة يَملكون المَـلايين، وفي طَـلِيعتهم عـبد الرَّحْمَان بن عوف، وطَلْحَة، والزُّبَيْر أعْضَاء مَجلس الشُّـورَىٰ الَّـذِين رَشـحهم الخَلِيفَة الثَّانِي لاِختيار عُثْمَانَ خَلِيفَة علىٰ المُسْلِمِين[1].

---

(١) في رواية قَالَ: «ذكر عُمَرَ من يستخلف فقيل: أين انْتَ عن عُثْمَانَ؟ قَالَ: لو فعلت لحمل بني أبي مُعَيْط علىٰ رقاب النّاس. قيل: الزُّبَيْر؟ قَالَ، مؤمن الرِّضَىٰ، كافر الغضب. قيل: طَلْحَة؟ قَالَ: أنفه في السَّمَاء وأسته في المَاء. قيل سعد؟ قَالَ: صاحب مقنب ـ جَمَاعَة من الخَيْل تَجْتَمِع للغارة ـ قرية له كـثير. قـيل: عـبد الرَّحْمَان؟ قَالَ: بحسبه أنْ يجري علىٰ أهْل بَيْتِه».

أنظر، أنْسَاب الأشْرَاف: ٥/ ١٧.

وفي رواية ابن قُتَيْبَة: «... فقَالُوا: قل فينا يا أمِير المُؤْمِنِينَ مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به، فَقَالَ: والله مايمنعني أنْ أستخلفك ياسعد إلّا شدتك، وغلظتك مع أنّك رجل حَرْب، ومـايمنعني مـنك يـا عـبد الرَّحْمَان إلّا أنّك فِرْعَوْنَ هَذِه الأُمَّة، ومايمنعني منك يازُبير إلّا أنّك مؤمن الرِّضا كافر الغضب، ومايمنعني من طَلْحَة إلّا نخوته وكبره لو وليها وضع خاتمه في أصبع امْرَأته، ومايمنعني منك ياعُثْمَانَ إلّا عصبتك وحُبّك

والخُلاَصة : أنّ أبا ذَرّ لَم يَكُن يَعمل بآسم الاِنتاج ، ووَسَـائِله ، وبآسم المَـلكِية والغَائِها ، أو بأيّ دَافع غَيْر ٱلْقُرْآن ، والإِسْلاَم . . . وإنّ سِيرة أبِي ذَرّ لَهِي من أثمن مَا في التُّرَاث ٱلإِنْسَانِي ، والإِسْلاَمي ، وعلىٰ جَميع ٱلْمُسْلِمِين أنْ يَدرسُوها ، ويَنشرُوها بكلِّ الوَسَائِل ، إنَّهَا دَليل قَاطع علىٰ أنّ الإِسْلاَم ثَورة عـلىٰ الْـفَقْر ، والظُّـلم ، أنّـه يَرفض الخنُوع ، والتَّرَدُّد ، ومُهادنة الطُّغَاة المُسـتَغلِين ، لِأَنَّهَـا تُمكـن لفسـادهم في الأَرْض ، وعُدْوَانهم . . . ولا أدري لِمَاذَا نَتجاهل هَـذِه الثّـورة الإِسْـلاَميّة ، وَهِـي ٱلسَّبِيل لمرضاة الله ، ثُمّ نَهتم بالقشُور ، والمظاهر ؟

⇐ قومك ، ومايمنعني منك ياعليّ إلاّ حرصك عَلَيْهَا ، وإنّك أحرىٰ الْقَوْم إنْ وليتها أنْ تُقيم علىٰ الْحَقّ المُبين والصّراط الْمُسْتَقِيم» .

أنظر ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ١/ ٢٨ .

وروي أنّ عُمَرَ بن الخَطَّاب لمّا نظر إلَيْهِمْ ـ أصحاب ٱلشُّورَىٰ ـ قَالَ : «قد جَاءني كلّ واحد مِنْهُم يهزّ عقيرته يرجو أنْ يكون خَلِيفَة . . . . فأمّا أنْتَ ياطَلْحَة أفلست القائل : إن قُبض النّبيّ لننكحنّ أزواجه من بعده ، فما جعل الله محمّداً أحقّ ببنات أعمامنا فأنزل الله فيك : ﴿...وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا..﴾ .

ٱلأَحْزَابِ : ٥٣ ، راجع تَفْسِير الخازن : ٣/ ٥٠٩ ، شرح شرح النّهج لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ١/ ٦٢ .

وأمّا أنْتَ يازبير فوالله مالان قَلْبكَ يوماً ولا لَيْلَة ومازلت جِلفاً جَافياً مؤمن الرّضا كَافر الغـضب ، يوماً شَيطَان ويوماً رَحمان ، شَحيح .

وأمّا أنْتَ ياعُثْمَانَ لروثة خير منك ، ولئن وليتها . . . ولئن فعلتها لتقتلنّ ، ثلاث مَرَّات .

وأمّا أنْتَ يا عبد ٱلرَّحْمَان فإنّك رَجل عَاجز تُحبّ قومك جميعاً . . .

وأمّا أنْتَ ياسعد فصاحب عصبية ، وفتنة . . .

وأنْتَ ياعليّ فوالله لو وزن إيمَانك بإِيمَان أَهْل الأَرْضِ لرجحهم . . فقام عليّ مولّياً يخرج فَقَالَ عُمَرَ : والله إنّي لأعلم مكان الرّجل . . .» .

أنظر ، الكَامِل لِاِبْن الأثير : ٣/ ٣٥ ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ١/ ٢٤ ، شرح شرح النّهج لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ٣/ ١٧٠ و : ١٢/ ٢٦٠ .

ونَختم هَذِه الإِشَارَة إِلىٰ أَبي ذَرّ بكَلِمَة أبّنه فيها واحد من النَّفر الّذين حَضروا وفَاته ودَفنه، ونقول معه: «أَللَّهُمَّ هَذَا أبو ذَرّ صَاحب رسول الله عَبدك، وجَاهد فيك، ولَم يُبدل، ولَكِنَّهُ رأىٰ مُنْكَراً فغيّره بِلسَانه حَتَّىٰ نُفي، وحُرم، ثُمّ مَات وَحيداً غَرِيباً، أَللَّهُمَّ فأنتقم مِمَّنْ حَرَمه، ونَفَاه مِن حَرَم رَسُول الله»[1].

(١) أُنظر، روضة الواعظين: ٢٨٤، وَسَائِل الشيعة: ٣٠٦/٢٠ ح ٩٤٣، بحَار الأَنْوَار: ٤٠٠/٢٢ ح ٧، الدّرجَات الرَّفيعة: ٢٥٢، أختيار مَعْرِفَة الرّجال للطوسي: ٢٨٣/١ ح ١١٨.

الخطبة

-١٣١-

مَتَىٰ يَأْمَن الْمَظْلُوم:

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ ، وَ الْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، وَ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ، أَظْأَرُكُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَ أَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَىٰ مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ . أَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ، وَ لاٰ الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ، وَ لَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ، وَ نُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلاٰدِكَ ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَ تُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ . أَللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ ، وَ سَمِعَ وَ أَجَابَ ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاّٰ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ الصَّلاٰةِ .

وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاٰ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَىٰ الْفُرُوجِ ، وَ الدِّمَاءِ ، وَ الْمَغَانِمِ ، وَ الْأَحْكَامِ ، وَ إِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ ، وَ لاٰ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ ، وَ لاٰ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ ، وَ لاٰ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ ، وَ لاٰ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ ، وَ يَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ ، وَ لاٰ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ .

اللُّغَة:

أَظْأَرُكُمْ أَسْتَدَر عَطْفكُم. وَالوعْوَعَة: الصِّياح. وسَرَارَ الْعَدْلِ: مكَانه، ونَهْمَتُهُ: شَهْوَتُهُ. والجَافِي من الجَفَاء أي الغِلظَة، والحَائِفُ: من الحِيف، والجَوْر. والمَقَاطِع: جَمع مَا يُقطع بِهِ الْبَاطِل، ويُفصل بينهُ وبَيْنَ الحَقّ.

الإِعْرَاب:

أَبْدَانُهُم فَاعِل للشَّهَادَة، وأَظْأَرُ فعل مُضارع، وسَرَارَ مَفْعُول لأَطْلَعَ، ويَأْمَنَ نُصب بأَنْ مُضمرة بَعد الفَاء، ونَهْمَتُهُ اسم تَكُون، ودُونَ ظرف مُتعَلِّق بِيَقِفَ.

ٱلْمَعْنَىٰ:

(أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَ الْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُم، وَ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ). أُخاطبكُم، ولا جدوىٰ من خِطابكُم تَمَاماً كمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1]. ومِثله: «يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ، وَ لاَ رِجَالَ»[2]، و «أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ»[3] (أَظْأَرُكُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ). أَسْتدر عَطفكُم عَلَيْهِ، وأُرغبكُم فِيهِ بكلّ الوَسَائِل، ولكن مَاذا أَصنع؟ (وَ أَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ) مُدبرِين (نُفُورَ الْمِعْزَىٰ مِنْ

(١) ٱلْمُنَافِقُونَ: ٤.

(٢) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (٢٧). (مِنهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (٩٥). (مِنهُ ﷺ).

وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ) أي من صَوْته. وأَغرب مِن ذَا أنْ نَلتمس الْبَاطِل تَحت شِعار الحَقّ، ونُحارب الحَقّ بُحجّة أنّه بَاطِل.

(هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ). المُرَاد بأَطْلِع هُنا أَبْلُغ، وسَرَارَ الْعَدْلِ مَكانه كمَا أشرنا في فِقْرَة «اللُّغَة». والْمَعْنىٰ لَستُم بأَهْلٍ لِنُصرَة الحَقّ، وإنْ يَبلُغ بِكُم القَائِد المَكان الأفضل من الْعَدْل (أَوْ أُقِيمَ اَعْوِجَاجَ الْحَقِّ) أي مِن اَعْوَج عن الحَقِّ، لأنّ الْحَقّ لا اَعْوِجَاجَ فِيهِ، أو أُحيي بِكم الْحَقّ بَعد إماتته بالإعراض عَنْه.

(أَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا) في حَرْب الجَمَل، وصِفِّين (مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَ لاٰ اَلْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ). حَاشا لِعَليٍّ أنْ يَنحَرف مع الأهواء، وحُبّ المَناصب، والأَمْوَال... كَلا وألف كَلا، إِنَّهَا فِي نَظره من التّوافل والتّوافه... حَتّىٰ الدُّنْيَا بكاملها عِنده كعَفْطَةِ عَنْزٍ، أو وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا إلاّ أن يُقِيم حَقّاً أو يَدْفَع بَاطلاً... إنّ اَلخِلاَفَة عِند عَليّ، وَسِيلة لا غَايَة، وأَدَاة لتَحقِّيق ما أَشار إِلَيْه بقَوْله:

١ ـ (لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ). إِنّه يَقبل اَلْخِلاَفَة لِيسْترِد الإِسْلاَم سِيرَته الأُولىٰ الّتي رَسمها، وسَار عَلَيْهَا رَسُول الله ﷺ.

٢ ـ (وَ نُظْهِرَ الْإِصْلاَحَ فِي بِلاٰدِكَ) والْإِصْلاَحَ فِي نَظر الْإِمَام هُو أنْ (يَأْمَنَ الْمَظْلُوم مِنْ عِبَادِكَ) علىٰ نَفْسِه، وحُريته، ومَاله، ومَكاسبه، ولا يَخشىٰ الطُّغاة، والمُستغلين (وَ تُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ). ولا تَختص حدُود الله سُبْحَانَهُ بِجَلد الزَّانِي، وقَطع السَّارق، بل تَشمل كلّ مَحظور، وأَكبر المَحظورات السَّيطرة عَلىٰ الْعِبَاد، وإشاعَة الْفَسَاد، والتَّحْكِيم بالأَمْوَال، والمُقدرَات، وتَرويع الآمنين، واَستغلاَل المُعدمِين، وتَضليل البُسطاء بالتَّموِيه، والدّعايَات الكَاذبة، اتهام

الأحْرَار زُوراً وبُهتاناً.

(أَللّٰهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ) إِلَيْك، وآمن بِكَ مُخلصاً، وَدعَا إِلىٰ سَبِيلك، وجَاهد فِيكَ (وَ سَمِعَ وَ أَجَابَ) دَعْوَة الْحَقّ بِها (لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللهِ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةِ). لاَ يَختلف ٱثنان من ٱلْمُسْلِمِين أنّ عَلِيّاً، وخَدِيجَة هُما أَوَّل مَن أَسلم، وآمن بِرِسَالَة مُحَمّد ﷺ، وأنْ تَلاعب بالأَلْفَاظ من لِعب الشَّيْطَان بعَقْله، وبقلبه، وَقَالَ بِلسانه: أَوَّل من أَسلم من الصّبيان عَليّ! وَكم من صَبي هو أَرشدُ، وأَعقلُ من مِئاب الشّيوخ، وتَقَدَّم الكلاَم عن ذٰلِكَ[1].

---

(١) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٣٧). (مِنْهُ ﷺ).

روي الحديث في الكَامِل لِابْن عَدِيّ: ٥ / ١١٨٢٩ ط بيروت في حَدِيث طويل عن عليّ بن أبي رافع قَالَ: أتيت أبا ذرّ أُودّعه، فَقَالَ: إنّه ستكون فتنة، ولا أراكم إلاّ إنّكم ستدركونها، عَلَيْكُم بالشيخ عليّ بن أبي طالب ﷺ فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يَقُول: أنتَ أوّلُ مَن آمَن بِي... ورواه العلاّمة النقيب أبو جعفر الإِسكَافِي البغدادي في رِسَالَة النقض علىٰ العُثْمَانِية: ٢٩٠ دار الكتب مِصْر. ورواه أيضاً الجويني في فرائد السّمطين: ١ / ٣٩ عن أبي سخيلة قَالَ: قَالَ: رسول الله ﷺ عليّ أَوَّل من آمن بي.

ورواه أيضاً الهيتمي في مَجْمَع الزوائد: ٩ / ١٠٥ عن أبي ذرّ وسَلْمَان قالا: أخذ النبيّ ﷺ بيد عليّ فَقَالَ: إنّ هٰذَا أَوَّل من آمن بي. وَقَالَ الهيتمي: رواه الطبراني والبزار.

ورواه ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد في الشّرح: ١٣ / ٢٢٨ وٱبن حجر العسقلاني في لِسَان الميزان: ٣ / ٣٨٣ عن عبدالله بن عباس. ورواه أيضاً الشّيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الحنفي الموصلي الشّهير بحسنويه في درّ بحر المناقب: ٩٩ مخطوط عن أَبي ذَرّ، وسَلْمَان، والمقداد في حَدِيث طويل قَالُوا: إننا سمعنا من رسول الله ﷺ يَقُول: إنّ عَلِيّاً مع الْحَقّ والْحَقّ معه... فإنّه أَوَّل من آمن بِي.

ورواه أيضاً الترمذي، وأبو حَنِيفَة، والْحَاكِم في الْمُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٣ / ١٣٦ والبَيْهَقِيّ والطبري في تَأرِيخه: ٣ / ٤٢٠، وٱبن هشام، وٱبن الأثير، وٱبن كثير، وٱبن عبدالبرّ، وٱبن حجر العسقلاني في صواعقه: ٧٢، والخطيب، وٱبن سعد، وأبو نعيم، والزّمَخْشَري، والسيوطي، والمناوي عن عدّة كبيرة من الأصحاب. بل قَالَ ٱبن حجر المكي: نقل بعضهم الاجماع عَلَيْهِ. (أنظر الإِمَامَة في أهم الكتب الكلامية

↔

↔ وعقيدة الشّيعة الإِمَامِيّة للسيّد عليّ الحُسَيْنِيّ الميلاني: ٢٦٩ منشورات الشَّريف الرَّضِي الطبعة الأُولَىٰ قم).

ورواه أحمد بن حنبل في مُسْنَده: ٣٧٣ ط الْحَجَر، و: ١/ ٨٤ ط الحلبي.

وفي كشف الْيَقِين في فَضَائِل أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِابْن المطهّر الحلّي: ٢٤ تحقيق حُسين الدرگاهي قَالَ صلى الله عليه وآله: إنّ عليّ بن أبي طالب أَوَّل النّاس إِيمَانَاً. ومن كتاب المناقب لأبي المؤيد الخوارزمي: ١٧ عن سَلْمَان قَالَ: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يَقُول:... أوّلهم إسلاماً (إِيمَانَاً) وهو عليّ بن أبي طالب. وفي كتاب مُسْنَد أحمد: ١/ ٣٣٠ عن عَمْرُو بن ميمون قَالَ: إنّي لجالس إِلَىٰ ابن عبّاس إذ أتاه تسعة رهط ـ إِلَىٰ أَنْ قَالَ صلى الله عليه وآله ـ: وكَانَ أَوَّل من أسلم من النّاس بَعد خَدِيجَة.

وفي كتاب المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ٤ و٩ قَالَ: استفاضت الرّواية أنّ أوّل من أسلم عليّ عليه السلام ثمّ خَدِيجَة. لكن يستفاد من بَعْض الرِّوَايَات أنّ أَوَّل من أسلمت هِي خَدِيجَة ثمّ أسلم عليّ عليه السلام كما ورد في أَنْسَاب الصَّحَابَة عن الطبري وغَيْره، ويمكن حمل كَلَام ابن شهرآشوب أنّ أَوّل من أسلم من الرّجال عليّ عليه السلام وأَوَّل من أسلم من النِّسَاء خَدِيجَة رضي الله عَنْهَا.

وروىٰ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني في الإِصَابَة بسنده عن ليلىٰ الغفارية قالت: كنت أغزو مع النبيّ صلى الله عليه وآله فأداوي الجرحىٰ، وأقوم علىٰ المرضىٰ، فلمّا خرج عليّ عليه السلام إِلَىٰ الْبَصْرَةِ خرجت معه، فلمّا رَأَيْت عَائِشَة أتيتها فقلت لها: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فضيلة في عليّ؟ قالت: نعم، دخل عليّ عليه السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو معي وعَلَيْهِ جرد قطيفة ـ إِلَىٰ أَنْ قَالَ صلى الله عليه وآله: ـ فإنّه أَوَّل النّاس إسلاماً. (وانظر تَارِيخ الطبري: ٢/ ٥٥). وذكر الجويني في فرائد السِّمطين: ١/ ١٤٠ ح ١٠٣ عن أبي ذرّ، وسَلْمَان، قالا: أخذ النّبيّ صلى الله عليه وآله بيد عليّ عليه السلام فَقَالَ: إنّ هَذَا أَوَّل من آمَن بي...وفي تَفْسِير ابن الحجّام لقَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ النِّسَاء: ٦٩ في حَدِيث طويل قَالَ صلى الله عليه وآله: إنّ الله قد أنزل بَيَان ما سألت فجعلك رفيقي، فإنّك أَوَّل من أسلم. (انظر كشف الغمّة: ١/ ١١٦).

وروى أبو زرعة الدِّمَشْقِي وأبو إِسْحَاق الثّعلبي قالا: قَالَ أبو بَكْر: يا أسفي علىٰ ساعة تقدّمني فيها عليّ بن أَبِي طالب، فلو سَبقته لكان لِي سابقة الإِسْلَام. وعن عُمَر بن الخَطَّاب أيضاً قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ أَنْتَ أَوَّل الْمُسْلِمِينَ إسلاماً، وأَنْتَ أَوَّل الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانَاً.

وذكر حَدِيث عُمَرَ ابن عساكر في تَارِيخ دمشق ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ١/ ٣٣١/ ٤٠١. وفي الينابيع للقندوزي: ٦٠ عن ابن عباس قَالَ: أَوَّل من أسلم من النّاس بعد خَدِيجَة عليّ بن أَبِي طالب. وفي ↔

⇔ الاِسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ المالكي بهامش الإِصَابَة: ٣/ ٢٩ عن سَلْمَان قَالَ: أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب.

وفي تَأرِيخ الطبري: ٢/ ٥٥/ ٥٧ عن ٱبن إِسْحَاقَ مثله، عن زيد بن أرقم قَالَ: أَوَّل من ٱسلَم مع رسول‌الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وفي تَأرِيخ دمشق: ١/ ٣٢/ ٦١ عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر مثله، و: ١/ ٣٦/ ٦٨ عن قتادة عن الحَسَن البصري وغَيْره مثله، و: ١/ ٦٥/ ١٠٤ عن أبي مالك بن الحويرث مثله أيضاً، و: ١/ ٨٠/ ١٢٩ عن عَمْرُو بن عبدالله بن يعلىٰ بن مرّة الثَّقَفِيّ مثله أيضاً. وفي الكَامِل لِابْن الأثير: ٢/ ٥٨ مثله أيضاً.

وأنظر الكَافِي: ١/ ٤٥٤، وأمالي الشَّيخ الصّدوق: مجلس ٣٧/ ٥، وتذكرة الخواصّ: ١٠٣، وتأريخ الطبري: ٢/ ٥٧ و ٥٨، والمناقب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ١١، ورِسَالَة الإِسكَافِي لِلْحَاكِم النيسابوري: ٢٢، ومروج الذهب للمسعودي: ٢/ ٤٣٧، والإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٩ ب ١ فصل ١، العقد الفريد للعلّامة الأندلسي المالكي: ٣ في قِصَّة ٱحتجاج المأمون علىٰ الْفُقَهَاء وَهِي مناظرة، لطيفة في فضل عليّ عليه السلام وبأنّه أوّل من آمن بالله، وأنظرها في الإحقاق: ٣/ ١٨٤ وما بعدها.

وفي شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٣/ ٢٥٧ قَالَ ﷺ لفَاطِمَة عليها السلام: زوّجتك أقدم الأُمّة إسلاماً. وأخرج الخطيب في المتفق، والسيوطي في جمع الجَوَامِع: ٦/ ٣٩٨ قَالَ ﷺ لفَاطِمَة عليها السلام: زوّجتك خير أُمّتي أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سلماً.

وروى الخطيب في تَأرِيخه: ٤/ ٢٣٣ عن عليّ عليه السلام أنّه قَالَ: أنا أَوَّل من أسلم مع النَّبِيّ ﷺ. وروىٰ ٱبن مزاحم في كتاب صفّين: ١٠٠ و ١٣٣ أنّه عليه السلام كتب إِلىٰ مُعَاوِيَة وَقَالَ: كنّا أَهْل ٱلْبَيْت أوّل من آمن به وصدّق بِمَا جاء به. وذكر ٱبن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/ ١٠١ خُطْبَة الإِمَام الْحَسَن عليه السلام في مجلس مُعَاوِيَة قَالَ فيها: وأُنشدكم الله هل تعلمون أنّه أَوَّل النّاس إِيمَاناً؟ وإنّك ـ يا مُعَاوِيَة ـ وأباك من المُؤلّفة قلوبهم.

وأُنظر رِسَالَة الإِسكَافِي، والحافظ الكنجي في الكفاية: ٤٨، الغدير: ٢/ ٢٧٦، صَحِيح الترمذي: ٢/ ٣٠١، النسائي في خصائصه: ٢، ٱبن سعد في طبقاته: ٣/ ١٢ القسم ١، أُسد الغَابَة: ٤/ ١٧، كنز العُمَّال: ٦/ ٤٠٠ مُسْنَد أحمد: ٤/ ٣٦٨ و ٣٧١، تَأرِيخ ٱبن جرير الطبري: ٢/ ٥٧ عن محمّد بن المنكدر، ورَبِيعَة بن أبي عبدالرَّحْمَان، وأبي حازم المدني.

وأُنظر أيضاً المُسْتَدرَك في الصَّحِيحِين: ٣/ ٤٦٥ عن ٱبن عباس، و: ٣/ ١٣٦ عن سَلْمَان، والخطيب في ⇔

↔ تأريخه: ٢/ ١٨، والاسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ: ٢/ ٤٥٧ عن عَمْرُو مَوْلَىٰ عفرة، و: ٤٥٦ عن سَلْمَان، وأبي ذرّ، والمقداد، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وزيدبن أرقم، وعن أبي رافع، و: ٤٥٨ عن قتاده عن المسند، وذكره المناوي في كنوز الدقائق، مُسْنَد أحمدبن حنبل: ٥/ ٢٦ عن معقل بن يسار.

وراجع كنز الْعُمَّال: ٦/ ١٥٣، و: ٦/ ٣٩٢ و ٣٩٥ عن عُمَرَ، مَجْمَع الزوائد: ٩/ ١٠١، و: ١٠٢ و ١١٤ و ٢٢٠، عن بريدة وعن مالك بن الحويرث، مُسْنَد الإمَام أبي حَنِيفَة: ٢٤٧ عن حبّة، والبغدادي في تأريخه: ٤/ ٢٣٣، الإصَابَة: ٤/ ١١٨ القسم ١ عن جابر، ٨/ ١٨٣ القسم ١ عن ليلى الغفارية، أسد الغَابَة: ٤/ ١٧ عن الحارث، و: ٥/ ٢٥٠، الرياض النضرة: ٢/ ١٨٢ عن أنس، الاسْتِيعَاب: ٢/ ٤٥٨، حلية الأَوْلِيَاء: ٤/ ٢٩٤.

وأنظر كَذَٰلِكَ في الدُّر المنثور للسيوطي في ذيل تَفْسِير قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ ٱلْوَاقِعَة: ٧. فيض القدير: ٤/ ١٣٥، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٧٢، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٥٨، الرياض النضرة: ٢/ ١٥٨، الثعلبي في قصصه: ٢٣٨ و ٢٥٧ و ٢٥٨، السيوطي فى الدُّر المنثور في ذيل الآية: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يس: ١٣، تأريخ بغداد: ١٤/ ١٥٥ عن جابر، تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٣٦، نور الأبْصَار للشبلنجي: ٦٩.

أمّا حَدِيث «أوّل من آمن بالنّبيّ ﷺ» فأنظر تأريخ الطبري لِابْن جرير: ٢/ ٧٥ عن إسْحَاق أوّل: ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلّىٰ معه وصدّقه بِمَا جاء من عندالله عليّ بن أبي طالب، السيوطي فى الدُّر المنثور في ذيل تَفْسِير: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ٱلنِّسَاء: ٣٥. وساق الحديث، الزوائد: ٦/ ٢٣٩، والسيوطي أيضاً فى الدُّر المنثور في تَفْسِير سُورَة ٱلتَّوْبَة في ذيل ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ٱلتَّوْبَة: ١٩.

وأنظر أيضاً سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦/ ٢٠٦ عن الْحَسَن وغَيْره، مَجْمَع الزوائد: ٩/ ١٠٢ نقلاً عن الطبراني، خصائص النسائي: ٣ عن عَمْرُو بن عبّادبن عبدالله، أُسد الغَابَة: ٤/ ١٩ عن أبي إسْحَاق، الاسْتِيعَاب: ٢/ ٧٥٩ في ترجمة ليلىٰ الغفارية، الرياض النضرة: ٢/ ١٥٧ عن أبي ذرّ، و: ٢/ ١٥٧ عن معاذة العدوية. كنز الْعُمَّال: ٦/ ٤٠٥، ميزان الإعْتِدَال للذهبي: ١/ ٤١٧، الرياض النضرة: ٢/ ١٩٨ عن معاذبن جبل.

وراجع حلية الأَوْلِيَاء لأبي نعيم: ١/ ٦٦، الإصَابَة: ٧/ ١٦٧ القسم ١ عن أبي ليلى الغفاري، فيض القدير: ٤/ ٣٥٨ عن أبي ذرّ وسَلْمَان مطوّلاً. كنز الْعُمَّال: ٦/ ١٥٦ نقلاً عن الطبراني، و: ٦/ ٣٩٣ عن ↔

شُرُوط الْوَالِي:

(وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ، وَ الدِّمَاءِ، وَ الْمَغَانِمِ، وَ الْأَحْكَامِ، وَ إِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ) تكُون الْوِلاَيَة علىٰ الْفُرُوج بإقَامة الحَدّ عَلىٰ الزَّانِي، وصِيانَة الأنْسَاب، وإجْرَاء الزَّواج، وإيْقَاع ٱلطَّلاَق علىٰ الوَجه الشَّرعِي، والوِلاَيَة عَلىٰ الدِّمَاء بحفظ النُّفُوس من الاِعْتدَاء عَلَيْهَا، والقَوَد من المُعتدي، والوِلاَيَة علىٰ المغَانم بحراستها، وتَقسِيمها عَلىٰ المُستحقِين، وعَلىٰ الأحْكام بِحفظها وبثِهَا وحمل النَّاس عَلَيْهَا، ولاتكُون هَذِه الْوِلاَيَة إلّا لِمَن تَوافَرت فِيهِ الشُّرُوط التَّالِية:

١ ـ أنْ لاَ يَكُون بَخِيلاً (فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ). الضَّمِير فِي أَمْوَالِهِمْ لِلرَّعِيَّة، وفِي نَهْمَتُه لِلْوَالِي، وٱلْمَعْنىٰ لو كَانَ الْوَالِي بَخِيلاً لكَان شَرِهاً علىٰ ٱلْمَال، وٱلحَيَاة الدُّنْيَا، يَطلبها من كلّ سَبِيل، ويَمنع الحَقّ عن أَهْلِه، وبِهَذا نَجد تَفسِير الحَدِيث الشَّرِيف: «لا يَجْتَمِع الشُّح، والإِيمَان فِي قَلبِ العَبد أَبَداً»[1].

⇔ المأمون عن الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن عبدالله بن عباس قَالَ: سمعت عُمَرَ بن الخَطَّاب يَقُول: كفّوا عن ذِكر عليّ. ذَخَائِر العُقْبىٰ: ٥٨ و ٨٣ بَاب فَضَائِل عليّ عليه السلام، مَوَدَّة القربىٰ: ٢٢، كنز العُمّال: ١٦ / ٦ / ٣٢٩٩١.

أنظر، الفِرْدَوْس للديلمي: ١ / ٤١ / ٩٣، شرح نهج البَلاَغَة: ٩ / ١٧٣ و ١٧٤ ألخُطْبَة ١٥٤ و ٣٠٠، المناقب للخوارزمي: ٥٢ / ١٥ و ٥٧ / ٢٣ و ٥٨ / ٢٧، الفضائل لأحْمَد: ٢ / ٥٨٩ / ٩٩٧ و ٩٩٨، المُسْتَدرَك: ٣ / ٤٦٥، المناقب لِابْن المغازلي: ١٦ / ٢٢، فرائد السّمطِين: ١ / ١٣٩ / ١٠٢ و ١٠٣، الإِصَابَة لِابْن حجر: ٤ / ١٧١ و ٤٠٢ ترجمة ٩٧٤ و ٩٩٤.

(١) أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٥٥/٥ ح ٧٨٠٠، فيض القدير: ١٢٥/٣، كشف الخَفَاء: ٤٩٩/٢ ح ٣١٠٩، مُسْنَد أحمد: ٤٤١/٢، مُسْنَد أبي داود: ٣٢٣، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٥٨٨/٤ ح ١٧٨، المُعْجَم ⇔

٢ ـ (وَ لاٰ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ) عَن طَرِيق الحَقّ ، والصّواب . وهَذَا الشَّرط تَفرضه البَدِيهة ، وتَتفق عَلَيْهِ البَشرِية جَمعاً ، ومن حِكم الإِمَام : «لَا تَرَىٰ الجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً ، أَوْ مُفَرِّطاً»[1] .

٣ ـ (وَ لاٰ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ) . إذاكَان الْوَالِي فَظاً تَجافِي النّاس عَنْه ، وهُم فِي أَشد ٱلحَاجَة إِلىٰ عَدله ٱلعِلْم بأنّ مُهمته تَفرض عَلَيْهِ التَّواضع ، ولِين الجَـانب ، والصَّبر لذَوِي الحَاجَات ، والأستِمَاع لشكوىٰ المَظلُومِين .

٤ ـ (وَ لاٰ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ) أي الجَائِر «لِلدُّوَلِ» بضُم الدّال ، وهو ٱلمَال المُتداول بهِ ، والجَوْر في ٱلمَال أنْ يَكتسبه عَلىٰ حِساب الآخرين ، ويَحبسه عـن المُسْـتَحِقّين (فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ) أي يؤثر المُبطل علىٰ المُحق ، والْقَوِيّ عَلىٰ الضَّعِيف .

٥ ـ (وَ لاٰ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ) إِلىٰ غَيْر أَهـلِها ، والرَّشُـوة مُحرَمة فِي كلّ شَرِيعَة . وفِي الحَدِيث : «لَعن الله الرّاشي ، والمُرتشي ، والرّائش الَّذي يَمْشِي بَيْنَهما »[2] (وَ يَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ) جَمع مَقطع ، ومَقطع الحَقّ مَا يَقطع بِه دَابر

⇐ الأوسط : ٨٧/٦، كنز العُمَّال: ٤٥٣/٣ ح ٧٤١١ و ٧٤١٣ و ٧٤١٤، ميزان الإعْتِدَال: ٤١٣/٢ ح ٤٢٨٧. الخِصَال للشّيخ الصدوق: ٧٦ ح ١١٨.

(١) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٧٠).

(٢) أُنظر، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحَين: ١١٥/٤ ح ٧٠٦٨، فتح الباري: ٢٢١/٥ ح ٣٤٥٦، جامع التّحصيل: ٣٠٠/١ ح ٨٩١، علل الدّار قطني: ٢٧٤/٤ ح ٥٥٨، كنز العُمَّال: ٨٢٥/٥ ح ١٤٤٩٥، تَفْسِير القُرطُبي: ١٨٣/٦، صَحِيح أبن حبّان: ٤٦٧/١١ ح ٥٠٧٦، مَجْمَع الزوائد: ١٩٩/٤، المُصَنَّف لعبدالرزاق: ١٤٨/٨ ح ١٤٦٦٨، فيض القدير: ٢٦٨/٥، سير أعلام النبلاء: ١٠٣/٤، تهذيب الكَمَال: ٤٤٠/١٢، الطَّبقَات الكُبْرىٰ: ١٣٥/٦، كشف الخَفَاء: ١٨٦/٢ ح ٢٠٤٨، تلخيص الحبير: ١٨٩/٤ ح ٢٠٩٣، خلاصة البدر المنير: ٤٣٠/٢ ح ٢٨٦٢، المحلىٰ: ١٥٧/٩ ح ١٦٣٨.

الْبَاطِلِ، ويُمَيِّزه عن الْحَقّ، ولَيْسَ من شكّ أنّ الرّشوة تَحول دُونَ ذَلِكَ.

٦ ـ (وَ لاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ) أي قول الرَّسُول، وَفِعله، وتقرِيره (فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ) بِجَعله، وخِيَانته. وعَلىٰ الإجْمَاع فإنّ الْبَخِيل لا يُركن إِلَيْهِ، والْجَاهِل لا يُسترشد بِهِ، والفَظ تنفر مِنْهُ الطِّباع، والجَائِر يَبخس النّاس أشياءهم، والمُرتشي مزُور مُحتال، وَبتَعطِيل الأحْكَام، والقَوَانِين تَسود الفَوضىٰ، ويَختل النّظام، ومَعنىٰ هَـذَا أنّ مـن اتصف بشَيء من ذَلِكَ يَصلُح للحُكم، والْوِلاَيَة.

الخطبة

-١٣٢-

عَاقِبَةُ الْمُتْرَفِين...فِقْرَة ١ ـ ٢:

نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا أَخَذَ وَ أَعْطَىٰ، وَ عَلَىٰ مَا أَبْلَىٰ وَ ٱبْتَلَىٰ. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَ الْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَ مَا تَخُونُ الْعُيُونُ. وَ نَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ نَجِيبُهُ، وَ بَعِيثُهُ، شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلاٰنَ، وَ الْقَلْبُ اللِّسَانَ.

فَإِنَّهُ وَ اللهِ الْجِدُّ لاٰ اللَّعِبُ، وَ الْحَقُّ لاٰ الْكَذِبُ. وَ مَا هُوَ إِلاّٰ الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَ أَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلاٰ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَ قَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَ حَذِرَ الْإِقْلاٰلَ، وَ أَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ، وَ ٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَ أَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَىٰ أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَىٰ بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ، وَ إِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ[1]. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَ يَبْنُونَ مَشِيداً، وَ يَجْمَعُونَ كَثِيراً، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَ مَا جَمَعُوا بُوراً، وَ صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَ أَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لاٰ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَ لاٰ مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ! فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَىٰ قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ، وَ

فَازَ عَمَلُهُ. فَٱهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَ ٱعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ. وَ قَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ(٢).

اللُّغَة:

أَبْلَىٰ: أَعْطَىٰ خَيْراً. وَٱبْتَلَىٰ: ٱمْتَحَن. ونَجِيبُهُ: من النَّجَابة، والاِخْتِيار. وَبَعِيثُهُ: مَبْعُوثه. والبُوراً: الكَسَاد، والهَلاَك. وبَرَّزَ ـ بتشديد الرّاء ـ فَاق.

والمَهَلُ ـ بفتح الهاء ـ التَّقدم فِي الخَيْر. وٱهْتَبِلُوا ـ بِصِيغَة الْأَمْر ـ ٱغْتَنِمُوا. وأَوْفَازٍ: جَمع وَفَز أي العَجلة. والزِّيَال: الرَّحِيل.

الْإِعْرَاب:

الْبَاطِنُ خَبَر لمُبْتَدَأ محذوف أي هُو الْبَاطِل، وأَسْمَعَ فعل مَاضٍ، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين: يجوز أنْ يَكُون «أَسْمَعَ ٱسم للتَّفضِيل مثل أَحْسَن، وأَكْمَل!.. ويَرده أنّ التَّفضِيل لابُدّ لهُ من طَرفِين، ومَحْمُولاً حَال، وحَمْلًا نُصب علىٰ الْمَصْدَر أي يَحْملونها حَمْلاً، ومثلهُ إمْسَاكاً، وبَعِيداً صِفة لمحذُوف أي أَملاً بَعِيداً، ومثلهُ مَشِيداً وكَثِيراً أي بنَاء مُشِيداً، ومَالاً كَثِيراً، وبُوراً خَبَر أَصْبَحَ المَحذوفة أي أَصْبَحَ الَّذي جَمعوا بُوراً.

ٱلْمَعْنَىٰ:

(نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا أَخَذَ وَ أَعْطَىٰ، وَ عَلَىٰ مَا أَبْلَىٰ وَ ٱبْتَلَىٰ). أَعْطَىٰ، وأَبْلَىٰ عَطف تَفْسِير، لأنّ الإبْلاء إحْسَان، وأيضاً أَخَذَ وٱبْتَلَىٰ عَطف تَفْسِير، لأنّ الإبْتلاء

ٱمتحان، والحَمْدُ علىٰ النِّعْمَة يُعبر عن شُكرِ المُنعم، أمّا الحَمْدُ عَلىٰ الابتلاء فَهُوَ دَليل الرّضا بقضائه تَعَالَىٰ، والصَّبر عَلىٰ بَلائه (الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَ الْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَ مَا تَخُونُ الْعُيُونُ) الْمُرَاد بالْبَاطِن العالم. يُقَال: بَطن الأَمْر أي عَلمه، والحَاضِر الشّاهد، وعَطف بَعْض هَذِه الجُمل علىٰ بعضٍ عَطف من بَاب عَطف التَّفْسِير، ومعناها مُجتمعة، ومُفترقة أنّ الله يَعلم السِّر، وأَخفىٰ.

(وَ أَنَّ مُحَمَّداًﷺ نَجِيبُهُ، وَ بَعِيثُهُ) أي خِيرته من خَلقه، وسَفِيره إِلَيْهِمْ (شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلاَنَ، وَ الْقَلْبُ اللِّسَانَ). ٱنسجَام، وٱلتحام بَيْنَ النِّيّة، والْقَوْل، والفِعْل في الشَّهادَة بالتَّوْحِيدِ، ورِسَالَة مُحَمّدﷺ، ومَعْنَىٰ الانسجام بَيْنَ هَذِه الأُمُور الثّلاثّة أنّ النِّيّة من شُؤُون الْقَلْب، والرُّوح، و«الرُّوحانِيات» بِكَاملها لَيْسَت بشَيء إلّا إذَا تَحولت إلىٰ قِوىٰ مَادية تحس، وتَلمس، وأمّا الكلاَم فَهُوَ حرُوف مَيتَة، وحَياته أنْ يَتجسد في الأَعْمَالِ، وإذَنْ فالنِّيّة الصَّادقة، والأقوال المُخلصة لا تَفترق عن ٱلعَمَل بحَال.

فَلْسَفَة الأَمَل:

(فَإِنَّهُ وَ اللهِ الْجِدُّ لاَ اللَّعِبُ، وَ الْحَقُّ لاَ الْكَذِبُ. وَ مَا هُوَ إِلاَّ الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَ أَعْجَلَ حَادِيهِ). الضَّمِير فِي أنّه يَعُود إلىٰ الإنذَار، والتَّحْذِير المَفهُوم من سِياق الكلاَم، والَّذي حَذر الإِمَام من عَدم ٱلعَمَل لهُ، واقع لا مَحَالَةَ، وهو ٱلمَوْت، ومَا بَعْدَه، وأي حَي يَنجو من ٱلمَوْت حَتَّىٰ يُنْكِره بصرف النَّظر عن دَاعِيه، وحَادِيه؟. ولكنّا نَأمل أنْ تَمتد بِنا ٱلحَيَاة لرغبتنا فيها، ولما نَراه من كثْرة الأحْياء، فتحدث هَذِه

الرُّؤيا في نفُوسنا الأَمَل في البقَاء أَمداً طَويلاً... ولَكِنَّهُ أَمرٌ خَادعٌ، وكَـاذبٌ، ولذّا حَذّر مِنْهُ الْإِمَام بقَوْله: (فَلاَ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ).

وسَوَادُ النَّاس كَثْرة الأحْيَاء، أي ٱحْذَر من نَفْسِكَ الّتي تَخدعك، وتُمنيك بطول الْعُمُر، وتقول لكَ: أُنظر إِلىٰ هَؤُلآء الأحْياء، وكَثْرتهم، وأَنْتَ واحـد مِـنْهُم، وإلىٰ فُلاَن كَم عَاش، وسوف تَعِيش أَكْثَر مِنْهُ.

ولا أعرف أحداً تَكلَّم عن الأَمَل في العَيش، وفَلْسَفَهُ بِهَذِه الدِّقة، وهَذَا العُمق ـ غَيْر الإِمَام، ولا سِرّ إلّا عِلم الإِمَام بحَقِيقَة الدُّنيا، أنّها مُطية الآخِرَةِ، وأنّ أي عَمل لا يَترك أَثراً طَيّباً في آخرة ٱلإِنْسَان فَهُوَ هَباء، مع ٱلْـعِلْم بأنّ الأثـر الطَّـيِّب هُـو التَّجرد عن الأنانِية والتَّضحِيات لخَير ٱلإِنْسَانِية.

(وَ قَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَ حَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَ أَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ، وَ اسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَ أَخَذَهُ مِـنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَىٰ أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَىٰ بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَىٰ الْمَنَاكِبِ، وَ إِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ) عَجباً من ٱلإِنْسَان يَغتر، ويَأمل في ٱلْحَيَاة الدُّنيا، وهو يـرىٰ رأي الْعَيْن مَصير مَن جَمع، وحرَص، وأمن العواقب: كَيْفَ حُمل علىٰ النَّعش جُثَّة هَامِدَةً، يَنتقل من يَدٍ، إِلىٰ يَد، ومِن كَتفٍ إِلىٰ آخر، ومَع هَذَا لا يَتعظ، ولا يَعتبر؟ (أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَ يَبْنُونَ مَشِيداً، وَ يَجْمَعُونَ كَثِيراً، كَـيْفَ أَصْـبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَ مَا جَمَعُوا بُوراً، وَ صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَ أَزْوَاجُـهُمْ لِـقَوْمٍ آخَرِينَ).

السَّابقُون بَنوا، وٱقتنُوا، وتَزوجُوا ونَسلوا، وطَالت مِنْهُم ٱلآمَال، ولكـن مـا ٱستقرت بِهِمْ الدّار حَتَّىٰ رَحلوا من القصُور إِلىٰ الْقُبُورِ، ومن العمار إِلىٰ الدّمار...

والأَمْوَال الّتي جَمعوها تَقاسمها الأقَارب، أمّا الأَزْوَاج فمن نَصيب الأبَاعد. وفي بَعْض كلاَمه: «أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ، وَأَمَّا الأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّا الأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ»[١].

(لاٰ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَ لاٰ مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ). مَن مَات فَات.. إذ لا عَمل بَعد ٱلْمَوْت يَزِيد في الحَسَنَات، ولا تُوبة تَمحو السَّيِّئَات (فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَىٰ قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ). أَشْعَر هُنا من الشِّعار لا مِن الشُّعُور، وٱلْمَعْنىٰ أنّ من ٱلْبَسَ قَلبه ثُوب التَّقْوَىٰ فَقد سَبق إِلىٰ الْخَيْرَات، ونَجا من المُهلكات (فَٱهْتَبِلُوا هَبَلَهَا).

الهَاء فِي هَبَلَهَا للفُرصة المُستفادة من سِياق الكلاَم أي بَادِرُوا فِي حَياتكُم إِلىٰ صَالح الأَعْمَال، فَهِيَ وحدَها الطَّريق إِلىٰ جَنَّة النَّعِيم.

(فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ الْقَرَارِ) ومثلهُ فِي بَعْض حِكْمَه: «الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلاَنِ: رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا، وَرَجُلٌ ٱبْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا»[٢]... «الْيَوْمَ عَمَلٌ، وَ لَا حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ»[٣] (فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ) أي ٱستعجَال (وَ قَرِّبُوا الظُّهُورَ) المطَايَا (لِلزِّيَالِ) للرَّحِيل مِن دَار الفنَاء إِلىٰ دَار البقَاء.

والخُلاَصة، أنّ الإمَام يُزّهد بكلاَمِهِ هَذَا فِي كلّ عَمل لا يَترك أثراً طَيِّباً فِي ٱلْحَيَاة، ويُرغّب فِي ٱلْعَمَل النَّافع يَترك أثراً يَنْتَفع بِهِ الجَمِيع، ولا فَرد دُونَ فَرد، أو فِئَة دُونَ فِئَة.

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٣٠).

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٣٣).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: من كتاب لهعليه السلام رَقم (٤٢).

الخطبة

-١٣٣-

الله، وَمُحَمّد، وَالْقُرْآن...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ انْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا ، وَ الْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا ، وَ قَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَاوَاتُ ، وَ الْأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا ، وَ سَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ ، وَ الْآصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ ، وَ قَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ ، وَ آتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ .

وَ كِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاَ يَعْيَا لِسَانُهُ ، وَ بَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَ عِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ .

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَ تَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ ، فَقَفَّىٰ بِهِ الرُّسُلَ ، وَ خَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ ، فَجَاهَدَ فِي اللهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ ، وَ الْعَادِلِينَ بِهِ .

وَ إِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ الْأَعْمَىٰ ، لاَ يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً ، وَ الْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ ، وَ يَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا . فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ ، وَ الْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ . وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ ، وَ الْأَعْمَىٰ لَهَا مُتَزَوِّدٌ[1] .

وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَ يَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ ، وَ يَمَلُّهُ إِلاَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً . وَ إِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ ، وَ

بَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَ سَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَ رِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَ فِيهَا الْغِنَىٰ كُلُّهُ، وَالسَّلاَمَةُ. كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَ تَنْطِقُونَ بِهِ، وَ تَسْمَعُونَ بِهِ، وَ يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَ يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَ لاٰ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَ لاٰ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ. قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَىٰ الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَ نَبَتَ الْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ. وَ تَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ حُبِّ الآمَالِ، وَ تَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَ تَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ، وَ اللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَ أَنْفُسِكُمْ[٢].

اللُّغَة:

أَزِمَّةٌ: جمع زِمَام، أي حَبل، أو لجام تُقاد بِهِ الدَّابَة. ومَقَالِيد: جمع مِقْلَاد، وهو المِفْتَاح. والنَّاضِرَةُ: الجَميلة الحَسَنَة. والْيَانِعَةُ: النَّاضِجَة. وبَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أو ظَهْرِيكُم أو ظُهرَانيكُم ـ بفتح النّون ـ أي بَيْنَكُمْ. ويُطلق الشَّاخِص علىٰ المُسافر، وهو المُرَاد من الشَّاخِص الثَّانِي. والدِّمَن: جَمع دِمْنِة. وَهِي المَزْبَلَةُ.

الإِعْرَاب:

أُكُلَهَا مَفْعُول آتَتْ. والثِّمَارُ بدل منهُ، وفيما لدي من الطّبعات جَاءت الضّمة علىٰ رَاء الثِّمَارُ، وهو خَطأ، والصّواب الفتحة علاَمة للنَّصب، وبَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُتَعَلِّق بمحذوف خَبَراً لكِتَابُ اللهِ، ونَاطِقٌ خَبَرٌ ثَانٍ، أو خَبَر لمُبْتَدَأ محذوف أي هُو نَاطِقٌ، والضَّمِير في «أَنَّهُ لَيْسَ» للشّأن.

الْمَعْنىٰ:

(وَ انْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا، وَ الْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَ قَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَاوَاتُ، وَ الْأَرَضُونَ

مَقَالِيدَهَا) . إنّ حُكْمَه تَعَالَىٰ نَافذ في الكَوْنين ، والنَّشأتين : الدُّنْيَا ، والآخِرَةِ ، وإِلَيْهِ يَرْجِعُون الأَمْر كُلّه ، فتَبَارَكَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (وَ سَجَدَتْ لَـهُ بِـالْغُدُوِّ ، وَ ٱلْآصَـالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ) . الْمُرَاد بالسّجُود هُنا الخضُوع ، والانقِياد ، وبِالْغُدُوِّ ، وَالْآصَـال الصَّباح المَسَاء أي في كلّ حِين ، ويُشير الإِمَام بهَذا إِلىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) .

(وَ قَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ) . إشَارَة إِلىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَـارًا﴾(٢) . (وَ آتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ ـ أي بِقُدرته ـ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ) أعْطتنا الأشْجَار بِقُدرته تعَالَىٰ مَا يُؤكل مِنْهَا أي الفَاكِهة النَّاضجة : فهل من شَاكرٍ ذَاكرٍ ؟

(وَ كِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاٰ يَعْيَا لِسَانُهُ ، وَ بَيْتٌ لاٰ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَ عِزٌّ لاٰ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ) إنّ ٱلْقُرْآن يَدعو إِلىٰ حَيَاة أفضل ، وهَذِه الدَّعْوَة قَائِمَة مُنذ نزُوله إِلىٰ قِيام السَّاعة ، وَهِي بَيِّنَة واضحة ، ومن ٱستجاب لها ، وواصل السَّير علىٰ طَـريقها فَهُوَ في حِصنٍ حَصِين ، من الأضْرَار ، والأَخْطَار : أمّا تأخُّر الْمُسْلِمِين فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لا عَلىٰ ٱلْقُرْآن .

(أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ) . أَرْسَل سُبْحَانَهُ مُحَمّداً بِالحَقِّ إِلىٰ ٱلخَلْق بَعد أَمد غَيْر قَصِير بَينه وبَيْنَ من تَقدمه من الْمُرْسَلِين ، وتَقَدَّم ذَلِكَ بالحرف الواحد(٣) .

(وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ) حِين أَرسل سُبْحَانَهُ نَبِيَّه ٱلْكَرِيمِ كَان النِّزاع فِي الدِّين قَائماً بَيْنَ

(١) ٱلنَّحلِ : ٤٩ .

(٢) سُورَةُ يَس : ٨٠ .

(٣) أُنظر ، شَرح ٱلْخُطْبَةُ : (٨٩ و ٩٤) . (مِنْهُ ﷺ) .

عَبدة الأصْنَام، وأَهْل ٱلْكِتَاب، بَيْنَ الْعَرَب بَعضهُم مع بَعْض، وكَلِمَة الْأَلْسُن تُشِير إِلىٰ أنّ هَذَا النِّزاع كَان مُجرد كَلاَم لا شَيء وَرَاءَه إلّا الشَّحناء، وإثَارة الحُرُوب (فَقَفَّىٰ بِهِ الرُّسُلَ) أتبعهم بهِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[1].

(وَ خَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ) تَقَدَّم بَيان السَّبب المُوجب لذلك[2]. وَقَالَ الشَّاعر الفَيْلَفُوس مُحَمّد إقْبَال: «لا بُدّ أنْ يكون مُحَمّد خَاتم ٱلْأَنْبِيَاء، ورِسَالَته آخر الرِّسَالَات، لأنّه جَاء لِيدعُو إلىٰ تَحكِيم ٱلعَقْل فِيما يَعرض للنَّاس من مِشكلات، فِيهِ مع ما جَاء بِهِ مُحَمّد ﷺ الكِفَاية»[3]. (وَ الْعَادِلِينَ بِهِ) أي الجَاعِلِين لهُ عَدِيلاً، ومثِيلاً.

(وَ إِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ الْأَعْمَىٰ... إلخ) الْأَعْمَىٰ قَد يُؤْمِن بالله، والْيَوْم الآخر كأنّه يَراهُما، وإذَنْ فَهُوَ بَصِير بالنِّسبَة إِلَيْهِما، وإنْ كَان أعمىٰ بالنِّسبَة إلىٰ الشَّمس، ومن جَحد باللهِ، والْيَوْم الآخر فَهُوَ أعمىٰ بالقِياس إِلَيْهِما، وإنْ كَانَتْ عَيناه كَعدسَة التَّلسكُوب، ومَن كَانَتْ الدُّنْيا كلّ هَمه واْهتِمامه، ولَم يَفعل شَيْئاً لآخرته فَهُوَ في عمىً عَنْهَا سواء آمن بها نَظرياً، أَم جَحدها من الْأَسَاس (وَ الْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَ يَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا). الهَاء فِي يَنْفُذُهَا للدُّنْيَا، واْلْمَعْنَىٰ أنّ العَالِم يَمتد نَظره إِلىٰ ما وَرَاءِ الدُّنْيَا، ويُدرك أنّ هُناك كُوناً آخر، ونَشأة ثَانِيَة بَعد نَشأتنا هَذِه، والّذي لاحظْناهُ، وعرفناهُ أنّ أَكْثَر الّذِين لا يَهتمُون إلّا بأنْفسهِم، ومشَاكلِهم يُنْكِرون

---

(١) ٱلْحَدِيد: ٢٧.

(٢) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٧٣ و ٨٧). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، دِراسة قَيمة عن إقْبال للأُستاذ مُحَمّد عُودَة فِي جَرِيدَة الجمهُورِيّة المِصْرية بتأريخ ١٩٧٢/٤/٢٧م. (مِنْهُ ﷺ). والشّاعر هو مُحمّد بن نور مُحَمّد الكشميري، من بلاد البنجاب ولد في ٢٤/ ذي الحجّة ١٢٨٩ هـ، ومَات سَنَة ١٣١٧ هـ، له عدة مؤلفات مِنْهَا ديوان شعر، وتجديد الفلسفة الإسلامية تُرجم من اللُّغة الأنجليزية.

البَعث، والنَّشر، ويَقُولُون: مَا دَامت الدُّنْيَا هِي ٱلْجَنَّة فَعلِينا أنْ نَتمتع بِها إِلىٰ أَقصىٰ الحُدُود.

(فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ) أي مُسافر إِلىٰ الآخِرَةِ، فَهِيَ هَدفه، ومثلهُ الأعْلىٰ، ولذَا يَعمل لها عَملها (وَ الْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ) أي يَتطلع إِلىٰ الدُّنْيَا وحدَها، ويَعمىٰ عن الآخِرَةِ (وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ) بِمَا يَترك من أَثرٍ طَيب يَنْتَفع بِهِ النَّاس (وَ الْأَعْمَىٰ لَهَا مُتَزَوِّدٌ) ومَشغول بنَفْسِه عَمّن حَوله (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَ يَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ، وَ يَمَلُّهُ إِلاَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاٰ يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً). ٱلإِنْسَان يُحبّ ٱلْحيَاة علىٰ عِلّاتها، وتَراكُم آلامُها، ويَكرَه ٱلْمَوْت حَتّىٰ الَّذِين ٱستعدوا لهُ يُلاقُونه عَلىٰ كُره، ومن الَّذي يُحبّ أنْ تُفارق رُوحه بَدنه إلّا إِذا كَانَ بِعملِه، ويقِينه كَعليّ بن أَبِي طالب الَّذي قَالَ حِين ٱسْتُشْهِدَ: «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»[1]. أمّا غَيْره فيخشىٰ أنْ يَكُون مَا بعد ٱلْمَوْت أدهىٰ، وأمرّ. وَقَالَ قَائل يُؤْمِن باللهِ، والْيَوْم الآخر[2]:

وَلَـو إنّـا إِذَا مِـتنا تُـركنا ... لكَان ٱلْمَوْت رَاحة كلّ حَـيٍّ
ولكـنّا إِذَا مِـتنا بُـعثنا ... ونُسأل بَعدهُ عَـن كُـلِّ شَيءٍ

(وَ إِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ). ٱختلف الشَّارحُون فِيما هو الْمُرَاد من «ذٰلِكَ». وفِي رأينا أنّه حُبّ الدُّنْيَا المفهُوم من سِياق الكلاَم، والْمَعْنىٰ أنّ فِي حُبّ ٱلْحيَاة مَصلحة

(١) تَقدّم ٱستخراج ذٰلِكَ.
(٢) حُكي هٰذَا الشّعر عن دَلف بن أبي دَلف أنّه رأىٰ أبَا دَلف فِي المنام كأنّه مُضطجع فِي بَيْت يَرتفع مِنْهُ الدُّخان فَقَالَ له: يابُني أخبر أهلنا بمَا أنا فِيه، ثُمّ أنشأ يَقُول. أُنظر، فيض القدير شرح الجَامع الصَّغِير: ٥/٣٧٨ ح ٧٣٦٧، تَأرِيخ بغداد: ١٢/٤١٩، تَأرِيخ دمشق، بتحقيق عليّ شيري: ٤٩/١٥٠، البداية والنِّهاية، بتحقيق عليّ شيري: ١٠/٣٢٣، وفيات الأَعْيَان: ٤/٧٨، الأنساب للسّمعاني: ٥/٥٠، مُحاسبة النَّفس لإبراهيم الكفعمي: ٤٠.

وحِكْمَة، وَهِي البَعث علىٰ الجِد والاِجْتهاد «وَلَوْلاَ الأَمَل لَبَطَلَ ٱلْعَمَل»[١]. وعن النَّبِيّ الأكرم ﷺ أنّه قَالَ: «الأَمَل رَحْمَة، وَلَوْلاَ الأَمَل مَا أَرضعت وَالدة ولدَها، ولا غَرس غَارس شَجْرَاً»[٢]. والمَذمُوم هو طول الأَمَل، لا أَصل الأَمَل، أو الأَمَل الَّذي يُؤدي إِلىٰ أَذىٰ النَّاس، والإِضْرَار بمَصَالحهِم، ثُمّ أَشَار الإِمَام إِلىٰ ٱلْحِكْمَة بوجه العمُوم، وَقَالَ: (هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ ٱلْميّت... إلخ) ٱلْحِكْمَة فِي حَقِيقَتها هِي ٱلْعِلْم الصَّحِيح، والتَّدبِير المُحكم بوضع الشَّيء فِي مَوْضِعه، ولَيْسَ من شكّ أَنّ الَّذي يُدبر الأُمُور بِعقلٍ، وعِلمٍ لا بُدّ أَنْ يَكُون سَلِيم الْقَلْب، والسَّمع، والْبَصَر، وأَنْ يصل إِلىٰ غَايته تَمَاماً كالظَّمْآن يَرتُوي من عَذب ٱلْمَاء.

(كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ) الْحَقّ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٣]. (وَ تَنْطِقُونَ بِهِ) يَمدكُم بِٱلْعِلْم، وٱلْمَعْرِفَة، والحُجّج الدَّامغة المُفحمة لكلّ جَاحد، ومُعاند، وَقَالَ الإِمَام يَصف الإِسْلاَم بأنّه: «وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ»[٤]. (وَ تَسْمَعُونَ بِهِ) يَجذبكُم إِلىٰ الاِسْتِمَاع إِلَيْهِ من حَيْث لا تَشعرُون لمَا فيهِ مِن إِعْجَاز فِي ٱلْحِكْمَة، والبَلاَغَة، وكَان المُشركُون ـ علىٰ عدائِهم لرسُول الله ﷺ ـ لا يَسْتَطِيعُون أَنْ يَكتمُوا إِعْجَابهم بِٱلْقُرْآن، ويَقُول بَعضهُم لِبعضٍ:

---

(١) قَرِيب مِنْهُ فِي فتح الباري لِابْن حجر: ١١/٢٢٠، كشف الخَفَاء: ٢/١٧٥ ح ٢١٦٦.

(٢) أُنظر، لِسَان المِيزَان: ٥/٨١ ح ٢٦٧، الجَامِع الصَّغِير: ١/٣٩٠ ح ٢٥٥٠، كشف الخَفَاء: ١/٢١٤ ح ٦٥٠، العِلَل المتناهية: ٢/٨١٤ ح ١٣٦٣، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٢/٢/٧٠٩ ح ٢٥٥٠.

(٣) ٱلإِسْرَاء: ٩.

(٤) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٠٦) (مِنْهُ ﷺ).

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ... وأي إِنْسَان تَقع علىٰ أُذنيه عِبَارة ٱلْقُرْآن، ولا يعجب، ويذهل، وإِنْ كَانَ من الْكَافِرين!.

(وَ يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَ يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي يُفسر بَعْضَه بَعْضاً، لأنّ مَصْدَرهُ واحد، ومثالُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾[1] فإِنّ المفهُوم مِن هَذِه الآيَة أنّ النَّفس بالنَّفس حَتَّىٰ ولو كَان الْقَتْل خَطأً، ولكنّ الآيَة في سُورَة ٱلنِّسَاء أَخرجت قَتل الخَطَأ من ٱلْقِصَاصِ، وحصرتهُ بقتل العَمد ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2] (وَ لاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ). لَيْسَ في كتاب الله آية تُثبت وُجُوده تَعَالَىٰ، وثَانِيَة تَنفيه، لأنّ الحَقّ لا يُناقض بَعْضَه بَعْضاً، ولا يَتغير، ويَتبدَل (وَ لاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ). مَا ضلَّ مَن تمسَّك بٱلْقُرْآن، ومَا خَابَ من ٱلتجأ إِلَيْهِ.

(قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَىٰ الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَ نَبَتَ الْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ. وَ تَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ حُبِّ الآمَالِ، وَ تَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الأَمْوَالِ. لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَ تَاهَ بِكُمُ

(١) ٱلبَقَرَة: ١٧٨.
(٢) ٱلنِّسَاء: ٩٢.

الْغُرُورُ، وَ اللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَ أَنْفُسِكُمْ) ظَاهركُم مُشرِق، وبَاطنكُم مُظلِم تَمَاماً كخَضِرَة الدِّمَن[1]!... لِين، وزُهد، وتعاطف في الظَّاهِر، أمّا الْبَاطِن فغُش، وحِقد، وتنَاحر علىٰ ٱلْحَرَام، آستحوذ عَلَيْكُمْ الشَّيْطَان، فتَمَادَيْتُمْ في الغِي، وآستسلمتُم إلىٰ التَّهلُكَة.

(١) أقتباساً من قوله ﷺ: «إيَّاكُمْ وخَضْرَاء الدِّمَن» فقيل: يارسول الله! ومَا خَضْرَاء الدِّمَن؟ قَالَ: «الْمَرأَة الحَسنَاء في مَنبَت السُّوء». أُنظر، مُسْنَد الشّهاب: ٩٦/٢ ح ٩٥٧، الكَافِي: ٣٣٢/٥ ح ٤، أمثال الحديث: ١٢١/١ ح ٨٤، التّهذيب: ٤٠٣/٧ ح ١٦٠٨، الجرح والتعديل: ١٣٩/٤ ح ٦٠٨ و: ٣٦٩/٥ ح ١٧٢٩، خُلاصة البدر المُنير: ١٧٩/٢ ح ١٩٠٩، من لا يحضره الْفَقيه: ٢٤٨/٣ ح ١١٧٧، كنز الْعُمّال: ٢٥٣/١٢ ح ٣٤٩١٥ و: ٣٠٠/١٦ ح ٤٤٥٨٧.

الخطبة

-١٣٤-

إِعْزَازُ الْحَوْزَة:

وَ قَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَ الَّذِي نَصَرَهُمْ، وَ هُمْ قَلِيلٌ لاٰ يَنْتَصِرُونَ، وَ مَنَعَهُمْ وَ هُمْ قَلِيلٌ لاٰ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاٰ يَمُوتُ.

إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لاٰ تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَىٰ بِلاٰدِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَٱبْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَ ٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاٰءِ، وَ النَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَ إِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ، وَ مَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

اللُّغَة:

تَوَكَّلَ اللهُ: ضَمِنَ الله. وحَوْز المَملَكة: مَا بَيْنَ تخُومها، وحَوْز ٱلإِسْلاَم حدُوده ونُواحِيه، وحَوْزَة الإِمَام مَا فِي تَصرفه. وتُنْكَبْ: تُصاب بِنكبَة ونَكْسَة.

وكَانِفَةٌ: عَاصِمَةٌ مَانعَةٌ. وَٱحفِزْ: دفَع، وأرسَل. ورِدْءاً: دِرعَاً ومَلجَاً. وَمَثَابَةٌ: مِن ثَابَ، أي رَجَع.

الإِعْرَاب:

حَيٌّ خَبَرَ للَّذِين نَصَرَهُمْ ، فَتُنْكَبْ عطف علىٰ تَسِرْ ، لاٰ تَكُنْ «لاَ» نَافية ، وتَكُنْ مجزُوم بمَتَىٰ ، والأصل لاٰ تَكُونْ ، وَكَانِفَةٌ آسم تَكُنْ ، وبَعْدَكَ خَبَرَ مُقَدَّم لِلَيْسَ ، فَذَاكَ مَا تُحِبُّ مُبْتَدأ ، وخَبَرَ .

ٱلْمَعْنىٰ:

جَاء في الجُزْء الثَّانِي من تَأْرِيخ آبن الأثِير : «إنّ أَبَا عُبَيْدَة حَاصر بَيْت المقدس سَنَة ١٥ ، فطلب أَهْله أَنْ يُصالحهم بشرط أَنْ يَكُون المُتَولِّي لعقد الصّلح ٱلْخَلِيفَة عُمَرَ بن الخاطب . فَكَتَب أبو عُبَيْدَة بِذَلِكَ إِلىٰ عُمَرَ ، فَقَالَ له الإِمَام عَلِيّ : أين تخرج بنَفْسِكَ ! ولَكِنَّهُ سَار إِلىٰ بَيْت المقدس ، وصَالح أَهْله علىٰ الجِزْيَة»[1] .. وذكر آبن الأثير في هَذِه الحادثة : «أنّ قائلاً قَالَ لعُمَرَ : لو تَركت في بَيْت ٱلْمَال مَبلغاً لأمرٍ يحدث . فَقَالَ له عُمَرَ : هَذِه كَلِمَة أَلقاها الشَّيْطَان علىٰ لِسَانك ، وقَانِي الله شَرها ، وَهِي فِتنة بَعدي ، بل إنِّي أَعد لهُم ما أَعدَ الله ، ورسوله ، طَاعَة الله ، ورسوله ، إنّهما عدتنا الّتي آنتهينا مِنْهَا إِلىٰ ما تَرُون ، فإذا كَان ٱلْمَال دِين أحدكم هَلكتُم»[2] ... وصدق عُمَرَ حيثُ هَلك في عَهد عُثْمَانَ ٱلْمُشْتَرِي ، والْبَائِع .

---

(١) أنظر ، الكَامِل في التَّأْرِيخ : ٢/٢٤١ ، (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، القِصَّة كاملة في البداية والنهاية : ٧/٦٥ ، تَأرِيخ الطبري : ٣/١١٠ ، أَنْسَاب الأَشْرَاف : ١٦٤ ، تَأرِيخ خَلِيفَة : ١/١٠٥ ، فتوح البلدان للبلاذري : ١/١٦٤ ، تَأرِيخ اليعقوبي : ٢/١٤٧ ، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم : ١/٢٨٩ ، تَأرِيخ دمشق : ٢/١١٠ و : ٢٦/٣٧٣ ، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ٨/٢٩٨ ، كنز الْعُمَّال : ١٣/٥١٧ ح ٣٧٣٣٢ .

(وَ قَدْ تَوَ كَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَ سَتْرِ الْعَوْرَةِ). المُرَاد بالْحَوْزَةِ مَا حَازه ٱلْمُسْلِمُون من النّواحي، وبالْعَوْرَةِ فِي الثّغُور الَّذي يَنفذ مِنْهُ الْعَدُوّ، واَلْمَعْنَىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ قَد ضَمّن النَّصر لأُمّة مُحَمّدﷺ من بَعْدَه، وأَنْ يصُونهم من الْعَدُوّ بالتَّأكِيد، والتَّسدِيد، ويَستر مَا فِيهِمْ من ضَعف عن الْعَدُوّ حِرصاً عَلَىٰ هَيبتهم فِي نَفْسِه، ضَمّن سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَمضوا بَعد نَبِيِّهم في دَعْوَة الْحَقّ، ويَنشرُوها في الشَّرق، والغَرب، ويُرابطوا، ويُجاهدُوا في سَبِيلها تَمَاماً كَمَا فَعَل النَّبِيّﷺ، والْصَّحَابَة فِي عَهْدِه.

(وَ الَّذِي نَصَرَهُمْ، وَ هُمْ قَلِيلٌ لاٰ يَنْتَصِرُونَ، وَ مَنَعَهُمْ وَ هُمْ قَلِيلٌ لاٰ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاٰ يَمُوتُ). إِنّ الله الَّذي جَعل من هَؤُلَاء الْعَرَب الَّذِين كَانوا قَبل مُحَمّدﷺ أَقلاء أَذِلاَء، جَعل مِنْهُم أُمّة مُسلمة لها شأنُها، وعَظمَتها هو حَيٌّ، وقَادرٌ أَنْ يَنصُركُم الآن كَمَا فَعل مِن قَبل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

(إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لاٰ تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَىٰ بِلاٰدِهِمْ... إلخ) الخِطَاب لِلْخَلِيفَة عُمَرَ، والكلاَم واضح، ومُلخصه لا تَذهب بِنَفْسِك إِلَىٰ الْعَدُوّ، لأَنّك الرَّأس، والقَائِد، فإنْ قُتلت، أو هُزمت عَمّت المُصِيبة جَمِيع ٱلْمُسْلِمِين، والرّاي أَنْ تبقَ فِي مكانك، وترسل جَيشاً مُخلصاً، ومُدرباً بقيادة كفؤ تَختاره، فإِنْ كَانَ النَّصر فَهُوَ المَطْلُوب وإلاّ بَقِي ٱلْمُسْلِمُون عَلىٰ مَكانتهم فِي حِصنٍ حَصِين بوجُودك، ورَأَيْت رَأيك فِيَما يَنْبَغِي.

(١) آلِ عِمْرَان: ١٢٣.

الخطبة

-١٣٥-

أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ:

يَا ٱبْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ، وَ الشَّجَرَةِ الَّتِي لاَ أَصْلَ لَهَا، وَ لاَ فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟ فَوَ اللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَ لاَ قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. ٱخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ، ثُمَّ ٱبْلُغْ جَهْدَكَ، فَلاَ أَبْقَىٰ اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!

اللُّغَة:

الأَبْتَرِ: مَن لاَ عَقبَ لهُ، أو القَصِير، أو الخَبِيث الَّذي لا خَير فيهِ. وأَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ: أَبعَد سَفرَك أو دَارك. والجَهد ـ بفتح الجِيم ـ ٱلْغَايَة.

الإِعْرَاب:

وَالشَّجَرَةِ عَطف عَلىٰ اللَّعِينِ أي ويا ٱبْنَ الشَّجَرَة، وَلاَ فَرْعَ يجوز فتح «فَرع» لتركِيبه مع «لاَ» العَاملة عَمل «أنّ» ويَجُوز نَصبه عَطفاً عَلىٰ محَل ٱسم «لاَ» الأُولَىٰ، ويَجُوز رَفعه بالاِبْتِدَاء، والخَبَر محَذوف أي ولاَ فَرعَ لها.

الْمَعْنَىٰ:

فِي تَعلِيق الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه مَا نَصّه: «قَالُوا: كَانَ نِزاع بَيْنَ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ ـ أي عليّ ـ وبَيْنَ عُثْمَانَ، فَقَالَ الْمُغِيرَة بن الأخْنَس[1] لعُثْمَانَ: أنَا أَكفيكَهُ. فَقَالَ عليّ: يَا ٱبْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ.... وإنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لأنَّ أبَاه الأَخْنَس كَان من رُؤُوس ٱلْمُنَافِقِين»[2].

وفِي شرح ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد: «كَان الأَخْنَس أبو الْمُغِيرَة من أَكابر ٱلْمُنَافِقِين، ذَكره أَصْحَاب الْحَدِيث كلّهم فِي الْمُؤَلَّفَة قلوبهم الَّذِين أَسْلمُوا يَوْم ٱلْفَتْح بِأَلْسِنَتِهِمْ دُونَ قلوبهم... وكَانَ الإِمَامُ عليه السلام قَد قَتَل يَوْم أُحد فِي الْحَرْب أَبَا الحَكم بن الأَخْنَس، وهو أخو الْمُغِيرَة[3]، والحِقد الّذي فِي قَلبه علىٰ الإِمَام مِن هَذِه الجِهة. وإنَّمَا قَالَ

---

(١) هو الْمُغِيرَة بن الأخنس بن شريق بن عَمْرُو بن وهب بن علاج بن أبِي سلمة الثَّقَفِيّ حليف بني زهرة، قتل يَوْم قتل عُثْمَانَ فِي الدّار. أُنظر، تَأرِيخ هَذِه الأُسرة من عبدالله بن الْمُغِيرَة وأمثاله فِي الأَنْساب: ١١٧/٥، الاِسْتِيعَاب: ١٥٥/١، الإِصَابَة: ١٥٥/٦ الرَّقم (٨١٩٣)، تَأرِيخ الْمَدِينَة لِابْن شبة النّميري: ١٢٢٤/٤ و ١٢٩١، البداية والنّهاية: ٢٢٢/٧، وَقْعَة صِفِّين: ٥٥، تَأرِيخ دمشق: ٣٥٦/٣٩، إكمال الكَمَال: ٣٠١/٦، تَأرِيخ خَلِيفَة: ١٢٦، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤١٨/٣ ـ ٤٢٠ و: ١٢٢/٥، الكَامِل لِابْن الأثير: ٧٣/٣، الْفِتْنَة ووَقْعَة الجَمَل: ٦٩، الْمُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٦٨٠/٨، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ١٥٦/٢ و: ٨٦/٣، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٦٦/٣، فتح البَاري: ١٠/١٣، الْجَمَل لضامر بن شدقم المدني: ١٥٥.

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج البَلاَغَة: ١٨/٢ و ٢٠. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) قصد الْمُصَنِّف: بأصحاب الحديث الّذين ذكروا واقعة أُحد كصاحب السيرة الْحَلَبِية، والسيرة النَّبَوِيّة، والطبري فِي تَأرِيخه، والإصفهاني فِي الأغاني، ومغازي ٱبن إسْحَاق، والكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأثير، وغَيْرهم كثير مِمَّنْ أرّخ لمعركة أُحد.

فِي السيرة الْحَلَبِية للعلّامة الحلبي المالكي بهامشه السيرة النَّبَوِيَّة: ٢٢٣/٢ وفي السيرة النَّبَوِيّة لِابْن دحلان الشافعي بهامش السيرة الْحَلَبِية: ٢٧/٢: كَانَتْ راية قُرَيْش مع طَلْحَة من أبِي طَلْحَة العبدري من بني عبدالدار ـ وكَانَ يسمّىٰ كبش الكتيبة ـ فبرز ونادىٰ: يا محمّد! تزعمون أنّكم تجهزونا بأسيافكم إلىٰ

الإِمَام يَا ٱبْنَ الأَبْتَرِ، لأنّ مَن كَان عَقَبه ضَالاً خَبِيثاً فهُو كَمن لاَ عَقبه لهُ، بل مَن لاَ عَقب لهُ خَير منهُ»[1].

⇐ النّار ونجهزكم بأسيافنا إلىٰ الجَنَّة، فن شاء أنْ يلحق بجنته فليبرز إليّ، فلم يجبه أحد، فبرز إلَـيْهِ أمِـير الْمُؤمِنِينَ عليه السلام فقتله....

أمّا عبدالله بن جميل (جميلة) بن زهير قتله الإِمَام عليّ عليه السلام أيضاً بعد أنْ أخذ رايـة الكُـفَّار مـن يَـد عزيز بن عُثْمَانَ الَّذي قتله الإِمَام عليّ عليه السلام كما ذكر ذَلِكَ صاحب السيرة الحَلَبية: ٢ / ٢٧، وصاحب السيرة النّبويّة: ٢ / ٢٢٣، والبحار: ٢٠ / ٥٠، وأعيان الشيعة: ١ / ٣٨٧.

وأمّا أبو الحَكَم ٱبن الأخنس بن شَريق (شريف) الثّقفيّ فقد قتله الإِمَام عليّ عليه السلام أيضاً كما ذكر الشيخ المفيد رحمه الله في الإِرْشَاد: ٨٢ فصل ٢٣ من الباب ٢، وٱبن قُتَيْبَة في معارفه: ١٦٠ تحـقيق ثـروة عكـاشة وأضاف قائلاً: إنّه حليف بني زهرة.

وأمّا أبو أُميّة بن أبي حُذَيْفَة بن الْمُغِيرَة أيضاً قتله الإِمَام عليّ عليه السلام كما ذكر ٱبـن الأثـير في الكـامِل: ٢ / ١٥٤، وٱبن قُتَيْبَة: ١٦٠ وٱبن هشام في سيرته: ٢ / ١٣٤.

وأمّا سباغ (سباع) بن عبدالعزّىٰ فقد قتله الإِمَام عليّ عليه السلام كَذَلِكَ كما ذكر ذَلِكَ الواقدي والطبري، أمّا ٱبن إِسْحَاق فقد ذكر أنّ سباع قتله حَمْزَة، ولكن الصحيح والمتفق عَلَيْهِ قتلَه الإِمَام عليّ عليه السلام كما يذكر أَهْل السِير والتَّأريخ.

أنظر، ٱبن الأثير في الكَامِل: ٢ / ١٦١، وأعيان الشيعة: ١ / ٣٨٨، والإِرْشَـاد للشـيخ المـفيد: ٨٢، والبحار: ٢٠ / ٥٥، ودائرة المعارف لحسن الأَمِين: ١ / ٣٩٠.

أمّا الغلام الحبشي فاسمه صواب (صوأب) وكَانَ من أشدّ الناس فقطع أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يده الْيُمنىٰ، فأخذ اللواء باليسرىٰ فقطعها أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أيضاً، فأخذ اللواء علىٰ صدره وجمع عَـلَيْهِ يـديه وهـما مقطوعتان، فضربه أَمِيرالْمُؤْمِنِينَ عليه السلام علىٰ أمّ رَأْسه فسقط صريعاً، فٱنهزم الْقَوْم. ذكـر ذَلِكَ الطـبري في تَأرِيخه: ٢ / ١٣١، والمناقب لإِبْن شهرآشوب: ١ / ١٨٧، وكشف الْيَقِين فِي فَضَائِل أَمِيرالْمُؤْمِنِينَ لإِبْن المطهّر الحلّي: ١٢٧، وذكر ذَلِكَ أيضاً الإصفهاني في كتابه الأغاني والمغازي لإِبْن إِسْحَاق والقشيري فِي تَفْسِيره.

وجاء في السيرة الحَلَبية: ٢ / ٢٢٤، والمعارف لإِبْن قُتَيْبَة: ١٦١ أنّ هَٰذِه الآيَة نزلت في بني عبدالدار: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ٱلْأَنفَالِ: ٢٢. وأُنظر تنوير المقباس من تَفْسِير ٱبن عباس: ١٤٧).

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٨ / ٣٠١ و٣٠٣. (منه رحمه الله).

قَتَل الإِمَامﷺ أخَا المُغِيرَة بن الأَخْنَس عَلىٰ الْكُفْر. أمّا أَبـو المُـغِيرَة فَـهُو مِـن رُؤُوس ٱلمُنَافِقِين، وأكَابرهُم كمَا أشرنا، وكلّ مُنافق فـهُو بِـطبعَه عَـدُوّ الإِيمَـان، والمُؤْمِنِينَ. فإذَا عَطفنَا عَلىٰ نِفَاق الأب كُفر الأخ الَّذي قَـتله الإِمَـام(١) تَـراكـمت الأحْقَاد عَلىٰ أَمِير المُؤْمِنِينَ فِي قَلب المُغِيرَة... ولكن لا أثر لأحقَاد الجَاهِلِيَّة إلاّ عَلىٰ حَاملها.

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي، والشَّيخ عَبْدَه: كَـان نَـزاع بَـيْنَ عَـليّ، وعُـثْمَانَ. وَقَـالَ

(١) قَالَ الإِمَام عَليّﷺ: هَذِه قُرَيشُ: جَدَعْتُ أنفِي وشَفَيْتُ نَفسِي، لقد تَقَدَّمتُ إِلَيكُمْ أُحَذِّرُكُمْ عضّ السُّيُوف، وكنتم أحداثاً لا عِلمَ لكم بِمَا تروَن، ولَكِنَّهُ الحَيْنُ ـ الهلاك ـ وسـوء المَـصْرع، فأعـوذُ بـالله مـن سُـوءِ المَصرع.... ثمّ مرّ علىٰ مَعْبَدَ بن المقداد فَقَالَ: رحم اللهُ أبا هَذَا، أما إنّه لو كانَ حيّاً لكان رأيُهُ أحسَنَ من رأي هَذَا... قَالَ: ومرّ بعبدالله بن رَبِيعَة بن درّاج وهو في القَتلىٰ فَقَالَ: هَذَا البائس ما كَانَ أخرجَهُ؟ أدينٌ أخرجَهُ أمْ نصرٌ لعُثْمَانَ؟ والله ما كَانَ رأيُ عُثْمَانَ فِيهِ ولا في أبيه بحَسنٍ... ثمّ مرّ بمعبد بن زهير بن أبي أُمَيَّة فَقَالَ: لو كَانَتْ الفِتْنَة برأس الثريّا لتناولها هَذَا الغُلام... ثمّ مرّ بمسلم بن قرظة فَقَالَ: البرُّ أخرجَ هَذَا... ثمّ مرّ بعبدالله بن حميد بن زهير فَقَالَ: هَذَا أيضاً مِمَّنْ أوضَعَ فِي قِتالِنا، زعم يَطلُبُ الله ذَلِكَ... ومرّ بعبدالله بن حكيم بن حزام فَقَالَ: هَذَا خالَف أباه في الخروج.... ثمّ مرّ بعبدالله بن المُغِيرَة بن الأخنس فَقَالَ: أمّا هَذَا فقُتِلَ أبوه يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانَ في الدار، فخَرجَ مُغْضباً لمقتلِ أبيهِ، وهو غُـلامٌ حَـدَثٌ حُـيِّنٌ لقتلِه... ثمّ مـرّ بعبدالله بن أبي عُثْمَانَ بن الأخنس بن شريقٍ فَقَالَ: أمّا هَذَا فإنّي أنظر إِلَيْهِ وقد أخذ القَوْمَ السُّيُوف هـارباً يعدو من الصفّ فَنَهْنَهْتُ عَنه فلم يَسمعْ مَن نَهْنَهْتُ حتّى قَتَلَهُ...

ثمّ مشىٰ قليلاً فمرّ بكَعْب بن سُور فَقَالَ: هَذَا الَّذي خَرجَ علينا فِي عُنُقِه المصحَفُ يَزعُمُ أنّه ناصِرُ أُمِّهِ ـ يعني عَائِشَة ـ يدعو النّاس إِلىٰ ما فِيهِ ـ يعني ٱلقُرآن الكريم ـ وهو لا يَعلَمُ ما فِيهِ ثمّ ٱستفتح وخابَ كلُّ جبّار عَنيدٍ. أمَا إنّه دعا الله أنْ يقتُلني فقتلَه الله، أجلِسُوا كَعْبَ بنَ سُورٍ، فأُجلِسَ فَقَالَ أَمِير المُؤْمِنِينَﷺ: يا كعبُ قد وَجدْتُ ما وَعَدني ربِّي حَقّاً، فهلْ وجَدْتَ ما وَعدكَ ربُّكَ حَقّاً؟ ثمّ قَالَ: أضجِعوا كعباً.

أُنظر، الشّيخ المفيد في كتابه الإرْشَاد: ١/٢٥٤، وفي كتابه الجَمَل: ٢٠٩ ـ ٢١١ بـاختلاف يسـير. ونقله العلّامة المجلسي في البحار: ٨/٤٣٧ و ٤٤٢، تأريخ الطبري: ٣ / ٥٤٢، ابن أَعْثَمْ في الفُتُوح: ١ / ٤٩٥.

أَصْحَاب السِّيرِ، والتَّأرِيخ فِي سَبب هَذَا النِّزَاع: أنّ عَلِيّاً، وغَيْره من الصَّحَابَة نَقمُوا عَلىٰ عُثْمَانَ لأنّه أَبَاح لأقَاربهِ، وأنْصَاره مَا لَيس بمُباح. وَقَالَ العَقَّاد فِي عَبقرِية الإمَام: «إنْ جَاءت صَيحة الإِصلاَح، والتَّغيير عَن طَرِيق الدِّين فَعليٌّ كَانَ إمَام العِلم، والقرَاءة، وأحقّ مَن يَتَكلَّم بتفقِيهِ، وتَفْسِير، وإنْ كَانَتْ الصَّيحة من الْفُقَرَاء، أو من تَهَافُت الْوُلاَة علىٰ الْمَال فَعليٌّ يَبغض هَذَا التَّهَافُت عن زُهدٍ فِي الْمَال لا عن قِلة الوَسَائِل إِلَيْهِ فما شَكا شَاكٍ قَطّ إِلّا وعليٌّ شَرِيكة فِي شَكْوَاه»[1].

(وَ الشَّجَرَةِ الَّتِي لاٰ أَصْلَ لَهَا، وَ لاٰ فَرْعَ). الْمُرَاد بالأصل هُنا ثَقِيف، لأنّ الْمُغِيرَة بن الأخْنَس ثَقفِي، أمّا الفَرْع فما بَيْنَ كَافر كأخِي الْمُغِيرَة، ومُنافق كأبِيه... قَالَ ٱبن أبي ٱلْحَدِيد: إنّ ثَقِيفاً فِي نَسبها طَعن[2]، وفِي روايَة عن رَسُول الله: «أنّه لَعَن ثَلاثَة بُيُوت: بَنِي أُمَيَّة، وبَنِي الْمُغِيرَة، وثَقِيفاً»[3]، وفِي ثَانِيَة: «لَوْلاَ عُرْوَة ٱبن مَسعود للعَنتُ ثَقِيفاً»[4]. (مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ) مَن كَان نَاصره الْمُغِيرَة ٱبن الأخْنَس فهُو ذَلِيل حَتَّىٰ ولو كَان خَلِيفَة ٱلْمُسْلِمِين (ثُمَّ ٱبْلُغْ جَهْدَكَ) ٱفعل مَا بَدَا لَكَ إِلىٰ غَايتك (فَلاٰ أَبْقَىٰ اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ) أي إِنْ أَبْقَيْتَنِي حَيّاً، أو ٱستَطعت أنْ تَفعل بِي مَكرُوهاً، ولَم تَفعل.

(١) أنظر، عبقرية الإمَام: ٩٥ (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٣٠٣/٨. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٣٠٢/٨. (مِنْهُ ﷺ). مناقب أَهْل ٱلْبَيْت لحيدر الشّيرواني: ٣٧٦.

(٤) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٣٠٢/٨. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٣٦-

بَيْعَةُ الْإِمَام:

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَ لَيْسَ أَمْرِي وَ أَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلهِ، وَ أَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَ ايْمُ اللهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَ لَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ، حَتَّىٰ أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ، وَ إِنْ كَانَ كَارِهاً.

اللُّغَة:

الفَلْتَة: مِن فَلتَ الأَمْر إذَا كَان مِن غَيْر إحْكَام، وتَدبير. والخِزّامة ـ بكسر الخَاء ـ مِن خَزّم البَعير ـ بتشدِيد الزّاي ـ إذَا جعل في جَانب منخره الخِزّام أو الخِزّامة، وَهِي حَلقة يُشد فيها ٱلزّمام.

الْإِعْرَاب:

إِيَّايَ أصلها لِي، ثُمّ اللام فٱنتصب الضّمير بنزع الخَافض. وَٱيْمُ اللهِ مُبتَدأ،

والْخَبَر مَحذوف حَتماً أي قسمي.

بَيْعَة أَبِي بَكْر فَلْتَة:

(لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً). ذَكرنا أنّ الصَّحَابَة، وغَيْرهم من ٱلْمُسْلِمِين بَايعوا الإِمَام بَعد تَردُدٍ منهُ، وآمتناع[1]، وَقَالَ فِي ٱلْخُطْبَةِ التَّالية: «قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا»[2]. وَقَالَ فِي رِسَالَة من رَسائله: «لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَرَادُونِي، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّىٰ بَايَعُونِي، وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي، وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَلاَ لِعَرَضٍ حَاضِرٍ»[3] أي لا بالقَهر، والغَلبة ولا فِي مالٍ.

أمّا كَلِمَة «فَلْتَةً» فَقَال الشَّارحُون: إنَّهَا تَعرِيض بِخلاَفة أَبِي بَكْر... وَلَيْسَ هَذَا ببعِيد، ومهما يَكُن فَقد مَثلت هَذِه الكَلِمَة دَوراً كَبِيراً فِي بَحث الإِمَامَة، والْخِلاَفَة عِند ٱلْمُسْلِمِين، وكَتب فِيها السُّنَّة، والشِّيعَة صفحات طوالاً عراضاً، ومُجمل الحِكايَة أنّ ٱلْخَلِيفَة الثَّانِي خَطب ذَات يَوْمٍ، وَقَالَ: «أَيُّها النَّاس إنّ بَيْعَة أَبِي بَكْر كَانَتْ فَلْتَة وقىٰ الله شرها، فَمن عَاد إِلىٰ مثلها فاَقتلوه»[4]. وفهم النّاس آنذاك إنْ هَذَا

---

(١) أُنظر، شرح ٱلْخُطْبَة: ٣ و ٩٢. (منه ﷺ).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: لَلْخُطْبَة (١٣٧).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبلاَغَة: رِسَالَة رَقم (٥٤). من كتابٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ طَلْحَة، والزُّبَيْر (مع عِمْرَانَ بن الحصين الخُزاعي).

(٤) أُنظر، إعتراف عُمَرَ بن الخَطَّاب الَّذي إعترف بكلّ شجاعة، وصراحة حِين بَلغه مَقالة بَعْض ٱلْمُسْلِمِينَ أنْ لو مَات عُمَرَ لبايعنا فلاناً... فَقَالَ:

طعن في خِلاَفة أَبِي بَكْر، وكَان الشّعبي يُحدث النّاس ويقُول: «كَانَ فِي صَدر عُمَرَ خَبٌّ علىٰ أبي بَكْر... ولمّا أنكر عَلَيْهِ بَعْض من سمع هَذَا مِنْهُ قَالَ له الشّعبي: كَيْف

↩ «... إنّما كَانَتْ بَيْعَة أَبِي بَكْر فلتة وتمت، ألا وإنّها قد كَانَتْ كَذلِكَ، وقىٰ الله شرها...».

أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢٥٠٣/٦ ح ٦٤٤٢، تَأرِيخ الطَّبرِيّ: ٢٣٥/٣، الْفَتح الرّباني: ٥٩/٢٣، كنز العُمّال: ٥/ ٦٤٩، شرح النّهج لابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٢٣/١، السِّيرَة النَّبويَّة: ٧٨/٦، النّهاية لابْن كَثِير: ٢٢٨/٥، الكَامِل في التّأريخ: ٣٢٧/٢، الصَّوَاعِق الُمحْرِقَة: ٥ و٨، تَأرِيخ الخُلَفاء للسيوطيّ: ٦٧، السِّيرَة الحَلَبِية: ٣٦٠/٣، مُسْنَد أحمد: ٥٥/١ ح ٣٩١، الرّياض النّضرة: ٢٠٢/٢ ح ٦٦٩، أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٥/٥، شرح المقاصد: ٢٨٠/٥.

وأنظر، صَحِيح آبن حبّان: ١٤٨/٢ و ١٥٥ و ١٥٧، مَجْمَع الزوائد: ٥/٦، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٢٧٢/٤ ح ٧١٥١ و ٧١٥٤، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٤٥٣/٦ و: ٣٤١/٧ ح ٣٧٠٤٢، المُصَنَّف لعبدالرزاق: ٤٤٥/٥ ح ٩٧٥٨، الإحْتِجَاج: ١٥٣/٢، الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ٥٠/٣، تَأرِيخ دمشق: ٢٨١/٣٠، مُسْنَد البزار: ٣٠٢ و ٤١٠، فتح الباري: ١٤٧/١٢، التمهيد لِابْن عبدالبر: ١٥٤/٢٢، الطرائف للسّيد آبن طاووس: ٢٤٠، الثقات لِابْن حبّان: ١٥٣/٢، تثبيت الإِمَامَة ليحيىٰ الهادي: ١٣، الفصل للوصل المدرج: ٤٩٠/١، السَّقِيفَة وفَدَك للجوهري: ٤٦، المسترشد في الإِمَامَة: ١٣٧.

وَهَذَا الْقَوْل يَكشف لنا أيضاً أنّ الْبَيْعَة كَانَتْ غلطة، أو كَانَتْ فتنة كما رواها آبن الأثير في الكَامِل بلفظ «الْفِتْنَة»، ويكشف لنا أيضاً أنّ الَّذي يعود إلىٰ مثلها يُقتل، وأنْ لا بَيْعَة له، وَهَذَا الطّعن من عُمَرَ بن الخِطَاب يكفي لإبطال بَيْعَة أبي بَكْر علىٰ رأيكم، وليس علىٰ رأي الخصم؛ لأنّ الخصم من الأساس لايعترف إلّا بالنصّ. أو أنّه ـ عُمَرَ ـ أراد أنْ يقطع الطّريق علىٰ مَن يُريد أنْ تصل إِلَيْهِ الْخِلاَفَة بالطريق الشّرعي، ألا وهو الإِمَام عليّ؛ لأنّ القائل: «إنّ الرّجل الَّذي قَالَ لو قد مات عُمَرَ لبايعت فلاناً هو عَمّار بن ياسر الَّذي قَالَ: لو قد مَات عُمَرَ لبايعت عَلِيّاً، وَهَذَا الْقَوْل هو الَّذي أهاج عُمَرَ بن الخَطَّاب أنْ خَطب بِمَا خَطب».

أنظر، شرح النّهج لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٥٧/٢، نقلاً عن الجاحظ، وفي أَنسَاب الأَشْرَاف: ٥٨١/١ بلفظ: «إنّ عُمَرَ قَالَ: بلغني أنّ الزُّبَيْر قَالَ لو قَد مَات عُمَرَ بايعنا عَلِيّاً»، وقيل: إنّ القائل هو آبن الزُّبَيْر: «والله لو قد مَات عُمَرَ لبايعت عَلِيّاً فأنّ بَيْعَة أبي بَكْر إنّما كَانَتْ فلتة وتمت، فغضب عُمَرَ وخطب هَذِهِ الْخُطْبَة...»، شرح القسطلانيّ علىٰ صَحِيح البُخَارِيّ: ٣٥٢/١١.

تَصنع بالفَلْتَة الّتي وقىٰ الله شَرها ؟. أَيَقُول عَدُوّ في عَدُوّه: أَكْثَر من ذَلِكَ(١)؟

وذكر الشّيعة في كُتبهم مآخذ علىٰ بَيْعَة أَبِي بَكْر.

مِنْهَا قول عُمَرَ: «كَانَتْ فَلْتَة» وأجاب بَعْض الشّيُوخ القُدامىٰ بأَنّ عُمَرَ أراد أنّ بَيْعَة أَبِي بَكْر كَانَتْ بادرة طَيِّبَة، وفُرصة حَسنة لاِجتماع كَلِمَة ٱلْمُسْلِمِين ٱغتنمها أبو بَكْر من مهّد لهُ قبل أنْ تفوت، أمّا قول عُمَرَ: وقىٰ الله شَرها، فمعناه أنّ الله تَعَالىٰ دَفع بها شَرّ الْإِخْتِلاَف بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، والْمُرَاد بمَن عَاد إِلىٰ مثلها فٱقتلوه ـ أنّ مَن تَوَلَّىٰ ٱلْخِلاَفَة بلا مَشُوَرَة ٱلْمُسْلِمِين، ولا عَدد كَافٍ مِنْهُم كما فَعل أبو بَكْر ـ فٱقتلوه، ولَيس لهُ أنْ يقيس علىٰ بَيْعَة أبي بَكْر لأنّ هَٰذَا الْبَيْعَة مُبرراً واضحاً وهو جَمع كَلِمَة ٱلْمُسْلِمِين، وصَونهم من الْإِخْتِلاَف(٢). الْمُسْلِمِ

(١) أُنظر شَرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/ ١٢٤ الطَبعة القديمة. (مِنْهُ ﷺ). و: ٢٨/٢ الطبعة الجَديدة، الشافي: ١٢٧/٤، المسترشد في الإمَامَة: ٢٤٦. تلخيص الشافي: ٢٩/٣.

(٢) السّؤال الّذي يطرح نفسه: هل يوجد بالْمَدِينَة العدد الكافيّ من ٱلْمُنَافِقِين بحيث يَصل الأمر بعُمَرَ بن الخَطّاب أنْ يخشىٰ، ويخاف علىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ من ٱلْمُنَافِقِين وهو الْمَعْرُوف عِنْدَكُم بشجاعته؟ وكَيْفَ تقبلون مقولة عُمَرَ بأنّ النّبيّ لم يَمت، وأنّه ذهب إِلىٰ رَبّه وهم ـ أي ٱلْمُنَافِقُون ـ لا يُؤْمِنُون بنُبُوّته ﷺ أصلاً؟ بالإضافة إِلىٰ ذَلِكَ أنّهم يرونه مُسجىً، وساكن الحركة أمامهم، وفِيهِمْ مَن فِيهِمْ من الحُكماء، والأطباء، والأحبار، و... و... فَلِمَاذَا لاينعكس الأمر ويَعتبرون مقولة عُمَرَ بن الخَطّاب هَذِه من الهَذيان، والخرافات؟ ثمّ إنّكم تعتبرون الْصَّحَابَة وعُمَرَ من أجلائهم، وكلّهم عدول، والْمُنَافِق بَيْنَهُمْ قَليل مستور...؟

أمّا قولكم بأنّه خاف من تشتت وتفرق ٱلْمُسْلِمِينَ وأمر الْإِسْلاَم، فهنا نَسأل هل كَانَ عُمَرَ بن الخَطّاب أحرص من رسول الله ﷺ علىٰ الْإِسْلاَم، والْمُسْلِمِينَ بحيث يتركهم رسول الله ﷺ بدون راعٍ، وأمِير من بعده؟ وهل عُمَرَ بن الخَطّاب أعلم من رسول الله ﷺ بأنّ ٱلْمُنَافِقِين يترقبون مَوْت رسول الله ﷺ، وتشتت ٱلْمُسْلِمِينَ، ثُمّ ليسيطروا هُم علىٰ الأمر؟ وَإِذَا كَانَ حقاً ماتقولون فما هو الدّليل علىٰ ذَلِكَ؟، ولم تذكر كتب التّأريخ لنا بأنّ رسول الله ﷺ حَذر من إسْتِيلاء ٱلْمُنَافِقِين بعد مَوْته ﷺ بل إنّ الله سُبْحَانَهُ حَذر من الإنقلاب

وَقَالَ الشّيعة: لو أنّ عُمَرَ قَالَ: كَانَتْ فَلْتَة وسكتَ لأمكنّ الأخذ بتَفْسِير الفَلْتَة بالفُرْصَة، والبَغتة، لكنّ قَوْله بلا فَاصل: وقىٰ الله شَرها، ومن عَاد إلىٰ مثلها فاقتلوه ـ يأبىٰ هَذَا التّعسف، والتّكلف.

هَذَا تَخليص سَرِيع للنّقاش بَيْنَ السُّنَّة والشّيعة حَول هَذِه الفَلْتَة[١].

(وَ لَيْسَ أَمْرِي وَ أَمْرُكُمْ وَاحِداً) وَذَلِكَ (إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلهِ، وَ أَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ) تَمَاماً كالوَالد الرّؤوف يُريد وَلده للعِلم، والدّرس، ويأبىٰ الولد إلاّ اللّهو، واللّعب، وَقَالَ العَقّاد: «فَرق بَيْنَ المَلك، والخَلِيفَة، فَلنْ يكُون الحَاكِم مَلِكاً بأدوات خَلِيفَة، ولا خَلِيفَة بأدوات مَلك، وعَلي ابن أبي طالب خَلِيفَة، ولَيْسَ مَلِكاً، ومن أَصْحَاب المبادىء البَارِزين فِي الاِصلاح لا من أَصْحَاب المَنَافِع البارِزين فِي دوام المَنْفَعَة»[٢].

﴿ علىٰ الأعْقَاب والارتداد عن الدّين كما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿...أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ...﴾. آل عِمْرَانَ: ١٤٤، وروىٰ ذَلِكَ ابن سعد في طبقاته: ٥٧/٢، ابن كثير في تَأرِيخه: ٢٤٣/٥، كنزالعُمّال: ٥٣/٤ ح١٠٩٢.

أمّا إذَا قلتم بأنّ عُمَرَ بن الخَطّاب قد أَصَابه الذّهول، والدّهشة فخرج من حَال العِلم إلىٰ عدمه، ومن التّوازن إلىٰ الاضطراب، لشدة الصّدمة، والمصيبة من جهة، والمَحبّة المفرطة الّتي اختص بها رسول الله ﷺ في قلب عُمَرَ بن الخَطّاب. فالسؤال هو: لمَاذَا لم يَصبه هَذَا الذّهول أثناء سَكرات مَوْت رسول الله ﷺ، وَقَالَ بكلّ صراحة، وشجاعة، وجُرأة إنّه ـ أي رسول الله ـ ليهجر؟ ثُمّ كَيْفَ يحتمل رجوعه بعد أنْ رآه قد مات؟ وَلِمَاذَا يَصيبه الذّهول وهو يَعلم أنّه لَم يمت كما تدعون؟ وهل تَجْتَمِع المَحبّة الصّادقة، والايذاء في قَلب عُمَرَ بن الخَطّاب لأخص النّاس به؟.

(١) مَن أرَاد التّوسع فليرجع إلىٰ كتاب «المُغْنِي» عبد الجبار، والشّافي للشّريف المُرتضىٰ: ١٢٧/٤، شرح نَهج البَلاَغَة لابْن أَبِي الحَدِيد: ١٢٣/١ الطّبعة القدِيمة. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر، عبقرية الإمَام عليّ: ١٢٥. (مِنْهُ ﷺ).

(أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) بترويضها علىٰ قبُول الحَقّ، وفي رِسَالَة بعثها إلىٰ بَعْض عُمَّاله: «أَعِينُونِي بِوَرَعٍ، وَ ٱجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ، وَسَدَادٍ. فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَىٰ، وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ»[1] (وَ ٱيْمُ اللهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَ لَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ، حَتَّىٰ أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ، وَ إِنْ كَانَ كَارِهاً) وإنْصَاف الْمَظْلُوم، وإِغَاثَة الْمَلْهُوف تَمَاماً كصِيحَة الْحُرِّيَّة يُطلقها مَن يُؤْمِن بِالعَدَالة، ويَنبض قَلبه بشَيء من مَعْنَىٰ ٱلإِنْسَانِية، ولا فَرق بَيْنَ الظَّالِمِ ومن رضي بالظُّلم، وكلاهما وحشٌ كَاسر.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلَاغَة: من كتابٍ له عليه السلام رَقم (٤٥).

الخطبة

-١٣٧-

يَطْلُبُونَ دماً هُمْ سَفَكُوهُ... فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ اللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَ لاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَ إِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ. وَ دَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَ إِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَ إِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. وَ إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي مَا لَبَسْتُ، وَ لاَ لُبِسَ عَلَيَّ. وَ إِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ، وَ الْحُمَّةُ، وَ الشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ، وَ إِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَ قَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَ انْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَ ايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَ لاَ يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ[1]!

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَىٰ أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَ نَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. أَللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي، وَ ظَلَمَانِي، وَ نَكَثَا بَيْعَتِي، وَ أَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ، فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَ لاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَ أَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَ عَمِلَا. وَ لَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَ رَدَّا الْعَافِيَةَ[2].

اللُّغَة:

النِّصِف ـ بكسر النّون ـ النِّصاف، يُقَال: أعط النَّاس النِّصِف من نَفسِكَ أي أنصِفهم مِنْهَا. والطِّلِبَةُ ـ بكسر اللام ـ التَّبعَة. وقِبَلَهُمْ ـ بكسر القَاف ـ عِندهم، قَالَ الإِمَام عن أَصْحَاب الجَمَل في ٱلخُطْبَة: «فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ»[1]. والحَمَا بلا هَمزة: أبو الزَّوْج، والمُرَاد بِهِ هُنا كلّ قَرِيب. وحُمَةُ العَقْرب: سَمّها كَمَا في آبن ٱلحَدِيد[2]. والمُغْدِقَةُ: عَلَيْهَا سِتر وغِطاء. والنِّصَاب: الأصل. والشَّغْب: إثَارة الشَّرّ. وأَفْرط الحَوْض: مَلأه، وحَدِيث: «يا أيّها النّاس إنّي فَرَطُكم عَلَىٰ الحَوْض ـ بفتح الرّاء عَلىٰ الحَوْض أي سَاقِيكم»[3]. والمَاتِحُ: والنَّازِعُ. وصْدُرُ عَنْهُ: رَجَع وٱنصرَف.

ويَعُبُّونَ: ويَشرَبُون. والحَسِي: مَاء يُستخرج بالحَفر، والحَسْوَة: جُرعة مِن شَراب. والعُوذِ ـ بضم العَيْن ـ جَمع عَائِذة، وَهِي كلّ أُنثىٰ قَرِيبَة العَهد بالولاَدَة. والمَطَافِيلِ: جَمع مَطفِل أي ذَات الطّفل. وٱسْتَثَبْتُهُمَا: طَلبتُ إِلَيهما الرُّجُوع إِلىٰ ٱلبَيْعَة، مِن ثَاب أي رَجَع. والوِقَاع: الحَرْب. والغَمَط: الجحُود.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٢٢).

(٢) أُنظر، شَرح النَّهج: ٩/٣٤.

(٣) تَقَدَّم أستخراج ذَلِكَ، وأُنظر، صَحِيح أبن حبّان: ٣/٣٢١ ح ١٠٤٦، صَحِيح أبن خُزَيمَة: ١/٦ ح ٦، موارد الظّمآن: ١/٤٥٩ ح ١٨٥٨، مصباح الزجاجة: ٣/٢٠٧، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٤/١٤ ح ٦٦٠٠، سن أبن ماجه: ٢/١٠١٦ ح ٣٠٥٧، المُصَنَّف لابْن أبي شيبة: ٦/٣٠٥ ح ٣١٦٥٨، مَجْمَع الزّوائد: ٣/٨٥ و: ٩/١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥، الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣/١٠٩ و: ٤/٨٤ ح ٦٩٥٨، الجَامِع لمعمر بن راشد: ١١/٦٠، المُعْجَم الأوسط: ١/٢٢٨ ح ٧٤٩، مُسْنَد أحمد: ١/٢٥٧ ح ٢٣٢٧، مُسْنَد الروياني: ٢/١٣٨ ح ٩٠٣، أبن كثير فِي البداية والنِّهَايَة: ٥/٢٠٩، تَفسِير القُرطُبي: ٤/١٦٨، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٣/٩٥ ح ١٥٢٥، تَفسِير الطبري: ١٤/١٢٨، تَفسِير أبن كثير: ٣/٢٥٢، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/١٣١٧ ح ٣٤٠١ و: ٥/٢٣٦١ ح ٦٠٦٢، مُسْنَد الحميدي: ٢/٣٤٢ ح ٢٧٧٩، صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٧٩٢ ح ٢٢٨٩.

الْإِعْرَاب:

فَمَا الطَّلِبَةُ «مَا» نَافية، وقِبَلَهُمْ ظَرف بِمَعْنَىٰ عِندَ، ولَلْحُكْمُ اللاَّم للإبتدَاء، ودَخَلْت علىٰ خَبَر إنّ بقصد التّوكيد، وأفرِطَنَّ فعل مُضارع، والْبَيْعَة الأُولىٰ مَفْعُول لِفعلٍ مَحذُوف أي نُريد الْبَيْعَة، والثَّانِيَة توكِيد للأُولىٰ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ اللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَ لاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَ إِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ. وَ دَماً هُمْ سَفَكُوهُ). كَان الزُّبَيْر، وطَلْحَة، وعَائِشَةَ وَرَاء مَا حَدث لعُثْمَانَ وعَلَيْهِمْ تَقع التَّبعة فِي دَمه، ومع هَذَا رَموا بِهِ الإِمَام عَلِيّاً إثماً، وبُهتاناً، ولذَا قَالَ: الْحُجَّة عَلَيْهِمْ لا عَليَّ. قَالَ المُستشرق الأَلمَانِي «فَلهوزن»:

«لَمْ يَأل طَلْحَة، والزُّبَيْر جُهداً فِي الكيد لعُثْمَانَ... وبَعد أنْ بَايعا عَلِيّاً خَرجا عَليهِ خرُوج المُنافسِين، وٱتهمَاهُ بِدَم عُثْمَانَ... وٱشتركت عَائِشَةَ ٱشتراكاً قَوياً فِي الثَّوْرَة علىٰ عُثْمَانَ... ثُمّ ٱنسحبت مِنْهَا، وتَستطِيع أنْ تُكيف موقفها بِحسب مَا يَؤول إلَيْهِ أَمر الْفِتْنَة، وكَانَتْ تبغض عَلِيّاً، فلمّا سَمعت ببيعتهِ لَم تَتردد فِي تَقدِيس عُثْمَانَ، ونَادت إِلىٰ الأخذ بالثّأر لهُ من ٱلْخَلِيفَة الجَدِيد، وقَد ٱلتف حولها عَدد من الهُرَّاب»[1].

وَقَالَ الْعَقَّاد: «ثَار طَلْحَة، وأَصْحَابه علىٰ الإِمَام عَليّ ليَطْلبُوه بِدَم عُثْمَانَ، وهُم لم يَدفعوا عنهُ فِي حَيَاة بعضٍ مَا دَفع عنهُ عليّ، وقَد كَان عُثْمَانَ كَثِيراً مَا يَقُول: وَيلي من طَلْحَة أَعطيه كَذا، وكَذا ذَهباً، وهُو يَرُوم دَمِي»[2].. وَقَالَ الْعَقَّاد: «جَمِيع الطَّامِعين

(١) أنظر، تَأريخ الدُّول العَرَبِيَّة: ٥٢ طَبْعَة ١٩٥٨م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، العَبقريات الإسْلاَمِيَة: ٨٩٣. (مِنْهُ ﷺ).

في الْوِلاَيَة، والأَمْوَال، وعَلىٰ رأسهم طَلْحَة، والزُّبَيْر، حَشدوا جمُوعهم بالْبَصْرَةِ.. وخَرجت عَائِشَةَ مع المُطالِبِين بِدَم عُثْمَانَ... وكَانَتْ من قَبل تُشكك النّاس فِيهِ»[1].

وتَقدَّم الكلاَم عن ذَلِكَ مَرَّات[2].

(فَإنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيه، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَ إِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إلاَّ قِبَلَهُمْ). وقَتلوا عُثْمَانَ، أو حَرضُوا، أو رَضُوا، أو سَكتُوا، ثُمّ طَالبُوا عَلِيّاً بِدَمه، فإنْ كَان الإِمَام عَليّ فَعل مثلُ مَا فَعلوا ـ وَفَرض المحال لَيْس بمُحال فَعلاَم يَشهرُون عَلَيْهِ السُّيُوف، وهُم فيهِ شُركَاء؟ وإنْ لم يُشاركهم في شَيء من ذَلِكَ فالحُجّة عَلَيْهِمْ، وهُم ألزم. وتَقَدَّم مثله[3] (وَ إِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ). يَنكثُون ٱلْبَيْعَة والعَهد، ويقُومُون عَلىٰ الظُّلم، ويَسْتَهِينُون بِحَقّ الله، والنّاس، ومَع هَـذَا يُـطالِبُون بالْعَدْل، ويَدّعُون أنّهم دُعاة الأَمْر بـالْمَعْرُوفِ، ولَكِـنَّهُمْ لا يَـنصِفُون النّـاس مِـن أنْفسهِم، ولا يَحكمُون عَلَيْهَا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهُمْ!.

(وَ إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي) الّتي بِها الحَقّ والهِدَايَة، وأَفضح الْبَاطِل، والضَّلالة (مَـا لَبَسْتُ، وَ لاَ لُبِسَ عَلَيَّ) مَا دَلستُ علىٰ أحدٍ، ولا ٱستطاع أحد أنْ يُدلس عَـلِيَّ، وتَقَدَّم مثله[4] (وَ إِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ، وَ الْحُمَّةُ). قَالَ الشَّيخ مُحمّد عَبْدَه: «كَان النَّبِيّ ﷺ قَد أخبر عَلِيّاً أنّه سَتَبغِي عَلَيْهِ فِئَة، فِيها بَـعْض أحمـائه، واحـدىٰ زوّجاته، والحَمَأ كناية عن الزُّبَيْر لأنّه ٱبن عمّة النَّبِيّ»[5].

---

(١) أنظر، العَبقريات الإسْلاَمية: ٨٩٧. (مِنْهُ ﵀).

(٢) أنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (٢٢). (مِنْهُ ﵀).

(٣) أنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (٢٢). (مِنْهُ ﵀).

(٤) أنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (١٠). (مِنْهُ ﵀).

(٥) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٢/٢٠، وشَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لإِبْن أبي ٱلحَديد: ٣٤/٩.

وبِهَذَا الْحَدِيث الَّذي أثبته الشّيخ عَبْدَه يكون أَصْحَاب الْجَمَل من أَهْل الْبَغْي تَمَامَاً كأصحَاب صِفِّين (وَ الشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ). أي تُخفِي الحَقّ، وتستره، والْمُرَاد بالشُّبْهَة هُنا التَّدلِيس، والنِّفَاق بِدَم عُثْمَانَ.

(وَ إِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ) وهو تدلِيس أَصْحَاب الْجَمَل، ونفَاقهم، وفِي كتاب العَبقرِيات الإِسْلاَمِيّة: «كَان طَلْحَة يَقود بَعْض الثَّائرين علىٰ عُثْمَانَ إِلىٰ الدُّور الْمُجَاورة ليهبطوا مِنْهَا إِلىٰ دَار عُثْمَانَ»[1]. وفي شرح ٱبن أبي ٱلْحَدِيد: «كَان طَلْحَة مُتقنّعاً بِثُوب قَد ٱستَتَرَ بِهِ عن أعيُن النّاس، يَرمِي دَار عُثْمَانَ بالسِّهام»[2].

وسواء أَصح هَذَا، أَم لَم يَصح فإِنَّه يُومىء إِلىٰ يَد طَلْحَة الْمُلطخة بدمَاء عُثْمَانَ (وَ قَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ) عن ٱصلِهِ، وتبين أنّ قول ٱصحاب الْجَمَل لا أَصل لهُ، ولا أَساس. وتَقَدَّم مثله[3] (وَ ٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ) خَرِس الْبَاطِل، وكَفّ عن إِثَارة الشَّرّ، والْفِتَن بقتل أَصْحَاب الْجَمَل.

(وَ ٱيْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ) لأَمْلأَنَّ (لَهُمْ حَوْضاً) الْمُرَاد بِهِ الْمَنِيَّة (أَنَا مَاتِحُهُ) نَازع مَائه ومُخرجه، وتَقَدَّم ذَلِكَ بالحرف[4] (لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ) لا يَرْجِعُون إِلىٰ الإِرْتُواء، بل يَمُوتُون عِند الحَوْض (وَ لاٰ يَعُبُّونَ) لا يَشرَبُون (بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ) الْمَاء الزُّلاَل.

(فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَىٰ أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ). أَسرَعتُم إِليَّ تُرِيدُونَنِي للمُبَايعَة ٱسراع النُّوق الّتي ولدات حَدِيثاً، إِلىٰ أَوْلاَدهـا.

---

(١) أُنظر، العَبقريات الإِسْلاَمِيّة: ٨٩٣. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِإبْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٣٥/٩.

(٣) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٢٢). (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١١). (مِنْهُ ﷺ).

وفي خُطْبَةٍ أُخرىٰ: «فَمَا رَاعَنِي إلاَّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُـلِّ جَانِبٍ»[١]. وتَقَدَّم الكَلاَم عن ذٰلِكَ بنحو من التَّفصيل[٢] (قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَ نَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا). مَا كَان لواحدٍ من الْصَّحَابَة، وغَيْرهم هَوىٰ في بَيْعَة الزُّبَيْر، وطَلْحَة بعد مقتل عُثْمَانَ، لأنّهما كما قَالَ الْعَقَّاد، وغَيْره: «كَانَ يشبهان عُثْمَانَ في كَثِير مِمَّا أخذه عَلَيْهِ الُمحتاطُون في الدِّين، وتَمرد لهُ الْفُقَرَاء المَحرُمُون. فَلقد خَاضا فِي الْمَال»[٣] فاتجهت الأنْظار كلّها إلىٰ الإمَام، وفِي طَلِيعتهُم الْمُهَاجِرُون، والأَنْـصَار يَلحُون عَلَيْهِ، وإذَنْ لَم يَكُن لِلإمَامِ أي مُنافس، ومَع هَذَا اَمتنع، وتَردد حَتَّىٰ بَـقِي النَّاس بِلا خَلِيفَة خمسة أَيَّام، وقيل ثَمانية، وأيضاً قيل: إنّ الَّذِين قَتلوا عُثْمَانَ هَددوا الإِمَام بالْقَتْل إنْ أَصرَّ علىٰ الرَّفض. وآشتهر عن «الأَشْتَر» أنّه قَالَ لِلإِمَامِ: «ٱبسط يدك نبايعك، أو لتعصرن عَينيك عَلَيْهَـا ثَالثة»[٤]. يُشير إِلىٰ ما كَانَ يَوْم السَّقِيفَة، وَهِي الأُولىٰ، ومَا كَانَ يَوْم ٱلشُّورَىٰ، وَهِي، الثَّانِيَة.

(أَللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي، وَ ظَلَمَانِي، وَ نَكَثَا بَيْعَتِي، وَ أَلَّبَا النَّاسَ عَـلَيَّ). ضَـمِير التَّثنية في (إِنَّهما، وَأَلَّبَا) الزُّبَيْر، وطَلْحَة النَّاكِثِينَ بَيْعَة الإِمَام البَاغِين عَلَيْهِ بـإعْلاَن الْحَرْب وتَألِّيب النّاس عَلَيْهِ (فَٱحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَ لاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا). دَعـا الله سُبْحَانَهُ أَنْ لا يُحقّق شَيْئاً مِمَّا يُرِيدَانه من الْفِتْنَة، والْغَدْر (وَ أَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَ عَمِلَا) لغير وَجهك الكريم، ومَصلحة اَلْمُسْلِمِين (وَ لَقَدِ ٱسْتَثَبْتُهُمَا قَـبْلَ الْـقِتَالِ)

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٩٢). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، العَبقريات الإسْلاَمِيّة: ٨٩٤. (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة، تحقيق عليّ شيري: ٦٦/١، وبتحقيق الزّيني: ٤٧/١.

طَلبت إِلَيْهما الرُّجُوع إلىٰ الْحَقّ لاَ إلىٰ السَّيْف (وَ اَسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ). صَبرتُ، وآنتظرتُ طويلاً قبل الْحَرْب، وفاوضتُ حَتَّىٰ يَئستُ (فَغَمَطَا النِّعْمَةَ) جَحدَا الْفَضْل، وبَدّلا مَكان الْحَسَنَة السَّيِّئَة (وَ رَدَّا الْعَافِيَةَ) وَهِي اَجْتِمَاع كَلِمَة الْمُسْلِمِين، والتَّعَاون علىٰ صَالح جَمِيع، وأَبيا إلّا الشِّقَاق، والْفَسَاد فِي الأَرْض.

الخطبة

-١٣٨-

الْهَوىٰ وَالْهُدىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

يَعْطِفُ الْهَوىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَىٰ عَلَىٰ الْهَوىٰ، وَ يَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَىٰ الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ الرَّأْيِ.

حَتَّىٰ تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَىٰ سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَ فِي غَدٍ ـ وَ سَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَ تُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَ تُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَ يُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ، وَ السُّنَّةِ[1].

كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَ فَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَ فَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَ ثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَ اللّٰهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَٰلِكَ، حَتَّىٰ تَئُوبَ إِلَىٰ الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَ الْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَ الْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ. وَ اعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ[2].

اللُّغَة:

النَّوَاجِذُ: الأسْنَان الّتي عِند الضّحك، كمَا في مَجْمَع البَحرين للطُّريحِي[1]، ويُومىء إلَيْهِ قول الإمَام «بَادِياً». والأَخْلاَفُ: جَمع الخِلف ـ بكسر الخَاء ـ وهو حَلَمَةُ ضَرْع النَّاقة. الفِلذَة ـ بكسر الفَاء ـ القطعَة من أي شَيء كَان، وقِيل: مِن الكَبِدِ فقط، وقِيل: من الذّهب، والفِضّة، والجَمع أَفْلاَذ، وجَمع الجَمع أَفَالِيذَ. وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ: أَسْرَعَ بِهَا، وقِيل: نحّىٰ النَّاس بها، وكُوفَانَ: الْكُوفَة. والضَّرُوسِ: النَّاقة السَّيِّئَة الخُلق. وفَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ: فَمه. والعَوَازِبُ: الغَائِبَات. والْمُرَاد بأَحْلَامِهَا عقُولها. ويُسَنِّي: يُسَهِّل. لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ ـ بفتح الْعَيْن ـ لِتَمْشُوا فِي أَثرِه.

الإعْرَاب:

بَادِياً حَال مِن الْحَرْب، ونَوَاجِذُهَا فَاعِل «بَادِياً» ومثله ما بَعْدَه، وفِي غَدٍ مُتَعَلِّق بيَأْخُذُ الْوَالِي، وسِلْماً مَفْعُول من أَجله، ويجوز حَالاً بِمَعْنَىٰ مُسْتَسْلِمَةً، وبَعِيدَ الجَوْلَةِ بالرَّفع خَبَر لِمُبْتَدأ مَحذوف أي هُو بَعِيدَ، وبِالنَّصبِ حَال، ومثله عَظِيمَ الصَّوْلَةِ، وَالْعَهْدَ عَطف علىٰ السُّنَنَ، والَّذي صِفَة لِلْعَهْد، وعَلَيْهِ خَبَر مُقَدَّم، وبَاقِي مُبْتَدأ مُؤَخَّر.

الْمَعْنَىٰ:

(يَعْطِفُ الْهَوَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَىٰ عَلَىٰ الْهَوَىٰ، وَ يَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَىٰ

---

(١) أُنظر، مَجْمَع البَحرين للطُّريحِي: ٤/٢٧٠. (مِنْهُ ﷺ).

الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ الرَّأْيِ). والمُرَاد بالْهُدَىٰ هُنا الْعَقْل الَّذي يَستحسن كلّ شَيء يَعُود بالنَّفع علىٰ ٱلْحَيَاة، ويَستَقبح كلّ مَا يَضُرُّ بِها فِي جِهة من الجِهات.

وَقَالَ كَثِيرُون: أَنّ الإِمَام يُشير بقَوْله هَذَا إِلىٰ المَهْدِيّ المُنْتَظَر الّذِي وردت فِيه أَحَادِيث كَثِيرة عن طَرِيق السُّنَّة والشِّيعَة، ولَيْسَ من شكٍّ أَنّ المقصُود بِهَذَا الْوَصْف رَبَانِي عَظِيم، لأنّه لا يَعمل بالرَّأْيِ والقِياس، ولا يَزن الأَشْيَاء بالمكَاسِب، والْمَنَافِع الْخَاصَّة، والمِقْيَاس عِنده فِي كلّ المجَالات هُو الْقُرْآن الكَرِيم، والْعَقْل السَّلِيم الّذِي أشرنا إِلَيْهِ، ولو أنّ النّاس، كلّ النّاس، أَجمعُوا علىٰ أمرٍ لا يَعتمد علىٰ أحدِ هَذِين فهُو عِندَهُ بِدْعَة، وضلاَلَة.

(حَتَّىٰ تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَىٰ سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا). يُخبر الإِمَام بأنّ حَرْباً تَكُون بَعْدَه لا تَدع شَيْئاً إِلّا تَأتي عَليهِ، وكنّىٰ عن قَسوتها بقِيامها عَلَىٰ سَاقٍ، وبالتَّكشِير عن أنْيَابها كالأسد الغَضُوب، والْعَرَبِ يُكنُون عَن الشَّدَائِد بالقِيام عَلَىٰ سَاقٍ وبالكَشِف عنهُ أيضاً قَالَ تَعَالىٰ مُشيراً إِلىٰ هَول الْحِسَاب: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[1] (مَمْلُوءَةً أَخْلاَفُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا).

حِين تُعلن الْحَرْب، يُصفق لِها أَهْل الجهَالة، ويُعلقُون عَلَيْهَا آمَالاً خَادِعة حَتَّىٰ إِذَا وقَعت عَمّ الخرَابُ، والدَّمار للقَرِيب، والبَعِيد، ولا يَنجُو مِن شَرّها غَالب، ولاَ مَغلوب، ولا طَيِّب، وخَبِيث: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً

(١) ٱلْقَلَم: ٤٢.

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] ويَنطَبق هَذَا الْوَصْف عَلَىٰ كلّ حَرْبٍ وقعت، أو تَقع.

الدَّوْلَة ٱلإنْسَانِية:

فِي آثَار أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام روايَات كَثِيرة تَقول: سيَأْتِي زمَان تَعيش فِيهِ البَشرِيَة كلّها فِي شَعب وَاحِد، وتَحتَ رَاية وَاحِدَة، تُدِير شُؤُونَها دَولَة وَاحِدَة تُحقّق الْعَدْل، والأَمْن، والمُسَاوَاة للنَّاس أَجمِعِين، أمّا الرَّغد، والرَّخاء فَلا يَتخصص بِفئَة دُونَ فِئَة، ولا بِفرَد دُونَ فَرد، بل يَعم الجَمِيع علىٰ السّواء، ومن أجل هَذَا يَسود الحُبّ والصَّفاء بَيْنَ النَّاس، ويَختفِي الْحَسَد، والتَّنافس، والأحقَاد. وتُؤكد الرِّوَايَات أنّ هَذِه الْدَّوْلَة، والْوحْدَة لَيْست حُلماً، أو خيَالاً، بل هِي حَقّ لاَ رَيب فِيهِ، وإِلَيْهَا يَنتهِي العَالم بأكمله لا مَحالَة. وقَد بَذل عُلَماء الشَّيعة جهُوداً صَادِقة فِي تَتبّع كلّ خَبرٍ وأثرٍ عن أَهْل ٱلْبَيْت يَتحدث عَن هَذَا الفِرْدَوْس، ودوّنوه فِي كُتبهم[2].

وأشَار الْإِمَام إلىٰ هَذِه الْدَّوْلَة ٱلإنْسَانِية بقَوْله: (أَلاٰ وَ فِي غَدٍ ـ وَ سَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاٰ تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْـمَالِهَا). الْمُـرَاد بـالْوَالِي رَئِيس الْدَّوْلَة ٱلإنْسَانِية، وضَمِير غَيْرها يَعُود إلىٰ الْحَرْب، ولا شَيء غَيْر الْحَرْب إلّا الْأَمْن، والدِّعة. أما ضَمِير أَعْمَالِهَا فَيعُود إلىٰ الْعُمَّال علىٰ مَعْنَىٰ جَمَاعَتِهِمْ، والْمُرَاد

---

(١) ٱلأنفَال: ٢٥.

(٢) أنظر، كِتاب «الشَّجَرَة المُبَاركة» للشّيخ عَليّ اليَزدِي. والمُجلد الثَّاني عشر من «بِحَار الأَنْوَار». والقِسم الثّالث من الجزء الرّابع من «أعيان الشّيعة» للسّيد مُحسن الأَمِين. وذكرتُ طَرفاً من تِلْكَ الرِّوَايَات في كِتاب «عَليّ والقُرآن». وأُعيدَ طَبعه مرَّات. ثُمَّ طُبع مع كِتاب «إمَامَة عليّ والعَقْل» بإسم إمَامَة عَليّ بَيْنَ العَقل والقُرآن. (مِنْهُ رحمه الله).

من هَذَا الكلاَم بجُملتهِ أنّ رَئِيس الدَّوْلَة الإنْسَانِية يُحاسِب الموظفِين فِيها علىٰ كلّ كَبِيرة، وصَغِيرة، ويأخذ المُسِيء بأعْمَالِه، ويُعَاقِبه بمَا يَستحق مِن غَيْر هَوادة، وفي كُتَب السُّنّة، والشِّيعة عن رَسُول الله ﷺ: أنّ القَائِم بالأمْر يَومَذاك يَملأ الأرْض عَدْلاً وقِسْطاً، كمَا مُلِئَتْ جَوْراً، وظُلْماً»[1] (وَ تُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا). كنَاية عَن أنّ الأرْض تَجود فِي عَهْدِه بخيراتها الظَّاهِر مِنْهَا والْبَاطِن، وفي الأخْبَار أنّ سُلطان الحَاكِم يَبلغ المَشرق والمَغرب، ولا يَبْقَ في الأرْض خَراب إلّا ويُعمره، وتَظهر لهُ الكنُوز، وتُلقي الأرْض أفْلاذ أكبَادِهَا. ولمّا سُئل رَاوي هَذَا الخَبَر عن مَعْنَىٰ أفَالِيذَ أكبَادِهَا قَالَ: مَا فِيها من المعَادِن[2].

---

(١) أنظر، الإرْشَاد: ٢ / ٣٤٠. ووردت قطعة مِنْهُ في مُسْنَد أحمد: ١ / ٣٧٦، وتَأريخ بغداد: ٤ / ٣٨٨، وعقد الدُرر: الباب ٢ ح ٤٢، وكنز العُمّال: ٧ / ١٨٨، و: ١٤ / ٢٦٨ ح ٣٨٦٧٥، وذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٣٦، وغَايَة المرام: ٧٤٣ ح ٥٧، و٦٩٩ ح ٧٨، و٧٠٠ ح ٩٩، ومشكاة المَصَابِيح: ٣ / ١٥٠١ ح ٥٤٥٢، وسُنن التِّرمِذي: ٢ / ٣٦ و: ٣ / ٣٤٣ ح ٢٣٣١ و ٢٣٣٢، وسُنَن أبي داود: ٣ / ٣٠٩ ح ٤٢٨٢، ومَوَدَّة القربىٰ: ٣٠، وفرائد السِّمطين للجويني: ٢ / ٣٢٤ ح ٥٧٤، الجَامِع الصَّغِير للسّيوطي: ٢ / ٤٣٨ ح ٧٤٨٩، جواهر العقدين: ٢ / ٢٢٦، ويَنَابِيع المَوَدَّة للقندوزي الحنفي: ٣ / ٢٤٥ و ٢٥٦ و ٢٩٨، ٣٨٥، ٣٩٠، ٣٩١، حلية الأوْلِيَاء لأبي نعيم الاصبهاني: ٥ / ٧٥، مُسْنَد أحمد: ١ / ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٤٣٠ و ٤٤٨، ذَخَائِر العُقْبَىٰ للطَّبري: ١٣٦، كفاية الأثر: ١٠٠ و ١٥٨ و ١٩٥ و ٢١٧، ملاحم ابن طاووس: ١٣٦، مناقب ابن شهر آشوب: ٢ / ٢٧٣، فتن السّليلي: علىٰ ما فِي الملاحم لإبْن طاووس، مشارق البرسي: ١٦٤ ـ ١٦٦، إثبات الهُداة: ١ / ٥٩٨ ح ٥٦٨ و: ٢ / ٤٤٢ ح ١٢٨، غَايَة المرام: ٥٧ ح ٦٢، مَدِينَة المعاجز: ٢ / ٣٦٨، البحار: ٣٦ / ٣١٩ ح ١٧١ و ٢٠٠ و ٢٢١ و ٣٥٤ ح ٢٢٥ و: ٤١ / ٣١٨ ح ٤٢، بشَارة الإسْلاَم: ٥٧. وأُنظر، فَرَائِدُ فَوائِدِ الفِكرْ فِي الإمَام المَهْدِيّ المُنْتَظَر (؏) تأليف الشّيخ مَرْعِيّ بن يُوسُفَ المَقْدِسي الحَنْبَليّ من عُلَمَاء القَرن الحَادِي عَشر الهجري، الطَّبعَة الثَّانِيَة بتحقيقنا.

(٢) بناءً علىٰ ما رُوي «يَخرج المَهْدِيّ فِي أُمّتي يَبعثه الله عَياناً للنّاس، تَنعم الأُمّة، وتَعيش المَاشية، وتَخرج

(وَ تُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا) . الكلّ سَامع لهُ ومُطِيع ، فَلا ثَائِر ، ولا غَاضِب ، وفِي بَعْض الرِّوَايَات عن أَهْل ٱلْبَيْت : «لا يَظْلم فِي هَذِهِ الدَّوْلَة أحدٌ أحداً ، ولا يَخاف شَيء مِن شيء ، ولا يُراق مَحجمة دَم »[1] (فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ) بإحقّاق الْحَقّ ، وإزْهَاق الْبَاطِل ، وفِي روايَة : «إنّ عَهد القَائِم بالْأَمْر تَختفِي فِيهِ الْأَشْرَارِ ، وتَظهر الْأَخْيَار »[2] (وَ يُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ ، وَ السُّنَّةِ) يَحمل النّاس علىٰ هَدي

⇐ ٱلْأَرْض نَباتها ، ويُعطي المَال صِحَاحاً ، أي بالسّوية».

أنظر ، أبو نُعَيم فِي صفة المَهْدِيّ لوحة : ٩٩ ، وعلىٰ ما فِي عقد الدُّرر ، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين : ٤ / ٤٥٤ و٤٦٣ و٤٦٥ و٥٠٢ و٥٠٣ و٥٥٧ ، سلسلة الأَحَادِيث الصَّحِيحة رقم «٧١١» ، مُسْنَد أحمد : ٣٧/٣ و٥٢ ، و: ٥/٥ و٦٠ و٤٨ و٦٩ و٩٨ و٣٣٣ و٣١٧ و ٥٧٧ ، الْقَوْل المختصر : ٥ ح ١٠ و ح ١٥ ، نور الأَبْصَار : ١٨٩ ، الإذاعة : ١٢٥ ، ملاحم آبن طاووس : ٦٩ و ٧٠ ، الفصول المهمة : ٢٩٨ و : ٤٤٤/٢ ، عقد الدُّرر : ١٤٤ و ١٦٩ و ١٧٠ ، بَيان الشّافعي : ٥١٩ ، الطّبراني ، الْكَبِير : علىٰ ما فِي بَيَان الشّافعي ، مُنْتَخَب الأثر : ٤٧٢ ح ٢ ، كشف الغمّة : ٢٦٣/٣ ، البحار : ٥١ / ٨٣ و ٩٧ ، غَايَة المرام : ٧٠٣ ، فرائد السِّمطِين : ٣١٠/٢ ح ٥٦١ بشكل مختصر ، مَجْمَع الزّوائد : ٣١٣/٧ ، يَنَابِيع المَوَدَّة : ٥٦٣ و٥١٧ ، و : ٣ / ٢٨٣ ط أُسوة ، كفاية الطّالب : ٥٠٥ و٤٩٤ . وقَرِيب من هَذَا اللّفظ فِي صَحِيح البُخَارِيّ : ٢ / ٣٦ ، غَايَة المرام : ٦٩٢ ح ٥ ، طَبقَات آبن سعد : ٤ / ٤ ، كنز العُمّال : ٧ / ٢٦٠ و١٨٧ و٢٦١ ، قَصص الأَنْبِيَاء : ٥٥٤ ، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حَجر الهيتمي : ٩٨ و١٠٢ ، كنوز الحقائق : ١٥٢ .

(١) أنظر ، كتاب الْغَيْبَة للنّعماني : ٢٨٤ ، الإِرْشَاد للشّيخ المُفِيد : ١٧/٢ ، بِحَار الأَنْوَار : ٥٢ / ٣٥٨ ح ١٢٣ ، سُنَن التِّرمِذي : ٩٥ ، عقد الدُّرر : ٦٣ ، عرف السّيوطي : ٨١/٢ ، برهان المتقي : ١٤٥ ، مِيزان الإِعْتِدَال : ٤٩٨/٣ ح ٧٣٠٢ ، تهذيب التهذيب : ٧٨/٩ ح ١١٦ .

(٢) بناءً علىٰ الرّواية أَخْرَجَه الحَاكِم فِي مُستدركه ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيث صَحِيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأَخْرَجَ نَعْيم عن كَعْب قَالَ : قَالَ قتادة : «المَهْدِيّ خير النَّاس ، أَهْل نُصرته ، وبَيْعَته من أَهْل كوفان ، والْيَمن ، وأبدال الشَّام ، مقدمته جِبْرِيلَ ، وساقته مِيكَائِيل ، محبوب فِي الخلائق ، يطفيء الله به الْفِتْنَة العَمْيَاء ، وتأمن ٱلأَرْض ، حَتَّىٰ إنّ المَرْأة لتحج فِي خمس نسْوة مامعهن رَجُل ، لاتتقي شَيْئاً إلا الله ، تعطي ٱلأَرْض زكاتها ، والسَّمَاء بركتها» .

أنظر ، الْفِتَن لنعيم بن حمّاد ، لوحة : ٩٨ و : ٣٥٦/١ ح ١٠٣٠ ، عقد الدُّرر : ١٥١ .

الْقُرْآن، وسُنّة الرّسُول، وكَانوا مِن قَبل يَفترُون، ويَعتدُون.

(كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَ فَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ[1]). لا نَدري مَن هُو المقصود بِهَٰذَا.. ولكن ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، وغَيْره قَالُوا: هُو عبدالملك بن مَرْوَان. وليس هَذَا ببعِيد، لأنّ الإِمَامِ ﷺ أخبر أَهْل الْعِرَاق أنّ رَجُلاً سَيظهر في الشّام، ويَغزو بلادهم، ويَصل براياته إِلىٰ الْكُوفَة، وضواحِيها، وقد ظَهر عبد المَلك بالشَّام، وغَزا الْعِرَاق بجَيْشَه، وقَتل مُصْعَب بن الزُّبَيْر في ضواحِي الْكُوفَة، وأيضاً قتل عبدٱلرَّحْمَان بن الأَشْعَث، وكَثِيراً من ٱلْمُسْلِمِين[2] (فَعَطَفَ عَلَيْهَا) أي مَال علىٰ الْكُوفَة بعد أنْ فَعل فِي ضواحِيها (عَطْفَ الضَّرُوسِ) كناية عن ظُلم عبدالمَلك، وجَوْرَه (وَ فَرَشَ الْأَرْضَ) غَطّاها (بِالرُّءُوسِ قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ) ٱنفتح فُوه للنّهش والاِفتراس (وَ ثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ) أي تَمكن فِيها أَمرَه، وٱشتد جَوْرَه (بَعِيدَ الْجَوْلَةِ) بخَيْلَه، ورِجله (عَظِيمَ الصَّوْلَةِ) فِي حَرْبِهِ، وقتالِه.

(وَ ٱللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ مِنْكُمْ اِلاَّ قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي

---

(١) المقصود مِنْهَا مَدِينَة الْكُوفَة فِي الْعِرَاق علىٰ ساعد الفُرات غَرباً ٣٠/٠٠٠ ن. مركز قضاء الْكُوفَة... ٱسسها سَعد بن أَبِي وَقَّاص بعد مَعركة القَادسِية قُرب ٱلْحِيْرَة سَنَة «٦٣٨م». ٱتخذها الإِمَام عَليّ بن أَبِي طالبﷺ مقراً له سَنَة «٦٥٧م» وفيها ٱسْتُشْهِدَ رضوان الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِ سَنَة «٦٦١ م» جعلها العَبَاسِيُون عاصمة لهم سَنَة «٧٤٩ م»، وتقلص ظلها بعد تأسيس بغداد. بالقرب مِنْهَا النّجف، ومشهد الإِمَام عَليّ ٱبن أَبِي طالب ﷺ. أنجبت عُلَمَاء، ومُحدثين، ونحويين. كَانَتْ مع الْبَصْرَة مركزاً للثقافة الإِسْلاَمِيّة، والعَرَبِيّة. أنظر، المُنجد فِي اللُّغَة والأعلام: ٥٩٩.

(٢) أنظر، شرح نهج البَلاَغَة: ٤٦/٩ و: وقيل: عنىٰ زياداً، وقيل: عنىٰ الْمُغِيْرَة بْنَ شُعْبَة، وقيل: عنىٰ الحَجاج، كما جاء في الشّرح أيضاً في: ٥٤/٤ و ٩٨ و: ١٤٨/٧، وقيل: عنىٰ مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَان، كما في شرح مئة كلمة لِابْن مِيثَم البحراني: ٢٤٥، وبحَار الأَنْوَار: ٣٥٦/٤١.

الْعَيْنِ). يَقتل، ويَأسر، ويَسجن، ويَشرد، ولا يَسلم من جَوْرَه إلّا القِلة تَمَاماً كذّرات الكُحل فِي العَيْنِ (فَلاَ تَزَالُونَ كَذَلِكَ) مُنكوبِين، مُشرديِن (حَتَّىٰ تَئُوبَ إِلَىٰ الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا). لاَ وَسِيلة لتحريركُم أَيّها الْعَرَب من الظُّلم، والتَّنكِيل إلّا أنْ تَرجِعُوا إِلىٰ رُشدكُم، وعقولكُم، وتَجمعوا كَلمتكُم، وتَعملوا كَرَجُلٍ واحد، وبكلّ الوَسَائِل للإطَاحة بِحَاكم الجَوْر، وأعوانه، وتُقيموا دَولة تَرتضُونها لأنفسكُم (فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ) وَهِي سُنَّة النَّبِيّ ﷺ، وشَرِيعة الْقُرْآن (وَ الْآثَارَ الْبَيِّنَةَ) الّتِي مَضىٰ عَلَيْهَا الصَّالحُون من الْصَّحَابَة، والّذِين اتبعُوهم بإحْسَان.

(وَ الْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ) أي والزموا هَذَا الْعَهْدَ البَاقِي من النُّبُوَّةِ، وبقية النُّبُوَّةِ هو الإِمَام عَليّ، فقد روىٰ البُخَاريّ: «أنّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: يَا عَليّ أَنْتَ مِني، وأنَا مِنك»[1]. أي أنّ وجود عَليّ امتداد لوجُود النَّبِيّ ﷺ. وأيضاً روىٰ البُخَاريّ: «أنّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِعَليّ: «أمَا ترضىٰ أنْ تَكون مِني بِمَنْزِلَةِ هارُون من مُوسَىٰ»[2]، وهارُون وَزير أخيهِ مُوسَىٰ، وشرِيكه فِي أمْرِه بشهادة الآيَة: ﴿وَاجْعَل

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٥ مناقب عليّ بن أبي طالب. (مِنْهُ ﷺ). و: ٢/ ٩٦٠ ح ٢٥٥٢، و: ٣/ ١٣٥٧ ح ٣٤٩٧ و: ٤/ ١٥٥١ ح ٤٠٠٥ طَبْعَة أُخرىٰ. تَفسِير القُرطُبي: ١٥/ ٢١٥، صَحِيح ابن حبّان: ١١/ ٢٢٩ ح ٤٨٧٣، المُستَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ٣/ ١٣٠ ح ٤٦١٤، الأَحَادِيث المُختَارة: ٢/ ٣٩٢ ح ٧٧٨، مَجْمَع الزوائد: ٩/ ٢٥٨، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرىٰ: ٨/ ٥ و ٦ و: ١٠/ ٢٢٦، مُسْنَد البزار: ٢/ ٣١٦ ح ٧٤٤، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٥٥ ح ٩٣١، شعب الأِيمَان: ٤/ ٢٨٤، كشف الخَفَاء: ١/ ٢٣٧ ح ٦١٩، تَفسِير ابن كثير: ٣/ ٤٦٨، صحى الترمذي: ٥/ ٦٣٥ ح ٣٧١٦.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٥ مناقب عليّ بن أبي طالب. (مِنْهُ ﷺ). و: ٢/ ٢٠٠ و ٣٢٤، وروىٰ بسنده، و: ٤/ ٢٠٨، و: ١٤/ ٢٤٥/ ٣٤٧٠، و: ١٦/ ٢١٧/ ٤١١٥ بشرح الكرماني. الصَّوَاعِق المُحرِقَة لابن حجر: ٢٩، صَحِيح مُسْلِم فِي فَضَائِل عليّ: ٣٢٤، المُستَدرَك لِلحَاكِم النَيسابوري: ٣/ ١٠٩، مُسْنَد ابن
⇔

لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَـٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِيوَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[1]. (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي) يُسهل (لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ) أي لتَسِيرُوا عَلىٰ أثـره، وتَتَبَّعُوا خُطواته : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَاتَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

⟸ ماجه : ١ / ٢٨، مُسْنَد الإمَام أحمد : ١ / ١٧٥ و١٧٧ و١٧٩ و١٨٢ و٣٣١ و٣٦٩، كنز العُمَّال : ٦ / ١٥٢ ح ٢٥٠٤، وتَلخيص الحافظ الذّهبي علىٰ المُسْتَدرَك : ٣ / ١٣٣، وخصائص النّسائي : ١٧، والإِصَابَة لابن حجر : ٤ / ٥٦٨، ويَنَابيع المَوَدَّة للقندوزي : ٢ / ٥٨، وقد تَقَدَّم أستخراج حَديث المَنْزِلَة فِي الجُزء الأَوَّل.

(١) طه : ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) ٱلنُّور : ٢١.

الخطبة

-١٣٩-

الشُّورَىٰ:

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ، وَ صِلَةِ رَحِمٍ، وَ عَائِدَةِ كَرَمٍ. فَٱسْمَعُوا قَوْلِي، وَ عُوا مَنْطِقِي، عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ السُّيُوفُ، وَ تُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَ شِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ.

اللُّغَة:

العَائِدَةِ: الفَضِيلَة، أو الْمَعْرُوف. وتُنْتَضَىٰ: تُسل.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَرَوْا ٱسم عَسَىٰ، وهُو مُغنٍ عن الْخَبَر، لأَنّ الكلاَم تَام ومُفيد بدُونه.

الْمَعْنَىٰ:

ٱختار عُمَرَ بن الخَطَّاب سِتة من الصَّحَابَة: لِينتخبُوا واحداً مِنْهُم لخِلاَفَة

ٱلْمُسْلِمِينَ من بَعْدَه، وتَكلَّم النّاس كَثِيراً حَول هَذَا الاِختِيار، وقَد عُرف بٱسم ٱلشُّورَىٰ، وأَلّف البَعض فيهِ كتاباً بِهَذَا الاِسم. وتَقَدَّم الكلاَم عَن ذَلِكَ[1]. ولا يُخالجنا شكّ فِي أنّ الدَّافع علىٰ هَذِهِ ٱلشُّورَىٰ مَع الشَّرط الَّذي ذكره عُمَرَ هُو سياسِي مَحض[2]، أَضفىٰ عَلَيْهِ عُمَرَ الصِّبغة الدِّينية بقَوْله: «إنّ رسول الله ﷺ قُبض وهو رَاضٍ عن هَؤُلاَء»[3] كما أنّ ٱختيار ٱبن عوف لعُثْمَانَ كَان بدَافع الصِّهر، والْقَرَابَة، وقد أشار الْإِمَام إِلىٰ ذَلِكَ بقَوْله: «وَمَالَ ٱلآخَرُ لِصِهْرِهِ»[4] وإلّا فبأي شَيء تُفسر قول عُمَرَ: «إنْ ٱختلفوا فكونُوا في الجَانب الَّذي فِيهِ عبدٱلرَّحْمَان بن عوف». وَلِمَاذَا

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٣) المَعْرُوفَة بالشِّقشِقِيَّة.

(٢) الشَّرط: إِذَا ٱجتمع رأي أَرْبَعَة فليتبع الاثنان الأربعَة، فإذَا ٱجتمع رأي ثَلاثَة وثلاثة فٱتبعوا رأي عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف فٱسمعوا وأطيعوا وإنْ صَفق عبد ٱلرَّحْمَان بإحدىٰ يَدِيه علىٰ الأُخرىٰ فٱتبعوه». أُنظر، العقد الفريد: ٧٤/٣. أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٥/٥، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/ق١: ٢٤٣، شرح النّهج: ١٨٥/١.

وروىٰ المُتقي في الكنز: «إنّ عُمَرَ قَالَ: إنْ ضَرب عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف إحدىٰ يَدِيه علىٰ الأُخرىٰ فبايعوه». وروىٰ أيضاً أنّه قَالَ: «بايعوا لمن بَايَعَ عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف، فمن أبىٰ فاضربوا عنقه». أُنظر، كنز الْعُمَّال: ١٦٠/٣.

وروىٰ عن هشام بن سعد أنّ عُمَرَ قَالَ: «إنْ ٱجتمع رأي ثلاثة وثلاثة فٱتبعوا صنف عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف وٱسمعوا وأطيعوا».

أُنظر، أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٨/٥.

(٣) أُنظر، أنسَاب الأَشْرَاف: ١٥/٥، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/ق١: ٢٤٣، شرح النّهج: ١٥٨/١ و: ١٧٠/٣، شرح النهج لمحمد عَبْدَه: ٣٤/١، الإِحْتِجَاج للطبرسي: ٢٦٨/١، تَفسِير القُرطُبي: ٢٢٨/١٤، فيض القدير: ٢٩٠/٤، تفسِير ٱبن كثير: ٥٠٦/٣، تفسِير البغوي: ٢٢٥/٥، تفسِير الخازن: ٢٢٥/٥، تفسِير الآلوسي: ٧٤/٢٢، تأريخ اليعقوبي: ٢٢٧/٤، الكَامِل في التَّأريخ: ٦٥/٣، مناقب أَهْل ٱلبَيْت لحيدر الشّيرواني: ٣٤٨.

(٤) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٣) المَعْرُوفَة بالشِّقشِقِيَّة.

هَذِه الدّكتاتُورِية لِابْن عوف؟ وهل من تَفْسِير لهَا إلّا إبعاد علِيّ عَن ٱلخِلاَفَة، وتَيسِيرِها إِلىٰ عُثْمَانَ عَن طريق مُصاهرته لِابْن عوف؟ وهل ٱبن عوف أفضل من عليّ؟[1].

---

(١) أنظر فَصل: عَليّ وقُرَيْش، ومن كتابنا: الشّيعة والحَاكِمُون. (مِنْهُ ﷺ).

ألا يظهر من هَذَا كلّه أنّ الرّجل ـ أي عُمَرَ بن الخَطَّاب ـ قَد جعل أمر التّرشيح بيد رَجُل واحد وهو عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف، وعبد ٱلرَّحْمَان هَذَا يَعْرِف بأنّ الإِمَام عليّﷺ يَرفض الالتزام بسيرة الشّيخين، ولذا أشترط الإلتزام حتىٰ يَبعد عَنْهَا عَليّاً وذَلِكَ لما بَيْنَهما من الإِخْتِلاَف من حيثُ السِّيرَة حتىٰ في الإستخلاف، ولِمَا بَيْنَ سيرتهما وبَيْنَ سيرة الرّسُولﷺ، طلب عبد ٱلرَّحْمَان في حَقِيقَته تعجيزي لا يُمكن أنْ يَقبل به إلّا اللّعوب الَّذي لا يَرعىٰ عَهداً ولا يلتزم بتعهد، وذَلِكَ مُستحيل علىٰ مثل عليّﷺ. لذا قبلها عُثْمَانَ ولم يلتزم بها أَبَداً وهو يعلم أنّه لَن يَلتزم، وكَيْفَ يَلتزم بثلاثة أنماط من السِّيرَة مُتباينة، مُختلفة، وليس فيها جَامع.

ما هِي المِيزة، والخصيصة، والمنقبة الّتي تَميز بها عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف حتىٰ يُجعل هو الحَكم بَيْنَ طَرفي الإِخْتِلاَف إذَا وقع حتىٰ وإنْ صفق بإحدىٰ يَدِيه علىٰ الأُخرىٰ كما ذكرنا سابقاً من المصادر التَّأريخِية.

الكَوْن عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف زوج أُمّ كُلثُوم بنت عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، وأُمّها أروىٰ بنت كريز، وأروىٰ أُمّ عُثْمَانَ فلذلك هو صهره كمايَقُولُون؟

أنظر، أنسَاب الأَشرَاف: ٥/١٩.

أم لكونه من أنصار، وحزب أبي بَكْر في يَوْم السَّقِيفَة مع عُمَرَ، وأبي عُبَيْدَة، والمُغِيرَة بْن شُعْبَة، وسالم مَوْلىٰ حُذَيْفَة.؟

أنظر، الاِسْتِيعَاب: ٢/٣٨٥، الإِصَابَة: ٢/٤٠٨، أُسد الغَابَة: ٣/٣١٣.

أم لكونه قَالَ يَوْم السَّقِيفَة: «يامَعْشَرَ الأَنْصَار إنّكم وإنْ كنتم علىٰ فضل فليس فيكم مثل أبي بَكْر وعُمَرَ..»

أنظر، تأريخ اليعقوبيّ: ٢/١٠٣.

أم لكونه من الرّجال الّذين دخلوا بَيْت فَاطِمَة بنت رسول اللهﷺ مع عُمَرَ بن الخَطَّاب، وخالد، وثابت بن قَيْس، وزياد بن لبيد، ومحمّد بن مَسْلَمَة، وزيد بن ثابت، وسلمة بن سالم، وسلمة بن أسلم، وأُسيد بن حضير؟

وَقَالَ الأُستاذ أَحمد عبّاس صَالح: «لَيس هُناك شَكّ في أنّ كلاً من أَعضاء مجلس ٱلشُّورَىٰ كَان يَعتقد أنّه أَقل جَدارة بالمَنصب مِن عَليّ، ولكن مَنطق الحَوادث، ومَركز عليّ في الإِسْلاَم، ومِيل غَالبية ٱلْمُسْلِمِين إِلَيْهِ، كلّ هَذَا قَد يجعلهُم يَترددُون كَثِيراً، أو قَلِيلاً فِي التَّفكِير فِي مُنافسة عَليّ بن أَبي طَالب في قِيادة ٱلْمُسْلِمِين»[1].

(لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ، وَ صِلَةِ رَحِمٍ، وَ عَائِدَةِ كَرَمٍ). قَالَ الإِمَام هَذَا ومَا بَعْدَه لأَهْلِ ٱلشُّورَىٰ، يُذكرهم فيهِ بمصلَحَة الأُمَّة، ويُحذرهُم من ٱتباع الْهَوَىٰ، والنّتائج المُترتبة عَلَيْهِ، ويُلوّح لهُم بأنّه أحقّ النّاس بِالخِلاَفَةِ لِسبقه إِلىٰ الإِسْلاَم، وجِهاده في سَبيله، بالاِضافة إِلىٰ سَائر فضَائله، ومِنهَا الكَرَم وصِلَة الرَّحِم[2].

أنظر، تَأريخ الطَّبريّ: ٤٤٣/٢، شرح النّهج لِابن أبي ٱلحَدِيد: ١٣٠/٢، الإِسْتِيعَاب: ٨٣/٢، الإِصَابَة: ٦١/٢، هَذِهِ المصادر علىٰ سَبِيل المثال لا الحصر.

أم أنّ عُمَرَ عَلِم بأنّ عبد ٱلرَّحْمَان لا يختلف مع خَتنه عُثْمَان، وأبن عمّه سعد كما صرح به أَمِيرالْمُؤْمِنِينَ عليّ وَقَالَ له: حَبوته حَبو دهرٍ لَيس هَذَا أَوَّل يَوْم تَظاهرتُم فِيهِ علينا فصبرٌ جميل، والله المُستعان علىٰ ماتصفون...؟

أم لكونه صاحب ثروة قدروها بألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس كما ترك ذهباً قُطع بالفؤوس حتىٰ مُجلت أَيْدِي الرّجال مِنْهُ؟.

أنظر، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ١٣٦/٣.

ثُمّ لِمَاذَا أدخل ـ جعل الحكم ـ عبد الله بن عُمَرَ أيضاً كما في بَعْض الأَخْبَار وهو القائل كما روي في تَأريخ الْمَدِينَة عن إبْرَاهِيم قَالَ: قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب «يأمروني أنْ أُبايع لرجل لم يُحسن أنْ يُطلق ٱمْرَأَته»؟

أنظر، تَأريخ الْمَدِينَة: ٩٢٣/٣ و٣٤٣، تَأرِيخ السّيوطيّ: ١٣٥.

(١) أنظر، مجلة «الكَاتب» المِصْرية عَدد شُباط سَنَة ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) نقل الواحدي في تَفْسِيره يرفعه بسنده إِلىٰ ٱبن عباس قَالَ: كَانَ مع عليّ بن أبي طالب ﷺ أَرْبَعَة

⇐ دراهم لا يملك غيْرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم عَلاَنِيَة، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ٱلْبَقَرَة: ٢٧٤.

وأخرج المحدّثون، والمفسّرون، وأصحاب الكُتب في أَسْبَاب النّزول بأسانيدهم إلىٰ ٱبن عباس هـٰذا الحديث ولكن بأَلفَاظ فيها تقديم، وتأخير ولَكِنَّهُ تُؤدّي نفس المَعْنَىٰ، وهو الّذي عبّر عَنْه البعض بالإنفاق في السرّ عَنْه، ولذا نزلت فِيهِ الآيَة المباركة، كما أوردها الواحدي في أَسْبَاب النّزول: ٥٠ ط الحلبي ٦٤ ط الهندية بِمِصْر. عِلماً بأنّ بَعْض المصادر ذكرت «الإنفاق» بدل «التّصدق» و«الدّرهم» بدل «الدّينار» والبعض الآخر ذكرت الحديث بإضافة قول الرّسُول ﷺ لعلي عليه السلام «ما حملك علىٰ هَذَا؟ قَالَ: حملني عَلَيْهَا رجاء أنْ أستوجب علىٰ الله الّذي وعدني، فَقَالَ رسول الله: ألا إنّ ذَلِكَ لك. فأنزل الله الآيَة في ذَلِكَ». ولَسْنَا بصدد بَيَان فضيلة الإنفاق في السرّ وإحصاء الأَحَادِيث بكلّ أَلفَاظِهَا، فمن شاء فعليه مراجعة المصادر التالية:

الكشّاف للزمخشري: ٣١٩/١، و: ٣٩٨/٢ ط بيروت، و: ١٦٤/١ ط مِصْر، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ٨٨، تذكرة الخواصّ: ١٤، نور الأَبْصَار: ٧١ ط العُثْمَانية والسعيدية، كشف اليَقِين: ٩٢، بحار الأَنْوَار: ٦٣/٣٦، و: ٢٥/٤١، دَلاَئِل الصّدْق: ١٩٩/٢، كشف المُرَاد: ٤١١، الخصائص: ١٩٦، شواهد التنزيل: ١٤٠/١ ح ١٥٥ ـ ١٥٨ وفي الأخير لفظ: كَانَتْ له أَرْبَعَة دنانير فتصدّق بدينار... لكن في لفظ أَبِي بَكْر: كَانَ عنده أَرْبَعَة دراهم فأنفق بٱللَّيْل واحداً... وح ١٥٩ فِيهِ لفظ أَرْبَعَة دنانير ـ أو أَرْبَعَة دراهم ـ وح ١٦٠ و١٦١ وَفِيهِمَا: قَالَ رسول الله ﷺ: إنّ الدرهم الواحد المقلّ أفضل من مئة ألف درهم من الموسر عندالله عزّ وجلّ. وفي ح١٦٢ و١٦٣:... تصدّق بَعْضهَا نهاراً وبَعْضهَا ليلاً.... المناقب لِٱبْن المغازلي: ٢٨٠ ح ٣٢٥، كفاية الطالب: ٢٣٢ ط الحيدرية و١٠٨ ط الغري.

تَفْسِير الرّازي: ٨٩/٧ ط البهية بِمِصْر، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٤٧/٣، تَفْسِير ٱبن كثير: ٣٢٦/١، شرح النهج لِٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢١/١، و: ٢٧٦/١٣، مَجْمَع الزوائد: ٣٢٤/٦، الدُّر المنثور: ٣٦٣/١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٢ و٢١٢ ط اسلامبول و١٠٦ و٢٥٠ ط الحيدريّة، و: ١٧٦/٢ و٤١٩ ط أُسوة، و: ٢٧٤/١ ط أُسوه أيضاً، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٣١ ب ٩ الفصل ٤، فرائد السّمطين: ٣٥٦/١ ح ٢٨٢، المناقب للخوارزمي: ٢٨١ ح ٢٧٥، مَجْمَع الفوائد: ٨٠/٢، المُعْجَم الكَبِير: ٨٠/١١ ح ١١١٦٤، تأريخ دمشق: ⇐

(عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ السُّيُوفُ ، وَ تُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلاَلَةِ ، وَ شِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ) أَنْتُمْ الآن علىٰ مفترق طَرِيقين : طَرِيق الإِخْلاَص ، والنُّصح لِلإِسْلاَم ، وٱلْمُسْلِمِين ، وطَرِيق الغُش ، والخِيانة لهُ ، ولهُم ، فإِذَا صَرفتم الحَقّ عن أَهْله ، وَقَالَ أَحدكُم لِصِهْرِهِ ، وآخر لِحقده ، وثَالث لِطمعَه ـ طَمح إِلىٰ ٱلْخِلاَفَة غَيْر أَهْلها ، وقَامت الحُرُوب بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين ، وٱفترقت أُمّة مُحَمّدﷺ إِلىٰ مَذاهب ، وشِيع ، وتَصدىٰ بَعْضُكُمْ لِلْإِمَامَة ، وتَبعه الأَجْلاَف ، والسَّفلة ، وتَحدث فِتنة يَبْقَىٰ أَثرها مَدىٰ الدَّهْر .

وجاء في العقد الفريد : «إِنّ مُعَاوِيَة قَالَ : لَمْ يُشتت أمر ٱلْمُسْلِمِين ، ولا فَرق أَهْوَاءهم ، ولا خَالف بَيْنَهمْ إِلاّ ٱلشُّورَىٰ الّتي جَعلها عُمَرَ إِلىٰ سِتة نَفر .. فَلَمْ يَكُن رَجُل منهُم إِلاّ رجَاها لنَفْسِه ، ورجَاها لهُ قَوْمه ، وتَطلعت إِلىٰ ذَلِكَ نَفْسه»[(١)].

وفي شرح النَّهج : «أَنّ أَهْل ٱلشُّورَىٰ بَايعوا عُثْمَانَ إِلاّ عَلِيّاً فإِنّه لَم يُبايع .. وبَقِي في دَاره ، وعِنده نَفر من أَهْل بَيْتِه ، ولَيس يَدخل إِلَيْه أَحد مخَافة عُثْمَانَ .. ثُمّ ذَهب إِلَيْه جمَاعَة ، وقَالُوا له : قُم فبَايع عُثْمَانَ . قَالَ لهُم : فإِنْ لَم أَفعل ؟ قَالُوا : نُجاهدك . فمَشىٰ إِلىٰ عُثْمَانَ حَتّىٰ بَايعة ، وهو يَقُول : صَدق الله ورسول»[(٢)] . يُشير إِلىٰ أَنّ النَّبِيّﷺ كَان قَد

⇐ ٢ / ٤١٣ ح ٩١١ و٩١٢ ، أُسد الغَابَة : ٤ / ٢٥ ، مَعَالِم التـنزيل للـبغوي بهـامش تـفسير الخـازن : ١ / ٢٤٩ ، إِحقاق الحق : ٣ / ٢٤٦ ، الرياض النضرة : ٢ / ٢٠٦ ، تَفسِير القُرطُبي : ٣ / ٣٤٧ ، فتح القدير : ١ / ٢٩٤ ط ٢ و ٢٦٥ ط ١ بمِصْر ، نظم درر السّمطين : ٩٠ ، تَفسِير نور الثقلين : ١ / ٢٩٠ ، كشف الغمّة : ١ / ٢٣٥ ، المناقب لِابْن شهرآشوب : ٢ / ٧١ ، سمط النجوم : ٢ / ٤٧٣ ، نور المشعل : ٤٠ ، تَفسِير فرات : ٦ ح ١٨ و : ٨ ح ٢٤ و٢٧ ، أمالي الطوسي : ١ / ٤٥٩ ، زين الفتىٰ للعاصمي : ٥٨ .

(١) أُنظر ، العقد الفريد : ٥ / ٣١ طَبعة سَنَة ١٩٥٣ م . (مِنْهُ ﷺ) . و : ٢ / ٢٠٣ طَبْعَة مِصْر .

(٢) أُنظر ، شَرح النَّهج لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد : ٢ / ٣٩٠ ، وما بَعْدَها الطَّبعة القَدِيمة . (مِنْهُ ﷺ) .

أَخبره عَن مُواقفه هَذَا، وأَمَرَه بأَنْ لا يُحرك سَاكِناً[١].

↔ وقَد عَالجنا عَدم بَيعته عليه السلام في كتابنا الْبَيْعَة ووِلاَيَة العَهد والشُّورىٰ وآثارها في تَنصِيب ٱلْخَلِيفَة دِرَاسَة عِلمِية تَحلِيلية لرّد الشُّبهات، وكَذٰلِكَ في تحقيقنا لكتاب فَرَائِدُ فَوائِدِ الفِكَرْ فِي الإِمَام المَهْدِيّ المُـنتَظَرْ عليه السلام تأليف الشّيخ مَرْعِيّ بن يُوسُفَ المَقْدِسي الْحَنْبَلِيّ.

(١) قَالَ عُمَرَ لأَبِي بَكْرٍ: أَلا تَرسل إِلىٰ هَذَا الرّجل المُتخلف فيجيء فيُبَايع؟ قَالَ أبوبَكْرٍ: يا قنفذ! اَذهب إِلىٰ عَلِيّ وقل له: يَقُول لك خَلِيْفَة رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله تَعال بَايع! فَرفع عَلِيّ عليه السلام صَوْته وَقَالَ: سُبْحَان الله ما أَسرع ماكَذبتم علىٰ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله! قَالَ: فرجع فأَخبره، ثُمّ قَالَ عُمَرَ: أَلا تَبعث إِلىٰ هَذَا الرّجل...؟ فَقَالَ لقنفذ: أذهب إِلىٰ عَليّ فقل له: يَقُول لك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: تَعَال بَايع! فذهب قنفذ. فَقَالَ: مَاجاء بِك؟ قَالَ: يَقُول لك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: تعال فبَايع! فَرفع عَلِيّ عليه السلام، صَوْته وَقَالَ: سُبْحَان الله! لقد أدعىٰ ما ليس له. فَجاء: فأخبره، فَقام عُمَرَ: فَقَالَ: اَنطلقوا إِلىٰ هَذَا الرَّجُل حَتَّىٰ نَجيء إِلَيْهِ. فَمَضَىٰ إِلَيْهِ جَمَاعَة. فـضربوا البَـاب فـلمّا سَمع عَلِيّ عليه السلام، أَصْوَاتهم لَم يَتَكَلَّم...فقالت فَاطِمَة عليها السلام: «يارَسُول الله ما لقينا من أَبِي بَكْرٍ، وعُمَرَ بَعدك»؟ فلمّا سَمِعوا صَوْتهَا، بَكىٰ كَثير مِمَّنْ كَان معه، ثُمّ اَنصرفوا، ووثبت عُمَرَ فِي نَاسٍ معه، فأخرجوه، واَنطلقوا بِهِ إِلىٰ أَبِي بَكْرٍ... فَقَالَ أبو بَكْرٍ: بَايع، قَالَ: فإِنْ لَم أفعل؟ قَالَ: إِذَنْ والله الّذي لا إِلٰه إِلّا هو تُضرب عُنقك! قَالَ عَلِيّ عليه السلام: فأنا عبدالله وأخو رَسُوله، قَالَ أبوبَكْرٍ: بَايع، قَالَ: فإنْ لم أفعل، قَالَ: إِذَنْ والله الّذي لا إِله إِلّا هو تُضرب عُنقك. فالتفت عَلِيّ إِلىٰ القبر وَقَالَ: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَاتُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَاتَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. ٱلأَعْرَاف: ١٥٠.

أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٣٠ـ ٣١، منشورات الرّضِي.

فَقَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: أَمّا عبد الله فنَعم، وأَمّا أخو رَسُول الله فلا! وأبو بَكْرٍ ساكت، فَقَالَ له عُمَرَ: أَلا تَأمر فِيهِ بأمرك؟... أُنظر، شرح النّهج: ٢/٥٦ و٦٠ و٦: ١١، الْفُتُوح لِابْـن أَعْـثَمْ: ١/١٣، تَأرِيخ اليعقوبِيّ: ٢/١٢٦، أعلام ٱلنِّسَاء: ٤/١١٤، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٣٠. فَرجع يَوْمَئِذٍ ولم يُبَايع، المغازي للواقديّ: ٣/٨٨٠، تَأرِيخ بغداد: ٦/٣٨٧، تَأرِيخ أبن عساكر: ١/١٣٣، المسترشد فِي الإِمَامَة للطبريّ الإِمَامِيّ: ٣٨٠ تحقيق أحمد المحموديّ.

الخطبة
-١٤٠-

يَعِيْبُ مَا فِيهِ مِثْلَهُ.. فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ إِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ، وَ الْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاٰمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ، وَ الْمَعْصِيَةِ، وَ يَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَ الْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَ عَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ[1]. وَ اَيْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَ عَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!

يَا عَبْدَ اللهِ، لاٰ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَ لاٰ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَ لْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ[2].

اللُّغَة:

الْمَصْنُوع: مِن الصَّنِيعَة، وَهِي الإِحْسَان، يُقَال: هَذَا صَنِيعِي، أو صَنِيعَتِي أي أنَا رَبَّيتَهُ، وخرَّجتَهُ.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ يَرْحَمُوا فَاعِل يَنْبَغِي، وهو الغَالب «هُو» ضَمير الفصل، ولا مَحل لَهُ من الإِعْرَاب، وبِالْعَائِبِ البَاء زَائِدَة، والْعَائِبِ مُبْتَدَأ، وكَيْفَ خَبَر، وأَمّا للتَّحضِيض مثل هلاً، وَكَيْفَ يَذُمُّهُ «كَيْفَ» فِي مَحل نَصب علىٰ الحَال، ومِمَّا هُوَ أَعْظَمُ «مِن» بَيَان لمَا في قَوْله: «فِيمَا سِوَاهُ». ولِمَا يَعْلَمُ المَفْعُول مَحذُوف أي يَعلمَهُ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ إِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ، وَ الْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ). الْمُرَاد بأَهْل الْعِصْمَة الْمُتَّقُون، وبالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ الَّذِين وَفقهُم الله سُبْحَانَهُ إلىٰ طَاعة والبُعد عن مَعْصِيَته، وعلىٰ هَذَا يكُون عَطف الْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ عَلى أَهْل الْعِصْمَة من بَاب عَطف التَّفْسِير، وتَقع علىٰ الْمُتَّقِين مَسْئُوليتَان:

١ - (أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ، وَ الْمَعْصِيَةِ). ومَعْنَىٰ رَحْمَة العَاصِي والمُذنب أنْ تُحاول ما ٱستطعت هدَايته، وٱنقاذه من التَّهلكَة بالمَوْعِظَة الْحَسَنَة أي بالرِّفْق واللِّين، لا بالشِّدَّة، والقَسوَة، لأنّه تَحدث ردّة فِي الفِعْل، وتَنتج نَقِيض المَطلُوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[1].

(١) ٱلْمُؤمِنُون: ٩٦.

وكَثِيراً مَا تكون الرَّحْمَة، والرِّفْق بالمُذنب دَفعَاً بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ. وفِي الْحَدِيث: «الرِّفْق يُمْن، والخُرق شُؤم، مَن أُعطي الرِّفْق أُعطي الخَيْر»[1]. وفِي بَعْض الأحيَان يَكُون الصَّمت أَبلغ من الكلاَم، وإنّي لأرحم الغَلِيظ الفَظّ فِي إرشَاده ودعُوته إِلىٰ الله، وهو يَحسب أنّه يُقدم للدِّين ذَلِكَ خَدمات جُلّىٰ.

٢ ـ (أَنْ يَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ) أي عَلاَمَة تَميزهُم عن الجَاحِدِين أنْ يَشكرُوا الله علىٰ الْهِدَايَة، ويرُوها أجلّ النِّعم، وأعظمَها (وَ الْـحَاجِزَ لَـهُمْ عَـنْهُمْ) الضَّمِير فِي «لَهُمْ» لِلْمُتَّقِينَ، وفي «عَنْهُمْ» للمُذنبِين، والْمَعْنَىٰ أنّ لِلْمُتَّقِينَ وجداناً حَيّاً، وَدِيناً صَادقاً يُشغلهُم بأنْفسهم عَن عيُوب النَّاس: ولا يُعيّرون أحداً بِذَنْبه، قَالَ رَسُول الله، وحَبِيبه ﷺ: «والله إنّي لأستغفر الله، وأتُوب إلَيْهِ في الْيَوْم سَبعِين مَرّة»[2]. ومَا أَراد بقَوْله هَذَا إلاّ أنْ يُلقن أُمتّه دَرساً فِي التَّواضع، والبُعد عن الزّهو، والعُجب بالطّاعةِ، والْعِبادَة، ومِن حِكم الإِمَام: «أَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ»[3].

ويَسْتَحِيل أنْ يَصغي المُذنب لِمن أَعجبته نَفْسَه، وزها بعِلمه كائناً مَن كَان.

---

(١) أُنظر، مَجْمَع الزوائد: ١٩/٨، الْمُعْجَم الأوسط: ٢٤٢/٤ ح ٤٠٨٧، الزُهْد لهناد: ٦٥٤/٢ ح ١٤٣٤، فيض القدير: ٥٧/٤، التّأريخ الْكَبِير: ١٥٧/١ ح ٤٦٨، ميزان الإعْتِدَال في نقد الرِّجَال: ٢٢٨/٦ ح ٧٨٤٠، كشف الْخَفَاء: ٢٦٨/١ ح ٧٠٦ وص: ٥٢٣ ح ١٣٩٦، الكَافِي: ١١٩/٢ ح ٤، الزُهْد لحسين بن سعيد: ٢٩.

(٢) أُنظر، صَحِيح أبن حبَان: ٢٠٤/٣ ح ٩٢٤، الأَحَادِيث الْمُخْتَارة: ٥٠/٧ ح ٢٤٤٨ و ٢٤٥٠ ٢٤٥٢، موارد الظّمآن: ٦٠٩/١ ح ٢٤٥٧، سُنَن التِّرمِذي: ٣٨٣/٥ ح ٣٢٥٩، مَجْمَع الزوائد: ٢٠٨/١٠، مصباح الزجاجة: ١٣٤/٤، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ١١٤/٦ ح ١٠٢٦٦، سُنَن آبن ماجه: ١٢٥٤/٢ ح ٣٨١٦، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٣١٠/٥ ح ٢٩٣٤، الْمُعْجَم الأوسط: ١٨٦/٣ ح ٢٨٧٧.

(٣) أُنظر، نَهج الْبَلاَغَة: الْحِكْمَة (٣٨).

وبَعد، فإنّ ٱلإنْسَان مُعرّض للخَطِيئَة. ومِن أجل هَذَا فَتح سُبْحَانَهُ بَاب ٱلتَّوْبَة، فَيصحح، ويَستدرك، وَقَالَ النَّبِيّ الكَرِيم ﷺ: «كلّ بَنِي آدمَ خَطّاء، وخَير الخطّائِين التّوابُون»(١).

لِلمِنْبَرِ - حَوْلَ التَّعبِير بالذّنبِ:

(فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَ عَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ). إذَا وَجَبَ علىٰ مِن ٱتقىٰ أَطاع أنْ لا يُعبر العَاصِي بِذَنْبِه، ومَعْصِيَته - فَبِالأَوْلىٰ أنْ يُعِّير المُجرم من هُو علىٰ شَاكلته، قَالَ الإِمَام: «أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ»(٢). وَقَالَ بَعْض العَارِفِين: «تَعيِيرك أَخاك أَكبر إثماً من ذَنْبه، لأنّ في تعيِيرك هَذَا تَنزِيهاً لنَفْسِكَ من الْعُيُوب»(٣) (أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ) نُذنب، ونُعصي الله في الْخَفَاء، ثُمّ نَتظاهر بالصَّلاح والتَّقْوَىٰ، فَيستر سُبْحَانَهُ، ولا يَفضح، بل يُمهل، ويُعطي الْفُرْصَة لنتُوب، ونَستغفر، ولكن هَذَا السّتر، والإمهال يُغرينا بالمَزِيد من الخطَايَا، فنُوغل فِيها غَيْرَ مُبالِين... وفُوق ذَلِكَ نُشّهر بعيُوب الآخرِين، ونَتلذذ بِها: ونتجَاهل أنّ الْعُيُوب

---

(١) أنظر، سُبل السَّلاَم: ١٨٠/٤ ح ١٠، الدُّر المنثور: ٦٢٦/١، سُنن ابن ماجه: ١٤٢٠/٢ ح ٤٢٥١، المُستدرَك على الصَّحِيحين: ٢٤٤/٤، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٣٠١/٥ ح ٢٩٢٢، الجَامِع الصَّغِير: ٢٧٨/٢ ح ٦٢٩٣، كنز الْعُمَّال: ٢١٥/٤ ح ١٠٢٢٠، فيض القدير: ٢٢/٥ ح ٦٢٩٢، كشف الْخَفَاء: ١٢٠/٢ ح ١٩٦٩، تهذيب التهذيب: ٣٣٤/٧ ح ٦٢٣، سُنن الترمذي: ٣٠٣/٢.

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة: (٣٥٣).

(٣) قَرِيب مِنْهُ في كتاب المكاسب للشيخ الأنْصَاري: ٣٦٣/١، مِنْهَاج الفقاهة: ٧٨/٢.

الّتي سَترها الله عَلينا هِي أَكْثَر، وأَكبر.

(وَ ٱيْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَ عَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَىٰ عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ). لنفترض أنّ أحدنا ما أقترف كَبِيرة علىٰ الاطلاق، وأنّه قَد أَلمّ بالذّنب الْصَّغِير فقط ـ وأي عَبد الله مَا أَلمّا ـ فإنّ حرصه علىٰ أنْ يَحفظ عِيُوب النّاس، ويُذيعها علىٰ المَلأ هُو أكبر الكَبائِر.. إنّ الإِنْحِرَاف يُصيب الكلّ إلاّ مَن عَصم رَبّك. والاِنحراف الْكَبِير أنْ تَراه في غِيرك. ولاَ تَراه فِي نَفْسِكَ، وَقَالَ الْإِمَامﷺ: «الْأَشْرَارِ يَتبعُون مَسَاوِيءِ النّاس، ويتركُون مَحاسنهم، وكَمَا يَتبع الذُّبَاب المواضع الفَاسدة من الجَسد، ويَترك الصَّحِيح»[1]. ونَفهم مِن هَذَا أنّ خَيار النّاس يَنفرُون بطبعهم من القَذارة دُونَ أنْ يَتوقعُوا مَنفعة تَصيبهُم، أو ضَرراً يُحِيق بِهِمْ، وأنّهم يَشعرُون بالضّيق، والاِشمئزاز لمُجرد تَصور القذَارة، والْعُيُوب فضلاً عَن ٱرتكابها أو التّفوه بها.

(يَا عَبْدَ اللهِ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَ لاَ تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ). مَالكَ ولعيُوب النَّاس؟ هل عَلَيْكَ حِسابهم؟ وهل أَطّلعك سُبْحَانَهُ عَلىٰ عِلمه بالشّقي مِنْهُم، وبالسَّعِيد حَتّىٰ حَكمت، وجزَمت بأَنّ هَذَا للجنَّة، وذَاكَ للسَّعِير؟ أمَا سَمعتَ خِطاب الله لنَبيّه الكَرِيم: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[2] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. ومَا يُدرِيك أنّ هَذا

(١) أنظر، مُسْتَدرَك سَفِينة البحار: ٧/٥٠٤.

(٢) ٱلأَنْعَام: ١٠٧.

(٣) ٱلأَنْعَام: ٥٢.

الَّذي تُعبيه، وتَزدرِيه هُو خَير مِن أَلف صَائم، وقَائم؟ قَالَ عَارف بالله: «لا تُـعيِّر أخَاك بِذَنْبِه، فلعل الله سقَاه بهَذا الذّنب دَواء آستخرج به دَاءً قَائلاً، وهو فِيك ومَا تُشـعر؟»(١). (فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَ لْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ) إنْ كَان فيكَ شَيء مِن الْـعُيُوب فآجتهد للخَلاص منهُ، وإنْ كُنتَ مُبرءاً من كلّ عَيبٍ فآشكُر الله علىٰ هَذِه النِّـعْمَة الّتي لَيس كمثلها.

وكَلِمَة أخِيرَة: علىٰ المَرْء أنْ يَنسجم مَع نَفْسِه، ولا يَنفصم عَنْهَا وإلّا عَاش غَرِيباً عن واقعه، ودُنياه... ولعليّ أنا هَذَا الغَرِيب ولا أَشعر... وشفِيعِي إلىٰ الله تَعَالىٰ إنّي أَتهِمُ نَفسِي، وأَتُوب إِلَيْهِ تَعَالىٰ مِن حُسن ظَنِي بها.

(١) قَريب مِنهُ في الهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٥٤ (مخطوط)، مدينة المعاجز للبحراني: ١٧٣/٦، درر السـمط في خَـبَر السِّبط لِابن الآبار: ١١٢، كنز العُمّال: ٨٣٨/٣ ح ٨٩٠٠، كشف الخَفَاء: ٢٦٥/٢ ح ٢٥٤٤، تَأريخ مدينة دمشق: ١٧٧/٤٧.

الخطبة

-١٤١-

أَرْبَعُ أَصَابِعَ:

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَ سَدَادَ طَرِيقٍ، فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَ تُخْطِئُ السِّهَامُ، وَ يُحِيلُ الْكَلاَمُ، وَ بَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ، وَ اللهُ سَمِيعٌ، وَ شَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ، وَ الْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

(فَسُئِلَ عليه السلام عَنْ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ، وَوَضَعَها بَيْنَ أُذُنِهِ، وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ): الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَ الْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ!

اللُّغَة:

وَثِيقَةَ دِينٍ: الأَمَانَة عَلَىٰ الدِّين. وَسَدَادَ الطَّرِيق: اَستقَامته. وَيُحِيلُ الْكَلاَمُ: يَكُون مُحالاً، لا حَقِيقَة لمعناه، ولا أَساس. ويَبُورُ: يَزهق، ويَزول، أَو يَكسد، ويُهمل.

الإِعْرَاب:

مَنْ عَرَفَ «مَنْ» مُبْتَدَأ، والخَبَر جُملة فَلاَ يَسْمَعَنَّ، وأَمَا إِنَّهُ «أَمَا» بِمَعْنَىٰ «حَقّاً» عَلىٰ قول، أو للاِستفتَاح، والضَّمِير فِي أنّه للشَّأن.

الْمَعْنَىٰ:

(مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ، وَ سَدَادَ طَرِيقٍ، فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ). لا تُسرع إِلىٰ تَصدِيق الشَّائِعات مَدحاً كَانَتْ أَم قَدحاً، فقد يُراد بالثَّناء مُجرد الدَّعَايَة والرَّواج لغَايَة تِجارِية تَمَاماً كالاِعْلاَن عَن البَضَائِع، والسِّلع، وأَيضاً قَد يُراد بالذَّم الكِيد، والمُضارة لأهداف سيّاسية... وتَجدُر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ عَدم الرّكُون إِلىٰ الشَّائِعات حَسن بذَاته سَواء أَكَانَتْ الاِذاعَة، والاِشاعة في الَّذِين آمنوا، أَم فِي الَّذِين تَجهلهم، ولا تَعرف عَنهم شَيْئَاً، وإِنَّمَا خَص الْإِمَام بالذّكر مَن تَثق بدِينَه ورُشدَه لأنّ الأَجْدَر بِكّ أنْ تُدافع عنهُ بالنَّظر إِلىٰ مَا عَهدت مِنْهُ، وأنْ لا تَنقض هَذَا العَهد إلّا بالقَطع، والْيَقِين.

(أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَ تُخْطِئُ السِّهَامُ). وكَذَلِكَ الظَّن، فَقد تَنظر إِلىٰ رَجُلٍ نَظرة الاِزدراء، والاِحتقار، لأنّ ظاهرهُ يُوحِي ذَلِكَ، وهُو فِي وَاقعة أَهْل للتَّقدِير، والاِحترَام، وقَد تَظن بِهِ الصِّدْق، والوفَاء، ويَخِيب بِهِ أَملُك عِند التَّجْرِبَة، وَالْاِمْتِحَان... وكَم مِن شَاعرٍ، وناثر نَظمٍ، أو كَتب عن مرَارته، وخَيبَة أَمله بأصدقائه، وأقربائه... وأَعترف بأنِّي وَقعت فَريسةً لمظاهر خَادعة أَكْثَر مِن مَرّة، وكَان عليَّ أنْ أَحفظ الدَّرس من الْأُولَىٰ، ولكنِّي لَم أَفعل، ولا أَدري: هَل هَذَا سذَاجة فِيَّ، وبلاَهة، أو طَيِّبَة، وسمَاحة؟ (وَ يُحِيلُ الْكَلاَمُ، وَ بَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ).

وأيضاً قَد يَسمع ٱلإنْسَان كلاَماً فيُصَدقهُ، ويُؤْمِن بأنّه من الدِّين في الصَّمِيم، وهُو في واقعهِ بِدْعَة، وضلالة، أو يَظن أنّه عِلم، ونُور، وهُو جَهل، وظلاَم، ومَا أَكْثَر الْكَذِب علىٰ الدِّين، والعِلم.

(أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ، وَ الْبَاطِلِ اِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ) وفسّر الإِمَام هَذَا بقَوْله: (الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَ الْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ). ويَدل هَذَا التَّفْسِير بظاهِره أنّ كلّ مَا تَسمعه فَهُوَ بَاطِل، وكلّ مَا تَراه فهُو حَقّ، ومَا مِن شَكٍّ أنّ الإمَام لا يُريد هَذَا الظَّاهِر، كَيْفَ وهُو القَائِل: «لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَهُ»(1). ولا أَحد يَشكّ أنّ الْقَوْل المَسْمُوع يُحتمل الصِّدْق، والْكَذِب، ومُراد الإِمَام ـ كمَا يَدل السِّياق ـ أنْ لا نُرتب الأثر علَىٰ مَا نَسمعهُ من الأقَاوِيل فِي حَقٍّ أي إنْسَان كَان، وبصُورة أَخص إذا كَان علَىٰ ثِقَة مِن دِينه، لا نُرتب الأثر إلّا بَعد الرُّؤيَة، والتَّثبُت.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلحِكمَة: (٢٨١).

الخطبة

-١٤٢-

صَانِع الْمَعْرُوفِ:

وَ لَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَ ثَنَاءُ الأَشْرَارِ، وَ مَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَ هُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بِخَيْلٌ.

فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَ لْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَ لْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ، وَ الْعَانِيَ، وَ لْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ، وَ الْغَارِمَ، وَ لْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ، وَ النَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَ دَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

عَنْ ذَاتِ اللهِ: الْعَمَل لله. والعَانِي: الأَسِيرَ، والعَطف عَلَيْهِ للتَفْسِير.

وَالْغَارِمَ: المَدْيُون، وَالدَّرْكُ: الإِصَابَة.

الإِعْرَاب:

مَحْمَدَةُ اسم لَيْسَ، ولِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ خَبَرَ مُقَدَّم، ومَا أَجْوَدَ «مَا» مُبْتَدَأ وأَجْوَدَ فعل مَاضٍ، ويَدَهُ مَفْعُول، والفَاعل ضَمِير مُستتر، والجُملة من الفِعْل الفَاعل خَبَر المُبْتَدَأ، والجُملة مِن المُبْتَدَأ، والخَبَر مَفْعُول مَقَالَةُ، وٱبْتِغَاءَ الثَّوَابِ مَفْعُول مِن أَجله لِيَصْبِرْ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَىٰ اِلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَ ثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَ مَقَالَةُ الْجُهَّالَ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ). الْمَال وَسِيلَة لسّد الحَاجَات، وحلّ المُشْكِلاَت. لا للتَّضاهِي، والتَّباهِي، والسّيطرَة والشُّهرَة، فأي مَال أَغاث مَلهُوفاً، أو سَدّ حَاجَة مُحتاج فهُو خَير، ومَا عَداهُ فَلَيْس بِشَيء، ورُبَّمَا كَان شَرّاً، ووبَالاً عَلىٰ صَاحبه كَـالَّذِي يُـنفق أَمْـوَاله عَـلَىٰ اللِّـئَام، والأَشْرَارِ يَبتغِي ذَلِكَ الشُّهـرَة، والسُّمعة، وهُم يَثنُون عَلَيْهِ، ويَقُولُون: «مَا أَجُود يَده دَام مُنعماً عَلَيْهِمْ» فإِذَا مَنع عَنهم نَواله، وعطاءه نَعتُوه بأقبح الصِّفَات، وهَكذا يَنهار كلّ بناء أُسس بأَيْدِي اللِّئَام، والأَشْرَارِ.

(وَ هُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بِخَيْلٌ) يَتلهف عَلىٰ الوجَاهة، وإِنْ تَكُ زَائفة، ويَبذل الكَثِير من أَجلها: وفِي الوقت نَفْسه يَده عن البَذل فِي سَبِيل الْبِرِّ، ومَا يَعُود عَـلَيْهِ وعَـلىٰ مُجتمعه بالصَّلاح، ثُمّ ذَكر الإِمَام أَمثلة مِن هَذِه ٱلسَّبِيل:

١ ـ (فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ) إِنْ كَانُوا فِي حَـاجَة إِلىٰ الْمَـال، لأَنّ الأقرَبِين أَوْلَىٰ بِالْمَعْرُوفِ، والجَار بِمَنْزِلَةِ الرَّحِم.

٢ ـ (وَ لْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ). كَانَ المُسافر من قَبل فِي حَاجَة إِلَيْهَا، لطول الطَّرِيق ووعثاء السَّفر، ونُدرة المطَاعِم، والفنَادق، أمّا الْيَوْم فالمُسافرُون فِي غنىً عَن الضِّيافَات، والحَسَنَات، وعَلىٰ أية فالْعِبْرَة بسَّد الحَاجَة.

٣ ـ (وَ لْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ، وَ الْعَانِيَ، وَ لْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ، وَ الْغَارِمَ). الْمُرَاد بالأَسِيرَ المَسجُون، وعَطف الْعَانِيَ عَلَيْهِ للتفْسِير، كمَا أشرنا، والْغَارِمَ المَدِيُون، ومُحصل الكلاَم بجملته أنْ يُعين صَاحبُ المَال مَن يَحتاج إلىٰ المعُونة أيّاً كَانَتْ صِفته.

(وَ لْيَصْبِرْ نَفْسَهُ) أي يَحملها علىٰ الصَّبر فيما تكره، لِأَنَّهَا تَأبىٰ الْعطَاء إلّا فِي منَافعها الخَاصَّة (عَلَىٰ الْحُقُوقِ) وَهِي الأَخْمَاس، والزَّكوات الّتي أَشار إِلَيْهَا سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1]. (وَ النَّوَائِبِ) كالضَّرَائِب والحوَادث. قَالَ الإِمَام: «لِكُلِّ ٱمْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ، وَالْحَوَادِثُ»[2] (ٱبْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَ دَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ) إنّ البَذل لا يَكُون فَضيلةً، ومَحمُوداً عِند الله، وكِرَام النَّاس إلّا إذا كَان لوجه الله، وطَلباً لِثوابه، ومَرضَاته.

(١) ٱلْمَعَارِج: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: الحِكْمَة: (٣٣٥).

الخطبة

-١٤٣-

التَّمحِيص بالْبَلاَءِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَلاَ وَ إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقِلُّكُمْ، وَ السَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَ مَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ، بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَ لاَ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَ لاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَ لَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَ أُقِيمَتَا عَلَىٰ حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا[1].

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَ حَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَ إِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَ يُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَ يَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَ يَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَ قَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ، وَ رَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَ يُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَ بَنِينَ﴾[1]. فَرَحِمَ اللهُ ٱمْرَأً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَ ٱسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَ بَادَرَ مَنِيَّتَهُ[2]!

---

(١) نُوحٍ: ٩ ـ ١٢.

اللُّغَة:

تُقِلُّكُمْ: تَحمِلُّكُمْ. وتُظِلُّكُمْ: تَعلُوكُم. والزُّلْفَة: الْقُرْبَة. ويُقْلِعَ: يَكُفّ. ومِدْرَاراً: غَزَيراً، أو مُتدَفقاً.

الإعْرَاب:

أَلاَ ٱسْتفتَاح الكلاَم، تَوَجُّعاً مَفْعُول مِن أَجله لتَجُودَانِ، ومِدْرَاراً حَال من ٱلسَّمَاء.

الْمَعْنَىٰ:

هَذِه ٱلْخُطْبَة مِن خُطَبِ الاِسْتَسْقَاء، لقَوْله عليه السلام «أَللَّهُمَّ فَٱسْقِنَا غَيْثَكَ»، ونَظِيرها ٱلْخُطْبَة ١١٥، وتَقَدَّم شَرحها مع الْإِشَارَة إِلىٰ كَيْفِيَّة صَلاٰة الاِسْتَسْقَاء.

(أَلاٰ وَ إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقِلُّكُمْ) تَحمِلُّكُم (وَ السَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ) تَعْلُوكُم (مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ) مُسَخَّرَتَان لأمرِهِ تَعَالىٰ (وَ مَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ، بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَ لاٰ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَ لاٰ لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَ لَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَ أُقِيمَتَا عَلَىٰ حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا).

فِي الطَّبِيعَة مَنافع، وخَيرَات، كَمَا فِيها حِكْمَة، وإبْدَاع، ولكن لاَ قَصد لَهَا، ولا هَدف، لِأَنَّهَا بلا شعُور، وإدرَاك... أَجل، إِنَّهَا تَدل عَلىٰ القَصد لِنظَامِها المُتنَاسِق والمُستقر، والقَصد يَدل عَلىٰ الهَدف، وإِذَنْ فقول الْإِمَام: «وَ مَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ وَ لاٰ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ»... هو مِن بَاب سَلب العَدم عَن الوجُود الْمَعْرُوف عِند عُلَمَاء الكَلاَم بتقَابل السَّلب، والْإِيجَاب، وغَرض الْإِمَام هُو التَّنبِيه إِلىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ بَنىٰ هَذَا

الكَوْن، وقدّره تَقديراً يَتفق كلّ الاِتفاق مَع حَيَاة ٱلإِنْسَان، ومطالِبها أَشبه بـالدَّار تُهندسها حَسب مصَالحك، وحَاجتك.

(إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَ حَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَ إِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَ يُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَ يَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَ يَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ). إنّه عَزّ وَجلّ لاَ يَتعامل مَع عِبادِه فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا علىٰ أَساس سلوكهم السَّيىء، أو الْحَسَن... كلاَ، وإِنَّمَا يَتعامل مَعهم علىٰ أَساس التَّعلِيم، والإِرْشَاد بالأَمْر، والنَّهي، ويُسيّر الكَوْن علىٰ نِظام كَامل، ومُطرد، وسِنَن طَبيعية ثَابتة تَعم أَحكامها، وآثارها الصَّالح الطَّالح، فإِذَا حَدث زِلزَال -مَثلاً- فإِنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَأمُره أنْ يَترك بَيْت الْمُؤْمِن العَابد، ويَهدم بَيْت الْكَافِر الفَاجر فَقط، بل إِنّ الْمُؤْمِن الطَّاهر يُعانِي أَشد المِحن، وأقْسَاها أَكْثَر مِن غَيْر الْمُؤْمِن، كَمَا فِي الْحَدِيث الشَّرِيف: «الْبَلاَء مُوكل بالْمُؤْمِن... إِنّ أَشد النَّاس بَلاَءً ٱلْأَنْبِيَاء، ثُمّ الَّذِين يَلونَهُم الأَمثل فالأَمثل»[(١)]. أَجل إِنّ الله سُبْحَانَهُ قَد يُغير مَجرىٰ الطَّبِيعَة فِي حَادث مُعين، ولِحِكْمَة أوجبتها الظّرُوف، كإِظهار المُعْجِزَة الخَارقة علىٰ يَد نَبِي مِن ٱلْأَنْبِيَاء... وهَذَا نَادر جِداً مُؤقت سُرعَان مَا يَزول إِلّا مُعْجِزَة مُحَمّد ﷺ، وَهِي الْقُرْآن البَاقِي ببقَاء الله سُبْحَانَهُ.

وَتَسْأَل: إِنَّك قُلت: إِنّ الله سُبْحَانَهُ يَتعامل مَع عِبَادِه فِي الدُّنْيَا بالإِرْشَاد لا بالْجَزَاء، ولا يَتفق هَذَا مَع قول الإِمَام: «إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ

---

(١) أُنظر، فيض القدير: ٣٥٩/٢، فتح البـاري: ١١١/١٠ ح ٥٣٢٣، الْبَيَان والتعريف: ٩٩/١، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٢٤٤/٢٤ ح ٦٢٦، مُسْنَد أحمد: ٣٦٩/٦ ح ٢٧١٢٤، مُسْنَد البزار: ٣٤٩/٣ ح ١١٥٠، مُسْنَد الشَّاشي: ١٣٠/١ ح ٦٧، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٣٥٢/٤ ح ٧٤٨٢، سُنن الدّارمي: ٤١٢/٢ ح ٢٧٨٣.

بِنَقْصٍ ، وَ الثَّمَرَاتِ حَبْسِ الْبَرَكَاتِ ... إلخ» لأنّه يَدل بظَاهرهِ أنّه تَعالىٰ يُعاقب الْمُسِيء ، ويُؤدبه فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا بالْحِرْمَان ، والفَاقة .

الجَوَاب:

أَوّلاً : الَّذي شَاهدناه بالعَيَان أنّ الدُّنْيَا جَنّة الْأَشْرَارِ مَالاً ، وسُلطاناً : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ـ أي عَلىٰ الْكُفْر ـ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[1] . وكَلاَمُ الْإِمَام لا يُفسر بغِيرِ الوَاقع .

ثَانياً : لَيْسَ الْمُرَاد بالابتلاء هُنا العِقاب والْجزَاء ، لأنّ الْيَوْم عَمل ولا حِساب ، إنّما الْمُرَاد بِهِ الْإِمْتِحَان ، والاِخْتبَار لتظهر الأفْعَال الّتي بِها يَستحق ٱلإِنْسَان الثَّوَاب والعِقَاب .

ثَالِثاً : إنّ قَول الْإِمَام : «إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ» لَيْس مَعناه أنّه تَعالىٰ لا يَبتلِي عِبَادَهُ عَن الْأَعْمَالِ الْحَسَنَة ... كلاَ ، فإنّ الْبلاَء يَنزل بِمن أسَاء وأَحسن ، وهو يَنطوي عَلىٰ حِكْمَة بِالغَة ، لأنّه يُمَيِّزُ الْخَبيث من الطَّيِّب ، والدَّخِيل من الأَصِيل ... ولَوْلاَ التَّضحِية ، والصَّبر فِي الْجِهَاد ، وعَلىٰ الاِستِشْهَاد مَا عرف النّاس أَهْل المَبادىء ، والعقائِد الَّذِين غيّروا وَجه العَالم ، ولا تَقَدَّمَت ٱلْحيَاة خُطوة وَاحِدَة إِلىٰ الأَمَام ، وأيضاً قَد يُحرك الْبَلاَء الْمُسِيء إِلىٰ ٱلتَّوْبَة ، والإقلاَع عَن إسَاءته ، وإِلىٰ هَذَا يُشير الإِمَام بقَوْله : «لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَ يُقْلِعَ مُقْلِعٌ ، وَ يَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ ، وَ يَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ» .

---

(١) ٱلزُّخرُف : ٣٣ .

(وَ قَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْإِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ، وَ رَحْمَةِ الْخَلْقِ)... لَيْسَ مِن شَكّ أنّ ٱلإِسْتِغْفَارَ سَبب لرضوان الله، وغُفرانه بنصِ ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة. أمّا ٱلرِّزْق فَلا بُدّ لهُ من زَرع، وضَرع، وكَدٍّ، وعَرقٍ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]... أجل، إنّ ٱلإِسْتِغْفَار والتُّوكل عَلىٰ الله مِفْتَاح التَّوفِيق إِلىٰ الْعَمَل الَّذِي يَدر الرِّزق، كَمَا أنّ الصِّدْق، والإِخْلَاص مِفْتَاح الهِدَايَة إِلىٰ الصَّراط المُسْتَقِيم... وقَد يَكُون ٱلإِسْتِغْفَار سَبباً للمَطر فِي بَعْض الأحْيان كصَلاة الإِسْتِسقَاء، ولكن هَذَا شيء، وكون ٱلإِسْتِغْفَار سَبباً مُطرداً للرِّزق شَيء آخر.

أمَا قول نُوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[2] فهُو تَذكِير لهُم بِنِعْمَة الله عَلَيْكُمْ، وإنّه يَزِيدهُم مِن فَضله إنْ عبدوا واستغفروا تَمَاماً كقَوْله تَعالىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[3].

(فَرَحِمَ اللهُ ٱمْرَأً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ) وَاجهها ورحب بِها (وَ ٱسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ) طَلب مِن الله أنْ يَصفح عَنْهَا، ويُقِيله مِنْهَا (وَ بَادَرَ مَنِيَّتَهُ) عَاجلها، وسَبق إِلىٰ صَالح الْأَعْمَال قَبل أنْ تَنزل بهِ.

أَللَّهُمَّ فَٱسْقِنَا غَيْثَكَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

أَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ، وَ الْأَكْنَانِ، وَ بَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ، وَ

(١) ٱلْمُلْك: ١٥.
(٢) نُوح: ١٠ ـ ١٢.
(٣) قُرَيْش: ٣ ـ ٤.

الْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَ رَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَ خَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ، وَ نِقْمَتِكَ. أَللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ وَ لاَ تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَ لاَ تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، ﴿وَ لاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. أَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ، وَ أَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ، وَ أَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَ تَلاَحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعِبَةُ. أَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلاَّ تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَ لاَ تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ. وَ لاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَ لاَ تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا. أَللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَ بَرَكَتَكَ، وَ رِزْقَكَ، وَ رَحْمَتَكَ، وَ اسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَ تُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ، نَافِعَةَ الْحَيَا، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَىٰ، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ، وَ تُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَ تَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَ تُرْخِصُ الْأَسْعَارَ، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

اللُّغَة:

الْأَسْتَارِ، وَالْأَكْنَانِ بِمَعْنَىً وَاحِد، والْمُرَاد بِها هُنا الْبُيُوْت. والسِّنِينَ: جَمع سَنَة أي القَحط، والْجَدْب. وأَجَاءَتْنَا: أَتَتْنَا. والْمَقَاحِطُ: جَمع مَقْحَط، وهُو مَكان القحَط، أو زَمَانه. وَاجِمِينَ: عَابِسِين كَئِيبِين. لاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا: لا تُعَامِلنَا بِها، أو لاَ تُكلِمنا كَمُذنِبِين. والْحَيَا: الْمَطَر، والخصب. والْقِيعَانَ: جَمع قَاع أي الْأَرْض. والْبُطْنَانَ: الوديَان.

الْإِعْرَاب:

رَاغِبِينَ حَال من الضَّمِير فِي خَرَجْنَا، ومثله جُملة نَشْكُو، والْمَصْدَر مِن أَنْ لاَ

تَرُدَّنَا مَفْعُول ثَانٍ لنسْأَلُك، ووَاجِمِينَ حَال.

الْمَعْنَىٰ:

لَيْسَ فِي هَذَا المَقطع مِن اَلْخُطْبَة إلّا الدُّعاء، والإلحَاح عَلىٰ الله سُبْحَانَهُ فِي دَفـع الْبَلاَء ... ومتىٰ اشتد الفَزَع فإلىٰ الله المَفزَع، وهُو وَحده سِلاح الْمُتَّقِينَ.

(**أَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ**). يَدل هَذَا أنّ الْإِمَام صَلّىٰ الاِسْتِسقَاء فِي الْفَضَاء، وَقَالَ عُلَمَاء الشَّرِيعة الإِسْلاَمِيّة: يُستَحب أنْ تَكُون صَلاَة الاِسْتِسقَاء فِي الصَّحراء إلّا أَهْل مَكَّة فـإنَّهُم يَسـتسقُون فِي الْمَسْجِدِ الْحَـرَام (وَ لاَ تَـجْعَلْنَا مِـنَ الْقَانِطِينَ) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[1]. ومِن قول الْإِمَـام: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَ مَعَهُ الاِسْتِغْفَارُ»[2] (وَ لاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا). هـذَا استرحَام، وابتهَال مع الأَمَل فِي إدرَاك المَطلوب، وأمّا قول مُوسَىٰ ﴿أَتُـهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾[3] فهُو مِن سَورَات غَـضبه المُـقدس الَّـذي حَـركه إلىٰ تحـطِيم الألواح بَعد أنْ رأىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتركُون عِبَادة العِجل (نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لاَ يَـخْفَىٰ عَلَيْكَ). وعَن الْإِمَام الصَّادِق عليه السلام: «إنّ الله يَعلم حَاجتك ومَا تُرِيد، ولَكِنَّهُ يُحبّ أنْ تَبث إِلَيْهِ الحَوائج (وَ أَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ) وعِنْدَكَ الحَل، والفَرج، ومَا مِـن أحدٍ يَدعوا الله بهَذا القَصد إلّا فَتح الله عَلَيْهِ بَاباً مِن رَحمته، ولو فِي الصَّبر، والثَّبات العَظائِم.

(١) اَلْحِجْر: ٥٦.

(٢) أنظر، نَهج اَلْبَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (٨٧).

(٣) اَلْأَعْرَاف: ١٥٥.

(وَ لاَ تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا) . إنّ الله يَستجِيب لِعَبده إذَا العَبد آستجَاب لرَبّه كَمَا فِي الآيَة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1] وعن الإِمَام الصَّادق عليه السلام : «من سَرّه أنْ تُستجَاب لهُ دَعْوَة فَليُطِيب مَكْسَبَه»[2] أي يَأْكُل مِن كَد اليَمِين، وعَرق الجَبِين... ولكن الإِمَام يَسأل الله أنْ يَأخذ الْعِبَاد بهَذا المَبدأ الْعَادِل، وأنْ يُعاملهم بِفضلِه، وكَرَمه.

(وَ تُرْخِصُ الْأَسْعَارَ) . لَيْسَ من شكّ أنّ كَثرة الإِنتاج تَستدعِي رُخص الأَسْعَارَ... هَذَا، إذَا لَم يُحوّل الإِنتاج إلىٰ الْحَرْب، وأدوتها، أو تَحتكره الشَّركَات، وأَربَاب المَطامع... ومن جُملة مَا قَرأت أنّ أفرِيقِيا تَملك (٩٠٪) مِن منَاجِم المَاس العَالَمِي، و (٧٠٪) من منَاجِم الذَّهب، وتَنتج ثُلثِي مَا يَشتَرِيه العَالم مِن زَيت النَّخِيل والكَاكَاو، ومَع هَذَا يُعانِي الإِفرِيقِيُون آلاَم البُؤس، وَالْفَقْر، ولا سِرّ إلّا الإِسْتِعمَار والْإِحْتِكَار... وأيضاً قَرأت أنّ ثَمانِي دول آسيُويَة، وَهِي أُندُونِيسِيا، ومَالِيزِيا، وسِيلاَن، وبُورما، وكَمبُودِيا، ولاَوس، وتَايلاَند، وفِيتنَام الجنُوبِية تُساهِم بـ (٨٥٪) من أنتَاج المَطاط الطَّبِيعِي، ومَع هَذَا تُعد هَذِه الدّول مِن الدّول النَّامِية المُتأخرة... وأيضاً السَّبب الإِستعمَار، والْإِحْتِكَار، وإنْ دَل هَذَا عَلىٰ شَيء فإنّه يَدل علىٰ أنّه لا خَير فِي غَيثٍ، ولا خصبٍ إلّا مَع العَدَالة، والمُساوَاة.

---

(١) ٱلبَقَرَة: ١٨٦.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٢/٣٥٣ ح ٩، وَسَائِل الشِّيعة: ٧/٨٤ (٨٧٩٤ ـ ٣)، تفْسِير نُور الثَّقلِين: ٤/٥٣٠ ح ٨٩، عدة الداعي لِابْن فهد الحلي: ١٢٨، التَّفسِير الصَّافِي: ١/٢٢٤ ح ١٨٦.

الخطبة

ـ ١٤٤ ـ

حُجَّة الله عَلَىٰ خَلْقِهِ... فِقْرَة ١ ـ ٢:

بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَ جَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلاَ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ، وَ مَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَ الْعِقَابُ بَوَاءً[1].

أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً، وَ بَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَ وَضَعَهُمْ، وَ أَعْطَانَا وَ حَرَمَهُمْ، وَ أَدْخَلَنَا وَ أَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَىٰ الْهُدَىٰ، وَ يُسْتَجْلَى الْعَمَىٰ. إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لاَ تَصْلُحُ عَلَىٰ سِوَاهُمْ، وَ لاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ[2].

---

(١) هُود: ٧.

اللُّغَة:

كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً: أَظهَرهُم ٱظهَاراً. والبَوَاء: ٱلْقِصَاص، يُقَال: دَمٌ بَوَاء دَمٍ أي مُساوٍ له.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من لاٰ أَنَّهُ جَهِلَ مَنصوب بِنزع الخَافض أي لاٰ لأنَّهُ، وكَذِباً حَال، وهُو مَصْدَر في مَكان اسم الفَاعل أي كَاذِبِين، ويَجوز أنْ يَكُون مَفعولاً مُطلقاً مُبِيناً لِلنَّوْع أي زَعماً كَذِباً، والْمَصْدَر من أَنْ رَفَعَنَا مَفْعُول مِن أجله لـ«بَغْياً».

الْمَعْنَىٰ:

(بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَ جَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ). ٱلْأَنْبِيَاء سُفرَاء الله إِلىٰ خَلقه يَهدُونَهم إِلىٰ حَيَاة أَفضل، ولذَا وَصف سُبْحَانَهُ نَبِيَّه الكَرِيم بِقَوْله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]. وكلّ مَن يَدعو النَّاس إِلىٰ حَيَاة أَفضل، ويَعمل لهَذه الدَّعْوَة بصدقٍ، وإخْلاَص، ويَخُوض من أَجلها الغَمرَات والشَّدَائِد فهُو رَحْمَة للنَّاس أَجمعِين، لِأَنَّهَا هِي بالذَّات دَعْوَة الله، ورَسُوله. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]. ولا تَلتئم ٱلْحَيَاة، وتَنحسم شرُورها من الجذُور إلّا بالحُبّ، والإخَاء، والْعَدْل،

(١) ٱلْأَنبِيَاء: ١٠٧.

(٢) ٱلْأَنفَالِ: ٢٤.

والمُسَاوَاة، وتَعاون الجَمِيع عَلىٰ سَدّ حَاجات الجَمِيع، وكلّ من نادىٰ بهَذه الدَّعْوَة فهُو حُجّة الله عَلىٰ خَلقه: وبخَاصَّة ٱلْأَنْبِيَاء الْمُرْسَلِين، فإنّ حُجّة الله بِهِمْ عَلىٰ النَّاس أقوىٰ، وأَبلغ.

(أَلاٰ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْكَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لاٰ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ، وَ مَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ... بَوَاءً). إِنّ الله سُبْحَانَهُ أَعلم بعِبَادِه من أَنْفسهم، ولَكِنَّهُ تَعَالىٰ لا يُعاقب عَلىٰ مَا يَكُون فِي الْقَلْب فَقط، بل عَلىٰ مَا يَبرز إِلىٰ الوجُود من قولٍ، أو فعلٍ، ويُسمىٰ هَذَا بالرُّكن المَادي في اصطلاَح الجُدد من فُقهاء القَانون الجنَائِي، وَقَالَ فقُهاء الشَّرِيعة الإِسْلاَميّة: لا يَنعقد شَيء ويتم بُمجرد النِّيَّة، فن نوىٰ الْقَتْل، أو سَرقة لا يَصبح قَاتلاً، أو سَارقاً، ومن قَصد الوَقف، أو ٱلطَّلَاق لا يَصِير وَاقفاً، أو مُطلقاً، وفِي الْحَدِيث: «إنّ لله تَعَالىٰ تَجاوز لأُمتي عمّا وسوست، أو حدثت به أنفسها مَا لَم تَعمل، أو تَتكَلَّم»[١]... «إِذَا تَحدَث عَبدِي بأَنْ يَعمل حَسَنَة فأنَا أَكتبها لهُ حَسَنَة مَالَم يَفعل، فإذَا عَملها فأنَا أكتبها لهُ بعشرَة أَمثالها، وإذَا تَحدث بأَنْ يَفعل سَيِّئَة فأنَا أَغفرها مَالَم يَفعلها، فإذَا عَملها فأنَا أَكتبها لهُ بمثلها»[٢].

إنّ الله سُبْحَانَهُ يَمتحن عِبَادِه بالأَمْر، والنَّهِي عَلىٰ لِسَان أَنْبِيَائه، وخُلفَائِهم، لِتَظهَر الأفْعَال الّتي بِها يَستحقُون الثَّوَاب، والعقَاب.

---

(١) أنظر، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٣٤٩/٢ ح ٣٦٨٥، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢٤٥٤/٦ ح ٦٢٨١، تَفْسِير القُرطُبي: ٢١١/٨، المُعْجَم الأوسط: ٧٤/٤ ح ٣٦٤٨، شعب الأيمَان: ٢٩٩/١ ح ٣٣١، الإِيمَان لِابْن منده: ٤٧٥/١ ح ٣٤٨، فتح الباري: ٥٥٢/١١، تَأْرِيخ بغداد: ٤٣٤/٩.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣١٥/٢ ح ٨١٥١، صَحِيح مُسْلِم: ١١٧/١ ح ١٢٩، تَفْسِير ابن كثير: ٣٤٠/١، الترغيب والترهيب: ٢٧/١ ح ٢٤، فيض القدير: ٢٨١/١، المحلىٰ: ١٨/١ باب (٣٧)، الإِيمَان لِابْن منده: ٤٩٢/١ ح ٣٧٦، جامع العلوم والحِكَم: ٣٥٠/١، صَحِيح ابن حبّان: ١٠٣/٢ ح ٣٧٩.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْل أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام:

(أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً، وَ بَغْياً). حَتَّىٰ أَعْدَاء الْإِمَام يَعترِفُون برسُوخه فِي العِلم، ولو وَجدُوا وَسِيلة للإنْكَار مَا تورعُوا عَنْه، وحَدِيث: «أَنَا مَدِينة ٱلعِلْم، وعَليٌّ بَابها»[١]، رواه الشِّيعة، والسُّنّة، أمّا كَلِمَة «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»[٢] فَمَا تَجرأ عَلَىٰ التَّفوه بِها أَحد قَبل الإِمَام ولا بَعد، وقَوْله: «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا» هو تَحدٍ صَرِيح لكلّ مُدعٍ، وزاعم أنّه يُدانِي أَهْل ٱلْبَيْت فِي العِلم، وقَدكَان الإِمَام المَرْجِع الأَوَّل بَعد الرَّسُول للخُلَفَاء، وغَيْرهم، وفِي «أَخبار الْقُضَاة» لوكيع ـ مِن عُلَمَاء السُّنَّة: «إنّ عُمَرَ بن الخَطَّاب قَالَ لرَجُلٍ: «ٱجعل بَينِي وبَيْنَكَ مَن كُنا أُمرنا إِذَا ٱختلفنا فِي شَيء أَنْ نُحكّمه يَعني عَلِيَّاً»[٣]، وَقَالَ أيضاً: «إنّ رَسُول الله مَسَحَ عَلَىٰ صَدر عَليّ، وَقَالَ: «أَللَّهُمَّ أهد قَلبه، وثَبّت لسَانه، وٱعطه فَهم مَا يُخاصم فِيه»[٤].

---

(١) لقد وصل إلينا حَدِيث «أَنَا مَدِينة العِلم وعليٌّ بَابها» مُتواتراً عَن طريق أَهْل الشّيعة، والسُّنَّة كَما صرح ذَلِكَ أَكْثَر الْفُقَهاء، والعُلَمَاء، وأَصْحَاب الحَدِيث، والسُّنَن مع وجود بَعْض الإِخْتِلاَف فِي اللّفظ، كما ذكرنا سابقاً. أُنظر، صَحِيح التِّرمِذي: ٢/٢٩٩ ح ٣٨٠٧، سُنَن التِّرمِذي: ٥/بَاب ٨٧ / ٣٠١، مُسْنَد أحمد: ٥/٣٠.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: من كتابٍ له عليه السلام رَقم (١٨٩)، تَفسِير الطبري: ١٣/٢٢١، المُستَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ٢/٣٨٣ ح ٣٣٤٢ وص: ٥٠٦ ح ٣٧٣٦، السُّنن الواردة في الفِتَن: ٤/٨٣٨ ح ٤٢٨ و: ٦/١١٩٦ ح ٦٦٤، معتصر المختصر: ٢/٣٠٢، كنز العُمَّال: ١٣/١٦٥ ح ٣٦٥٠٢ و: ١٤/٦١٢ ح ٣٩٧٠٩، تَأْرِيخ مدينة دمشق: ١٧/٣٣٥ و: ٤٢/٣٩٧، سير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧، تَأْرِيخ اليعقوبي: ٢/١٩٣، كشف الغمّة: ١/١١٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/٢٠٨.

(٣) أُنظر، «أَخبَار القُضَاة» لوكيع ـ مِن عُلَمَاء السُّنَّة فِي القرن الثَّالث الهِجري: ١/ ٨٩ طَبْعَة سَنَة ١٩٤٧م. (مِنهُ رحمه الله).

(٤) أُنظر، «أَخبَار القُضَاة» لوكيع ـ مِن عُلَمَاء السُّنَّة فِي القرن الثَّالث الهِجري: ١/ ٨٨ طَبْعَة سَنَة ١٩٤٧م.

(أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَ وَضَعَهُمْ). إنّ رِفعة الإِنْسَان، أو ضِعته لا تُقاس بالكرَاسِي، والمنَاصب، ولا بالإِنْتصَارات، أو الهزَائِم فِي المعَارِك، ولا بالعَبقرِية، أو البَلادة، وإنّما تُقاس رِفعته مِمَّا يَترك مِن أثرٍ مُفيد يَنْتَفع بِهِ أخُوه الإِنْسَان، أمّا النُّصوص والأقوال فَهِيَ فَرعٌ لا أصلٌ، لِأَنَّهَا تَعبِير، وحكَايَة عمّا هُو كَائنٌ، ووَاقع... وَهِي حُجّة إنْ تَكُ انعكاساً عَن الوَاقع، وإلّا فَهِيَ، وهَمٌ، وخَيال... ومن تَتبّع سِيرة أَهْل الْبَيْت يَجد أنّ مَبادئهم تَقرير لحَقّ الإِنْسَان، وتَعاليمهم إعلاَن لهَذا الحَقّ، وأعمَالهم تَضحِيات بالنَّفس، والأَهْل مِن أجل الإِنْسَان، وخَيره، وهدَايته، قَالَ أَمِير الْمُؤمِنِينَ لولده الإِمَام الحَسَن: «فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»... «وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَىٰ الْمَكْرُوهِ»، «وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ»[1]. أَبداً.. لا خَيْر فِي الفصَاحَة، والبَلاَغَة، ولا فِي العلُوم، والفَلْسَفَة، ولا فِي الفنُون، والآدَاب فِي مَذْهَب أَهْل الْبَيْت إلّا مَا يَستهدف مِنْهَا خَيْر الإِنْسَان، وتَقدمه فِي حَياته، ويُحقق أَمَانِيه، وآمَاله بكلّ الوَسَائِل، وأَفضلها جَمِيعاً الكفاح، والجِهَاد، وخُوض الْغَمَرَاتِ، والشَّدَائِد... بِهَذَا وَحده رَفع الله سُبْحَانَهُ مَكانة أَهْل الْبَيْت إِلىٰ أَعلىٰ الدَّرجَات، وأَنزلهُم مَنازل العِزِّ، والْكَرَامَة، وأَعطاهم مَا يَرضُون، ويُحبُون.

↩ (مِنْهُ ﷺ). ومُسْنَد زيد بن عليّ: ٢٩٤، دَعَائِم الإِسْلاَم: ٥٢٩/٢ ح ١٨٨٠، مناقب أَمِير الْمُؤمِنِينَ للكوفي: ٦٠٥/٢ ح ١١٠٤، تَاريخ مدينة دمشق: ٤٩٠/٢، المُصَنَّف لِابن أبي شيبة: ٥٨/١٢، المسترشد في الإِمَامَة: ٣٥٢، شرح الأَخْبَار: ٣٠١/٢ ح ٦٢٠، الطَّبقَات الكُبْرَىٰ: ٣٣٧/٢، مُسْنَد أحمد: ١٣٦/١، سُنَن ابن ماجه: ٧٧٤/٢، أنسَاب الأَشْرَاف: ١٠١/٢، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٢٦٨/١، تَاريخ بغداد: ٤٤٣/١٢، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٢.

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: مِن وصيةٍ لهُ عليه السلام لِلإِمَام الحَسَن عليه السلام رَقم (٣١).

(إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لاٰ تَصْلُحُ عَلَىٰ سِوَاهُمْ، وَ لاٰ تَصْلُحُ الْوُلاٰةُ مِنْ غَيْرِهِمْ). لَيْسَ هَذَا مِن عِند الإِمَام، إنّه مِن عِند الله، ورَسُوله، فلقد روىٰ البُخَاريّ في صحيحه: إنّ رَسُول الله، قَالَ: «لا يَزال هَذَا الأَمْر فِي قُرَيْش مَا بَقِي مِنهم آثنان»[1]. وروىٰ مُسْلِم في صحيحه: «إنّ الله تَعالىٰ آصطفىٰ كِنانة مِن وِلد إسْمعيل، وآصطفىٰ مِن كِنانة قُرَيْشاً، وآصطفىٰ مِن قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِم، وآصطفانِي مِن بَنِي هاشمٍ»[2]. ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ بَنِي هَاشم هُم صَفْوة قُرَيْش، وإنّ

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٩/ كتاب الأَحْكَام. (مِنْهُ ﷺ). صَحِيح البُخَاريّ: ٨/ ١٢٧، صَحِيح مُسْلِم: ٦/ ٣، وفي رواية: لايزال أمر النّاس ماضياً... وفي حديثين مِنْهُمَا «إلىٰ آثني عشر خَلِيفَة...». «حَتَّىٰ يكون عَلَيْكُم آثنا عشر خَلِيفَة...». وفي صَحِيح البُخَاريّ: ٤/ ١٦٥: يكون آثنا عشر أمِيراً كلّهم من قُرَيْش.

وأنظر، سُنَن أبي داود: ٣/ ١٠٦، ٤/ ١٠٦، ومُسْنَد الطَّيَالِسِي: ح ٧٦٧ و ١٢٧٨، ومُسْنَد أحمد: ٥/ ٨٦ و ٩٠ و ٩٢ و ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٨، و: ١/ ٣٩٨ و ٤٠٦، وكنز الْعُمَّال: ١٣/ ٢٦، وحلية الأَوْلِيَاء لأبي نعيم الاصبهاني: ٤/ ٣٣٣، وفتح الباري: ١٦/ ٣٣٨، ومُسْتَدرَك الصَّحِيحين: ٣/ ٦١٧، ومُنْتَخَب الكنز: ٥/ ٣٢١، وتَأريخ آبن كثير: ٦/ ٢٤٩، وتَأريخ الخُلَفَاء: ١٠، والصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٢٨، وصَحِيح مُسْلِم بشرح النّووي: ١٢/ ٢٠٢، وتلخيص المُسْتَدرَك للذهبي: ٤/ ٥٠١، ومَجْمَع الزّوائد: ٥/ ١٩٠، والجَامِع الصَّغِير: ١/ ٧٥، وشواهد التّنزيل: ١/ ٤٥٥/ ٦٢٦، ونَهْج ٱلْبَلاَغَة ٱلْخُطْبَة ١٤٢، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٥٢٣ بَاب ١٠٠، وإحياء علوم الدّين: ١/ ٥٤، والعهد القديم سفر التّكوين: ١٧/ ٢٠ و ٢٢، كما جاء في المُعْجَم الحديث عبري عربي: ٣١٦ و ٣٦٠، وتَأريخ اليعقوبي: ١/ ٢٤، سُنَن السّجستاني: ٤/ ١٥٠، كنز الْعُمَّال: ١/ ٣٧٩ و: ٦/ ٤٨ ح ١٤٧٩٢، مَجْمَع الزّوائد ومنبع الفوائد: ٥/ ١٩٢، السّنن الْكُبْرَىٰ: ٣/ ١٢١، مختصر: ٢٤، المجموع: ١٩/ ١٩٢، بدائع ٢/ ٣١٩، المحلىٰ: ٧/ ٤٩١.

(٢) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/كتاب الفضائل. (مِنْهُ ﷺ). و: ١/ ١٧٨٢ و: ٤/ ١٩٦٣، تحت رقم «٢٥٣٣»، وأخرج البُخَاريّ في صحيحه: ٤/ ١٦٦، وأحمد في مُسْنَده: ٢/ ٤١٧، وكنز الْعُمَّال: ١١/ ٤٢٧، وأحمد في الزُّهْد، والحافظ أبو محمّد الْحَسَن بن أبي طالب محمّد بن الْحَسَن بن عليّ البغدادي، الْمَعْرُوف بالخَلاَّل في «كرامات الأَوْلِيَاء» بسند صَحِيح علىٰ شرط الشّيخين عن آبن عبّاس قَالَ: «ماخلتِ الأَرْض من بعد نُوح

⇐ من سبعة يدفع الله بِهِمْ عن أَهْلِ الأَرْض». وأخرج ابن جرير في تَفْسِيره عن شهر بن حَوْشَب قَالَ: لم تبق الأَرْض إلا وفيها أَرْبَعَة عشر يدفع الله بِهِمْ عن أَهْلِ الأَرْض، ويخرج بركتها إلاّ زمن إبْرَاهِيم فـإِنَّه كَـانَ وحده.

وأخرج أحمد في الزُّهْد عن كعب قَالَ: «لم يزل بعد نُوح في الأَرْضِ أَرْبَعَة عشر يدفع بِهِمْ العذاب».

وأخرج الخلال في «كرامات الأَوْلِيَاء» عن زاذان قَالَ: «ماخلت الأَرْضِ بعد نُوح مـن اثـني عـشر فصاعداً إلاّ يدفع الله بِهِمْ عن أَهْلِ الأَرْضِ».

إِذَنْ هَذِهِ الآثار تدل علىٰ أنّ من ذرية إبْرَاهِيم أناساً علىٰ الْفِطْرَة يعبدون الله. وتدل أيضاً علىٰ أنّ أجداد النّبي ﷺ كانوا علىٰ الحنيفية دين إبْرَاهِيم، ولو كانوا علىٰ الكفر فلا يخلو إمّا أنْ يكون الذين علىٰ الْفِطْرَة، والذين يدفع بِهِمْ غَيْرهم، أو لا يكون أحد كَذَلِكَ. والثّاني بَاطِل؛ لأنّه خلاف الوارد مـن هَـذِهِ الآثـار الصّحيحة، والأَوّل بَاطِل أيضاً؛ لأنّه يلزم عَلَيْهِ أنْ يكون غَيْرهم خيراً مِنْهُم، إذ لايكون كافر خيراً مـن مُسْلِم. وَهَذَا اللازم بَاطِل لمخالفته الحديث المروي في البُخَارِيّ وصَحِيح مُسْلِم، كتاب الفضائل، والتّرمذيّ كتاب المناقب قَوْله ﷺ: «إنّ الله اصطفىٰ من ولد إبْرَاهِيم إسْمَاعِيلَ، واصطفىٰ من ولد إسْمَاعِيلَ بني كنانة، و..» فالخَيْرِية، والاصطفاء تُشعر بالإِسْلاَم.

أُنظر، التّرمذيّ كتاب المناقب: ٥ / ٥٨٣، مُسْنَد أحمد: ٤/١٠٧، وأخرج البَيْهَقِيّ في دَلاَئِـل النُّـبُوَّة: ١/١٧٤ عن أنس أنّ النّبيﷺ قَالَ: «ما افترق النّاس فرقتين إلاّ جعلني الله في خيرهما، ما خرجت من بَيْنَ أبَوَي فلم يصبني شيء من عهر الْجَاهِلِيَّة، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدَمَ حَتَّىٰ انتهيت إلىٰ أبي وأُمّي، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً».

وعن الزُّبَيْر بن بكار في عُيُون الأثر لابن سيّد النّاس: ١/٢٤، دار الْمَعْرِفَة قَالَ: حدثني سُفْيَانَ بـن عيينة عن جعفر بن محمّد عن أبيه قَالَ: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» قَالَ أحدكم من أنفسكم لم يصبه شيء من ولادة الْجَاهِلِيَّة. قَالَ: وكَانَ رسول اللهﷺ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح...» وروي مرفوعاً من حَدِيث ابن عبّاس وعَائِشَة أنّ النّبي ﷺ قَالَ: «خرجت من نكاح غَيْر سفاح...» وفي البداية والنّهاية: ٢/٢٥٥، دار الْفِكْر.

وذكر السّيوطيّ في الخصائص: ١ / ٦٣، طَبْعَة دار الكتب العلمية، بيروت «جميع الرِّوَايَات الْمُتَعَلِّقَه ذَلِكَ.

⇐

مُحَمّدﷺ هو صَفْوة الصَّفْوة، وإذَا كَانَتْ النُّبُوّة لصفْوة الصّفْوة فالْوِلاَيَة، إذَنْ، لِلصَّفْوة من بعد الرَّسُول أي للأئِمَة، مِن نَسله، أمّا سِرّ الاِصطفَاء فَيكْمُن فِي طِيب السِّيرَة، والسَّرِيرة: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

(وَ لاَ تَصْلُحُ عَلَىٰ سِوَاهُمْ) لأنّ الله سُبْحَانَهُ طهّر أَهْل ٱلْبَيْت ونزّههم عن الخَطَأ والخَطِيئَة بنصّ الآيَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

⇐ وأنظر، الطّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٦٠/١، طَبْعَة دار الصّادر،بيروت. وَقَالَ عبد الباسط الحنفيّ في غَايَة السّؤول في سيره الرّسُول: ٢٥، طَبْعَة دار الكتب، بيروت «إنّ نسب رسول الله ﷺ وشرف وكرم أشرف نسب وأفخره بَيْنَ الأعراب... وَقَالَ السّيوطيّ في الحاوي للفتاوي: ٢١٠/٢، طَبْعَة دار الكتب العلمية، بيروت « الأَوْلىٰ أنّ الأحَادِيث الصّحيحة دلت علىٰ أنّ كلَ أصل من أصول النّبيﷺ من آدمَ إلىٰ أبيه عبد الله فَهُوَ من خير أَهْل قرنه وأفضلهم... قَالَ وأخرج البُخَاريّ في صحيحه: ١٦٦/٤، عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رسول اللهﷺ «بعثت من خير قرون بني آدمَ قرناً فقرناً حَتَّىٰ بعثت من القرن الّذي كنت فِيهِ»، والحديث الّذي أخرجه البُخَاريّ في صحيحه بلفظ «خير النّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» راجع كتاب الشّهادات، بَاب «٩»: ٢٥٨/٥ تحت رقم «٢٦٥١»، سُنن أبي داود: ٤٤/٥ تحت رقم «٤٦٥٧»، والتّرمذيّ في سننه: ٥٠٠/٥ تحت رقم «٢٢٢٢»، مُسْنَد أحمد: ٣٧٨/١، و٤١٧ وسُنَن ابن ماجه: ٧٩١/٢، وأخرج البَيْهَقِيّ في دَلاَئِل النُّبوّة عن أنس أنّ النّبي ﷺ قَالَ: «ما افترق النّاس فرقتين إلاّ جعلني الله في خيرهما...» وَقَالَ محب الدّين الطّبريّ في ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٠، انتشارات جهان، عن واثلة بن الأسقع قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ «إنّ الله اصطفىٰ من ولد آدمَ إبْرَاهِيم...». أنظر البُخَاريّ: ٣٠/٥، الإنباه علىٰ قبائل الرّواة، لاِبن عبد البر: ٤١، مختصر تَأريخ دمشق: ٢٧/٢، دَلاَئِل النُّبوّة للبيهقي: ١٦٥/١، السّيرة النّبويّة: ٢٠١/١، سُبل الهُدىٰ والرّشاد للصالحي: ٢٧٥/١، سيرة ابن هشام: ١١٠/١، تراث الإِسْلاَم، ابن كثير في سيرته: ١٩٠/١، دار إحياء التّراث، وغَيْر ذَلِكَ من الأَحَادِيث.

(١) ٱلأَنْعَام: ١٢٤.

(٢) ٱلأَحْزَاب: ٣٣.

أَيْنَ الْعُقُولُ...أَيْنَ الْقُلُوبُ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

آثَرُوا عَاجِلًا، وَ أَخَّرُوا آجِلًا، وَ تَرَكُوا صَافِياً، وَ شَرِبُوا آجِناً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ فَاسِقِهِمْ وَ قَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَ بَسِئَ بِهِ وَ وَافَقَهُ، حَتَّىٰ شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَ صُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ[٣]!

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَىٰ، وَ الْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَىٰ مَنَارِ التَّقْوَىٰ! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ لِلّٰهِ، وَ عُوقِدَتْ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ! ازْدَحَمُوا عَلَىٰ الْحُطَامِ، وَ تَشَاحُّوا عَلَىٰ الْحَرَامِ، وَ رُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ، وَ النَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَ أَقْبَلُوا إِلَىٰ النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَ دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَ وَلَّوْا، وَ دَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا، وَ أَقْبَلُوا[٤]!

اللُّغَة:

آجِن الْمَاء فَهُو آجِن: تَغيّر لونَه، وطَعمه. وَبَسِئَ بِهِ: أَلِفَه. والخَلَائِقُ هُنا: جَمع الخَلِيقَة، وَهِي الطَّبِيعَة. والتَّيَّارِ: المُوج. الهَشِيمِ: اليَابِس المُتكسر. وتَحطَّم: تَكسّر، والحُطَامِ: الفُتَات.

الإِعْرَاب:

مُزْبِداً حَال من الضَّمِير المُستتر بأَقْبَلَ، وكَالتَّيَّارِ الكَاف بِمَعْنَىٰ مَثل صِفة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف أي إقبَالاً مِثل إقْبَال التَّيار، ولا يُبالِي مَا غَرق «مَا» مَنصُوبة بِنزع الخَافض أي لا يُبالِي بِمَا غَرق، ومثل لا يَحْفِلُ مَا حَرق.

الْمَعْنَىٰ:

(آثرُوا عَاجِلًا، وَ أَخَّرُوا آجِلًا، وَ تَرَكُوا صَافِياً، وَ شَرِبُوا آجِناً). يُشِير الْإِمَام بهَذا إلىٰ أَجيَال الخَلف، وأنّهم يُقبلون عَلىٰ الدُّنْيَا، ويُعرضُون عَن الْآخِرَةِ، ويتهَاونُون بالدِّين، والْقِيَّم، ويكثر فِيهِمْ الفُسق، والالحاد... حَتَّىٰ رِجَال المعَابد يَتلاَعب الكَثير مِنهم بالدِّين، ويتحَايلون عَلىٰ النَّاس بٱسمه، ويَقبضُون الثَّمن مِن الخَارجِين عَلَيْهِ، وعلىٰ ٱلإِنْسَانية... ولا نَملكُ سِلاحاً يُكافح هَـؤُلاَء غَـيْر التَّشهير بِهِمْ، وإظهار حَقِيقَتهِم، ولكنْ أية جَدوىٰ مِن مَقالٍ فِي جَرِيدة تُقرأ، ثُمّ تُرمىٰ، أو كَلِمَة تُسمع، ثُمّ تُنسىٰ، ولا سَبيل لبلوغ الهَدف إلّا التَّنظِيم، والمُثابرَة.

(كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ فَاسِقِهِمْ وَ قَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَ بَسِئَ بِهِ وَ وَافَـقَهُ... لا يَحْفِلُ مَا خَرَّقَ). الْمُرَاد بالْفَاسِق هُنا فَاسِق الخَلف، والْمَعْنَىٰ أَنّ هَذَا الْفَاسِق ٱعـتَاد القَبِيح، والْمُنْكَر حَتَّىٰ هَرم عَلَيْهِ، وصَار طَبِيعَة لهُ، يَندفع وَرَاءه مَاضِياً فِي سَبِيله بَلا وَعي تَمَاماً كَلُجَة البَحر أو النَّار لا تُبالِي بمَصِير مَا يُصادف طَـرِيقها (أَيْـنَ الْـعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَىٰ، وَ الْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَىٰ مَنَارِ التَّقْوَىٰ! أَيْنَ الْـقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ، وَ عُوقِدَتْ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ) أي لاَ دِين يَمنع عَن ٱلْحَرَام خَوْفاً من اللهِ، ولا عَقل يَردع عنهُ حَيَاء مِن النَّاس، لأنّ الْهَوَىٰ غَـطىٰ عَـلىٰ الْـعُقول، والْـقُلُوب (ٱزْدَحَمُوا عَلَىٰ الْحُطَامِ، وَ تَشَاحُّوا عَلَىٰ الْحَرَامِ). لاَ بَأس أنْ تَطلب لَذة الدُّنْيَا مِن طَرِيق المُبَاح، ولكن المحنَة عَلَيْكَ، وعلىٰ مُجتمعك أنْ تَطلب ٱلْحَرَام، ولا تَملك نَفْسَكَ عَنْه، وتُخاصم غَيْرك عَلَيْهِ (وَ رُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ، وَ النَّارِ). الْمُرَاد بِعَلم الْجَنَّة كلّ مَا يَهدي إِلىٰ نَهْج أَقوم، وحَيَاة أَفضل، وكَلاَم الْإِمَام عليه السلام هُـنا يُـفسر بَـعضه بَـعضاً، فقَوْله: (وَ دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا) تَفْسِير لِصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُـوهَهُمْ، وقَـوْله: (وَ دَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَٱسْتَجَابُوا) تَفْسِير لأَقْبَلُوا إِلَىٰ النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ.

الخطبة
ـ١٤٥ـ

مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَ فِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَىٰ، وَ لاَ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَ لاَ تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلاَّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ؛ وَ لاَ يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ، إِلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ؛ وَ لاَ يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ؛ وَ لاَ تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلاَّ وَ تَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَ قَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!

وَ مَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدَعَ، وَ الْزَمُوا الْمَهْيَعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَ إِنَّ مُحْدِثَاتِهَا شِرَارُهَا.

اللُّغَة:

الغَرَض: الْبُغْيَة، والحَاجَة، والهَدف الَّذي يُرمىٰ إِلَيْهِ، وهَذَا هُو المُرَاد هُنا. ونَضِلُ فُلاَن فُلاناً: غَلبه في النِّضال، وانْتَضِل الـقَوْم، أو تـناضَلوا: تَـبَاروا في النِّضَال،

وتَرامُوا لِلسَّبق. وشَرِق بريقه، أو بالْمَاء غَصَّ. ومِن حِكم الْإِمَـام: «وَرُبَّمَـا شَرِقَ شَارِبُ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ»[1]. ويَخْلَقَ ـ بسكون الخاء وفتح اللازم ـ يُبلىٰ.
والْمَهْيَع: الطَّرِيق الوَاسِع الوَاضح. وعَوَازِمَ الْأُمُورِ: مَا تَقَادم مِنْهَا.

الإِعْرَاب:

مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ خَبَر مُقَدَّم، وشَرَقٌ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ «مَا» آسـتفهام، ومعنَاه النَّفي، ومحَلها الرَّفع بالاِبْتِدَاء، وبَقَاءُ خَبَر وبَعْدَ مُتعَلِّق ببَقَاءُ لأنّه بِمَعْنَىٰ الفِعْل أي لاَ يَبْقَىٰ الأصل بَعْدَ الفَرْع.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَ فِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ). كلّ مَا يُحيط بآلإِنْسَان فيهِ جِهة آيجاب، وجِهة سَلب، حَتَّىٰ طعَامه وشَرَابه قَد يَذهبَان بحيَاته... ومَن الَّذي يَضمن نَفْسه أنْ لا يَشرَق بجَرْعَةِ مَاءٍ، أو لا يَغُصّ بلُقمَة عَيشٍ تَكون فِيها القَاضِية، وإذَنْ فألاِنْسَان عَرضَة لِـسهَام البَـلايا والمنَايا.

وتَسْأَل: ولِمَ كلّ هَذَا التَّشاؤم عِند الإِمَامِ؟.

الجَوَاب:

هَذَا هُو الوَاقع سَواء أسْمِـيته تَشاؤُمَاً أم تَفاؤلاً، وأَكد الإِمَام عَلىٰ إعلانَه لمجـرد

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكمَة (٢٧٥).

التَّحْذِير مِن المُخبآت، والمُفاجآت... فآدَم سَجَدَ له الملائكةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، وبعد قَليل أُخرج من جنَّة النَّعِيم، والعَاقِل مَن آتعظ بِغَيْرِه، وبخَاصَّة إذا كَان هَذَا الغَيْر أصلاً له، وأَباً.

(لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إلاّ بِفِرَاقِ أُخْرَىٰ). إنّك تَأنس، وتَفرح بسيَارتك الجَدِيدة، وتَنسىٰ همُومك فِي السّياحَة، والأسْفَار المُمتعة، ولكن بَعد أَنْ تَدفع الثَّمن غَالياً، وقِيل فِي التَّفْسِير هَذِه الجُملة: إنّ آلإنْسَان لا يَسْتَطِيع الجَمع فِي آنٍ واحد بَيْنَ لَذتين، أو أَكْثَر كَالطعَام، والشَّرَاب، والجِنْس، بَل لاَ بُدّ مِن الإقْتِصَاد عَلىٰ وَاحِدَة. ويُلاحظ بأنّ في مَقدُوره أنْ يَجمع بَيْنَ لَذّة الحُكْم، والسُّلْطَان، والثَّراء، والطَّعام فِي آنٍ واحد، وبَيْنَ التَّمتع بمَناظر الطَّبِيعَة، والألعَاب، والاِستماع إِلىٰ المُوسَيقىٰ، أو حَدِيث الأَصدقَاء، وبَيْنَ التَّزلج عَلىٰ الثَّلج، والنَّظر إِلىٰ الأَطْفَال يترَاشقُون بِهِ.

(وَ لاَ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إلاّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ). السَّاعة الفَائِتة تَذهب مِن عُمرك، ولا يُمكن إعَادتها بحَالٍ، والّتي أنْتَ فيها فِي طَرِيقها إِلىٰ الزّوال، والّتي بَعْدَهَا في كَفّ الْقَدَر، فإنْ سَمح بِهَا فَهِيَ عَلىٰ سَبِيل مَا قَد مَضىٰ، وفِي النّهاية يَنقضي الْعُمُر مع السَّاعات (وَ لاَ تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إلاّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ). آلإنْسَان يَأكُل مَا قُدر لهُ من آلرِّزْق عَلىٰ دُفعات، ولا مَكان للوجبة الثَّانِيَة إلاّ بَعد خرُوج الأُولىَ مِن بَطنه، أو فِي طَرِيقها إِلىٰ الخرُوج (وَ لاَ يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ، إلاّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ). للطّفُولة بَهجتها، ومَرحها، وللشَّباب نشَاطه، ووثَباته، وللشّيخُوخة جَلالها، وتجاربها... ولكن لا طفُولة مع الشَّباب، ولا شَباب مَع الشّيخُوخة، ومَا هِي إلّا مَراحل يَمر بِهَا آلإنْسَان... والرَّجُل مَسْئُول عن طِفله حَتّىٰ يَأنس مِنْهَا الرُّشد. فإذَا تَخطىٰ هَذَا المَسْئُول الكهُولة إِلىٰ الشّيخُوخة كَان مَحلاً لعِنَاية الأَبْنَاء

والأحْفَاد.

(وَ لاٰ يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إلاّٰ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ). هَذَا العَطف تَفْسِير للمعطُوف عَلَيْهِ، أو مِن بَاب عَطف العَام علىٰ الخَاص مثل ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

(وَ لاٰ تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إلاّٰ وَ تَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ). يَأْتِي الأَبْنَاء فيذهب ٱلآبَاء تَمَاماً كالشَّجَرَة تنمُو، وتُثمر، ثُمّ تتحُول النَّواة مِن ثمرها إلىٰ شَجرةٍ، فإذَا أَثمَرت هَذِه ذبُلت تِلك، وٱنتهىٰ عُمرُهَا، وهَكذا دوالِيكَ تَستمر ٱلحَيَاة (وَ قَدْ مَضَتْ أُصُولٌ) وَهُم ٱلآبَاء (نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ) نَحْنُ أيضاً ذَاهبُون علىٰ أثر ٱلآبَاء، والأَجْدَاد، لأَنّ الفَرع لا يَزيد عَلىٰ الأصل فِي الاِستعداد للبقَاء، ومُدته، والغَرض مِن الْبَيَان مَا تَقَدَّم هو التَّنبِيه إلىٰ أنّ حَيَاة ٱلإِنْسَان تَذهب مَع الزَّمن، وإنّ عَلَيْهِ أنْ يَحرص كلّ الحِرْص علىٰ ٱنتهاز فُرص الخَيْر، والْعَمَل الصَّالح قَبل الأوان.

(وَ مَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إلاّٰ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ). كلّ تَحلِيل لا دَلِيل عَلَيْهِ مِن الشَّرع فهُو بِدْعَة، وإذَنْ فَمن ٱبتدَع فَقد تَرَكَ السُّنَّة، ومن أَخذَ بالسُّنَّة فقد تَرَكَ البِدْعَة (فَٱتَّقُوا الْبِدَعَ، وَ ٱلْزَمُوا الْمَهْيَعَ) وهُو الطَّرِيق الَّذي أَرشد إلَيْهِ كِتَاب الله، وسُنَّة نَبِيِّه (إنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَ إنَّ مُحْدِثَاتِهَا شِرَارُهَا) مَا ثَبتَ عَلىٰ عَهد النَّبِيّ ﷺ أَصح، وأقوىٰ مِمَّا ثَبت بَعْدَه إذَا لَم تَدعُ الحَاجَة إلَيْهِ، وإلاّ كَان ٱقراره تَمَاماً كالَّذي أَقرّه النَّبِيّ بالخصُوص إذ لا فَرق بَيْنَ العَام، والخَاص مِن حَيْث الحُجّة، ووجُوب الْعَمَل، ولاَ يَختلف عَالِمَان مِن ٱلْمُسْلِمِين أنّ الشَّرِيعة الإِسْلاَميّة تَقُوم علىٰ مصَالِح الْعِبَاد فِي المعَاش، والْمَعَاد.

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٨٤.

الخطبة

-١٤٦-

الْعَرَب كَثِيرُونَ بالإِسْلاَمِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ، وَ لاٰ خِذْلاٰنُهُ بِكَثْرَةٍ، وَ لاٰ بِقِلَّةٍ. وَ هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَ جُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ، وَ أَمَدَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَ طَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَ نَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَ اللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَ نَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَ مَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ، وَ يَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَ ذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً[1]. وَ الْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَ إِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلاٰمِ، عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَ اسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَبِ، وَ أَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَ أَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ[2].

اللُّغَة:

النِّظَامِ: السِّلك يَنتظم فيهِ الْخَرَز «يَجْمَعُهُ، وَيَضُمُّهُ» كما قَالَ الإِمَام. وحَذَافِيرِهِ: نَواحِيه، وجَوَانِبه أي بَأسره، والوَاحد حِذْفَار. وقُطْب الْقَوْم: سَيِّدهُم، وعَلَيْهِ

تَدور أُمُورهُم. وشَخَصْتَ: خَرَجت. والْعَوْرَاتِ: جَمع عَوْرَة أي الخَلل فِي ثغُور البِلاد.

الْإِعْرَاب:

حَيْثُ طَلَعَ «حَيْثُ» فِي مَحل جَرٍ بِمِن مَحذُوفة، أي مِن حَيْثُ طَلَعَ، وجُملة يَجْمَعُهُ حَال من النِّظَامِ، وأَبَداً نُصب عَلىٰ الظَّرف، وهُو يُؤكد المُسْتَقْبَل نفياً، أو اثبَاتاً، ولا دَلاَلَة فيهِ عَلىٰ الدّوام إِلىٰ مَا لا نِهايَة، ونَاراً مَنصوبة بِنزع الخَافض أي أحرقهم بِنار. وبَيْنَ مُتَعَلّق بِمحذُوف بنَار. بَيْنَ مُتَعَلّق بمحذُوف خَبَراً لمُبْتَدَأ مَحذُوف أي مِمّا هُو كَائِن بَيْنَ يَدَيْكَ.

لاَ نَصرَ إلّا بالْإِخْلاَصِ وَالتَّمَاسُكِ:

أَستشَار عُمَرَ فِي أَمر القَادِسية[1]، أو نَهَاوند عَلىٰ اختلاف الرُّواة، فأشَار عَلَيْهِ البَعض أنْ يَخرج بنَفْسِه، فَنهاه الإِمَام وحَذره بقَوْله: (إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ، وَ لاٰ خِذْلاٰنُهُ بِكَثْرَةٍ، وَ لاٰ بِقِلَّةٍ. وَ هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَ جُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ، وَ أَمَدَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَ طَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ). كَتَبَ النَّبِيّ العَرَبِي ﷺ، وهُو لا يَملك مِن الْأَرْض مَوطىء قَدمِيه، ولاَ من الْمَال أَبْيَض، أو أَصفر، ولا مِن السِّلاَح مَا يَرعب بهِ دُوِيلة صُغرىٰ، كَتب إِلىٰ كلٍّ مِن كُسرىٰ، وقيصَر «أسلِمْ تَسلَم»[2] أي اتبعنِي،

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لإبْن أَبِي الحَدِيد: ٩/٩٧.

(٢) أُنظر، السِّيرَة الحَلَبِية: ٢/٢٧٧، زاد المَعَاد لِابْن القَيِّم: ٣/٦٠، السِّيرَة لزيني دَحلان بهامش السِّيرَة ⟸

وأطعنِي أَيُّها المَلك المُتغطرس، ولكَ الأَمَان إنْ فَعلت، واستجبت، وإنْ أَبِيت وتَولِّيت حَاق الهَلاك، والدَّمار بكَ، وبقُومك، ولا يَمنعك منِي مَا أنْتَ فيهِ من جَيشٍ، وسلاحٍ، ومَال، وسُلطان... وضحك كُسرىٰ غَاضباً، وأَمر مَن يَأتيه بالعَربِي المُتجرىء حَيّاً، أو مَيّتاً، أمّا المَلأ مِن قَوْم قَيصَر فسخرُوا، وقَالُوا: أيحسبنا هَذَا العَربِي مِن قبَائل البَادِية؟.

ولَم تَمض الأَيّام حَتَّىٰ تَحققت نبُوءة رَسُول الرَّحْمَة، وانتصرت أُمّته عَلىٰ سُلطان الرُّومِ، وفَارس، ودَاس رُعاة الإِبلِ عَلىٰ تَاج كُسرىٰ بأقدَامهم... وعَجب العَالم لهَذه الظَّاهِرة الخَارقة!... عَرب البَادِية، وأهُون الخَلق شَأناً يُحطمُون عرُوش الأكَاسرة، والقيَاصِرة فِي بِضع سِنِين!... ومَا لهَذا مِن نَظِير فِي تَأرِيخ الدّول مِن قَبل ومَن بَعد... وقِيل في تَفْسِيره أقَاوِيل[1].

مِنْهَا: أنّ خشُونَة البَادِيَة غَلبت تَرف الحضَارة.

ومِنْهَا: أنّ المُسْلِم كَان يُلقي بنَفْسِه إلىٰ الْقتل رَغْبَةً فِي إحْدَىٰ الحُسْنَيَيْنِ: الجَنَّة، أو الْغَنِيمَة، أو هُما مَعاً، ومَا كَانَتْ هَذِه الْعَقِيدَة لجِيُوش الرُّومِ أو الفُرس...

أمأ الإمَام فَلا يَرىٰ لهَذا الإنْتصَار مِن تَفْسِير إلّا أنّ الله سُبْحَانَهُ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

⇐ الحَلَبِية: ٦٥/٣، تَأريخ الخميس: ٣٤/٢، تَأريخ اليعقوبي: ٦٦/٢، إعْجَاز الْقُرْآن: ١١٢، البداية والنّهاية: ٢٦٩/٤، نصب الرّاية للزّيلعي: ٤٢٠/٤، الكَامِل لِابْن الأثير: ٢١٣/٢، كنز الْعُمَّال: ٢٧٤/٤، تَأريخ ابن خلدون: ٢/ق٢/ ٣٧، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٦٥٤/٢، المُنتظم: ٢٨٢/٣، الوثائق السّياسيّة: ١٣٩، المواهب اللّدنية بشرح الزّرقاني: ٣٤٠/٣، رسالات نَبوية لعبدالمنعم خان: ٢٥٠، نشأة الدَّوْلَة الإسْلاميّة: ٣٠٦، جمهرة رسائل الْعَرَب: ٣٥/١، صبح الأَعْشَىٰ: ٢٩٦/٦، دَلاَئِل النُّبوَّة لِابْن الْقَيِّم: ٢٩٢، إعلام السَّائلِين: ٩.

(١) أنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ١٣١/٣، بحَار الأَنْوَار: ١٣١/١٨، البداية والنّهاية: ٧٧/٧، مناقب آل أبي طالب: ٩٥/١، تَأريخ ابن خلدون: ٤٢٩/٤.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]. وإِلىٰ هَذَا أَشار الإِمَام بقَوْله: (وَ نَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَ اللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَ نَاصِرٌ جُنْدَهُ).

أَنْجَزَ سُبْحَانَهُ وَعدَه لِلْمُسْلِمِين وِفقاً للنِّظام الطَّبِيعِي، وبالوَسَائِل الكَفِيلة بِالنَّصر الَّتِي أَشَار سُبْحَانَهُ فِي الآيَة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]. وإِذَنْ فَسَبب النَّصر عَادي ومَألُوف، لا خُوارق فِيهِ، ومُعجزَات، وهُو الإِخْلَاص، والتَّعاطف، والتَّماسُك بَيْنَ المُحقِين مَع العَزم عَلىٰ حَرْب المُعتدِي بقِيادَة المُناضل النَّاصح، أمّا كَثرة العَدد، والسِّلاح فَلا تُجدِي نَفعاً بدُون الإِخْلاص، والتَّماسُك.

(وَ مَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ، وَ يَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَ ذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً). القَائِد هُو الرَّابطة الَّتِي تَربط بَيْنَ أَفرَاد المُواطِنِين، وتَجمع شَملهم فِي كِيانٍ وَاحِدٍ، وتَحت رَايَة وَاحِدَة، ولا غِنىً عنهُ بِحَالٍ، وبِخَاصَّة فِي أوقَات الحَرْب، والأزمَات، وأي ضَرر يُلحق بهِ يَهز بِنَاء المُجتمع مِن أساسه (وَ الْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَ إِنْ كَانُوا قَلِيلًا) فِي عَدَدهِم، وعُدتِهم بالقِيَاس إلىٰ الفُرس، وغَيْرهم (فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ) مَا دَامُوا مُستمسكِين بعرُوته مُجاهِدِين فِي سَبِيله (عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ) فإذَا تَفرقَت كَلمتهم، وتَنافرت قُلوبهم

---

(١) ٱلتَّوْبَة: ٣٣.

(٢) ٱلْفَتْح: ٢٨ ـ ٢٩.

عَاشوا أذْلاء صَاغرِين، وإنْ كَانوا أَشد النَّاس غنىٰ، وأَكْثَرهُم عدداً، فعرف الْيَوْم يَملكون طَاقة كُبرىٰ من الجنُود، والثَّروة الطَّبيعِية[1]، ومع هَذَا يَسومهُم عَسفاً، ويَطردهُم مِن دِيارهِم عُنفاً «أَعوَر إِسْرَائِيلَ».

(فَكُنْ قُطْباً، وَ ٱسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَبِ، وَ أَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَ أَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ) الخِطَاب لِلْخَلِيفَة أي أَبق مَكانك، وٱبعث الجَيْش إِلىٰ عَدُوّك، وإنْ ذَهبت إِلَيْهِ بِنَفْسِكَ ٱنفرطَ العِقْد، ونُقض العَهد الَّذِين فِي قلُوبهم مَرض، وٱنكشفت الثّغُور لا تَردُ غَازياً، ولا تَصدُ طَامعاً (حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ) وَهِي الّتِي يَخشىٰ مَعَهَا الثَّوْرَة مِن الدَّاخل، والغَزُو من الخَارج، ولَيْسَ من شكٍّ أنّ تَلافِي ذَلِكَ بِبقائك (أَهَمَّ إِلَيْكَ) وإِلىٰ جَمِيع ٱلْمُسْلِمِين (مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ) أي من المُشْكِلَة الّتي تُعالجها الآن، وَهِي الإِنْتصَار علىٰ الأَعَاجِم.

لاَ نُقَاتِلُ بِالْكَثْرَةِ...فِقْرَة ٣:

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَ طَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَ هُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَ

---

(١) يَدخل إِلىٰ الخزَائِن الامِيركِية وَحدَها مِن بترُول العَرَب بِليُون ونصف البِليُون مِن الدُّولارات فِي كلّ سَنَة. (مِنهُ ﷺ).

إِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ، وَ الْمَعُونَةِ!

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اَقْتَطَعْتُمُوهُ اَسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَ طَمَعِهِمْ فِيكَ) أَنْتَ قَائِد الْعَرَب، والقَائِد بِمَنْزِلَةِ الرَّأْس مِن الجَسَد، ولا حَيَاة لِجَسدٍ لا رَأْسَ معهُ، فإذَا رَآك الأَعْدَاء قَالَ بعضهم لِبعض: هَذَا هُو الرَّأْس فاَقطعُوه، واَستمَاتوا فِي سَبِيل ذَلِكَ، لأَنّه أَقصىٰ ما يَطمحُون إِلَيْهِ (فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَ هُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ) إِنّك تُرِيد غَزْو الْعَدُوّ قَبل أَنْ يَغزُوك، وتَكره أَنْ يُغزىٰ ٱلْمُسْلِمُون فِي عُقر دَارهم خَشية الذُّل، والعَار... والله سُبْحَانَهُ أَشد مِنك كَرْهاً لِذَلك، وهُو قَادر عَلىٰ نُصرة ٱلْمُسْلِمِين بقِيادَة مَن تَختار لِخُوض المعرَكة، وأَنْتَ جَالِس فِي مكَانِك.

(وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَ إِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ، وَ الْمَعُونَةِ) لاَ تَخشَّ من كَثرة الْعَدُوّ، وقِلة ٱلْمُسْلِمِين مَا دَام الله مَعهم... حَتَّىٰ النَّبِيّ الكَرِيم مَا كَان لهُ أَنْ يَنتصر لَوْلاَ الاِمدَاد، والعُون مِن الله سُبْحَانَهُ، فوجّه الرِّجَال إِلَىٰ الْعَدُوّ، وتوكل علىٰ الله، وكَفىٰ بِربك نَصِيراً. وتَقَدَّم مِثل هَذِه ٱلْخُطْبَة[1].

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٣٣). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٤٧-

نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ ، وَ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَىٰ طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ ، وَ أَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَ لِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَ لِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ . فَتَجَلَّىٰ لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَ خَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ ، وَ كَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ . وَ ٱحْتَصَدَ مَنِ ٱحْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ(١) !

وَ إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَىٰ مِنَ الْحَقِّ ، وَ لاَ أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَ لاَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ ، وَ رَسُولِهِ ، وَ لَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَ لاَ أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَ لاَ فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَ لاَ أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَ تَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ(٢) : فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ ، وَ أَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَ صَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ . فَالْكِتَابُ وَ أَهْلُهُ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَ لَيْسَا فِيهِمْ ، وَ مَعَهُمْ وَ لَيْسَا مَعَهُمْ ! لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لاَ تُوَافِقُ الْهُدَىٰ ، وَ إِنِ

اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَىٰ الْفُرْقَةِ، وَ افْتَرَقُوا عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَ لَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَ لاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ، وَ زَبْرَهُ. وَ مِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَ سَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَىٰ اللهِ فِرْيَةً، وَ جَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ[٣].

اللُّغَة:

مَحَقَ: أَهلَك. والْمَثُلاتِ: جَمع الْمُثْلَة، وَهِي التَّنكِيل، والعُقُوبَة، والأمْـثُولَة: مَـا يَتمثل بِهِ. وأَبْوَرَ: أَكْسَد. وأَنْفَقَ: أَرْوَج. وَزَبْرَهُ ـ بسكون البَاء ـ كِتَابَته. ومَثَّلُوا: نَكَّلُوا.

الإِعْرَاب:

لِيُخْرِجَ مُضارع مَنصوب بأَنْ مُضمرة بَعد السَّلاَمِ، والْمَصْدَر المُنسبك مُـتَعَلِّق بِبَعَثَ، ومثلهُ ما بَعْدَه، وَكَيْفَ مَحَقَ «كَيْفَ» حَال، وضَمِير أنّه للشَّأن، مَا مَثَّلُوا «مَا» مَصْدَرِيَة، والْمَصْدَر المُـنسبك مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وَمِنْ قَبْلُ ـ بـالضَّم ـ خَـبَر مُـقَدَّم أي وتَمْثِيلهُم كَائن مِنْ قَبْلُ. وعَلَىٰ اللهِ مُتَعلِّق بفِرْيَة، أو بشَيء مَحذوف حَالاً من فِرْيَة، وجَاز أَنْ يَكُون صَاحب الحَال نَكرة لأنّه مُتأخر.

الْمَعْنَىٰ:

(فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ). حَطّم رَسُـول الله ﷺ الأَصْنَام، والزَّعَامَات الجَائِرة أيضاً، وَدَعا إِلىٰ الإِيمَان بإِله واحد، و (بِقُرْآنٍ

قَدْ بَيَّنَهُ، وَ أَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَ لِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ... إلخ) والعَالم باللهِ يَدخل فِي مَفهُومه العِلم بعدله، ورَحمته، وحِكمته، أمّا عِلم الإنْسَان بالْقُرْآن فمعناهُ أنْ يَعلم مَا لهُ، ومَا عَلَيْهِ، فلاَ يُهمل، ويُفرط فِي شيء من وَاجباته، أو فِي حَقٍّ من حقُوقه، ومِن هُنا كَان الْقُرْآن نَهج الحَيَاة السَّلِيم، وصراطها الْمُسْتَقِيم.

وحَسب الْقُرْآن عَظمةً أنْ يَتخصص بمَعْرِفَته غيْرِ الْمُسْلِمِين مِن عُلَمَاء الغَرب، فَيكتبُوا عن تَأرِيخه، ومَذاهب تَفْسِيره، ويَستلهمُوا منهُ العِلم بِمَا وَرَاء الطَّبِيعَة، وصِلة الإنْسَان باللهِ، ومَعْرِفَته الخَيْر، والشَّر، والجَبر، والاِختِيار، والكَثِير عن الأَرْض، والسَّماء، وبَعْض أخْبَار الأُمم المَاضِية، ودِيانَاتهم، وعَاداتهم، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ. وأعظم صِفة لِلْقُرْآن عِند الغَربِيين تَمِيزه عن كُتب الأَدْيَان الأُخرىٰ ـ أنّه لا يَتعارض مَع العَقْل، والعِلم، ولا يَدعو إلىٰ الجمُود، وأنّ تَعالِيمهُ تَعكس إرادَة الملاَيين.

(وَ إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَىٰ مِنَ الْحَقِّ، وَ لاَ أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَ لاَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ، وَ رَسُولِهِ.. مِنَ الْمُنْكَرِ). قَالَ ابن أَبِي الحَدِيد: «أَخبر الإِمَامعليه السلام إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاس زَمَانٌ مِن صِفته كذَا، وَكَذَا، وقَد رَأيناه، ورآه من كَان قَبلنا»[1]. وأيضاً رآه كلّ من جَاء بعد ابن الحَدِيد[2]. وَسيرَاه ويَشكُو منهُ كلّ آتٍ حَتَّىٰ يَأْتِي الله بأَمْرِه... والسِّر أنّ الإِنْسَان دَائماً يَطمح إلىٰ الأفضل مِمَّا هو فيهِ حَتَّىٰ إذا بَلغه نَظر إلىٰ الأعلىٰ، وهَكذا إلىٰ خلُود الذِّكر بَعد

(١) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لابن أَبِي الحَدِيد: ٩/١٠٥.
(٢) عبدالحميد بن أَبي الحَدِيد المُعْتَزلي المتوفّىٰ سَنَة (٦٥٥ هـ). (مِنهُ رحمه الله). صاحب الموسوعة الغراء: شَرح نَهج البَلاَغَة لِلإمَامِ عَليّ بن أَبي طالبعليه السلام.

الْمَوْت، إِلَىٰ مَا لاَ نهايَة... ومن هُنا قَالَ فِرْعَوْن: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١]، تُواضـع مُسيلمة فِي دَعُوته النُّبُوَّة... وفِي هَذَا العَصر، وفي كلّ عَصر أَلف فِـرْعَوْن، وأَلف مُسيلمة لَو وَجد من يُؤْمِن، ويُصدق.

أمّا كَذب عَلىٰ الله، ورَسُوله فهُو من خِصائِص الأَدْيَان الّتي لا مَصْدَر لهَـا، ولاَ أَساس، أو لهَا مُصدر، وأَسَاس، ولكن دَنستها يَد البِدْعَة بالتَّحرِيف، والتَّزِيـيف ... وفِي كِتاب «صِيد الخَاطر» لِابْن الجُوزي: «روي عن رَسُول ﷺ سَبع مِئة أَلف حَدِيث»[٢]... وعن ٱبن عُقدة أنّه، قَالَ: «أحفظ لأَهْل ٱلـبَيْت ثَـلاث مِـئة أَلف حَدِيث»[٣]... وعن الدّار قطني: «مَا الْحَدِيث الصَّحِيح فِي الْحَـدِيث إلّا الشَّـعرَة البَيْضَاء فِي الثُّور الأَسُود»[٤]، ولَيْسَ مِن شكٍّ أَنّ أَخطر الأكَاذِيب هِي الافتراء عَلىٰ الله، ورسوله (فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَ تَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ) حَـيْث تَـلاعبُوا بـتأوِيل آيَاته، وتَحايلُوا عَلىٰ ٱلتزامَاته، وٱتخذُوا مِن الدِّين مُطِية لبلُوغ المآرب، والغَايَات.

(فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ، وَ أَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ) لأنّ النَّاس، أو كَثِير منهُم أَعـرضُوا عَن كِتاب الله، وشَرِيعته، وٱعتنقُوا مَذاهب إلحَادِية، وفَلسفَات مَادِية تَهدف إِلىٰ المكاسب، والأَربَاح (وَ صَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ). أَهْل الْحَقّ مع الْقُرْآن، والْقُرْآن مَعهُم يَسِيران (فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ) يُؤدي بسَالِكه إِلىٰ الْأَمَـان مـن المـهَالِك (لاَ يُـؤْوِيهِمَا

---

(١) ٱلنَّازِعَات: ٢٤.

(٢) أنظر، صَيد الخَاطر: ٢١٦/١، طَبْعَة دار الْفِكْر دمشـق. وسـير أعـلام النُـبلاء: ٦٩/١٣، تَأْرِيخ بـغداد: ٣٣٢/١٠، من له رواية في مُسْنَد أحمد لمُحَمّد بن عليّ بن حَمْزَة: ٩.

(٣) أنظر، تأْرِيخ بغداد: ١٧/٥، سير أعلام النُبلاء: ٣٤٧/١٥.

(٤) أنظر، شرح نهج البَلاَغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٠٥/٩. بالإضَافة إِلىٰ المصادر السَّابقة.

مُؤْوٍ) . الْعَدُوّ يُحَارِب عَدُوّه ، ويُنكلّ بِهِ فكَيْفَ يَقبله ، ويُؤْوِيه ؟ (فَالْكِتَابُ وَ أَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَ لَيْسَا فِيهِمْ ، وَ مَعَهُمْ وَ لَيْسَا مَعَهُمْ) . هُما فِي النَّاس دَلاَلَة لا أثراً ، وفِي قِيام الحُجّة ، قَطع الْمَعْذِرَة ، أمّا مِن حَيْث الْعَمَل فلا مَكان لهُما عِند أعْدَاء الله ، والإنْسَانِية .

(لِأَنَّ الضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ الْهُدَىٰ) ولَو تَوافقا لاِنتفىٰ التَّعدد ، وكَـان النَّـاس أُمّـة وَاحِدَة علىٰ الْهُدَىٰ ، أو فِي ضَلالٍ مُبِين (وَ إِنِ اجْتَمَعَا) فِي مكَانٍ وَاحِدٍ فَكالخَصّمِين يَجْتَمِعَان فِي مَجلس الْقَضَاء (فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَىٰ الْفُرْقَةِ) . اتفقُوا عَلىٰ أنْ لاَ يَتفقُوا (وَ افْتَرَقُوا عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ) . تَفرقُوا عَلى أنْ لا يَجتمعُوا . وبكَلِمَة أنّ الإِمَام يَحث عَـلىٰ الوِفَاق والاِلفَة ، ويُنْكِر الفُرْقَة ، والإخْتِلاَف تَمَاماً كقَوْله تَعالىٰ : ﴿وَلَاتَكُونُواْكَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْوَاخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[1] . وقِيل فِي مـعناه غَـيْر ذَلِكَ ، وهُـو خِلاف الظَّاهِر ، أمّا البينَات الّتي جَاءت الْمُسْلِمِين فَـهِيَ الْـقُرْآن الكَـرِيم ، وسُـنَّة الرَّسُول العَظِيم ، ولذَا قَالَ الإمَام : (كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَ لَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ) . فِي الْقُرْآن كلّ مَا يَحتاج إِلَيْهِ الْمُسْلِمُون مِن أُمور دِيـنهم ، والسُّـنَّة شَرح لهُ ، وَبـيان ، وإذَنْ ، فالْقُرْآن أَصل الأُصُول ، والإمَام المُتَّبع ، ومَن أَخذَ برأيه ، واجْـتهَاده دُونَ الْقُرْآن فَقَد جَعل مِن نَفْسِه إِمَامَاً ، والْقُرْآن مُؤتماً بِهِ ، أَراد ذَلِكَ ، أَم لَم يَرد .

وَتَسْأَل : وَهل يُوجد فِي الْمُسْلِمِين مَن يَتعمد مُخالفة الْقُرْآن فِي شَيء ؟

الجَوَاب:

لا فَرق من حَيْث المَسْئُولية والمُؤاخذة بَيْنَ مَن يُخالف الْقُرْآن عَن قَصدٍ ، وبَيْنَ مَن

---

(١) آلِ عِمْرَانَ : ١٠٥ .

يُخالفه مِن غَيْر قَصد إذَا كَان هَذَا جَاهِلاً، أو لا يَملك من العِلم مَا يَستخرج بِهِ الأحْكَام من الْقُرْآن، أو كَان مُقلداً لِغير المُجْتَهِد الْعَادِل مَع التَّفْسِير فِي السُّؤال والْبَحْث.

(فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إلاَّ اسْمُهُ) ومِن كَلامٍ آخر لِلإمَامِ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَىٰ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَىٰ، سُكَّانُهَا، وَعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ؛ يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَىٰ أُولَئِكَ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ، وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ»[1] (وَ لاَ يَعْرِفُونَ إلاَّ خَطَّهُ، وَ زَبْرَهُ) أي كِتَابته، وتَسطِيره، وقَد يُعلقونه حِرزاً فِي الرِّقاب، أو يربطُونه فِي السَّواعد، ومَا عدا ذَلِكَ فَلَيْس بِهِم.... أَللَّهُمَّ إلّا التِّلاوة مِن الإذَاعة، وفِي المآتِم (وَ مِنْ قَبْلُ) أنْ يهملُوا الْقُرْآن إلّا الاسم، والخَط (مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ) نَكَّلُوا بِهِمْ شَرّ تنكِيل (وَ سَمَّوْا صِدْقَهُمْ) الضَّمِير للصَّالِحِين (عَلَىٰ اللهِ فِرْيَةً، وَ جَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ). الصِّدْق عِندهم كَذب، وافتراء، والْحَسَنَة سَيِّئَة، وجَرِيمَة ... ولا عَجب فإنّ «مَن تَكُن نَفْسه بغِير جَمَالٍ لا يَرىٰ فِي الوجُود شَيْئاً جَمِيلاً».

جَارَ اللهِ آمِنٌ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

وَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ، وَ تَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّىٰ نَزَلَ بِهِمُ

(١) أنظر، نَهج الْبَلاَغَة: الْحِكْمَة (٣٦٩).

الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَ تُرْفَعُ عَنْهُ التَّـوْبَةُ، وَ تَـحُلُّ مَـعَهُ الْـقَارِعَةُ، وَ النِّقْمَةُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ آسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ، وَ مَنِ آتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِيَ ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١) فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ، وَ عَدُوَّهُ خَائِفٌ، وَ إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَ سَلاَمَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ(٤). فَلاَ تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِـنَ الْأَجْـرَبِ، وَ الْبَارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ. وَ آعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَ لَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَ لَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَآلْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَ مَوْتُ الْـجَهْلِ. هُـمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَ صَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَ ظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ، وَ لاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَ صَامِتٌ نَاطِقٌ(٥).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِالْمَوْعُودُ هُنا الْمَوْت. وَالْقَارِعَةُ: مَا يَقرع الْقُلُوب بالأهوَال. وَالْبَارِئَ هُنَا مِن الْبَرَاءَة مِن العيب، أو المَرَض بدليل مُقابلته للسَّقَمِ.

الإِعْرَاب:

ضَمِير إِنَّه للشَّأن: ومَا عَظَمَتُهُ «مَا» للاِسْتفهَام، ومَحلها الرَّفع بالاِبْتِدَاء، وَعَظَمَتُهُ

---

(١) آلإِسْرَاء: ٩.

خَبَر لـ«مَا» أو لمُبْتَدَأ محذوف، والجُملة من المُبْتَدَأ الثَّانِي المَحذوف، وخَبَره خَبَر المُبْتَدَأ الأَوَّل، والتَّقدِير أي هِي عَظَمَتُهُ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ، وَ تَغَيُّبِ آجَالِهِمْ). الْمُرَاد بطُول الأَمَل الثِّقَة بِطُول الأَجَل، وآمتدَاد الْعُمُر... ولاَ شَيء أَخيب، وأَكذب مِن هَذَا الأَمَل، وعَلَىٰ أي شَيء آعتمد صَاحبهُ، وهُو يرىٰ المَأخُوذِين عَلَىٰ الغُرّة شَباباً، وأَطفالاً سَالمِين مِن الأسْقَام، والآفَات؟. والْمُرَاد بتَغَيُّبِ الأَجَل الجَهْل بزمنِ الْمَوْت مَع الغَفلَة عنهُ، وعَدم الاِحْتِياط لهُ، ولا شَكّ أنّ مَن وَثِق بِمَا لا يَركُن إِلَيْهِ، وغَفل عمّا لا يَغفل عَنْه ـ فإِنَّه يَسِير فِي المهالِك (حَتَّىٰ نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ) أي لا تَقبل الْمَعْذِرَةُ فِيهِ بحَالٍ، وهَل للمَوْت آذَان تَسمع الأعْذَار؟ (وَ تُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ) لأنْ آلتَّوْبَةِ تُصلح مَا أَفسد، وتَبنِي مَا هدَم، ومتىٰ تَعذَّر الاِصلاح، والبِنَاء لَم يَبق للتَّوْبَة مِن مَوْضُوع (وَ تَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ، وَ النِّقْمَةُ).

إذَا جَاء الْمَوْت فَلا تُوْبَة، ولا أُوْبَة، بَل أَهْوَال، وشدَائِد.

(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ آسْتَنْصَحَ اللهَ) سمع مِنْهُ أَطَاع (وُفِّقَ) إِلىٰ طَرِيق النَّجَاة، وفَاز بعلُو الدَّرجَات: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1]. (وَ مَنِ آتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِيَ ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾). كلّ دَلِيل يَحتمل العَكس، ولذَا رَأينا العَالم الأصِيل يَرتاب برأيه، ويُرحب بالنَّقد العِلمِي، بل يَتوخَاه، ويَتمنَاه، ولا

(١) ٱلْأَحْزَاب: ٧١.

يَستعمل في كلاَمه كَلِمَة هَذَا حَق، وغَيْره جَهل، وضلال إلاّ إذَا اَعتمد عَلىٰ الدَّلِيل القَاطع من كلّ وَجه، كَنصّ الوَحِي الصَّرِيح الَّذي لا يَأْتِيه الْبَاطِل من بَيْنَ يَدِيه، ولا مِن خَلفه، وبهَذا تَميز الْقُرْآن عَن سَائر اَلأدِلّة (فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ) أي من اَستجار بالله، أو من عَمل عَملاً يُقربه من الله فقد أَمن العُواقِب، والغُوائِل.

(وَ إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ). إنّ عَظمة الله سُبْحَانَهُ فِي قلُوب الْمُؤْمِنِينَ لا سَبب لهَا إلاّ مَعْرِفَتهم بهَذه العَظمة، ومَن عَرف عَظَمَته تَعَالىٰ لا يَرىٰ في الوجود شَيْئَاً عَظِيماً. ومن خُطْبَة ثَانِيَة لِلْإِمَامِ: «عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ ـ أي أَنْفُس الْمُؤْمِنِينَ ـ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ»[1]. (فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ). العَظِيم هو الَّذي يَخضع لِلحَقّ لا مَن يُعانده، ويتعَاظم عَلَيْهِ، قَالَ بَعْض العَارِفِين: «الخَفض ثَابت لِلعَبد بالإصالَة، والرِّفعة تَثبتُ لهُ بِالعَرض». أي أنّ اَلإِنْسَان بنَفْسِه لَيْس بشَيء، وإنّما يُقاس بأعمَاله، وآثَاره الصَّالِحَة النَّافِعة.

(وَ سَلاَمَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ) حَيْث يَعلمُون أنّه لا حَوْلَ لَهُم ولا قُوَّة مَع قُدرته تَعَالىٰ إلاّ الاِسْتسلاَم: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2]. (فَلاَ تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَ الْبَارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ). يَنْفِر النَّاس من الحَقّ لأنّه ثَقِيل إلىٰ الصَّبر، وجِهاد النَّفس، ويَجر

(١) أنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلخُطْبَة (١٩٣).

(٢) فُصِّلَتْ: ١١.

المَتَاعِب لِصاحِبه، ويتَّخِذه الْأَشْرَارِ عَدُوّاً يُحَارِبُونه بكلِّ سِلاح، ولكنَّ الْعَاقِبَة للمُحقِّين، والْمُتَّقِين، قَالَ الإمَام: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ ـ أي حَمِيد الْعَاقِبَة ـ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ »[1]. أي وَخِيم الْعَاقِبَة. ولَو تَعايَش النَّاس بالْبَاطِل فِي كلّ شَيء مَا قَامت الحضَارَات، ولا تَأسَست المُدن، والمُجتمعَات.

(وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ). المُرَاد بالرُّشْد الحَقّ.

وَتَسْأَل: إنّ ظَاهر هَذَا الكلاَم غَيْر مُستقِيم، لأنّه يَربط مَعرِفة الرُّشْد بِمعرِفَة التَّارِك لهُ... والعَكس هُو الصَّحِيح، فَكَيْفَ نَعرف فَاعِل الرُّشْد، والتَّارِك لهُ إذَا كُنّا نَجهَل مَعْنَىٰ الرُّشْد؟ وهَل يُميّز القَاضِي بَيْنَ المُحِقّ، والمُبطل، وهُو يَجهل مَعْنَىٰ الْحَقّ؟. قَالَ الْإِمَام للحَارث الهَمَذانيّ: «إنّ دِين الله لا يُعرَف بِالرِّجَال، فَاعرف الْحَقّ تَعرف أَهْله»[2].

الجَوَاب:

لا يُرِيد الْإِمَامعليه السلام بقَوْله هَذَا أنْ يُحدد مَعْنَىٰ الرُّشْد، ولا هُو بِصدد ذَلِكَ، وإنّما يُريد أنْ يُنبه الْأَذْهَان إِلىٰ أنّ الْمُؤْمِن عَلَيْهِ أنْ يَتبرأ، ويُكافح أَهْل الْفَسَاد والضّلال، وإنّ علىٰ المُخلص أنْ يُحَارِب الخَائنِين، والمُعتدِين، ولا يَجُوز أنْ يَعتزل، ويَقُول: مَا لِي وللنَّاس؟ بَل عَلَيْهِ أنْ يُجاهد، ويَنتصر لِلحَقّ، وأَهْله، قَالَ سُبْحَانَهُ لنَبِيّه الكَرِيم:

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٧٦).

(٢) أُنظر، أمالي الطوسي: ٦٢٦، أمالي المفيد: ٥ ح ٣، مَجْمَع البَيَان: ٢١١/١، وَسَائِل الشيعة: ١٣٥/٢٧ ح ٣٣٤١٤، روضة الواعظين: ٣١، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٢٨/١ و ٢٧٢ و: ٢٣/٤ ح ٤٤٠٩، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٤٠/١، فتح القدير للشوكاني: ٤٤٧/١.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]. وبكلَام آخر: إنّ الإِسْلاَم فِي مَفهُوم الإِمَام إيجَابِي، لا سَلبِي، فهُو يُحرم الظُّلم، وفِي نَفس الوَقت يُوجب مُحاربَة الظَّالِمِينَ.

(وَ لَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ) لَنْ تَـعملوا بـهِ (حَـتَّىٰ تَـعْرِفُوا الَّـذِي نَـقَضَهُ) وتُقَاوِمُوه، وتُشهرُوا بِهِ وتُنفرُوا النَّاس منهُ (وَ لَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّىٰ تَـعْرِفُوا الَّـذِي نَبَذَهُ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ مَا قَبله (فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ) أي التَّمسك بـالْقُرْآن (مِـنْ عِـنْدِ أَهْلِهِ) وأَهْل الْقُرْآن هُم أَهْل ٱلْبَيْت بـشهَادة جَـدهم الرَّسُـول ﷺ الَّـذي، قَـالَ: «تَركت فِيكم الثَّقلين: كِتاب الله، وعِتْرَتِي أَهْل بيتي، لَنْ تَضلوا مَا إنْ تمسكتُم بِهما، ولَنْ يَفترقا حَتَّىٰ يَردا الحوض»[2].

---

(١) ٱلتَّوْبَة: ٧٣.

(٢) جَمع أَسانِيد هَذَا الحَدِيث المتوَاتِر مِن طَرِيق السُّنَّة. الشّيخ قَوّام الدِّين الوشنُوي القُمّي فِي رِسَالَة خَاصّة. أسمَاهَا (حَدِيث الثَّقَلَيْن)، ونشرتها دَار التَقريب بَيْنَ ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَمِيّة.

أُنظر، حَدِيث الثَّقَلَيْن: (صَحِيح مُسْلِم: ٤ /فَضَائِل عليّ ح ٣٦ و ٣٧، وسُنَن التِّرمِذي: ٥ /بَاب ٣٢، وسُنَن الدّارمي: ٢ /فَضَائِل ٱلْقُرْآن، وخصائص النّسائي: ٥٠، سُنَن أبي داود الطَّـيَّالسِي: ١ /٢٨ /٢٠٥ و ٢٠٩ و ٢١٣، وٱبن ماجه: ح ١١٥ (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، ومُسْنَد أحمد: ١ /١٨٥، و: ٣ /٢٥٩، و: ٦ /٢٩٨ ط الميمنية بِمِصْر، وطَـبقَات أبـن سـعد: ٨ /١٣٥ ط أُوربا، وصَحِيح البُـخَاريّ: ٣ /١٣٧، و: ٤ /٢٢، صَـحِيح مُسْـلِم: فَـضَائِل أَهْـل الـبَيْت: ٢ /٣٦٨ ط ح ٣١ ٣٤، عِيسَىٰ الحلبي.

أُنظر، الدُّر المنثور للسيوطي: ٤ /١٩٨، و: ٥ /١٩٨، ومشكل الآثَار: ١ /٢٣٣، سُـنَن التِّرمِـذي: ٥ /٣٢٧ ح ٣٢٠٥، صَـــحِيح التِّرمِــذي: ٥ /٣١ ح ٣٢٥٨ و ٣٢٨ ح ٣٨٧٥ و ٣٦١ ح ٣٩٦٣ و: ١٣ /٢٤٨، أُسـد الغَـابَة لِابـن الأثـير: ٢ /١٢، و: ٣ /٤١٣، و: ٤ /٢٦، و: ٥ /٦٦ و ١٧٤ و ٥٢١ و ٥٨٩ و: ٥ /٥٢١، وتهذيب التّهذيب: ٢ /٢٩٧.

(فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ) أي حَياته، بقرِينة قَوْله: (وَ مَوْتُ الْجَهْلِ). وبالعِلم يَفترق الجِنْس البَشرِي عَن سَائِر المخلوقَات: ولَوْلاَ العِلم لكَانَتْ النَّملة بغرائِزها أَكْثَر إثَارة للدَّهشة مِن ٱلاِنْسَان (هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ). المُرَاد بالحُكم هُنا كلّ مَا تَركُوه مِن آثَار فِي الشَّرِيعة، وغِيرها، وحُكْمُهُمْ فِي بَاب الْقَضَاء غَيضٌ مِن

↔ أُنظر، فتح القدير للشوكاني: ٤/ ٢٧٩، شواهد التنزيل: ٢/ ٣٩ ح ٦٥٩ و ٧٠٦ و ٧٠٧ ـ ٧١٠ و ٧١٣ و ٧١٤ و ٧١٧ و ٧٢٠ و ٧٢٢ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٦ و ٧٢٩ و ٧٣١ و ٧٣٧ و ٧٣٨ و ٧٤٠ و ٧٤٧ و ٧٤٨ و ٧٥٢ و ٧٥٥ و ٧٥٧ ـ ٧٦١ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٨. المُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/ ١٤٧، ٥/ ١٩٨، كفاية الطالب للحافظ الكنجي الشافعي: ٥٤ و ٣٧٣ و ٣٧٤ ط الحيدرية، نظم درر السِّمطِين للزرندي الحنفي: ١٣٣ و٢٣٨ و ٢٣٩،١٣٣، الرياض النضرة لمحبّ الدين الطبري الشافعي: ٢/ ٢٤٨ الطبعة الثَّانِيَة، مطالب السؤول لِابْن طَلْحَة الشافعي: ١/ ١٩ ط النجف، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ لمحبّ الدين الطبري الشَّافعي: ٢٣، تَفْسِير أَبن كثير: ٣/ ٤٨٣، مَجْمَع الزّوائد: ٧/ ٩١، تَأرِيخ الخُلَفَاء للسيوطي: ١٦٩، يَنَابِيع المَوَدَّة للقندوزي الحنفي: ١٩٣ و ٢٣٠ ط اسلامبول، ١٠٧ و ١٠٨ و ١٩٤ و ٢٢٨ ـ ٢٣٠ و ٢٤٤ و ٢٨١ و ٢٩٤ط اسلامبول، مشكاة المَصَابِيح للعمري: ٣/ ٢٥٤ تَأرِيخ أَبن عساكر الشّافعي: ١/ ٢١ ح ٣ وص ١٨٤ و ٢٤٩ و ٢٧١ ـ ٢٧٣، تَفْسِير الفخر الرّازي: ٢/ ٧٠٠.

أُنظر، كنز الْعُمَّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥/ ٥٣، مصابيح السنّة للبغوي الشافعي: ٢/ ٢٧٨ ط محمّد عليّ صبيح، الْمُعْجَم الصَّغِير للطبراني: ١/ ٦٥، مَعَالِم التنزيل للبغوي الشّافعي مطبوع بهامش تَفْسِير الخازن: ٥/ ٢١٣، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حجر: ١١٩ و ١٤١ ـ ١٤٣ و ٢٢٧ ط المحمّدية، تَفْسِير الخازن: ٥/ ٢١٣، مرآة الجنان لليافعي: ١/ ١٠٩، التَّأرِيخ الْكَبِير للبخاري: ١/ق ٢/ ٦٩ رقم ١٧١٩ و ٢١٧٤ ط سنة ١٣٨٢ هـ، أَسْبَاب النزول للواحدي: ٢٠٣، الْإِتْحَاف للشبراوي الشافعي: ٥، الاِسْتِيعَاب لِابْن عبد البرّ بهامش الْإِصَابَة: ٣/ ٣٧ ط السعادة، تَفْسِير الطبري: ٢٢/ ٦، مَجْمَع الزوائد للهيثمي الشافعي: ٩/ ١٦٨، تَفْسِير أَبن كثير: ٣/ ٤٨٣ و ٤٨٤، فتح الْبَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/ ٣٦٥ ط القاهرة، أَنْسَاب الْأَشْرَاف للبلاذري: ٢/ ١٠٤ ح ٣٨.

أُنظر، فرائد السّمطِين للحمويني الشافعي: ١/ ٣١٦ ح ٢٥٠، و: ٢/ ٩ ح ٣٥٦ و ٣٦٢ و ٣٦٤، إسعاف الراغبين للصبّان بهامش نور الْأَبْصَار: ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ ط السعيدية.

فَيض (وَ صَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ) إنّهم لاَ يَصمْتُون ـ إنْ صَمْتُوا ـ جَهلاً، وعَجزاً عَن الكلاَم... كلاَّ، بل لأنّهم يَعرفُون متىٰ يَتكلمُون، ومتىٰ يَسكتُون (وَ ظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ). والمُرَاد بالظَّاهِر هُنا العَمَل، والسِّيرَة (لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ) وَيحتَالُون عَلَيْهِ لمآرب أُخرىٰ (وَ لاَ يَخْتَلِفُونَ فِيِه) لأنّهم مُنَزَّهُون عَن التَّعَصُّب، والأَخْطَاء (فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ) بدلاَلته الوَاضِحة علىٰ مَكانتهم، وعلُّو مَنزلتهم عِند الله تَعالىٰ (صَامِتٌ) لاَ صَوْت لهُ، ومَع هَذَا فهُو (نَاطِقٌ) فِي العَدِيد مِن آياته بوجُوب الرُّجُوع إلىٰ أَهْل الذِّكر، والعِلم. وتَقَدَّم الكلاَم عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام عِدّة مَرّات.

الخطبة
-١٤٨-

لِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ:

كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَ يَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاٰ يَمُتَّانِ إِلَىٰ اللهِ بِحَبْلٍ، وَ لاٰ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَ عَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَ اللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَ لَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَىٰ هَذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَ قُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ. وَ لِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَ لِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ، وَ اللهِ لاٰ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَ يَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لاٰ يَعْتَبِرُ!

اللُّغَة:

يَعْطِفُهُ عَلَيْهِ: يَعْكِف، أو يَتْلَهف عَليهِ. لاٰ يَمُتَّانِ: لاَ يَتقربَان. والمُرَاد بالضَّبِّ هُنا الحِقد. والمُحْتَسِبُونَ: الَّذِين يَفعلُون، أو يَتركُون لوَجه الله. والضَّلَّةِ: الضَّلاَلة. واللَّدْمِ: الضَّرب عَلىٰ الصَّدر، أو الوَجه.

الإِعْرَاب:

عَمَّا قَلِيلٍ «مَا» زَائِدَة أي عَن قَلِيلٍ.

كَانَتْ رِئَاسة ٱلْمُسْلِمِين الدِّينِيَّة، والزَّمنِيّة فِي عَهد الرَّسولﷺ مُرتبطة بشخصه مُباشرة... وٱختلف الصَّحَابَة عَلىٰ الرِّئاسَة فِي اللَّحظة الّتي ٱنتقل فِيها النَّبِيّ إِلىٰ الرَّفِيق الأعلىٰ، وقَبل أنْ يَبرد جَسده الشَّرِيف، ويُدرج فِي كَفنه الطَّاهر، فِي هَـذِه اللَّحظة بَرزت مُشْكِلَة ٱلخِلاَفَة: لِمن تَكُون بَعد رَسُول الله ﷺ؟ قَالَ الأَنْصَار: نَحْنُ أَوْلَىٰ بالنَّبِيّ، فَقد آوينا، ونَصرنا، وخضنَا المعَارك مِن أَجله، وأجل الإِسْلاَم. وَقَالَ المُهَاجِرُون القُرَشِيُون: نَحْنُ من شَجرة النَّبِيّﷺ، وسبقنَا إِلىٰ الإِسْلاَم، والهِجْرَة، فٱلخِلاَفَة لنَا مِن دُونَ النَّاس... ولا أدرى: هَل يَرتبط حَدِيث «ٱلخِلاَفَة فِي قُرَيْش» بهَذِه الدَّعوىٰ؟.

وعلىٰ كلٍّ فَقد ٱشتد الصِّراع بَيْنَ الصَّحَابَة عَلىٰ ٱلخِلاَفَةِ، ولكنْ مَا فَكّر وَاحـد من الَّذِين طَمحُوا إِلَيْهَا أنْ يَشهر السَّيْف مِن أَجلها مُحقاً، أم مُـبطلاً، ولا حَـدثته نَفْسه ذَلِكَ خَوْفاً من الفِتْنَة، وآثَارها السَّيِّئَة عَلىٰ الإِسْلاَم، وٱلمُسْلِمِين. وذكرنا فِيما سَبق أنّ أبَا سُفْيَانَ قَالَ لِلإِمَامِ: ٱمدد يَدكَ حَتَّىٰ أُبايعك، والله لأملأنّها عَلَيْهِمْ خَيلاً ورَجلاً[1]، وإنّ الإِمَام زَجرة، وَقَالَ لهُ: طَالما غَششت الإِسْلاَم، وأَهْـله. وأَيـضاً سَبق قول الإِمَامﷺ «وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَـاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِـنْ زُخْـرُفِهِ،

(١) تَقدَّم إستخراج ذَلِكَ، وأنظر، الفِتْنَة الكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عَليّ وبَنُوه للدّكتور طَـه حُسين: ١٧، طَبعة سَنَة ١٩٦٤م، تَأريخ اليعقوبيّ: ٢/١٥٠، شَرح النّهج: ٦/٧، تَأريخ الطَّبريّ: ٣/٤٤٩، والسَّقِيفَة لأَبِي بَكر الجَوهري برواية شَرح النّهج لابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢/١٣٠.

وَزِبْرِجِهِ»[1] هَذِهِ يَد عُظمىٰ أسدَاها الْإِمَام لِلْإِسْلاَم لا يُنْكِرها إلّا جَاهِل أو عَـدُوّ لِدِين الله وَنَبِيِّه.

كَان الْصَّحَابَة بَعد النَّبِيّ ﷺ يَتنافسُون علىٰ الرِّئاسَة، ثُمّ يَتفقُون عَلىٰ أَحدهم فِي جُوٍ غَيْر ودِي، بل ومُشبع بِالجفَاء، ولكنْ مِن غَيْر حَرْبٍ، وقِـتَال حِـرصاً عَـلىٰ مَصلحة الْإِسْلاَم، ووحدَة الْمُسْلِمِين حَتَّىٰ ثَار أَصْحَاب الْجَمَل طَلباً للرِّئاسَة لاَ لِدَمِ عُثْمَانَ، فكَانَتْ هَذِه الْحَرْب أَوّل لِقَاء بالسُّيُوف بَيْنَ الْصَّحَابَة مِن أَجل الْخِلاَفَة، ومِن ذَلِكَ الحِين فُتح بَاب الْفِتَن للطَّامِعِين، وانحصر الطَّرِيق إِلىٰ الْخِـلاَفَةِ بـالسَّيْف، أو الورَاثَة ... لَوْلاَ الْجَمَل مَا كَانَتْ صِفِّين، وعَلىٰ الأقل مَهد أَصْحَاب الْجَمَل الطَّرِيق أَمَام مُعَاوِيَة، وجرّأوه عَلىٰ أنْ يَشهر السَّيْف فِي وَجه أَلفِين وثمنمئة مِـن الْـصَّحَابَة كلّهم كَانُوا مَع الْإِمَام فِي صِـفِّين، وفِي طَـلِيعتهم عَـمَّار بـن يَـاسر، وأبـو أيـوب الْأَنْصَاري.

وفِي الْخُطْبَة الّتي نَحْنُ بصددها أَشار الْإِمَام ﷺ إلىٰ الزُّبَيْر، وطَلْحَة، بقَوْله: (كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَ يَعْطِفُهُ عَلَيْه دُونَ صَاحِبِهِ). الْمُرَاد بالْأَمْر هُنا الْحُكْم والسُّلْطَان، وكَان كلّ من طَلْحَة، والزُّبَيْر يرىٰ نَفْسهُ أَجل، وأعْظم مِن الآخر.

يَطلب الرِّئاسَة ليفرض سُلطانه عَلىٰ صَاحبه، وغَيْره مِن النَّاس: أمّا هَذَا النَّمط مِن التَّعايش السِّلمِي بَيْنَ الاثْنَيْن، وأجتماع كلمتهما عَلىٰ حَرْب الْإِمَام فَقد فَـرضه عَلاَيْهِمْ فَرضاً النَّكث بِبَيْعَة الْإِمَام الّتي أَجمع عَـلَيْهَا الْـصَّحَابَة، والمُسْلِمُون مـن دونهما، عَلىٰ أنّ الخِلاَف ظَهر بَيْنَ الاثْنَيْن، وهُما مُجتمعان لِحَرْب الْإِمَام، قَالَ ابن أبي

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَةُ (٧٤).

آلْحَدِيد: «ذكر أربَاب السِّير أنّ طَلْحَة طَلَب من عَائِشَةَ أنْ يُسلّم النّاس عَلَيْهِ بالأَمْرة، وطَلَب الزُّبَيْر أنْ يكُون ذَلِكَ لهُ دُونَ طَلْحَة، وأَصلحت هِي بَيْنَ الاثْنَيْن، وأَمرت.

النَّاس أنْ يُسلموا بالأَمْرة عَلايْهِمَ مَعاً». وأيضاً آختلفا فِي تَوَلّي الْقِتَال، فطلبَه كلّ مِنْهُمَا، ثُمّ نَكل عَنْه، وآختلفا أيضاً فِي إمَامَة الصَّلاة، فنحَّتهما عَائِشَةَ، وأَمرت أنْ يُصلي بالنّاس مُحَمّد، وعبد الله بن الزُّبَيْر، هَذَا يُوماً، وهَذَا يُوماً»[1].

وَقَالَ آبن الأثير في تَأْرِيخه: إنّ عَائِشَةَ أمرت أنْ يُصلي بالنّاس آبن أُختها عَبد الله آبن الزُّبَيْر، وأيضاً قَالَ آبن الأثير: «لمَا خَرَجت عَائِشَةَ لقتال عَليّ تَبعتها أُمهات الْمُؤْمِنِينَ يبكِين عَلىٰ الإِسْلاَم، فَلم يَر يَوْم أَكْثَر بَاكِياً، وبَاكِية من ذَلِكَ الْيَوْم، حَتّىٰ سمّي يَوْم النَّحِيب[2]، وأَقبل جَارِيَة بن قُدَامَة السَّعدي، وَقَالَ لها: «يا أُم الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج آلبَلاَغَة لاِبْن أَبِي آلْحَدِيد: ٩/ ١١٠.

(٢) روىٰ يَوْم النَّحِيب الطبري في حوادث سَنَة (٣٦ هـ): ١/ ٣١٤، وآبن كثير: ٧/ ٢٣٠ عن سَيْف بن عُمَرَ التّميمي عن آبن الشَّهيد عن آبن أبِي مَلِيكة قَالَ: خَرج الزُّبَيْر وطَلْحَة ففصلا، ثمّ خرجت عَائِشَة، فتبعها أُمّهات الْمُؤْمِنِينَ إلىٰ ذات عرق ـ حدّ بَيْنَ نجد، وتهامة ـ فلم يَر يَوْم كَانَ أَكْثَر باكياً علىٰ الإسلام، أو بَاكِياً لهُ من ذَلِكَ اليوم، كَانَ يُسمّىٰ «يَوْم النَّحِيب» وأمرت عبدآلرَّحْمَان بن عتاب ـ آبن أسيد بن أبي العيص بن أُميّة بن عبد شمس قُتل يَوْم الجَمَل في جيش أُم الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَة ـ فكان يصلّي بالنّاس، وكَانَ عدلاً بَيْنَهم...

ولَسْنَا بصدد بَيَان هَذَا اليوم، وبَيَان حَال ووثاقة سَيْف بن عُمَرَ، ومختلقاته، لكن نكتفي بما نقله العلاّمة العسكري في كتابه عبدالله بن سَبَأٍ: ١/ ٢٦٤ ط ٥ مط دار الزّهراء بيروت ما ملخصه: إنّ خَبَر مُشايعة أُمّهات الْمُؤْمِنِينَ لأُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَة إلىٰ ذات عرق لَم نَجد لِهَذَا الخَبَر أثراً غَيْر مَا روي من حَدِيث أُم سَلمة أو كِتابها إلىٰ عَائِشَة لمّا همّت بالخروج: يا عائشه، إنّك سدّة بَيْنَ رسول الله ﷺ وبَيْنَ أُمّته، حِجابك مضروب علىٰ حرمته، وقد جمع آلقُرآن ذيلك فلا تَندحِيه، وسكن الله عُقَيراك فلا تصحريها، الله من وَرَاء هَذِه الأُمّة، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أنْ يعهد فيك عهد بل قد نَهاك عن الفرطة في البلاد، ما كنت

والله لقتل عُثْمَانَ أَهون من خرُوجك من بيتكِ عَلىٰ هَذَا الْجَمَل الملْعُون»[1]. وَقَالَ لَهَا رَجُل من أَخوالها بَنِي لَيث يُقَال لهُ عُبَيْد بن أَبِي سَلمة: «والله إنّ أَوَّل مَا أَمال حَرف عُثْمَانَ لأنتِ، ولقَد كنتِ تقُولِين: أقتلوا نَعثلاً فَقد كَفر»[2].

<< قائلة لو أنّ رسول الله ﷺ قد عارضك بأطْرَاف الفلوات ناصّة قلوصك قعوداً من منهل إلىٰ منهل؟ إنّ بعين الله مثواك، وعلىٰ رسول الله ﷺ تعرضين، ولو أُمرت بدخول الفِرْدَوْس لاستحييت أنْ ألقي محمّداً هاتكة حجاباً جعله الله عليّ، فاجعليه سترك، وقاعة الْبَيْت قبرك حَتَّىٰ تلقيه وهو عنك راضٍ.

وذكر هَذِه المُكاتبة والمُراسلة بَيْنَهما ابن طيفور في بلاغات النِّسَاء: ٨، والزَّمَخْشَري في الفائق: ٢٩٠/١، وباختلاف يسير في الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ٧٦/١ تحقيق عليّ شري منشورات الشَّريف الرَّضِي، وابن أعثم في الْفُتُوح: ٤٥٦/١ الطبعة الأُولَىٰ دار الكتب العلمية بيروت. وأضاف صاحب العقد الفريد: ٦٩/٣، و: ٣١٧/٤ ط دار الكتاب العَرَبِي: ولو أنّي حدّثتكِ بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لَنَهشْتِني نَهش الحيَّة الرّقشاء المُطرقة، والسّلام. فقالت: عَائِشَة: يا أُمّ سلمة، ما أقبلني لوعظك، وأعرفني بنصحك ليس الأمر كما تقولين، ولنعم المطلع مطلعاً أصلحت فِيهِ بَيْنَ فئتين متناجزتين.

وفي المَحاسِن والمَسَاوِءِ للبيهقي: ٤٨١/١ ط مكتبة نهضة مِصْر: أنّ أُمّ سلمة حلفت أنْ لا تُكلّم عَائِشَة من أجل مسيرها إلىٰ حَرْب عليّ... فلم تكلّمها حَتَّىٰ ماتت. (أنظر المعيار والموازنة للإسكافي المُعْتَزِلي: ٢٧ ـ ٢٩، الغدير: ٨٣/٩ و ٣١٩، وشرح النَّهج لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ٧٩/٢، وتذكرة الخواصّ: ٦٥.

وكتبت أُمّ سلمة إِلىٰ عليّ ﵇ من مَكَّة كتاباً جاء فِيهِ: أمّا بعد، فإنّ طَلْحَة والزُّبَيْر وأشياع الضّلالة يريدون أنْ يخرجوا بعَائِشَة ومعهم عبدالله بن عامر، يذكرون أنّ عُثْمَانَ قُتل مظلوماً والله كافِيهِمْ بحوله وقُوَّتِه، ولَوْلاَ مانهانا الله عن الخروج وأنْتَ لَم ترض به لَم أدع الخروج إِلَيْك، والنّصرة لك، ولكني باعثة إِلَيْك بابني وهو عدل نفسي عُمَرَ بن أبي سلمة يشهد مشاهدك فاستوص به يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ خيراً، فلمّا قدم عُمَرَ علىٰ عليّ أكرمه، ولم يزل معه حَتَّىٰ شهد مشاهده كلّها. (أنظر المعيار والموازنة: ٣٠، تذكرة الخواصّ: ٦٥، تَأرِيخ الطبري: ١٦٧/٥، الكَامِل في التَّأرِيخ: ١١٣/٣).

(١) أُنظر، البداية والنهاية: ٢٥٩/٧، روضة الواعظين: ١٣٥، تَأرِيخ ابن خلدون: ق٢/ ج٢/ ١٥٦، تَأرِيخ الطبري: ٦٠/١ و: ١٧٦/٥، تذكرة الخواص: ٦٧، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٨٨/١، الكَامِل في التَّأرِيخ: ٩٠/٣.

(٢) أُنظر، تَأرِيخ الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ٢٢٥/٢، النِّهَايَة لِابْن الأثير: ٨٠/٥، شرح النَّهج للمعتزلي: ٧٧/٤. >>

(لاَ يَمُتَّانِ إِلَىٰ اللهِ بِحَبْلٍ، وَ لاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ) وعَطف الجُملة الأُولىٰ عَلىٰ الثَّانِيَة من بَاب عَطف التَّفْسِير، والْمَعْنَىٰ لَم يَخرج طَلْحَة، والزُّبَيْر لوجه الله، بل طَلباً للدُّنْيَا (كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ) أي حَاقد عَلَيْهِ للتَّنافس علىٰ المَجد والسُّلْطَان (وَ عَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ). الهَاء فِي قِنَاعُهُ وَ«بِهِ» يَعُود إِلىٰ كلّ وَاحد مِنْهُمَا، والْمَعْنَىٰ أنّ كُلاً من طَلْحَة، والزُّبَيْر سَيفضح الآخر بفعله من حَيْث يُريد، أو لا يُريد. وقَد حَدث هَذَا بالفِعْل، لأنّ الزُّبَيْر تَرك الْقِتَال نَادماً[1]، وبقِي طَلْحَة فِي سَاحة الْقِتَال يُنَادِي ويقُول: «عباد الله الصَّبر الصَّبر، فإنّ بَعد الصَّبر النَّصر،

⇐ تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣/١٢، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة لعَبْدُه: ٣/٣، تاج العروس: ٨/١٤١، لِسَان الْعَرَب: ١٤/١٩٣، الكامِل فِي التَّأريخ: ٣/٢٠٦، تذكرة الخواص: ٦١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٤٩، ولكن بلفظ (فَجر)، السِّيرَة الحَلَبِية: ٣/٢٨٦، ترجمة الإِمَام الحَسَن لاِبْن عساكر: ١٩٧ ح ٣٢٥، المحصول للرازي: ٤/٣٤٣، شَيخ المُضيرة أبو هريرة لمحمود أبو ريّه: ١٧٠.

(١) وردت أَقْوَال كَثِيرَة فِي قتل آبن جرموز المُجَاشِعِيّ للزبير بن العوّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ بن كلاب القُرَشِيّ الأسدي، والَّذي أسلم بمَكَّة وعمره ٧ أو ١٢ سنوات. وكَانَ مِمَّنْ خالف عُثْمَانَ، ولما قُتل عُثْمَان بادر إِلىٰ بَيْعَة عليّ ثمّ خرج إِلىٰ البَصْرَةِ مُطالباً بدم عُثْمَانَ. ولمّا تقابل الجَيْشَان طلبه عليّ عليه السلام وذكره بأَقْوَال رسول الله ﷺ مثل «ستقاتل عَلِيّاً وأنْتَ ظالم له» وقد أشرنا إِلَيْهَا قَبلاً، وإِلىٰ المحاورة الَّتي دارت بَيْنَهما، ولَسْنَا بصدد بَيَان كلّ الأقوال بل نذكر بَعْض المصادر الَّتي تحت أَيْدِينَا.

أُنظر، الْفُتُوح: ١/٤٧٥، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣/٥١١ و: ٣/٥٤٠ حوادث سَنَة ٣٦ هـ و: ٥/١٩٩، و: ٣/٥٤٠ ط أُخرىٰ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٩٣، البداية والنِّهَايَة: ٧/٢٧٧، المسعودي فِي مروج الذّهب: ٢/٣٦٢، الأغاني: ١٦/١٢٦، شَرح النَّهج لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١/٧٨، تَأريخ آبن أعْثَم: ١/٢٨١ ط حيدرآباد، تهذيب آبن عساكر: ٥/٣٦٤، أُسد الغَابَة: ٢/١٩٩، آبن الأثير فِي تَأريخه: ٣/٩٤، العقد الفريد: ٤/٣٢٢، المُسْتَدرَك: ٣/٣٦٦، كنز الْعُمَّال: ٦/٨٢ ح ١٢٨٣ و ١٢٩٠ و١٣١٨ ـ ١٣٢٠، الذّهبي فِي النّبلاء: ١/٣٨، تَأريخ اليعقوبي: ٢/١٥٨، الإِصَابَة: ١/٥٢٧ التَّرجمة (٢٧٨٩)، مُسْنَد أحمد: ١٦٥.

والأجر ـ كما في شَرح آبن أبِي ٱلحَدِيد ـ ومَعْنَىٰ هَـذَا أنّ كـلاً مِـنْهُمَا كَـان يَـزري بِصَاحبه: هَذَا بِمَا فَعل، وَذَاكَ بِمَا تَرك[1].

(وَ اللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَ لَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَىٰ هَذَا). لَو أنّ الرِّئَاسة آنحصرت بواحد من الاثْنَيْن بِلا تَعيين لقَـامت الحَـرْب بَـيْنَهما، ولَم تَقعد، وصَمم كلّ مِنْهُمَا علىٰ قَتل صَاحبه لا يَرده عَنْه شَيء (قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ) وَهِي النَّاكِثُون، وأتبَاعهم (فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ ؟) الرَّاغبُون فِي مرضَاة الله يُجاهِدُون هَذِه الْفِئَةُ النَّاكثة لِلعَهد (فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَ قُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ). الضَّمِير فِي «لَهُمُ» للمُحتسبِين أي مَن أَراد ثَواب الله فهَذا طَرِيقه، وهُو جِهاد البُغَاة، والخَبَر إشَارة إلىٰ قول النَّبيّ ﷺ لِلإمَام: «تُقاتل بَعدي النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ»[2] (وَ لِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ) يَتعلل لهَا الضّلال، يُبرر ضَلاله، وإفْسَاده، وقَد تَعلل أَصْحَاب الجَـمَل وصِفّين بِدَم عُثْمَانَ ... وسبق قول الْإمَام: «وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ. وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ»[3] (وَ لِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ)، ولكن أَصْحَاب الجَمَل نَكثوا بلا شُبهَة لأنّ حَق الإمَام لا يَقبل الشّك، ومَع التَّسلِيم ـ جَدلاً ـ بأنّهم آشتبهُوا فـإنّ الدِّمَـاء تُحقن بالشُّبهَات، وقَد أَبَاح أَصْحَاب الجَمَل دِمَاء آلمُسْلِمِين، وأثَارُوا الفِتَن إلىٰ قِيام يَوْم الدِّين.

---

(١) أنظر، شرح النَّهج لابن أبي ٱلحَدِيد: ٢/ ٤٣١، الفُتُوح لابن أعثَم: ١/ ٤٨٤، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٩٧، الطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٣/٥١٩ ٥٣٤، الاستِيعَاب: ٧٠٢، الإصَابَة: ٢/ ٢٢٢ المُستَدرَك: ٣/ ٣٧١، التَّهذِيب لِابْن عساكر: ٧/ ٨٤، وأسد الغَابَة: ٣/ ٦٠، والذَّهبي فِي النّبلاء: ١/ ٨٢.

(٢) تقدَّم آستخراج ذَلِكَ.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٣٧). (مِنهُ ﷺ).

(وَ اللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ ، وَ يَحْضُرُ الْبَاكِيَ ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ) جَاء فِي التَّأَرِيخ لِابْن الأثير : «إنّ عَائِشَةَ ، والزُّبَيْر ، وطَلْحَة قَدمُوا إِلىٰ الْبَصْرَةِ خَارجِين علىٰ عَليّ ، وقَاتلوا عَامله عَلَيْهَا ، وهو عُثْمَانَ بن حُنَيْف[1] ، وأَكْثَروا الْقَتْل فِي أَصْحَابِه ، ومُنهم حِكِيم بن جَبْلة العَبدي ، وأسروا عُثْمَانَ ، وآستشاروا عَائِشَةَ فِي أَمْرِه ، فقَالت : آقتلُوه . فناشدتها إمْرَأَة ، وقالت : الله فِي دَم عُثْمَانَ ، وصُحبته لرَسُول الله« فَأمرت بِحسبه ، فقَال مُجَاشِع بن مَسعود : آضربُوه ، وآنتفوا لِحيته ، وأشْفَار عِينِيه . فضربُوه أَرْبَعِين سَوطاً ، ونَتفوا لِحيتَه ، وحَاجِبيه ، وأشفَار عِينِيه ، وحبسُوه علىٰ مرأىٰ مِن أمّ الْمُؤمِنِينَ»[2] .

ولما أخبر الإِمَام ذَلِكَ قَالَ : «وَاللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ ، وَ يَحْضُرُ الْبَاكِيَ ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ» . كَيْفَ أَسكُت عَن أَصْحَاب الْجَمَل ، وقَد مثّلوا ، ونكّلوا بَعاملِي ، وقَتلوا العَدِيد من آلْمُسْلِمِين ظُلماً ، وعُدْوَاناً ، ولَو سَكتُّ ، ووهنتُ لكنتُ كَمن يَسمع صَوْت النَّاعِي يَنعىٰ الْمَقْتولِين ظُلماً ، ويرىٰ الْبُكَاء واللَّطم عَلَيْهِمْ ، ثُمّ لا يُحرك سَاكِناً ! . وأي عُذرٍ لِي عِند الله أنْ تَجَاهلتُ ، وأهملتُ .

وَقَالَ أَهْل السِّير : حَاول الإِمَام جهدهُ أنْ يَتجنب قِتال أَهْل الْجَمَل ، ولَكِنَّهُمْ

---

(١) عُثْمَانَ بن حُنَيف بن واهب بن الحَكِيم الأَنْصَاري الأويسي أبو عَمْرُو ، وأبو عبدالله ، شَهد أُحداً وما بعدها . (أنظر أُسد الغَابَة : ٣ / ٣٧١ ، وتَأريخ الطَّبَري : ٣ / ٤٦٥) .

(٢) أُنظر ، الكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأثير : ٣ / ٢٠٥ ، وتَأريخ ابن أعْثَمْ : ١٧٦ ، أُسد الغَابَة : ٢ / ٣٨ ، وشَرح نَهج البَلاَغَة : ٢ / ٤٨١ ط بيروت أفست ، وأَنسَاب الأَشْرَاف للبلاذري : ٢ / ٢٢٨ ، ومروج الذَّهب للمسعودي : ٢ / ٣٥٨ ، كتاب الْجَمَل للشّيخ المفيد ط الحيدرية ، تَأرِيخ الطبري : ٥ / ١٧٨ ، كتاب أحاديث عَائِشَة أمّ الْمُؤمِنِينَ للعسكري : ١ / ١٢١ ـ ٢٠٠ ط الحيدرية فِي طهران و١٧٢ ـ ٢٧٠ ط ٥ مطبعة صدر نشر دار التَّوْحِيد .

أصرُّوا، وعِندئذ رَفع مُصحفاً بِيده، وَقَالَ: مَن يَأخذ هَذَا المُصحف فَيدعُوهم إِلَيْهِ، ولهُ الجَنَّة، فقَام غُلام شَاب، ٱسمه مُسْلِم، وَقَالَ: أنَا، فنظر إِلَيْهِ الإِمَام، وَقَالَ: يَا فتىٰ إنْ أَخذته فإنّ يَدك الْيُمنىٰ تُقطع، فتأخذهُ بِيدَك اليُسرىٰ فتُقطع، ثُمّ تُضرب بالسَّيف حَتَّىٰ تُقتل. فقَال لاَ صَبر لِي عَلَىٰ ذَلِكَ. فنادىٰ الإِمَام ثَانِيَة فقَام المَذكُور، وأَعاد الإِمَام عَلَيْهِ الْقَوْل، فِيرجع الغُلام حَتَّىٰ تكَرَّر ذَلِكَ مَرَّات، قَالَ الغُلام: أنَا آخذه عَلَىٰ الَّذي ذَكرت، وهُو قَليل فِي الله.

فأخذ الْقُرْآن بِيمِينه، ونَادىٰ الْقَوْم، فَقطعوا يَده الْيُمنىٰ، فتناول الْقُرْآن بِاليُسرىٰ ونَاداهم، فقطعُوها، فأنهالوا عَلَيْهِ بِالسُّيُوف حَتَّىٰ قُتل[1].

---

(١) حضر مع عَائِشَة المنجاب بن راشد في الرِّبَاب وهم: تَيْم، وعَدي، وثور، وعكل، بنو عبد مُناف ابن ـ أدبن ـ طانجة بن إلياس بن مضر، وضبّة بن أدبن طانجة، وحضر أيضاً أبو الجرباء وهو من بني عُثْمَانَ بن مالك بن عَمْرُو بن تميم فَقَالَ: يالعَمْرُو! لا تعتزلوا هَذَا الأمر، وتولّوا كيسه، فكان أبو الجرباء علىٰ بني عَمْرُو بن تميم، والمُنجاب بن راشد علىٰ بني ضبّة...

وَقَالَ هلال بن وكيع: لا تعتزلوا! هَذَا الأمر، ونادىٰ يالحَنْظَلَة! تولّوا كَيسه، فكان هلال علىٰ حَنْظَلَة، وطاوعت سعد الأحنف، وٱعتزلوا إلىٰ وادي السّباع.

وذكر الطبري أيضاً أنّه كَانَ علىٰ هوازن، وعلىٰ بني سليم، والأعجاز مُجَاشِع بن مسعود السّلمي، وعلىٰ عَامر زفر بن الحارث، وعلىٰ غطفان أعصُر بن النّعمان البَاهِلِيّ، وعلىٰ بَكْر بن وائل مالك بن مسمع، وٱعتزلت عبد القَيْس إلىٰ عليّ إلاّ رَجل فإنّه أقام، ومن بَكْر بن وائل قُيَّام وٱعتزل مِنْهُم مثل من بقي مِنْهُم عَلَيْهِم سنان، وكَانَتْ الأزد علىٰ ثلاثة رؤساء: صبرة بن شيمان، ومسعود وزياد بن عَمْرُو، والشواذب عَلَيْهِمْ رجلان علىٰ مضر الخريت بن راشد، وعلىٰ قضاعة والتوابع الرّعبي الجرمي وهو لقب، وعلىٰ سائر الْيَمن ذو الآجرة الحميري.

وأنظر أيضاً ٱبن أَعْثَمْ في الْفُتُوح: ١ / ٤٦٥ وذكر أيضاً أبا الجرباء بأنّه من أصحاب الزُّبَيْر بن العوّام ـ وَهِي كُنيته . في بني عُمَرَ بن تَيْم، وهلال بن وكيع في بني حَنْظَلَة، وصبرة بن سبحان علىٰ الأزد، ومُجَاشِع بن

مسعود السّلمي علىٰ سليم. وزفر بن الحارث في بني عامر، وغطفان ومالك بن مشبع علىٰ بَكْر، والحارث بن راشد علىٰ بني ناجية ـ بنو نَاجية: نسبة إلىٰ أُمّهم نَاجيه زَوْجَة سامة بن لؤي بن غالب القُرَشيّ، وخرج سامة إلىٰ ناحية البحرين مغاضباً لأخيه كعب بن لؤي في مخاصمة كَانَتْ بَيْنَهُمْ فنهش ساقه أفعىٰ فقتله. وقيل غَيْر ذَلِكَ، أي أنّهم ليسوا من قُرَيْش. وَقَالَ ٱبن حزم في الجمهرة: ١٦٢: قَالَ فِيهِمْ بَعْض شُعراء قُرَيْش:

وسَامة منّا فأمّا بنُوه فأمرهم عِنْدَنَا مُظلم

أُنظر الأغاني: ١٠/٢٠٣، شرح النّهج لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٩/١١٢ تحقيق محمّد أبو ٱلْفَضْل.

وعلىٰ ٱلْيَمَن ذَوِي الأَحْمَر الحميري. فنزلت مضر إلىٰ مضر، وهم لا يشكون في الصُّلح، ونَزلت رَبِيعَة إلىٰ رَبِيعَة، وٱلْيَمَن إلىٰ ٱلْيَمن، وكلّ قبيلة نزلت إلىٰ أُختها.

وكَانَ أصحاب عليّ عليه السلام عشرين ألفاً تَأرِيخ الطبري: ٣/٥١٧، أمّا ٱبن أَعْثَمْ في الْفُتُوح: ١/٤٦٣ فيَقُول: تِسعة عشر ألف رجل من فارس، وراجل، وسَار عليّ عليه السلام من ذي قار يريد ٱلْبَصْرَة في جميع أصحابه والنّاس يتلاحقون به من كلّ أوب.

وأصحاب طَلْحَة والزُّبَيْر وعَائِشَة ثلاثين ألفاً. فأرسل عليّ عليه السلام عشية اليوم الثالث من نزولهم عبدالله بن عباس إلىٰ طَلْحَة، والزُّبَيْر بالسّلام، وأرسل طَلْحَة، والزُّبَيْر إلىٰ عليّ بالسّلام، وتردّدت الرُّسل بَيْنَهمْ في الصُّلح فتداعوا إِلَيْهِ، وشاع ذَلِكَ في الفئتين فسرّ النّاس ذَلِكَ، وباتوا بلَيْلَة لم يبيتوا بمثلها من الفرح، والسُّرُور. ولمّا أشرفوا عَلَيْهِ من الصُّلح وبات ٱلّذين أثاروا أمر عُثْمَانَ بأسوأ لَيْلَة لما رأوه، ونظروه من تراسل ٱلْقَوْم، وتصافِيهِمْ، فباتوا يتشاورون ليلتهم فأجمع رأيهم علىٰ إنشاب الحَرْب مع ٱلْفَجْر.

قَالَ: فلمّا كَانَ غلس الصبح ثاروا إلىٰ أصحاب طَلْحَة، والزُّبَيْر، مضرهم إلىٰ مضرهم، وربيعتهم إلىٰ ربيعتهم، ووضعوا فِيهِمْ السِّلاَح، فثارت كلّ قبيلة إلىٰ أُختها، وقام الحَرْب بَيْنَهمْ، وثبت ٱلْقِتَال، ولم يَدر النّاس كَيْفَ الأمر، ولا كَيْفَ كَانَ. سبق وأن أشرنا إلىٰ ذَلِكَ! ودور مَرْوَان في نشوب ٱلْقِتَال ولا نريد تكراره هنا، لكن الكَلاَم من تَأرِيخ الطبري: ٣/٥١٧ ـ ٥١٨.

فقام في المَيْمَنَة أصحاب طَلْحَة عبد ٱلرَّحْمَان بن الحارث، وفي الميسرة عبدٱلرَّحْمَان بن عتاب، وعبدٱلرَّحْمَان بن عتاب بن أُسيد بن أبي العيص القُرَشيّ الأُموي أُمّه جويرية بنت أبي جهل، وكَانَ ٱسم سَيْفه «ولول» وقطعت يده وفيها خاتمه قَالُوا: فخطفها نسر ذَلِكَ اليوم وطرحها بالمَدِينَة، أو اليمامة فعرفت

↔ يده بخاتمة. (أنظر الطبري: ٥/ ٢١٠، أسد الغابة: ٣/ ٣٠٨، نسب قُرَيْش: ١٩٣).
وفي الْقَلْب طَلْحَة، والزُّبَيْر فقالُوا لأصحابهم: كَيْفَ كَانَ هَذَا الأمر؟
قَالُوا: لا ندري إلّا وقد طوّقونا في غلس الصّبح واضعين فينا السُّيُوف.
وَهَذَا يدلّ علىٰ أنّ طَلْحَة، والزُّبَيْر هما يعبّان الجَيْش.

في أبن أَعْثَمْ في الْفُتُوح: ١/ ٤٦٣ قَالَ:... فَكَانَتْ الخَيْل كلّها إلىٰ طَلْحَة، ورجّالة إلىٰ عبدالله بن الزُّبَيْر، وعلىٰ خيل المَيْمَنَة مَرْوَان بن الحَكَم، وعلىٰ رجّالتها عبدآلرَّحْمَان بن عتاب بن أُسيد، وعلىٰ خيل الميسرة هلال بن وكيع الدّارمي، وعلىٰ رجّالتها حاتم بن بكير البَاهِلِيّ، وعلىٰ الجناح عُمَر بن طَلْحَة، وعلىٰ رجّالتها عبدالله بن حكيم بن حزام، وعلىٰ خيل الكمين جُنْدُب بن يزيد المُجَاشِعِيّ، وعلىٰ رجّالتها مُجَاشِع بن مسعود السلمي.

فَقَالَ طَلْحَة، والزُّبَيْر: إنّ عَلِيّاً لم يطعنا حَتَّىٰ يسفك الدّمَاء.
وَهَذَا يدلّ علىٰ أنّ طَلْحَة، والزُّبَيْر هما يعبّان الجَيْش.
وصاح رجل من بني ضبّة: وطّنوا أنفسكم علىٰ الصبر... وأنشأ أبياتاً مطلعها:

ألا قُولا لطَلْحَة، والزُّبَيْر   وقُولاً للّذِين هُم النّصار

فَقَالَ له الزُّبَيْر: بِئس ما قُلت يا أخا بَنِي ضبّة...

وبلغ ذَلِكَ عليّ بن أبي طالب ﷺ فَقَالَ: إنّ الْقَوْم قد تعبوا الحَرْبكم، فماذا عِنْدَكُم من الرّأي؟ فَقَالَ له رفاعة بن شدّاد البَجَلِيّ: يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ تَعبية لِتعبية... وأنشأ أبياتاً مطلعها:

أتتك الأُمُور بِسعد السُّعود   وسرت إلىٰ الْفِئَةُ النَّاكِثة

قَالَ: ودنا عليّ في أصحابه من الْبَصْرَةِ، فَقَالَ طَلْحَة بن عُبَيْدالله لأصحابة: أعلموا أيّها النّاس! أنّ عَلِيّاً وأصحابه قد أضرّ بِهِمْ السّفر وتعب الطَّريق، فهل لكم أنْ نأتيهم آللّيْلَة فنضع فِيهِمْ السَّيْف؟ فَقَالَ مَرْوَان بن الحَكَم: والله لقد أستبطأت هَذِه منك أبا محمّد، وليس الرّأي إلّا ما رَأيت، قَالَ: فضحك الزُّبَيْر من ذَلِكَ، ثمّ قَالَ: أَمن عَلِيّ تُصاب الْفُرْصَة وهو مَن قد عَرفتم؟ أَمَا علمتم أنّه رَجل ما لقيه أحد قطّ إلّا ثَكلته أُمّه؟ فسكت طَلْحَة، ولم يرد إلىٰ الزُّبَيْر شَيْئاً.

قَالَ: ثمّ وثب رجل من أصحاب الزُّبَيْر يكنّىٰ أبا الجرباء فَقَالَ للزبير: أبا عبدالله أمّا الرّأي عِنْدِي إلّا أنْ تبيتوا هَذَا الرّجل، فإنّ الرّأي في الحَرْب من النّجدة، فَقَالَ له الزُّبَيْر: يا أبا الجرباء إنّنا لنعرف من الحَرْب ↔

↩ ما لم يعرفه كثير من النّاس... نقلنا ذَلِكَ من ٱبن أَعْثَمْ في الْفُتُوح: ١ / ٤٦٣ ـ ٤٦٦ بتصرّف.

ونَحْنُ نسأل بدورنا الطبري، وٱبن الأثير، وٱبن حزم، وٱبن تيمية، وغَيْرهم: أو لم يَكفِ هَـذَا بأنّ الْقَوْم قد صمّموا علىٰ الحَرْب مهما بذل الإمَام عَلِيّ عليه السلام من نصائح، ورسائل، ووفود؟! ولو أردنا ٱستعراض كلّ الرّسائل، والخطب، والمُساجلات بينه عليه السلام، وبَيْنَ طَلْحَة، والزُّبَيْر، وعَائِشَة وكَيْفِيّة ٱعتزال الزُّبَيْر الحَرْب، وخَبَر الفتىٰ الَّذي حَمل المُصحف إلىٰ أصحاب الجَمَل يَدعُوهم إِلَيْهِ لأصبحت كتاباً منفرداً. وقول الفتىٰ: يا هَؤُلاَء: هَذَا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبَيْنَكُمْ، قَالَ: فضرب رَجل من أصحاب الجَمَل يَده الْيمنىٰ فقطعها، فأخذ المُصحف بشماله فقطعها، فٱحتضن المُصحف بصدره، فضرب علىٰ صَدره حَتَّىٰ قُتل رحمه الله، فنَظَرت إِلَيْهِ أُمّه وقد قُتل، فأنشأت أبياتاً:

يَا رَبّ إنّ مُسلماً أتاهم ... بِمُحكم التّنزيل إذ دَعاهُم

وقام ٱبن عَمٍّ له يَرثيه بقَوْله:

تَناوله شقيّ مُنهم بضربةٍ ... أبَان بِها يُمناه حَتَّىٰ تَصُوب

أنظر الأبيات الأُولَىٰ، والثَّانِيَة في تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٥ / ٢٠٦ و ٢١٦، و: ٣ / ٥٢٢ بٱختلاف يسير، ومروج الذّهب: ٢ / ٩ و ١٣.

الخطبة
-١٤٩-

الإنسان في مَهَبِّ الرِّيح:

أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ. وَ الْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ! أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللهَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَ مُحَمَّداً ﷺ، فَلا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَ أَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَ خَلاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَ خُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، وَ دِينٌ قَوِيمٌ، وَ إِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَ أَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَ غَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِي وَ لَكُمْ(١)!

إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ، وَ إِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَ مَهَابِّ رِيَاحٍ، وَ تَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا، وَ عَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا. وَ إِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَ سَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاءً سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَ صَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي، وَ خُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَ سُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ، وَ الْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ

وَدَاعُ ٱمْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي ! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَ يُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي ، وَ قِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي(٢) .

اللُّغَة:

مُوَافَاتُهُ: آتيَانه إِلَيْك. وأَطْرَدْتُ الأَيَّامَ: تَتَبعتَها يُومَاً ويُوماً ، ومَا شَذّ عَنِي مِنْهَا يَوْم وَاحد ، والقَرِينة عَلىٰ إِرَادَة هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْله «أَبْحَثُهَا». وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ: بَرئتُم مِنهُ. وتَشْرُدُوا: تَنْفِرُوا. والْمَزَلَّةِ: الزَّلق ، والسّقُوط . وتَدْحَضِ الْقَدَمُ: يَبلغها الزَّلق ، ولَم تَثبت لهُ. والأَفْيَاءِ: جَمع فَيء. وَمَهَابِّ رِيَاح : المكان الَّذي تَهبّ فِيهِ. ومُتَلَفَّقُهَا : ما تَجمع مِنْهَا مُنظماً بَعضه إِلىٰ بعضٍ. الْمُرَاد بالخَطِّ هُنا الأَثَر لأَنّه فَاعِل لـ«عَفَا» والأَطْرَاف : الرَّأس ، واليَدان ، والرِّجلان . وسَتُعْقَبُونَ: سَتَجدُون عَقِيب فَقدِي ، أو بَعد فَقدِي . ومُرْصِدٍ: مُنْتَظر .

الْإِعْرَاب:

هَيْهَاتَ آسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد ، وعِلْمٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذوف أي ذَلِكَ عِلْمٌ ، فَاللهَ مَفْعُول لِفعل مَحذوف أي آحْذَر الله ، أو أَطِيعوا الله ، ومُحَمَّداً معطوف علىٰ الله ، وشَيْئاً مَفْعُول مُطلق أي شَيْئاً مِن الشِّرك من أي نَوْع كَانَ ، و«الْعَمُودَيْنِ» عَطف بيان ، أو بَدل من هَذَيْنِ ، وحُمِّلَ كُلُّ ٱمْرِئٍ لمُبْتَدَأ ، ومَجْهُودَهُ خَبَر ، ورَبٌّ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذوف أي رَبٌّ رَحِيمٌ ، ومثلهُ دِينٌ قَوِيمٌ أي دِينكُم دِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامكِم إِمَامٌ عَلِيمٌ ، فَذَاكَ مُبْتَدَأ والخَبَر مَحذُوف أي فَذَاكَ مَا تُرِيدُون ، وجُثَّةً مَفعُول سَتُعْقَبُونَ .

الْمَعْنَىٰ:

(**أَيُّهَا النَّاسُ ، كُلُّ امْرِئٍ لاَقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ. وَ الْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ**) . أَبَداً لا مَهرب مـن الْمَـوْت ، فـهُو مُـلاقِينا مـشرّقِين ، أو مـغرّبِيْنَ ، مُسافرِين ، أو مُقِيمِين (**كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ ، فَأَبَىٰ اللّٰهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ**) . هَذَا إشارَة إِلىٰ أنّ الْإِمَام يَمُوْت شَهِيداً .

والْمَعْنَىٰ أنّ رَسُول الله ﷺ أَخبره ، وبَشّره بالشَّهادة ، وإِنّه سَأل النَّبِيّ : مَتىٰ يَكُون ذَلِكَ ؟ فَمَا أَنبأه بِهِ ، لأنّ الله سُبْحَانَهُ قضىٰ ، وقَدّر أنْ لا تَدري نفس بأي مَكان ، أو زَمَان تَمُوت ، ولكنّ الْإِمَام كَان يَنتظر الشَّهادة فَارغ الصَّبر ، يُودع يُوماً بلاَ جدُوىٰ ، ويَستقبل آخر عَسىٰ ، ولعَل (**هَيْهَاتَ ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ**) أي كَيْفَ أَعرف وقتَ مَنِيتِي ، وقَد حَجَبَ الله سُبْحَانَهُ هَذَا العِلم عَن عِبَادِهِ ؟ .

قَالَ الْإِمَام هَذَا ومَا بَعْدَه حِين ضَربه اللَّعِين اَبن مُلْجَم ، وكـلاَمه هُـنا واضـح الدَّلاَلَة علىٰ أنّه عليه السلام مَا كَان يَعلم بالتَّفصِيل أوان مَقتله ، وشَهادته ، ولَكِنَّهُ كَان عَلىٰ عِلمٍ بأنّ الشَّهادة آتِيه لا رَيب فيها لِقول الرَّسُول ﷺ لهُ : «إنّ أشقىٰ الآخرين مَـن يَضربك هَهنا ـ مُشيراً إِلىٰ رَأْسه ـ فِيخضب هَذِه» أي لِحيَتة الشَّرِيفة[1] .

---

(١) هَذَا الْحَدِيث ورد بألفَاظ متعدّدة ، وبطرق أيضاً متعدّدة عن أبي فـضاله ، وغَـيْره كـما جـاء في البـداية والنّهاية : ٦ / ٢١٨ ، و : ٧ / ٣٥٨ ، مَجْمَع الزّوائد : ٩ / ١٣٧ ، والْحَاكِم في الْمُسْتَدرَك وصـحيحه : ٣ / ١١٣ و ١٤٣ ، اَلْفَتح الربّاني : ٢٣ / ١٦٣ ، وكنز الْعُمَّال : ١١ / ٢٩٧ ، وذَخَائِر الْعُقْبَىٰ : ١١٥ ، والصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة : ١٢١ ب ٩ فصل ٢ . وفِي المناقب لِابْن شهر آشوب : ٣ / ١١١ ، والمناقب لِابْن المغازلي : ٨ ح ٥ و : ٨٠ ح ٤٠٠ ، يَنَابِيع الْمَوَدَّة : ٢ / ٣٩٦ ط أُسوة ، تَأرِيخ دمشق : ٣ / ٢٧٨ ح ١٣٦٤ و ١٣٦٥ ، فرائـد السّـمطين : ١ / ٣٩٠ / ٣٢٧ مُسْنَد أحمد : ٤ / ٢٦٣ ، اَبن كثير في تَأرِيخه : ٣ / ٢٤٧ ، الطبري في تَأرِيخـه : ٢ / ٢٦١ .

(أَمَّا وَصِيَّتِي : فَاللهَ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَ مُحَمَّداًﷺ ، فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ . أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَ أَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَ خَلاَكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا) . أَصل الأَصُول لِلإِسْلاَم شَيْئان : الإِخْلاَص لله وحده في الأقوال ، والأفعَال ، والاِلتزام بِمَا جَاء به مُحَمّدﷺ في السّلوك لا بمُجرد النِّية ، والْقَوْل ، والمَظهر ، والشَّعائِر الّتي لا تَحل أيّة مُشْكِلَة من مِشكلات ٱلإِنْسَان ، وحِيَاته ، أَمّا قَوْله : «مَا لَمْ تَشْرُدُوا» فمعنَاه مَا لَم تَنحرفُوا عَن خَط الإِخْلاَص لله ، والْعَمَل بِسُّنة رَسُول الله ، وفي هَذَا الْمَعْنَىٰ قوْله تَعَالىٰ : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [1] أي وٱستمر عَلىٰ إيمَانه ، وعَمل بموجب تُوبته .

(حُمِّلَ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ) . إنّ تَكليف ٱلإِنْسَانَ يَكُون بِحسب طَاقته ومُؤهلاته ، فَمَسْئُولية القَائِد أَخطر ، وأَثقل مِن مَسْئُولية التَّابع ، وواجب العَالم غِير وَاجب الجَاهِل ، وحِساب الأَغْنِيَاء شَدِيدٌ ، وعَسِير عَلىٰ العَكس مِن حِساب الْفُقَرَاء : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [2] . وهُناك نَوْع ثَالِث غَيْر الأَتْبَاع ، والقَادة ، وهُم الأحرَار الّذِين يَرفضُون الْبَغْي ، والْفَسَاد ، ويُجاهدُون المُفسدِين الطُّغاة (وَ خُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ) . الجَهْل عَن قصُور وعَدم ٱستعدَاد عُذر شَرعِي ، وعَقلِي ، لأَنّ القَاصر أَشبه بِالحَيَوَان ، أَمّا الجَهْل عَن إهمَالٍ ، وتَقصِير فَلِيس بُعذر ، فالمُقصر تَمَامًا كالمُتعمد ، لأنّه ٱستطاع العِلم ، ولَم يَتعلم ، وفِي الحَدِيث :

← السِّيرَة لِابْن هشام : ٢ / ٢٣٦ ، عمدة القاري للعيني : ٧ / ٦٣٠ ، طَبَقَات أَبن سعد : ٩ ٥٠ ، عُيُون الأثر لِابْن سيِّد النَّاس : ١ / ٢٢٦ ، الإمْتَاع للمَقْرِيزي : ٥٥ ، السِّيرَة الحَلبية : ٢ / ١٤٢ ، تَأريخ الخميس : ٢ / ٣٦٤ .

(١) مَرْيَمَ : ٦٠ .

(٢) ٱلأَحْزَاب : ٦٨ .

يُقَال للجاهل غداً: هَلاَّ تَعلمت ؟[١].

(رَبٌّ رَحِيمٌ) أي رأىٰ النَّبِيّ ﷺ إمْرَأة تَضمُ رَضِيعها فِي حَنان، وتُلقمه ثَدِيها فِي غبطة، فَقَال لأصحَابه: «أترُون هَذِه طَارِحة طِفلها فِي النَّار ؟. قَالُوا: لاَ والله. فقَال: إنّ الله أرحم بِعبَادِه مِن هَذِه بولدها»[٢] (وَ دِينٌ قَوِيمٌ) يَهدِي للَّتِي هِي أقوم، فيحل الطِّيبَات، ويُحرم الخبَائِث، ويُريد بالنَّاس اليُسر، ولا يُكلف نَفساً إلاّ وِسعها (وَ إِمَامٌ عَلِيمٌ) بِكتَاب الله، وسُنّة نَبِيّه، وبكلّ مَا يُصلحكم، ويُفسدكم... وأراد بِه نَفْسه (أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ) أُدافع عَنكم، وأُدبر شُؤُونَكم بكفَاءة، وإخلاَص (وَ أَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ) مُلقىٰ علىٰ فراشِي لا أستطِيع حُراكاً كَما ترُون.

(إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ). إنّ سَلمتُ، وعُوفِيت مِن ضَربة ابن مُلجَم فَذَاك الّذي تبغُون (وَ إِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ) أي كَان أجلي بِهَذه الضّربة (فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَ مَهَابِّ رِيَاحٍ، وَ تَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا، وَ عَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا) أي أنّ العُمر يُفنىٰ كالظّل، ويَذهب كالرّيح، ويَندرس كالأثر (وَ إِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَ سَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَ صَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي، وَ خُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَ سُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ، وَ الْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ). الأجسَام تَحيا مَا دَام فِيها الرُّوح، فإذَا خَرجت مِنها صَارت جُثّة هَامِدة بلاَ حَراك، وإحْسَاس، ونُطق..

(١) أُنظر، أمَالي الشّيخ الطّوسِي: ١/٨، وفِيه أفلاً. تَفسِير الصّافي: ٢/١٦٩.

(٢) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/٢١٠٩، حسن الظّن بالله لإبن أبي الدُّنيَا: ٢٨ ح ١٨، المُعجَم الصّغير: ١/٩٨ ح ٢٧٣، المُعجَم الأوسط: ٣/٣٣٢، رياض الصَّالحين للنووي: ٢٤٢، كَنز العُمّال: ٤/٢٥٣ ح ١٠٤٠ و ١٠٤٦١، كشف الخفَاء: ٢/٤٠٥، تفسِير أبن كثير: ١/١٩٨.

ولكن حَالها يَنطق بأبلغ العِظَات. قَالَ أَحد رِجال الإِسْكَنْدَر حِين نَظر إِلىٰ جُثَّته: «لقد حَرَكَنا بسكُونه»(١). ومن لا يَتعظ بغِيره فهُو من الجَاهِلِين الهَالِكِين.

(وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ آمْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاَقِي) مَع الله من أجل الحِسَاب، والجَزَاء، وفِي كِتَاب «إحيَاء العلوم» للغزّالي: «إنّ رسول اللهﷺ ظَهر أنينه حِين النَّزع، وآرتفع حَنِينه، وتَغير لونه، وعَرق جَبِينه، وآضطربت فِي الاِنقباض، والاِنْبسَاط شِماله، وَيَمِينه»(٢) (غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي وَ يُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَ تَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي، وَ قِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي) تَعرفُون فَضلي بَعد أنْ يَخلو مَقامِي مِن بَيْنَكُمْ، وتُجربُون غَيْري «وبضدها تتبين الأَشْيَاء»(٣). وما ظَهر أَعْدَاء الإِمَام، وحُساده عَلىٰ حقِيقَتهم إلّا بَعد أنْ آختاره الله إِلىٰ جُواره، ومَا عَرف أَصْحَابه مكانته، وعَظَمَته إلّا بَعد أنْ حَكمهُم الفُجار، والأَشْرَار.

قَالَ الإِمَام الحَسَنعليه السلام: «أتيتُ أَبِي فِي ٱللَّيْلَة الّتي ضُرب فِي صَبيحتها، فقَال: أَرقت ٱللَّيْلَة، ثُمَّ مَلَكَتْنِي عَيْنِي، وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِﷺ، فَقُلْتُ: يَا

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/١٠٤ و: ٩/١٢٣.

(٢) أبو حَامد محمّد الغزالي الطوسي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) مولده ووفاته في الطابران ـقصبة طُوس بخراسان ـ رحل إِلىٰ نيسابور، ثمّ إِلىٰ بغداد فالحجاز فبلاد الشّام فمِصْر، وعاد إِلىٰ بلدته. نِسبته الىٰ صناعة الغزل، أو إِلىٰ غزالة من قرىٰ طوس. له كتب كثيرة مِنْهَا: إحياء علوم الدين، راجع: ٣ / ١٥٤، تَهافُت الفلاسفة، المنقذ من الضلال.... أُنظر ترجمته في كتاب رجال الفِكْر والدَّعْوَة في الإسلام: ٢٠٦. الكويت سَنَة ١٩٦٩. المنتظم لاِبن الجوزي: ٩ / ١٦٩ ط دائرة المعارف حيدرآباد.

(٣) أُنظر، مواهب الجليل: ٣/٤٧٨. فيض القدِير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٤/٢٠٨ ح ٤٨٦٩. فتح الباري: ١٠/٧٠. نهج البَلاَغَة لاِبن أَبي ٱلحَدِيد: ٩/١٢٤. البرهان للزركشي: ١/٤٩. سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ١/٤٤٣.

رَسُولَ اللهِ، مَا ذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ، وَ اللَّدَدِ؟ ـ أي العُوج، والخُصُومَة؟[١]
فَقَالَ: «اُدْعُ عَلَيْهِمْ! فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَ أَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي»[٢].

(١) رُوي ذَلِكَ بطرق عَدِيدة، فمثلاً عن عَمّار الدُهْني عن أبي صالح الحَنفي قَالَ: سَمعت عليّاً عليه السلام يقول: رَأيت النَّبيّ صلى الله عليه وآله في مَنامي، فَشكَوْتُ إِلَيْهِ ما لقِيتُ من أُمّتهِ من الأَوَد، واللّدَد ـ العُوج والخُصُومَة الشَّدِيدة ـ وبكيتُ، فقال: لاتبكِ يا عَليّ والتفِتْ، فالتفتُّ فإذا رَجُلان مُصَفَّدان، وإذَا جَلامِيد تُرضَخ بها رُؤُوسهُما. أنظر النّهاية: ٤ / ٢٤٤، الإرشاد: ٩/ ١٥، المناقب للخوارزمي: ٣٧٨ و٤٠٢، مناقب ابن شهر آشوب: ٣ / ٣١١، كشف الغمّة: ١ / ٤٣٣ ط الحديثة قريب من هَذَا اللّفظ، وتذكرة الخواصّ: ١٠٠، إعلام الورىٰ: ١٥٥، بحار الأنوار: ٤٢ / ٢٢٥، شَرح النّهج لِابن أبي الحَديد: ١ /١٢٨، شَرح النّهج للفِيض: ١٥٦ خُطْبَة (٩٦)، تأريخ دمشق تَرجمة الإمَام عَليّ: ٣ /٢٩٥، الإستيعاب لِابن عبد البرّ بهامش الإصَابة: ٣ / ٦١.

(٢) أنظر، نَهج البَلاغَة: الخُطْبَة (٧٠).

الخطبة

-١٥٠-

لاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ أَخَذُوا يَمِيناً، وَ شِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَ تَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَ لاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَ مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمِ، هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَ دُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لاَ تَعْرِفُونَ(١). أَلاَ وَ إِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَ يَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَ يُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَ يَصْدَعَ شَعْباً، وَ يَشْعَبَ صَدْعاً فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لاَ يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَ لَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ. تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَ يُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَ يُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ(٢)!

اللُّغَة:

ظَعْناً: سَيْراً. ومُرْصَدٌ: محفوظ لا يفُوت شِيء منهُ. والتَّبَاشِيرِ: أَوائِل كلّ شَيء. وإِبَّانُ الشَّيء: وَقتهُ، ودنُوّه. والرِّبْقة: الْعُرْوَة فِي الحَبل. والرِّبْق: الحَبل فيهِ عدّة

عُرىٰ. وَيَصْدَعَ شَعْباً: يُفرق ما آجتمع من الْبَاطِل. وَيَشْعَبَ صَدْعاً: يجمع مَا تَفرق من الْحَقّ. ويُشْحَذَنَّ: مِن شَحَذَ السِّكِين إذَا حَددها. والْقَيْنِ: الحَـدَاد. والنَّـصْلَ: حَدِيدة السَّيْف، والرُّمح، والسَّهم، والسِّكِين، ورُبَّمَا سُمّيَ السَّيْف نَصلاً. وَيُـغْبَقُونَ، والغَبُوق ـ بفتح الغين ـ مَا يُشرب فِي العَشِي. والصَّبُوح ـ بفتح الصَّاد ـ مَا يُشرب، أو يُؤكل فِي الصَّباح.

الْإِعْرَاب:

يَمِيناً، وَ شِمَالاً نُصب علىٰ الظَّرف أي أَخَذُوا فِي جِهة اليَمِين، وجِهة الشِّمال، وطَعْناً وَتَرْكاً مَصْدَر فِي مُوضع الحَال أي طَاعنِين، وتَارِكِين، فَكَم خَبَرِية للتَّكثِير، ومَحلها الرَّفع بالاِبْتِدَاء و «بِمَا» البَاء بِمَعْنَىٰ شَيء، أو أَمر، وجُملة إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ خَبَر «كَمْ». وفِي سُتْرَةٍ مُتَعَلِّق بمحذُوف حَالاً مِن فَاعِل يَشْعَبَ أي فَـاعلاً ذٰلِكَ فِي سُتْرَة.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ أَخَذُوا يَمِيناً، وَ شِمَالاً طَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَ تَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ). يُشِير الْإِمَام بِهَذا إِلىٰ فِئَةٍ، أو فُرقة ضَلت عَن سَبِيل الْهُدَىٰ، وآنحرفت إِلىٰ طَرِيق الضّلال، وهو الإفْرَاط بتجَاوز الحَدّ إِلىٰ جَانب الزِّيَادَة كالغلوّ المُسمّىٰ فِي لغة العَصر بـاليَمِين المُتطرف، أو التَّفْرِيط بالتَّجاوز إِلىٰ جَانب النُقْصَان، ويُقَال له: اليَسار المُتطرف (فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ) لماذَا التَّسرع، والاِسْتعجَال إِلىٰ أَمرٍ هُو آتٍ لا مَحَالَةَ؟

وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «لَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ»(١) خَيْراً كَانَ أَم شَرّاً (وَ لاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ) فَكُلّ آتٍ قَرِيب.

حَوْلَ السُّرْعَة:

(فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ). بالصَّبر، والرَّوِيَّة يبلغ ٱلإِنْسَان مَا يُرِيد، ويَضع الأَشْيَاء فِي مَوْضِعها الصَّحِيح... وكَم مِن سُرْعَة جَلبت منِيَّة، كسَائِق العَرَبَة: يُسرع ليُوفر بَعْض الوقت فِيهلك، ويُهلِك... والإِعْتِدَال حَسن فِي كلّ شَيء حَتَّىٰ فِي الصَّلاة، وذِكر الْمَوْت، فإِنّ الإكثَار مِنْهُمَا قد يُفسد ٱلْحَيَاة، والغلوّ فِي الْحَقَائِق يُحِيلها إِلىٰ أَبَاطِيل، وقَدِيماً قِيل: إذَا تَجاوز الشَّيء عَن حَدّه ٱنعكس إِلىٰ ضِده، وَقَالَ سيّد النَّبِيِّين ﷺ: «أَمَا والله إِنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكن أَصوم وأَفطر، وأُصلّي، وأَرقِد، وأَتزوج ٱلنِّسَاء، ومَن رَغِب عَن سُنتِي فَلَيْسَ مِنِي»(٢).

وَقَالَ الفَيْلَسُوف الصِّينِي «لِين يُوتانج»: «إِنّ خِيرة الْمحارِبِيْنَ لا يَظهرُون غَضبهُم الجَامح، وإِنّ أَعظم الفَاتحِين ٱنتصَاراً يَكتسبُون الإِنْتصَارات دُونَ أَنْ يَخُوضُوا المعَارك، كمَا أَنّ أَفضل النَّاس ٱستخدَاماً للآخرِين يَتظاهرُون بأَنّهم دُونهم، فهَذا

(١) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٠).

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٩٤٩/٥ ح ٤٧٧٦، تَفسِير القُرطُبي: ٢٦١/٦، صَحِيح ٱبن حبّان: ٢٠/٢ ح ٣١٧، سُنن البَيْهقِيّ الكُبْرَىٰ: ٧٧/٧ ح ١٣٢٢٦، شعب الإِيمَان: ٣٨١/٤ ح ٥٤٧٧، أعتقاد أَهْل السُّنَّة: ٩٧/١ ح ١٣٨، التَّرغيب والتَّرهيب: ٣٠/٣ ح ٢٩٥٣، فتح الباري: ٥٤١/١٠ ح ٥٧٥١، سُبل السَّلام: ١١٠/٣.

هُو السُّلْطَان الَّذي يَتحقق دُونَ نِزاع»[١].

(وَ مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ). وكلّما قَرُب الغَد بَعُد الَّذي قَبله، بل يَصِير عَدماً بلا تَأرِيخ إلّا مَع الأثَر الطَّيِّب، وقَد يَبْقىٰ هَذَا التَّأرِيخ، والأثَر بِبقَاء الله، كَيُوم مُولد مُحَمّد ﷺ الَّذي جَاء آيذاناً بالتّحُول الخَطِير الْكَبِير فِي حَيَاة العَالم كلّه، وصَدق فيهِ قول الشَّاعر[٢]:

وِلدَ الْهُدَىٰ فَالكائِنَات ضِيَاء　　　وفَمُ الزَّمان تَبسمٌ وثناءُ

(يَا قَوْمِ، هٰذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَ دُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لاٰ تَعْرِفُونَ). يُشِير بهَذا إِلىٰ مَا يَحدث بَعْدَه من الْفِتَن تَمهِيداً لقَوْله: (أَلاٰ وَ إِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَ يَحْذُو فِيهَا عَلَىٰ مِثَالِ الصَّالِحِينَ). سَتقع فِتَن كَثِيرة، ومتنوّعة بَعد الإِمَام فِي كلّ زَمَان، وفِي الشَّرق، والغَرب، ومِنْهَا مَا يَحدث فِي عَصر الأَئِمَّة الأطهَار مِن آل الرَّسُول ﷺ، وأي مِنهم أدرك شَيْئاً مِن ذَلِكَ فإِنَّه يُعالجه بِمَا تَستدعِيه ٱلحِكْمَة، ويَهدي إِلَيْهِ الْعَقْل السَّلِيم، ودِين الله الْقَوِيم كمَا يَفعل ٱلْأَنْبِيَاء، والأَوْصِيَاء.

(لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً) يَدفع الشُّبهات، وَيحل المُشْكِلاَت (وَ يُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً) مِن الجَهْل والضَّلال، أي يَهْتَدِي الكَثِير بنُوره إِلىٰ نَهج ٱلسَّبِيل (وَ يَصْدَعَ شَعْباً) يفصل الأَخْيَار الطَّيِّبِين عَن المُزيفِين الَّذين يَتظاهرُون بالخَيْر، والصَّلاح كِذباً، ورِيَاءً (وَ يَشْعَبَ صَدْعاً) يَجمع الْمُؤْمِنِينَ الطَّيِّبِين، ويُوحد كَلمتهُم تَحت لوائه بَعد أنْ كَانوا مُوزعِين مُشتتِين (فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لاٰ يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَ لَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ) أي أنّ

(١) أُنظر، كِتاب «كَيْفَ يَحيا ٱلاِنْسَان» للفِيلسوف الصِّيني «لِين يُوتَانج»: ١٥٢ (مِنْهُ ﷺ).

(٢) هَذَا البَيْت لأحْمَد بن عليّ بن أحمد شوقي (١٢٨٥ هـ - ١٣٥١ هـ) أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمِير ٱلشُّعَرَاء، مولده ووفاته بالقاهرة.

الْإِمَام يَفعل ذَلِكَ لوجه الله بلا طَنطنَات، ودعَـايات حُـبّاً بِـالسُّمعة، والشُّهـرة، وطَمعاً فِي الثَّناء، والمَدِيح.

(ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ. تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَ يُـرْمَىٰ بِالتَفْسِير فِي مَسَامِعِهِمْ، وَ يُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ) يَتخرج مِن مَدرسَة إمَام ذَلِكَ العَصر عُلَمَاء بجلاَل الله، وحرَامـه، وبِكـتابهِ، وسُـنَّة نَـبِيِّه، ويَـتركُون لِلْإِسْلاَم، والْمُسْلِمِين أَحسن الآثَار، وأَنْفعها لِلْإِنْسَان، وحَيَاة الإِنْسَان، ويَصدق هَذَا الْوَصْف الَّذي ذَكره عَلَىٰ تلامِيذ حَفِيده الْإِمَام جَعفر الصَّادق، فَقد بَلغ عَددهُم مَا يَربو عَلَىٰ أَرْبَعَة آلاف، وألّف العَدِيد مِنْهُم أَرْبَعمئة كِتاب فِيما أَملاه مـن العـلُوم وأَجُوبة المسَائِل، وتُسمىٰ هَذِه الكُتب بالأُصُول، لِأَنَّهَا الْحِجْر الأسَاسِي لتآلِـيف الشِّيعة فِي الْعَقِيدَة، والفِقْه، والْحَدِيث، الْأَخْلاَق، وغَيرها[1].

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

وَ طَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَ يَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ حَتَّىٰ إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ، وَ اسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَ أَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ، وَ لَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ، حَتَّىٰ إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْـبَلاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، وَ دَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ[3]، حَتَّىٰ إِذَا قَـبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَ غَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَ اتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ، وَ وَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَ هَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَ نَقَلُوا الْبِنَاءَ عَـنْ رَصِّ

---

(١) أنظر، إعلام الورىٰ بأعلام الهُدَىٰ: ٢/٢٠٠، مَعَالِم العُلَمَاء لِابن شهر آشوب: ٣، الوجِيزة للشَيخ البهاء: ١٨٣، الذَّرِيعة: ١٢٥/٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٢٠٨/٣٠، المُعتبر للمُحقق: ٥.

أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَ أَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَ ذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ، عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَىٰ الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ(٤).

اللُّغَة:

الْغِيَرَ ـ بكسر الغين ـ أَحداث الدَّهْر، ونَوائِبه. وآخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ: قَرُب، وأَوشك أَنْ يَنتهِي. وَأَشَالُوا: مِن شَالت النَّاقة ذَنَبها إذَا رَفعتهُ. ولَقَحت الْحَرْب أي هَاجت. والْوَلائِج: جَمع الوَلِيجَة، وَهِي بِطانة الرَّجُل، وخَاصته، وتُطلق علىٰ نِيتَه، ودَخِيلته. والْمُرَاد بِالغَمْرَة هُنا ـ بفتح الغِين ـ الشِّدَّة. ومَارُوا: آضطربُوا.

الْإِعْرَاب:

مَعَادِنُ خَبَر لمُبْتَدأ محذُوف أي هُم مَعَادِنُ، وعَلَىٰ سُنَّةٍ آلِ فِرْعَوْنَ مُتَعَلِّق بمحذُوف حَالاً من وَاو الْجَمَاعَة فِي ذَهَلُوا أي سَائِرين عَلَىٰ سُنَّةٍ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ بدل مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ طَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَ يَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ). الضَّمِير فِي «بِهِمْ» يَعُود إِلىٰ غَيْر مَذكُورِين فِي الكلاَم، وَقَالَ الشِّيخ مُحمّد عَبْدَه: «يَعود إِلىٰ أَهْل الْجَاهِلِيَّة»(١).. ولا تهمُنا مَعرفة المَقصُودِين بالذّات، إذ لا جدوىٰ مِن هذه الْمَعْرِفَة،

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج الْبَلاَغَة: ٢/٣٦.

والمُهم أنْ نَعرف مكان العِظَة، والعِبْرَة لكِي نَتعظ، ونَعتَبر، ومثل هَذَا كَثِير فِي كِتاب الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[1]... ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2]... ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ﴾[3]. ومَعْنَىٰ قَول الْإِمَام: ولا تَكُونُوا كالَّذِين غَضب الله عَلَيْهِمْ، وَلم يُؤاخذهُم بِمَا كَسبُوا، ويُعاجِلهُم بالنَّقمَة، والعُقُوبَة عَلىٰ مَا أَفسدُوا، وأَثارُوا من الْفِتَن، لتكُون الحُجّة عَلَيْهِمْ أقوىٰ وأَبلغ حَيْث يَتمادُونَ فِي الغَي ويُبدلُون نِعْمَة الله كُفراً. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[4].

(حَتَّىٰ إِذَا ٱخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ). أَوْشَك أَنْ يَنتهي أَمد الإمْهَال، والإِملاَء (وَ ٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَىٰ الْفِتَنِ). تَمادىٰ فِي الْفَسَاد، وَسكت عَنهُم قَوْم آخرُون دُونَ أَنْ يُحركُوا سَاكِناً (وَ أَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ) أي أنّ هَؤُلَاء الْقَوْم هَادنُوا أُولَئِكَ المُفسدِين الَّذِين طَال بِهِمْ الأمد، ولَم يَشنُوا الحَرْب عَلَيْهِمْ حُبّاً بالدّعة، والسَّلامة، وتَهاوناً بواجب النَّهي عَن الْمُنْكر.

(لَمْ يَمُنُّوا عَلَىٰ اللهِ بِالصَّبْرِ). لا يَستقِيم هَذَا الكلاَم إلّا بتقدِير جُملة مَحذُوفة، ويكُون السِّياق هَكذا: بَعد أنْ سَكَت قَوْم عن الَّذِين أَفسدُوا نَهض جَماعَة مِن الْمُؤْمِنِينَ لجِهَاد المُفسدِين، وصَبرُوا عَلىٰ جِهَادهم، ولَم يَمُنَّ ٱلْمُؤْمِنُون المُجاهدُون عَلىٰ الله بالصَّبر، والجِهَاد (وَ لَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ) بل رأوه واجباً

(١) ٱلْأَنفَالِ: ٢١.
(٢) ٱلْحَشْرِ: ١٩.
(٣) ٱلنَّحْلِ: ٩٢.
(٤) آلِ عِمْرَانَ: ١٧٨.

عَلَيْهِمْ، وأمَانة فِي عُنقهم.

(حَتَّىٰ إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ ٱنْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلاءِ) أي أنّ الْـبَلاَء بأَهْـل الْـبَغْي، والْفِتَن ٱستمر أَمده حَتَّىٰ قضىٰ الله، وقدّر نهايته، وعندئذٍ حَمل ٱلْمُؤْمِنُون (بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ). الْمُرَاد بالبصَائر، والْعَقِيدَة، والْمَعْنَىٰ أنّ الْمُؤْمِنِينَ أَعلنوا عَـقِيدتهُم، ودَافعُوا عَنْهَا، ونَاصروا بأسلحتهِم، وٱستمَاتُوا دُونها (وَ دَانُوا لِرَبِّهِمْ) بِطاعتهِم لهُ، وجِهادهُم فِي سَبيله (بِأَمْرِ وَٱعِظِهِمْ) أي مُرشدهُم، وهُو الَّذي قَادهُم فِي هَذَا الْجِهَاد الْمُقدس.

(حَتَّىٰ إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَىٰ الْأَعْقَابِ). يُشِير بهَذا إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[1].

وفِي صَحِيح البُخَاريّ، كتاب الْفِتَن: «إِنّ رَسُول الله ﷺ يَـقُول يَـوْم الْـقِيَامَة أي أصحابِي... فيَقُول له: إِنّك لا تَدري مَا أحدثوا بَعدك»[2].. وفِي حَدِيث ثَانٍ مـن أحَاديث البُخَاريّ: إِنَّكَ لا تَدري مَا بَدلوا بَعدك... فأقول: سُحْقاً، سُحْقاً لِمن بَدل بَعدِي»[3]. ولَيس من شكّ أنّ الْمُرَاد بهَذا التَّبدِيل الإعْرَاض عَـن سُـنَّة الرَّسُـول

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٤.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٣/٩، صَحِيح مُسْلِم: ١٧٩٦/٤، مُسْنَد أحمد: ١٤٠/٣ و: ٢٩٧/٦، سُـنَن ٱبن ماجه: ١٤٣٩/٢، مصابيح السُّنَّة: ٥٣٧/٣.

(٣) الْصَّحَابَة لغةً: الصَّاحب. وجمعه: صحب، وأصحاب، وصِحاب، و صحابة. والصَّاحب: المَعَاشِر والملازم، أو المجالس أو المُشايع. ولا يُقَال إلّا لمن كثرت ملازمته، وإنّ المُـصاحبة تَقْتَضِي طول لبثه. (أنظر، لِسَان الْعَرَب، ومفردات الرّاغب، وتاج اللُّغَة للجوهري، وتاج العروس للزبيدي، والْمُعْجَم الوسيط، والقاموس
⇔

↔ المُحيط للفيروز آبادي، ومختارات الصّحاح للرازي).

أمّا في القُرآن الكريم فقد جاء ذكر: أصحاب، وصاحبة، وصاحبها، وأصحابهم، وصاحبته، وتصاحبني.

وكلّ واحدةٍ من هَذِه الألفاظ وغيرُها تدلّ علىٰ مَعْنىً؛ لأنّ الصّحبة تكون بَيْنَ اثْنَيْن أو طرفين. ولابُدّ أنْ تضاف إلىٰ اسمٍ كما في قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ و ﴿أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وغَيْر ذٰلِكَ. (أنظر، سُورَة الكَهْفِ: ٣٧، لُقْمَانَ: ١٥، النّسَاء: ٣٦، التَّوْبَةِ: ٤٠، القَمَر: ٢٩، النّجم: ٢، سَبَإٍ: ٤١، يُوسُفَ: ٣٩ و ٤١، الذّاريات: ٥٩. وأنظر، التّفاسير لِهَذِه الآيَات كتَفْسِير ابن كثير: ٣/٩٢ و ٤٤٤و ١/٤٩٤، و٢/٣٥٨ و ٤/٢٦٥).

أمّا تعريف الصَّحَابِي عند أهْل السُّنّة: فَهُوَ من لقي النّبيّ ﷺ مؤمناً به، ومات علىٰ الإسلام. (الإصَابَة لابْن حجر: ١/١٠). ولَسْنَا بصدد مناقشة التّعريف.

ثمّ ذكر ابن حجر في ضابطٍ يستفاد من مَعْرِفَته صحبة جمعٍ كثير، فَقَالَ: إنّهم كانوا في الفُتُوح لا يؤمرون إلّا الصَّحَابَة). (وإنّه لم يبقَ بمكّة ولا الطّائف أحد في سَنَة عشرٍ إلّا أسلم وشهد مع النّبيّ حجّة الوداع. وإنّه لم يبقَ في الأوس والخزرج أحد في آخر عهد النّبيّ ﷺ إلّا دخل في الإسلام. وما مات النّبيّ ﷺ وأحد مِنْهُم يظهر الكفر. (الإصَابَة: ١/١٣ ـ ١٦).

وَهَذَا التّعريف هو المُخْتَار عند أكْثَر المحققين، إلّا من شذّ مِنْهُم ووضع شُرُوطاً أَرْبَعَة: من طالت صحبته، أو حفظت روايته، أو ضبط أنّه قد غزا معه، أو اسْتُشْهِدَ بَيْنَ يديه. (أنْظر، الاسْتِيعَاب لابْن عبد البرّ، أُسد الغَابَة، الإصَابَة، تقريب التّهذيب).

ويرىٰ أهْل السُّنّة: أنّ الصَّحَابَة كلّهم عدول، إذ ثبت أنّ الجميع من أهْل الجنّة، وأنّه لا يدخل أحد مِنْهُم النّار. (الإصَابَة: ١/٩ و ١٠).

أمّا مدرسة أهْل البَيْت عليهم السلام فترىٰ أنّ لفظ «الصَّحَابِي» ليس مُصطلحاً شرعياً، وإنّما شأنه شأن سائر مفردات اللُّغَة العَرَبية. والصّحبة تشمل كلّ من صحب النّبيّ ﷺ أو رآه أو سمع مِنْهُ، فَهِيَ تشمل: المُؤْمِن والمُنَافِق، والعَادِل والفَاسِق، والبرّ والفاجر، ولذا يَقُول السَّيّد مرتضىٰ الرّضوي: الشّيعة يوالون أصحاب محمدٍ ﷺ الّذين أبلوا البلاء الحَسَن في نصرة الدّين، وجاهدوا بأنفسهم وأمْوَالهم. (آراء عُلَمَاء المُسْلِمِينَ للسيّد مرتضىٰ الرّضوي: ٨٧). حَيْث قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ ↔

⇐ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ ٱلْحُجُرَاتِ : ١٥. وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ٱلتَّوْبَةِ : ١١٩.

لم يكن موقف الشّيعة من هَٰؤُلآءِ غامضاً ولا متزلزلاً، ولذا قَالَ أحد روّاد التّقريب: لا أقول إنّ الآخرين من الْصَّحَابَة ـ وهم الأكثر الّذين لم يتّسموا بسمة الْوَلاَءِ لأَهْلِ ٱلْبَيْت ـ قد خالفوا النّبي ولم يأخذوا بإرشاده، كلّاً ومعاذ الله أنْ يُظنَّ فِيهِمْ ذَٰلِكَ! وهم خيرة مَن علىٰ وجه الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، ولكن لعلّ تلك الْكَلِمَات لم يسمعها كلّهم، ومن سمع بَعْضهَا لم يلتفت إلىٰ المقصود مِنْهَا، وصحابة النّبيّ الكرام أسمىٰ من أنْ تُحلّق إلىٰ أوج مقامهم بغاث الأوهام (أصل الشّيعة وأُصولها للشّيخ مُحمّد الحُسَيْن كاشف الغطاء: ٨٤).

ويضيف ﷺ بعد أنْ يذكر بمّا وقع بحقّ أَهْلِ ٱلْبَيْت ﷺ لا يذهبنّ عنك أنّه ليس مَعْنَىٰ هَذَا أنّا نريد أنْ ننكر ما لأُولئك الخُلَفَاء من الحَسَنَات، وبَعْض الخدمات لِلإِسْلاَمِ الّتي لا يجحدها إلّا مكابر، ولَسْنَا بحمد الله من المُكابرين، ولا سبّابينّ ولا شتّامين، بل بِمَّنْ يشكر الْحَسَنَة ويُغضي عن السَّيِّئَة، ونقول: تلك أُمّة قد خلت لها ما كسبت وعَلَيْهَا ما آكتسبت، وحسابهم علىٰ الله، فإنْ عفا فبفضله، وإنْ عاقب فبعدله. (الْمَصْدَر السّابق: ٩٤).

أمّا السَّيّد الشّهيد الصّدر المَرْجِع الشّيعي الشّهير والّذي عاش مُجاهداً وداعياً إلىٰ الإصلاح ومخاطباً في بياناته التّأريخيّة أبناء الأُمّة الإسلاميّة بقوْله: «يا أبناء عليّ، ويا أبناء عُمَرَ...» والّذي أعدمته الزُّمْرة الحَاكِمَة في بغداد عام ١٩٨٠م فقد قَالَ: إنّ الْصَّحَابَة بوصفهم الطّليعة الْمُؤْمِنة والمستنيرة كانوا أفْضَل وأصلح بذرةٍ لنشوء أُمّة رسالية، حَتَّىٰ أنّ تَأرِيخ الإِنْسَان لم يشهد جيلاً عقائديّاً أروع وأنبل وأطهر من الجيل الّذي أنشأه الرَّسُول القائد. (بحث حَوْلَ الْوِلاَيَة: ١١/ ٤٨ ـ المجموعة الكامِلة لمؤلّفاته ﷺ الّتي جمعت في ١٥ مجلّداً ومن أشهرها وأكْثرها إنتشاراً «آقتصادنا» و«فلسفتنا» و«البنك اللّاربوي»).

إنّ الصّحبة ليست بمجرّدها تلبس صاحبها لباس العَدَالَة، والْصَّحَابَة واقعاً ليسوا بدرجةٍ واحدة، وإنّما تختلف منازلهم، وطَبَقَات صدقهم، فمنهم الأَقْوِيَاء، ومِنْهُم الضّعفاء، ومِنْهُم ٱلْمُنَافِقُون والرّامون فراش رسول الله ﷺ بالإفك! ومِنْهُم من حاولَ إغتياله ﷺ! وأخبر عنهم. وهم الّذين قَالَ فِيهِمْ الْقُرآن الكريم مخاطباً لهم بعد أنْ آرتدّوا وأشركوا وآنقلبوا علىٰ أعقابهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ آل عِمْرَانَ: ١٤٤. وهم الّذين قَالَ فِيهِمْ رسول الله ﷺ: يا ربِّ، أصحابي أصحابي! فيُقَال له: إنّك لا

⇐

﴿ تدري ما أحدثوا بعدك. (صَحِيح البُخَارِيّ ٩: ٨٣، صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٧٩٦ حَدِيث الحوض، مُسْنَد أحمد: ٣/١٤٠). وفي حديثٍ آخر قَالَ: فأقول: سحقاً سحقاً. (سُنَن ابن ماجه: ٢/١٤٣٩، مُسْنَد أحمد: ٦/٢٩٧، مصابيح السّنّة: ٣/٥٣٧) إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الأَحَادِيث.

ومِنْهُم مَن تشتاق إِلَيْهِ الْجَنَّة، وقد أثنىٰ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ عَلَيْهِمْ والرَّسُول ﷺ في أحاديثه، وأنّهم المقصودُونَ في الثّناء: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح: ٢٩.

هَٰؤُلَاء قاموا بمَعَالِم ٱلرِّسَالَة، وبذلوا النّصيحة، وهذّبوا الطّرق، وأذلّ الله بِهِمْ الكفر والشّرك، وصارت بِهِمْ كلمة الله هِيَ العليا، وكلمة الّذين كفروا السُّفْلَىٰ. فصلوات الله عَلَيْهِمْ وعلىٰ أرواحهم الطّاهرةِ بعد ما كانوا في ٱلْحَيَاة أَوْلِيَاء، وبعد الممات أحياء.

والخُلَاصة: أنّ الشّيعة يَقُولُون بعدالة المتصف بِالعَدَالَة من الصَّحَابَة فقط، ولذا نراهم يرددُونَ الأدعية الواردة عن الأَئِمَّة الأطهار بحقّ الصَّحَابَة كدعاء الإِمَام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حَيْث يَقُول: لقد رأيت أصحاب مُحَمّد ﷺ فما أرىٰ أحداً يُشبههم منكم، لقد كانوا يُصبحون شُعثاً غُبراً، وقد باتُوا سُجّداً وقياماً، يراوحون بَيْنَ جباههم وخدودهم، ويقفون علىٰ مثل الجَمْر من ذِكر معادِهم، كأنّ بَيْنَ أعينهم رُكَبَ المِعزَىٰ من طولِ سُجودِهم، إِذَا ذُكِرَ الله هَمَلَتْ أعيُنُهم حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيوبهم، ومادُوا كما يميدُ الشّجرُ يَوْم الرّيح العاصف، خَوْفاً من العقاب ورجاءً للثواب. (نَهْج الْبَلاَغَة تحقيق الدّكتور صُبحي الصّالح: ١٤٣).

ويَقُول عليه السلام: أين إخواني الّذين ركبوا الطّريق ومَضَوا علىٰ الحقّ؟ أين عَمّار؟ وأين ابن التّيّهان (أبو الهَيْثَم مالك بن التّيّهان)؟ وأين ذو الشّهادتين (خُزَيْمَة بن ثابت الأَنْصَاري)؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم... الّذين تَلَوا القُرْآن فأحكموهُ؟ وتَدبّروا الفرضَ فأقاموه، أحْيوا السّنّة وأماتُوا البِدْعَة، ودُعوا إلىٰ الجِهَاد فأجابوا، ووثِقُوا بالقائد فأتّبعوه. (المَصْدَر السّابق: ٢٦٤).

ومن أدعية الإِمَام عليّ بن الحُسَيْن زين العابدين عليه السلام والّتي يتعبّد بها الشّيعة: «اللّٰهُمَّ وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ، وَالَّذِينَ أَبْلَوْا البَلاَءَ الحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ وَأَسْرَعُوا إِلَىٰ وِفَادَتِهِ وَسَابَقُوا إِلَىٰ دَعْوَتِهِ وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حجَّةَ رِسَالاَتِهِ، وَفَارَقُوا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، ﴾

ووصِيتَه، لا مُجرد الشَّك، أو الارتدَاد مَع العِلم بأنّ الْصَّحَابَة بِكـاملهِم بـقُوا عَـلىٰ الشَّهادتِين بَعد رَسُول الله ﷺ.

(وَ غَالَتْهُمُ السُّبُلُ) الْمُرَاد بِغَالَتْهُم أَهْـلَكتهُم، والْمَـعْنَىٰ سَـلكُوا طُـرق الضّـلال فقَادتهُم إلىٰ المهَالِك (وَ ٱتَّكَلُوا عَلَى الْوَلاَئِجِ) ٱعتمدُوا السّلطَانهم، وجَاههم في الدُّنْيَا عَلىٰ تَروِيج بِطانَة السُّوء، وإخْوَان الرَّخاء الأنْتهَازِيين (وَ وَصَلُوا غَـيْرَ الرَّحِـمِ، وَ

﴾ وَقَاتَلُوا الآبَاءَ وَ الأبناءَ فِي تَثْبِيتِ نبُوَّتِهِ، وَانْتَصَرُوا بِهِ وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ، وَالَّذينَ هَجَرَتْهُمُ العَشَائِرُ إذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وَانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ، فَلاَ تَنْسَ لَهُمُ اللّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وَفِيكَ، وَأَرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ وَبِمَا حَاشُوا الْخَلْقَ عَلَيْكَ، وَكَانُوا مَعَ رَسُولِكَ دُعَاةً لَكَ إِلَيْكَ، وَاشْكُرْهُمْ عَلَى هَجْرِهِمْ فِيْكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إِلىٰ ضِيْقِهِ، وَمَنْ كَثَّرْتَ فِي إعْزَازِ دِيْنِكَ مِنْ مَظْلُومِهِمْ. اَللّهُمَّ وَاَوْصِلْ إِلىٰ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإحْسَانٍ الَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُونَا بِالإيْمَانِ خَيْرَ جَزَائِكَ، الَّذِينَ قَصَدُوا سَمْتَهُمْ، وَتَحَرَّوْا وِجْهَتَهُمْ، وَمَضَوْا عَلى شاكِلَتِهِمْ، لَمْ يَثْنِهِمْ رَيْبٌ فِي بَصِيْرَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِجْهُمْ شَكٌّ فِي قَفْوِ آثَارِهِمْ وَالائْتِمَامِ بِهِدَايَةِ مَنَارِهِمْ، مُكَانِفِينَ وَمُوَازِرِينَ لَهُمْ، يَدِيْنُونَ بِدِيْنِهِمْ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِمْ، يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِمْ، وَلاَ يَتَّهِمُونَهُمْ فِيمَا أَدَّوْا إلَيْهِمْ. (الصّحيفة السّجّادية: الدّعاء الرّابع).

وهاهو جواب ٱبن عبّاس ﷺ لمعاوية بن أبي سُفْيَانَ عندما سأله عن الْصَّحَابَة، قَالَ: يامُعَاوِيَةَ إنّ الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه خصّ نبيّه مُحمّداً بصحابةٍ آثروه علىٰ الأنفس والأموال، وبذلوا النّفوس دونه في كلّ حـالٍ، وصـفهم الله في كـتابه العـزيز ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاـهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾. (مـروج الذّهب للمسعودي: ٣ / ٦٥ و ٤٢٥).

إذَنْ، فٱتّهام الشّيعة بسبّ الْصَّحَابَة وتكفيرهم جميعاً هو ٱتّهام بَاطِل لا يمتّ إلىٰ التّشيّع بسبب (أُنظر، الشّيعة في الميزان للعلاّمة مُحمّد جَواد مُغنية: ١٥).

وكَانَ معظم الشّيعة يتورّعون عن شتم أحدٍ من الْصَّحَابَة والتّابعين (أُنظر. هوية التّشيّع للدكتور الشّيخ أحمد الوائلي: ٣٨). وهاهو الإمَام عليّ بن أبي طالب ﷺ يقول في خطبته: إنّي أكرهُ لكم أنْ تكونوا سبّابين. (نَهج البَلاَغَة تحقيق صُبحي الصّالح: ٣٢٣)، عند ما سمع بَعْض جنده يسبّون أَهْل الشّام أيّام حَـرْبهم في صفّين.

هَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ). المُرَاد بالرَّحِمِ والسَّبَبَ هُنا أَهْل ٱلْبَيْت بقرينة قَوْله: (الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ) والأَمْر بهذه المَوَدَّة هو الله سُبْحَانَهُ فِي قَوْله عزّ من قَائل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. وَقَالَ آبن أَبِي ٱلحَدِيد:

(١) ٱلشُّورَىٰ: ٢٣.

أقول: آختلفت الأقوال، وتضاربت الآرَاء في تأويل مَعْنَىٰ القُربة في هَذِه الآيَة الكريمة. وعند مراجعتنا للمصادر التَّأريخِية، والحديثية، والتَّفسِيرية نرىٰ أنّ الآرَاء قد أجمعت بأنّ المُرَاد من القُربة هم أَهْل الْكِسَاء المطهّرون: عليّ، وفَاطِمَة، والحسنان. كما جاء في تَفْسِير الكشّاف للزمخشري: ٤/٢١٩ ـ ٢٢٠ طَبْعَة منشورات البَلاَغَة قم، وفتح القدير للشوكاني: ٤/٥٣٤. وأورد حديثاً في سبب النّزول أخرجه آبن جرير، وآبن أَبِي حاتم، وآبن مردويه، عن آبن عبّاس قَالَ: لمّا نزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَالُوا: يا رسول الله مَن هَؤُلَاءِ الّذين أمرنا الله بمودّتهم؟ قَالَ: عليّ، وفَاطِمَة، وولدها. وفي رواية أُخرىٰ و«وولدهم». وقيل: قَالَ: عليّ، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن.

ورواه الطّبراني المُعْجَم الكَبِير (ترجمة الإِمَام الحَسَن عليه السلام): ١/١٢٥ تحت الرّقم ٢٦٤١، و: ٣/١٣٩ الطّبعة الأُولَىٰ وكَذَلِكَ في ترجمة عبدالله بن عبّاس: ٣/١٥٢.

وقد أجمع الجمهور علىٰ ذَلِكَ ماعدا آبن كثير في تَفْسِيره: ٤/١١٢ فقد أسقط ذكر الإِمَام عليّ عليه السلام لأنّه نقل الحديث عن آبن أَبِي حاتم، ولكن عند المراجعة تبيّن أنّ آبن أَبِي حاتم لم يسقط الاسم بل ثبت اسم عليّ عليه السلام في تَفْسِيره للآية ناقلاً الحديث عن سعيد بن جبير عن آبن عبّاس.

ولَسْنَا بصدد مناقشة ذَلِكَ ولا مناقشة وجوب المَوَدَّة الّتي تستلزم وجوب الطَّاعَة، ووجوب مَوَدَّة آل ٱلْبَيْت عليهم السلام كوجوب مَوَدَّة الرَّسُول صلى الله عليه وآله بهَذِه الآيَة وبآية المُبَاهَلَة علىٰ سَبِيل المثال لا الحصر أو أنّ الآيَة منسوخة أم لا؟ أم أنّها نزلت بمكّة أم بالمَدِينَة؟ فمن شاء التّثبّت فليراجع المصادر والأَحَادِيث الّتي نشير إِلَيْهَا، وَهِي:

فرائد السِّمطين للجويني: ١/٢٠، و: ٢/١٣/٣٥٩، شواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني: ٢/١٣٠ ح ٨٢٢ ـ ٨٢٨ و ٨٣٠ ـ ٨٣٤ و ٨٣٨، غَايَة المرام: ٣٠٦ وقد ذكر شواهد كثيرة بهَذَا الخصوص، تَفْسِير فرات الكوفي: ١٤٥ وقد ذكر شواهد كثيرة، فَضَائل الخَمْسَة: ١/٢٥٠ و ٢٥٩ و ٢٦٢ عن الصَّوَاعِق وعن كنز العُمَّال: ١/٢٠٨ وَهِي شواهد كثيرة، خصائص الوحي المبين: ٥٤ الطَّبعة الأُولَىٰ و ٥٨ الطَّبعة الثَّانِيَة.

⇔ وأنظر أيضاً حلية الأَوْلِيَاء: ٣/٢٠١ عن سعيد بن جبير عن أبن عبّاس قَالَ: لمّا نـزلت ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ...﴾ قَالُوا: يا رسول الله أيّ قرابتك (هَٰؤُلَآءِ) الّذين آفترض الله علينا مودتّهم؟ قَالَ: عليّ، وفَاطِمَة، وولدهم. يَقُولها ثلاث مَرَّات، ومثله في كتابه المناقب: ٢٩ ح ٦٢ و ٦٩ أو في حَدِيث ٨٢٤ من الشّواهد لِلحَاكِم قَالَ ﷺ: عليّ، وفَاطِمَة، وولدها. يردّدها، الطَّبَرِيّ في كتابه الوِلاَيَة كما رواه عَنْه القاضي النّعمان المِصْري ح ٧٣.

مَجْمَع الزّوائد: ٧/١٠٣ و ٩/١٤٦ و ١٦٨، كفاية الطّالب للحافظ الكنجي: ٩٠ و ٩١ و ٩٣ و ٣١٣ و ٣١٧ طَبْعَة الحيدرية وفي هامشه عن الكشّاف: ٢/٣٣٩، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢٥، نـور الأَبْـصَار: ١٠١، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٠١ و ١٣٥ و ١٣٦ طَبْعَة الميمنية بمِصْر، وص ١٦٨ و ٢٢٥ طَبْعَة المُحمّدية، الْـقَوْل الفصل لِابْن طاهر الحدّاد: ١/٤٧٤ و ٤٨٠ و ٤٨٢ طَبْعَة جاوا، ردّاً علىٰ من قَالَ إنّ هَٰذِهِ الآيَة منسوخة وإنَّها نزلت بمَكَّة.

وأنظر أيضاً تَفْسِير جامع الْبَيَان للطبري: ١١/١٤٤ طَـبْعَة دار الكـتب العـلمية بـيروت، تَـفْسِير النّيسابوري بهامش جامع الْبَيَان: ٢٤/٣٥ الْقَوْل الرّابع عن سـعيد بـن جـبير وسـاق الحَـدِيث، شرح المواهب للزرقاني: ٧/٣ و ٢١، إسعاف الرّاغبين للصبّان في هامش نور الأَبْصَار: ١٠٥، الشّرف المؤبّد لآل مُحمّد للنبهاني: ١٤٦ طَبْعَة الحلبي.

ورواه السّيّد عبدالله بن حَمْزَة في كتاب الشّافي: ١/٧٢ و ٩٠ و ١٥٨، الفَضَائل لأَحْمَد: ١٨٧ ح ٢٦٣، ورواه الثّعلبي في تَفْسِير الآيَة من تَفْسِير الكشف والْبَيَان: ٤/٣٢٨، ورواه البحراني في غَايَة المرام: ٣٠٦ ح ٤، المناقب لِابْن المغازلي: ١٣٠٧ ح ٣٥٢، ورواه الطّبرسي بحذف السّند: ٩/٢٩، المواهب اللـدنية للعسقلاني الشّافعي: ٧/٣ طَبْعَة الأزهرية بمِصْر، الكاف الشّاف لِابْن حـجر العسـقلاني: ١٤٥ طَـبْعَة مِصْر، الإكليل للسيوطي: ١٩٠ طَبْعَة مِصْر، مِفْتَاح النّجا للبدخشي: ١٢ (مخطوط).

وراجع كَذَٰلِكَ نظم درر السِّمطين للزرندي: ١٤٧ ـ ١٤٨ عن أَبِي الطّفيل، وجعفر بن حـبّان قَـالَ: خطب الحَسَن بن عليّ ﷺ بعد وفاة أبيه قَالَ: أيها النّاس أنا آبن البشير، وأنا آبن النّـذير... إلىٰ آخـر الْخُطْبَة والّتي ذكرها الشّيخ الطّوسي في أماليه: ٢/١٧٤ وما بعدها، والكليني في الكَافِي: ٨/٣١٠، وعَنْه غَايَة المرام: ٣٣٠ بَاب ٢/٣٢. صَحِيح البُخَارِيّ: ٦/٣٧، الفَـضَائل لأَحْمَـد: ٢/٦٦٩/١١٤١، نهـج الحق: ١٧٥، حقّ الْيَقِين للسيّد شبّر: ١/٢٧٠، الخصائص لِابْن البطريق: ٨٨، كشف المُرَاد: ٤١٨، البحر ⇔

↔ المحيط لإبْن حبّان: ٧/ ١٥٦ طَبْعَة مِصْر، رشفة الصّادي لأبي بَكْر العلوي الحضرمي الشّافعي: ٢٢ طَبْعَة القاهرة.

ولاحظ الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٦٩. عبقات الأَنْوَار: ١/ ٢٨٥، الأَنْوَار المُحمّدية للنبهاني: ٤٣٤، إحقاق الحقّ للتستري: ٣/ ٢ ـ ٢٢، و: ٩/ ٩٢ ـ ١٠١ طَبْعَة طهران، تَفْسِير النّسفي: ٤/ ١٠٥، حلية الأَوْلِيَاء: ٣/ ٢٠١، الغدير للشّيخ الأَمِيني: ٢/ ٣٠٦، الدُّر المنثور للسيوطي: ٦/ ٧، فتح البَيَان في مقاصد القُرآن لصدّيق حَسن خان: ٨/ ٣٧٢.

وراجع أيضاً تَفْسِير البيضاوي: ٤/ ١٢٣. تَفْسِير القُرطُبي: ١٦/ ٢٢، تَفْسِير الفخر الرّازي: ٢٧/ ١٦٦ طَبْعَة عبدالرَّحْمَان مُحمّد، ورواه ابن مردويه كما رواه عَنْه السّيوطي في: ١٥/ ٢٤ من كتاب جمع الجَوَامِع: ٢/ ١٩٤، رواه الدّولابي في الذّريّة الطّاهرة: ٢٢/ ١١٨، مقاتل الطّالبيين: ٥٧. ترجمة الإِمَام الحَسَن عليه السلام، ورواه البلاذري من كتابه أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢/ ٧٩ و ٧٥٤/ ٣٦١، مطالب السّؤول لإبْن طَلْحَة الشّافعي: ٨ طَبْعَة طهران و ١/ ٢١ طَبْعَة النّجف، مقتل الحُسَيْن للخوارزمي الحنفي: ١/ ١ و ٥٧.

وأنظر أيضاً تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٥/ ٢٥ طَبْعَة مصطفى الحلبي بمِصْر وص ١٤ و ١٥ طَبْعَة الميمنية بمِصْر، الإِتْحَاف للشبراوي الشّافعي: ٥ و ١٣، إحياء الميت للسيوطي الشّافعي بهامش الإِتْحَاف: ١١٠، تَفْسِير الكشّاف للزمخشري: ٣/ ٤٠٢، و: ٤/ ٢٢٠ طَبْعَة بيروت.

وإِلَيْك بَعْض أَلفَاظ الأَحَادِيث الّتي نقلها المؤرّخون علىٰ سَبِيل المثال لا الحصر. فقد روىٰ الشّيخ الطّوسي في تَفْسِيره بإسناده عن عبدالله بن عبّاس، قَالَ: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدم المَدِينَة واستحكم الإسلام قالت الأَنْصَار فيما بَيْنَهَا: نأتي رسول الله صلى الله عليه وآله فنقول له: إنْ تعرُك أُمور فهذه أَمْوَالنا تحكم فيها غَيْر حرج ولا محظور عَلَيْكَ، فأتوه في ذَٰلِكَ فنزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقرأها عَلَيْهِمْ وَقَالَ: تودّون قرابتي من بعدي. فخرجوا من عنده مسلّمين لقَوْله.

فَقَالَ المُنَافِقُون: إنّ هَٰذَا لشيء افتراه في مجلسه، أراد ذَٰلِكَ أنْ يذلّلنا لقرابته من بعده فنزلت ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. فأرسل إِلَيْهِمْ فتلاها عَلَيْهِمْ فبكوا واشتدّ عَلَيْهِمْ فأنزل الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. فأرسل في أثرهم فبشّرهم وَقَالَ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم الّذين سلّموا لقَوْله. ثمّ قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي مَن فعل طاعة نزد له في تلك الطّاعَة حُسناً بأنْ يوجب له الثّوَاب (مَجْمَع البَيَان: ٩/ ٢٩).

↔

↔ وروىٰ الزَّمَخْشَري فِي تَفْسِيره: وقيل: أتت الأَنْصَار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقَالُوا: يا رسول الله، خذ فالله هدانا بك، وأَنْتَ ٱبن أُختنا، وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة فاستعن بِهَذَا علىٰ ما ينوبك، فنزلت الآيَة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ...﴾ وردّه ـ أي المَال ـ. (الكشّاف: ٣/ ٤٦٨).

وَقَالَ عليّ بن إِبْرَاهِيم: حدّثني أَبِي عن ٱبن أَبِي نَجْرَان عن عاصم بن حميد عن مُحَمّد بن مُسْلِم. قَالَ: سمعت أَبا جعفر عليه السلام يَقُول فِي قول الله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ...﴾ يعنى فِي أَهْل بَيْته. قَالَ: جاءت الأَنْصَار إِلىٰ رسول الله ﷺ فقَالُوا: إنّا قد آوينا ونصرنا فخذ طَائِفَة من أَمْوَالنا فاستعن بها علىٰ ما نابك. فأنزل الله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ...﴾ يعني فِي أَهْل بَيْته.

قَالَ: فانصرفوا من عنده وبعضهم يَقُول: عرضنا عَلَيْهِ أَمْوَالنا. فقَالَ: قاتلوا عن أَهْل بيتي من بعدي. وقالت طَائِفَة: ما قَالَ هَذَا رسول الله ﷺ وجحدوه وقَالُوا كما حكىٰ الله ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا...﴾ فَقَالَ الله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ...﴾ قَالَ: لو افتريت ﴿ ﴾ يعني يبطله ﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ...﴾ يعني بالنبي ﷺ وبالأئمّة والقائم من آل مُحَمّد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ثمّ قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ...﴾ إِلىٰ أَنْ قَالَ: جاءت الأَنْصَار إِلىٰ رسول الله ﷺ فقَالُوا: إنّا قد نصرنا وفعلنا فخذ من أَمْوَالنا ما شئت. فأنزل الله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ...﴾. (تفسِير القمّي: ٢/ ٢٧٥).

ومثل ذَلِكَ فِي الكشّاف للزمخشري: ٣/ ٤٦٧، وأُنظر تفْسِير الآيَات ٢٤ ـ ٢٧ من سُورَة الشّورىٰ و ٢١ من سُورَة ٱلرَّعْد.

وقد أورد بَعْض النّواصب، والحاقدين، والمأجورين: أنّ الاستثناء فِي الآيَة منقطع والمَعْنَىٰ يكون: لا أسألكم علىٰ تبليغ ٱلرِّسَالَة أجراً، لكن المَوَدَّة فِي القربىٰ حاصلة بيني وبَيْنَكُمْ، ولذا أسعىٰ وأجتهد فِي هدايتكم وتبليغ ٱلرِّسَالَة إِلَيْكُمْ.

وَقَالَ البعض الآخر: الاستثناء متّصل ولذا يكون المَعْنَىٰ: لا أسألكم عَلَيْهِ أجراً من الأُجور إلّا مودّتكم فِي قرابتي، وَهَذَا شامل لجميع قرابات النّبيّ ﷺ ولو خصّص بأهل ٱلْبَيْت لا يدلّ علىٰ خلافة الإِمَام عليّ عليه السلام بل يدل علىٰ وجوب مودّته. ـ أُنظر، تَفْسِير الكشّاف للزمخشري: ٣/ ٤٦٦، الإحقاق: ٣/ ١٩ وغَيْرهما).

والجَوَاب باختصار شَدِيد لأننا لَسْنَا بصدد المناقشة بل الفرض هو التّحقيق وبَيَان بَعْض الملابسات:

١ ـ أنّ الاستثناء المنقطع مجاز واقع علىٰ خلاف الأصل، ولا يحمل على المنقطع إلّا لتعذّر المتّصل، وقد ↔

«إذَا أُطلقت كَلِمَة الرَّحِمِ كَانَ الْمُرَاد مِنْهَا رَّحِمِ الرَّسول تَمَامَاً كَمَا تَقول أَهْل اَلْبَيْت، فإنّ المَفهوم عند اَلْمُسْلِمِين أَهْل بَيْت الرَّسُول ﷺ[1]. أمّا السَّبَبَ فِي كلاَم الإِمَام فَهُوَ إشَارة إِلىٰ قول النَّبيّ ﷺ: «خَلّفت فِيكُم الثَّقلين، كِتاب الله، وعِتْرَتِي أَهْـل بَـيتِي، حَبلان مَمْدُودَان من السَّماء إِلىٰ الأَرْض لا يَفترقان حَتَّىٰ يَردَا عـليَّ الحُـوض»[2]، والسَّبَبَ فِي اللُّغَة الحَبل»[3].

(وَ نَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ) الْمُرَاد بالْبِنَاءَ هُنا ما بَيّنَه الله في كِتابه الكَرِيم مِن حقُوق أَهْل اَلْـبَيْت وصِـفَاتهم في آيـة التَّـطهير[4]، وآيـة

↩ صرّح ذَلِكَ العضدي حَيْث قَالَ: وأعلم أنّ الحقّ إنّ المتصل أظهر فلا يكون مشتركاً ولا للمشترك، بل حَقِيقَة فِيهِ ومجاز فِي المنقطع ولذلك لا يحمله عُلَمَاء الأمصار علىٰ المنفصل إلّا عند تعذّر المتصل، حَتَّىٰ عدلوا للحمل علىٰ المتصل عن الظَّاهِر، وخالفوه، ومن ثمّ قَالُوا فِي قَوْله: له عِنْدِي مئة درهم إلّا ثوباً، وله عليَّ إبل إلّا شاة، معناه إلّا قيمة ثوب أو قيمة شاة، فيرتكبون الإضمار وهو خلاف الظَّاهِر ليصير متصلاً، ولو كَانَ فِي المنقطع ظاهراً لم يرتكبوا مخالفة ظاهر حذراً عَنْه، أنتهىٰ كَلاَمه.

٢ ـ ودفع الإيراد الثَّانِي: أنّ كون ظاهر الآيَة علىٰ هَذَا المَعْنَىٰ شاملاً لجميع قربات النَّبيّ ﷺ فسلّم لكنّ الحديث الصّحيح الَّذي يبلغ حدّ التّواتر خصّصها بعليّ، وفَاطِمَة، وأبنيها ﷺ كما ذكرنا سابقاً.

٣ ـ أنّه لا يدل علىٰ خلافة الإِمَام عليّ ﷺ فهذا عناد وجهل، أو تجاهل أنّ مودّتهم واجبة حَيْث جعل الله تَعَالىٰ أجر اَلرِّسَالَة بما يستحقّ به الثَّوَاب الدّائم مَوَدَّة ذَوِي القربىٰ، وإنّما تجب ذَلِكَ مع عصمتهم، إذ مع وقوع الخَطَأ مِنْهُم يجب ترك مودّتهم لقَوْله تَعَالىٰ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ اَلْمُجَادِلَة: ٢٢. وغَيْر عليّ ﷺ ليس بمعصوم بالاتفاق، فتعيّن أنْ يكون هـو الإِمَـام ﷺ. (أُنظر، تَفْسِير المِيزان: ١٨ / ٤٣ ـ ٤٨، والإحقاق: ٣ / ٢١).

(١) أُنظر، شَرح نَهْج اَلْبَلاَغَة: ٩/١٣٢.

(٢) تَقَدَّم إستخراجه.

(٣) أُنظر، لِسَان الْعَرَب: ١/٤٥٩، مختار الصحاح: ١/١١٩، النهاية فِي غريب الحديث: ١/٣٣٣.

(٤) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ اَلْأَحْزَاب: ٣٣.

المَوَدَّة[١]. وغَيْرهما، وجَاء عَلىٰ لِسَان الرَّسول الأَعْظَم ﷺ فِي حَدِيث الثَّقلين، وغَيْره، والْمَعْنَىٰ أنّ الَّذِين ٱرتدوا علىٰ أعقابِهِمْ بَعد النَّبِيّ ﷺ خَالفوا نصُوص ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة عَلىٰ حَقّ أَهْل ٱلْبَيْت، وٱغتصبُوا هَذَا الْحَقّ... ولاَ بَدع إذَا فَعلوا ذَلِكَ فهُم (مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَ أَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَ ذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ، عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ) والمُوغِلُون فِي كلّ فِتنَة، والتَّائِهُون بِلا قَائِد، والمُنتَشُون مِن سَكرة الْجَهْل، والغُرُور، والسَّائِرُون عَلىٰ سُنَّة فِرْعَوْنَ وآله من الإسْتهتَار، والإفْسَاد[٢].

---

(١) ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ٱلشُّورَىٰ: ٢٣.

(٢) ونورد بَعْض الملاحظات بشكلٍ إجمالي بقدر مَا يهم بَحثنا وهو ـ التَّبدِيل ـ وبالله التَّوفيق:

١. إنّ دعوىٰ الإجماع الّتي وردت في بَعْض الشّهادات بأنّ الصَّحَابَة كلّهم عدُول، يكذبها قول جَمَاعَة من كبَار الْعُلَمَاء: قَالَ ٱبن الحاجب: «الأكثر علىٰ عدالة الصَّحَابَة، وقيل: كغيرهم، وقيل: إلىٰ حين الْفِتَن فلا يقبل الدّاخلون؛ لأنّ الْفَاسِق غَيْر مُعين، وقَالت الْمُعْتَزِلَة: عدول إلّا من قاتل عَلِيّاً...».

أُنظر، المختصر: ٢/٦٧.

وكذا في جمع الجَوَامِع، وشرحه حَيْث قَالَ: «والأكثر علىٰ عدالة الصَّحَابَة لا يبحث عَنْهَا في رواية، ولا شهادة...». وصرح جَمَاعَة مِنْهُم التّفتازانيّ في شرح المقاصد، ومِنْهُم شَارح البُرهان، وٱبن العماد الحنبليّ، والشّوكانيّ في إرشاد الفحول. ومن المتأخرين أبو رِيّه في شيخ المضيرة «أبو هريرة»، والشّيخ محمّد عَبْدَه في أضواء علىٰ السُّنَّة المحمدية، والسَّيِّد محمّد بن عَقِيل العلويّ في النّصائح الكافية، والسَّيِّد محمّد رشيد رَضا، والشّيخ المقبلي، والشّيخ مصطفىٰ الرّافعي في إعْجَاز ٱلْقُرْآن، وآخرون. صرح هَؤُلَاء جميعاً: «بأنّ الصَّحَابَة غَيْر معصومِين وفِيهِمْ العدول، وغَيْرالعدول».

أُنظر، النَّصائح الكافية لمن يتَوَلَّىٰ مُعَاوِيَة: ١٦٠، شرح المقاصد: ٥/٣١٠، الإِصَابَة: ١/١٩، إرشاد الفحول: ٢١٦، ط القاهرة، شيخ المضيرة: ١٠١، أضواء علىٰ السّنّة المحمّدية: ٣٥٥، المنار: ٤/٣١٠،

⇔

⇔ إعجَاز ٱلقُرآن: ٢/٢٢٦.

٢. كَيْفَ يجب تعظيم الصَّحَابَة كلّهم، والكف عن القدح بِهِمْ، ومِنْهُم المُنَافِق، والفَاسِق، والبـاغي، والزّاني، وشارب الخَمْرَ، وقاتل النّفس المحترمة...

أنظر، قِصَّة المُغِيرَة بْنَ شُعْبَة وخلاصتها أنّه ـ المُغِيرَة ـ زَنَا بأُم جميل بنت عَمْرُو، وَهِي إمْرَأة من قَيْس، وشهد عَلَيْهِ ذَلِكَ: أبوبَكْرة، ونافع أبن الحارث، وشبل بن معبد. ولما جاء الرّابع وهو زياد بن سُمَيّة، أو زياد بن أبيه ليشهد أفهمه عُمَرَ بن الخَطَّاب رغبته في أنْ يُدلي بشهادته بحيث لا تكون صريحة في المَوْضُوع حتىٰ لا يلحق المُغِيرَة خزي بإقامة الحَد عَلَيْهِ، ثمّ سأله عما رآه قائلاً: أرايته يدخله، ويخرجه كـالميل في المكحلة؟ فَقَالَ: لا. فَقَالَ عُمَرَ: الله أكبر، قُم يامغيرة إِلَيْهِمْ فأضربهم... فقام يُقيم الحَد علىٰ الشّهود الثّلاثة.

أنظر، وفيات الأَعْيَان: ٦/٣٦٨، أبن كثير: ٧/٨١، الطّبريّ: ٤/٢٠٧، بتصرف.

وقد ذمهم ٱلقُرآن الكريم في مواطن كثيرة أشرنا إِلَيْهَا سابقاً.

مِنْهَا سُورَة بَرَاءَة... وسُورَة ٱلتَّوْبَةِ: ١٠١ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وفِيهِمْ مَن أخبر الله عنهم بالإفك سُورَة ٱلنُّورِ: ١١ ـ ١٧، ومِنْهُم: من حاول أغتيال رسول اللهﷺ، عند رجوعه من غَزْوَة تَبُوك مُسْنَد أحمد: ٥/٣٩٠ـ ٤٥٣، صَحِيح مُسْلِم: ٨/١٣٢، مَجْمَع الزّوائد: ١/١١٠ و٦: ١٩٥، مغازي الواقديّ: ٣/١٠٤٢، إمْتَاع الأَسْمَاع: ٤٧٧، الدُّر المنثور: ٣/٢٥٨، والآيـة: «وهمّوا بما لم ينالوا»، ٱلتَّوْبَةِ: ٧٤. أو حجّة الوداع.

أنظر، المصادر الّتي تتعلق بحجة الوداع ـ واقعة غدير خُم ـ الّتي أشرنا إِلَيْهَا سابقاً.

٣. كَيْفَ يجب تعظيمهم جميعاً وفِيهِمْ مَن أرتد كما صرح به ٱلقُرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ...﴾ المائده: ٥٤.

وجاء في السِّيرَة: «أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أسلم وهـاجر إلىٰ المَدِينَة وكـتب الوحـي للرسولﷺ، وأرتد في النّهاية مشركاً». أُنظر، الإسْتِيعَاب: ١/٩١٨، الإِصَابَة: ٤/١٠٩، المعارف: ١٣١ و١٤١.

٤. وبمثل هَذَا جاءت السُّنَّة النَّبَوِيَّة مُبينة ومفصلة، فقد روىٰ البُخَاريّ عن النّبيّﷺ: «ما من نبي إلاّ كَانَتْ له بطانتان، بطانة تأمره بالمَعْرُوفِ، وبطانة تأمره بالشر».

⇔

↔ أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٢٨٩/٢، بَاب بطانة الإِمَام وأهْل مشورته من كتاب الأَحْكَام، ونحوه في مُسْنَد أحمد، وروىٰ البُخَاريّ أيضاً: «أنّهم ٱرتدوا جميعاً علىٰ أدبارهم القَهْقَرىٰ، وأنّهم إلىٰ النّار ولا يخلص مِنْهُم إلاّ مثل هُمل النَّعم»، فكَيْفَ نعظم هَؤُلاَء أيها المؤرخون الكرام؟

أُنظر، دَلاَئِل الصِّدْق للشيخ محمّد حسن المظفر م٣ المطلب: ٤/٥، نقلاً عن البُخَاريّ. وأُنظر، شرح النهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد ٤: ٤٥٤.

٥. كَيْفَ نعظم، ونقدس، ونأخذ بروايات من قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ: «أَللّهُمَّ إِنّي أبرأ إِلَيْك مِمّا صنع خالد» مَرتين، ولو كَانَ مافعله خالد صواباً لما تبرأ الرَّسُول مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ خالد قد خالفه في حياته ﷺ فتبرأ مِنْهُ، فكَيْفَ نقتدي به بعد مماته ﷺ، رواه البُخَاريّ في المغازي بَاب بعثة النّبيّ ﷺ، لخالد بن الوليد إلىٰ جُذيمة، ورواه في كتاب الأَحْكَام إِذَا قضىٰ الحَاكِم بجَوْر أو خلاف أَهْل العِلْم فَهُوَ رَدّ. وفي الصّحيح: ٧١/٣، والطَّبريّ في تَأرِيخه: ١٢٢/٣، والكَامِل في التَّأرِيخ لِابْن الأثير: ١٢٣/٢.

الأجدر بنا أنْ نتبرأ من كلّ عمل يصدر من هَذَا الرّجل طبقاً لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾. ٱلأَحْزَابِ: ٢١.

٦. كَيْفَ نعظم، ونقتدي بمن أَسلم وفي نفس اليوم أمَرَهُ ٱلخَلِيفَة الثّاني ووَلاّهُ علىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، وهو لَم يصلِّ ركعة واحدة، فقد روىٰ صاحب الأغانيّ: «أسلم أمروْ القَيْس علىٰ يَد عُمَرَ ووَلاّهُ قبل أنْ يُصلي لله ركعة واحدة». أُنظر، الأغاني: ١٥٨/١٤، ط ساسي، جمهرة أَنْسَاب العَرَب: ٢٨٤.

ومثله علقمة بن علاثة الكلبيّ أسلم علىٰ عهد رسول الله ﷺ وأدرك صحبته، ثُم ٱرتد علىٰ عهد أبي بَكْر، فبعث أبو بَكْر إِلَيْهِ خالداً ففر مِنْهُ. قَالُوا: ثمّ رجع فأسلم.

أُنظر، المَصْدَر السّابق: ٥٠/١٥، وفي الجمهرة: ٢٨٤، وفي الإِصَابَة: «...شرب ٱلخَمْرَ علىٰ عهد عُمَرَ فحده، فٱرتد ولحق بٱلرُّوم... ثمّ رجع وأسلم...» والقِصَّة طويلة. وبالتالي وَلاّهُ ٱلخَلِيفَة عُمَرَ بن الخَطّاب حوران ـ كورة من أعمال دمشق ـ.

أُنظر، القِصَّة كاملة في المَصْدَرين السّابقين، والإِصَابَة: ٤٩٦/٢ و٤٩٨ ترجمته.

٧. كَيْفَ نعظم، ونقتدي، ونهتدي بمن قَالَ فِيهِمْ رسول الله ﷺ: «... فأقول سُحْقاًسُحْقاً»؟.

أُنظر، سُنَن ٱبن ماجه: ١٤٣٩/٢ ح ٤٣٠٦ بَاب الحوض، مُسْنَد أحمد: ٢٩٧/٦، مصابيح السُّنَّة: ٥٣٧/٣ ح ٤٣١٥.

↔

⇔ وفي حَدِيث الحوض المشهور: «فأقول: يارب، أصحابي، فيُقَال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»؟.
أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٣/٩ ح٣ ـ الفِتَن، صَحِيح مُسْلِم: ١٧٩٦/٤ ح ٢٢٩٧، مُسْنَد أحمد: ١٤٠/٣، ٢٨١، الموطأ: ٤٦٢/٢ ح ٣٢.

٨. كَيْفَ نعظم، ونقدس، ونقتدي، ونهتدي بمن شرب الخَمْرَ من الصَّحَابَة الّذين أدعىٰ بَعْض مِنْهُم أنّهم من كُتّاب الوحي؟ فقد جاء في مُسْنَد أحمد: «عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قَالَ: دَخَلْت أنا وأبي علىٰ مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ فأجلسنا علىٰ الفرش، ثمّ أُتِينا بالطعام فأكلنا، ثمّ أُتِينا بالشّراب فشرب مُعَاوِيَةَ، ثمّ ناول أبي، قَالَ: ما شربته منذ حرمه رسول الله ﷺ....

أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣٤٧/٥.

٩. كَيْفَ نهتدي، ونقتدي بمن لا يَسْتَطِيع أنْ يمتثل لقول رسول الله ﷺ، ولو مَرة واحدة في عمره، حتىٰ ولو في أبسط الأَشْيَاء، كتغيير أسمه مثلاً؟ فقد ورد أنّ سعيد أبن المسيب حدث أنّ جده حزن، قدم علىٰ النّبيّ ﷺ فقَالَ: ما أسمك؟ قَالَ أسمي حزن، قَالَ: بل أنْتَ سهل، قَالَ: ما أنا بمغير أسماً سمانيه أبي. وفي رواية: قلت: لا أغيّر أسماً سمانيه أبي، قَالَ أبن المسيب: فما زالت فينا الحزونة.... رواه البُخَاريّ علىٰ نحو ورقتين من آخر كتاب الأدب في بَاب أسم حزن. أفبعد هٰذِه العجرفة توجد عجرفة؟

١٠. كَيْفَ نعظم، ونقتدي بمن كَانَ مُنافقاً لا يعلمه إلّا الله؟ وقد أخبر نبيه بأنّ عَلِيّاً لا يحبه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق، كما روىٰ ذَلِكَ أبو سعيد الخدري قَالَ: «إنّا كنا لنعرف ٱلْمُنَافِقِين نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْصَار ببغضهم عليّ بن أبي طالب».

أُنظر، سُنَن التّرمذيّ: ٦٣٥/٥ ح ٣٧١٧، حلية أبي نعيم: ٢٨٤/٦، تَأرِيخ دمشق (ترجمة الإمَام عليّ): ٢٢/٢ ح ٧١٨، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ٢٠٢، المُعْجَم الأوسط: ٢٦٤/٤ ح ٤١٥١، ومثله في مناقب الخوارزميّ عن طريق آخر: ٣٣٢/١ ح ٣٥٣، والفضائل لأَحْمَد بن حنبل: ٦٣٩/٢ ح ١٠٨٦، وتذكرة الخواص: ٢٨، وعُيُون أخبارالرّضا: ٦٧/٢ ح ٣٠٥، وكفاية الأثر: ١٠٢، والعمدة: ٢١٦ ح ٣٣٤، المناقب لِابْن شهر آشوب: ٢٠٧/٣، قرب الأسناد: ٢٦ ح ٨٦.

وَقَالَ رسول الله ﷺ: «من أبغضنا ـ أَهْل البَيْت ـ فَهُوَ منافق». الفضائل لأَحْمَد: ٦٦١/٢ ح ١١٢٦، الدُّر المنثور: ٣٤٩/٧، المناقب لِابْن شهر آشوب: ٢٠٥/٣.

⇔

⇐ وَقَالَ ﷺ: «من أبغض عِتْرَتِي فَهُوَ ملعون ومنافق خاسر».

أُنظر، جامع الأَخْبَار: ٢١٤ ح ٥٢٧.

وَقَالَ ﷺ: «من أبغضنا ـ أَهْل الْبَيْت ـ حشره الله يَوْم الْقِيَامَة يهودياً...».

أُنظر، المُعْجَم الأوسط: ٢١٢/٤ ح ٤٠٠٢، أمالي الصّدوق: ٢٧٣ ح ٢٧، روضة الواعظين: ٢٩٧. ورُوي مثلُه عن الإِمَام عليّ عليه السلام، والسَّيِّدة عَائِشَة، وأُمّ سلمة، وعبد الله بن عباس، وأَبِي ذَرّ الغفاريّ، وأنس بن مالك...

راجع المصادر التّالية علىٰ سَبِيل المثال لا الحصر: صَحِيح مُسْلِم: ٦١/١، سُنَن آبن ماجه بَاب ١١ من مقدمته، سُنَن النَّسائيّ: ٢٧١/٢، تَأرِيخ بغداد: ٢٥٥/٢ و: ٨/ ٤١٧ و: ١٦/ ٤٢٦، تَأرِيخ الإسلام للذهبي: ١٩٨/٢، تَأرِيخ آبن كثير: ٣٥٤/٧، الإِسْتِيعَاب: ٤٦٠/٢، كنز الْعُمَّال: ١٥٨/٦ ط الأُولىٰ و: ١٤٠/٧ و: ١٥/ ٩١، أيضاً الطّبعه الأُولىٰ.

الخطبة

-١٥١-

يَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ أَحْمَدُ اللهَ وَ أَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ، وَ مَزَاجِرِهِ، وَ الاِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ، وَ مَخَاتِلِهِ. وَ أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ اِلاّٰ اللهُ، وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، وَ نَجِيبُهُ، وَ صَفْوَتُهُ. لاٰ يُوَٰازَىٰ فَضْلُهُ، وَ لاٰ يُجْبَرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلاٰدُ بَعْدَ الضَّلاٰلَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَ الْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَ الْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ، وَ النَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَ يَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ، يَحْيَوْنَ عَلَىٰ فَتْرَةٍ، وَ يَمُوتُونَ عَلَىٰ كَفْرَةٍ(١)!

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلاٰيَا قَدِ اقْتَرَبَتْ. فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَ احْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَ تَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَ اعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَ ظُهُورِ كَمِينِهَا، وَ انْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَ مَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَ تَئُولُ إِلَىٰ فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلاَمِ، وَ آثَارُهَا كَآثَارِ السِّلاَمِ، يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَ آخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ. يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَ يَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ. وَ عَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَ الْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ. فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَ يَتَلاَعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ(٢).

اللُّغَة:

مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ: ما يُدْحَر بِها ويُطرَد. وَمَزَاجِرِهِ: مَا يُزجَر بِها، ويُبعَد. ومَخَاتِلِهِ: خَدَائِعِهِ. الفَتْرَةُ: الهُدْنَة، والفَاصل بَيْنَ شَيئِين. والمُرَاد بالكَفْرَةِ هُنا الْكُفْر. والبَوَائِقَ الشُّرُور، والنَّوائِب. والقَتَامِ: الغُبار. والْعِشْوَةِ: رُكُوب الْأَمْر علىٰ غَيْر هُدىً. والمَدَارِجَ: المَسَالِك. والسِّلَامِ ـ بكسر السِّين، وتشدِيدها ـ جَمع سِلمَة ـ بكسر السِّين مَع التَّخفِيف ـ الحِجَارة. ومُرِيحَةٍ: مُنْتِنَة. ويَتَزَايَلُونَ يَتَفَارقُون.

الْإِعْرَاب:

مَعَاشِرَ الْعَرَبِ مُنادىٰ عَلَىٰ حَذف حَرف النِّداء أي يَا مَعَاشِرَ الْعَرَب، ومَدَارِجَ مَجرُور بالفَتحة لأنّه علىٰ وَزن مَفاعل، وخَفِيَّةٍ صِفَة لمَدَارِج.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ أَحْمَدُ اللهَ وَ أَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ، وَ مَزَاجِرِهِ، وَ الاِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ، وَ مَخَاتِلِهِ). الشَّيْطَان يَصد بَنِي آدَمَ عَن السَّبِيل، ويُزِين لهُم كلّ قَبِيح... ويَتضَرع الإِمَامعليه السلام لخَالقه أنْ يَعصمهُ من نَزعَات الشَّيطَان، ويَقطع أثره عنهُ، ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ الله سُبْحَانَهُ إذَا عَلِم مِن عَبده صِدق النِّيَّة يَشمله بعنَايته، ويَهدِيه إِلىٰ سَبيله ومَرضَاته: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1]. (لاَ يُوَازَىٰ فَضْلُهُ) أي فَضْل رَسُول الله صلى الله عليه وآله كَيْف وهو

(١) الأنفَال: ٢٣.

الَّذي أَخرج النَّاس من الظُّلمَات إِلىٰ آلنُّورِ (وَ لا يُجْبَرُ فَقْدُهُ) لأَنّه رَحْمَة مُهدَاة للعَالم كلّه، وقَد حَدد رِسَالَته بقَوْله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِم مَكَارِم الأَخْلاَق»[1]. وَقَالَ: «إِنّ مَثل مِا بَعَثنِي الله بِهِ مِن الْهُدَىٰ والعِلم كمثَل غَيثٍ أَصَاب أَرْضاً، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَة طَيِّبَة قَبلت الْمَاء، فأَنْبَتَت الكَلأ والعُشب الكَثِير، وكَان مِنْهَا أَجادِب أَمسكت الْمَاء فَنفع الله بِها النَّاس، فَشَربُوا، وسقُوا، وزَرَعُوا»[2].

(أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلادُ بَعْدَ الضَّلالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَ الْجَهالَةِ الْغَالِبَةِ... إلخ) مَا كَان عِند الْعَرَب إلّا الجَهل، والخِزي، والعَار حَتَّىٰ جَاء مُحَمّدﷺ بالإِسْلاَم، والقُرْآن، فصَارُوا شَيْئَاً مَذكُوراً، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

والضَّلالِ المُبِين جَامع لمَسَاوِىءِ الْعُيُوب، أَمّا آلْحِكْمَة فَيدخل فِي مَفهُومها كـلّ خَير وصلاَح (وَ النَّاسُ قَبْلَ مُحَمَّد ﷺ ـ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ) يَبِيحُون الْمُحَرَّمَات (وَ يَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ) يَحتقرُونه، ولا يَهتدُون بهَدِيه (يَحْيَوْنَ عَلَىٰ فَتْرَةٍ) مِن غِياب

(١) أنظر، بداية الْمُجْتَهد: ٣٢١/٢، السُّنن الكُبْرَىٰ: ١٩٢/١٠، تُحْفَة الأَحْوذي: ٤٧٠/٥، نظم درر السّمطين: ٤٢، كنز الْعُمّال: ٤٢٠/١١ ح ٣١٩٦٩، فيض القدير شرح الجامع الصّغير: ٢٠٩/٥، كشف الخَفاء: ٢١١/١ ح ٦٣٨، مَكَارِم الأَخْلاَق للطبرسي: ٨، مَكَارِم الأَخْلاَق لِابن أبي الدُّنيَا: ٦، مُسْنَد الشهاب: ١٩٢/٢ ح ١١٦٤، تكملة حاشية ردّ المحتار: ٢٣٤/١.

(٢) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٣٩٩/٤، المجموع للنووي: ١٨/١، شرح صَحِيح مُسْلِم: ٤٦/١٥، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٤٢٧/٣ ح ٥٨٤٣، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٢٩٦/١٣ ح ٧٣١١، صَحِيح أبن حبّان: ١٧٧/١، رياض الصالحين: ١٣٧ ح ١٦٢ و: ٥٤٨ ح ١٣٧٨، الأَحْكَام لِابن حزم: ١٢٤/١.

(٣) آلْجُمُعَةِ: ٢.

الرُّسل، والمُرشدِين (وَ يَمُوتُونَ عَلَىٰ كَفْرَةٍ) أي الْكُفْر، والضَّلال... ومَا زَالت رِسالَة مُحَمّد ﷺ قَائِمَة إلىٰ الْيَوْم، وإلىٰ آخر يَوْم تَدعُوا الْمَحَبَّة، والإخَاء، والْعَدْل والمُسَاوَاة، وتُبارك كلَّ مَا فِيهِ صَلاح للنَّاس بجهَة مِن الجِهَات.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلاَيَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ).

كلّ النّاس يَتعرضُون للبَلايَا والمِحن، ولاَ عَافِية مِن غَيْر بَلاء، وأشد المِحن أنْ يَفرح الْمَرْء بمَا لدِيه من جَاهٍ، أو مالٍ، ويَذهل عن مصِيره، وعَاقبته، وقَد حَذر الإمَام مِن عقبىٰ الغَفلة بقَوْله: (وَ احْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ). إذَا كُنت مُعافىٰ فاحْذَر المَرض، وإذَاكنتَ غَنياً فلاَ تَنس غُوائِل الدَّهْر، وإذَا كُنتَ قوياً فَترقب الضَّعْف، وكلّ شيء إلىٰ زوال (وَ تَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ) أحجمُوا عَن الشُّبهَات، ولا تَقدمُوا علىٰ شيء إلاّ بَعد الرَّويّة، والنَّظر فِي العواقِب. فأَكْثَر النَّاس نَدماً مَن بَادر مِن غَيْر تَثبت (وَ اعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَ ظُهُورِ كَمِينِهَا، وَ انْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَ مَدَارِ رَحَاهَا) إذَا ظَهرت الْفِتْنَة، واسْتفحَل أَمرها فَقفُوا مِنْهَا مَوقف الحَكِيم، وعَالجُوها بَعد الْبَحْث، والدَّرس، والتَّخطِيط السَّلِيم.

(تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَ تَئُولُ إِلَىٰ فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ). لاَ تَظهر الْفِتْنَة علىٰ حَقِيقَتها فِي البدَاية، بل تَتقَنع بِثُوبِ الصَّلاح، والاِصلاح، ثُمّ تتكَشف مَع الأَيَّام عَن أفدَح الأضْرَار، وأخْطرها (شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلَامِ) بكسر الشّين. والْمُراد بـهِ الوثُوب والطَّفرَة أي قَد ترىٰ الْفِتْنَة هَادئة. ولكن سُرعان مَا تَنشط، وتَثب كمَا يَقفز، ويَطفر الغُلام المُعافىٰ (وَ آثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ) بكسر السِّين، وَهِي الحجَارَة، والْمَعْنَىٰ أنّ الْفِتْنَة تَترك آثراً سَيِّئاً فِي المُجتمع تَمَاماً كمَا تَفعل الأحجَار الّتي تُرجم بهـا الأبْدَان. (يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَ آخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ). الْفِتْنَة علىٰ

أنواع: مِنْهَا أنّ يَظهر المُفسد مَظهر المُصلح، ويَلبس الجَاهِل ثُـوب العَـالم، وأَشـد أنواعها ضَرراً أن يَغتصب مَركز القِيَادَة جَاهل، أو مُستهتر، ثُمّ يَعهد بِهِ من بَعْدِه إِلىٰ قَريب من الأَوْلاد، أو ٱلأَرْحَامِ، ويَسِير السَّابق علىٰ سُنّة اللاّحق (يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَ يَتَكَالَبُونَ عَـلَىٰ جِـيفَةٍ مُـرِيحَةٍ). يَـتَنَاحَرُون حَـتَّىٰ عـلىٰ ٱضْـطِهَاد ٱلمُسْـتَضْعَفِين، وٱسْـتغلاَلِهم، وعـلىٰ التَّـضليل، والدّعَـايَات الكَـاذبة كـتَنَافُس الشَّركات، ودُولها علىٰ الاستغلاَل، والإِحْتِكَار (وَ عَـنْ قَـلِيلٍ يَـتَبَرَّأُ التَّـابِعُ مِـنَ الْمَتْبُوعِ، وَ الْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ.. إِلَىٰ عِنْدَ اللِّقَاءِ). يُشِير بِهَذا إِلىٰ يَوْم ٱلْقِيَامَة، وإنّ فيهِ يَنكشف الغِطَاء، ويَتبرأ المُغتر مِمَّنْ غَرر بِهِ، ويَلعن المخدُوع مَن خَدعه، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[1].

لا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ الْحَرَامِ....فِقْرَة ٣ ـ ٥:

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَ الْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَ تَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلاَمَةٍ، وَ تَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِـنْدَ هُـجُومِهَا، وَ تَـلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَ مَنْ سَعَىٰ فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ[2]! قَدِ ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَ عَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَ تَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَ تَـدُقُّ أَهْـلَ الْـبَدْوِ بِـمِسْحَلِهَا، وَ تَـرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا! يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَ يَهْلِكُ فِي طَـرِيقِهَا الرُّكْـبَانُ، تَـرِدُ بِـمُرِّ الْقَضَاءِ، وَ تَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَ تَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَ تَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا

(١) ٱلعَنكَبُوتِ: ٢٥.

الْأَكْيَاسُ، وَ يُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَـاشِفَةٌ عَـنْ سَـاقٍ! تُـقْطَعُ فِـيهَا الْأَرْحَامُ، وَ يُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلاَمُ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَ ظَـاعِنُهَا مُـقِيمٌ[٤]! بَـيْنَ قَـتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَ خَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ، وَ بِغُرُورِ الْإِيمَانِ، فَلاَ تَكُـونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَ أَعْلاَمَ الْبِدَعِ، وَ الْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَ بُنِيَتْ عَـلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ، وَ اقْدَمُوا عَلَىٰ اللهِ مَظْلُومِينَ، وَ لاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَـالِمِينَ، وَ اتَّـقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَ مَهَابِطَ الْعُدْوَانِ، وَ لاَ تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَ سَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ[٥].

اللُّغَة:

الرَّجُوفِ مُبالغة فِي الرَّجف. والْقَاصِمَةِ: المُهلِكَة، وقَاصِم الجبَّارِين مُـهلِكهُم. والزَّحُوفِ: مُبالغة فِي الزَّاحف. والكَدْمُ: العَضّ، والكَدُومَ: العَضُوض. والْـعَانَةِ: القَطِيع مِن حُمر الوَحش. وتَـغِيضُ: تَـغُور. والمِسْـحَل: آلة النَّـحت، أو النَّـشر. والكَلْكَل: الصَّدر. والْوُحْدَانُ: جَمع الوَاحد، والوَحدَانِي والوَحِيد: المُنفرد بنفسه، والوَحدَانية: التَّوْحِيد. ودَمٌ عَبِيط: خَالِص طَرِي. وقَتِيلٍ مَـطْلُولٍ: مَـهدُور الدَّم. والأَنْصَابَ، والأَعْلاَمَ بِمَعْنَىٰ وَاحد، لأَنّ النَّصب هُو العَلم المَنصُوب. واللُّعَقَ ـ بضم اللام ـ مَا يُؤخذ فِي المَلعقة، أو فِي الإِصْبَع.

الْإِعْرَاب:

مِرْعَادٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هِي مِرْعَادٌ، وبَيْنَ قَتِيلٍ مُتَعَلِّق بِـمحذُوف خَـبَراً لمُبْتَدَأ مَحذُوف أي النَّاس كَائنُون بَيْنَ قَتِيلٍ، ومَطْلُولٍ صفة لقَتِيلٍ، وَخَائِفٍ عـطف

علىٰ قَتِيلٍ لاَ علىٰ مَطْلُولٍ. ومَظْلُومِينَ حَال من واو ٱقْدَمُوا، ومثله «ظَالِمِينَ».

الْمَعْنَىٰ:

أَشرنا فِي المَقطع السَّابِق مِن هَذِه ٱلْخُطْبَة أنّ الْفِتْنَة علىٰ أنواع، وأَكْثَرها ضَرراً أنْ يَعهد الحَاكِم بالرِّئَاسة إلىٰ أَوْلاَده، ويَجعلها ورِاثَة فِيما بَيْنَهمْ يَتنَافسُون عَلَيْهَا، وقول الإِمَام هُنا: (ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ) هو عَطف علىٰ قَوْله: «يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ» أي ثُمَّ تَظهر فِتْنَة تَقضي علىٰ سُلطان العَائِلات المَالِكة، وبَعد ذَلِكَ تَمِيل علىٰ النَّاس، والشّعُوب، بالْقَتْل، والسَّلب، والتَّنكِيل، والتَّشرِيد، كَفِتْنَة التَّتار الَّذِين فَعلوا بِٱلْمُسْلِمِين، ودِيارهم الأفَاعِيل، وقول الإِمَـام: «الْـفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ» يَنطق عَلىٰ فَظائِع التَّتار كلّ الانطِبَاق.

(فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَ تَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلاَمَةٍ) أي أنّ ٱلْمُسْلِمِين فِي هَذِه الْفِتْنَة لا يَعملُون بوحيٍ من دِينهم كتُوحِيد الكَلِمَة، والجِهَاد صَفاً وَاحداً فِي حَرْبِ عَدُوّ الله وعَدُوّهم، ولاَ يَحس أحدهُم بآلام أَخِيه، بل يَتركه وشَأنه حَتَّىٰ كأنّـه لا صِلة بَيْنَهما من دِين، وإِنْسَانِية (وَ تَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا). إِذَا حَدث أمر هَام ٱختلفت حَوله أهوَاؤهُم، وعَلت ضَوضَاؤهُم (وَ تَلْتَبِسُ ٱلآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا) أي عِند ظهُورها، والْمَعْنَىٰ أنّ آراءهُم تَكثر، وتَتعد، فيختلط السَّلِيم مِنْهَا بالسَّقِيم (مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ) أي من تَصادم مَع تلك الْفِتْنَة، ووقَف مُنفرداً فِي طَرِيقها أَهْلَكَتهُ (وَ مَنْ سَعَىٰ فِيهَا) أي في ٱطفائِها، وتسكِينها حَطمته.

(يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ) الْـفِتْنَة تَـطحنهُم جَمِـيعاً، ومَـع هَـذا يَتَطاحنُون يَتصَارعُون فِيما بَيْنَهمْ تَمَاماً كشأن عَرَب الْيَوْم مَع فِـتْنَة إِسْرَائِـيلَ (قَـدِ

ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ) ٱختل النِّظام، وسَادت الفُوضىٰ (وَ عَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ) . خَفي الصَّواب للأهوَاء المُختلفة، والآرَاء المُتباينَة (تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ) إمّا لسكُوت الحَكيم يَائِساً، أو خَائِفاً، وإمّا لِعمىٰ الْقُلُوب عَنْهَا وصَمم الأَسْمَاع (وَ تَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ) لأنّهم أَصْحَاب الزَّمَان، والسُّلْطَان (وَ تَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا) . تَفعل الطُّغَاة بأَهْل البَادِية مَا يَفعل المِنشَار فِي الخَشب (وَ تَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا) تُنيخ الْفِتْنَة عَلَيْهِمْ بِصدرها، وتَطأهُم بسنَابكها (يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَ يَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ) . لا يَنجُو وَاحد مِن شرّها أيّاً كَان (تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ) تَأْتِي بِالخرَاب والدَّمار، وأَطلق الإِمَام كَلِمَة الْقَضَاء عَلىٰ الهَلاَك لِمُجرد التَّعبِير عَن الحدُوث، والوقُوع بصَرف النَّظر عَن قَضاء الله، وقَدره (وَ تَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ) كِنَاية عَن شِدَة الحَرب، وسفك الدِّمَاء ظُلماً وعُدْوَاناً.

(وَ تَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ) بِتجاوز حدُودِه، وتجَاهل أَحْكَامه (وَ تَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ) أي أنّ أَربَاب الْفِتْنَة يَنقضُون عَهد الله، ويَقطعُون مَا أَمر أنْ يُوصل (يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ) وهُم العُقلاء، وضَمِير «مِنْهَا» (وَ يُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ) الَّذِين يَعِيثُون فِي الْأَرْض مُفسدِين (مِرْعَادَةٌ مِبْرَاقَةٌ) تَرعد الْفِتْنَة، وتَبرق (كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ) كِنايَة عَن الشِّدَّة، والمَشَقَّة (تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ) وتكثر الآثَام (وَ يُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلاَمُ) من أَثَارَ هَذِه الْفِتْنَة، أو سَاندهَا فَقد فَارق الإِسْلاَم، بل وخَرج عَلَيْهِ أَيضاً (بَرِيئُهَا سَقِيمٌ) قَد يَرىٰ البَعض أنّه بَريء مِن هَذِه الْفِتْنَة، وهُو فِي وَاقعة مَسْئُول عَنْهَا لأمرٍ أو لآخر (وَ ظَاعِنُهَا مُقِيمٌ) حَتّىٰ الَّذي يَعتزم البُعد عَنْهَا يُصِيبه رُذاذ مِن تِيارها.

(بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَ خَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ) . هَذَا ومَا بَعْدَه لاَ صِلة لهُ بِمَا قَبله، ويَدل علىٰ ذَلِكَ قَول الشَّرِيف الرَّضِي «مِنْهَا» وعَلىٰ أيَة حَال فإنّ الإِمَام عليه السلام يَصف حَال

المَنكُوبِيْنَ، وأنّهم بَيْنَ قَتِيلٍ ظُلماً لا يُقاد مِن قَاتله، وبَيْنَ خَائفٍ يَنشد الأَمَـان ولاَ يَجده (يَخْتِلُونَ ـ أي يُخْدَعُون ـ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ، وَ بِغُرُورِ الْإِيمَانِ). الطُّغاة يَخْـدعُون النَّاس بالمُواعِيد الكَاذبَة، ويُغررُون بِهِمْ بِمَا يُظهرُونه من الإِيمَـانِ، والتَّـدِين (فَـلاَ تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَ أَعْلاَمَ الْبِدَعِ) لا تَخُـوضُوا فِي الْفِتَن مَتبُوعِين، ولا تَابعِين، واَعتصمُوا بدِينكُم، وعقُولكُم مِنْهَـا ومِن أَهْلها (وَ اَلْـزَمُوا مَـا عُـقِدَ عَـلَيْهِ حَـبْلُ الْجَمَاعَةِ) وهُو الَّذي يُوحد كَلمتهُم، وتَسْتَقِيم بِهِ أُمُورهُم، ويُحقِّق لهُم مَا يَـبتغُون من العِيش فِي أمَانٍ.

(وَ بُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ) أي واَلْزَمُوا كِتَاب الله، وسُنَّة نَبيِّه، ولا تَعصُوهما فِي شَيء، فإنّهما الرُّكن، والأَسَاس لِطَاعة الله، ورِضْـوَانـه (وَ اَقْـدَمُوا عَـلَىٰ اللهِ مَظْلُومِينَ، وَ لاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ) أي لاَ تَظلمُوا أَحداً... وإلاّ فإنّ علىٰ الْمَظْلُوم أنْ يُكافح ويُناضل عَن حقّهِ، ومَن سَكت عن ظَالمه فقَد أَعانه عَلىٰ الظّلمِ، ومَـن رَضِي بالظُّلمِ فهُو شَريك للظَّالِمِ، ولَو خَاف الظَّالِمِ مِن ثُورة الْمَظْلُوم لتَّحامَاه (وَ اَتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ) لا تَتبَعُوا مَسالِكه فإنَّه لَكُم عَدُوّ مُبين (وَ مَـهَابِطَ الْـعُدْوَانِ) أي مكَانه، ومحل هبُوطه (وَ لاَ تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ... إلىٰ وَ سَهَّلَ لَكُمْ سُـبُلَ الطَّاعَةِ) وَأوضح تَفْسِير هٰذه الجُملة، ومَا بَعْدَها قول الإِمَام فِي الخُطْبَة: «إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ»(١).

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (١١٤).

الخطبة

-١٥٢-

صِفَات الله تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَىٰ وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَ بِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ، وَ بِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاٰ شَبَهَ لَهُ. لاٰ تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَ لاٰ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَ الْمَصْنُوعِ، وَ الْحَادِّ وَ الْمَحْدُودِ، وَ الرَّبِّ وَ الْمَرْبُوبِ، الْأَحَدِ بِلاٰ تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَ الْخَالِقِ لاٰ بِمَعْنَىٰ حَرَكَةٍ وَ نَصَبٍ، وَ السَّمِيعِ لاٰ بِأَدَاةٍ، وَ الْبَصِيرِ لاٰ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَ الشَّاهِدِ لاٰ بِمُمَاسَّةٍ، وَ الْبَائِنِ لاٰ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ[1]، وَ الظَّاهِرِ لاٰ بِرُؤْيَةٍ، وَ الْبَاطِنِ لاٰ بِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَ بَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَ مَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَ مَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَ مَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَ مَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لاٰ مَعْلُومٌ، وَ رَبٌّ إِذْ لاٰ مَرْبُوبٌ، وَ قَادِرٌ إِذْ لاٰ مَقْدُورٌ[2].

اللُّغَة:

لاٰ تَسْتَلِمُهُ: لاٰ تَلمِسَهُ. والْمَشَاعِرُ: الحَوَاس الّتي يَشعر، ويَدرك بِسببها.

وَالنَّصَب: التَّعَبُ. وَالْبَائِنِ: البَعِيد. والحَيِّزَ ـ بتشدِيد اليَاء ـ الجِهة، والمكَان.

الإِعْرَاب:

أَنْ لاٰ شَبَهَ «أَنْ» مُخففة، وٱسمها ضَمِير مَحذوف أي أنّه، والْمَصْدَر المُنسبك مُتَعَلِّق بالدَّالِّ أي والدَّالِّ بِٱشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ عَدم الشَّبَه لهُ، وأَحَدٌ صِفَة لِلرَّبِّ، وكَيْفَ خَـبَرَ لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي كَيْفَ هُو، وكَذَا أَيْنَ، وعَالِمٌ أي الله عَالِمٌ.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَىٰ وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ). كلّ شيء فِي الكَوْن يَسِير طِبقاً لنظَام لا يَحِيد عنهُ، ويَعمل لغَايَة تَترتب عَلَيْهِ، والْغَايَة تَدل عَلَىٰ القَصد، والقَصد يَدل عَلَىٰ التَّدبِير، ولا بُدّ أَنْ يَكُون المُدبر هُو المَبدأ الأَوَّل، وعِلَّة الْعِلَل ضَرُورة الإنْتِهاء إِلَىٰ عِلَّة أُولَىٰ وإلّا بَقِي كلّ شَيء طِي الكِتْمَان، وٱنتفىٰ الوجُود من الأَسَاس، وللتَّوضِيح أذكر هَذَا المثال: لَو لَم يَنتَه تَأرِيخ الكَهربَاء إِلَىٰ المُخترع الأَوَّل الَّذي ٱكتشفها لبقِيت فِي عَالم العَدم، وهَكذا كلّ حَادث لا يَحمل فِي ذَاته السَّبب الكَافِي لوجُوده.

(وَ بِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ). يَتألف الكَوْن من عناصر، ٱكتشفَ مِنْهَا عُلَمَاء الطَّبِيعَة مِئة وعُنصرِين، وكلّ مَادَّة عَرفها ٱلإِنْسَان لا تَخلوا مِن عُنصر، أو أَكْثَر من هَذِه العنَاصر، وأيضاً ٱكتشفَ الْعُلَمَاء أنّ جَمِيع هَذِه العنَاصر فِي طَرِيقها إِلَىٰ الزّوال، ومَعْنَىٰ هَذَا طَبِيعتها تَقبل العَدم، والوجُود، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ لا بُدّ لوجُوده مِـن سَبب خَارج عَن ذَاته، ولَو وجد بغِير هَذَا السَّبب لكَـان وَاجب الوجُـود، وهُـو خِلاف الفَرض.

(وَ بِٱشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ) . لَو سَأل سَائل ، وَقَالَ : مَا الدَّلِيل عَلىٰ أنّ الله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، لقلتُ : أنّه تَعَالىٰ وَاجب الوجُود ، وغَيْره مُمكن ، ورشحة من قُدرته وعَظَمَته . أمّا الإِمَام فأجَاب بأُسلوب آخر ، وتَوضِيحه : إنّ أشيَاء الطَّبِيعَة مُتبايِنَة من حَرَكةٍ ، وسكُون ، وحَرَارة ، وبرُودة ، ونُور ، وظُلمة . . . إلىٰ غَـيْر ذٰلِكَ ، ولكلّ واحد مِنْهَا وظِيفة خَاصَّة ، وغَايَة مُعينَة ، ولابُدّ أنْ يكُون وَرَاء هَذَا التَّـبايُن قُوَّة مُخالفة فِي طَبِيعتها ، وصِفاتها لكلّ مَا فِي الطَّبِيعَة ، وهَذِه الْقُوَّة هِي الّتِي أَحدثت هَذَا التَّبايُن ، وإلّا كَانَتْ أشياء الطَّبِيعَة كلّها عَلىٰ نَسقٍ وَاحد لا فَرق بَيْنَ مَادَّة ومَادَّة ، وكَانَ الجمَاد كالنَّبات ، والنَّبات كالحَيَوَان ، والحَيَوَان كالإِنْسَان مَا دَام الكلّ طَبِيعِياً ، . . . وأيضاً لَو كَانَتْ تِلك الْقُوَّة مُماثِلة للطَّبِيعة لصَّح فِيها مَا صَح عَلىٰ الأَشْيَاء الطَّبِيعَة ، واستحَال وجُود الفَرق بَيْنَ الكَائنات وهُو خِلاف المُشاهد ، والمحسُوس .

(لاَ تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ) . تَسْتَلِمُه مِن الإِسْتلاَم ، والمُرَاد بِهِ هُنا اللَّـمس ، والمَس ، ومشَاعِر الإِنْسَان حواسه الّتي يُدرك بِها ، مَاديةً كَانَتْ كالْعَيْن ، واليَد ، أَم مـعنويةً كالْعَقْل ، والله سُبْحَانَهُ لَيْسَ بِجسم كِي يُرىٰ بالْعَيْن ، أمّـا الْـعقْل فَـيدرَك وجُـوده وعَظَمَته بخلقهِ ، وآثاره لا بكُنهِه ، وحَـقِيقَته (وَ لاَ تَـحْجُبُهُ السَّـوَاتِـرُ) . والسّـتر والحِجَاب المَلمُوس مِن صِفَات المَادَّة ، وهُو تَعَالىٰ مُنَزَّه عَنْهَا ، والجَهْل حِجَاب مَا فِي ذٰلِكَ رَيب ، ولَكِنَّهُ لَيْسَ بجسم .

(لإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَ الْمَصْنُوعِ ، وَ الْحَادِّ وَ الْمَحْدُودِ ، وَ الرَّبِّ وَ الْمَرْبُوبِ) . وكأنّ سَائِلاً يقُول : لمَاذا نَستدل بالخَلق عَلىٰ الخَالِق ، وبالحدُوث علىٰ الدّوام ، وبـتشَابه الكَائِنات عَلىٰ نَفِي الشَّبِيه ، والنَّظِير للمكُون ؟ فأجَاب الإِمَام بأنّ البَانِي غَيْر البنَّاء ، والْعِلّة غَيْر المَعلُول ، لأنّ الشّيء الوَاحد لا يكُون مُؤثِراً ، ومُتأثراً مِن جِهةٍ وَاحِدَة

بحُكم البَدِيهة.

(الْأَحَدِ بِلاٰ تَأْوِيلِ عَدَدٍ) أي لا يُشكل مَع غَيْره جَمعاً، أو تَثنِية، لأنّه تَعَالىٰ لاٰ ثَانِي لهُ (وَ الْخَالِقِ لاٰ بِمَعْنَىٰ حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ) لأنّ الحَركة، والإعِياء مِن لوازم الجِسم، والله سُبْحَانَهُ مُنزَّه عَنْه، وإرَادته وحدها هِي الّتي تُوجد الأَشْيَاء (وَ السَّمِيعِ لاٰ بِأَدَاةٍ) لأنّه عَالم بالذَّات (وَ الْبَصِيرِ لاٰ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ) أيضاً لأنّ عَلمه عَينُ ذَاته.

قَالَ الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «الْمُرَاد بِتَفْرِيق: تَفْرِيق الأجْفَان، وفَتح بَعْضهَا عَن بعضٍ»[1]. يُرِيد أنّ ٱلإنْسَان إذَا أَطبق جِفنَه الأعلىٰ عَلىٰ الأسفل فَلا يَرىٰ، وإنْ فَرقهُما رأىٰ، ولَيْس الله سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ. وهَذَا الْمَعْنَىٰ غيرُ بَعيدٍ عن دَلاَلَة كَلِمَة التَّفرِيق.

(وَ الشَّاهِدِ لاٰ بِمُمَاسَّةٍ). الْمُرَاد بالشَّاهِدِ الْحَاضِر، وبالمُمَاسَّة الجِسم، والله مَع كلّ شَيء بِعلمه، وقُدرته لا بالمَسّ، أو الحلُول، أو الوجُود الشَّاملة لكلِّ موجُود (وَ الْبَائِنِ لاٰ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ). قَد ٱنفصل عَن خَلقه بالذَّات، والصِّفَات، لا بالمكَان، والجِهة، ولكن فِي الصّوفِيين مَن يَزعم أنّه ٱتحد باللهِ عن طَريق الرِّياضة!.. (وَ الظَّاهِرِ لاٰ بِرُؤْيَةٍ) الذَّات بل بِظهُور الخَلق، والآثَار (وَ الْبَاطِنِ لاٰ بِلَطَافَةٍ) بحَيث بَلغ من الرِّقة حَدّاً لا يُرىٰ بالْعَيْن المُجردة، ولا بِالمُكبِّر، ولا يَحجب غيرَه من الرُّؤية كأمُواج الرَّاديُو الّتي تَحمل الصَّوْت... كلاَ، إنّ ذَاتهُ القُدسية فَوق التَّصُور، والأوْهَام فضلاً عن المرَاصد، والمُكبّرَات (بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَ بَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ). هَذَا عَطف تَفْسِير عَلىٰ

(١) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢/ ٤٠.

قَوْله: «لإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ». ويَتلَخص مَعناهُ بأنّه فُوق كلّ شَيء، وفِي قَبضته كلّ شَيء.

(مَنْ وَصَفَهُ) بشيء من صِفَات المَخلُوقِين (فَقَدْ حَدَّهُ) أي جَعل لهُ حداً ينتهي إِلَيْهِ، ولا يَتجاوزَه (وَ مَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ) أي أَحصاهُ، وأحَاط به، وهُو سُبْحَانَهُ مُحِيط بكلّ شَيء، ولا يُحِيط بِهِ شَيء (وَ مَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ).

من زَعَم أنّ الأوهَام تُحِيط عِلماً بذَات الله فَقد جَعله مَحْدُوداً، ولكلّ محدُود بِدَاية ونهَاية، والله سُبْحَانَهُ هُو الأَوّل بِلا أوّلٍ كَان قَبله، والآخر بِلا آخر يكُون بَعْدَه (وَ مَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اَسْتَوْصَفَهُ) أي أعطَاه صِفَات المَخلُوقِين، لأنْ كَيْفَ يُسأل بِها عن الأَحْوَال كالطُّول، والعَرض، والقِيام، والقعُود (وَ مَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ) أي جَعل لهُ مَكاناً وجِهةً، لأنّ أَيْنَ يُسأل بها عن ذَلِكَ، ولَو كَانَ لله جِهة، ومكان لافتقر إِلَيْهِ، وهو الْغَنِيّ عن كلّ شَيء، ولا غِنىٰ لِشيء عنهُ (عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ). يَعلم الأَشْيَاء قَبل وجُودها ومتىٰ تُوجد، وعِلمه ذَلِكَ هُو هُو من قبلُ، ومن بعدُ (وَ رَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ) هُو رَبّ كلّ شَيء قَبل وجُود الأَشْيَاء، لأنّه هُو المُوجد لهَا فِي مكانها وزَمَانها (وَ قَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ) لأنّ قُدرته ذَاتِية تُوجد الأَشْيَاء مِن لاَ شَيء متىٰ يَشاء. وتَكلمنا عن صِفاته تَعَالىٰ سَابقاً[1].

الأَئِمَّة قُوَّامُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَ لَمَعَ لاَمِعٌ، وَ لاَحَ لاَئِحٌ، وَ اَعْتَدَلَ مَائِلٌ، وَ اَسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ

---

(١) أنظر، شَرح الخُطْبَة: (١) نَفْيُ الصِّفَات. (منهُ ﷺ).

قَوْماً، وَ بِيَوْمٍ يَوْماً، وَ ٱنْتَظَرْنَا الْغِيَرَ ٱنْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ. وَ إِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَ عُرَفَاؤُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لاٰ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ، وَ عَرَفُوهُ، وَ لاٰ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ، وَ أَنْكَرُوهُ[٣]. إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَصَّكُمْ بِالْإِسْلاٰمِ، وَ ٱسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ ٱسْمُ سَلاٰمَةٍ، وَ جِمَاعُ كَرَامَةٍ. ٱصْطَفَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْهَجَهُ، وَ بَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَ بَاطِنِ حُكْمٍ. لاٰ تَفْنَىٰ غَرَائِبُهُ، وَ لاٰ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَ مَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لاٰ تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ، وَ لاٰ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَىٰ حِمَاهُ، وَ أَرْعَىٰ مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفِي، وَ كِفَايَةُ الْمُكْتَفِي[٤].

اللُّغَة:

غِيَرَ الدَّهْرِ ــ بكسر الغين أَحداثه. والمُجْدِبِ المَطَرَ: الَّذي ٱنقطَع عنهُ المَطَر فَيَبُست أرْضه. وَالعُرَفَاء: جَمع عَرِيف، وهو القَائِم بأمرِ القَوْم. والمَرَابِيعُ: الأمْطَار أَوَّل الرَّبِيع، وقِيل: هو جَمع المِربَاع، أي الأَرْض الَّذي يَظهر نَبَاتها في أَوَّل الرَّبِيع.

الإِعْرَاب:

المَطَرَ مَفْعُول لانْتِظَارَ، وذَلِكَ فَاعِل لفعل محذُوف أي وفَعل ذَلِكَ، أو مُبْتَدَأ، والمَصْدَر المُنسبك من «لِأَنَّهُ.. إلخ» مُتَعَلِّق بمحذُوف خَبَراً لهُ.

المَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّارِحُون: إِنّ الإِمَام عليه السلام خَطَب بهَذا الكَلاَم بَعد مَقتل عُثْمَانَ[١] ... ولَيْس

(١) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لمُحَمّد عَبْدَه: ٢/ ٤٠، شَرح نَهج البَلاَغَة لِابْن أَبي الحَدِيد: ٩/ ١٥٢.

هَذَا ببعِيد عن ظَاهر السِّـياق (قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَ لَمَعَ لاٰمِعٌ، وَ لاٰحَ لاٰئِحٌ، وَ اَعْـتَدَلَ مَائِلٌ، وَ اَسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَ بِيَوْمٍ يَوْماً). حَـدث الإِنـقلاب بمـقتل عُـثْمَانَ، وظَهَرت بوادِر وبشَائر بتغِير الأَوْضَاع، والأَحْوَال بعد أنْ ولِيَ سُلطان مَرْوَان بـن الحكم مُستشار اَلْخَلِيفَة، والمَصْدَر الأَعْظَم فِي ذَاكَ الزَّمَان (وَ اَنْتَظَرْنَا الْغِيَرَ اَنْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ) أي اَنتظرَ اَلْمُسْلِمُون تَبدل الأَوْضَاع، والأَحْوَال، لأنّ أزمة الثِّقَة بِاَلْخَلِيفَة كَانَتْ عَامة لا خَاصَّة، ثُمّ تحولت الأزمَة إِلىٰ نِقمَة، وكَانَ مِـن أَمـرها مَـا أشرنَا إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِن مَرّة، وقَد حَذر الإِمَام اَلْخَلِيفَة الثَّالِث مِن سُوء الْعَاقِبَة، وَقَالَ: «أنشُدك الله أنْ تكُون إِمَام هَذِه الأُمَّة الْمَقْتُول، فإِنَّه كَان يُقَال: يُقتل فِي هَذِه الأُمَّـة إِمَام يجرُ عَلَيْهَا الْقَتْل، والْقِتَال إِلىٰ يَوْم اَلْقِيَامَة»[1].

(وَ إِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ) وخُلفَاؤه فِي أرْضَه، ورَحْمَة مُهداة منهُ تَعَالىٰ إِلَيْهِمْ، وهُم (عُرَفَاؤُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ) أي القَائِمُون علىٰ تَدبِير شُؤُونَهم، ومصَالِحِهِم علىٰ أَسَاس الرَّحْمَة، والمُسَاوَاة، لأنّهم رَحْمَة مُهداة منهُ تَعَالىٰ إِلىٰ عِبَادِه، ومن أَجل هَذَا وصَل حَبلهُ تَعَالىٰ بِحبلِهم، وأفترض طَاعتهم علىٰ جَمِيع النَّاس شَرِيطَة أنْ يَهـدُوا النَّاس بأمر الله، وَوحيه، ويَفعلوا الْخَيْرَات، ويُـقِيمُوا الصَّـلاٰة، ويُـؤتُوا الزَّكَـاة، ويَعبدُوا الله حقّاً، وصِدقاً، ويَعملوا لهُ وحدَه لا للجِاهِ، والمَالِ، وكَما جَاء فِي الآيَة: «وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ

(١) أُنظر، شَرح نَهج اَلْبَلاَغَة لمُحَمّد عَبْدَه: ٦٩/٢، شَرح نَهج اَلبَلاَغَة لاِبن أَبِي اَلْحَدِيد: ٢٦٢/٩، بحَار الأَنْوَار: ٤٨٩/٣١، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٣٧٦/٣، الأَنْسَاب للسَّمعاني: ٦٠/٥، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٦٣/٣، تَأرِيخ اَبن كَثِير: ١٦٨/٧، البدَاية والنِّهَاية: ١٨٨/٧، كتاب الجَمَل للشَّيخ المفيد: ١٠٠، جواهر المطالب فِي مناقب عليّ بن أبي طالب لاِبْن الدِّمَشْقِي: ١٨٠/٢، العقد الفَرِيد: ٩٢/٣.

ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[1].

(وَ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ) وأطاع أمرهُم، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[2]. (وَ عَرَفُوهُ) أي كَانوا معهُ بِهدَايتِهم، وإرشَادهِم، أو شَهدُوا لهُ عِند الله بالإِيمَان والاِسْتِقَامَة (وَ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ، وَ أَنْكَرُوهُ) هَذَا كِنَايَة عَن الْجَاهِل بِالْحَقِّ، وأَهْله، أو العَالِم بِهِ، وبِهِمْ، ولَكِنَّهُ خَالف، وعَاند.

لِلمِنْبَرِ ـ الْإِسْلاَم سلاَمَة، وكَرَامِة:

(إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَصَّكُمْ بِالْإِسْلاَمِ، وَ ٱسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ). الخِطَاب مُوجَه مِن الْإِمَام لأصحَابه، ويَصلح لكلِّ مُسْلِم، لأنّ الغَرض منهُ التَّذكِير بفضل الْإِسْلاَم، والحَثّ علىٰ التَّمسك بعروَته، وإنّه نِعْمَةٌ كُبرىٰ من الله سُبْحَانَهُ علىٰ كُلِّ مِن اهتدىٰ بهدِيه (وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ٱسْمُ سَلاَمَةٍ، وَ جِمَاعُ كَرَامَةٍ). وحَدُّ الْإِسْلاَم بِهَاتِين الكَلمَتِين هُو الحَدّ السَّلِيم، والتَّعرِيف المُتسقِيم علىٰ كِتاب الله، وسُنَّة نَبيِّه، لأنّه مِن مَصْدَر الْإِسْلاَم ومَعدنه، مِن نَفس البَاب الَّذي أَمرنا الله أنْ نَدخل منهُ إِلىٰ مَدِينة عِلمه، وعِلم رَسُوله... كَلمتان فَقط هُو الْإِسْلاَم: سَلاَمَة، وكَرَامَة، وما عَداهُما بِدْعَة، وضَلالَة.

ويَدخل فِي مَفهُوم السَّلاَمَة العَيش بلاَ مِشكلات أي تخاصم، وتصَادم، وبل مَع التَّعاون، والتَّراحم، وبلا فوضىٰ، وفسَاد، بل مَع الصَّلاح، والنِّظام، وبلا عَصبية وتَفرقة، بل مَع العَدَالة، والمُسَاوَاة. ولا غُش، وريَاء، وخِيانة، وأَهْوَاء... ولا أَيّة

(١) ٱلأَنبِيَاء: ٧٣.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٧١.

مُشْكِلَة تُكدّر صفُو اَلْحيَاة.

أمّا الْكَرَامَة فكَلِمَة جَامعة تَصدق علىٰ كلِّ خَير، علىٰ مَبدأ المُسَاوَاة بَيْنَ النَّاس: «فلا فَضل لأبيض علىٰ أَسْوَد، إلّا بالتَّقْوَىٰ»[1]، وعَلىٰ أنّ لِلإنْسَان حُـرِيته، ومَـا يختَاره لِنَفْسِه غَنِياً كَان أَم فَقِيراً، وصِيَانة هَذِه الحُـرِّيَّة، وحـصَانتها مِـن اَعـتدَاء الآخرِين، لأنّ اَلإنْسَان بِمَا هو إنْسَان مِن أي دِينٍ كَان ـ فِي حَرَم مُحرم إلّا أنْ يَنتهك هُو حُرمة نَفْسه بالخرُوج عَلىٰ القَانُون، والنّظام، وعندئذٍ يَكُون السُّـلْطَان عَـلَيْهِ لِلحَقِّ، والْعَدْل... وأيضاً تَصدق الْكَرَامَة عَلىٰ الكَسب بكَد اليَمِين، وعَرَق الجَبِين، والثَّبات عَلىٰ الْحَقّ، والجَهر بِهِ، والصَّبر دَفع ثَمنه، وتَصدُق الْكَرَامَة عَلىٰ الانْسجَام بَيْنَ الأقوال، والأفعَال، والْوحْدَة بَيْنَ السّلوك، والْعَقِيدَة... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِن أنواع الفَضِيلة، والْقِيَّم الأصِيلة الّتي لَخصها الإمَام بِجمَاع الْكَرَامَة.

ومن الحمَاقة أنْ يَرىٰ اَلإنْسَان الْكَرَامَة لِنَفْسِه يُطالب بها، ثُمّ لاَ يَلتزم بِمَا عَلَيْهِ مِن واجب، ويَستخف بِكَرَامَة الآخرِين، ولا يَردعَه عن الظُّلم الاِعْتدَاء إلّا الْقُوَّة، ومن أَجل هَذَا أَمرَ سُبْحَانَهُ أنْ تخَاطبه بلغُة الْقُوَّة: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[2].

ولا نَـعرِف عَـصراً أُهـدرت فـيهِ سَلامة اَلإنْسَـان، وكَـرَامـته كـالقَرن الْعِشْرِين... فأي عَصر من العصُور بَلغت فيهِ النّـفقَات العَسكـرية، والأسْـلحَة

(١) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٥/٤١١ ح ٢٣٥٣٦، مَجْمَع الزوائد: ٣/٢٦٦، شعب الإيمَان: ٤/٢٨٩ ح ٥١٣٧، مُسْنَد الحارث (زوائد الهَيْثمي): ٢/٨١٩ ح ٨٥٣.

(٢) اَلشُّورَىٰ: ٤٢.

السِّرِيَّة، والعَلنِية لكلِّ دول الأَرْض ـ نِصف اَنْتَاج العَالم كلّه ؟ ... وهل القَصد مِن ذَلِكَ الحِرْص علىٰ سَلامة البَشرِية، وكرامـتها، أو التَّروِيـع، والتَّهـدِيد بـإفنَائِها، وإبَادتها إذَا هِي لَم تَخضع، وتَستَسلم لِجَوْر الطُّغاة المُستَبدِين، وآستغلاَل الشّركات، والمُستعمرِين ؟.

(اَصْطَفَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْهَجَهُ) أي أنّه تَعالىٰ اَختَار الإِسْلاَم طَرِيقاً إِلىٰ مَرضَاته (وَ بَيَّنَ حُجَجَهُ) وَهِي اَلأدِلَّة عَلىٰ حَلال الله، وحرَامه، وأشار إِلَيْهَا الإِمَام بقَوْله: (مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ) نَطق بِهِ اَلْكِتَاب، والسُّنَّة (وَ بَاطِنِ حُكْمٍ) دَل عَلَيْهَا الْعَقْل الَّذي يَنتقل بِنا مِن مَعلوم مَحسوس إِلىٰ وَاقعة تَترتب عَلَيْهِ حَتماً، ولا تنفك عنهُ (لاَ تَفْنَىٰ غَرَائِبُهُ، وَ لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ). وضَمِير الغَائِب لِلقُرآن بِدليل مَا جَاء فِي اَلْخُطْبَة: «وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَ لاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ»[1]. لا فَنَاء، ولاَ اَنقضَاء لِعظمَة الْقُرآن لأنّ شَرِيعته بِمبادئها تَصلح لكلِّ زَمَانٍ، ومكان، ومن أَجل هَذَا كَان مُحَمّد ﷺ خَاتم الرُّسل، وآلأَنْبِيَاء، والإِسْلاَم خَاتم الرِّسالاَت السَّماوِية.

(فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ) أي أنّ الأُمَّة الّتي تَسِير فِي ضُوء الْقُرآن، وتعَاليمه تَحـيا حَيَاة طَيِّبَة وكَرِيمَة، والشَّاهِد أنّه رَفع الْعَرَب مِن الحَضِيض إلىٰ سَاسة ممَالِك، وأربَـاب عرُوش ولمّا أهملُوه أَفَلَّ نَجمهُم، وذَهب رِيحهُم (وَ مَصَابِيحُ الظُّلَمِ) تَهدي إِلىٰ سُواء اَلسَّبِيل (لاَ تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ اِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ) لا تَستقِيم اَلْحَيَاة إلّا بِتعَالِيم الـقُرآن (وَ لاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ اِلاَّ بِمَصَابِيحِهِ) لاَ حَلّ لِمشكلات اَلحيَاة إلّا بِمَا أرْشد إِلَيْهِ الْقُرآن من الجِهَاد والْعَمَل فِي كلِّ مَجالٍ مِن مجَالات الخَيْر، والأخذ بأَيْدِي الَّذِين يجـعلون

(١) أنظر، نَهج اَلبلاَغة، اَلخُطْبة (١٨).

آلْحيَاة أَكْثَر رَاحةً، وجمالاً، وخِصباً.

(قَدْ أَحْمَىٰ حِمَاهُ) أي أنّه تَعالىٰ حَرم كلّ مَـا يَـعُوق مَسِـيرة التَّـقدُم (وَ أَرْعَـىٰ مَرْعَاهُ) وأبَاح كلّ مَا يَـطمح إِلَـيْهِ آلإِنْسَـان مِـن الدَّعَـة، وآلأَمَـان (فِـيهِ شِـفَاءُ الْمُسْتَشْفِي) من أرَاد الشِّـفاء مِـن الْجَـهْل، والضَّـلال فَـعليه بـالْقُرْآن (وَكِـفَايَةُ الْمُكْتَفِي) فِيهِ غِنىً لمن يَقنعه الْحَقّ، ويَرضِيه الْعَدْل، ومِن أَقْوَال الإِمَام: «آعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَ لَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً فَآسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ»[1].

(١) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة، آلخُطْبَة (١٧٦).

الخطبة

-١٥٣-

الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ...١ ـ ٣:

وَ هُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَ يَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلاٰ سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَ لاٰ إِمَامٍ قَائِدٍ. حَتَّىٰ إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمُ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَ اسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَ لاٰ بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ[1].

إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَ نَفْسِي، هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَ نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَ انْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَ الضَّلاٰلَ فِي الْمَغَاوِي، وَ لاٰ يُعِينُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ[2].

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَ اسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَ اخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَ أَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ـ صلى الله عليه وآله ـ مِمَّا لاٰ بُدَّ مِنْهُ، وَ لاٰ مَحِيصَ عَنْهُ، وَ خَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَ دَعْهُ وَ مَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَ ضَعْ فَخْرَكَ، وَ احْطُطْ كِبْرَكَ، وَ اذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَ كَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ،

وَ مَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً ، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ ، وَ قَدِّمْ لِيَوْمِكَ . فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ ! وَ الْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ ! ﴿وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1](3).

اللُّغَة:

جَلَابِيبِ: جَمع جِلبَاب، وهُو الثُّوب، والسِّتر. وَالوَطَر: الحَاجَة. والجَدَّ ـ بفتح الجِيم ـ أبُو الأب، أو الأُمّ، وبِكسرها الاِجْتِهَاد، وبضمها الحَظّ. والجَـدَد ـ بـفتح الجِيم والدَّال ـ الأَرْض المُستوِية، ويُطلق علىٰ الطَّرِيق الوَاضح. وَأَنْـعِمِ الْـفِكْرَ فِي كَذا: حَقَّقَ النَّظر فِيهِ، وبَالغ فِي ذَلِكَ.

الإِعْرَاب:

وَنَفْسِي مَفْعُول لأُحَذِّرُكُمْ، وَكَمَا الكَاف بِمَعْنَىٰ مثل صِفة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف، و «مَا» مَصْدَرِيَة، وفِي الكلاَم تَقدِيم، وتَأخِير أي: تُدان أَنْتَ إدَانة مثل الإدَانَة الَّـتي فَعلتها بغيرك، والحَذَرَ نُصب عـلىٰ المَـصْدَر أي آحْـذَر، ومـثلهُ الجِـدَّ أي جِـد، وآجتَهِد.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ هُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَ يَغْدُو مَعَ الْـمُذْنِبِينَ، بِـلاَ سَـبِيلٍ قَاصِدٍ، وَ لاَ إِمَامٍ قَائِدٍ). ضَمير «هُوَ» يَعود إلىٰ كلّ ضَالٍ، وآلسَّبِيل الْقَاصِد طَرِيق

---

(١) فَاطِر: ١٤.

الأَمَان الّتِي تَنْتَهِي بصَاحبها إلىٰ مَا يُريده لنَفْسِه من الخَيْر، والمَعْنَىٰ مَن غَفَل عَن سَبِيل الهُدَىٰ وسَلك سَبِيل الضّلال كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

(حَتَّىٰ إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ) أي كَشَفَ الله للعُصَاة عَن جَزَاءِ أَعْمَالِهِم (وَ ٱسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ). كَانُوا يَلهُون، ويَلعبُون غَافِلِين عـن المَـوْت الَّذي لا يَغفل عَنهم حَتَّىٰ إذَا رَأوا دَلائِله، وعلاَمَاته ٱنتبهُوا مِن سُباتِهم، وتَمَلكهُم الذُّعر (وَ ٱسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً) أي رَأوا أهوالاً كَانُوا عَنْهَا غَافلِين مُدبرِين (وَ ٱسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا) فَارقوا الأَمْوَال، والأَوْلاَد (فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَ لا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ). نَالوا الكَثِير مِن الدُّنيَا، وزِينَتهَا، وتمتعُوا بِنَعِيمها، وحَلاوتِها. وحِين جَاءت سَاعَة الحَقّ مَا أغنىٰ عَنهم مَا كَانُوا يَكسبُون، وبِهِ يَتمتعُون، بل كَان عَلَيْهِمْ وبَالاً، وعذَاباً.

(إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَ نَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ) أي الغَفلَة عَن العَواقِب، وأَشرَك نَفْسه مَعهُم فِي التَّحْذِير لِيُحرك شعُورهم، ويُؤثر كلاَمه فِي قلُوبِهم، ومن قَبلِه قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ لِلمُشركِين: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]. (فَلْيَنْتَفِعِ ٱمْرُؤٌ بِنَفْسِهِ) أي بِعَقْله، والعَقْل آلة التَّفكِير، والنَّظر فِيمَا يَراه العَاقِل، ويَسمعه، ثُم يَختار النَّافع، والصَّالح، وإلىٰ هَذَا أَشَارت الآيَة: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ

(١) ٱلأنفَال: ١٦.

(٢) سَبأ: ٢٤.

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[١] وعَلىٰ هَذَا الأَسَاس حَدد الإِمَام مَفهُوم العَاقِل البَصِير بقَوْله: (فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَ نَظَرَ فَأَبْصَرَ) سَمِع، ورأىٰ بِعقلٍ، وَرِوِيَّة لا بالْهَوَىٰ، والغَرض (وَ انْتَفَعَ بِالْعِبَرِ) أي وعَمِل بكلِّ خَير يَسمعهُ، ويَرَاه.

(ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَ الضَّلاَلَ فِي الْمَغَاوِي) الجَدَد الطَّرِيق، الصَّرْعَةَ الهَلَكَة، والْمَهَاوِي المهَالِك، والْمَغَاوِي الأَشْيَاء الَّتي تَغوِي وتُضلل، والْمَعْنَىٰ أَنَّ الَّذي يُدرك الأَشْيَاء علىٰ حَقِيقتِهَا، ويَنْتَفِع بالعِبر، والعِظَات، يَهْتَدِي إِلىٰ طَرِيق النَّجَاة لا مَحَالَةَ، ويُسلكه وهُو علىٰ ثِقَة من أَنَّ الْعَاقِبَة لهُ لا عَليهِ (وَ لاَ يُعِينُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ) الْغُوَاةَ هُم الَّذِين لا يَرعُوون عَن الغَي، وهُو خِلاف الرُّشد، والتَّعسف فِي الْحَقّ الاِحتِيال عَليهِ كَالذِين يُحللُون مَا حَرم الله بالحِيل الشَّرعِيَّة، والتَّحرِيف في النُّطق الْكَذِب، والاِفتِرَاء، والتَّخوف مِن الصِّدْق السُّكُوتُ عن الْحَقّ خَوْفاً من غَضب المُبطِلين، وسطوتهم... وهَذِه الرَّذَائِل بَاب للمطَاعِن، والمآخذ، وبالأخص من الغُوَاة الَّذِين يَتَّخِذُون مِن التَّشهِير مُبرراً لِعيوبِهم.

(وَ اخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ) قَالَ بَعْض الشَّارِحِين: «أي لا تَكُن عَجَلَتِك كَثِيرَة»[٢]. وهَذَا قَرِيب مِن دَلاَلَة اللَّفظ، ولَكِنَّهُ بَعِيد عَن ٱلْحِكْمَة، والأَوْلَىٰ أَنْ يُفسر بَلا تَعجل من أمرٍ حَتَّىٰ تَعلم حَقِيقَته، وعواقِبه (وَ أَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - ﷺ - مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ، وَ لاَ مَحِيصَ عَنْهُ). عَلىٰ الْمُسْلِم أَنْ يَعْرِف أُصول

(١) ٱلزُّمَر: ١٨.

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٥٩/٩.

الْإِسْلاَم، وأَحْكَام الْعِبَادَة ومَا يُمارسه مِن الأفعَال، والمُعاملات، والسَّبِيل إِلىٰ هٰذِه الْمَعْرِفَة كِتاب الله، وسُنَّة نَبِيِّه يَرجع العَالم الْمُجْتَهِد إِلَيْهما مُباشرة، والجَاهِل بتوسط الْمُجْتَهِد، وقِيل فِي مَعناه: فِكر فِيما قَاله الرَّسُول عَن الْمَوْت الَّذي لا بُدّ مُنه!... ولاَ حِكمَة فِي ذَٰلِكَ بالإضَافة إِلىٰ أنّه خِلاف الظَّاهِر (وَ خَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَ دَعْهُ وَ مَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ). دَع سُواك من المُتمردِين، وأَدِّ مَا عَلَيْكَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(وَ ضَعْ فَخْرَكَ). «مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ، أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ»[2]، كمَا قَالَ الإِمَام (وَ ٱحْطُطْ كِبْرَكَ). التَّكَبُّر يَنم عَلىٰ صَاحبهُ بالجَهْل، والصِّغار، ولذَا نَرىٰ الْصَّغِير مُتكبراً، والْكَبِير مُتواضعاً، وفِي بَعْض الرِّوَايَات: يُحشر ٱلْمُتَكَبِّرون عَلىٰ هَيئة الذَّر يَطأهم النَّاس بأقدَامهم جزاءً، وفاقاً علىٰ تَعالِيهم[3]. (وَ ٱذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ). إِنّك سَائر إِلىٰ القَبر لا مَحالَة، ومنهُ إِلىٰ الوقُوف بَيْنَ يَدي الله، فَتزُود لهٰذا، وذَاكَ بالتَّقْوَىٰ، وصَالِح الْأَعْمَال.

(وَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَ مَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً). هٰذِهِ

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ١٠٥.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٥).

(٣) أنظر، كشف الخَفَاء: ٥٣٣/٢ ح ٣٢٣٦، تَأريخ بغداد: ٢٩٤/١٢ رقم (٦٧٤٠)، حلية الأَوْلياء: ٣٧٠/٥، تُحفَة الأَحْوَذي: ١٦٢/٧، التَّرغيب والتَّرهيب: ٣٥٥/٣ ح ٤٤١٨، الأدب المفرد: ١٩٦/١ ح ٥٥٧، شعب الإِيمَان: ٢٨٨/٦ ح ٨١٨٥، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٧٤/١٥، سُنَن التِّرمذي: ٦٥٥/٤ ح ٢٤٩٢، مَجْمَع الزَّوائد: ٣٣٤/١٠، مُسْنَد أحمد: ١٧٩/٢ ح ٦٦٧٧، مُسْنَد الحميدي: ٢٧٢/٢ ح ٥٩٨، التَّخويف من النَّار: ٩٠/١.

الأَمْثَال يَحفظها العَالِم، والجَاهِل، والصَّغِير، والكَبِير، لِأَنَّهَا مِن وحَي العَيان والقُرْآن، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[1]. وَقَالَ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]. وَإِذَا قَالَ قَائِل: لَقَد رَأينا الكَثِير مِن المُخادعِين أصَابوا النَّجاح، والأَرْبَاح؟ قُلنا فِي جوابه: الكَسب بالْكَذِب، والغُش لَيْسَ نَجاحاً بل عُدْوَاناً، وجَرِيمَة... ولَو مثُل هَذَا المُخادع أَمام الْعَادِل لجَرده مِن كلِّ شَيء، وحُكم عَلَيْهِ بأَشد العقُوبَات. فأَينَ النَّجاح؟

(فَٱمْهَدْ لِقَدَمِكَ). اعمل لمصِيرك، وعَاقِبتك (فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ) مِن الغَفلة، والتَّقْصِير (وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) بمَسَاوِيءِ الدُّنْيَا، ومحَاسنها، ومن تَتَبَّع كلاَم الإِمَام فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة، وغَيْره يرَىٰ أَنّ مَا مِن أحدٍ عَلىٰ الاطلاق تَحدث عن الدُّنْيَا كَمَا تَحدث عَنْهَا الإِمَام، تَكَلَّم عَنْهَا كَثِيراً، وَرَسَم لهَا صورة شَامِلة، وَافية مِن شَتَّىٰ الجِهات مَع التَّحلِيل، والتَّفْسِير، والتَّوجِيه.

سَيِّئَاتٌ لاَ تَنْفَعُ مَعَهَا الْحَسَنَات... فِقْرَة ٤:

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ، وَ يُعَاقِبُ، وَ لَهَا يَرْضَىٰ، وَ يَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَ إِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَ أَخْلَص فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاَكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَىٰ النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ.

---

(١) ٱلرَّحْمَان: ٦٠.

(٢) ٱلشُّورَىٰ: ٤٠.

اَعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَىٰ شِبْهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَىٰ غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ.

اللُّغَة:

عَزَائِمِ اللهِ: أحْكَامه الثَّابتة بضرُورة الدِّين. والخَصْلَة ـ بفتح الخَاء ـ الصِّفَة. ويَعُرَّ: يُعِيب. ويَسْتَنْجِحَ: يَطْلُب النَّجَاح. ومُسْتَكِينُونَ: خَاضعُون.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من أَنَّهُ لاٰ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا.... إلخ. اَسم إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ أي أَنَّ عدم نَفْعُ عَبْد.... إلخ، والْمَصْدَر من أَنْ يَخْرُجَ فَاعِل لاٰ يَنْفَعُ، ولاٰقِياً حَال من الضَّمِير الْمستتر بِيَخْرُج، وغَيْره مَفْعُول يَعُرَّ، وفَاعله ضَمِير مُستتر يَعُود إلىٰ «عَبْداً».

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ، وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَىٰ، وَيَسْخَطُ). يَشتمل الْقُرْآن عَلىٰ دِلاٰلات قَطعِية، وظَنِية، والدَّلاٰلَة القَّطعِية تُثبت الْحُكْم بِنَصٍ لا يَحتمل الخِلاٰف، ولا يَقبل التَّخصِيص، والتَّأوِيل بحَال، مثل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] والدَّلاٰلَة الظَّنية تُثبت الْحُكْم بِظَاهر يَحتمل

(١) ألإسْرَاء: ٢٣.

الخِلاَف، ويَقبل التَّخصِيص، والتَّأوِيل، مثل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[1]. فالمَس بِظَاهرهِ يَشمل الوقَاعُ[2]، وغَيْره، وفِي الوَقت نَفْسه يَجوز تَخصِيصه بالوقَاع وحَده كَمَا فِي الآيَة الكَرِيمَة.

ولَيْسَ مِن شَكٍ أنّ من أَطَاع الله فِي أي حُكمٍ من أحكَامه تَعَالىٰ فَقَد فَاز، ومن عَصاه فَقد خَاب سواء أوْجَبَ هَذَا الحُكْم بنَصّ لا يَحتمل الخِلاَف، أَم بِظَاهر يَحتمله مَع عَدم قِيام الدَّلِيل عَلىٰ إرَادَة الشَّيء المُحتمل، وأيضاً لَيْسَ مِن شَكٍ فِي أنّ العَبد إذَا أطَاع الله فِي شَيء وعصَاه فِي شيء ـ كَان لكلٍ حِسابهُ، وجزاؤهُ، ولكن قول الإِمَام: «لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَ إِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَ أَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ»... يَدل بظَاهره عَلىٰ أنّ هُنَاك ذنُوباً لا تُجدِي مَعَهَا أيّة حَسنة من الحَسَنَات، وإنّ سَيِّئَات تِلك الذّنُوب تَمحُو، وتَتغلب عَلىٰ حَسَنَات أي فِعلٍ من أَفعال الخَيْر، وأشَار الإمَامعليه السلام إلىٰ خَمسةٍ مِنْهَا:

١ ـ (أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ) أي أنْ يُرائِي بصُومه، وصلاَته، وحَجّهِ، وزكَاته، لأنّه تَعَالىٰ شَرع العِبَادَة لتكُون خَالِصة لوجهِهِ الكَرِيم، ومن تَقرب بِهَا إلىٰ غَيْره فَقد صَرفها عَن الغَرض المقصُود مِنْهَا، وفِي الوقت نَفْسه جَعل لله شَريكاً، ونَظِيراً يَرجُوه، ويَخَافه مِن حَيْث لا يَشعر، ولذَا وصَف الرَّسول الأَعْظَمصلى الله عليه وآله الرِّياء بالشِّرك الخَفِي[3]، والله سُبْحَانَهُ لا يَغفر أنْ يُشرك بِهِ، ولا يَقبل

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٣٦.

(٢) الوقَاعُ: مُواقَعَةُ الرَّجُل ٱمْرَأتَهُ إذَا باضَعهَا وخالَطَها. وواقَعَ المَرْأةَ وَوَقَع عَلَيْهَا: جَامَعَها. أنظر، لِسَان العَرَب: ٨/٤٠٥.

(٣) أُنظر، كتاب الزُّهْد لحسين بن سعيد الأهوازي: ١٧٧/٦٥. الكافِي: ٢/٢٩٣ ح ٣، بتقديم وتأخير، فِقه الرّضا: ٣٨٧، وَسَائِل الشّيعة: ١/٧٠ ح ٤، علل الشّرائع: ٥٦٠ ح ٤، المَحَاسِن: ١/١٢٢، مُنية المريد: ٣١٧، إحياء علوم الدين: ١/٤٢، بحَار الأنْوار: ٢٨١/٦٩ ح ٣.

مِمَّنْ يَرجُو سِواه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

٢ ـ (أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ). فَسّر الشَّارحُون الهَلاك هُنا بقَتل النَّفس وإزْهَاقها[2]، واَستدل البَعض مِنْهُم بقَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3]. ولَيْس هَذَا ببعِيد عَن ظَاهر اللّفظ، ولكن الأَوْلىٰ تفْسِير الهَلاك بِمَا يَشمل التَّعدي عَلىٰ حَيَاة ٱلإِنْسَان مُباشرة، وبالوَاسطة كَسلب الأقوَات، ومَا فيهِ قَوام ٱلحَيَاة، ومنذُ القَدِيم ٱشتهر عَلىٰ كلّ لِسَان: قَطع الْأَرْزَاق كَقطع الأعْنَاق.

٣ ـ (أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ). يَفعل المُنْكَر، ويَقذف بِهِ غَيْره: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[4].

٤ ـ (أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَىٰ النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ) يُحلل مَا حَرم الله، ويُحرم مَا حَلَل طَلباً للدُّنْيَا... وهَذَا هُو المُستأكل بدِينه، وقَطاع الطَّرِيق خَيرٌ منهُ.

٥ ـ (أَوْ يَلْقَىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ). ذُو الوَجْهِين يُثني فِي المَشهد، ويَنهش فِي المَغيب، وهَذَا مُنافق، ومُغتَاب فِي آنٍ واحِدٍ، وذُو اللِّسَانِين يَنقل كَلَام كلٍّ من المُتعادِين إلىٰ الآخر، وهَذَا مُفسد، ومُفتن، والنَّمام دونَه شَرّاً وقُبحاً، لأنّه يَنقل مِن جَانبٍ واحدٍ، أمّا الَّذي يُخاطب كلّ إِنْسَان بِمَا يَشتَهِي فهُو ذُو

---

(١) ٱلكهف: ١١٠.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لِمحَمّد عَبْدَه: ٤٢/٢، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٦١/٩.

(٣) ٱلنِّسَاء: ٩٣.

(٤) ٱلنِّسَاء: ١١٢.

أَلسُن، لا لِسَانَيْنِ، والكلّ شَرّ عَلىٰ أَنْفسهم، ومُجتمعهم. وفِي الحَدِيث: «مَن كَان لهُ وجْهَان فِي الدُّنْيا كَان لهُ لِسَانَانِ من نَارٍ فِي الآخِرَةِ»[1]. (أَوْ يَلْقَىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ). إنّ الأَشْيَاء تُلحق بنظائِرها فِي الحُكْم شَرِيطَة أَنْ تَكُون الْعِلَّة، وَاحِدَة بحكم النَّص، أَو بَدِيهَة الْعَقْل الّتِي لا يَختلف فِي حُكمها ٱثنَان.

الْمَرْأَة زِينَة ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا:

(وَ إِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْفَسَادُ فِيهَا). كَان المُجتمع يُحرم علىٰ الْمَرْأَة أَنْ تُساهم مَع الرَّجُل فِي الكَثِير مِن شُؤُون ٱلْحَيَاة، ويُفرض عَلَيْهَا أَلْوَاناً مِن التَّحرِيمَات، ويَسمح لهَا بِمَا يَتلاءَم مَع طَبعها كالزِّينَة، وجَرّ الذُّيُول، ولكنْ فِي بِيْتِهَا وسَاحة مَنزلها.... ومَضت الأَيَّام، وتَغيِر الزَّمَان، وقَنصت الْمَرْأَة «حقُوقها» مِن الرَّجُل... وتَطورت الزِّينَة مَع الزَّمن حَتَّىٰ صَارت عَلماً، فخُبرَاء لأَزيَاء المَلابِس وكِعُوب الأحذِيَة، وآخرُون لصَّف الشّعور، ورِجال لِلتَّدلِيك، والمَاكِياج، وتَمرِينَات مِن أَجل الرَّشَاقة، ونحَافة الخصُور!.... وهَكذا ظَهرت الْمَرْأَة ـ فِي عَصر ٱلنُّورِ، والحُرِّيَّة ـ عَلىٰ طَبيعتها مِن الاهتِمَام بزِينَة ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا، وتَجاوزت مِن أَجلها كلّ حَدٍّ، وإِلىٰ هَذَا التَّجاوز أَشار الإِمَام بكَلِمَة الْفَسَاد... أَمّا قَوْله: (إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ) فَلا يَصدُق عَلىٰ نِسَآءَ هَذَا العَصر، لأَنّهن لا يَخضعن، ولا يَخفن من كَبِيرٍ، وخَطِيرٍ.

---

(١) أُنظر، سُنن أَبِي دَاود: ٢٦٨/٤ ح ٤٨٧٣، فتح البَاري: ٤٧٥/١٠، فيض القدِير: ٢٠٩/٦، سُنن الدّارمي: ٤٠٥/٢ ح ٢٧٦٤، مَجمَع الزّوائد: ٩٦/٨، مصنف أَبِي شَيبة: ٢٢٣/٥ ح ٢٥٤٦٣، المُعْجَم الكَبِير: ٢٣٨/٩ ح ٩١٦٨.

الْخطبة

-١٥٤-

الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ نَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَ يَعْرِفُ غَوْرَهُ، وَ نَجْدَهُ. دَاعٍ دَعَا، وَ رَاعٍ رَعَىٰ، فَٱسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَ ٱتَّبِعُوا الرَّاعِيَ.

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَ أَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَ أَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَ نَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشِّعَارُ وَ الْأَصْحَابُ، وَ الْخَزَنَةُ وَ الْأَبْوَابُ، وَ لاٰ تُـؤْتَىٰ الْبُيُوتُ إِلاّٰ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً[١].

فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَ هُمْ كُنُوزُ ٱلرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَ إِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَ لْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَ لْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَ إِلَيْهَا يَنْقَلِبُ. فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَ عَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَىٰ فِيهِ، وَ إِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلاٰ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلاّٰ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَ الْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَ سَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ[٢]!

اللُّغَة:

الغَوْرَ: القَعْر مِن كلِّ شيء، والْمُرَاد بِهِ هُنا الْبَاطِن. والنَّجْدَ: مَا أَشرف، وٱرْتفع مِن الْأَرْض. والْمُرَاد بِهِ هُنا الظَّاهِر. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ ـ بِفتح الرَّاء ـ أمسكُوا، وٱمتنعُوا. والشِّعَارُ: مَا يُلبس علىٰ شَعر البَدن، والْمُرَاد بِهِ هُنا بِطَانَة الرَّسُول الصَّادق ﷺ. وكَرَائِمُ الْقُرْآنِ: آيَاته الكَرِيمَة. وكُنُوزُ ٱلرَّحْمَنِ: خَزَنَة عِلمه. والرَّائِدُ: مَن يَتَقَدَّم الْقَوْم يَرتَاد لهُم المكَان المُناسب.

الْإِعْرَاب:

نَاظِرُ مُبْتَدَأ، وجُملة يُبْصِرُ خَبَر، ودَاعٍ مُبْتَدَأ محذُوف الْخَبَر أي هُنا دَاعٍ، أو فَاعِل لِفعل محذُوف أي جَاءكم دَاعٍ. فَلْيَصْدُقْ اللاَّم لِلْأَمْرِ، والنَّاظِرُ مُبْتَدَأ، والْعَامِلُ صِفَة لهُ، وجُملة يَكُونُ خَبَر المُبْتَدَأ، والْمَصْدَر من أَنْ يَعْلَمَ خَبَر يَكُونُ، والسَّائِرِ خَبَر مُقَدَّم، وهُو مُبْتَدَأ مُؤَخَّر.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ نَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ). نَاظِرُ الْقَلْب مَا يُبصر بِهِ تَمَامًا كإنْسَان الْعَيْن أي النُّقطة السُّودَاء مِنْهَا، والْمَعْنَىٰ لَيْسَ الْعَاقِل مَن حَفظ الْحَقَائِق عَن ظَهر قَلب، وأجَادَ فِي بِيانها، وتَفاصِيلها، وإنَّما الْعَاقِل من ٱستفَاد مِن التَّجَارِب، وٱنتفع بكلِّ مَا يَرىٰ ويَسمع، ويَعْرِف إلىٰ أين يَنتهِي بِهِ الطَّرِيق الَّذي يَسلكه، وبكَلِمَة: أنَّه يَملك الْقُدْرَة علىٰ التَّمْيِز، والْعَمَل بِمَا يَعلم (وَ يَعْرِفُ غَوْرَهُ، وَ نَجْدَهُ). يَعْرِف السَّرَائِر، والبُواطِن، ولا تَخدعه المَظَاهر، والكُواذِب.

(دَاعٍ دَعَا ، وَ رَاعٍ رَعَىٰ ، فَٱسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَ ٱتَّبِعُوا الرَّاعِيَ) . الْمُرَاد بالدَّاعِي كِتاب الله ، وسُنَّة نَبِيِّه ، وبالرَّاعِي مَن يَحرس الدِّين ، ويَرعَاه... وإذَا قَامت دعُوت الحَقّ بِقِيادة الرَّاعِيَ المُخلص وَجَبَ ٱتبَاعه ، والإسْرَاع إلَيْهِ تَلبيةً لِنداء ٱلحَقّ... ولاَ سَبب لِتخلف المُجتمع ـ أي مُجتمع ـ عَن رَكبِ ٱلحَيَاة إلّا وَاحِداً مِن ٱثـنَيْن : قِـياده ضَالة مُضللة ، أو التّمرد علىٰ الْقِيَادَة الصَّالِحَة المُخلصة .

(قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَ أَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ) . يُشِير بهَذَا إلىٰ قومٍ ٱتبعُوا خُطوات الشَّيْطَان فأنْسَاهُم ذِكر الله ، وصَدهم عن ٱلسَّـبِيل (وَ أَرَزَ الْـمُؤْمِنُونَ) . أحْجَمُوا عن الكلاَم ، وصَبرُوا علىٰ العُزلة خَوْفاً من شرَار الخَلق بَعد أنْ سَـادت الْفِتْنَة ، وعَمَّ الْفَسَاد (وَ نَطَقَ الضَّالُّونَ الْـمُكَذِّبُونَ) وفَـعلوا مَـا يَشـتهُون فِي دُولة التَّضلِيل ، والخِيَانَة .

(نَحْنُ الشِّعَارُ) أي أنّ أَهْل ٱلبَيْت أَخص النَّاس بالنَّبِيّ ﷺ ، وأوْلاَهُم بِهِ ، ونَحْنُ (الْأَصْحَابُ) السَّابِقُون إلىٰ تَصدِيقه ، والمُجاهدُون فِي سَبِيل رِسَـالَته (وَ الْـخَزَنَةُ) لِعلُومه (وَ الْأَبْوَابُ) إلىٰ مَعرفة دِينَه ، وحَلاَلِهِ ، وحَرَامه (وَ لا تُؤْتَىٰ الْبُيُوتُ إلاّ مِنْ أَبْوَابِهَا ، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً) الْمُرَاد بالْبُيُوتِ هُـنا مَـا جَـاء بِـهِ الرَّسُول الصَّادق ﷺ ، وبالأَبْوَابِ أَهْل بَيْتِه ، وهَذَا كلاَم مَأخوذ مِن حَـدِيث «أنَـا مَدِينة ٱلعِلْم ، وعَليٌّ بَابها»[1] ، وحَدِيث «ثَقَلَيْنِ»[2] ، وحَدِيث «الحَقّ مَع عَليّ»[3] .

---

(١) لقد وصل إلينا حَدِيث «أنَا مَدِينة العِلم وعليٌّ بَابها» مُتواتراً عَن طريق أهْل الشّيعة ، والسُّنّة كَمَا صرح ذَلِكَ أَكْثَر الْفُقَهَاء ، والعُلَمَاء ، وأَصْحَاب الحَدِيث ، والسُّنن مع وجود بَعْض الإخْتِلاَف فِي اللَّفظ ، كما ذكرنا سابقاً . أنظر ، صَحِيح التِّرمِذي : ٢ / ٢٩٩ ح ٣٨٠٧ ، سُنَن التِّرمِذي : ٥ /بَاب ٨٧ / ٣٠١ ، مُسْنَد أحمد : ٥ / ٣٠ .

ومن شكٍ فِي شيء من ذَلِكَ فليرَجع إلىٰ كتب الْحَدِيث ومَا قَاله النَّبِيّ ﷺ فِي أَهْل بَيْتِه، وبالْإِخْلاَص فِي حَقّ الإِمَام عَليّ، ثُمّ يَحكُم بوحيٍ من فَهمه، وضَمِيره.

قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، وهُو يَشرح هَذِه الجُملة: «أذكر هُنا من مناقب الإِمَام أَمِير الْمُؤْمِنِينَ أخباراً غَيْر الّتي يَحتج بِها الْإِمَامِيَّة كخَبر الغَدِير، والمَنزلة، وقِصَّة بَرَاءَة، والمُناجَاة، وقِصَّة خيبر، وخَبَر الدَّار بمكَّة في ٱبتداء الدَّعْوَة، ونحو ذَلِكَ، بل أذكر الأَخْبَار الّتي رواها في فضل الْإِمَام عَليّ أئمّة الْحَدِيث الّتي لَم يحصل مِنْهَا أَقل القَلِيل لغيره، وأنا أذكر من ذَلِكَ شَيْئَاً يَسِيراً مِمَّا رَواه عُلَمَاء الْحَدِيث الَّذين لا يُتهمُون فِي عَليّ، وجُلهم قَائلون بتفضِيل غَيْره عَلَيْهِ، فروَايتهُم فضائله تُوجب سكُون الْقَلْب مَا لا يُوجبه روايَة غَيْرهم»(٤).

ثم ذكر (٢٤) حَدِيثاً فِي ذَلِكَ نَكتفِي مِنْهَا بحَدِيثٍ واحد، لأنّه يَعكس السَّبب المُوجب لكلّ مُؤامرة دُبرت ضِدّ الإِمَام كمَا يَعكس مكَانته، وعَظَمته، روىٰ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد عَن مُسْنَد الإِمَام أَحمد ٱبن حنبل: «إنّ رَسُول الله ﷺ دَعا عَلِيَّاً فِي غَزْوَة الطَّائِف، وأَطَال نَجواه كَره قَوْم من الْصَّحَابَة ذَلِكَ، وَقَالَ قائل مِنْهُم: لقَد أطال الْيَوْم نجوىٰ ٱبن عمّه، ولمّا بَلغه ذَلِكَ جَمع مِنْهُم قوماً، وَقَالَ: إنّ قائلاً قَالَ: أطال نجوىٰ

(٢) تَقدَّم ٱستخراجه.

(٣) لقد وصل إلينا حَديث «أنَا مَدِينة العِلم وعليٌّ بَابها» مُتواتراً عَن طريق أَهْل الشّيعة، والسُّنّة كمَا صرح بِذَلِكَ أَكثَر الْفُقَهَاء، والْعُلَمَاء، وأَصْحَاب الْحَدِيث، والسُّنن مع وجود بَعْض الْإِخْتِلاَف فِي اللّفظ، كما ذكرنا سابقاً. أنظر، صَحِيح التِّرمِذي: ٢ / ٢٩٩ ح ٣٨٠٧، سُنَن التِّرمِذي: ٥ /بَاب ٨٧ / ٣٠١، مُسْنَد أَحمد: ٥ / ٣٠.

(٤) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٩/١٦٦.

ٱبن عمّه ، أمّا إنّي مَا إنتجيته ، ولكن الله إنتجاه »(١).

ثمّ قَالَ ٱبن أَبي ٱلحَدِيد : «إنّما ذكرنا هَذِه الأَخْبَار هَهنا ، لأنّ كَثِيراً من المُنحرفِين

(١) أُنظر ، حَدِيث النّجوىٰ في الطّائف أخرجه أحمد في مُسْنَده عن جابر بن عبدالله الأنصاري: ٦ / ٣٠٠، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٤/ ١١٨ ح ٢١٦٣، وٱحتجّ بِهِ الإِمَام عليّ عليه السلام علىٰ أَهْل الشُّورَىٰ عن أبي ذَرّ الغفاري، وورد بلفظ صَحِيح التِّرمِذي وغَيْره، واللفظ للتِّرمذي عن جابر قَالَ: دعا رسول صلى الله عليه وآله عَلِيّاً يَوْم الطّائف فٱنتجاه، فَقَالَ النّاس: لقد طال نجواه مع ٱبن عمّه، فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ٱنتجيته ولكنّ الله ٱنتجاه. (سُنَن التِّرمِذي: كتاب المناقب بَاب مناقب عليّ بن أبي طالب: و: ٥/ ٣٠٠ ح ٣٨٠٥ و: ١٢ / ١٧٣، وتَأرِيخ بغداد للخطيب: ٧ / ٤٠٢.

وفي رواية: لمّا كَانَ يَوْم الطّائف دَعا رسول الله صلى الله عليه وآله عَلِيّاً فناجاه طويلاً، فَقَالَ بَعْض أصحابه... الحديث. (أُنظر أُسد الغَابَة: ٤ / ٢٧).

وفي رواية جُنْدُب بن ناجية أو ناحية بن جُنْدُب: لمّا كَانَ يَوْم غَزْوَة الطّائف قام النّبيّ صلى الله عليه وآله مع عليّ عليه السلام مَلِيّاً ثُمّ مَرّ. فَقَالَ له أبو بَكْر: يا رسول الله لقد طالت مناجاتك عَلِيّاً منذ اليوم، فَقَالَ: ما أنا ٱنتجيته ولكنّ الله أنتجاه. (أُنظر كنز العُمّال: ١٢ / ٢٠٠ / ١١٢٢ الطّبعة الثّانِيَة، الرِّياض النّضرة: ٢ / ٢٦٥، مشكاة المَصَابِيح: ٣ / ١٧٢١ ح ٦٠٨٨، كفاية الطّالب: ٣٢٧ بَاب ٩٢، المُعْجَم الكَبِير للطبراني: ٢/ ١٨٦ ح١٧٥٦، المناقب للخوارزمي: ١٣٨ ح١٥٥، المناقب لِابْن المغازلي: ١٢٤ـ١٢٦ ح ١٦٢ـ١٦٦ أمالي الشّيخ الطُّوسي: ١ / ٣٤٢، غَايَة المَرام: ٥٢٧ بَاب ٨٨ ح ٨، بصائر الدَّرجَات: ٤١٠ـ٤١١ ح ١ و ٥، الاِختصاص للشّيخ المُفيد: ٢٠٠، شرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٩/ ١٧٣ ٱلخُطْبَة ١٥٤. ومن تَأرِيخ ٱبن عساكر عن جابر / ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ٢ / ٣١٠ و ٣١١، وتَأرِيخ ٱبن كثير: ٧ / ٣٥٦.

وفي شرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢ / ٧٨ طَبْعَة مِصْر الأُولىٰ جاء في آخر الحَدِيث: دَخَلَت عَائِشَة وهما يتناجيان، فقالت: يا عليّ لَيس لي إلّا يَوْم من تسعة أيّام، أفما تدعني يا ٱبن أبي طالب!؟ ولَسنَا بصدد بَيَان كلّ ما جاء في المُناجاة، وذَلِكَ لأنّ الإِمَام عليّ عليه السلام كَانَ حَرِيصاً علىٰ أَنْ يَتلقّىٰ من رسول الله صلى الله عليه وآله وخَاصّة عندما نزلت الآيَة الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ ٱلمُجَادِلَة: ١٢ فَقَالَ الطَّبَري في حَدِيث طويل: فلم يُناجه أحد إلّا عليّ بن أبي طالب. (تفسير الطَّبَري: ٢٨ / ١٤ و ١٥، الدُّر المنثور: ٦/ ١٨٥، أسْبَاب النزول للواحدي: ٣٠٨، تَفْسِير السّيوطي: ٦ / ١٨٥، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧٢، مَجْمَع الزَّوائد: ٩ / ٣٦، خصائص النّسائي: ٤٠، مُسْتَدرَك الصَّحِيحَين: ٣ / ١٣٨ ـ ١٣٩، الكشّاف: ٤ / ٧٦).

عن الْإِمَام إِذَا مَروا علىٰ كلاَمه فِي نَهْجِ ٱلْبَلاَغَة، وغَيْرِه المُتضمن التَّحدث بِنِعْمَة الله من ٱختصاصه برسُول الله ﷺ، وتَمْيِيزه إيّاه عن غَيْرِه ـ ينسبونه إِلىٰ التِّيه، والزَّهـو والفَخر، ولقَد سَبقهم إِلىٰ ذَلِكَ قَوْم من الْصَّحَابَة»[١].

(فِيهِمْ). الضَّمِير لأَهْل ٱلْبَيْت (كَرَائِمُ الْقُرْآنِ) أي نَزلت آيَاته الكَرِيمَة بِفضلِهم وعَظمتِهم (وَهُمْ كُنُوزُ ٱلرَّحْمَنِ) خزَنَه عِلمه (إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا) لأنَّهم لا يَـنطقُون عَن الْهَوَىٰ (إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا). قَالَ الشَّيخ مُحَـمّد عَـبْدَه: يَهاب النَّاس سكُوتهم، فلاَ يجرأ أَحدٌ علىٰ الكلاَم عمّا سَكتُوا عَنهُ (فَلْيَصْدُقْ رَائِـدٌ أَهْلَهُ). عَلىٰ الهَادِي والرَّاعِيَ أَنْ يَنصح، ويخلُص، وتَقَدَّم[٢]. (وَلْـيَكُنْ مِـنْ أَبْـنَاءِ الْآخِرَةِ) أي يَعمل لهَا (فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ) أي خُلقٍ من أَجلها، كمَا قَالَ الْإِمَام فِي مَكان آخر: «أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ»[٣]، ولا يَستقِيم الْمَعْنَىٰ إلاّ إِذَا فسرنَا «قَدِمَ» بِخُلقٍ (وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ). لاَ شَكّ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ.

(فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصرِ، يَكُونُ مُبْتَدأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَىٰ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ). للعَاقل عَلامَات، وأهمها أنّه لا يَقدم علىٰ أي شيء إلّا بَعد دِرَاسته، وتَدبره علىٰ أَساس سَلِيم، فإِنْ كَان خَـيراً لا شَرّ فِيهِ، أو خَيره أَكْثَر من شَرّه ـ أَقدم عَلَيْهِ، إنْ كَان شَرّاً كلّه، أو شَرّه أَكْثَر من خَيره أَحجم عَنْه. والأَسَاس السَّلِيم مَا يَراه العُقلاء، والأكفَاء سَلِيماً (فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ) كَان العِلم ومَا زَال مِقْيَاساً لكـلِّ خُـطوة مـن

---

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢٤/٧ و: ١٧٣/٩.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطبَة (١١٩).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (١٥٧).

خُطوات البَشرِية إلىٰ الإمَام فِي كلِّ مِيدان مِن مِيادِين الْحيَاة، وكَان الْجهْل، ومَا زَال خَطراً أعظم مِن أي خَطر علىٰ البَشرِية، وحِياتها.

وكفىٰ شَاهداً علىٰ ذَلِكَ أنْ نُلاحظ العَصر الَّذي نَعيش فِيهِ، ونُقارن بَـيْنَ الدُّول والشّعُوب المُتقدمة و«النَّامِية» أي الْفقِيرَة المُتخلفة، ونَبحث عن السَّبب المُوجب للتَّخلف، والتَّقدم... فِبالعِلم تَقدَّمَت الشّعُوب، وعَاشت فِي غنىٰ غَـيْرِها، وحَمت نَفسها، وحَافظت علىٰ كَرَامتها، بل وسِيطرت علىٰ غَيْرِها، وكلّما طَال بها أَمد العِلم اَزدهرت، واَزدادت قُوّةً، وتَقدماً... علىٰ النَّقِيض من الشّعُوب الجَـاهِلة، فـإِنَّهَا تَعِيش فِي الْفَقْر، والمَذلة، والهُوان، وكلّما طَال بِها الزَّمن عَلىٰ جَهلها اَزدادت ضَعفاً وتَخلُفاً (فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَ سَائِرٌ) فِي طَرِيق العِلم الَّذي يُوصله إِلىٰ أهدَافه (أَمْ رَاجِعٌ) إِلىٰ الوَرَاءِ، ومُتردٍ فِي الحَضِيض؟. ومتىٰ نَظَر الإِنْسَان إِلىٰ مَا هُو فيهِ، ورأىٰ نَفْسه تَسِير القَهْقَرىٰ بحَثَّ عن طَرِيقِ السَّلامة، وإلّا فَمصِيره الهَلاك، والدَّمار.

طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ...فِقْرَة ٣:

وَ اَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَىٰ مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَ مَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ. وَ قَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ ـ ﷺ ـ: «إِنَّ اللهَ يُـحِبُّ الْـعَبْدَ، وَ يُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَ يُحِبُّ الْعَمَلَ، وَ يُبْغِضُ بَدَنَهُ»[1].

وَ اَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَ كُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَىٰ بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَ الْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَ حَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَ مَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَـبُثَ غَـرْسُهُ وَ أَمَـرَّتْ ثَمَرَتُهُ[2].

(١) أُنظر، عوالي اللئالي: ٢٧٧/١، بحار الأنوار: ٦٠١/٢٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧٨/٩.

اللُّغَة:

أَمَرَّتْ: صَارّت مُرّة.

الْمَعْنَىٰ:

(أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَىٰ مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَ مَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ) أي أنّ أَفعال ٱلإِنْسَان هِي ٱنعكَاس عَن دَخِيلته، ومن حِكَم الإِمَام: «مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلاَنِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ، وَبَيْنَ اللهِ أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ، وَبَيْنَ النَّاسِ»[1]. أنّ عِلم ٱلإِنْسَان لاَ يَكشف عن شيء من نَفسِيته، وأخلاَقه، لأنّ العِلم يُقرر حَقِيقَة واقعة مُنفصلة عن ذَلِكَ ٱلإِنْسَان، أجل إنّه يكشف عن مدىٰ ٱطلاَعه، ومَعْرِفَته بِالحَقَائِقِ، والطَّرِيق الوَحِيد لمعرفة باطن ٱلإِنْسَان، ودَخِيلته هُو سَلكهُ، وتَصرفه، لأنّه من أملاء الذّات، وميولها وأرادتها، فالْعَمَل لمنفعة النّاس، وصَالحهم يَكشف عن طِيب الذّات وصفائها، والْعَمَل علىٰ مَضرتهم، وإثارة الْفِتْنَة، والخِلاَف فيما بَيْنَهُمْ يَدل علىٰ خبثها ولؤمها، لأنّ العَلاقة بَيْنَ الذّات، والسّلوك هِي عِلاَقَة الأثر بالمُؤثر، والدّال بالمدلول، وقد يكُون للظروف الّتي تحيط بكّ ضَرب من التّأثير، ولكن هُناك أشخاصاً يَسيئُون إِلَيْك، لا لَشيء حُبّاً بالإساءة... وإذا كَان ٱلإِنْسَان ٱبن الأَرْض فإنّ مِنْهَا الطَّيِّب، والخَبِيث: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2].

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة: (٤٢٣).

(٢) ٱلأَعْرَاف: ٥٨.

(وَ قَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ ـ ﷺ ـ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَ يُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَ يُحِبُّ الْعَمَلَ، وَ يُبْغِضُ بَدَنَهُ»[1]. بعد أنْ ذكر الإِمَام أنّ الظَّاهِر يَكشف عن الْبَاطِن عقب علىٰ ذلِك بأنّ الطَّيّب قَد يُسيء كمَا قَالَ الشَّاعر[2]:

مَن ذَا الَّذي تُرضىٰ سجَايَاه كـلّها   كَفىٰ الْمَـرْء نَـبلاً أنْ تَـعد مَـعايبه

وإلّا كَان مَعصُوماً، وإنّ الْخَبِيث قَد يُحسن، والله سُبْحَانَهُ يُحب كلّ عَمل فِيهِ خَير وصَلاح للنَّاس، حَتّىٰ ولو صَدر مِن الْكَافِر الَّذي يَكرَه منهُ الْكُفْر، وهو سُـبْحَانَهُ يَكْرَه مَضرة النّاس، وإنْ كَانَتْ وإنْ كَانَتْ مِمَّنْ يُؤْمِن باللهِ، والْيَوْم الآخر.

(وَ اعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَىٰ بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَ الْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَ حَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَ مَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَـبُثَ غَـرْسُهُ وَ أَمَـرَّتْ ثَمَرَتُهُ) إنّ عِلاَقَة الأَعْمَال بالنّيات أشبه بعلاَقة الزَّرع بـالْمَاء مـن حَـيْث الْحَـيَاة، والنّمو، ومن حَيْث الطَّعم، والمَذاق، فالشَّجَرَة الّتي تُسقىٰ بِماءٍ عَذبٍ فُرات يَلذ ثمرها ويُطِيب، والّتي تُسقىٰ بِمَاءٍ آجنٍ يَفسد ثمرها، ويَخبث... وكَذَلِكَ الأَعْمَال، قَـوامـها النِّيَّة، بِها تُوزن، وتُقاس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وفِي الْحَدِيث: «فَمَن كَانَتْ هِجرتهُ إِلىٰ الله ورَسُوله، فهُجرته إِلىٰ الله ورَسُوله، ومَن

---

(١) أنظر، عوالي اللئالي: ٢٧٧/١، بحار الأنوار: ٦٠١/٢٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧٨/٩.

(٢) ينسب هَذَا البَيت إلىٰ الحطاب الرعيني كما جاء في كتابه مواهب الجليل: ٣٩٠، تكملة حاشية رَدّ المحتار: ٤٩٨/١، جُواهر العُقود: ٤٧٩/٢.

(٣) المَائِدَة: ٢٧.

كَانَتْ هُجرته إِلىٰ دُنْيا يُصيبها، أو إمْرَأَة ينكحها فهُجرته إِلىٰ مَا هَاجر إِلَيْهِ»[1].

(١) أنظر، سُنن التِّرمِذي: ١٧٩/٤ ح ١٦٤٧، السّنن الصّغرىٰ: ١٨/١ ح ١، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٤١/١ ح ١٨١، سُنن الدار قطني: ٥٠/١ ح ١، سُنن أَبِي داود: ٢٦٢/٢ ح ٢٢٠١، سُنن أبن ماجه: ١٤١٣/٢ ح ٤٢٢٧، المُعْجَم الأوسط: ١٧/١ ح ٤٠، مُسْنَد أحمد: ٢٥/١ ح ١٦٨، مُسْنَد الحميدي: ١٦/١ ح ٢٨، صَحِيح مُسْلِم: ١٥١٥/٣ ح ١٩٠٧، المنتقىٰ لِإبن الجَارُود: ٢٧/١ ح ٦٤، البُخَاريّ: ٣/١ ح ١، صَحِيح أبن خُزَيْمَة: ٧٣/١ ح ١٤٢، صَحِيح أبن حبّان: ١١٣/٢ ح ٣٨٨، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١١٨/١ ح ٤٠١، تُحْفَة الطالب: ٢٧١/١.

الخطبة

-١٥٥-

لِمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُول...فِقْرَة ١:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَ رَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!

هُوَ اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَ أَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَ لاٰ مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَ لاٰ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَ أَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَ لَمْ يُدَافِعْ، وَ انْقَادَ وَ لَمْ يُنَازِعْ[١].

اللُّغَة:

انْحَسَرَتِ: انْقطعَت، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَاتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[١] أي مُنقطعاً عن النَّفقة. مَسَاغاً: طَرِيقاً. والمَلَكُوت: الْعِزَّة، والسُّلْطَان، والمَلَكَة العَظِيمة.

---

(١) الإِسْرَاء: ٢٩.

الإِعْرَاب:

أَحَقُّ بَدلٌ من الْحَقِّ.

الْمَعْنَىٰ:

(لْحَمْدُ للهِ الَّذِي ٱنْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَ رَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ) تُعرف الأجْسَام، وتُدرك بأوصَافها، وأوضَاعها الّتي تُحس كاللّون، والحَجم، والله سُبْحَانَهُ لَيْس بِجسمٍ... وغَيْر الأَجْسَام تُدرك بشيء مُساوٍ لهَا فِي الكُنْهِ، أو الصِّفَات، والله سُبْحَانَهُ لا يُساويه شَيء، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في ذَاتهِ، ولا صِفَاته (فَلَمْ تَجِدْ ـ الْعُقُول ـ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ) حَيْث لاَ بدَايَة، ولا نهَايَة لعزته، وجَلاله، وهُو القَادر فَوق عِبَادِه.

(هُوَ اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَ أَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ الْعُيُونُ) لِأَنَّهَا لا تَرَىٰ كلّ شَيء، وقَد تُبصر الشَّيء علىٰ غَيْر حَقِيقَته، ومَا مِن شَيء فِي الأَرْض، والسَّماء إلّا يَدل علىٰ عَظَمَته، ويُسبّح بِحمده... حَتَّىٰ الجَاحد المُلحد تَهزّه عَظمة الكَوْن، وتُبهرهُ قَوَانِين الطَّبيعَة (لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا) تُدرك الْعُقُول الْأَشْيَاء الّتي لهَا حدُود تَنْتَهِي إِلَيْهَا، وتَقف عندها، ولا حَدّ لذات الله، وصفَاته، وهُو مَبدأ الوجُود لكلّ شَيء سِواه، وإِلَيْهِ يَنتهي كلّ مَوجُود، ولو أَدركتهُ الْعُقُول لكَان مَحْدُوداً كَغيره مِن المـوجُودَات في بِدايتها ونهايتها.

(وَ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا). الْأَوْهَامُ: جَمع وَهْمٌ، وهو الظَّن، وأَقصىٰ مَا يَبلغ إِلَيْهِ الظَّن أَنْ يُصوره تَعَالىٰ، ويُقدره بشيء مَحدُود، ومُتناهٍ كسَائِر

الْأَشْيَاء، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ الظَّن لو أدرَك ذَاته تَعَالىٰ لكَان لهُ شَبيه، ومَثِيل: والله سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ) سَابق حَيْث كَان سُبْحَانَهُ، ولَم يَكن معهُ شيء (وَ لاٰ مَشُورَةِ مُشِيرٍ) لأنّه في غنىً عن كل شيء، ولا غنىً لشيء عَنْه، ونفس الشيء يُقَال في تَفْسِير (وَ لاٰ مَعُونَةِ مُعِينٍ) كَيْف، ومنهُ كلّ قُوّة، ومعُونة؟ (فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ). خَلق كلّ شيء عَلىٰ أَتم وَجه، وأكمله بكَلِمَة «كُنْ». (وَ أَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ) مَا مِن شيء في ٱلسَّمَاوَات، والأَرْض إلّا وهو مُسخر لإرَادته (فَأَجَابَ وَ لَمْ يُدَافِعْ، وَ ٱنْقَادَ وَ لَمْ يُنَازِعْ). عَطف تَفْسِير. وبأي شَيء تدفع مَن لهُ جنُود ٱلسَّمَاوَات، والأَرْض؟.

الْخَفَافِيش...فِقْرَة ٢ ـ ٤:

وَ مِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَ عَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَ يَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَ كَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَ تَتَّصِلُ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا. وَ رَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَ أَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ٱئْتِلاَقِهَا[٢]، فَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَىٰ حِدَاقِهَا، وَ جَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي ٱلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاٰ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَ لاٰ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَ بَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَ دَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَ تَبَلَّغَتْ بِمَا ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا[٣]. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَ مَعَاشاً،

وَ النَّهَارَ سَكَناً وَ قَرَاراً ! وَ جَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطَّيَرَانِ ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ ، وَ لاَ قَصَبٍ ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً . لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا ، وَ لَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ . تَطِيرُ وَ وَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا لاَجِئٌ إِلَيْهَا ، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ ، وَ يَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ ، وَ يَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ ، وَ يَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ ، وَ مَصَالِحَ نَفْسِهِ . فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ(٤) !

اللُّغَة:

الْخَفَافِيش : جَمع خُفّاشٌ ، وهُو الوَطوَاط طَائر صَغِير يَطِير ليلاً لا نَهاراً .
ويَقْبِضُهَا : يُمْسِكُهَا عن الطَّيَرَان . ويَبْسُطُهَا : يُطْلِقهَا . وعَشِيَتْ أَعْيُنُهَا : ضَعُفَت عَن الرُّؤيَة . وسُبُحَاتِ الإِشْرَاقِ : أَمَاكِنه . وَأَكَنَّهَا : سَتَرَها . والبُلَج : الإِشْرَاق .
والائتِلاَقِ : اللَّمعَان . ومُسْدَلَةٌ : مُرْسَلَة . وإِسْدَافُ اللَّيْل : أَظلَم . والدُجُنَّة : الظُّلمة . والوِجَارِ : الجُحْر . ومَآقِيهَا : أَطْرَاف عِيُونها . والشَّظَايَا : القَطع .
والأَعْلاَم : جَمع عَلم ، وهُو الرَّسم ، والرَّقم .

الإِعْرَاب:

مِنْ لَطَائِفِ خَبَرٌ مُقَدَّم أَرَانَا مُبْتَدَأ مُؤَخَّر ، وَكَيْفَ فِي مَوضع الحَال ، وَجَاعِلَةٌ عَطف عَلىٰ مُسْدَلَةٌ ، وغَيْرَ غَيْرَ ذَوَاتِ حَال من الهَاء فِي «كَأَنَّهَا» .

ٱلأَدِلَّة عَلَىٰ وُجُودِهِ تَعَالَىٰ:

إِنَّ كَثِيراً مِن الفَلاسفَة يَرْجِعُون ٱلأَدِلَّة عَلىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ إِلىٰ خَمسَة :

الاِستدلاَل بمفهُوم الوَاجب، والمُمكن، والعِلّة الفَاعلة، والحَركة، والكَمَال المُطلق، والتَّدبير.

وَقَالَ آخرون، ومِنهُم الفَارابي، وآبن سِينا[١]، والمُلا صَدرا، قَالُوا: إنّ الأدِلَّة عَلَىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ تَرجع إِلىٰ دَلِيلين:

الأَوّل: النَّظر فِي نفس الوجُود بِمَا هُو مِن دُونَ آعتبارٍ للكَون، ومَا فيهِ من حَركة وتَغير، وصُنعٍ، ونَظام... إنّ النَّظر فِي الوجُود وحدَه يُؤدي حَتماً ومباشرةً إِلىٰ الاِعتراف بوجُود الله، وإِلىٰ هَذَا أشَار الإِمَامعليه‌السلام فِي مُناجاته: «يَا مَنْ دَلَّ عَلَىٰ ذَاتِهِ بذَاتِهِ»[٢]. وَقَالَ ولده الإِمَام سيّد الشُّهداءعليه‌السلام «مَتَىٰ غِبْتَ حَتَّىٰ تحتَاج إِلَىٰ دَلِيل يَدلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَىٰ بَعُدَتَ حَتَّىٰ تَكُون الآثَار هِي الَّتِي تُوصل إِلَيْك»[٣]. وبهَذَا فَسّر العَارفون باللهِ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٤].

ويَرجع هَذَا الدَّلِيل إِلىٰ مفهُوم الوَاجب، والمُمكن، وبيانه أنّ الفِكرة لا تكُون صَحِيحة إلّا إذَا آستندت إِلىٰ الأولِيات، والبَدِيهيات مُباشرة، أو آنتهت إِلَيْهَا

---

(١) أبو عليّ بن سِينا (٣٨٤ ـ ٤٢٧ هـ) ولد في أفشنة قرب بخارىٰ وتوفّي في هَمَذان، عُرِف بالشّيخ الرّئيس، وكَانَ عالماً لاَمعاً وعملاقاً كبيراً حَيْث ضرب في كلّ فنٍ بسهم في نبوغه، ففي مضمار الفَلسفة فيلسوف مُبدع، بلغت الفَلسفة المشائية علىٰ يده القمة، وفي مضمار الطّب طبيب حاذق وماهر، ألف كتاب «القانون» الّذي لم يزل يُدَّرس في الجامعات العلمية عبر قرون، كما وإنّه عُرف أُستاذاً لاَمعاً في الرّياضيات والهيئة. أُنظر، تَاريخ حكماء الإسلام للبيهقي، وتَاريخ الحكماء للشهرستاني، وتَاريخ فلاسفة الإسلام: ٥٢، الخالدون: ١٠١.

(٢) أُنظر، توحيد الشّيخ الصَّدوق: ٣٥، أمَالي المُفيد: ٢٥٤، حَاشية زاد المَعَاد للمجلسي: ٦٧.

(٣) أُنظر، بحَار الأَنْوَار: ١٤٢/٦٤، صحِيفة الحُسَيْن للفيومي: ٢١٤، شَرح أُصول الكَافِي: ٨٨/٢.

(٤) فُصِّلَتْ: ٥٣.

بواسطة، أو أَكْثَر، وأَوَّل البَدِيهِيات أنّ النَّقِيضِين لا يَجْتَمِعَان فِي وَقتٍ مَعاً، فالشَّيء الوَاحد لا يَكُون حقّاً، وبَاطلاً، وموجُوداً، ومعدُوماً فِي وقتٍ واحد، ومن جِهة وَاحدَة.

ووَجه المُلازمة: لقَد شَاهدنا بالعِيان أشيَاء تَفتقر في وجُودها إلىٰ غَيْرِها، ولاَ تَحمل في طَبِيعتها سَبب وجُودها، وإذاً فلاَ بُدّ مِن وجُود عِلَّة أُولىٰ تَحمل فِي طَبِيعتها السَّبب المُوجب لوجُودها، ولا تَحتاج إلىٰ غَيْرِها، ومن أنْكَر هَذِه الْعِلَّة الّتي لا عِلَّة لهَا فقَد أنْكَر وجُود الأَشْيَاء الّتي يَراها بالعِيان، ومَعْنَىٰ هَذَا فِي وَاقعِهِ أنّه آمن بإجْتَمَاع النَّقِيضِين، وَقَالَ: أنّ الشَّيء الوَاحد موجُودٌ، ومعدُوم فِي آنٍ واحد مِن حِيث يُرِيد أو لا يُرِيد، وبكلاَم آخر أنّه فِي حَال عَدم وجُود عِلَّة غَيْر مَعلُولة لشّيء يَنتَفِي الوجُود من الأَسَاس بشَتَّىٰ صورِهِ، وأشكاله تَماماً كَما لو نَفينا وجُود مُخترع الكهربَاء، والسِّيارة... فإنّ معناه أنّه لا كَهربَاء، ولا سِيارة، أو أنّهما وِجدَا مِن غَيْر قَصدٍ، وفَاعِل، وهُو خِلاف الوَاقع.

وَمرّة ثَانِيَة نُشِير إلىٰ أنّ هَذَا الدَّلِيل يَجب أنْ يُفهم فِي نِطَاق الوجُود بِمَا هو وجُود، وأنّه يَشهد بوجُود الله بصرف النَّظر عن الخَلقِ، والآثَار، ونظَام الكَوْن وجَلاله[1].

الدَّلِيل الثَّانِي عَلَىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ: يَرجع إلىٰ ضَرُورة الْعِلَّة الفَاعلة بأُسلوب آخر، وهو الإِستدلال بالخَلق، والآثَار علىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ. فَنَنتقل من المَعلول إلىٰ

(١) أنظر، المُوسُوعة الفلسفِية للدّكتور عبدالرّحمن بَدوِيّ. فلسفتنا للشَّهيد والمُفكّر الإسْلاَمِي الْكَبِير، والمَرْجع الدِّيني المظلُوم السَّيِّد مُحَمّد بَاقر الصَّدر. مَعَالِم الفَلسفة الإسْلاَمِيّة للشَيخ مُحَمّد جَواد مُغنِية. الايدولوجية المُقارنة للشَّيخ مُحَمّد تَقِي مصباح اليَزدي. بِداية الْحِكْمَة للسَّيد مُحمّد حُسين الطَّباطبائِي. الله يَتجلىٰ فِي عصر العِلم لـ «جون كلوفر مونسما».

الْعِلَّة ، من فَاعِل إِلىٰ الفِعْل عَلىٰ العَكس من الدَّلِيل السَّابق الَّذي يَنقلنا من الْعِلَّة إِلىٰ المعلول ، ومن فَاعلٍ إِلىٰ الفِعْل ، قَالَ ٱبن سِينا : «إِنْ ٱعـتبرت عَـالم الخَـلق فـأَنْتَ صَاعد ، وإِنْ ٱعتبرت عَالم الوجُود المَحض فأَنْتَ نَازل»[1] . أي مِن الْعِلَّة العُليا إِلىٰ المعلول الأدنىٰ ، أمّا الصّعُود فمن المَعلول الأدنىٰ إِلىٰ الْعِلَّة العُليا ، ويُسمىٰ هَذَا الدَّلِيل بالدَّلِيل الكَوْنِي[2] .

وقد أشَار سُبْحَانَهُ إِلىٰ هَذَا الدَّلِيل بـقَوْله : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3] . نَرىٰ أنقَاض مَدِينة مُندرسة ، فنقُول : كَـانَتْ آهـلة بـالأُمَم المَـاضِية ، والأجْـيَال الخَالِية .. وهَكذا نَستدل ببدَائع الكَوْن عَلىٰ وجود المُبدع ، وبنظامه عـلىٰ وجُـود المُنظم ، وإِلّا فمن الَّذي أوجد الكَوْن ومَا فيهِ من خصَائِص ؟ هل أوجد نَفْسه بنَفْسِه ، أو أوجدته الطَّبِيعَة الصَّمَّاء ، أو الصِّدفة ؟ ولمَاذا لا نَترك نَحْنُ أُمورنا للصِّدفة مَا دَام هَذَا الكَوْن العَجِيب ؟ وإِذَنْ فَلا بُدّ من وجُود قُوَّة عُليا مُغايرة لكلِّ مَا في الكَوْن هِي الّتي خَلقت ونَظمت . وقد ٱستدل الإِمَام لإثبات هَذِه الْقُوَّة بأضـعف المَخـلوقات ، وَهِي الخَفَافِيش ، فقَال : (وَ مِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ ، وَ عَجَائِبِ خِـلْقَتِهِ ، مَـا أَرَانَـا مِـنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِيشِ) لِلخُفّاش عَينٌ تُبصر ، وتَرىٰ كغيره من الطُّيُور

(١) أنظر ، القانون : ٢٦٧/١ ، وأوّل الإشارات .

(٢) أنظر ، الرسـائل التسـع للـمحقق الحـلي : ١٦٧ ، البـحر الرائـق : ٤٩٧/٣ ، العـناوين الفـقهية : ٣٣٩/٢ ، المُوسُوعة الفَلسفِية للدّكتور عبدالرّحمن بَدَوِيّ ، فلسفتنا للشَّهيد مُحمّد بَاقر الصَّدر ، مَعَالِم الفَلسفَة الإسْلاَمّيَة للشّيخ مُحَمّد جَواد مُغنية ، بِداية ٱلحِكْمَة للسَّيد مُحمّد حُسين الطَّباطبائِي ، الله يَتجلىٰ في عصر العِلم («جون كلوفر مونسما» .

(٣) فُصِّلَتْ : ٥٣ .

وٱلحَيَوَانات، ولكن عَين الخُفَّاش لا تُؤَدِّي وظيفتها إلّا عِند غِياب الشَّمس، وإذَا حاولنا البَحْث عن التَّعلِيل، وٱلحِكْمَة هٰذا فلا نَصل إلىٰ شيء، لأنّ حِكمته تعَالىٰ لا تَعرف الحُدُود.. حَتَّىٰ يَتعرف صَراحة بأنّ ذَلِكَ من غُوامض حُكمه، عزّ جلّ... ولو قَرأنا، أو سَمعنا أنّ طَائراً لا يُبصر إلّا بَعد ذِهاب النَّهار ـ لقلنا أُسطورة، وخُرافة لَوْلاَ الحِس، والعَيان... وإنْ دَلَ هَذَا الفَرق بَيْنَ الخُفَّاش، وغَيْره عَلىٰ شيء فإنَّه يَدل علىٰ أنّ وَرَاءهُ قُوَّة باعدت بَيْنَ المُتقاربِيْنَ، وقَاربَت بَيْنَ المُتباعدِين وإلّا فلا يَسع العَقْل أنْ يُفرق بَيْنَ عَين وعَين: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(وَ جَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطَّيَرَانِ... إلخ) كلّ الطُّيُور تَطِير بجنَاحِين مِن رِيش إلّا الخُفّاش فإنَّه يَطِير بجنَاحِين مِن لَحم مَرن «كَالكُوتشُوك» فَمَا هُو السّر؟ ولمَاذا لا تكُون الأجْنِحَة كلّها مَن نَوْعٍ واحد لحَماً، أو رِيشاً، أو هُما مَعاً؟ وهَل القَصد مُجرد إظهَار الْقُدْرَة الدَّالة علىٰ وُجُودِه تَعَالىٰ وعَظَمَته؟.. والله أَعلم... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً (تَطِيرُ وَ وَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا لاَجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَ يَرْتَفِعُ إِذَا ٱرْتَفَعَتْ... إلخ) فِي كتاب ٱلْحَيَوَان للجَاحظ: «إِنَّهَا تَحبل، وتَلد، وتَحيض، وتَرضع... ويَبلغ من ضِمن أُنثىٰ الْخَفَافِيش بولدها ومن خَوْفها عَلَيْهِ أَنَّهَا تَحمله تَحت جناحها، ورُبَّمَا قَبضت عَلَيْهِ بفمها، ورُبَّمَا أرْضعته، وَهِي تطير»[2]. وفي كِتاب أضواء علىٰ الأَرْض، والفَضَاء: «يُوجد فِي

(١) ٱلرَّعْد: ٤.

(٢) أُنظر، كتاب ٱلحَيَوَان: ٢/ ٢٤ وما بعدها.

القَارة الجنُوبِية نَوْع من الطُّيُورِ يُسمىٰ «البَانجُوِين» تَضع الأُنْثىٰ بَيضها فِي أشهُر الشِّتاء حيثُ تَتلبد الثّلوج فِي الأَرْض، تَضعه فِي جَيب جِلدي فِي رِجلها، وتَبقىٰ الصِّغار فِيه حَتَّىٰ تَقوىٰ، وتَشتد»[1]. وفِي خَلقه تَعَالىٰ عَجائب لا تُدركها الْعُقُول.

(فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ). أَظهر لطَائِف صنعه، وعَجائِب حِكمته من غَيْر مِثال سَبق، كَيْفَ وهُو الأَوَّل، والأَزْل؟ خَلق كلّ شيء، ولَم يَكن مَذكُوراً.

(١) أُنظر، كِتاب أَضواء عَلىٰ الأَرْض والسَّماء: ٢٥١، أُخذ بالوَاسطة.

الخطبة

-١٥٦-

الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ... فِقْرَة ١ ـ ٣:

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ اللهِ، عَزَّ وَ جَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَ إِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَ مَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

وَ أَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَ ضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَ لَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَ لَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَىٰ، وَ الْحِسَابُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ[١].

سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحَاتِ، وَ بِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَ بِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَ بِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَ بِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَ بِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَ بِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، ﴿وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١]. وَ إِنَّ الْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا

---

(١) الشُّعَرَاء: ٩١.

إِلَىٰ الْغَايَةِ الْقُصْوَىٰ[٢].

قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَ صَارُوا إِلَىٰ مَصَايِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا لاٰ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا، وَ لاٰ يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَ إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُـلُقِ اللهِ سُـبْحَانَهُ، وَ إِنَّهُمَا لاٰ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَ لاٰ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، ﴿فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ وَ النُّورُ الْمُبِينُ﴾[١]، وَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَ الرِّيُّ النَّاقِعُ، وَ الْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَ النَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لاٰ يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَ لاٰ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، ﴿وَ لاٰ تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ﴾[٢]، وَ وُلُوجُ السَّمْعِ. ﴿مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَ مَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ﴾[٣][٢].

اللُّغَة:

يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَن كَذا: يُمسكهَا عنهُ، وعَلىٰ كَذا: يحبسها عَلَيْهِ دُونَ سِواه.

وَالضِّغْن: الحِقد. والمِرْجَل: الْقَدَر. الْقَيْن: الحداد. ولأَبْلَجُ: المُـشرق المُـضيء. الْمِنْهَاجِ: الطَّرِيق الوَاضح. وتُزَلَّفُ: تُقَّرب. ولِلْغَاوِينَ: للضَّالِين.

ولاٰ مَقْصَرَ ـ بسكُون القَاف ـ لا مَفَرَّ، قِيل: لا مُسْتَقَرَّ. ومُـرْقِلِينَ: مُـسْرِعِين. والأَجْدَاثِ: الْقُبُور. ونَـقعُ الْمَـاء العَـطش: سكّـنة، وقَـطّعه. لا يَـزِيغُ: لا يَمِـيل. فَيُسْتَعْتَبَ: يَطلب الرِّضا، يُقَال: ٱسْتَعتبتُه فأعتَبنِي أي ٱسْترضِيتُه فأرْضَانِي.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من أَنْ يَعْتَقِلَ مَفْعُول ٱسْتَطَاعَ، ولَمْ تَفْعَلْ جُواب لَوْ دُعِـيَتْ، وَلَهَـا بَـعْدُ

(١) أنظر، الحِكَم المُختَارة: (١٥٤).

(٢) أُنظر، الْمَصْدَر السَّابق، الْمُعْجم الْكَبِير: ٢٠/٨٥، الدُّر المنثور: ٦/٣٣٧.

(٣) أُنظر، المصادر السَّابقة.

حُرْمَتُهَا «لهَا» خَبَرَ مُقَدَّم، وحُرْمَتُهَا مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وبَعْدُ مُتَعَلِّق بِمَا تَعْلَق الْخَبَر، والأصل بَعْدُ ذَلِكَ، وسَبِيلٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذُوف دَلّ عَليهِ سِياق الكلاَم أي الإيمَان سَبِيلٌ أَبْلَجُ، وعَلَيْكُمْ بكتاب الله «عَلَيْكُمْ» اسم فِعل أي استمسكُوا بكتاب الله.

الْمَعْنَىٰ:

(فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ اللهِ، عَزَّ وَ جَلَّ، فَلْيَفْعَلْ). يَدل السِّياق عَلَىٰ أنّ الإمَام كَان يَتحدث عمّا سَيكُون مِن الْفِتَن، ثُمّ أوصىٰ من يُدركها أنْ يَكف ويَحرز عن الخَطَأ، والْخَطِيئَة مَا أمكن (فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَ إِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَ مَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ). عَلىٰ المُرشد أنْ يَهدي قَومه سَبِيل النَّجاة: وعَلَيْهِمْ أنْ يَسمعُوا لهُ، ويَطِيعوا، ومن قَصر في مُهمته أُخذ بجُرمِهِ، وجَريرته هَادياً كانَ أم مَقصوداً بالهَدِية، وفِي الغَالِب يَكُون التَّقْصِير من الثَّانِي، لأنّ الْحَقّ صَعبٌ، وثَقِيل، وقَد ضمن الإمَام حُسن الْعَاقِبَة لِمن سَمع منهُ وأَطَاع.

(وَ أَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَ ضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ). الْمُرَاد بفُلَانَة عَائِشَة، وَالضِّغْن الحِقد... وتَكلَّم النَّاس قَدِيماً، وحَدِيثاً عمّا كَانَتْ تَكنه عَائِشَةَ لِعليٍّ من الكرَاهِية، تَكلموا، وأطَالوا الكلاَم، وذَكر ابن أَبِي الْحَدِيد الكَثِير من أَسْبَاب هَذَا الضِّغْن نَقلها ـ وهُو يَشرح هَذِه الْخُطْبَة ـ عَن الشَّيخ أَبِي يَعقوب يُوسُف اللَّمعانِي، ولَم يَكن هَذَا الشَّيخ يَتشِيع عَلىٰ حَدّ ما قَاله ابن أَبِي الْحَدِيد[1].

(١) أنظر، شَرح نَهج الْبَلاَغَة: ١٩٢/٩، وما بعدها. والشَيخ اللَّمعَاني هـو شـيخ ابـن أبي الْحَـدِيد، ولمـزيد الإطِّلاع راجع بحَار الأَنْوَار: ٢٣٦/٢٢.

وأهم هَذِه الأَسْبَاب، أو من أَهمها أنّ نَسل رَسُول اللهﷺ مِن عَليٍّ، وفَاطِمَة لا من عَائِشَةَ، وإِنَّهَا كَانَتْ تَأمل أنْ تكون ٱلخِلاَفَة بَعد مقتل عُثْمَانَ لِابْن عمّها طَـلْحَة لا لِعليٍّ، وأنّ النَّبِيّ قَالَ فِي ٱبنته فَاطِمَة: إِنَّهَا سيّدة نِسَآءَ العَالمِين، وعَدِيلة مَـرْيَمَ، ولَم يقل ذَلِكَ فِي عَائِشَةَ، بل قَالَ لنسَائه: «أَيتكُنَّ صَـاحِبَة الجَـمَل الأدبب»[1]، يُـقتل حولها خَلق كَثِير، وإنّ النَّبِيّ سَدّ بَاب أَبِيها إِلىٰ ٱلْمَسْجِدِ، وفَتح بَاب عـليّ، وبَـعث أباها ببَرَاءَة إِلىٰ مَكّة، ثُمّ عَزله بِعليٍّ[2].

(١) فقد روىٰ الحافظ أبو بَكْر البزار عن ٱبن عبّاس كما أخرجه ٱبن كثير في تَأريخه: ٢١٢/٦، والسّيوطي في خصائصه: ١٣٧/٢ قَالَ: قَالَ رسول الله، ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجَمَل الأديب، تسير حَتَّىٰ تنبحها كلاب الحُوْأب، ويُقتل عن يسارها وعن يمينها خلق كثير... ثمّ تنجو بعدما كادت؟ فضحكت عـائِشَة فَقَالَ لها: أُنظري يا حُميراء أنْ لا تكوني أنتَ، تقاتلين عَليّاً وأنتِ لهُ ظالمة.... وعَلّق ٱبن عبد البرّ علىٰ الحديث في الاِسْتِيعَاب عندما تُرجم لعَائِشَة قائلاً: وَهَذَا الحديث من أعلام نُبُوّته. وعصام ٱبن قُدَامَـة ـ أحد رواة الحديث ـ ثقة وسائر الأسناد أشهر من أنْ يَحْتَاج لذكره.

(٢) تَقَدَّمَت تخرِيجات هَذِه الأَحَادِيث.

لكن بَعد هَذَا كلّه يَبْقَىٰ سؤال يَطرح نفسه: لمَاذا رَجعت إِلىٰ بيتها وفِي نفسها ألف حـسرةٍ، ونـدامـةٍ وصدرها يَغلِيٰ عَلىٰ عَليّ بن أبي طالب ﷺ كالمِرجَل كمَا قَالَ هُو ﷺ في خُطْبَةِ فِي ٱلْبَصْرَةِ بعد حَرْب الجَمَل ـ كمَا ذكر ذَلِكَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد في شرح النهج: ٦٣/١ ـ وَ أَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَ ضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ،... وبقيت منطوية علىٰ غيظها عَلية مُدّة خِلاَفَته القَصِيرة حَتَّىٰ إِذَا جَاء نعيه سَجدت لله شكراً، وأظهرت السُّرُور كما ذكر أبو الفرج الاِصفهانِي في مقاتل الطَّالِبِين: ٤٣، ولكن في الطبعه الأُولىٰ في إيران مَطبعة أَمِير منشورات الشَّرِيف الرَّضِي شرح وتحقيق السَّيّد أحمد صقر ذكر في: ٥٥ قَالَ: لَمَّا أنْ جاء عَائِشَة قَتل عليّ ﷺ سَجدت... دُونَ ذِكر «لله شُكراً» وَهِي الّتِي تَمَثّلت بقول الشَّاعر:

فألقتْ عصَاها وٱستقرّ بها النّوىٰ ... كمَا قرّ عَـيناً بـالاِيَاب المُسَـافر

ثُمّ قَالت: مَن قَتله؟ فقِيل: رَجُل من مُراد، فقَالت:

فـإنْ يَكُ نَـائِياً فـلقد نَعاه ... غـلامٌ لَـيْسَ فِي فـيهِ التُّراب

أمّا قول الإمام: «فأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ» فهُوَ يُومِىء إلىٰ قول النَّبيّ ﷺ: في حَدِيث طَوِيل: «يَا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاء: مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ، وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إحْدَاكُنَّ. قُلْنَ لَهُ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا، وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ ٱلْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصفِ شَهَادَةُ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[1]. (وَ لَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ) أي أنّ الباعث علىٰ خرُوجها لحرْب الإمَام كَان شَخصِياً لا دِينِياً... وهل يَشك عَارف فِي أنّ طَلْحَةَ لو تولّىٰ ٱلخِلاَفَة بَعد مَقتل عُثْمَانَ لقرت في بَيْتِها؟. هَذَا، إذَا لَم تخرج لِحَرْب من طَالب بدَم عُثْمَانَ... وَقَالَ أَكْثَر من وَاحد: إنَّهَا نَدمت، وتابعت (وَ لَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَىٰ) لِأَنَّهَا زَوْجَة الرَّسول ﷺ، ولأجل عَينٍ ألفُ تُكرم (وَ الْحِسَابُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ) وفِي صَفحات التَّأريخ عَشرات الأمثلة من هَذَا النَّوْع، والعِصْمَة لأهلها. بَعْض النَّاس يُناقش، ويُجادل فِي تُوبة عَائِشَةَ، وطَلْحَةَ، والزُّبَيْر، وهَذَا لَغو، وعَبث، لأنّ الاِعْتِرَاف بالتَّوْبَة يُشكل الاِعْتِرَاف بالذَّنب.

⇐ فقَالت زينب ٱبنة أُم سلمة ـ رَبيبة رسول الله ﷺ ٱلعليّ تقولين هَذَا؟ فقالت: إنّي أنسىٰ، فإذَا نسيت فذكّروني. (أنظر، طَبقَات أبن سعد: ٣/ ٢٧، ٱبن الأثير: ٣/ ١٧١، والطبري: ٦/ ٨٧، تهذيب الكَمَال: ٢٤٩، ميزان الإعْتِدَال: ٢/ ٣٠١، أُسد الغَابَة: ٥/ ٤٦٨، كتاب الجَمَل للشّيخ المُفيد: ٨٤).

(١) تَقَدَّم أستخرَاجه، أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١/ ١٤٥ ح ٢٩٩، بَاب ٦ ترك الحائض الصّوم، طَبْعَة دار الفِكْر ـ بيروت ـ بأشراف مُحَمَّد بنيس (مِنْهُ ﷺ)، وفتح البَاري: ١/ ٤٠٦، تُحْفَة الطّالب: ١/ ٣٦٠، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٤/ ٢٥٦، بحَار الأَنْوَار: ١٠١/ ٣٠٦، إرواء الغليل لمُحَمَّد ناصر الألباني: ١/ ٢٠٤، صَحِيح مُسْلِم: ١/ ٦١، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٨/ ٣٢٠.

لاَ إيمَانَ بِلاَ عَمَلٍ:

(سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ). الْإِيمَان بِاللهِ، وكُتبه، ورُسله حَقّ، ونُور، ما فِي ذَلِكَ رَيب، ولكنْ إذَاكَان هو الطَّاقة الدَّافعة إلىٰ الْعَمَل بموجبه وإلّا كَانَ سُراباً وضُباباً بحُكم الْعَقْل، والنَّقل، وأشَار الْإِمَام إلىٰ دَلِيل الْعَقْل بقَوْله: (فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحَاتِ، وَ بِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الْإِيمَانِ). ولا يُمكن التَّسلِيم بهَذا الاِستدلال إلّا عَلىٰ أَساس المُلازمة الحَتمِية بَيْنَ وجُود الْإِيمَان ووجُود الْعَمَل بمُوجبه بحيث يَكُون أحدهُما عِلَّة للآخر، أو يَكُونان مَعلومِين لِعِلَّة ثَالثة، وعندها يَنقلنا العِلم بوجُود أحدهُما إلىٰ العِلم بوجُود الآخر.

أمّا النَّقل الدَّال علىٰ أنّه لا إيمَان بَلا عَمَلٍ فَكثِير، وصَرِيح، ومنهُ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَاتُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَاتَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. وهَذَا الحَصر يُؤكد أنّ الْإِيمَان المُجرد عَن الْعَمَل لا ثواب عَلَيْهِ، وإذَنْ فهُو هُواء، وهبَاء، وتُواترَ عَن النَّبِيّ، وأَهْل بَيْته عليهم السلام أنّ الْمَرْء مَرهون بِعَمَله، وإنّ عَمَله يُدفن، ويُحشر معه، وإنّه لا يُسأل إلّا عَنه... حَتَّىٰ ذَهب بَعْض الْعُلَمَاء إلىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ سَيخلق غَداً أعمَال ٱلإِنْسَان فِي صورة مُجسمة تُحس، وتُلمس، وٱستدل بقَوْله تَعَالىٰ: ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[3]. وقَوْله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ

---

(١) يس: ٥٤.

(٢) ٱلتَّحْرِيم: ٧.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٦٧.

عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[١]. وقَوْله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٢]. ونَحـنُ لا نَشك فِي أنّ المُرَاد بالْعَمَل هُنا جَزاؤه لا نَفْسه، وأيضاً لا نَشكّ أنّ مَا فِي الْجَنَّةِ مـن ثِمارٍ، وأنْهَار، وقُصور، ورِياش، وحـور، ووِلدَان، ومَـا فِي جَـهَنَّم مـن حَـرِيقٍ، ولَهِيب، وصَدِيد وقَطران، وزَقَوْم، وأشجَان، لا نَشك أَبَداً أنّ كلّ أولاء حَـصِيد، وثمار للأعْمَال. أجل ثَبت أنّ للنّوايَا الخَيِّرَة جزاءً كَرِيماً عِند الله. ولعَل السَّبب أَنَّهَا من الخُلق الحَسَن.

(وَ بِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ). الْمُرَاد بعُمْرَان العِلْم عمُوم مَنفعته، وخلُودها، وعَلَيْهِ يكُون الْمَعْنَىٰ أنّ من آمن بالله حقّاً، وصدقاً يَستعمل العِلم فِي البِنَاء، والتَّعمِير الَّذي يَنفع النَّاس جِيلاً بَعد جِيل، ولا يَستعملهُ فِي الهَدم، والْفَسَاد، وٱختراع الأسـلحة الجَهنمِية (وَ بِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ). العَالم الأصِيل هُو الَّـذي يَحس، ويَشـعر بأنّـه يَسِير بِخُطىٰ واسعة، وسَرِيعة إِلىٰ حُفرته، وإنّ وُجُودِه فِي هَذِه ٱلْحَيَاة إنْ هُو إلّا آثار أَقدام عَلىٰ رِمال، وإنّه لا بَقاء لشيء إلّا لمـا يَـتركه ٱلإِنْسَـان لمُجـتمعه مـن نَـفع، وعون... ومن وَدّع شَبابه كمَا وَدعته أنَـا فَـقد ٱخـتبر المَـوْت، وعَـاناه، ولكـن ٱلإِنْسَان يَنسىٰ حَتّىٰ الْأَشْيَاء الّتي جَربها بنَفْسِه.

(وَ بِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا) لأنّ «مَن مَات فَقَد قَامت قِيامته»[٣] (وَ بِالدُّنْيَا تُحْرَزُ

---

(١) ٱلفُرقَان: ٢٣.

(٢) فَاطِر: ١٠.

(٣) أُنظر، تفْسِير القُرطُبي: ١٨٨/١٩، تفْسِير الطبري: ١٧٤/٢٩، الفِردَوْس بمأثـور الخِـطَاب: ٢٨٥/١ ح ١١١٧، فيض القدير: ٤٦١/٣ و: ٣/٥، حلية الأوْليَاء: ٢٦٨/٦، كشف الخَـفَاء: ١٨٩/١ ح ٥٠٠ و: ٣٦٦/٢ ح ٢٦١٨.

ٱلآخِرَةُ) لأنّ تِلك مُطِية هٰذه، والْعَمَل الصَّالح وسِيلة لِسعَادة الغَد، وتَقَدَّم مَع الشَّرح المُفصل فِي ٱلْخُطْبَة ٢٩ (وَ بِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ وَ بُـرِّزَتِ ٱلْـجَحِيمُ لِـلْغَاوِينَ). لا سعادة لِلإِنْسَان، ولا شَقاء فِي هَذِه ٱلْحَيَاة، لِأَنَّهَا أحلاَمٍ، وظلال، فإذَا مَاتَ ٱنتبه، وٱنكشف الغطاء، وإنّه يَحيا إِلىٰ الأبَد إمّا فِي نَعيمٍ، وهنَاء، وإمّا فِي جَحيمٍ، وشقَاء (وَ إِنَّ الْخَلْقَ لاٰ مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَىٰ الْغَايَةِ الْـقُصْوَىٰ) لاَ مَفَرّ مِن الْحِسَاب، والْجَزَاء، فإنَّه الْغَايَة، والمَصِير، وإِلَيْهِ نُسرع، ونَسـير، شَعرنا ذَلِكَ أَم لَمْ نُشعر، والعَافِية لِمن نَفع، وأحسن.

(قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ). خَرجُوا، أو ذَهبوا مِن الْقُبُورِ (وَ صَارُوا إِلَىٰ مَصَايِرِ الْغَايَاتِ) وَهِي ٱلْقِيَامَة. ومن خُطْبَةٍ لِلإِمَامِ: «أَعِدُّوا لَـهُ ـ للـمَوْت ـ قَـبْلَ نُزُولِهِ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ»[1] (لِكُلِّ دَارٍ) من الْجَنَّةِ، والنَّارِ اللَّتين تَقَدَّم ذِكـرهما فِي قَوْله: «وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» (أَهْلُهَا لاٰ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا، وَ لاٰ يُنْقَلُونَ عَنْهَا). مِن سَبق إِلىٰ الْجَنَّةِ فإلىٰ الأبَد، مِلك دَائم، ونَعِيم قَـائم، ومَـن أُدخل النَّار فَهِيَ مَثواه ولا مُنقذ إلّا مَا شَاء الله.

(وَ إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُـلُقِ اللهِ سُـبْحَانَهُ). الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ هدَاية ورَحْمَة، ونَصِيحة ومَحَبَّة، ولذَا كَان مِن خَلق الله، وأَنْبِيَائه، وأَوْلِيائه. ولا شَكّ أنّ الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ جَائز حَتَّىٰ ولو أدىٰ إِلىٰ الْقَتْل بـدلِيل قَـوْله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَـقٍّ وَيَـقْتُلُونَ ٱلَّـذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]. حَيْث دَلت الآيَة عَلىٰ أنّ من

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٠).

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٢١.

قُتل مِن أجل الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ فهُو عَلىٰ سَبِيل النَّبِيّين. ولكن هل يَجب الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ مُطلقاً حَتَّىٰ مَع الضَّرر، أو ينتفِي الوجُوب مع هَذَا الْخَوْف؟ قَالَ أَكْثَر الْفُقَهَاء: لا يَجب مَع الْخَوْف عَلىٰ النَّفس، أو الْمَال، والأَهْل، وَقَالَ آخرُون: يَجب عَلىٰ كلِّ حَالٍ وبلا شَرط[1].

وفي رَأينا أنّ حُكم الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ يَختلف بإختلاف المُوارد، فإنْ كَان الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ من أَجل سَلامة الدِّين، أو الوَطن عَلىٰ وَجه العمُوم ـ وَجَبَ بلا قِيد، لأنّه في مثل هَذِه الحَال يكُون من الْجِهَاد الوَاجب وإلّا فلاَ يَجب مَع خَوْف الضَّرر كالنَّهي عن أَكل ٱلْمَيّتة، وشُرب المُتنجس، أمّا قول الإِمَام: (وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ) فهُو تَعرِيض بِمن يُشايع الطُّغاة، ويُسكن عن حُكام الجَوْر رَغْبَةً في نَفعة، أو خَوْفاً من مضرّة، وفِي الْحَدِيث: «أَفضل الْجِهَاد كَلِمَة حَقّ عند إِمَام جَائِر»[2].

(وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ). كلّ كِتَاب يُنسب إِلىٰ الله فهُو روايَة فُلاَن عن نَبِيٍّ مِن ٱلأَنْبِيَاء تَمَاماً كالأَحَادِيث النَّبَوِيَّة عِنْدَنَا إلّا الْقُرْآن فهُو من عند الله من أَلفِهِ إِلىٰ يَائِهِ، وإعْجَازه شَاهِد حَقٍّ، وعدلٍ، وقَد أَشَار الإِمَام فِيما يَلي إِلىٰ بَعضِ أوصَاف الْقُرْآن:

---

(١) أُنظر، مُنْتَهىٰ المطلب: ٢/٩٩٣، حاشية ردّ المحتار: ٦/٧٢٩، جواهر الكَلاَم: ٢١/٣٧٣، مستمسك الْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ: ١٤/٧٦، فِقْه الصَّادق للسّيد مُحَمَّد صادق الرّوحاني: ١٣/٢٥٠.

(٢) أُنظر، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٤/٥٥١ ح ٨٥٤٣، تَفْسِير مَجْمَع الْبَيَان: ٢/٢٦٣، سُنن أَبي داود: ٤/١٢٤ ح ٣٤٤٤، التهذيب: ٦/١٧٨، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١/٣٥٨ ح ١٤٤٨، سُنَن أبن ماجه: ٢/١٣٢٩ ح ٤٠١١، مُسْنَد الحميدي: ٢/٣٣١ ح ٧٥٢، مُسْنَد أَبي يعلىٰ: ٢/٣٥٣، شعب الإِيمَان: ٧/٥٢ ح ٩٤٢٤، الخِصَال: ٦٥، مُسْنَد الشهاب: ٢/٢٤٧ ح ١٢٨٦، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٤٧١ ح ٢١٧٤، مُسْنَد أحمد: ٣/١٩ ح ١١١٥٩.

١ ـ (إِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ) لا يَهلك مَن تمسك بِهِ.

٢ ـ (وَ النُّورُ الْمُبِينُ) تَستنير بِهِ الْقُلُوب، والْعُقُول.

٣ ـ (وَ الشِّفَاءُ) النَّافع من دَاء الجهَالة، والضَّلالة.

٤ ـ (وَ الرِّيُّ النَّاقِعُ) لِغلة المُتشكك، والمُتحير.

٥ ـ (وَ الْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَ النَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ الْحَبْل الْمَتِين.

٦ ـ (لاٰ يَعْوَجُّ فَيُقَامَ) كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[1].

٧ ـ (وَ لاٰ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ) لا يَمِيل عَن الْحَقّ كِي يُطلب منهُ الرُّجُوع إِلَيْهِ.

٨ ـ (وَ لاٰ تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَ وُلُوجُ السَّمْعِ) بل كُلّمَا تَكرَّرت آيَاته وقعت مَوقع السّحر فِي الْقُلُوب، وعَلىٰ الآذان. وهَذَا مِن خصَائِص الْقُرْآن الّتي لا يُشاركه فِيها أي تَركِيب، وكلاَم.

٩ ـ (مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ) لأنّه لا يَنطق عن هَوىٰ، وجَهل.

١٠ ـ (وَ مَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ) لأنّه صِراط الله الْمُستَقِيم لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

وبالمُناسبة أنّ أَهْل السِّير والتَّأرِيخ قَالُوا: كَان أبو جَهل، وأبو سُفْيَانَ، والأخنس ٱبن شُريك أَلد أَعْدَاء النَّبِيّ ﷺ، ومع هَذَا كَانوا يَتسللون فِي ٱللَّيْل فُرادىٰ إِلىٰ جِدَار بالقُرب من بَيْت النَّبِيّ ﷺ، لِيستمعُوا إِلَيْهِ وهو يَتلو الْقُرْآن. وكَان كلّ منهُم يَظن أنّه وحدَه يَأْتِي، ويَستمع... وفِي لَيْلَة حَدثت المُفاجأة، وٱلتقىٰ

---

(١) ٱلكَهف: ١.

الثّلاَثة وَجهاً لوجه، وتَمَّ القَبض بالجُرم المَشهُود، وتَبادلوا الإتهَام... ثُمّ اتفقوا عَلىٰ الكِتْمان، وإنْ لا يَعُودوا مَرّة ثَانِيَة، لأنّ سماع الـقُرآن يُـؤدي بِهِـمْ إلىٰ الإيمَـان بِـهِ، وبمُحَمّد، وهَذا مَا يَأبُونَه، ويُقاومُونه[1].

أَينَ الْفِتْنَة، وَالرِّدَّة..فِقْرَة ٤ ـ ٥:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2] عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا وَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ حِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»؟[4] فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَ لَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ وَ الشُّكْرِ. وَ قَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَ يَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَ يَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَ يَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَ يَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَ الْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَ السُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَ الرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ»[5].

---

(١) أنظر، تفسير ابن كثير: ٢/١٣٤، القُرآن وإعجازه العلمي لمُحمّد إسْماعيل إبْراهيم: ٢١.

(٢) العَنكَبُوتِ: ١ ـ ٢.

اللُّغَة:

حِيزَتْ عَنِّي: أُمِيلت عَنِّي: قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[1]. أي مَائِلاً إِلَيْهَا.

الإِعْرَاب:

حَسِبَ تَحتاج إِلىٰ مَفْعُولين، والْمَصْدَر مِن أَن يُتْرَكُوٓاْ سَاد مَسدهُما، والْمَصْدَر من أَن يَقُولُوٓاْ بَدل من مَصْدَر أَن يُتْرَكُوٓاْ. وجُملة عَلِمْتُ خَبَر أَنّه. وكَيْفَ فِي موضع الحَال.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: قَالَ رَجُل لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: أخبرنَا عن الْفِتْنَة، وهل سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْهَا؟ فَقَالَ: (إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾). ومَعْنَىٰ الآيَة أَنّ مَن يَدعِي الإِسْلاَم ويَحمل هوِيته فهُو مُسْلِم بالاِسم إلّا إذَا أهتم بأُمور النَّاس، وشَاركهُم فِي السَّراء والضَّراء... ويَدل عَلىٰ إِرَادَة هَذَا الْمَعْنَىٰ قول النَّبِيّ ﷺ: «مَن لَم يَهتم بأُمُور ٱلْمُسْلِمِين فَلَيْسَ منهُم[2]... الدِّين النَّصِيحة... قَالُوا: لِمن يَا رَسُول الله؟. قَالَ: لله ولرَّسُوله، ولأَئمّة ٱلْمُسْلِمِين، وعَامتهم»[3]. ولَيْسَ مِن شَكٍ أَنّ سُنة الرَّسول شَرح،

(١) ٱلأَنفال: ١٦.

(٢) وَسَائِل الشِّيعة: ٣٣٦/١٦ ح (٢١٧٠٠) ١، تَأرِيخ مدينة دمشق: ٢٠٧/٢١، الإِمَام جَعفر الصَّادق لعبدالحليم الجُنْدي: ٣٢٣.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٣٠/١ ح ٥٦، صَحِيح أبن حبّان: ٤٣٥/١٠ ح ٤٥٧٤، سُنن التِّرمِذي: ⇔

وبيان لكتاب الله. والمُرَاد بِٱلْمُسْلِمِين هُنا النَّاس عَلىٰ وَجه العمُوم، وإنّما خَصّ النَّبِيّ ﷺ ٱلْمُسْلِمِين بالذِّكر لأنّهم المُخاطبُون بالحَدِيث، ولأنّ الإِسْلاَم كَانَ آنذاك هو الغَالب فِي المُجتمعات.

(عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لاٰ تَنْزِلُ بِنَا وَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا؟). وقد آستوحىٰ الإِمَام عِلمه ذَلِكَ مِن إِخْبَار الرَّسول ﷺ بأنّ الدُّنْيَا من بَعْدَه سَتُقبِل عَلىٰ أُمتّه، ويَغرقُون فِي زِينتها إِلىٰ الآذان، ومن جُملة مَا قَاله النَّبِيّ ﷺ، فِي ذَلِكَ مَا نقله الإِمَام عنهُ فِي هذه ٱلخُطبَة بالذَّات، وهو قَوْله: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ»[1]. ولَيْسَ مِن شَكّ أنّ ٱلإِنْسَان كلّما أَسرف فِي المَاديَات آزداد بُعداً عن الرّوحِيات: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[2] (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي) أي أنّ الله سُبْحَانَهُ يَفتح عَلَيْهِمْ أبواب المَال والسُّطان، فِيتمتعُون، ويَتلهُون عن ذِكر الله، وطَاعته، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3]. وَقَالَ الإِمَام فِي تَفْسِير هَذِه الآيَة: إِنّ الله يَختبرهُم بالأَمْوَال، والأَوْلاَد لتظهر الأفْعَال الّتي يُستحق بِها الثّوَاب، والعِقَاب.

← ٣٢٤/٤ ح ١٩٢٦، سُنَن الدَّارمي: ٤٠٢/٢ ح ٢٧٥٤، مُسْنَد أحمد: ٣٥١/١ ح ٣٢٨١، مُسْنَد الشَّافعي: ٢٣٣/١، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٢٧/٨، صَحِيح مُسْلِم: ٧٤/١ ح ٥٥.

(١) أُنظر، وَسَائِل الشّيعة: ١٦٣/١٨ ح ٢٣٣٩٤، بِحَار الأَنْوَار: ٣٤١/٣٢.

(٢) ٱلْعَلَق: ٦.

(٣) ٱلأَنفَال: ٢٨.

(فَقُلْتُ : يَا رَسُولُ اللهِ ، أَ وَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَ حِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ ، فَقُلْتَ لِي : «أَبْشِرْ ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ »؟) . كَان الإِمَام يَتمنىٰ الشَّهَادَة فِي سَبِيل الله ، ويَبتهلُ إِلَيْهِ تَعَالىٰ أنْ يُعجلها لهُ ، فَبشره بِها النَّبِيّ ﷺ ، ولمّا طَال أمدُها طَالب الرَّسُول بالْوَعْد . فَقَالَ لهُ : وعدتُك الشَّهَادَة ، ولَم أُحدد الوَقت ، ولا بُدّ أنْ تُضرب عَلىٰ هَـذِه فَتخضب هَذِه[1] (فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً ؟) ؟ فأجَابه الإِمَام بقَوْله : (لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ، وَ لَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ ، وَ الشُّكْرِ) . إنّ حُبَّ ٱلْحَيَاة وكَرَاهِية الْمَوْت طَبِيعَة وغَرِيزَة فِي ٱلإِنْسَان ، وٱلْحَيَوَان . ومن أجلِ هَذَا فكّر بَعْض الحمقىٰ أنْ يَخترع دواء يُميت بِهِ الْمَوْت ، ويَلغِيه من الوجُود ... كَما دَفع حُبّ ٱلْحَيَاة بآخرين إِلىٰ إنْكَار وجُود الْمَوْت من الأَسَاس ، ومن هَؤُلاَءِ أبيقور ... وصَدق من قَالَ[2] :

إنّ بَعْض الحُبّ يُعمي ويُصم ... وكَذَلِكَ البُغض أدهىٰ ، وأطم

حَتَّىٰ عن الأَشْيَاء الّتي يُدركها الأَعْمَىٰ ، والأصم ، إنْ صَحّ هَذَا التَّعبِير .

وٱلْحَيَاة عِند الإِمَام وسِيلة لا غَايَة ، والْغَايَة العُظمىٰ الّتي تُقصر الأَفْهَام عن

(١) تَقَدّم إستخراج ذَلِكَ ، وأنظر ، البداية والنّهاية : ٦/ ٢١٨ ، و: ٧/ ٣٥٨ ، مَجْمَع الزّوائد : ٩/ ١٣٧ ، والحَاكِم في المُسْتَدرَك : ٣/ ١١٣ و ١٤٣ ، ٱلْفَتح الرّبَاني : ٢٣/ ١٦٣ ، وكنز العُمّال : ١١/ ٢٩٧ ، والصَّوَاعِق المُحْرِقَة : ١٢١ ب ٩ فصل ٢ ، تَأرِيخ دمشق : ٣/ ٢٧٨ ح ١٣٦٤ و ١٣٦٥ ، فرائد السّمطين : ١/ ٣٩٠/ ٣٢٧ ، المناقب للخوارزمي : ٣٨٠ ح ٤٠٠ ، مُسْنَد أحمد : ٤/ ٢٦٣ ، آبن كثير في تَأرِيخه : ٣/ ٢٤٧ ، الطبري في تَأرِيخه : ٢/ ٢٦١ ، السّيرَة لإِبْن هشام : ٢/ ٢٣٦ ، عمدة القاري للعيني : ٧/ ٦٣٠ ، طَبَقات آبن سعد : ٥٠٩ ، عُيُون الأثر : ١/ ٢٢٦ ، الإِمْتَاع للمَقريزي : ٥٥ ، السِّيرَة الحَلبية : ٢/ ١٤٢ ، تَأرِيخ الخميس : ٢/ ٣٦٤ .

(٢) أُنظر ، تَفْسِير القُرطُبي : ١٩/ ٢٠٦ .

إدرَاك قِيمتها، وتُبذل ٱلحَيَاة من أجلها هِي مَرضاة الله فَقط لا غَيْر، ومن فَاز بِها فلهُ أنْ يَفرح، ويَبتهج، وعَلَيْهِ أنْ يَشكرها، ويَحمد الله عَلَيْهَا («يَا عَلِيُّ، إنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ) فَتنسِيهم ذِكر الله، وجَمِيع الْقِيَم، والْمَوْت، ولا يَرُون جَمالاً، وكمَالاً، ولا ذُوقاً، وعَاطفةً، ولا أي شَيء إلّا الأرْبَاح، والمكَاسِب (وَ يَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ) ذَلِكَ بأنّهم لا دِين لهُم، والْمَال هُو مَعبُودهم الوَحِيد، ولكن الشَّيْطَان جَعلهم يَتصورُون، ويَتخيلُون أنّهم أَصْحَاب دِين، ثُمّ وَسوس لهُم وزيّن أنْ يَمنُّوا عَلَىٰ الله بنفس الشَّيء الَّذي عَصُوه فيهِ!... نعُوذ باللهِ من الغَفلة، والغُواية.

(وَ يَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ) وهُنا موضع الغَرابة!... يَطِيعُون الشَّيْطَان، ويَعصُون ٱلرَّحْمَن ومَع هَذَا يَطلبُون منهُ الأجر، والثَّوَاب... ولكن لا عَجب فإنّ كَلِمَة الغُرُورُ تَدل بطبعها، وبجمِيع مُشتقاتها عَلىٰ التّناقض فِي الْفِكْر، والْقَوْل، والفِعْل (وَ يَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ): ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]. (وَ يَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَ الْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ). الْخَمْرَ في ٱصطلاَح الشَّرع، وأَهْله هُو المُسكر، سواء أصدق عَلَيْهِ ٱسم الْخَمْرَ، أم أي ٱسم من الأسماَء. قَالَ الْإِمَام جَعفر الصَّادقعليه السلام: «لَمْ يُحرم الله الْخَمْرَ لاِسمها، ولكن حَرمها لِعاقبتها، فمَا كَانَ عَاقِبته عَاقِبَة الْخَمْرَ فهُو حَرام»[2].

(وَ السُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ). والْمُرَاد بالسُّحْتِ الْمَال ٱلحَرَام، ومنهُ الرّشوة، وتَسميتها

---

(١) ٱلأَعْرَافِ: ٩٩.

(٢) أنظر، المعتبر للحلي: ٤٢٤/١، التّهذيب: ١١٢/٩ ح ٤٨٦، الكَافي: ٤١٢/٦ ح ٢، وَسَائِل الشّيعة: ٣٢٤/٢٥ (٣٢٠٧٨) ٢ ـ، سُنن الدّار قطني: ١٧١/٤، نصب الرّاية: ٢٢١/٦، تَفسِير القُرطُبي: ١٣٢/١٠.

بِالْهَدِيَّةِ لا يُغير شَيْئاً من حَقِيقَتِها (وَ الرِّبَا بِالْبَيْعِ). والأمثلة كَثِيرة عَلىٰ هَذَا الاِحتِيال، ومِنْهَا أنْ يَبيع المُرابِي سِلعة لآخر بمئة وعشرين إلىٰ أَجلٍ مَعلوم، ثُمَّ يَشتريها منهُ بمئة يَدفعها لهُ حَالاً، ومُعجلاً، ولا غَرض لأحدهما إلّا الرِّبا!. ولَيْسَ من شكٍ أنّ النِّية هِي القوام، والأَسَاس، وبصحتها يَصح البيع، ويُفسد بفسادها، والله سُبْحَانَهُ لَيْسَ بطفلٍ يحتال عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1].

(أَ بِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ). والفرق بَيْنَ الْفِتْنَة، والاِرتداد هو عَين الفَرق بَيْنَ الفُسق، والْكُفْر. فكلّ من قَالَ: لا إله إلّا الله مُحَمّد رَسُول الله يَجري عَلَيْهِ حُكم الْإِسْلاَم من المواريث، والمُناكحَات، وجَمِيع المُعاملات حَتَّىٰ ولو كَانَ فَاسقاً، أو مُنافقاً فِي وَاقعةٍ إلّا أنْ يُعلن إنْكَاره لمَا ثَبت بضرُورة الدِّين كوجُوب الصّوم، والصَّلاة، وتَحرِيم الزِّنا، وقَتل النَّفس. وتَكلمنا عن ذَلِكَ مُفصلاً فِي كِتاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة» بعنوان: أُصول الدِّين.

(١) ٱلنِّسَاء: ١٤٢. ومن أراد التّوسع فِي هَذَا فليرجع إلىٰ الجُزء الثَّالث من «أعلام الموقعِين» لِابن الْقَيِّم الجوزية. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة
-١٥٧-

الفَاجِرُ ذَلِيل...فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَ سَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَ دَلِيلًا عَلَىٰ آلائِهِ، وَ عَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لاٰ يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّىٰ مِنْهُ، وَ لاٰ يَبْقَىٰ سَرْمَداً مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاٰمُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَ ارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَ مَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَ زَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَ النَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ(١).

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَىٰ دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَ الْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لاٰ يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَ لاٰ يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلاٰ وَ بِالتَّقْوَىٰ تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَ بِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَىٰ.

عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَ أَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَ أَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لاٰزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ

لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَىٰ الزَّادِ، وَ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَ حُثِثْتُمْ عَلَىٰ الْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لاٰ يَدْرُونَ مَتَىٰ يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ[٢]. أَلاٰ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَ مَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَ تَبْقَىٰ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، وَ حِسَابُهُ!

عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَ لاٰ فِيمَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ. عِبَادَ اللهِ، ٱحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَ يَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَ تَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ[٣].

اللُّغَة:

سَرْمَداً: دَائِماً. والْمُرَاد بِشَوْلِهِ هُنا النُّوق. وَ ٱرْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ: وقَعَ فِيها. وَ لاٰ يُحْرَزُ: لا يُحْفَظ. والحُمَةُ ـ بتخفيف المِيم ـ السُّم، وتُطلق عَلىٰ أُبرة العَقْرَب لِعلاقَة المُجاورة. والتَّبِعَةُ: آثَار الْعَمَل.

الْإِعْرَاب:

مَا فِيهِ «مَا» فَاعِل يَبْقَ و «فِيهِ» مُتَعَلِّق بمحذوف صلة «مَا»، وسرمداً ظرف أو بِمَعْنَىٰ الظرف وهو مَنصوب بيَبْقَ أي لا يَبْقَ فِي كلِّ وَقتٍ، ومُتَشَابِهَةٌ خَبَر مُقدَّم، وأُمُورُهُ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ويَجوز أنْ تَكُون «مُتَشَابِهَةٌ خَبَر ثَانٍ لأَنَّ، وأُمُورُهُ فَاعِل لمُتَشَابِهَة، ويَكُون الكلاَم هَكذا أنّ الدَّهر مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، وكَلِمَة الله الأُولَىٰ نُصب علىٰ التَّحْذِير، والثَّانِيَة تأكِيد، وَشِقْوَةٌ خَبَر لمُبْتَدأ مَحذوف أي فَصِيركُم شِقْاء أو سَعَادَةٌ، ويَوْماً مَفْعُول بِهِ لاِحْذَرُوا أو مَنصوب بِنزع الخَافض أي ٱحْذَرُوا من يَوْمٍ، ولا يَجُوز أنْ يَكُون مَفعولاً فيهِ، لأنّ الخَوْف الآن منهُ لا فيهِ.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ). الْحَمْدُ هو الثَّناء، والشُّكر، والْوَصْف بالجميل بدافع التَّعظِيم، والتَّبجيل، وقد ٱفتتح الله بحمدِهِ العَدِيد من سُور الذِّكر الحَكِيم، كالْفَاتِحَةِ، والْأَنْعَام، وسَبَإ، وفَاطِرٍ (وَ سَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ) أي مِن أجر الآخِرَةِ، وثوابها (وَ دَلِيلًا عَلَىٰ آلائِهِ، وَ عَظَمَتِهِ) كقولنا: الْحَمْدُ لله المُنعم المُفضل، أو الْحَمْدُ لله العَلي العَظِيم، فالْحَمْدُ الْأَوَّل عَلىٰ النِّعْمَة، والثَّانِي من أجل العَظمة، فإنّ الْوَصْف يُشعر بالعَلِية عَلىٰ حَدِّ مَا قَالَ عُلَماء أُصول الفِقْه... والْحَمْدُ لله في السَّراء والضَّراء.

(عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّىٰ مِنْهُ، وَ لا يَبْقَىٰ سَرْمَداً مَا فِيهِ). اللاّحِق كالسَّابِق يُلبِي دَعْوَةَ الْمَوْت الَّذي لا مَفرَّ منهُ لكَبِيرٍ، أو صَغِيرٍ، ولا لِنَبِيٍّ، أو شَقِيٍّ، ومن مَات لَن يَعود، والبَاقِي إلىٰ حِين (آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ) في الْأَيَّام الخَالية أَهْلك ملوكاً واستخلف آخرين، وهو الآن عَلىٰ شِيمته، وإلىٰ آخر يَوْم. وَهَذَا دَلِيل قَاطع علىٰ أنّ مُراد الإمَام بالدَّهْر رَبّ الدَّهْر... وما كَلِمَة الدَّهْر إلّا تَعبِير عن مرُور الزَّمن وعدَد الْأَيَّام الّتِي لا تَحسّ، ولا تُحسّ، وإذَا صَحّ حَدِيث «لا تَسبُوا الدَّهْر فإنّ الدَّهْر هُو الله»[1] فالمُرَاد أنّ قول النَّاس: فَعل الدَّهْر، وتَرك الدَّهْر، أو فَعلت الدُّنْيَا، وتَركت ـ هُو عَلىٰ حَذف المُضاف إِلَيْهِ أي رَبّ الدَّهْر وإلّا فإنّ كَلِمَة الدَّهْر لا تُستعمل فِي ذَاته تَعالىٰ، ولا فِي صِفاته.

---

(١) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٧٦٣ ح ٢٢٤٦، صَحِيح البُخَارِيّ: ٥/٢٢٨٦ ح ٥٨٢٧، السنن الكُبْرَىٰ: ٦/٤٥٧ ح ١١٤٨٧، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٥/١٠ ح ٧٢٨٦، مِيزان الإعْتِدَال: ٣/٢٣٤ ح ٣٢٩٠، التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/١٥١، لِسَان الميزان: ٣/٤٦ ح ١٧٨.

والغَرِيب أنّ عَبد ٱلرَّحْمَن بن الجوزي قَالَ فِي كِتاب «صِيد الخَاطر» : «إنّ الَّذِين يَسبُون الدَّهْر كُفَّارٌ «بل هُم شَرٌ من الكُفَّار، لا أَصلح الله لَهُم شأناً، ولا هَداهُم لرشَاد» ![1]. ونَسِي هَذَا الشَّيخ أنّ الحُدُود تُدرأ بالشُّبهات[2]... ولمَاذا لا أَصلحهُم الله، ولا هداهُم؟ ألأنّهم أَشد عَلىٰ ٱلرَّحْمَن عِتياً من الَّذِين سَأل نَبِي الرَّحْمَة لَهُم الصَّلاح، والهِدَايَة؟.

(مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاَمُهُ) أي أنّ الدَّلائل عَلىٰ تغير الدُّنْيَا بأَهْلها من حَالٍ إِلىٰ حَال كَثِيرة، ومُتَضَافِرَة يَعضد بَعْضهَا بَعضاً (فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ). تَسُوقكُم ٱلْقِيَامَة إِلَيْهَا تَمَاماً كَمَا يَسُوق النُّوق زَاجرها، وتَقَدَّم مِثله[3]. (فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَ ٱرْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَ مَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَ زَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ). مَالَكَ وللنَّاس، والقِيل والقَال؟ أَتشتغل بغَيرك، وتَلهُو عن نَفْسِكَ؟ ٱرفق بِها، وتَلطف، ورَاقبهَا، وحَاسَبها وإلّا ٱستحوذت عَلَيْكَ الشَّهوات، والأهواء، وأرْدَتكَ فِي المهَالِك. ومن أَقْوَال الإِمَام: «طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، وَطُوبَىٰ لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَ ٱشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَكَىٰ عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»[4]، ونَصِيحتي لِمن يُريد النَّجاح أنْ لا يَكترث بنقدٍ، ولا يَحصر همهُ،

---

(١) أنظر، صَيد الخَاطر: ٣٨٥.

(٢) أنظر، المبسوط للسّرخسي: ٩٨/٧، الخِلاَف: ١٤٦/٢، الْفَقِيه: ٧٤/٤، سُنَن ٱبن ماجه: ٨٥٠/٢، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٣٦٠/٧، كنز الْعُمَّال: ٣٠٥/٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٩٥/١٠.

(٣) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٢٢). (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٧٥).

وأهتمامه بتَتَبُّع الْعُيُوب، وأعرف واحداً فقط من هَذَا النَّوْع، فإنْ لَمْ يجد عَيباً بإنْسَان آفتراه.. ومَا عرفه إنْسَان، ووثق بِهِ، وأَمن لهُ... أصلحه الله، وهدَاه، وإيّانا.

(فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ). إنَّهَا مَصِير مَن شَعر بواجبه أَمَام رَبّه، وضَمِيره، وأَمَام المُجتمع الَّذي يَعِيش فيهِ، وبَادر لأدَاء هَذَا الوَاجب عَلىٰ الوَجه الأكمل (وَ النَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ) اللاَمُبَالِين فِي حَقِّ الله، والنَّاس، والتَّفْرِيط فِي الْحَقِّ، ونهَاية الخَائِن إلىٰ الهَاوِية لا مَحَالَةَ.

(اَعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَىٰ دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَ الْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لاَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَ لاَ يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ). للصَّادق المُخلص هَيْبَة، ومكَانَة عِند الله، والنَّاس، ومكَانته هَذِه حِصنٌ حَصِينٌ من تُهم المُفترِين، ونِيل المُجرمِين، أمّا الخَائِن الكَذُوب فحِصنهُ أوهن مِن بَيْت الْعَنكَبُوتِ (وَ بِالتَّقْوَىٰ تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا) لاَ سَبِيل إلىٰ الوقَاية من سُوء الْعَاقِبَة إلّا بِآتبَاع الْهُدَىٰ، والحَقّ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَايَضِلُّ وَلَايَشْقَىٰ﴾[1]. (وَ بِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَىٰ). إذَا عَلِم الإنْسَان خَاف مِن الغفلاَت، والهفوات، ومن خَاف أَعد العِدة، وعَمل جَاهداً حَتَّىٰ يَبلغ غَايتَه.

(عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَ أَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ) قَالَ قَائل: إنّ أَعَزّ هنا لِلتَّفضِيل، وإنّ للإنسن أنفساً عديدة: أمّارة، ولوّامة، وعَاقِلة، وغَضبية، وشهوَانية[2]!... وهَذَا التَّقسِيم مُجرد خَيال لأنّ تعدد الصِّفَات، والحَالات لاَ

(١) طه: ١٢٣.

(٢) أُنظر، فتح الباري: ٨/ ٢٣٠، بحَار الأنْوَار: ١١/ ٩٨ و: ٥٨/ ٢٧٩، نوادر الأُصول في أحاديث الرسول: ١/ ٢٣٩ و: ٣/ ٩٧، شرح أصول الكَافي: ١/ ٣١، تفسير الثعالبي: ٥/ ٥١٩، تفسير كنز الدقائق: ١/ ٢٢١،

تَستدعِي تَعدد الموصُوف ـ وعَلىٰ الأقل ـ هُو بَعِيد عَن إفهَام المُخاطِبِين، والصَّواب إنّ المُرَاد بكلاَم الإمَام هُنا عَين المُرَاد بقَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]. (فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَ أَنَارَ طُرُقَهُ) فِي كِتابهِ، وسُنَّة نَبيِّه (فَشِقْوَةٌ لاَزِمَةٌ) للمجرمين في الآخِرَةِ (أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!) لِلْمُتَّقِينَ (فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَىٰ الزَّادِ، وَ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَ حُثِثْتُمْ عَلَىٰ الْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لاَ يَدْرُونَ مَتَىٰ يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ). نَحْنُ ضِيوف فِي هَذِه الدَّار، وفِي غَدٍ إِلىٰ نَعِيمٍ، أو جَحِيمٍ، والسَّعِيد من وفُق إِلىٰ عَملٍ يُنجيه مِن عَذاب الحَرِيق.

(فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَ مَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَ تَبْقَىٰ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، وَ حِسَابُهُ) خُلق الإنْسَان لِيعمَل فِي دُنيَاه الفَانِية لآخرته الْبَاقِيَة، فإنْ أَصَابَ مَالاً من حِلٍّ، وأنْفقه فِي حلٍّ فقد تَحرر من التَّبعَات، وأمِن من العَثرات، وإنْ أَخذهُ من حرَامٍ، أو أنْفقه فِي حرَامٍ فَهُوَ عَلَيْهِ نَارٌ، وجَحِيم، وإنْ ادخر، وكَنز مَا يَزِيد عَن حَاجَتِه فللوَارث لَذته، وعَلىٰ المُورُوث أثمه، وتَبعته.

(لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَ لاَ فِيمَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ). يُجاهد الإنْسَان، ويُناضل لِيجلب الخَيْر إِلىٰ نَفْسِه، ويُدافع، ويُكافح لِيتقِي من الشَّرّ، والله سُبْحَانَهُ معهُ فِي ذَلِكَ، وهو أَرحم بِهِ من الأُمّ بوليدها، ولذَا مَنحه الْعَقْل، والْقُدْرَة، وأوضح لهُ سَبِيل الخَيْر، والشَّر، فكَيْفَ يَرغب فِي هَذا، ويَترك ذَاكَ؟ أَللّهُمَّ إلّا إذَا

⇐ قصص الأنبِيَاء للجزائري: ٢٧، فيض القدير: ١/٢٩٢ و: ٤/٤٣٦، التعاريف: ١/٥٩٢، التعريفات للجرجاني: ١/٢٣٢ ح ١١٥٩.

(١) البَقرَة: ٢٤.

كَانَ عَدُوّ نَفْسه، أو أسَاء الظَّن بخَالقه (وَ ٱحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَ يَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَ تَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ) ومن أنْكَر هَذَا الْيَوْم، وكَان منهُ عَلىٰ شَكٍّ فهل يَشك في أنّ الحَقّ أحَق أنْ يُتبع، وإنّ المَحبَّة، والمُسَاوَاة خَير من الحَقد، والمُعاداة، وإنّ الإخْلاص، والاِسْتِقَامَة أفضل من الاِنْحِرَاف، والخِيانة؟.. إنّ الاِسْتِقَامَة هِي طَرِيق السَّعادة، والنَّجاة عند الله، وإنّ الخِيانة هِي ٱلسَّبيل إلىٰ الزِّلْزَال، والأهوَال عندهُ تَعَالىٰ، وإذَنْ فالشَّك في وجُود الجَنَّة، والنَّار شَكّ في وجُود الاِسْتِقَامَة والخِيانة، وفِي وجُود الخَيْر والشَّر.

نَفْسَكَ تَشْهد عَلَيْكَ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

ٱعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَ عُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَ حُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَ عَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لاٰ تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَ لاٰ يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ، وَ إِنَّ غداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ(٤).

يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَ يَجِيءُ الْغَدُ لاٰحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَ مَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَ مَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَ مُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَ كَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَ السَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَ بَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَ ٱضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَ ٱسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَ صَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَٱتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَ ٱعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَ ٱنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ(٥).

اللُّغَة:

رَصَداً: جَمع رَاصد، وهُو الرَّقِيب. وَلَيْلٍ دَاجٍ: شَدِيد الظَّلام. ورِتَاجِ البَاب:

أَغلقه إغلاَقاً مُحكماً.

الإِعْرَاب:

دَاج صِفة مُؤكدة لِلَيْلٍ، ومِنَ الْيَوْمِ مُتَعَلِّق بقَرِيب، ولاحِقاً حَال من الْغَدِ، ويَا لَهُ «يَا» التَّنبِيه، وقِيل: للنِّداء، والمُنادىٰ محذُوف أي يَا قَوْم، واللاَّم للتَّعجُب، وبَيْتِ تَمْيِيز مجرور بِمِنْ المُبيِّنَة مَع مجرُورها للمُراد بالضَّمِير المجرُور باللاَم.

الْمَعْنَىٰ:

(أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَ عُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ... إلخ) لا عِصْمَة لِلإِنْسَان، ولذَا نَقول: كلّ فِكرَة يجُوز عَلَيْهَا الخَطَأ، والصَّواب، وكلّ قول يحتمل الصِّدْق والْكَذِب، ولَيْسَ مِن شَكّ أنّ مِن أَخطأ بَلا قَصدٍ، وتَقصِير فَلا سَبِيل عَلَيْهِ، وإنّمَا ٱلسَّبِيل عَلىٰ مِن قَصّر، وتهَاون، أو تَعمد الذّنب، والخَطِيئَة، وأَكْثَر النَّاس جُرماً، وعِقَاباً مَن أَصرّ عَلىٰ الذَّنب، ورَفض ٱلتَّوْبَة، وأَشد منهُ عِقَاباً مَن خَادع النَّاس، وٱرتدىٰ ثُوب الصَّالحِين، ولَيْسَ مِنهُم.

وقَد يصيب الزَّائغ المُخادع بَعْض ما يُريد، ولَكِنَّهُ لَن يَسلم مِن العقَاب فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، أمّا فِي هَذِه فلأنّ الله لا تَخفىٰ عَلَيْهِ خَافِية سَواء أَحدثت فِي لَيلٍ، أَم مِن وَرَاء حِجاب... بالإضَافة إلىٰ مَا أَشَار إِلَيْهِ الإِمَام، وصَرحت بِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١). أمّا حِسَابه فِي

(١) ٱلنُّور: ٢٤.

الدُّنْيَا فعلىٰ النَّاس، وضَمِيره هُو بالذَّات، فإنّ النَّاس قَد يَخدعُون بَعْض الوَقت، ولَكِنَّهُمْ لَنْ يُخدعوا طول الوَقت، وحِين تَتكشف لدِيهم الحَقَائِق يَكُون رَدّ الفِعْل قَاسياً، وقَوياً. أمّا حِساب الضَّمِير فَيكُون بالتَّأنيب، والتُّوبِيخ.

الضَّمِير:

وَتَسْأَل: إنّ كَلِمَة الضَّمِير تَدُور كَثِيراً عَلىٰ أَلسُنَة النَّاس، ويَقذفُونها فِي مُحاورَاتهم قَذف المُسلّمَات حَتَّىٰ كأَنَّهَا أوضح مِن البدِيهيات مع أَنَّهَا غَامِضَة، أو لَيْسَت بِهذَه المكَانة من الوضُوح، فمَا هُو تَحدِيد الضَّمِير، والمُرَاد منهُ؟.

الجَوَاب:

الضَّمِير شعُور من الدَّاخل تُواق لكلِّ خَير يَبتسم لهُ، ويَسترِيح، وعزُوف عن كلّ شرّ يَعيش له، ويَنفر مِنْهُ.

الضَّمِير إحسَاس من الأعْمَاق يَسألك، ويُحاسبك حِين تَهدأ مِنك الأعصَاب، ويثُوب إِلَيْك الرُّشد، وتَغيب عنكَ كلّ نَزوة، وكلّ فِكرة تَقلقك، وتَزعجك.. يَأْتيك هَذَا الضَّمِير فِي خَلواتك، وأنْتَ تَستلقِي عَلىٰ الفِرَاش فِي عَتمة ٱللَّيْل، أو تَجلس وحيداً عَلىٰ شَاطِيء بَحرٍ، أو مَجرىٰ نَهرٍ، أو بَيْنَ الأَعْشَاب، وتَحت الأشجَار.

يَأْتِيك لكِي يُسألك، ويُحاسبك عَن سُوء مَا قُلت، أو فَعلت بالأمس، أو مُنذ سنُوات، ويقُول: مَا جَرىٰ لَكَ حَتَّىٰ كَان مِنك مَا كَانَ؟ هل كَانَتْ مَجنوناً، أو مَاذا؟ وهُناك سؤال يَطرح نَفْسه، وهُو من أَين جَاء هَذَا الضَّمِير؟ ومَا هُو المَصْدَر

لرؤيتَه ؟ هَل هَذِه الرُّؤية ذَاتية تَمَاماً كَتَمْيِيز العَيْن بَيْنَ الأَلْوَان، أو هِي إنْعكاس عن التَّربية، أو الدِّين، أو تَقاليد المُجتمع، ومقاييسه ؟. وبكَلِمَة وَاحِـدَة هَـل الضَّـمِير حَاسة فِطرية، أم مُكتسبة ؟.

الجَوَاب:

إنّ الضَّمِير عَلىٰ نَوْعَين: فَطري، ومُكتسب، فَما كلّ شعور بالتّأنِيب هو فـطري علىٰ الإطلاق، ولا هُو مُكتسب عَلىٰ الاِطلاق، ومن البَداهة أنّ الضَّمِير لا يُؤنب عَلىٰ أي فعل إلّا إذَا آعتقد فاعله بتحريمه، وعِندئذ ننظر إلىٰ مَصْدَر هَذَا الاِعتقاد، فإنّ كَانَ وليد التَّربية، أو الدِّين، أو المُجتمع فَهُوَ مُكتسب لا مَحالَةَ، وإنْ لم يَستند إلىٰ شيء من ذَلِكَ بشكل من الأشكال فَهُوَ فِطري، وذَاتِي بِحُكم البدِيهة ـ مَثلاً ـ إذَا أَكل الهندوكي من لَحم ٱلبَقَرَة، ثُمّ أَنَبَهُ ضَمِيره عَلىٰ أكلهِ فهَذا الضَّـمِير آنـعكاس عـن الدِّين، والمُجتمع، وكَذَلِكَ المُسْلِم إذَا أَكل لَحم ٱلْخِنزِير، أو ٱلْمَيّتة، وإذَا أَساء واحد من النَّاس عن قَصدٍ، وعَمدٍ لمَن أَحسن إِلَيْهِ لا لشَيء إلّا لأنّه أحسن إِلَيْهِ، ثُمّ نَـدم وأحس بالذَّنب الخَطِيئة فهَذا المُؤنب المُؤدب هو الضَّمِير الفطري، لأنّه من الدَّاخل لا من الخَارج، أمّا تحريم الدِّين، والمُجتمع لهَذه الإسَاءة فلا مَصْدَر لهُ، إلّا الضَّمِير المُشترك بَيْنَ جَميع النَّاس أي أنّ تَحرِيم الدِّين، والمَجتمع لِهَذِه الإسَاءة هو فَرع، وتَبع لحُكم الفِطْرَة، والضَّمِير.

وإلىٰ هَذِه الفِطْرَة، أو الضَّمِير أشَار النَّبِيّ ﷺ بقَوْله: «الْبِرّ مَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفس، وٱطمأن إِلَيْهِ الْقَلْب، والإِثْم مَا حَاكَ فِي النَّفس، وتَردد فِي الصَّدر، وإنْ أَفْتَاك النَّاس

وأَفْتَوْك»[١] وعَلىٰ هَذَا الأَسَاس كَان سُقراط[٢] يحاول، ويُجادل النّاس، وهو يَطوف في الشَّوارع، والأسواق.

هَذَا، إلىٰ أنّ أَكْثَر إلزّامات الدِّين، والمُجتمع تَتخذ مُنطلقها من الضَّمِير الفِطري، وأي إلزّام لا يَستند إلىٰ الْفِطْرَة مُباشرةً، أو يَنتهي إِلَيْهَا فمَا هو بشيء... لو نَفينا هَذَا الوَازع الذَّاتي عن ٱلإِنْسَان لجردنَاه من إنْسَانِيته، وكَان هـو وٱلْحَـيَوَان سـواء في القِياس، وكَانَ قولنا: هَذِه الْفِكْرة خطأ، وتِلك صواب، وهَذَا خَـيرٌ، وذَاكَ شَرٌ ـ لغْواً، وهراءً.

(يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَ يَجِيءُ الْغَدُ لاحِقاً بِهِ... إلخ) الأَيَّام تُسرع حَتَّىٰ كأنّه لا فَرق بَيْنَ السَّابق مِنْهَا، واللاَحق، ولا بَيْنَ الطَّوِيل، والقَصِير، ولا مَـعْنَىٰ لسُرْعَـة الْأَيَّام إلّا فناء الْعُمُر، وذهابه، وإننا في هَذِه ٱلْحَيَاة ضِيوف مُؤَقتُون... وعَلىٰ هَـذَا جَرت سُنته تَعَالىٰ في الْأَوَّلِين، والآخرِين، وإذَا كُنّا ضِيوف هَذِه الدَّار بشهَادة العَيان فهل هُناك حيَاة ثَانِيَة نَنتقل إِلَيْهَا بَعد الْمَوْت، أو أنّ مَن مَات فَات؟ وأجبنا عن هَذَا السُّؤال بأسَالِيب شَتَّىٰ فِيا تَقدَّم، ويَتلخص بَعْضهَا بأَنّ مَن لا يُؤْمِن باللهِ، وعدله فلاَ يَحِقّ لهُ أَنْ يَطلب الدَّلِيل عَلىٰ ثبُوت الْيَوْم الآخر، ولهُ كلّ الْحَقّ أَنْ يَطلب الدَّلِـيل عَلىٰ وجُود الله، أمّا مَن يُؤْمِن باللهِ، وعدله فِيُتحتم عَلَيْهِ أيـضاً أَنْ يُـؤْمِن بـالْيَوْم

---

(١) أُنظر، المجموع: ٩/١٥٠، وَسَائِل الشّيعة: ٢٧/١٦٦ ح (٢-٣٣٥٠٢) ٣ ـ، سُنن الدّارمي: ٢/٢٤٦، الخرائج والجرائح: ١/١٠٦، مجْمَع الزّوائد: ١/١٧٥، مُسْنَد أحمد: ٤/٢٢٨، مُسْنَد أبي يعلىٰ:٣/١٦١ ح ١٥٨٦، الأذكار النّووية: ٤٠٨ ح ١٢٤٩، البداية والنّهاية: ٦/٢٠٢.

(٢) سُقراط: هو فيلسوف يُوناني، ولد في أثنا، عُرِفَ بأنّه كَانَ أُستاذاً ذَائع الصِّيت بالفَلْسَفَة، والْحِكْمَة ولُقب، «سُقراط الحَكِيم».

الآخر، والتَّفكِيك مُحال، لأنّ الإيمَان بالعَدْل الإلهي لاَ يَستقِيم إلاّ مع الإيمَان بأنّ مَصِير الفَاجر غَيْرُ مَصِير البِرِّ، وإنّ المُسِيء لا يُفلت من العقَاب، وإنّ المُحسن لا يُحرم من الثَّوَاب، وإذا لَم يَتحقق شَيء مِن هَذَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فلاَ بُدّ إذَنْ مِن دَارٍ ثَانِيَة يُنتصف فيها لِلمظلوم من الظَّالِم، ويُحاسب كلّ عَلىٰ عَمله، إنْ خَيراً فَخِير، وإنْ شَرّاً فَشّر.

وحثَّ الإمَام عَلىٰ العَمَل لهَذا اليَوْم، وحَذر من عَذابه، وذَكرّ بوحشة القَبر، وغُربته، وهُول الحِسَاب، وأمَر بالاتعاظ، والانتفَاع بالنُّذر، ومِنْهَا كتاب الله، وسُنّة نَبيِّه، والوعاظ، والمُبلغُون، والمَوْت، والنَّكبَات... وإذا كَان فِي كلّ شَيء آيَة تَدل عَلىٰ وحدَانِية الله، فإنّ كلّ مَا فِي الدُّنْيَا نَذِيرٌ، ودَلِيل عَلىٰ زوال الدُّنْيَا، وفنَائها.
وسَبق هَذَا المَعْنَىٰ مَرّاتٍ، ومَرّات.

الخطبة

-١٥٨-

سَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَ انْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَ النُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَ لَنْ يَنْطِقَ، وَ لَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلاٰ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَ دَوَاءَ دَائِكُمْ، وَ نَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ[1].

فَعِنْدَ ذَلِكَ لاٰ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ، وَ لاٰ وَبَرٍ إِلاّٰ وَ أَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَ أَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَبْقَىٰ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَ أَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَ سَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَ مَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ، وَ مَشَارِبِ الصَّبِرِ وَ الْمَقِرِ، وَ لِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَ دِثَارِ السَّيْفِ. وَ إِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ، وَ زَوَامِلُ الْآثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنْهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لاٰ تَذُوقُهَا، وَ لاٰ تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ[2]!

اللُّغَة:

الفَتْرَة: الهُدْنَة، والفَاصل بَيْنَ شيئين. والنَّقض: الهَدم. والإِبْرَام: الإِحْكَام. والمَدَر: الطِّين. والوَبَر للإِبْل كالصُّوف لِلغَنم، والمَدَر للحَضَرِيّ، والوَبَر للبَدَوِيّ.

والمَقِر ـ بكسر القَاف ـ الصَّبِر، أو السَّم. والدِّثَار: اللِّبَاس. والزَّوَامِلُ: جَمع الزَّامِلة، وَهِي النَّاقة، أو الجَمَل يُحمل عَلَيْهِ المتَاع. وتَنَخَّم: أَخرج النُّخَامَةُ مِن أَنْفه أو صَدره. والجَدِيدَانِ والأجْدَان: ٱللَّيْل، والنَّهار، ولا يُفردَان، فَلا تَقول: الجَدِيد أو الأجَد للوَاحد مِنْهُمَا.

الإِعْرَاب:

أَدْخَلَهُ، الأصل أَدْخَل فيهِ، ثُمّ حُذفت «فِي» للتَّخفِيف فأتصل الضَّمِير بالفِعْل، وتَرْحَةً مَفْعُول أَدْخَلَهُ، ونِقْمَةً مَفْعُول أَوْلَجُوا، وعِنْدَ ذَلِكَ مُتَعَلِّق بِلاَ يَبْقَىٰ، ومَأْكَلاً وَمَشْرَباً أي يَأكلُون مَأْكَلاً، ويَشربُون مَشْرَباً.

المَعْنَىٰ:

(أَرْلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ). تَقَدَّم بالنَّص الحَرفِي[1] (وَ ٱنْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَ النُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنُ) جَاء كلّ من مُوسَىٰ، وعِيسَىٰ بشرِيعة إِلٰهِية، وعَمل بها

(١) أنظر، شرح الخُطبة: (٨٩). (مِنْهُ ﷺ).

أَهْلَ ٱلْكِتَاب حِيناً من الدَّهْر، ثُمّ نقضُوها مـن الْأَسَـاس، فَـبعث الله مُحَـمّداً ﷺ بالْقُرْآن مُصدقاً لمَا بَيْنَ يَدِيه من تُوراة مُوسَىٰ، وإنْجِيل عِـيسَىٰ (فَٱسْتَنْطِقُوهُ، وَ لَـنْ يَنْطِقَ، وَ لَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ). آرْجعُوا إِلىٰ الْـقُرْآن، وتَـدبرُوا مـعَانِيه، وأسرَاره، ومرَامِيه... ولكن مَعْرِفَته علىٰ وجَهِهِ، وحَقِيقَته لا تَكُون إلّا بتُوسط مِن عنده عِلم ٱلْكِتَاب، وهُو الْإمَامﷺ وَقَالَ الْإِمَام فِي آخر: مَا نَزلت آيَة من الْقُرْآن عَلىٰ رَسُول الله ﷺ، إلّا وأملاها عَليَّ، فَكتبْتُها بخُطي، وعَلّمني تَأويلها، وتَفْسِيرها[1].

مِنْ إعْجَاز الْقُرْآن:

(إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي). أَخبر الْقُرْآن عَن أشيَاء كَثِيرة قَبل وقوعها، وحدُوثها، ولَم يَكُن هُناك قَرِينة تُشِير إِلَيْهَا مِن قَرِيبٍ، أو بَعِيد، ومَع هَذَا وقعت كـمَا أخـبر، وتَنبأ الْقُرْآن، فحدث ٱنقلاَب في عقِيدة الكَثِير من ٱلْمُشْرِكِين، وخَسرَ المُـبطلون، وٱزدَاد الْمُؤْمِنُون إِيمَاناً، ولَيْسَ من شكٍّ لو أنّ شَيْئاً من تِـلك التَّـنبُؤات لَم يَـتحقق لارتَدّ مَن كَان قَد أسلم، وبالتَّالِي لَم يَكُن لِـلْإِسْلاَم عـينٌ، ولا أثـر... ولكـن الله سُبْحَانَهُ شَاء أَنْ تظل مُعْجِزَة مُحَمّد ﷺ إلىٰ آخر يَوْمٍ.

ومِن تِلك التَّنبُؤات، أو المُعْجِزَات وَعدَه تَعَالىٰ بنصر ٱلْمُسْلِمِين علىٰ ٱلْمُشْرِكِين فِي وَقْعَة بَدْر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآبِفَتَيْنِ﴾[2]... ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

(١) أُنظر، الكَافِي: ١/٦٤ ح ١، الخِصَال للشّيخ الصّدوق: ٢٥٧، وَسَائِل الشّيعة: ١٨/١٥٢ ح ١، كتاب سليم بن قَيس: ١٨٣، بحَار الأَنوَار: ٢/٢٣٠، تحف العُقُول: ١٣١، إكمال الدين: ٢٨٤.
(٢) ٱلْأَنفَالِ: ٧.

ٱلدُّبُرَ﴾[١]. ومِنْهَا الْوَعْد بدخُول مَكَّة الْمُكَرَّمَة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[٢]. وغَيْرُ ذَلِكَ كَثِير مِمَّا يَعلم تَأويله الرَّاسخُون فِي العِلم.

(وَ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي). وأيضاً تَحدث الْقُرْآن بِلِسَان مُحَمَّد الأُمّي ﷺ، عن الأُمَم المَاضِية، والقرُون الخَالية فِي زَمنٍ لا يَعْرِف أَحدٌ عَنْهَا شَيْئاً، ولا مَصْدَر للعِلم بِها إلّا الوَحِي، وهَذَا دَلِيلٌ ثَانٍ عَلىٰ الإعْجَاز السّماوِي، والَّذِين أنْكرُوا إعْجَاز الْقُرْآن مِن حَيْث الفصَاحة، والْبَلاَغَة تَهاووا أَمَام إخْبَاره بالْغَيْب، وأَمَام شَرِيعته وتَعالِيمه الَّتِي خَاطبت الْقُلُوب، والْعُقُول، ونَاجت الضَّمائر، والأَرْوَاح.. ومَن أَراد أنْ يَحتج بإعْجَاز الْقُرْآن فَعليه أنْ يَنطلق أوّلاً من مُحتواه، مِن شَرِيعته، وتَعالِيمه الإِنْسَانية، وإخْبَاره بِالْغَيْب، ثُمَّ يَدعم المُحتوىٰ بالشَّكل، والأُسلوب.

(وَ دَوَاءَ دَائِكُمْ، وَ نَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ). الْمُرَاد بِالدَّاءِ الْجَهْل، والضَّلال، وبالنُّظم إعْطَاء كلّ فَرد حَيَاة أفضل، وأحسن، وبِالدَّواء الشَّافِي مَا جَاء فِي الْقُرْآن مِن أُصول الْعَقِيدَة، ومبَادىء الشَّرِيعة، وقِيم الأَخْلاَق.

(فَعِنْدَ ذَلِكَ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ، وَ لاَ وَبَرٍ إلاَّ وَ أَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَ أَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَبْقَىٰ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَ لاَ فِي الأَرْضِ نَاصِرٌ). يُشِير بِهذا إِلىٰ دَولة الأُمويين، وطُغيانها، وإفْسَادها في الأَرْض. قَالَ البُخَاريّ: قَالَ رسول الله ﷺ: «هلكة أُمتي عَلىٰ يَد أُغيلمَة مِن قُرَيْش»[٣]. وفَسر أَهْل الْحَدِيث «الأُغيلمَة».

---

(١) القَمر: ٤٥.

(٢) الفَتح: ٢٧.

(٣) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ في ج ٩ من «كِتَاب الفِتَن». (مِنْهُ ﷺ). مُسْنَد أحمد: ٣٢٤/٢، فتح البَاري: ٨/١٣، البداية والنّهاية: ٢٥٥/٦، سير أعلام النُّبلاء: ٦٢٦/٢.

بـالأُمويين، وفي شَرح ٱبـن أبي ٱلحَـدِيد لهَـذه ٱلخُـطْبَة: «الأَخْـبَار الشَّـائعة المُسـتفِيضة فِي كُـتب الحَـدِيث أنّ رَسُـول اللهﷺ أخـبر عـن دَولة بَـنِي أُمَـيَّة وذَمهم[(١)]... وفي كُتب التَّفْسِير أنّ الْفِتْنَة، والشَّجَرَة المَلعُونة فِي الآيَة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[(٢)] هُم بَـنُو أُمَـيَّة. ثُمّ أطال فِي نَقل الأَحَادِيث عن النَّبِيّ ﷺ الّتِي تُعزز هَذَا التَّفْسِير»[(٣)].

(أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَ أَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ). الخِطَاب لمِن رضِي بدولة أُمَيَّة، وأَصْفَيْتُمْ خَصَصْتُم، وأَوْرَدْتُمْ أَنْزَلتُم، المُرَاد بالأَمْر ٱلخِـلاَفَة، وبأَهْـلِهِ أَهْـل ٱلْبَيْت الَّذِين أَذْهَبَ عَنهمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً (وَ سَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ، وَ مَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ، وَ مَشَارِبِ الصَّبِرِ وَ الْمَقِرِ.... إلخ) سَتَدُور الدَّائِرة عَلىٰ الأُمَوِيين، ويَذهب مُلكهم إلىٰ غَيْر رَجعة، وَيُسْقَوْنَ كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا سُمّاً زُعَافاً. وتَقَدَّم الكلاَم عن ذَلِكَ[(٤)].

(١) أُنظر، شَرح النَّهج: ٢١٩/٩ وما بعدها.

(٢) ٱلإِسْرَاءِ: ٦٠.

(٣) أُنظر، شَرح النَّهج: ٢٢٠/٩ و: ١٧٣/١٥ و ٢٦٥ و ٢٩٢، أُسد الغَابَة: ١٤/٣، الفُتُوح لِابـن أَعثَم: ٢٢٣/١، جواهر المطالب لِابن الدِّمَشقي: ١٩٠/٢، النزاع والتخاصم: ٥٢ و ٥٤، الخصائص الكُبْرَىٰ: ١١٨/٢، الدُّر المنثور: ١٩١/٤، السيرة الحَلَبِية: ٣٣٧/١، تفسِير الشوكاني: ٢٣١/٣، معجم أبي يعلىٰ: ٤٥/١، فتح الباري: ٣٩٩/٨، تـفسِير الطَّبَرِيّ: ٧٧/١٥، زاد المسـير لِابـن الجـوزي: ٤٠/٥، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٦٢١/٥، كشف الغمة: ٤٥/٢، الهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٧٦ ح ٢٥، مناقب آل أبي طـالب: ١٠٩/٢، تذكرة الخواص: ١١٤.

(٤) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٩٣). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٥٩-

أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ:

وَ لَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَ أَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَ أَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وَ حَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ، وَ إِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَ شَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

اللُّغَة:

الجُهد ـ بضم الجيم ـ الطَّاقة. والرِّبَقِ: جَمع رِبْقَةٌ، وَهِي حَبل فيهِ عُرىٰ. وحَلَقِ: جَمع حَلْقَه ـ بسكون اللام ـ وكلّ شيء آستدار فَهُوَ حَلْقَة. وأطْرَق: سَكت ولَم يَتَكَلَّم.

الإِعْرَاب:

وَلَقَدْ الوَاو للقَسم أي والله لَقَدْ. وشُكْراً مَفْعُول من أجله لمَا تَقَدَّم من الأفعَال.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ). الخِطَاب لأَهْلِ الْكُوفَة، ومن حُسن الجُوار أنْ لا تَحسد الجَار، ولا تُذيع عنهُ مَا تَراه من عَيبٍ، وأنْ تَكُف عن إزْعَاجه، وتَصبر عليهِ ما أَمكن (وَ أَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ) حَميتُكُم، ودَافعتُ عنكُم (وَ أَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وَ حَلَقِ الضَّيْمِ). كَان الْوَالِي من قَبل يَسُومهم الخَسف، فحكمهُم الإِمَام بالحَقِّ، والعَدْل (شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ) وهُو بَعْض أعمالهم الصَّالِحَة (وَ إِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَ شَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ). شهده البَدن عَطف تَفْسِير عَلىٰ مَا أراه الْبَصَر أي الحِس، والعَيان، والْمَعْنَىٰ أنّه تجَاهْل الكَثِير مِمَّا عَانَاه منهُم وقَاسَاه.

وَقَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد: «إنْ قلتَ: كَيْفَ جَاز لِلإِمَامِ أنْ يَغض الطَّرف عن الْمُنْكَر؟. قلت: يَجوز لهُ ذَلِكَ إذَا عَلِم أو غَلِب علىٰ ظَنه أنّهم لا يَرتدعُون»[1].

وتَبعهُ فِي هَذَا الجَوَاب من جَاء بَعْدَه من الشَّارِحِين!. والَّذي نَفهمه نَحنُ أنّ الإِمَام تجَاهْل عن حقّهِ الخَاص لا عن غَيْره من الْمُنْكَر، ويدل عَلىٰ إِرَادَة هَذَا الْمَعْنَىٰ قول الإِمَام: «لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَزِبْرِجِهِ»[2].

(١) أُنظر، شَرح النَّهج: ٩/٢٢١.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلْخُطبَةُ (٧٤). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٦٠-

عَظَمَتُهُ تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَ حِكْمَةٌ، وَ رِضَاهُ أَمَانٌ وَ رَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَ يَعْفُو بِحِلْمٍ.

أَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا تَأْخُذُ وَ تُعْطِي، وَ عَلَىٰ مَا تُعَافِي وَ تَبْتَلِي، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَىٰ الْحَمْدِ لَكَ، وَ أَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَ أَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ.

حَمْداً يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَ يَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لاٰ يُحْجَبُ عَنْكَ، وَ لاٰ يُقْصَرُ دُونَكَ. حَمْداً لاٰ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَ لاٰ يَفْنَىٰ مَدَدُهُ[1]. فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلاّٰ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ ﴿حَيٌّ قَيُّومُ لاٰ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ، وَ لاٰ نَوْمٌ﴾[1]. لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَ لَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَ أَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ، وَ أَخَذْتَ ﴿بِالنَّوَٰصِي وَ ٱلْأَقْدَامِ﴾[2]. وَ مَا الَّذِي نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وَ نَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَ نَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَ مَا

---

(١) أقتباساً من الآيَة الكَرِيمَة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ٱلبَقَرَة: ٢٥٥.

(٢) ٱلرَّحْمَٰن: ٤١.

تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَ قَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَ انْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَ حَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا، وَ بَيْنَهُ أَعْظَمُ[٢]. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَ أَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَ كَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَ كَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَ كَيْفَ مَدَدْتَ عَلَىٰ مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَ عَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَ سَمْعُهُ وَالِهاً، وَ فِكْرُهُ حَائِراً[٣].

اللُّغَة:

ذَرَأَ: خَلَقَ. حَسِيراً: مُتعباً يَضعف عن الرُّؤية. مَبْهُوراً: مَغلوباً. ووَالِهاً: بِلا شعُور. حَائِراً: حَيرَان فِي أمْرِهِ.

الإِعْرَاب:

حَمْداً نُصب عَلىٰ أنّه مَفْعُول مُطلق للْحَمْد المُتقدم، وَكَيْفَ حَال، وحَسِيراً حَال، ومثلهُ ما بَعْدَه.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَ حِكْمَةٌ). الْمُرَاد بأمْرِه تَعَالىٰ إرادتهُ التَّشريعِية، والتَّكوينِية، والأُولَىٰ أَمْرَه تَعَالىٰ ونَهيه، والثَّانِيَة قَوْله للشّيء: كُن فَيَكُونُ[١]، ومَعْنَىٰ قَضَاءً التَّشرِيع إبرَامه، ووجوب طاعته، وتَنفِيذه بِلا اعتِراضٍ، أو تَعدِيل، والْمُرَاد

(١) أنظر علىٰ سَبِيل المثال: الكَافِي: ١/١٥١ ح ٤، أجود التَّقرِيرات للسَّيد الخوئي: ١/٩٢، تَفْسِير الميزان: ١٦/٣١٣، فضل آل البَيْت للمَقرِيزي: ٨٩.

بحِكْمَتهِ سُبْحَانَهُ أنّ العَبث يَسْتَحِيل فِي حقّهِ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً﴾[١]. (وَ رِضَاهُ أَمَانٌ وَ رَحْمَةٌ). وأقرب السُّبل إلىٰ الله رِضْوَانه رَحْمَتَه، والأَمَان من غضبه، وعذَابه ـ الْعَمَل الصَّالح العَام، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٢]... أَبَداً لَيْست البطُولات، ولا الإِنْتِصَارات، ولا العَبقريات ـ بشيء عِند الله إلاّ إذَا تَرك ٱلإِنْسَان شَيْئاً جَدِيداً، ومُفِيداً لأخِيه ٱلإِنْسَان (يَـقْضِي بِـعِلْمٍ) أي الشَّيء الَّـذي يَقضِي بهِ هو حَقّ، وخَير، لأنّه يَعلم حَقِيقتها، وموارِدهُمـا (وَ يَـعْفُو بِـحِلْمٍ) ولا يَخشىٰ من العوَاقِب إذَا أدّب، وعذّب.

مَعْنَىٰ الْحَمْدُ الدَّائِم:

(أَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا تَأْخُذُ وَ تُعْطِي، وَ عَلَىٰ مَا تُـعَافِي وَ تَـبْتَلِي.... إلخ) والتَّسبِيح، والتَّحمِيد، والتَّهلِيل ـ شُكر، وعِبادة بِـلا شَكّ، ولكـن هُـناك شُكـراً أفضَل، وأرْوَع، وهو دَمُ حُرّ زَكيّ يُراق من أجل الدِّين، والوَطن، وعَرَقٌ طَاهر نَقِي يُصب من أجل العِيال، والأَطْـفَال، وقـولٌ صرِيحٌ وجَـرِيء تُكـافح بـهِ الطُّـغاة المُعتدِين، وتُناصر الهُداة المُجاهدِين، وهَذَا الْمَعْنَىٰ هـو الَّـذي أرادهُ الإِمَـام وعَـنَاه بقَوْله: (حَمْداً لاٰ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَ لاٰ يَفْنَىٰ مَدَدُهُ). إنّ الْحَمْد بـالأقوال يَـذهب مَـع الرِّيح، والَّذي لا يَنقطع عَدده، ولا يفنىٰ أمدَه هو الأثـر النَّـبيل الصَّـالح، والـعَمَل النَّافع: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣].

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٩١.
(٢) فَاطِرٍ: ١٠.
(٣) ٱلرَّعْد: ١٧.

(فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ). نَحنُ لا نَملك من أدوات الْمَعْرِفَة إلّا الحَوَاس الظَّاهِرة والْعَقْل، والحَوَاس تَدرك الأَشْيَاء المَادِية كالمَلمُوسات، والمَرئيات، والمَسمُوعَات، والرَّوائح، والمذَاقَات... تعَالىٰ الله عن ذَلِكَ علواً كَبِيراً... أمّا الْعَقْل فإنَّه يَدرك المَحدُود، والمُتناهِي، ولا حَدّ، ونهايَة لذّات الله، وعَظَمته (نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومُ).

الله حَيٌّ، لأنّه مَصْدَر ٱلْحَيَاة، وإنّه قَادر، وعَالِم، ومُريد، والله قَائِم بذَاته مُقِيم لِغيره، لأنَّه واجب الوجُود، لا يَفْتَقِر إلىٰ شيء، ويَفْتَقِر إلَيْهِ كلّ شيء ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1] لأنّ النَّوْم من صِفَات الأجْسَام، والله مُنَزَّه عَنْهَا... هَذَا، إلىٰ أنّ النَّوْم ضَرب من الْمَوْت (لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَ لَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ) لأنّ الْبَصَر يَدرك الطَّبِيعَة، والله فوقها، وخَالقها.

(أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَ أَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ). يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ[2]، وبِمَا يَفعَلُونَ عَلِيم (وَ أَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي، وَٱلْأَقْدَامِ). لا فَوْت. الكلّ فِي قَبضته (وَ مَا الَّذِي نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وَ نَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَ نَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ... إلخ). نَحنُ نَعلم بوجُوده تَعَالىٰ، وإنّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لأنّ الآثَار هِي الّتي أرشدتنا إلىٰ ذَلِكَ. أمّا العِلم بالذَّات، وبجمِيع مَا لها من أوصَاف ـ فلا سَبيل إلَيْهِ، لأنّ مَا مِن شيء نُحاول الانطلاق منهُ إلىٰ العِلم بهَذه العَظمة إلّا وَهِي فَوْقه، وإذَنْ كَيْفَ ٱلسَّبِيل؟ وأين هُو؟.

وللتَّقرِيب، والتَّوضِيح نَضرب هَذَا المِثال: مِن ضَوء الشّمس نَعلم أَنَّهَا موجُودة، أمّا العِلم بحَقِيقَة الشَّمس، وعناصرها فِيحتَاج إلىٰ وَسِيلة أُخرىٰ غَيْر

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٥٥.

(٢) يقصد الآية (١٩) من سُورَة غَافِر: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

الضَّوء، فإنْ وجدنَاها فذَاك وإلّا انسد بَاب العِلم... وهذَه آثَاره تَدل عَلىٰ وُجُودِه تَعَالىٰ، فأَين الدَّلائِل عَلىٰ كُنْهَ ذَاته، ومدىٰ عَظَمَته؟.

(فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَ أَعْمَلَ فِكْرَهُ. إلخ) الْعَقْل يُدرك القَوانِين الْعَامَّة الّتي تَربط بَيْنَ الأحداث المُتَكَرِّرة المُتشابهة، ويُفهم أنّ هناك صِلة وثِيقة فِيما بَيْنَها ـ مَثلاً ـ إذَا رأىٰ العَالِم التُّفاحة تَسقط من الشَّجَرَة، ورأىٰ غَيْرها من الأجْسَام يهوِي من عُـلوٍ إلىٰ الأَرْض، أدرَك بعَقْله أنّ وَرَاء هَذِه الأحْدَاث المُتشابِهة قُوَّة تَربط بَيْنَهَا، وَهِي قَانون الجَاذبِية، ولكن الْعَقْل لا يُدرك حَقِيقَة الْقُدْرَة الْأُولىٰ الّتي أوجدت هَذِه الأحْدَاث، ولا متىٰ وِجد الكَوْن الَّذي تَقع فيهِ هَذِه الأحْدَاث؟ أو كَيْفَ وِجـد؟ وقَـد أَجـهد الْعُلَمَاء أفْكَارهم فِي الْبَحْث عن ذَلِك، وكلّ مَا قَالوه مُجرد حَدس، وتَخمِين، ومـن أجل هَذَا لَم يَتفقوا عَلىٰ الكَلِمَة الأخِيرة، وتكلمنَا عن ذَلِكَ مُفصلاً[1].

يَدَّعِي أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ، كَذَبَ وَ الْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لاٰ يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِه؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَـاءٍ ـ إِلاّٰ رَجَـاءَ اللهِ تَـعَالَىٰ ـ فَـإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلاّٰ خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ. يَرْجُو اللهَ فِي الْكَبِيرِ، وَ يَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لاٰ يُعْطِي الرَّبَّ[٤]! فَمَا بَالُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَ تَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لاٰ تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذَٰلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لاٰ يُعْطِي رَبَّـهُ،

---

(١) أُنظر، مُفصلاً شرح الخُطْبَة: (١) فِقْرَة «حَوْلَ الكَوْن». (منهُ ﷺ).

فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً، وَوَعْداً. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا[٥].

اللُّغَة:

مَدْخُولٌ: مَغْشُوش، أو مَشْكُوك. ومُحَقَّقٌ: ثَابت. مَعْلُولٌ: غَيْر سَلِيم. ونَقْداً: حَالاً وَمُعجلاً. الضِّمَار: الْوَعْد مَع التَّسوِيف.

الْإِعْرَاب:

مَا بَالُهُ مُبْتَدَأ، وخَبَر، والْمَصْدَر من أَنْ تَكُونَ مَجرُور بمن مَحذُوفة، وكَذَلِكَ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذُوف أي والشَّأن، أو الْأَمْر كَذَلِكَ، وإِنْ هُوَ أي وإِنْ خَافَ هُوَ.

فَلْسَفَة الْخَوْف والرَّجَاء:

الرَّجَاء رَغْبَة، والْخَوْف رَهْبَة، وهُما الُمحرك الْأَسَاسِي لإِرَادَة ٱلإِنْسَان، فَما مِن شِيء يَفعلهُ، أو يَتركه بإِرَادتهِ، وٱخْتِياره إِلّا بَدافع مِن هَذِين، وهَذِه نَتِيجة طَبِيعِية، لأَنّ ٱلإِنْسَان بغَرِيزته يُرِيد العِيش، والتَّمتع بٱلْحَيَاة جهد طاقته... وقَد يَعلم ٱلإِنْسَان عَاقِبَة الفِعْل، أو التَّرك، فِيعمل بمُوجب عِلمه بلا كَلَام، وفَلسفات، وَإِذَا جَهل الْعَاقِبَة فَعلِيه أَنْ يَحفظ التَّوازن بَيْنَ الْخَوْف، والرَّجَاء، ولا يَدع أحدهُما يَتغلب عَلىٰ الآخر، لأنّ الْخَوْف بلا أَمل، أو بأَمل ضَعِيف ـ هَلع ويَأس، والْيَأس مَوْت، كما أنّ الْأَمَل بلا خَوْف تهور، ورعُونة، والتَّهور ٱنتحار، وقَدِيماً قِيل: لا

حَيَاة مع الْيَأْس، ولا يَأس مع الْحَيَاة.

وفِي الْقُرْآن الكَرِيم: ﴿وَلَاتَاْيْئَسُواْمِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَايَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].... ﴿أَفَأَمِنُواْمَكْرَ ٱللَّهِ فَلَايَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

وفِي بَعْض الرِّوَايَات: «خَفِ الله خِيفَة لَو جِئتهُ بِبر الثَّقلين لعَذبك، وأرج الله رَجاء لَو جِئته بِذنُوب الثَّقلِين لرَّحمك»[3]. وأُسلوب هَذِه الرّواية من أَبلغ أَسَالِيب التَّخوِيف والتَّحْذِير من مَعْصِيَته تَعَالىٰ وإلّا فإنّ الله سُبْحَانَهُ قَد كَتب عَلىٰ نَفْسِه الرَّحْمَة بالْمُتَّقِين، وأمنهم بقَوْله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4]. أجل، إنّ دَأب الْمُتَّقِين أنْ يُعادلوا بَيْنَ الْخَوْف، والرَّجَاء حَتَّىٰ ولو جَاءوا بِبر الثَّقلِين، وَقَالَ في وصفهم عَالِم شَاعر:

تَعادَل الْخَوْف فِيهِمْ والرَّجَاء فَلم ... يَفرط بِهِمْ طَمع يَوماً ولا وَجَل

والغَرض الأَوَّل، والأَخِير مِن هَذَا التَّوازن، والتَّعادل هُو وجُودالمُحرك والبَاعث علىٰ الجِد، والْعَمَل لجَلب المَنْفَعَة، ودَفع المَضرة... ولا رَيب فِي هَذَا من الوَجهة النَّظرِية ورَسم الخطوط العَرِيضة، ولكن صِحة النَّظرِية فِي نَفْسِها لا تَكفل النَّتِيجة، وكَثِيراً مَا تَصطدم بالمُلاَبسَات، والظّرُوف عِند التَّطبِيق بخَاصَّة إذَا كَان وَضع الإِنْسَان أبعد مَا يكُون عن الاِتزَان، والإِعْتِدَال... وعَلىٰ أية حَال فإذَا جَاز لواحدٍ

---

(١) يُوسُفَ: ٨٧.

(٢) الأَعْرَاف: ٩٩.

(٣) أنظر، الكَافِي: ٢/٦٧ ح ١، تحف العُقُول: ٣٧٥، وَسَائِل الشيعة: ١٥/٢١٦ (٢٠٣١١) ١ ـ، و٢٠٣١٦ ح ٦، بحَار الأَنْوار: ٧٥/٢٥٩ ح ١٥١.

(٤) البَقَرة: ٦٢.

من النَّاس أنْ ييأس عَلىٰ حِساب نَفْسه، فلا يجُوز لهُ اطلاَقاً أنْ ييأس عَلىٰ حِساب شَعبه، ووطنه، من ثبَّط، وخوْف من مُكافحة الخونة، والمُعتدِين فهُوَ خائن أثِيم أيّاً كَانَتْ ظرُوفه، وأوضَاعه.

المَعْنَىٰ:

(**يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لاَ يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ**). وخَير تَفْسِير هٰذه الجُملة مَا روي عن الإِمَام جَعفر الصَّادق عليه السلام فَقد سُئل عن قومٍ يَعملون بالمعَاصِي، ويقُولون: نَرجو... فقَالَ: «كَذبوا، إنّ من رَجا شَيْئاً طَلبهُ، ومَن خَاف من شيء هَرب منهُ»[1] (**وَكُلُّ رَجَاءٍ ـ إِلاَّ رَجَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ**). فِي الكلاَم تَقدِيم وتَأخِير، وأَصله: كُلّ رَجَاءٍ فإِنَّه مَدْخُول إلاَّ رَجَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ، ومعنَاه: إنّ أي عبدٍ رَجا عَبداً مثلهُ فرجَاؤه هَذَا لَيْس بشيء، أو شيء لا خَير فيهِ، لأنّ الله وحدهُ هو محل الأَمَل، والرَّجَاء (**وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلاَّ خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ**). أَيضاً فِي الكَلاَم تَقدِيمٍ، وتَأخِير، والأَصل: كُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ فإِنَّه مَعْلُولٌ إِلاَّ خَوْفَ اللهِ، ومعناه: إنّ مَن خَاف غَيْر الله فخَوفه مَوجُود بالبدِيهة، ولكن هَذَا الخَوْف مُجرد وهم، وفِي غَيْر محله لأنّ غَيْر الله أحْقر من أنْ يُخاف منهُ، والَّذي يَجب الخَوْف منهُ حقّاً هو الله وَحده: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ

---

(١) أنظر، فِقه الرّضا لعليّ بن بابويه: ٣٨٢، الكَافِي: ٢/٦٨ ح ٥، تُحف العُقُول: ٢١٣، وَسَائِل الشّيعة: ١٥/٢١٦ (٢٠٣١٢) ٢ ـ، بحار الأنوار: ٦٧/٣٥٧، حُسن الظّن لابن أبي الدُّنيا: ٩٨ ح ٩٢ وص: ١١٤ ح ١٣٢، كنز العُمّال: ٣/٧٠٨ ح ٨٥٢٦، تهذيب الكَمَال: ٢٨/٢١٦.

لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾[١].

(يَرْجُو اللهَ فِي الْكَبِيرِ، وَ يَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لاَ يُعْطِي الرَّبَّ). يَرْجُو اللهَ ويَطلبُ منهُ الْجَنَّةَ الّتي جَاء فِي وصفها: «مَا لاَ عَينٌ رَأت، ولا أُذنٌ سَمعت، ولا خَطر علىٰ قَلبِ بشَر»[٢]. يَطلب من الله هَذَا النَّعِيم الثَّمِين، ولا يَعمل لهُ، أو يَعمل القَلِيل!. ومن حِكم الإِمَام: «الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ»[٣].

والغَرِيب أنّ العَبد إِذَا رَجا مثلهُ، وطَلب منهُ القَلِيل الحقِير جَد، وٱجتهَد، وبَالغ في الْعَمَل لهُ، وعَلىٰ النَّقِيض إِذَا طَلب من الله!. وهَكذا يَشتري الزَّهِيد بأغلىٰ الْأَثْمَان، ويَبتغِي شِراء الثَّمِين بالزَّهِيد التَّافه. فأين الاِنْسجَام؟. وإنْ دَل هَذَا عَلىٰ شيء فإِنَّه يَدل عَلىٰ ضَعف الإِيمَان، وعَدم الثِّقَة باللهِ.

(فَمَا بَالُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟). مَا بَالُ اللهِ أي ما بَالُ حَقّ اللهِ، والْمُرَاد بِمَا يُصنع بِهِ ـ بالبنَاء للمجهُول ـ الشّيء المَصنُوع، وهـو مـعرُوف الله وإِحْسَانه، والْمَعْنَىٰ لِمَاذا تَتهاونُون بِحَقِّ الله سُبْحَانَهُ، وتَقصرُون عن شُكر مَا صَنعه لكُم من الْمَعْرُوف، والإِحْسَان؟. هَذَا مَا عِنْدَنَا فِي تَفْسِير هَذِه الجُملة الغَامضة، وقَد تَجاوز عن توضِيحها بَعْض الشَّارِحِين، وفَسرها آخر بِمَا زَادها تَعقِيداً وغمُوضاً.

(أَ تَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟). لِمَاذا لا تَعمل لله إِذَا رَجُوته، وتَعمل

---

(١) ٱلْفَتْح: ١١.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٦/٤، صَحِيح مُسْلِم: ١٢١/١، مُسْنَد أَحمَد: ٣٧٠/٢، سُنن ٱبن مَاجه: ١٤٤٧/٢، سُنن الدَّارمي: ٣٣٢/٢، الغَارَات: ٨٥٥/٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٤٧٨/١٠ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٢/٦، ثوَاب الأَعمَال: ٥٦، نَيل الأَوطَار: ١٥٥/٢، المحلىٰ: ١٢/١.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٣٧).

كَثِيراً لغِيره إذَا رَجُوت منهُ القَلِيل ؟ هل مَعْنَىٰ هَذَا فِي مَفهُومك أنّ من كَانَ مثلك فِي حقَارته لا يَنْبَغِي أنْ يَسأل من الله شَيْئاً ، لأنّه تَعَالىٰ لا يُفِيض الْخَيْر إلّا عَلىٰ مَن هو أجلّ وأعظم ، فإنْ كَانَ الأَمْر عَلىٰ هَذَا فأنْتَ مُخطىء فِي ظَنّك ، لأنّ رَحْمَة الله وسِعت كلّ شيء ، ومَا أَغلق بَابه دُونَ الرَّاغب أيّاً كَان ، ومَـا عَـلىٰ الرَّاجِـي إلّا أنْ يَـقف ويَقرع . ولقَد جَربتُ ، واللهِ ، فَفتح لِي بَابه الكَرِيم عَلىٰ مصرَاعِيه . أحمدهُ تَعَالىٰ ولا أحمد أحداً غَيْره (أَوْ تَكُونَ لاٰ تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً ؟) . أنْتَ لا تَرجُو الله بدَافع الجِد لأنّك لا تَراه أهلاً للرَّجاء ، وإذَنْ فقَد أسأت الظَّن باللهِ . وهَذَا هو الْكُفْر بالذَّات .

(وَ كَذَلِكَ إنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لاٰ يُعْطِي رَبَّهُ ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً ، وَ خَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً ، وَ وَعْداً) أي أنّه يَخاف عَبداً مثلهُ أَكْثَر مِمَّا يَخاف الله . والحَقّ أنّ أَكْثَر النَّاس يُحبُون العَاجلة ، ويَـذرُون الآخِـرَةِ ، ويَخافُون العِقاب المُؤجل أَكْثَر بكثِير من العِقاب المُؤجل ، وقَوْله تَعَالىٰ : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1] . يُومىء إلىٰ ذَلِكَ ... أَللَّهُمَّ إلّا مَن آمن باللهِ كأنّه يَراه . وعَـلىٰ أيّة حَال فـإنّ الَّـذي عَـناه الإمَـامﷺ ، وأراده أنّ حُبّ الدُّنْـيا ، والاِنْـدفَاع وَرَاء الشَّهوات لا يَجْتَمِع بحَالٍ مع الْخَوْف من اللهِ حقّاً ، وصِدقاً .

ومن أجلِ هَذَا قَالَ بلا فَاصل : (وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِـي عَـيْنِهِ ، وَ كَـبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ، آثَرَهَا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا ، وَ صَارَ عَـبْداً لَـهَا) شَـيْئان مُتلازَمَان كالظّل لصَّاحبه : مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ آختارها عَلىٰ طَاعة الخَالِق لا مَحَالَة ، ومَنْ عَظُم الخَالِق فِي نَفْسِه آختار طَاعته عَلىٰ الدُّنْيَا ومَا فِيها .

(١) ٱلبَقرَة : ١٧٩.

وإِلىٰ هَذَا أشَار الإِمَام في بَعْض حِكْمه: «إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عُدْوَان مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَ عَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا؛ كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ!»[1]. وأشرنا فيمّا تَقدَّم أنّ الدُّنيَا المَذمُومَة هِي دُنيَا الحَرَام لا مُطلق الدُّنيا[2].

مُحَمَّدٌ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ...فِقْرَة ٦ ـ ٩:

وَ لَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ، وَ دَلِيلٌ لَكَ عَلَىٰ ذَمِّ الدُّنْيَا، وَ عَيْبِهَا، وَ كَثْرَةِ مَخَازِيهَا، وَ مَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَ وُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَ فُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَ زُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا[6].

وَ إِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَىٰ كَلِيمِ اللهِ ـ ﷺ ـ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[3]. وَ اللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَ لَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَىٰ مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ، وَ تَشَذُّبِ لَحْمِهِ[7].

وَ إِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ ـ ﷺ ـ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَ قَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَ يَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَ يَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا[8].

وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ـ ﷺ ـ فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَ يَلْبَسُ

(١) أنظر، نهج البلاغة: الحِكْمَة (١٠٣).

(٢) أنظر، شرح الخُطْبَة: (١٠٩).

(٣) القَصَص: ٢٤.

الْخَشِنَ ، وَ يَأْكُلُ الْجَشِبَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ ، وَ سِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَ ظِلاَلُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ ، وَ مَغَارِبَهَا ، وَ فَاكِهَتُهُ ، وَ رَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ، وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَ لاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَ لاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَ لاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ ، وَ خَادِمُهُ يَدَاهُ(٩) !

اللُّغَة:

الْأُسْوَة : القُدْوَة . والأَكْنَاف : الجُوانِب . وَزُوِيَ : ٱنْقَبض . وٱلزُّخْرُفِ : الزِّينَة ، وزُخْرُف الْقَوْل بَاطله . والْبَقْل : النَّبات يَنبت فِي بَزرِهِ لا فِي جذورِهِ.

والشَّفِيفِ : الرَّقِيق . وصِفَاقِ البَطْنِ : الجِلد الأسفل إذَا ٱنشق كَان منهُ الفَتق .

وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ : تَفرق ، وتَشَقق . والْمَزَامِيرِ : جَمع المزْمَار ، أي آلة التَّزمِير .

والْخُوصِ : وَرق النَّخل . وأَسَفَّ الخُوص : نَسَجه . وسفَائِفه : مَنسُوجَاته .

والْجَشِبَ : الغَلِيظ . والإِدَامُ : مَا يُوكل مَع الخُبز . والْمُرَاد بالظِّلاَلِ هنا المَأوىٰ .

الإِعْرَاب:

فِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ أي فِي سِيرة رَسُول الله ، وكَافٍ ٱسم كَانَ ، وَدَلِيلٌ عَطفٌ عَلَيْهِ ، وصَاحِبِ الْمَزَامِيرِ صِفَة لِدَاوُدَ .

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ ، وَ دَلِيلٌ لَكَ عَلَىٰ ذَمِّ الدُّنْيَا)

الغَرض الأَوَّل مِن حَث الإِمَام عَلىٰ الزُّهْد ، وضَرب الأَمْثَال من حَيَاة الزَّاهِدِين هُو

أنْ يُبين حَقِيقَة الدُّنْيَا، وإنَّها تُطلب بالجد، والتَّعَاون كوسِيلة لتَّأمِين ٱلحْيَاة، وتوافر أسبابها للجَمِيع، وإنّ عِبادة المْال من دُونَ الله، والحْقّ تُؤدِّي حَتمّاً إلىٰ سِيطرة الشَّر والْفَسَاد، وإشَاعة الأحْقَاد، والأضْغَان. وأشَار إلىٰ سِيرة أَرْبَعَة مِن النَّبِيِّين مَع الدُّنْيَا كَدلِيل عَلىٰ عيُوبها، ومخَازِيها، ومَسَاوِيهَا، وبالأصحّ عَلىٰ عيُوب مَن تَهالك عَلىٰ الدُّنْيَا، وزِينتهَا، وشَهوَاتِهَا، وأَوّل الأَرْبَعَة مُحَمّدﷺ. (إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَ وُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَ فُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَ زُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا) مُحَمّدﷺ هُو الَّذي قَبض يَدَه عَن دُنْيَا وأَطْرَافهَا، وفَطم نَفْسه عَن رضاعها، فقد كَانَتْ أَمْوَال الجْزِيرة العَرَبِيَّة فِي قَبضتهِ، وطوع آرادته، وكَان يَأْتِيه مِنْهَا بِمئات الأُلوف، فيُؤثر بها النَّاس عَلىٰ نَفْسِه، ويَعِيش كَمَا تَعِيش الأُسر الْفَقِيرَة... وبَعد قَلِيل يَعود الإِمَام فِي هَذِه ٱلخُطْبَة مَرّة ثَانِيَة إلىٰ سِيرة الرَّسُول الأَعْظَمﷺ، ونَعود معهُ إلىٰ الشَّرح والتَّفصِيل.

(وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَىٰ كَلِيمِ اللهِ ـﷺـ... إلخ) خَرج مُوسَىٰ من مِصْر خَائِفاً يَترقب أنْ تَلحق بِهِ جلاوزة فِرْعَوْنَ، وسَار ثمَانِية أيّام فِي صَحراء مُمتدة الأطرَاف بلا زَادٍ، ورَاحلة، وكَان يَأْكُل مِن نَبات الأَرْض، فأَنْهكَهُ التَّعَبُ، والجُوع حَتَّىٰ دَقّ عَظمه، ورقّ جِلده، وتَشقق لحَمه، وكَان النَّاظر إِلَيْهِ يَرىٰ خُضرة النَّبات فِي جوفَه من شِدّة ضَعفه، وهزَاله، ولمّا بَلغ إلىٰ هَذِه الحَال سَأل رَبّه رَغِيفاً يَدفع بـهِ خَطر الْمَوْت جُوعاً[1]... والْعِبْرَة، أو الشَّاهد فِي سُؤاله هَذَا أنّ الدُّنْيَا تُطلب لسّد الحَاجَة

(١) أنظر، قِصَّة خرُوج مُوسَىٰﷺ في زاد المسير لِابن الجوزي: ٦/٩٤، إكمال الدِّين وإتمام النِّعمَة: ١٥٠، بحار الأَنْوار: ١٣/٤١، مجْمَع الزّوائد: ٧/٥٩، السُّنن الْكُبْرَىٰ للنّسائي: ٦/٣٩٩، تفْسِير الميزان: ١٦/٢٨.

من المأكل، والملبس، والمسكن، ولا تطلب لتكديس الثروات، والتضاهي، والتباهي، ولو خلقها الله لهذه الغاية لما زواها عن رسله، وأنبيائه.

(وَ إِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ ـ عليه السلام ـ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ... إلخ) تقول التوراة الّتي بَيْنَ أَيْدِينَا: إنّ دَاوُدَ ارتكب خطايا يندىٰ لها الجبين خجلاً، أمّا القرآن الكريم فقد أوصىٰ محمّداً صلى الله عليه وآله أنْ يكُون أوّاباً، وصابراً علىٰ أعْداء الله كداوُدَ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1]. وفي كُتب الحَدِيث: إنّ دَاوُد كَان كثِير الْبُكَاء خوْفاً من الله، وإنّه كَانَ يقوم اللّيْل، ويصُوم النّهار، ولا يأكُل إلّا من كَسب يَده... هَذَا، وهو مَلك وقد دَام مُلكه أرْبَعِين عَاماً... ومحل الشّاهد فِي سِيرته أنّ الدُّنْيا كَانَتْ فِي قبضته، ولَكِنَّهُ أبىٰ أنْ يأْكُل إلّا من كَدّ اليَمِين، وعَرَق الجَبِين، لأنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَقُول للعَبد غداً: مِن أين لَك هَذَا إلّا إذَا أخذه بلا كَدٍّ وجهْدٍ[2].

(وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَىٰ ٱبْنِ مَرْيَمَ ـ عليه السلام ـ فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ... إلخ) قَالَ الْعَقَّاد فِي حَيَاة ٱلْمَسِيح: «إنّ أُسلوبه هو أُسلوب الآدَاب، والمُثل العُليا، ولَيْس بأُسلوب النّصُوص والقَوَانِين، وأُسلوب ٱلإِنْسَانِية يَرجع الأَمْر فيها إلىٰ الضّمِير، ولا يَرجع إلىٰ القَاضِي»[3]. وَقَالَ غَيْر الْعَقَّاد: «إنّ النَّاس فِي عَصر ٱلْمَسِيح أسرفُوا

⇐ تفسير جامع البَيَان: ٢٠/٦٥، تفسِير القُرطبي: ١٣/٢٦٦، تأريخ مدينة دمشق: ٦١/٣٣، البداية والنّهاية: ١/٢٨٠.

(١) سُورَة ص: ١٧.

(٢) أنظر، مزامير داود في المزمار الثالث والخمسين وبشائر عويديا. التبيان للشّيخ الطّوسي: ٨/٥٥٥، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢/٤٧١، الدُّر المنثور: ٤/١٨٨.

(٣) أنظر، حياة ٱلْمَسِيح: ١٢٥. (مِنْهُ رحمه الله).

في المَاديات فَدعت الضَّرورة إِلىٰ مُرشد يَغرق في الرُّوحِيات»[1]. ولَيْس من شكّ أنّ السَّيِّد ٱلْمَسِيح جَاء بأسمىٰ الْقِيَّم ٱلإِنْسَانِية، وعَاش بنَفْسِه هَـٰذِه الْـقِيَّم ليكُـون لِعصرهِ وغَيْر عَصره نمُوذجاً يُحتذىٰ، وحُجّة علىٰ الَّذِين يَـتنافسُون عَـلىٰ الثَّراء، والسِّيطرَة .... ومَا أبعد المسَافة بَيْنَ حَـيَاة ٱلْمَسِـيح وتَـعاليمه، وبَـيْنَ المَسِـيحِيين الْيَوْم!.. لقَدكَان الْحَجَرَ وسَادتَه، والْخَشِنَ لِباسَهُ، والْجُوعَ إِدَامُهُ، و ٱلْقَمَر سِرَاجُهُ، والْفَضَاء مَسْكَنَهُ، ووَ خَادِمُهُ يَدَاهُ، ودَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، كَما قَالَ الإِمَـام... ومَـع هَـذَا يَدعِي الَّذِين لا يُؤْمِنُون إلّا بالرِّبح، والإِحْتِكَار، ويَسْلكُون كلّ طَرِيق لِكي يحولوا العَالم كلّه إِلىٰ شِركة مُساهمة يَملك أسهمها أَصْحَاب المـلايين، يَدعِي هَؤُلَآء أنّهـم عَلىٰ دِين ٱلْمَسِيح، وسِيرته، وسُنَّته.

الدُّنْيَا وَمُحَمّد...فِقْرَة ١٠ ـ ١٣:

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ ـ ﷺ ـ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَـأَسَّىٰ، وَ عَـزَاءً لِـمَنْ تَعَزَّىٰ. وَ أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَىٰ اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَ الْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَ لَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَ أَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَهَا، وَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَ حَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَ صَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَ رَسُولُهُ، وَ تَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَ رَسُولُهُ، لَكَفَىٰ بِهِ شِقَاقاً للهِ، وَ مُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ[10]. وَ لَقَدْ كَانَ ـ ﷺ ـ يَأْكُلُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَ يَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَ يَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَ يَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ،

(١) أُنظر، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير للمناوي: ٤١٢/٦، تـفسِير المِيزان: ٢٤٢/٥، فتح القـدير للشوكاني: ٢٤/٢.

وَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَ يَكُونُ السِّتْرُ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فُلَانَةُ ـ لِإِحْدَىٰ أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَ لاَ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَ لاَ يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَ أَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَ غَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ. وَ كَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ(١١).

وَ لَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ مَسَاوِئِ الدُّنْيَا، وَ عُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَ زُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَ اللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَ إِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَ زَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّىٰ مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَ اقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَ وَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَ إِلاَّ فَلاَ يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَ مُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَ مُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَ وَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَىٰ حَجَرٍ، حَتَّىٰ مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ، وَ أَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَ قَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَ اللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَ لَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ(١٢)!

اللُّغَة:

العَزَاء: الصَّبر، ومَعْنَىٰ تَعزَّ بعَزَاء الله: امتثل أَمْرَه بالصَّبر. وقَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً: لَم

يَملأ مِنْهَا فَه. عَلىٰ العَكس من الخَضم، كما قَالَ الإِمَام عن الأُمَويين: «يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ»[1]، ومنهُ البَحر الخِضَمّ. وأَخْمَصُهُمْ: أَكْثَرهُم ضمُوراً. وَيَخْصِفُ النَّعْلَ: يَخْرزها. والرِّيَاش: اللِّبَاس الفَاخر. وأَشْخَصَهَا: أَبعَدَها. ومَعَ خَاصَّتِهِ: مَعَ مَنْزلته الخَاصَّة عِند الله وعَظِيمِ زُلْفَتِهِ. وخَمِيصاً: ضَامِراً. نَطَأُ عَقِبَهُ: نَقْتَفِي أثَره. والسُّرَىٰ: السَّير لَيلاً. والمِدْرَعَة: جُبَّة مَشْقُوقة مِن الأَمَام تُصنع مِن الصّوف[2].

الإِعْرَاب:

بَطْناً تَمْيِز، شِقَاقاً، وخَمِيصاً حَال، سَلِياً، ومَا أَعْظَمَ «مَا» مُبْتَدَأ، وأَعْظَمَ فِعل مَاضٍ وفيهِ ضَمِير مُستتر يَعُود عَلىٰ «مَا» ومِنَّةَ الله مَفْعُول.

وسلفاً حَال، ومثله قائداً.

المَعْنَىٰ:

وفِي العَدِيد من ٱلخُطَبِ المُتقدمة تَكَلَّم الإِمَام عن رَسُول الله ﷺ كمُنقذ للإِنْسَانِية من التَّخلُف في كلِّ مَيدان، وأنّه حققَّ الغَايَة مِن رِسَالَة الله سُبْحَانَهُ الّتي أشَار إِلَيْهَا بقَوْله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3]. وقَوْله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٣) المَعْرُوفَة بالشّقشِقيّة.

(٢) أُنظر، لِسَان العَرب مَادَّة «درع»: ٢٨/٨.

(٣) ٱلحَدِيدِ: ٩.

ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

وفِي ٱلْخُطْبَة الّتي نَحْنُ بصددها تَكَلَّم الْإمَـام عـن حَـيَاة النَّـبِيّ ﷺ، العَـادِية، وتَصرفَاته مع نَفْسه، وفي بَيْتِه كقَوْله: (قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً) أي مَا أَصَابَ مِـنْهَا إلّا بِقَدر الْحَاجَة والضَّرُورة، وقَوْله: (وَ يَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَ يَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَ يُرْدِفُ خَلْفَهُ... إلخ) ومَا هَذَا التَّحقِير للدُّنْيَا، والزُّهْد فِـيها إلّا تَواضعُ لله نَابعٌ من ذَات النَّبِيّ، وشخصِيتِه، وطَبعِهِ، وطَابعه بـلا تَـصادم مِـيُول، وزُواجر، وتَغلب الْعَقْل علىٰ الْمشَاعر.

وتَسْأَل: إذَا كَان زُهد النَّبِيّ ﷺ في الدُّنْيَا نَابعاً مـن ذَاتـهِ فكَـيْفَ يَأمـر الْإِمَـام بالتَّأَسِي والاِقتدَاء؟ وهل نفُوس النَّاس كَنفُوس ٱلْأَنْبِيَاء فِي طُـهرِهَا، وصـفَائِهَا؟ وَمَن الَّذي يَقدر، ويَسْتَطِيع أنْ يُغير ذَاته، وطَبعه؟.

الجَوَاب:

مُراد الْإِمَام بالتَّأَسِي هُنا أنْ لاَ نتهَالك، ونتكَالب عَلىٰ الدُّنْيَا، ونُثِير من أجلهما الْحُرُوب، ونَفتح أبواب الْفَسَاد، والجَلاد... هَذَا، إِلىٰ أنّ ٱلإِنْسَان يَسْتَطِيع الصَّبر عَلىٰ جِهاد نَفْسه، وكَبحهَا إذَا مَالت إلىٰ مَا يَضُرّ بدينه، أو دُنياه.

(وَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَ حَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَ صَـغَّرَ شَـيْئاً فَصَغَّرَهُ) ٱستجَاب النَّبِيّ ﷺ، لأمر الله، وأطَاعه بـفطرتهِ، وسـجِيته بـلا تكـلف، وتثَاقل (وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَ رَسُولُهُ... إِلىٰ أَمْرِ اللهِ) كَيْفَ تَدعِي

(١) ٱلْفَتح: ٢٨.

الإيمَان باللهِ ورسوله، وأنْتَ تكره مَا يُحبان، وتُحب مَا يَكرهان؟ أَليس هَذَا صدُوداً، وعنَاداً لله ورسوله الله؟ (وَ لَقَدْكَانَ ـ ﷺ ـ يَأْكُلُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَ يَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَ يَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ... الخ) وأيضاً في كُتب السِّيرَة: «أنّه كَان في طعَامه لا يَرد موجُوداً، ولا يَتكلف مَفْقُوداً، وأنّه كَان يَشد عَلىٰ بطنِهِ حَجراً من المجَاعة[1]، وكَان قَدحه من خشبٍ غَليظ يَشرب فيه، ويَسقي أَصْحَابه مُبتدئاً بالّذي عَلىٰ يَمِينه كَائناً مَن كَان عَلىٰ يَساره، وكَان يُحبّ النَّظافة، وحُسن المَظهر»[2].

(وَ لاٰ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً) بل يُعامل الدُّنْيَا كمَا هِي فِي وَاقعها من أَنَّهَا دَار مَمرٌّ لا دَار مَقرٌّ.

(فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَاللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ... إِلىٰ الْهَلَكَةَ). أنّ مكانَة مُحَمّد ﷺ عِند الله سُبْحَانَهُ لا تُقاس بِها أيّة مكَانة، فقد ٱصطفَاه ليكُون خَاتم النَّبِيِّين، وأثنىٰ عَلَيْهِ بِمَا يُثنِ بهِ عَلىٰ سواه، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. وأقْسَمَ بحيَاتِهِ، ولم يُقْسِم بحيَاة غَيْره كمَا فِي الآيَة: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4] ومَع هَذَا كَان يَمر عَلَيْهِ الشَّهر لا يَجد مَا يَخبزه[5]، ولو كَانَتْ الدُّنْيَا جزاءً، وثواباً من الله لأكرم بها مُحَمّداً

(١) أُنظر، مَجْمَع الزوائد: ٨/٣٠٧، المُصَنَّف لِابن أبي شيبة: ٧/٣٧٧ ح ٣٦٨١١، شرح مَعَاني الآثَار: ٢/١٦، المُعْجَم الأوسط: ٣/٢٦٧، مُسْنَد أحمد: ٣/٤٤ ح ١١٤١٩، الزُّهْد لهناد: ٢/٣٩٤ ح ٧٦٥، فتح الباري: ٦/٥٨٩، صفوة الصفوة: ١/١٩٩، المُعْجَم الكَبِير: ٢٥/١٠٦.

(٢) أُنظر، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٧/١٨١، فيض القدير شرح الجَامع الصَّغِير: ٦/٤٠٥ ح ٣٩٧٨.

(٣) ٱلقَلَمِ: ٤.

(٤) ٱلحِجْر: ٧٢.

(٥) أُنظر، المبسوط للطوسي: ٢ / ١٩٦، المبسوط للسرخسي: ٢١ / ٦٤، تذكرة الفُقَهَاء: ٢ / ١١، تلخيص الحبير: ١٠ / ٢، المهذب: ٢/٤٣، السّنن الكُبْرَىٰ: ٦/٣٦، شرح الأزهار: ٣/٣٩٥.

حَبِيبه وصفُوته، ولكَان ٱلأَنْبِيَاء أحرص النَّاس عَلىٰ الدُّنْيَا... ومن أجل هوانهـا عَلَيْهِ تَعَالىٰ أبعْدَها عَنهم، وأبعدهُم عَنْهَا.

(فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَ مُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَ مُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ).

قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أي أنّ بِعثة مُحَمّدﷺ دَلِيل عَلىٰ قُرب السَّاعة حيثُ لا نَبِي بَعْدَه»[1]!. وهَذَا بَعيد عن الوَاقع، وعن دَلاَلَة الكَلاَم، لأنّه لا يُشير من قَرِيبٍ، أو بَعيدٍ إِلىٰ خَتم النُّبُوَّة، وٱلأَنْبِيَاء. والأقرب أنّ المُرَاد بالعَلَم ـ بفتح الْعَيْنِ ـ العَـلاَمَة، وبالسَّاعَةِ ٱلقِيَامَة، واللاَّم الدَّاخلة عَلَيْهَا للتَّعلِيل، والْمَعْنَىٰ أنّ الله سُـبْحَانَهُ أرسـل مُحَمّداً لكِي يُبلغ النَّاس بأَنَّ ٱلسَّاعَةَ أَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا، وأنّ ٱلْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ، وٱلنَّار لِلْغَاوِين.

مِدْرَعَة الْإِمَام تَنص عَلَيْهِ:

(وَ اللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّىٰ ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَ لَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَ لاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: ٱغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّـرَىٰ) ٱستدَل الشِّعَية عَلىٰ خِلاَفة الإِمَام بالنَّص كِتَاباً وسُنَّة، وذُهلوا عَن المِدْرَعَة، وَهِي ومَا إِلَيْهَا أصرَح، وأوضح من جَمِيع النُّصُوص، لأنّ النَّص فَرعٌ لا أصلٌ، وٱنعكاس عمّا هو واقع، وكائن بكلّ مَا فِيهِ، والمِدْرَعَة شَيء مَحْسُوس، ومَلمُوس تَنطق بِالْحَقّ عـن صَاحبه، وتَشهد بصِدقه فِيمَا قَالَ: «أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَـرْثَىٰ، وَأَكْـبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ[2]:

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢/٦٠.

(٢) يُنسب هذا البَيت لحاتم بن عبدالله الطّائي، كمَا في شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/١٩٤، بحَار الأنوَار: ٤٠/٣٤١.

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَال: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!.»[1].

وهل يُريد الْمُؤْمِنُون أَمِيراً يَلهُو عَنهم بنَفْسِه وذَوِيه، ولا يُشاركهم فِي مكَاره الدَّهْر؟. وهَل يكون أَمِيراً حقّاً، وصدقاً من لا يَرىٰ إلّا همُومه، ومشَاكله؟. ومن أَرَاد هَذَا الأَمِير، ورضِي بإمرته عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِين ـ فهل هو عند الله من الْمُؤْمِنِينَ وٱلْمُسْلِمِين؟.. ومن دَرس تَأرِيخ ٱلْمُسْلِمِين بَعد رسُول الله بتأمُلٍ، وإمعانٍ يَرىٰ أنّ قلوب الجمَاهِير كَانَتْ مَع عليّ، لأنّه النّاطق بلسَانهم، والمُعبر عن آمَالِهم، والثّائر من أجلهم في كلّ كَلِمَة من كلمَاته، وكلّ خُطوة من خُطواته. هَذَا هو المَنطق المَعقُول الّذي يَفرضه مُقتضىٰ الحَال، ويَدل عَلَيْهِ قُرص عَليّ، ومِدْرَعَته، وهُما ذَنْبَه الوَحِيد عِند مَن أبغضَهُ، وثَار عَلَيْهِ.

وبَعد، فإنّ نَظرية الإمَام، أو عَقِيدته فِي ٱلخَلِيفَة، والحَاكِم يُحددها قَوْله لعَاصم بن زِياد: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[2]. مُشاركته فِعلاً لاَ قولاً فقط للمُعْوزِينَ فِي مكَاره الْعَيْشِ... وهَذِه هِي أُمْنِيَّة عِباد الله، وعِياله، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3].

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: من كتابٍ له عليه السلام إلىٰ عَامله عُثْمَانَ بن حُنَيْف الأَنْصَاري رقم «٤٥».

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كَلَامٍ له عليه السلام بِالْبَصْرَةِ تَحتَ رَقم (٢٠٩).

(٣) ٱلْبَقَرَة: ٢٠٧، وَآلِ عِمْرَانَ: ٣٠.

الخطبة

-١٦١-

رَسُول الله ﷺ...فِقْرَة ١:

ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَ الْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَ الْمِنْهَاجِ الْبَادِي، وَ الْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَ شَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَ ثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَ هِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ. عَلاَ بِهَا ذِكْرُهُ، وَ ٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَ مَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَ دَعْوَةٍ مُتَلاَفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَ قَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَ بَيَّنَ بِهِ الأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ. فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيْناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَ تَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَ تَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَ يَكُنْ مَآبُهُ إِلَىٰ الْحُزْنِ الطَّوِيلِ، وَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

وَ أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ تَوَكُّلَ الإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَ أَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَىٰ جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَىٰ مَحَلِّ رَغْبَتِهِ(١).

اللُّغَة:

الْبَادِي: الظَّاهِر. وتَهَدَّلَت أغْصَان الشَّجَرَة: تدلت ثِمَارُهَا وسَهُل قُطافُها.

وطَيْبَةَ: المَدِينَة المُنَوَّرَة، ومن أسمَائها يَثْرِب. وتَلاَفِي الشَّيء: تَدارُكه. والْمَفْصُولَةَ الوَاضِحَة. وكَبْا الجَواد: عَثر.

الْمَعْنَىٰ:

(ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَ الْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَ الْـمِنْهَاجِ الْـبَادِي... إلخ) سَاد الجَهْل والظُّلم، والفُوضىٰ، والْكُفْر قبل مُحَمّدﷺ فَبعثهُ الله بالعِلم، والْعَدْل لِيُخرج النَّاس من الظُّلمات إلىٰ ٱلنُّورِ، وأَيده بِالبِينَات، والدَّلائِل عَلىٰ صَدقِهِ، وأمانتِهِ (أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ) لأنّ مِنْهَا إِسْمَاعِيلَ، وهَاشِماً، وعبد المُطلب (وَ شَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ) وَهِي أَهْل بَيْتِه، بِدليل قَوْله: (أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَ ثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ) كِنَاية عن العِلم، والْهِدَايَة، والخُلق، والاِسْتِقَامَة (مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ) الْمُكَرَّمَة، يَوْم الاْثْنَيْن ١٢ رَبيع الأَوَّل أو ١٧ مِنْهُ، عَام الفِيل المُوافق ٢٩ آب أُغسطس سَنَة ٥٨٠ مِيلادِية ـ كَمَا قِيل[1] (وَ هِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ) وَهِي المَدِينَة المُنَوَّرَة، وكَان ٱسمها يَثرب، فسمّاها رَسُول الله طَيْبَة، وسمّاها يَزِيد بن مُعَاوِيَة «خَبِيثَة»[2] عِنَاداً لِنَبِي الرَّحْمَة، والإِنْسَانِية (عَلاَ بِهَا ذِكْرُهُ ـ أي ذِكْرُ النَّبِيّ ـ وَ ٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ) فُتحت لهُ أبوَاباً جَدِيدة لاِنْتشَار دَعوته، فأسلَم أَهْلها، ومِنْهَا ٱمْتَدَّ الإِسْلاَم إلىٰ سَائر الأقْطَار شَرقاً وغَرباً.

---

(١) أُنظر، المقنعة للشّيخ المُفيد: ٤٥٦، كنز العُمّال: ٢٢٥/٧، الدُر المنثور: ٦٣/١، سُنن التِّرمِذي: ٢٤٩/٥، مُسْنَد أحمد: ٢١٥/٤، مَجْمَع الزّوائد: ١٩٦/١، و: ٢٥٧/٨، شرح الأزهار: ١٢٠/١، الإختصاص للشّيخ المُفيد: ١٣١، مُنْتَهىٰ المطلب للحلي: ٨٨٧/٢، سير أعلام النّبلاء: ٢٠/١، سيرة ٱبن هشام: ١٧١/١، شرح الأَخْبَار للقاضي النّعمان: ٢٣٣/٢، مصباح المُتهجد: ٧٩١.

(٢) أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لاِبْن قُتَيْبَة: ٢٣٩/١، تَحقِيق: الشِّيري، و: ١٨٤/١ تَحقِيق: الزّيني.

(أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَ مَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ) ، وَهِي الْقُرْآن ، وحُجَته إعْجَازه شَكلاً ، ومحتوىً ، ويَهْدِي لِلَّتِي هِىَ أَقْوَمُ (وَ دَعْوَةٍ مُتَلافِيَةٍ) لِمَا أَصَابَ ٱلإِنْسَانِية من الْفَسَاد والتَّخلف : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] . (أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ) وَهِي أحْكَام التَّورَاة والاِنْجِيل الّتي حرّفها الكَهنة ، والمُلُوك من أَهْل ٱلْكِتَاب ، وكَان الأمبرَاطُور ٱلْمَسِيحي بِمثل الحَبر الأَعْظَم ، ويَحكُم بٱسم الله (وَ قَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ)كَالوَّثَنِية والرُّهبَانِية ، وكَانَتْ الوَّثنِية آنذَاك عِبادَة الأحْجَار ، والأَخْشَاب ، أمّا وَثَنِية القَرن الْعِشْرِين فعِبَادة الأَمْوَال ، والإِحْتِكَار الّتي تَسببت فِي الحُرُوب ، والمذَابح ، والخرَاب ، والدّمَار... وألفُ تَحِية عَلىٰ عِبادة الأحْجَار ، والأبْقار (وَ بَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ) الوَاضحة الّتي نَسخ بِها الكَثِير من الأحْكَام السَّابقة .

كُلّ مَنْ ٱسْتسلَم لِلحَقِّ فَهُو مُسْلِمٌ:

(فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دَيْناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَ تَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَ تَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَ يَكُنْ مَآبُهُ إِلَىٰ الْحُزْنِ الطَّوِيلِ ، وَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ) أَبَداً لَن يَقبل الله إلّا الإِسْلاَم كَما نَطقت الآيَة : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] . ولِمَاذا لا يَقبل الله ، ولَن إلّا هَذَا الدِّين ؟ .

الجَوَاب : لأنّ الإِسْلاَم يُؤْمِن بِقِيمة ٱلإِنْسَان ، وكَرَامته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ

(١) ٱلأَعْرَافِ: ١٥٧.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٨٥.

ءَادَمَ﴾[١] ويُحرره من الرِّق، والعبُودِية لغير الله، والحَقّ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّـهُ﴾[٢] ومن الجَهْلِ والخُرَافةِ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، ومِن التَّعَصُّب والأهوَاء ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ﴾[٤].

وبكَلِمَة: إنّ الإِسْلاَم هو الاِسْتسلام لِلحَقِّ، فكلّ مَن اعتقد، أو قَالَ، أو فَعل بِالحَقِّ فهُو مُسْلِم، أو يَلتقِي مَع الإِسْلاَم فيَما اعتقده، أو فَعله سواء سُمي مُسلماً أم غَيْر مُسْلِم، وهَذَا المَعْنَىٰ هو الَّذي أشَار إِلَيْهِ الإِمَام، وعَناه الله سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٥]. ومَن عَرَف المُرَاد من هَذِه الآيَة الكَرِيمَة عَلىٰ التَّحقِيق يُؤْمِن بهما، ويَستسلم مهما كَانَتْ مِلَّته ونِحْلَتُه.

أغْلِّب نَفْسَكَ...فِقْرَة ٢ ـ ٣:

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَ طَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَ الْمَنْجَاةُ أَبَداً. رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَ رَغَّبَ فَأَسْبَغَ، وَ وَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا، وَ انْقِطَاعَهَا، وَ زَوَالَهَا، وَ انْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ، وَ أَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ ـ عِبَادَ اللهِ ـ غُمُومَهَا، وَ أَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ

(١) الإِسْرَاء: ٧٠.
(٢) الصَّافَّات: ٣٥.
(٣) الأَنفَال: ٢٢.
(٤) الجَاثِيَة: ٢٣.
(٥) آلِ عِمْرَان: ٨٥.

بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَ تَصَرُّفِ حَالاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، وَ الْمُجِدِّ الْكَادِحِ[٢]. وَ اعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَ زَالَتْ أَبْصَارُهُمْ، وَ أَسْمَاعُهُمْ، وَ ذَهَبَ شَرَفُهُمْ، وَ عِزُّهُمْ، وَ انْقَطَعَ سُرُورُهُمْ، وَ نَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلادِ فَقْدَهَا، وَ بِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا، لا يَتَفَاخَرُونَ، وَ لا يَتَنَاسَلُونَ، وَ لا يَتَزَاوَرُونَ، وَ لا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَ الْعَلَمَ قَائِمٌ، وَ الطَّرِيقَ جَدَدٌ، وَ السَّبِيلَ قَصْدٌ[٣].

اللُّغَة:

أَسْبَغَ: أَتَمَّ، وأحَاط. والنَّاصِح: النَّقِي مِن الغُش، يُقَال: نَاصِح الجيب أي نَقِي القَلْب لا غُش فِيهِ. وتَزَايَلَتْ: تَفَرقت. والأَوْصَالُ: المفَاصِل. الجَدَد: المُستَوِي السّلوك. والقَصْد: القَوِيم.

الإِعْرَاب:

الضَّمِير المُستَتر فِي رَهَّبَ، وَرَغَّبَ لله سُبْحَانَهُ، وأَقْرَبُ دَارٍ خَبَر لمُبْتَدأ مَحذُوف أي الدُّنْيَا أَقْرَبُ دَارٍ، وقَبْلَكُمْ مُتَعَلِّق بِمَصَارِعِ.

المَعْنَى:

(أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَ طَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَ الْمَنْجَاةُ أَبَداً) أَمَرَ الْإِمَام بِتقوَىٰ الله لأنّ فيها النَّجَاة مِن غَضَبِهِ، وعَذَابه (وَرَهَّبَ فَأَبْلَغَ) خَوّف سُبْحَانَهُ

من مَعْصِيَته فَأَبْلَغَ فِي التَّخوِيف (وَ رَغَّبَ) فِي طَاعته (فَأَسْبَغَ) أَتَمَ التَّرغِيب بِمَا لا مَزيد عَلَيْهِ (وَ وَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا ، وَ ٱنْقِطَاعَهَا ، وَ زَوَالَهَا ، وَ ٱنْتِقَالَهَا) من ذَلِكَ قَوْله تَعَالىٰ : ﴿مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[١] وقَوْله : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢]. (فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا) من المُحَرَّمَاتِ (لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا) قَد تَذهب إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ بِحَسَنةٍ ، أو أَكْثَر ، وقَد تَأْتِي أيضاً بِسَيِّئَة وَاحِدَة تُحِيط بكلِّ حَسَنَاتك ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٣].

(أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، وَ أَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ !) لمَا فِيهِ من الشَّهوَات ، والمُغريَات (فَغُضُّوا عَنْكُمْ ـ عِبَادَ اللهِ ـ غُمُومَهَا ، وَ أَشْغَالَهَا) . لَمَاذا ٱلْغَمّ ، وٱلْهَمّ من أجل الدُّنْيَا ، والشّغل الشّاغل بهَا عن غَيْرِها ، وأَنْتُمْ عَلىٰ يَقِين مِن فِراقِها ، وتَقَلُّب أحوَالها ! وهَذَا هو المُرَاد من قَوْله : (لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ . . . إلخ) (فَٱحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَ الْمُجِدِّ الْكَادِحِ) يَخاف المُشفق عَلىٰ عَزيزٍ لهُ مِمَّنْ يَغشه ، ويُغرر بهِ ، وأيضاً يخشىٰ الكَادِح أنْ يَخِيب كَدحَه فيحترس ، ويَحتَاط جهد طَاقته : وإذَنْ فلِمَاذا لا تَحذرُون أَنْتُمْ من الدُّنْيَا ، وتَقلبها ؟ رَاقبوا أنْفُسكم ما ٱستطعتُم ، وٱحْذَرُوا من الغُوائل كما يَحذر المُشفق ، والكَادِح .

(وَ ٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ . . . إلخ) ٱعْتَبِرُوا بِالَّذِين ٱسْتَبدلوا بالقصُور الْقُبُورِ ، وبالوَطن غُربة ، وبالأَهْل وَحشة ، وبالْبَصَر عَمىٰ ،

---

(١) ٱلنِّسَاء : ٧٧.

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ١٨٥.

(٣) ٱلبَقَرَة : ٨١.

وبالعزِّ هَوَاناً، وتَقَدَّم مثلهُ[1]. (فَٱحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ، حَـذَرَ الْـغَالِبِ لِـنَفْسِهِ، الْـمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ) ٱحْذَر هوَاك، وألجمهُ بعقلك، وخُذ أنْتَ بزمَامه وإلّا أَخذ هو بزمَامك، وقَادك إلىٰ كلّ سُوء (فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَ الْعَلَمَ قَائِمٌ، وَ الطَّرِيقَ جَدَدٌ، وَ السَّبِيلَ قَصْدٌ) هَذِه حَقِيقَة لا شُبهة فيها، فـوقَائِعها حِسِّـيَّة نَـشهدها بـالعيَان، وطَرِيق النَّجاة أمَامنا، ومَا عَلينا إلّا أنْ نَخْتَار.

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (١١١)، وغَيْرها. (منهُ ﷺ).

الخطبة

-١٦٢-

حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ.. فِقْرَة ١ ـ ٢:

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَ لَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ، وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَ قَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا الاِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَ نَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَ الْأَشَدُّونَ بِالرَّسُولِ ـ ﷺ ـ نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَ سَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَ الْحَكَمُ اللهُ، وَ الْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ[١] وَلَكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

وَ هَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ: فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ، وَ لاَ غَرْوَ وَ اللهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَ يُكْثِرُ الْأَوَدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَ سَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَ جَدَحُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً. فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَ عَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ، وَ إِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١][٢].

---

(١) فاطر: ٨.

اللُّغَة:

الوَضِين: ما يُشد بِه الرّحل عَلىٰ البَعِير، والسَّرج للفَرس. والسَّدَد: مَا كَان سَدِيداً ورَشِيداً. وَأشَدُّ نَوْطاً: أقوىٰ عِلاَقَة. والأَثَرَة ـ بفتح الثَّاء والرَّاء ـ حُبّ النَّفس المُفرط، أو الأغْتصَاب لِحَقِّ الغَير. وسَخَا عَن الشَّيء: تَركهُ. وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ: المصِير وَهَلُمَّ هُنا بِمَعْنَىٰ هَات أي هَات ذِكر الْخَطْبَ، وهُو الْأَمْـر المَكـرُوه العَظِيم الأَلِيم. والْأَوَدَ ـ بفتح الواو ـ الإِعْوجَاج. وَجَدَحُوا: خَلطوا. والشِّرب ـ بكسر الشِّين ـ النَّصِيب من الْمَاء. ومَحْضِهِ: خَالِصَه.

الإِعْرَاب:

لَقَلِقُ أي قَلق، ونَسَباً تَمْيِيز، ومثلهُ نَوْطاً، وَهَلُمَّ ٱسم فِعل بِمَعْنَىٰ هَات، وَغَـرْوَ ٱسم لاَ، وخبرها مَحذوف أي فِي ذَلِكَ، فَيَا لَهُ «يَا» حَرف نِداء، و«لَهُ» اللاَّم للتَّعجُب وخَطْباً تَمْيِيز مُبِين لضَّمِير «لَهُ».

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ لِلْإِمَامِ عليه السلام بَعْض أَصْحَابه، وكَان أَسدِياً: كَيْفَ دَفعكُم قُومكُم عَن هَذَا المَقَام ـ يُشِير إِلىٰ ٱلْخِلاَفَةِ ـ وأَنْتُمْ بِهِ أحَقّ؟ فقَال الْإِمَام: (يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ). ومِن البدَاهة أنّ قول الأسدِي نَابع عَن إِيمَانه بأنّ ٱلْخِلاَفَة حَقّ لِلإِمَامِ، وجواب الْإِمَام يُومىء إِلىٰ أنّ الأسدِي تَعجل السّؤال، لأنّه هَام، وَيحتَاج جوَابه إِلىٰ الشَّرح، والتَّفصِيل، ولا يَتسع المَقَام لذَلِك، ولو أنّ السَّائِل أرجأ سُؤاله للمقَام المُناسب لكَان أَوْلَىٰ، ولذَا قَالَ الْإِمَام إنّك تَرسل الكَلاَم دُونَ أنْ

تُلاحظ المقَام.

ثُمّ أرفَق بِهِ، وتَلطف، بجوَاب سَرِيع حَسبمَا يقتضِيه الحَال، وَقَالَ له: (وَ لَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ). الذِّمَامَة: الحَقّ، والحُرمَة، والصِّهر: قَرَابَة بِسبب الزّواج، وكَانَتْ زَينب بِنت جَحش زَوْجَة رَسُول الله ـ أَسدِية، وأُمّها أُميمَة بنت عبد المُطلب عمّة النَّبِيّ، والإِمَام[1] (وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَ قَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ) وعَلىٰ العَالم أَنْ يُعلّم، ويُجيب عمّا يُسأل كمَا قَالَ الإِمَام فِي مقام آخر: «مَا أَخَذَ اللهُ عَلىٰ أَهْلِ الجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّىٰ أَخَذَ عَلىٰ أَهْلِ العِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»[2].

(أَمَّا الاِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَ نَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً... إلخ) أَهْل البَيْت أَحَقّ بالنَّبِيّ ﷺ، وأَوْلَىٰ مَا دَام فِيهِمْ عَالم يَسير عَلىٰ هَدِي الرَّسُول ﷺ، وسُنَّته، ولكن هَذَا الحَقّ كَغيره مِن الحقُوق يَصطدم بالمُيُولِ، والأهوَاء ـ مثلاً ـ العَالَم كلّه يُدِين المُستعمِرين، ويَشجب الحَرْب العُدْوَانِية من الوَجهة النَّظرِية، ولكن النَّظرِية لا تَردع المُعتدِين، وتَصطدم عِند التَّطبِيق، والتَّجرِبَة بالكَثِير من العَقبات، ومن أَهمها الإفْرَاط فِي حُبّ النَّفس الَّذي أَشار إِلَيْهِ الإِمَام بكَلِمَة «أَثَرَةً». (وَ سَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ) وهُم أَهْل البَيْت، فَقد تَركوا الخِلاَفَة للَّذِين حَرصوا، وتَنَافسُوا عَلَيْهَا، تَركوا لأنّ الكَثِير من الأَقْوِيَاء يَهتمُون بمَصالِحهم أَكْثَر من اهتمامهم بالإِسْلاَم

(١) زَينب بِنت جَحش بن رِئاب بن يَعمر بن صَبرة بن مُرّة بن كَثِير بن غَنَم بن دُودان بن أَسد بن خُزَيْمَة، وَهِي بِنت عمّة النَّبِيّ ﷺ أُمّها: أُميمة بِنت عبدالمطّلب، وَهِي أَوَّل من مَات من أزواجِهِ بَعد وفاتِهِ، وَهِي أَوَّل من حُمل فِي نَعشٍ، وكَانَتْ خَلِيقَةً، وكَانَتْ عند زيد بن حَارثة، وفيها نَزلت: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ الأَحزَاب: ٣٧.
(أُنظر السِّيرَة: ٤ / ٢٩٤، المعَارف: ١٣٢).

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٤٧٨).

ومـــصَالحة (وَ الْـــحَكَمُ اللهُ) ﴿هُـوَ يَـفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

(وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ)[2]. النَّهْب ٱلْغَنِيمَة، وصِيحَ الصِّياح الغَارة، والحَجَرَاتِ النَّواحِي، ومُراد الإِمَام مِن الاِستِشْهَاد إنّ أَمر الَّذِين سَبقُوه إِلىٰ ٱلخِلاَفَة يَهُون إذَا قِيس بِخَطْبِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ، ورُوِي عَن الإِمَام أَنّه قَـالَ فِي حُـرقَةٍ وأَلمٍ: قَالُوا: عَلِيّ وفُلاَن، وفُلاَن حَتَّىٰ قِيل: عَلِيّ ومُعَاوِيَة!..

(فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ). ضَحك الإِمَام حِين ٱحتَجت قُرَيْش عَـلىٰ الأَنْصَار بِشَجرَة الرَّسُولﷺ، وَقَالَ: «ٱحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ»[3].

وبكىٰ حِين فُوجِىء بأنّ مَن قَاد الحُرُوب عَلىٰ الإِسْلاَم هو، وأَبُوه ـ يَطمح إِلىٰ خِلاَفَة نَبِيّ الإِسْلاَم، وَمَنْصبه.

(وَ لاَ غَرْوَ) مَا عشتَ أراكَ الدَّهْر عَجباً مِن تَقلُّبَاته، ومُفاجآته (فَيَا لَـهُ خَـطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ). لقَد تَجاوز العَجب عَن حَدهِ حَتَّىٰ ٱنقلب إِلىٰ ضِده، «يَئِسَتُ مِن

(١) ٱلسَّجْدَة: ٢٥.

(٢) ٱلبَيْت لأمرىء القَيْس، قَاله عندما كَان جاراً لخَالد بن سدوس، فأغار عَلَيْهِ بنو جُدِيلة فـذهبُوا بأهـلِهِ فشكا لُمجيره خَالد. فَقَالَ له: أعطني رواحلك ألحق بها القَوْم فأرد إبلك، وأهلك، فأعطاه، وأدرك خالد القَوْم، فَقَالَ لهم: ردوا ما أخذتم من جاري، فقَالُوا: ما هو لك بجارٍ. فَقَالَ: والله إنّه جاري، وهَذِه رواحله، فقَالُوا رواحله؟ فَقَالَ: نعم. فرجعوا إِلَيْهِ وأنزلوه عنهن، وذهبوا بهـن. أنـظر. ديـوانـه: ١٧٤، النّهـاية: ٣٤٢/١، فتح القدير: ٧٣/١ و: ٣٥/٢، لِسَان العَرَب: ٥٢٣/٢، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لمحَمّد عَبْدَه: ٦٥/٢، مجْمَع الأمْثَال: ٢٦٧/٣/١.

(٣) أنظر. نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٦٧).

الْغِنَىٰ حَتَّىٰ كأنّي أغْنَىٰ النّاس... وعَجِبْتُ حَتَّىٰ كِدت أنْ لا أعْجباً»[١]. (حَاوَلَ الْقَوْمُ) وهُم أَصْحَاب ٱلْجَمَل، وصِفِّين الَّذِين طَلبوا ٱلْخِلاَفَة، وتَستلحوا بِقَمِيص عُثْمَانَ لِيزهَقوا الْحَقّ، ويحيُوا الْبَاطِل (وَ جَدَحُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً).

أعْلَنُوا عَليَّ الْحَرْب لا لِشيء إلّا بقصد الضَّغط، والشَّغب وإثَارة الْفِتْنَة، لِيشك، ويرتَاب فِي إمرَتِي، وخِلافتِي السُّذَّج، وأَهْل الجهَالة، وألبَسُوا هَذَا القَصد الْخَبِيث قَمِيص عُثْمَانَ، فكَان تَمَاماً كَالسُّم يُدس فِي العسَل، وكالمَاء يَختلط بالأقْذَار، والأوبَاء.

(فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَ عَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَىٰ، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَىٰ مَحْضِهِ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ) نَحنُ الآن فِي صِراع الْبَغْي، وأَهْله، وسنُواصل الْجِهَاد بِلا هوَادة، فَإنْ تَكُن لنا الغَلبَة عَلىٰ البَاغِين فَما لهُم عِنْدَنَا إلاّ الْحَقّ، والْعَمَل بكِتَاب الله، وسُنَّة نَبِيِّه، وإلاّ فحسَابهم عَلىٰ الله، وقَد خَاب من آفترىٰ، ولاَ جَدْوىٰ من الْحَسَرَات والآهَات.

سَلْمَان الْفَارِسْي وَالنَّقَابَات:

وبَعد، فلا يَختلف آثنَان من ٱلْمُسْلِمِين في عَظمَة الإمَام عِلماً، وإخلاصاً، وجِهاداً، ومن عَاب سِياسته قَالَ: أنّه يَتشدد فِي الْحَقّ، ولا يُهادن الْبَاطِل... وهَذَا مَا لا يَتحمله التُّجّار، والأَغْنِيَاء، وأَهْل الأنْسَاب، والوجَاهة، لأنّه يَضُرّ بِمصَالِحهم، والدَّلِيل عَلىٰ ذَلِكَ ـ كمَا قَالَ النَّاقد لِسيَاسة الإمَام ـ أنّ سَلْمَان الْفَارِسْي

(١) هَذَا الْقَوْل يُنسب إلىٰ أبن هَاني الأندلسي المَغربِي، ولكن عَلىٰ شِكل شِعرٍ:

قَد سِرت فِي المِيدان يَوْم طِرادهم ... فَعَجِبْتُ حَتّىٰ كِدت لا أتعجب

أنظر، الدّيون: ٤٤، وفِيه هكذا: حَتّىٰ كِدت أنْ لا أعجبا.

كَان عَاملاً لعُمَرَ عَلىٰ المدَائِن، فكّون نقَابَات لِلعُمّال، وأرْبَاب الصّنَاعَة تَرعىٰ مصَالحهم، فَغضب التُّجّار، والأَغْنِيَاء، وشَكوه إِلىٰ عُمَرَ: وعَلىٰ الفُور عَزله، ولَم يوّله مَنصباً رَسمِياً بَعد ذَلِكَ[1].

وعَلّق أحمد عبّاس صَالح عَلىٰ هَذِه ٱلْوَاقِعَة فِي كِتاب اليَمين، واليَسار في الإِسْلاَم، عَلق بقَوْله: «مِن المؤكد أنّ هَذَا العَزل أثَار جَدلاً عَنِيفاً بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين... ومن الغَرِيب إننا سَنجد وِلاَيَة سَلْمَان، وعَزله قَلَيْلَة الوُرُود فِي كُتب المُؤرخِين، ولَن نَجدها إلاّ فِي مُتفرقَات قَلَيْلَة، وكأنّ هَذَا التّجاهُل قَد حَدث عَن عَمدٍ، وتَدبِير»[2].

ونَحنُ لا نَشك فِي أنّ الغَرض الأَوّل من هَذَا التّجَاهُل أنْ لا تَقوم هَذِه النَّقابَات بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين!. وفِي التُّراث الإِسْلاَمِي الكَثِير مِن هَذِه الاِنتِفَاضات، ولكن آغْلقوا دونَها النّوافذ حِرصاً عَلىٰ مصَالح التُّجّار، ومكَاسِب الأَشْرَاف، والسُّراة، وكُلنا يَعلم أنّ التُّراث الإِسْلاَمِي دُوّن عَصر مُتأخر، وفِي ظل السُّلطَان الجَائِر، وأنّ السُّلطَة الحَاكِمَة كَانَتْ تَفرض عَلىٰ كلّ عَالم أنْ يُكيف الإِسْلاَم طِبقاً لأَهوائِها، وكَانَ الكَثِير من الْعُلَمَاء بَارعِين كلّ البَراعة فِي التَّحرِيف، والتَّزييف، بَل كَان بَعضهُم يَتحمس لهُ، ويُبالغ فيهِ.

---

(١) تَقَدَّمَت ترجمة سَلْمَان، أبو عبدالله، إصبهاني، أو رامهرمزي والّذي كَانَ مُعَمَراً صحب بَعْض أوصياء عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ، وأسْتُرق، وبيع بالْمَدِينَة من إمَرْأة من اليَهُود فكَاتبها، وأعتق نَفسه، شَهد الخَندق ومابعدها، ووَلي المَدائن لعُمَرَ، ومات في أُخريات خِلاَفَته، أو في أوائل خِلافة عُثْمَانَ. أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ٢ / ٥٣ ـ ٥٩، الإِصَابَة: ٢ / ٦٠، الطَّبَرِيّ: ٢ / ٤٤٣، أبن هشام: ٤ / ٣٣٥، مُسْنَد أحمد: ١ / ٥٥، الرِّيَاض النَّضرة: ١ / ١٦٧، تَأْرِيخ الخَمِيس: ١ / ١٨٨، أبن الأثير: ٢ / ١٢٦، أبن كثير: ٥ / ٢٤٥، تَأْرِيخ اليعقوبي: ٢ / ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣ / ٢٢٢.

(٢) أنظر، كِتاب سَلْمَان الفَارِسي «مَاسِينيُون» تَرجمة عبد ٱلرَّحْمَان بَدَوِيّ (منهُ ﷺ).

الخطبة
-١٦٣-

لا يُقَالُ لَهُ: «مَتَىٰ»؟...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَ سَاطِحِ الْمِهَادِ، وَ مُسِيلِ الْوِهَادِ، وَ مُخْصِبِ النِّجَادِ. لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ٱبْتِدَاءٌ، وَ لاٰ لِأَزَلِيَّتِهِ ٱنْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَ لَمْ يَزَلْ، وَ الْبَاقِي بِلاٰ أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَ وَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا. لاٰ تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ، وَ الْحَرَكَاتِ، وَ لاٰ بِالْجَوَارِحِ، وَ الْأَدَوَاتِ[1]. لاٰ يُقَالُ لَهُ: «مَتَىٰ»؟ وَ لاٰ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّىٰ». الظَّاهِرُ لاٰ يُقَالُ: «مِمَّ»؟ وَ الْبَاطِنُ لاٰ يُقَالُ: «فِيمَ»؟ لاٰ شَبَحٌ فَيُتَقَصَّىٰ، وَ لاٰ مَحْجُوبٌ فَيُحْوَىٰ. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِٱلْتِصَاقٍ، وَ لَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِٱفْتِرَاقٍ، وَ لاٰ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَ لاٰ كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَ لاٰ ٱزْدِلاٰفُ رَبْوَةٍ، وَ لاٰ ٱنْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَ لاٰ غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَ تَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ، وَ الْكُرُورِ، وَ تَقَلُّبِ الْأَزْمِنَةِ، وَ الدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَ إِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ، وَ مُدَّةٍ، وَ كُلِّ إِحْصَاءٍ، وَ عِدَّةٍ، تَعَالَىٰ عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَ نِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَ تَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وَ تَمَكُّنِ الْأَمَاكِنِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَ إِلَىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ[2].

اللُّغَة:

سَاطِح: بَاسِط. والْمِهَادِ الفِرَاش، والْمُرَاد بِهِ هُنا الأَرْض. وَالمُسِيلِ: مَوضع السِّيل. والْوِهَادِ ـ بكسر الوَاو ـ جَمع وَهدَة بفتحها، وَهِي الأَرْض الْمنخفضَة. وَالْمُخْصِبِ: خَالِق الخِصب. والنِّجَادِ ـ بكسر النّون ـ جَمع نَجْد بفتحها، وهُو مَا آرتفع من الأَرْض. وإِبَانَةٌ لَهُ: مُغايرَة لهُ. وجَوَارِحِ ٱلإِنْسَان: أعْضَاؤه. وشَخص عِينِيه: فَتحهما دُونَ أَنْ يُحركهما. وكُرُورُ لَفْظَةٍ: كَررها. وفي الأُفُولِ، وَ الْكُرُورِ: فَرّاً، وكَرّاً. والازْدِلاَفُ: الاقْتِرَاب. دَاج: مُظلم. والغَسق: الدَّلِيل. وسَاج: سَاكِن. ويَنْحَلُهُ: يَنسُبُه. والأَقْدَارِ: الأَبْعَاد طُولاً، وعَرضاً، وعُمقاً. وتَأثُّلِ: وتَأَصَّل، والْمُرَاد هُنا أَقَام، أو سَكن، أو رَسخ.

الإِعْرَاب:

إِبَانَةٌ مَفْعُول من أَجله. وقَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ مُتَعَلِّق بمحذُوف خبَراً لمُبْتَدأ محذُوف أي هو كَائن قَبْلَ... إلخ.

الْمَعْنَىٰ:

(**الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَ سَاطِحِ الْمِهَادِ، وَ مُسِيلِ الْوِهَادِ، وَ مُخْصِبِ النِّجَادِ. لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ٱبْتِدَاءٌ، وَ لاَ لِأَزَلِيَّتِهِ ٱنْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَ لَمْ يَزَلْ، وَ الْبَاقِي بِلاَ أَجَلٍ**).

هو وحْده، جَلت عَظَمته، واجب الوجُود، ومُبدأ كلّ كَائن، ومن وَجَبَ وُجُودِه بالذَّات فَهُوَ موجُود أزلاً، وأَبَداً لا بدَاية له، ولا نهَايَة، ولو سَبقه العَدم لَم يَكن أوّلياً، ولو آنتهىٰ وُجُودِه لَم يكُن أبدياً، ودَائماً، وبالتَّالِي لا يَكُون واجب الوجُود،

وهو خِلاف الوَاقع (حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا). جَعل للمخلوقَات بِدايةً، ونهَايةً، وحَجماً، ولوناً، وطُولاً، وعَرضاً، وطَعْمَاً، ورَائحةً، وحرَارةً، وبرُودةً، وحَركةً، وسكوناً، وما إِلىٰ ذَلِكَ من صِفَات الحَادث، وحَالاته؛ وهَذَا دَلِيل قَاطع عَلىٰ أنّ الأَشْيَاء مُباينة لخَالقها، لأنّ الصَّانِع غَيْر الْمَصْنُوع، وَالْحَادُّ غَيْر الْمَحْدُودِ كما قَال الإِمَام[1].

(لاَ تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ، وَ الْحَرَكَاتِ، وَ لاَ بِالْجَوَارِحِ، وَ الْأَدَوَاتِ). كلّ مَا تَتخيله فِي وَهمك، وتَتصُوره فِي ذِهنك مِثالاً لله تَعَالىٰ فهُو مَردُود عَلَيْكَ. لأنّ الله سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وتَقَدَّم مثلهُ[2]. (لاَ يُقَالُ لَهُ: «مَتَىٰ»؟ وَ لاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّىٰ»). أنّه تَعَالىٰ لَيس زَمَانياً كِي يُسأل عَنْه بَمتَىٰ، أو يحدد بِحَتّىٰ... أنّه الأَوَّل بلا أبتداء، والآخر بلا أنتهاء (الظَّاهِرُ) بخلقهِ، وآثاره (لاَ يُقَالُ: «مِمَّ»؟) لأنّ مِن للابتداء المَسبُوق بالعدم (وَ الْبَاطِنُ) في ذَاته، وحَقِيقَته (لاَ يُقَالُ: «فِيمَ»؟) لأنّ فِي الظَّرف الزَّمَان، والمَكان، والله سُبْحَانَهُ مُنَزَّه عنهما. يُومىء إِلىٰ الرَّد عَلىٰ من قَال بوحدة الوجُود، وإنّه تَعَالىٰ عِلواً كَبِيراً يَستقر فِي جَمِيع الكَائنَات، ويتَحد مَعَهَا اتحَاداً كُلّياً بحيث لا يُمكن التَّمييز بَينه، وَبَيْنَهَا.

(شَبَحٌ فَيُتَقَصَّىٰ). الشَّبح يُمكن النَّظر إِلَيْهِ، والتَّقصي تَتبَّع الأَخْبَار، والحَالات بالنّظر ونحُوه قَال تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾[3]. وهَذَا مُحال فِي حقّه تَعَالىٰ (وَ لاَ مَحْجُوبٌ) بِحجَاب مَادِي (فَيُحْوَىٰ) لا تَحوِيه أَرْض، ولا

(١) أنظر، الْخُطْبَة: ١٥٢. (منهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، الْخُطْبَة: (١ و ٨٤ و ١٥٥). (منهُ ﷺ).
(٣) الْقَصَصِ: ١١.

سَماَء لأنّه لَيْسَ بِجِسم، وَقَالَ الإمَام فِي مَقام ثَانٍ: «لَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَىٰ الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ...»[1] «لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ»[2] (لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِٱلْتِصَاقٍ) لأنّ الالْتِصَاق مِن لوازم الأجْسَام، والله مُنَزَّه عَنْهَا، وإنّما يقرب مِن الأَشْيَاء بتَدبِيره لهَا، وعنايته بها (وَ لَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِٱفْتِرَاقٍ) فِي المكَان، بل فِي الذّات، والصّفَات.

(وَ لاٰ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ) شيء أي مكَان، أو زَمَان كَان ويكُون (يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ). تَفيؤ ٱلْقمَر: غِيَابه، وطلُوعه هِلالاً، وبَدْراً، وضَمِير عَلَيْهِ، يَعُود إِلىٰ الغَسق أي ٱللَّيْل، والْمَعْنَىٰ أنّ ٱلْقَمَر يَأْتِي عَلىٰ ظَلام ٱللَّيْل فِينسَخه تَمَاماً كَما يَأْتِي الشَّمس عَلىٰ الظِّل فتَزِيلهُ (وَ تَعْقُبُهُ الشَّمْسُ) أي تَأتِي بَعد ٱلْقَمَر (وَ تَقَلُّبِ الْأَزْمِنَةِ، وَالدُّهُورِ... إلخ) تَتقلب الأَيَّام، ويتَعاقب ٱللَّيْل، والنَّهَار بِحركَة الْأَرْض، ودُورَانها، وَقَالَ أَهْل الاِخْتصَاص: كَان يَوْم الْأَرْض أربع سَاعَات، فصَار أرْبَعاً وعشرِين (قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ، وَ مُدَّةٍ). كَان الله، ولَمْ يَكُن شَيء.

ٱبنْ تَيْمِيَّة، والإِسْرَائِيلِيات:

(تَعَالَىٰ عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ... إلخ) لَيْسَ لله يَد، أو فَم،

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٧٨) ومن خُطبةٍ لهُ عليه السلام في الشّهادة، والتّقوىٰ. وقيل إنّه خَطبها بَعد مَقتل عُثْمَانَ فِي أوّل خِلاَفَته.

(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٥٢).

ولا مَسكن، أو مَلبس، ولا شَيء يَتصف، أو يُمكن أنْ يَتصف بِهِ غَيْره مِمَّا يَحس.
وخَالف ٱبن تَيْمِيَّة ذَلِكَ، وَقَالَ مَا نَصه بالحرف: «إنّ الله يَنزل إلىٰ سماء الدُّنْيَا كلّ لَيْلَة حِين يَبقىٰ ثُلث ٱللَّيْل الأخير، يَقُول: مَن يَدعُونِي أَسْتَجب لهُ.. وإنّه يَفرح بِتَوبة العَبد كمّا يَفرح أحدكُم بِرَاحلته... وإنّه يَضحك إلىٰ رَجُلين، يَقتل أحدهُما الآخر، كلاهُما يَدخل الجَنَّة... وإنّه يَضع رِجله فِي جَهَنَّم فَينزَوِي بَعْضهَا إلىٰ بَعْض»[1].

وإذَنْ فالله عند ٱبن تَيْمِيَّة جِسم لهُ فَم يَضحك، ورِجل يَضعها فِي جَهَنَّم، وفَوق ذَلِكَ كلّه يَنتقل من سماء إلىٰ سماء!.. ولا أدرِي هَل أخذ ٱبن تَيْمِيَّة هَذَا الْقَوْل من الاِسْرَائِيلِيات؟ كَيْفَ؟ وقَد حَذر مِنْهَا، ومن بدع الأحبَار، والرُّهبان. وبالمُناسبة فَقد جَاء: «فِي سفر رُؤيا يُوحنا اللاَهُوتِي الإصحَاح الأَوَّل: إنّ الله مُتسربل بثوبَيْنَ إلىٰ الرِّجلين، مُتمنطق عِند ثَديِيه بِمِنطَقة من ذَهب، رأْسه أَبْيَض كالثَّلج، عَيناه كلَهِيب النَّار، ورِجلاه شِبه النُّحاس المَحمِي فِي أتُون، وصَوْته كخرير المِيَاه، فِي يَده الْيمنىٰ سَبعة كواكب، وفِي فَمه سَيف ذو حَدين، وجهَه كالشَّمس»[2].

وأي فَرق بَيْنَ هَذَا الرَّب، وبَيْنَ الَّذي تَحدث عنهُ ٱبن تَيْمِيَّة؟ لكلّ مِنْهُمَا رِجل، أو رِجلان، ومَن كَانَتْ لهُ رِجل فَلهُ يَدٌ، وفَمٌ، وسَيْفٌ، ومَنْطَقةٌ، وسِربال.

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَ لاَ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ

(١) أُنظر، «رِسَالَة الْعَقِيدَة الوَاسِطِية»: ١٣٥. المَطبُوعة مَع غَيْرها مِن الرَّسائل بعنوان «الرَّسائل العِلمِية التِّسع» طَبعة سَنَة ١٩٥٧م، وما بعدها. (منهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، كِتَاب «بَيْنَ العِلم والدِّين» تأليف «أندرو دِيكسُون وايت» ترجمة إسْمَاعِيل مُظهر: ٦٠ طَبْعَة ١٩٣٠م. (منهُ ﷺ).

حَدَّهُ، وَ صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ٱمْتِنَاعٌ، وَ لاٰ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ٱنْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَ عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَىٰ[٣].

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَ الْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَ مُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[١] وَ وُضِعْتَ ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢]، وَ أَجَلٍ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لاٰ تُحِيرُ دُعَاءً، وَ لاٰ تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَىٰ دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَ لَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَدَاكَ لِإجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَ عَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ، وَ إِرَادَتِكَ، هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ، وَ الْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَ مِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ[٤]!

اللُّغَة:

الأَزَلِيّ: القَدِيم لا بَدْء لهُ. والأَبَدِيّ: الدَّائِم لا نهَاية لهُ. والسَّرمدِي: لا أَوَّل لهُ، ولا آخر. والسَّوِيُّ: مُستَوِي الخِلقة. والمَرْعِيُّ: من الرِّعَايةِ، والعنَاية.

وتَمُورُ: تَتحرَك. لاٰ تُحِيرُ دُعَاءً: لا تُجيب دَعْوَة من دعَاك.

الإِعْرَاب:

جَنِيناً حَال من الضَّمِير فِي تَمُورِ، وهَيْهَاتَ اسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد.

---

(١) ٱلْمُؤْمِنُون: ١٢.

(٢) ٱلْمُرسَلاتِ: ٢١ ـ ٢٢.

الْمَعْنىٰ:

(لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَ لاٰ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَ صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ). قَال قَائل: وِجد الكَوْن بأرْضِه، وسمائه من مَادَّة لَطِيفة كَانَتْ تَملأ الْفَضَاء، وأُطلق عَلَيْهَا ٱسم الأثِير، أو الغاز، أو السَّدِيم ٱصطلاحاً... ولا أدري هل أرَاد هَذَا القَائل أنْ يُحرك لسَانه، وقَلمه لأنّ الحَركة خَير من السّكُون، وإنْ كَانَتْ بلا جَدوىٰ... وإلّا فالسُّؤال مَا زَال قَائماً: من أي شَيء وِجد الأثِير، أو الغَار؟ ومن الَّذي أوجدَه؟

ويَتخَلص مُراد الإِمَام بأنّ الله سُبْحَانَهُ لَم يَخلق الْأَشْيَاء من شيء كَان مُنذ الْأَزْل ويَدُوم إِلىٰ الأبَد، كلاَّ، بل أَوجد الْأَشْيَاء أوّلاً من لا شَيء، ثُمّ صَنع مِنْهَا مَا صَنع فأتْقَنَ صنُعَه، وتَدبِيره: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]. ومن تَأمل هَذَا الاِتْقَان وأَمْعَن النَّظر فِي سِرّه آمن باللهِ، وعَظَمَته تِلقَائياً من حَيْث لا يَشعر (لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ٱمْتِنَاعٌ) بل كلّ شيء فِي قَبضته (وَ لاٰ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ٱنْتِفَاعٌ). لا تَضره مَعْصِيَة من عَصاه، ولا تَنْفَعه طَاعة من أَطَاعه (عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَ عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَىٰ). الْمُرَاد بالأحْيَاء، والأمُوات، والْأَرْضِينَ، ٱلسَّمَاوَات ـ مُجرد العمُوم، والشّمُول، والْمَعْنىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ قَد أحَاط بكلِّ شيء عِلماً، وإنّ عِلمه بالْأَشْيَاء قَبل وجودها هو عِلمه بها عِند وجودها، وبَعْدَه، لأنّه يَعلم بذَاته لا بتَوسط شَيء زَائداً عن الذَّات.

---

(١) النّمل: ٨٨.

(أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَ الْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَ مُضَاعَفَاتِ الأَسْتَارِ) الخِطاب لِلإِنْسَان، والظُّلمات، والمُضاعفَات إشَارة إِلىٰ ما جَاء في الآيَة الكَرِيمة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1] بَعضهَا فُوق بَعْض، وَهِـي ظُـلمة الْبَطْن، والرَّحِم، والمَشِيمَة، والْمُرَاد بِالسَّوِيّ أنّه تَام جِسماً، ورُوحاً، ومُتقن وَاقعاً وشَكلاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾[3]. والْمُرَاد بِالْمَرْعِيّ أنّ ٱلإِنْسَان مُنذ نَشأته، وتَكوِينه فِي بَطن أُمّه إِلىٰ آخر لَحظة، يَخضع لعنَاية الله، وتَدبِيره ولو بطَرِيق غَيْر مُباشر.

(بُدِئْتَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ... إلخ) قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[4]. (فَمَنْ هَدَاكَ ـ في ساعة ولادتك ـ لإِجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ ؟). مَا أَنْ يَسقط الجَنِين من بَطن أُمّه حَتَّىٰ يَلتمس الثَّـدي، ولا تَـنْشق البِيضَة عن الفَرخ حَتَّىٰ يَلتمس الحَبّ بِـمنقَاره، ومَـا رأىٰ أحـداً مـن قَـبل حَـتَّىٰ يُحاكِيه!... إِنَّهَا غَرِيزَة، مَا فِي ذَلِكَ شَكّ، ولكن مَن الَّذي أودَعها فيه ؟.

---

(١) ٱلزُّمَر: ٦.

(٢) ٱلتِّين: ٤.

(٣) غافِر: ٦٤.

(٤) ٱلمُؤمِنُون: ١١ ـ ١٥.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

الكَوْن، وَالنّظَام:

وَمَن نَظرَ، وتَأمل هَذَا الكَوْن يَجد أنّه مُسخر للقَانُون، والنّظَام فِي جَمِيع أوضَاعه وأطوَاره، فكلّ كُوكب يَبعُد عن الآخر بمقدَارٍ، ويَسِير بِحسَاب، وكَذَلِكَ الضّـوء، والحرَارة، والبرُودة.... لكلّ شيء حَدّ لا يَعدُوه، ولَو تجَاوزه لإختَل نِظام الكَوْن، وكَانَ مَصِيره الخرَاب، والدَّمار: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[2]، وَقَالَ أَكْثَر الفَلاسفة بوحدَة الكَوْن عَلىٰ تبَاين أشيَائه، ومُحتُويَاته، وإنّه شَخص كَثِير الأعْضَاء والأجْزَاء، وأسمَاه بَعضهُم بِٱلإنْسَان الْكَبِير، وأسمىٰ ٱلإنْسَان بـالكَوْن الـصَّغِير، ومرادهم بوحدَة الكَوْن وحدَة القَوَانِين الّتي تَربط بَيْنَ كواكِبه، وأرْكَانه.

هَذَا ما يَعُود إلىٰ الكَوْن بوجه عَام، أمّا أشياؤه، وأحداثه فإنّ مِنْهَا ـ كَمَا شَاهدنا بالعيَان ـ ما يَقوم بوظِيفة خَاصَّة، ويَهدف إلىٰ غَرضٍ مُعين، وتَبدو هَـذِه الحَـقِيقَة واضحَة فِي أعضَاء ٱلإنْسَان، والحَيَوَان، ومَن قَرأ شَيْئاً من عِلم وظَائف الأعضَاء رأىٰ عَجباً!.. ومَا أنا من أَهْل هَذَا الفَن فِي شَيء، ولكنِي قَرأتُ بَعْض مَا قَاله أَهْل الاِختصَاص، فشعرتُ بأنّه لا شيء فِي هَذَا الكَوْن إلّا وهُو مُدهش، وعَجِيب تَمَاماً كالكَوْن فِي عَظَمَته، ومَا وَجدت تَفْسِيراً لذَلِك إلّا بقُوّة عُليا تُقدّر، وتُدّبر من وَرَاء الطَّبِيعَة، وقَد ٱتهمتُ نَفسي فِي البدَاية، وقلتُ: رُبَّمَا كَان شعُورِي هَذَا ٱنعكاساً عن عَقِيدتِي، وإيمَانِي حَتَّىٰ قَرأتُ كِتاب: ٱلإنْسَان... ذَلِكَ المجهُول، لِلطَّبِيب الفَـرنسِي

(١) سُورَة يس: ٨٣.
(٢) ٱلفُرقَان: ٢.

الشَّهِير «الكسِيس كَارِيل». وقَد حَصل هَذَا العَالم ـ بالإضَافة إلىٰ إجَازة الطِّب عَلىٰ إجَازة فِي العلوم، وجَائزة نُوبل، ودَرّس في الْوِلاَيَات المُتحدة أَكْثَر من (٢٠) عَاماً، وطُبع كِتابه عِدة مَرَّات، وتُرجم إلىٰ كَثِيرٍ من اللُّغات.

وجَاء فِيهِ: «أنّ كلّ عُضْو من أعضَاء الجِسم يُكِيف نَفْسه مَع سَائر الأعْضَاء، وَهِي أيضاً تُكيف نَفْسِها مَعه... ومَا من أحدٍ يُنْكِر وجُود الْغَايَة من هَذِه الأعضَاء حَتَّىٰ كأنّ لكلِّ عُضْو مَعرفة يَعمل فِي ضوئها.... فالجِسم بِمَا فيهِ يُدرك، ويَعْرِف القَرِيب والبَعِيد من أعمَاله، والحَاضِر والمُسْتَقْبَل... وحِينمَا يَقترب الجَنِين من الاكتمَال يُمهّد، ويُعبّد لهُ طَرِيق المرُور، والخرُوج من بَطنِ أُمّـه، وذَلِكَ بأَنْ تَصبح أنْسجَة الفَرج مَرنة، نَاعمة تَمتد بسهُولة، ويَتسع الفَرج بِحَجم الجَنِين». ثُمّ قَال: «ولا يُمكن تَفْسِير هَذِه الحَقَائِق الأوّلية بآرائنا الميكانِيكِية ـ أي بِالْعِلَل المَادية ـ أو الحَيوِية السَّاذجة أي بقَوْله من قَالَ: «إنّ ٱلْحَيَاة تَأخذ مَجراها بطَبِيعتها، وتُكيف نَفْسَها بِنَفْسِها، وبدُون سَبب خَارج عَنْهَا. وعَلّق الفَيْلَفُوس الصِّيني «لِين يُوتَانج» فِي كِتَابه «كَيْفَ يَحيا ٱلإِنْسَان» عَلّق عَلىٰ ذَلِكَ بقَوْله: «لقَد قَبل كَارِيل النَّظرِية الغِيبِية فِي ٱلْحَيَاة بالرَّغم من سِعة أُفقه، ونَحْنُ نَتفق معهُ عَلىٰ أنّ هُناك أشياء غَيْر قَابلة للتَفْسِير»[1].

وإذَا لَم تَقبل التَّفْسِير بالمَادَّة فإنَّهَا التَّفْسِير بِمَا وَرَاء المَادَّة، وفي مقال مُطول عَن آينشتَين جَاء فِيهِ: قَالَ آينشتَين: «إنّ التَّجَارِب لا يُمكن أنْ تَصنع عِلماً حَقِيقِياً بدُون تَدخُّل الرُّوح»[2]. وَقَالَ الفَيْلَفُوس رَاسل: «أنَـا أعتَقد أنّ ثَمّة حقَائِق لا

(١) أُنظر، كتاب كَيْفَ يَحيا ٱلإِنْسَان للفيلسُوف الصِّيني «لِين يُوتانج»: ٦٥ طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.
(٢) أُنظر، مَجلة «عَالم الفِكْر الكوِيتِية»: ج ٢/العدد/٢. (مِنْهُ ﷺ).

يوصل إِلَيْهَا إِلّا بالتَّأمُل الْبَاطِنِي، بل أذهَب إِلىٰ أبعَد من ذَلِكَ، وأقـول: «إنّ عِـلم الفِيزِيَاء لا بُدّ لهُ من هَذِه الحَقَائِق الّتي لا يوصل إِلَيْهَا إِلّا بالتَّأمُل الْبَاطِنِي»[1].

وبَعد أنْ آتفق الكلّ عَلىٰ أنّ الكَوْن بِمَا فيهِ مُسخر لسُّلطان النّـظام، والْـقَدَر فِي طَبعهِ، وحَجمِهِ، ووضعه، وحَركته ـ آختلفُوا فِي مَصْدَر هَذَا النّظام: أي شيء هُو؟

ونُلخص الأقوال في ذَلِكَ بِمَا يَلِي:

١ ـ لا مَصْدَر إِلّا الصّدفة العَشوَائِية!...

والجَوَاب: لا مَصْدَر لهَذَا الْقَوْل إِلّا الْعَجْز، والتّهرب من حُكم الْعَقْل، والوَاقع، وفِي كِتَاب «مُلقىٰ آلسَّبِيل» لإسمَاعِيل مُظهر أنّ دارويِن قَال: «كَلِمَة الصّدفة خَـطأ مَحض يَدل عَلىٰ الاِعترَاف بالجَهْل، والقصُور عَن مَعرفة السَّبب». ذَلِكَ أنّ الصّدفة لا تَطّرد كنَظَرِية مُحددة ذَات نتَائج عِلمِية، أو فَلسفِية، أو دِينِية تُناط بظاهرة مـن الظّواهر، أو حَادثة من الحُوادث.

٢ ـ لا سَبب إِلّا المَادَّة، فَهِيَ وحدَها، وبِمَا تَملك مـن طَـاقة، وآسـتعدَاد ذَاتِي تُرتب، وتُنظم!... وقَد دَحض الْعُلَمَاء هَذَا الْقَوْل دَحضاً قَـاطعاً بِمَـا يَـتلخص أنّ النّظام يَحتاج إِلىٰ قَصد، والمَادَّة بِمَا هِي لا إِرَادَة لهَا، ولا شعُور، وإِلّا كَانَتْ عَلىٰ نَسقٍ واحـد، لا فـرق بَـيْنَ مَـادَّة، ومَـادَّة فِي الصّـفَات، والخَـصَائِص، وهـو خِـلاف الوَاقع... وأيضاً إِذَا كَانَتْ المَادَّة في غِنىً بذَاتهـا غن الغير تَكُـون، والحَـال هَـذِه، واجبَة الوجُود أزلِية، أبدِية، لا تَجرِي عَلَيْهَا حَركة، ولا حَـرارة، أو بـرُودة، ولا تَركِيب، ونُقْصَان، ومتَاعِب، وآلاَم... وأيضاً كَيْفَ أنْشأت المَادَّة لِنفسها عَـقلاً،

---

(١) أُنظر، كِتَابه «الفَلْسَفَة بِنظرَة عِلمِية» الفَصل السَّادس. (مِنْهُ ﷺ).

وسَمعاً، وبَصراً، وَهِي بِطَبيعتها صَمَّاء عَمْيَاء؟ بل كَيْفَ ٱنْتقلت بٱنتظام من وَضع إِلىٰ وَضع لتُؤَدِّي غَايَة مَعقولة؟ وإِذَاكَانَ في المَادَّة طَاقة تُولِّد ٱلْحَيَاة، والنِّظام تِلقائِياً فمن الَّذي أودَع فيها هَذِه الطَّاقة؟ وعَلىٰ حَدّ مَا قَال شُوقِي: «الطَّبِيعَة مَنْ طَبَعها؟».

وإِنْ قَال قائل: وإِلهٰكُم من ألّهه؟ ووَاجب الوجُود من أوجبه؟ قُلنا في جوابه: إِنّ الَّذي نُؤلهه، ونعبدُه لا تَراه عَينٌ، ولا تَلمسه يَدٌ كمَا هو شأن المَادَّة الَّتي تَقضُم بالأنْيَاب، وتَدخل الْمَعدَة، وتَخرج مِنْهَا، وتُلبس عَلىٰ الأجْسَام، وتُداس بالأقدَام ... إِنّ إِلهٰنا قُوَّة عُليا فوق المَادَّة، ومُنَزَّه عَنْهَا، قُوَّة فعَالة، ومُؤثرة، وحَكِيمة مُدبرة، وعَادلة تَسمع الشّكوىٰ، وتُعنىٰ بالآلام، وتُحاسب، وتُعاقب، وعلِيمة بكلّ جَليلٍ، وحَقِيرٍ، وقَاهرة يَخضع لهَا كلّ شيء، ولا تَخضع لِشيء... إِنَّهَا الكَمَال المُطلق فِي ذَاتها، وصِفَاتها... وإِذَنْ فأينَ القَاسم المُشترك، والْقَدر الجَامِع؟ ومَا هو المُبرر للشَّبه، والقِياس؟.

٣ ـ الاِعتراف بوجُود قُوَّة سَرمدِية عَالِمة قَادرة لَيس كمثلها شيء في الجَلال والكَمَال، وإِنَّهَا تُدبر الكَوْن بمَا فيه، وٱسمها الله الأحد الْفَرْد الصَّمد، ولكن هَذَا الإِله العَظِيم غَيْر مُنفصل عن الطَّبِيعَة ولا مُستقل عَنْهَا، بل يَتحد مَعَهَا، ومع جَمِيع أشيائها ٱتحاداً كُلّياً يَشبه ٱتحاد الرُّوح مع الجِسم بحيث لا يُمكن التَّمييز بَينَه، وبَيْنَ الطَّبِيعَة... وبكلِمَة، أنّ الله موجُود بلا رَيبٍ، ولكن في نَفس الطَّبِيعَة، ولَيس وَرَاءها كمَا يَقُول المَشاءون، والْمُؤْمِنُون... وَهذَا الدِّين، أو هَذِه الفَلْسَفَة تُعرف بوحدَة الوجُود[1].

(١) أنظر، منتقىٰ الأُصول: ١٩/٣ و ٨٧ وما بعدها. تقريرات بحث الرّوحاني للحكيم. آفاضة الوجود في
⇔

والجَوَاب عن هَذِه الْوحْدَة: إِنَّهَا مُجرد حَدس، وتَخمِين، وإِنَّهَا تَخلط بَـيْنَ الْـعِلَّة والمعلُول، والفِعْل وفَاعله، وتَجعل الكَوْن إلٰهاً خَالقاً، والإِله كُوناً مَخلوقاً.

٤ ـ وإِذَا بَطلت الأقوال الثّلاثَة تَحتم الأَخذ بالْقَوْل الرَّابع، وهو أنّ وَرَاء الكَوْن خَالقاً حَكِيماً يُدبر، ويُنظم، ولا شيء يَشبهه من الكَائنات، ولا هُـو يَشـبهها في شيء.... وتَقَدَّم ذٰلِكَ مَرَّات، ومَرَّات.

ومن جُملة مَا قرأتُ في الصُّحف الْيَوْميّة كَلِمَة بعنوان «أجمَل مَا في ٱلْحَيَاة» وَهِي تُمثل الْإِيمَان الصَّادق مع سَلامة المَنطق، وبدَاهته. فٱحتفظت بِها ـ عَلىٰ عَادتِي ـ فِي مَلف خَاص بقصَاصَات الجرَائِد. ومن المُفيد أنْ أختم شَرحِي هٰذه ٱلْخُطْبَة بأجمَل مَا جَاء في تِلك الكَلِمَة، قَال كَاتبها، أحسن الله إِلَيْهِ، وأرْضَـاه: «إنّ أجمَـل مَـا في ٱلْحَيَاة هُو المجهُول، وأجمَل مَا في المجهُول مُحاولة مَعْرفَته، وأجمَل من هَذِه المحَـاولة الْعَجْز عَن مَعرفة التَّفاصِيل مع الرُّجُوع التَّالِي إِلىٰ الْإيمَان بالْقُوَّة العُظمىٰ المُسيطرة عَلىٰ الكَوْن، ومن مَلك هَذَا الْإِيمَان فَلا يَهاب أحداً غَيْر الله».

⟸ وحدة الوجود لأبي المواهب أحمد بن عليّ بن أحمد الشّناوي المِصْري المَعْرُوف بالحنائي، إيضاح المقصود من مَعْنَىٰ وحدة الوجود للشّيخ عبد الْغَنِيّ النَّابلسي، وغَيْرهما.

الخطبة

ـ ١٦٤ ـ

شَرَّ النَّاسِ إِمَامٌ جَائِرٌ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَ قَدِ ٱسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ، وَ وَ اللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَ لاٰ أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لاٰ تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَ لاٰ خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ. وَ قَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَ سَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كَمَا صَحِبْنَا. وَ مَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَ لاٰ ٱبْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَ أَنْتَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَبِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَ قَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاٰ(١). فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ ـ وَ اللهِ ـ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَ لاٰ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَ إِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَ إِنَّ أَعْلاٰمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ. فَٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَ هَدَىٰ، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَ أَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَ إِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلاٰمٌ، وَ إِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلاٰمٌ. وَ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَ ضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ، وَ لَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ، وَ لاٰ عَاذِرٌ، فَيُلْقَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا

تَدُورُ الرَّحَا، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا»[١][٢]. وَ إِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَلاَّ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ، وَ الْقِتَالَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ يَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَ يَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَ يَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلِ السِّنِّ، وَ تَقَضِّي الْعُمُرِ. فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّىٰ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ»[٢] فَقَالَ ﷺ: «مَاكَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَ مَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ»[٣].

اللُّغَة:

ٱسْتَسْفَرُونِي: جَعلُونِي سَفِيراً، ووسِيطاً. والوَشِيجَةُ: الاِشْتبَاك، وعرُوق الشَّجَرَة.

والسِّيِّقَةُ: الدَّابة تُساق، وقَد فسرَها الإِمَام بقَوْله: «يَسُوقُكَ» مَرْوَانَ. والمَرَج: الاِضطِرَاب، والاِلتبَاس، والْفَسَاد. الجَلَالِ السِّنِّ: علُوه، وطُوله.

الإِعْرَاب:

مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ «مَا» الأُولَىٰ نَافِية، والثَّانِيَة ٱستفهام مُبْتَدَأ، وكَمَا رَأَيْنَا الكَاف بِمَعْنَىٰ مثل مَفْعُول لرَأَيْتَ، و«مَا» مَصْدَرِيَة، بِأَوْلَىٰ البَاء زَائِدَة، وأَوْلَىٰ خَبَر ٱبْنُ،

(١) أنظر، البِدَايَة والنِّهَايَة: ٧/١٨١، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥/٦٠، الكَامِل في التَّارِيخ: ٣/١٥١، المُنتظم: ٥/٤٥، تَارِيخ آبن كثير: ٧/١٦٨، تَارِيخ الطَّبَرِيّ: ٥/٩٦.

(٢) أنظر، المصَادر السَّابقة.

ووَشِيجَةَ تَمْيِيز، واللهَ اللهَ نُصب عَلَىٰ تَحذِير أي أُحَذِّرُكَ الله، أو آخش الله، وَمَا غَابَ «مَا» اسم مَوْصُول مُبْتَدَأ أوّل، فَأَجَلُهُ مُبْتَدَأ ثَانٍ، ووُصُولُ خَبَرِه، والجملة من المُبْتَدَأ الثَّانِي وخَبَرِه خَبَرَ المُبْتَدَأ الأَوَّل.

المَعْنَىٰ:

(إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَ قَدِ آسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ، وَ وَ اللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ!) كَانَتْ خِلاَفَة عُثْمَانَ انْقلاَباً جَرئياً عَلَىٰ مَا عَرفه المُسْلِمُون من سَنَّة رَسُول الله ﷺ، وسِيرة الشَّيخِين، فالأَمْوَال، والأَمْصَار كلّها لأُميّة، ومَن شَايعها وتَابعها، ولأَبِي ذَرّ[1]، وأمْثَاله الآمِرين بِالمَعْرُوفِ النَّاهِين عن المُنْكَر ـ الجُوع، والتَّشرِيد، ومنهُم الصَّحَابِي عبد الله بن مَسعود خَازن بَيْت المَال، طَرده عُثْمَانَ، وشَتمَهُ، وضَربهُ

(١) أبو ذرّ الغفاري: تَقَدَّمة ترجمته، وعُثْمَانَ سيّره إلىٰ الرَّبَذَة ـ بَيْنَ مَكَّة والمدينه فمات بها سَنَة (٣٢ هـ) وليس له عقب، كَانَ رابع أَرْبَعَة سبقوا إلىٰ الإِسْلاَم، وكَانَ من المتألّهين في الجَاهِلِيَّة والّذين عبدوا الله، وتركوا الأصنام. ولمّا أسلم أجهر بإسلامه في ٱلْبَيت الحَرَام، فضربه رجال من قُرَيْش حَتَّىٰ ضرّجوه بدمه وأُغمي عَلَيْهِ فتركوه ظنّاً مِنْهُم أنّه قد مات.

وسُيّر إلىٰ الشّام بعد وفاة الرَّسُول ﷺ ومكث هناك حَتَّىٰ شكاه مُعَاوِيَةَ إلىٰ عُثْمَانَ فاستقدمه الخَلِيفَة، وعنّفه ونفاه إلىٰ الرَّبَذَة، وقد وردت أحاديث كثيرة عن الرَّسُول ﷺ في مدحه، أنظر الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابن سعد: ٤ ق ١ / ١٦١، مُسْنَد أحمد: ٢ / ١٦٣ و ١٧٥ و ٢٢٣، و ٥ / ١٤٧ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٧٢ و ١٧٤ و ٣٥١ و ٣٥٦، و: ٦ / ٤٤٢، المُسْتَدرَك: ٣ / ٣٤٢، صَحِيح البُخَارِيّ: مناقب أبي ذرّ، صَحِيح الترمذي وصَحِيح مُسْلِم في بَاب المناقب، سُنَن ابن ماجه: الباب الأَوَّل من المقدّمة، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ح ٤٥٨، وابن الأثير في ذكر غَزْوَة تَبُوك، ولاحظ ترجمته في التَّقرِيب: ٢ / ٤٢٠، وجوامع السِّيرَة: ٢٧٧). روىٰ عَنْه أصحاب الصحاح ٢٨١ حديثاً.

حَتَّىٰ كَسر ضِلعاً من أَضْلاعه[١]، ومنهُم عَمَّار بن يَاسر آبن أَوَّل شَهِيد[٢]، وأَوَّل شَهِيدة فِي الْإِسْلاَم، ضَربه عُثْمَانَ حَتَّىٰ غُشي عَلَيْهِ، ودَاس بَطنه بقدمه حَتَّىٰ أَصَابَه بِفتق، ومَع هَذَا يَقُول عُثْمَانَ عن ٱلْخِلاَفَةِ «لا أَنزَع قَمِيصاً أَلْبَسَنِيه الله عزّ وجلّ...»[٣]، وكَان الْإِمَام يَنصحهُ، ويَنهاه... وتَقَدَّم الكَلاَم عن ذَلِكَ[٤]. وٱلْخُطْبَة

(١) عبدالله بن مسعود من هُذيل، وكَانَ من حُلفاء بني زُهرة ويكنىٰ: أبا عبدالرحمن، وكَانَ إسلامه قبل إسلام عُمَر بن الخَطَّاب بزمان، وشهد مع رسول الله ﷺ بَدْراً، وبَيْعَة الرّضوان، وكَانَ علىٰ قضاء الْكُوفَة، وبَيْت مالها، لعُمَرَ وصدراً من خلافة عُثْمَانَ ثمّ صَار إِلىٰ الْمَدِينَة فُتوفي فيها سَنَة (٣٢ هـ) وله من الْعُمُر بضع وستين سَنَة ودُفن بالبقيع. أنظر، المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ٢٤٩، أُسد الغَابَة: ٣ / ٣٨٤، سيرة آبن هُشام: ١ / ٣١٤، السِّيرَة النَّبَوِيَّة: ٨٢/٢، طـ ٢ مِصْر، شرح النّهج: ٦٦/١ و ٢٣٣، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ٣٣٧/٣ و ٣٤٥، آبن الأثير: ٦٥/٣ و ٧٣، تَأرِيخ الطَّبريّ: ٥ / ٨٠ و٩٤، مُسْنَد أحمد: ١٥٥/٥ و١٦٦، و: ٦ / ٤٥٧، كنز الْعُمَّال: ٢٩/٦ و ١٧٠، العقد الفريد: ٩١/٣، آبن كثير: ٤٥٢/٧، تَأرِيخ أبي الفداء: ١٦٨/١، الْإِصَابَة: ٦١٩/٣، سُنن البَيْهَقِيّ: ٦١/٨، الطَّبَقَات لِابْن سعد: ٨/٥، أَنْسَاب الْأَشْرَاف: ٢٨/٥، مرآة الجنان: ٨٥/١، كلّ هَذِه المصادر وغَيْرها نقلت لنا هَذِه المَسَاوِىء العُثْمَانية بشكل مُفصل.

(٢) عَمّاربن ياسر العنسيّ الشّهيد بصفين «٣٧ هـ»، روىٰ حديثه كثير من أَهْل السّير، والتّأريخ، وهو الَّذي قَالَ فِيهِ: «إِنّ عَمَّاراً أجاره الله من الشَّيْطَان علىٰ لِسَان نَبِيّه ﷺ». وَقَالَ فِيهِ ﷺ: «آبن سُمَيَّة ماعُرض عَلَيْهِ أمران قَطّ إِلّا إختار الأرشد مِنْهُمَا». وَقَالَ فِيهِ أيضاً: «من عادىٰ عَمَّاراً عاداه الله ومن أبغض عَمَّاراً أبغضه الله» قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ: «ستقتلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ وأَنْتَ علىٰ الحقّ، فمن لم ينصرك يَوْمَئِذٍ فليس مني». كنزالْعُمَّال: ١٣٥/١١، بَاب مسح الغبار عن النّاس في آلسَّبِيل، الفتح الرّباني: ٣٣١/٢٢. بَاب التّعاون في بناء المساجد، مَجْمَع الزّوائد: ١٣٤/٩. صَحِيح البُخَاريّ: ٣٠٥/٢ «مناقب عَمّار»، مَجْمَع الزّوائد: ٢٩٣/٩، وَقَالَ ﷺ فِيهِ أيضاً: «إِذَا آختلف النّاس كَانَ آبن سُمَيَّة مع الحِقّ». أُنظر، كنز الْعُمَّال: ٧٢١/١١، كتاب وَقْعَة صِفين: ١٨٦، شرح النّهج لِابْن أَبي الْحَدِيد: ٢٧٣/٢، وأسنىٰ المطالب: ٤.

(٣) أنظر، تَأرِيخ الطَّبريّ: ٣٧١/٤ و ٣٧٢ و ٣٧٥، الكَامِل لِابْن الأثير: ١٦٩/٣، ط بيروت، شَرح النَّهج: ١٥٠/٢.

(٤) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة «الشّقشِقيّة، وغَيْرها». (مِنْهُ ﷺ).

الّتي نَحْنُ بصددها واضحة، ولذَا نُوجز فِي الشَّرح إلّا إذَا اَقتضىٰ الكَلَام إلىٰ التَّنبِيْه إلىٰ مَا تُحسن إلَيْهِ الإِشَارَة.

(مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَ لاٰ أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لاٰ تَعْرِفُهُ... إلخ) أي مِمَّا يجب علىٰ الرَّاعِيَ نحو الرَّعِيَّة، وقَد يُعذر الجَاهِل بحُكم من الأحْكَام إذَا كَانَ خَفِياً غَامضاً وَاَنْسَد بَاب العِلم به، أمّا البَدِيهِيات الّتي يَشترك فِي مَعْرِفَتها العَالِمِ، والجَاهِل فلا سَبِيل إلىٰ الاِعتذار بجهلها.

ومن الَّذي يَجهل أنّ الظُّلم مُحرم، وقَبِيح، وأنّ عَلىٰ الحَاكِم أنْ يَرعىٰ مصَالح النَّاس، ويَرفع المظَالِم عن كواهْلهم؟. فكَيْفَ إذَا سَامهم الخَسف، وأرْهقهُم الفوَادح؟.

هَذَا إلىٰ أنّ لعُثْمَانَ مع رَسُول الله صُحبة، وقرَابة، وهو زوج اَبنته رُقية[1]، أمّا الْقَرَابَة فإنّ نَسبهُ يَلتقي مَع نَسب النَّبِيّ ﷺ في عبد مُناف، فمحَمّد هو اَبن عبدالله اَبن عبدالمُطلب بن هاشم بن عبد مُناف[2]، وعُثْمَانَ هو اَبن عَفّان بن أبي العَاص اَبن

---

(١) أنّ رُقية وزِينب كانتا اَبنتي هالة أُخت خَدِيجَة. وقَد نسبت بَعْض كتب السِّيرَة رُقية وزينب إلىٰ خَدِيجَة بزعمهم أنّهَا ولدتها من زواجها السَّابق عن زواجها برسول الله ﷺ. وسبق وأنْ أشرنا إلىٰ ذَلِكَ بأنّ أَوْلاَده ﷺ من خَدِيجَة: القاسم، وعبدالله وهما الملقبان بالطَّيِّب، والطَّاهر. وزِينب وَهِي أكبر بناته ﷺ، ثُمّ رُقِية، ثُمّ أُمّ كُلْثُوم، ثُمّ فَاطِمَة الزّهراء ﷺ وَهِي أصغر بناته. وأمّا إبْرَاهِيم فأُمّة مارية القُبطية... أنظر الإِصَابَة: ٤ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤ وغَيْره.

(٢) هو مُحَمّد ﷺ اَبن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُوَيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مُضر اَبن نِزَار بن مَعَد بن عدنَان. أُنظر، البداية والنّهاية لِاِبن كثير: ٢/٢٥٥، تَأريخ الطّبري: ٢/٢٧٢، الرّوض الأُنف للسهيلي: ١/٨، السِّيرَة لِاِبن هشام: ١/١٥١، تَأريخ اليعقوبيّ: ٢/٦، جمهرة العرب: ١/٤٤ و ١١.

أُمَيَّة آبن عبد شَمس بن عبد مُناف[1] . ومن البَداهة أنّ القَريب من قَربته الْأَخْلاَق ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَلَآ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[2] وَقَالَ الْإِمَـام : «إنّ وَلِيَّ مُحَـمَّدٍ ﷺ مَـنْ أَطَاعَ اللهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ . وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّد مَنْ عَصَىٰ اللهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ»[3] .

(فَٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ ، هُدِيَ وَ هَدَىٰ) أي هُـدي إلىٰ أنْ يَعِيش للنّاس لا لنفْسِه ، وذَوِيه ، وهَدىٰ النّاس إلىٰ سَبِيل العِلم ، والْمَحَبَّة ، والإخَاء (فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً) وَهِي سُنَّة رَسُول الله ﷺ ، وعُثْمَانَ يَعلم أنّ الله سُبْحَانَهُ فَتح عَلىٰ نَبِيِّه الكَرِيم بلاد الحجَاز ، والْيَمن ، وجَزِيرة الْعَرَب بكاملها ، وإنّ غنائمها ، وجزيتها ، وصدقَاتها قَد جَلبت إلَيْهِ ، وما آستأثر بشيء مِنْهَا هو ، ولا أحد من أَهْل بَـيْتِه (وَ أَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً) لا يَعرفها النّاس عن النَّبِيّ ، ولا عَن إمَام عَادل (وَ إِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ) وأظهرها علىٰ الإطلاَق آستباحة القَـهر ، والقَـمع ، والضَّرب ، والنَّـفي ، والإسْتِئْثَار بالْأَمْوَال . ومن قَارن بَيْنَ الوَضع في عَهد عُثْمَانَ ، وما قَـبل عُـثْمَانَ يَجِـد الفَرق بَيْنَهُما تَمَاماً كالفَرق بَيْنَ الدَّوْلَة الْمُحَمّدية ، والدَّوْلَة القِيصرِية .

---

(١) هو عُثْمَانَ هو آبن عَفَّان بن أَبِي العَاص آبن أُمَيَّة آبن عبد شَمس بن عبد مُناف . أنظر ، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ : ٤/ ٢٤٢ ، الإسْتِيعَاب : ٣/ ١٠٤٤ ، الطَّبَقَات الْكُبْرىٰ : ٣/ ٧٧ ، تَأرِيخ خَلِيفَة : ١٧٧ ، أُسد الغَـابَة : ٣٧٦/٣ ، الإِصَابَة : ٤٦٢/٢ ، المعارف : ٨٢ ، تذكرة الحفاظ : ٨/١ ، مسار الشّيعة للشيخ المفيد : ٢١ ، بحَار الأَنْوَار : ٤٩٤/٣١ ، الأختصاص : ١٣٠ ، الإسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة : ٩٩/٣ ، مُسْتَدرَك الحَاكِم : ٩٦/٣ ، مَجْمَع الزّوائد : ٩٩/٩ ، الآحاد والمثاني للضحاك : ١٢٥/١ ، الْمُعْجَم الْكَبِير للطبراني : ٧٧/١ ح ١٠١ ، تَأرِيخ مدينة دمشق : ٣١٩/٢٥ و : ٥١٨/٣٩ ، أَنْسَاب الأَشْرَاف : ٢٠٥ ، كلّ هَذِه المصادر تتحدث عن ولادة عُـثْمَانَ ، وبيعته ، ومدة ولايته ، ويَوْم قتله .

(٢) الْمُؤْمِنُون : ١٠١ .

(٣) أُنظر ، نَهج البَلاَغَة : ٢١/٤ الحِكْمَة (٩٦) .

(وَ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَ ضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً) يَتَّخِذ هُو، وسُفَهَاؤُه، وَفُجَّارُه، مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْبَاً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبَاً»[١]. كَمَا قَالَ الإِمَام فِي مقام آخر: (وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَلاَّ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ). وفِي هَذِه إِيمَاء إِلىٰ أَنّ الْإِمَام سَمع من النَّبِيّ ﷺ أَنّ الْمَقْتُول هو عُثْمَانَ. وعَن الطَّبَرِي: «أَنّ عَلِيّاً كَان يُكلم عُثْمَانَ، ويَنصحه، ويُغلظ عَلَيْهِ فِي المَنطق من أَجل مَرْوَان، وذَوِيه، وكَان هَؤُلَاء يوغرُون صَدر عُثْمَانَ عَلىٰ الْإِمَام، ويَقُولون لهُ: أُنظر كَيْفَ يَستقبلك، فَمَا ظَنكَ بِمَا غَاب عَنك منهُ»[٢].

وكَانَ مُعَاوِيَة أيضاً يَسوق عُثْمَانَ كَيْفَ يَشاء. كَتب عَليّ الدَّالِي مقالاً مطولاً بعنوان «فَتىٰ الفتيان» جَاء فِيهِ: «كَانَ مُعَاوِيَة يَفرض رَأيه عَلىٰ عُثْمَانَ... قَالَ المُؤرخُون: كَان الحَاكِم الحَقِيقِي فِي عَهد عُثْمَانَ... وكَان يُرِيد أنْ يَجعل الْخِلاَفَة كسرُوِية إرْثاً لأولاَده، ومن خِلال أطمَاعه خَرَجت فِكرة الْقَضَاء عَلىٰ آل الْبَيْت من الذّكُور فِي عَهد وَلده يَزِيد»[٣].

وَقَالَ أحمَد عبّاس صَالح الأديب المِصْري: «اَسْتنَام عُثْمَانَ، وتَصدر السُّلطة فِي كلِّ أَنحَاء الْأُمَّة الْإِسْلاَمِيّة قَوْم من الْأُمَوِيين، ومن الَّذِين كَانوا أَكْثَر النَّاس عَداء لِلْإِسْلاَم، وأشدهُم ضَراوة قَبل أنْ يَنتصر الْإِسْلاَم... فعَبد الله بن سَعد بن أَبِي سَرح مَشكوك فِي إِسْلاَمه، وكَان يَسخر من النَّبِيّ ﷺ، ومَع هَذَا وَلَّاهُ عُثْمَانَ

---

(١) أُنظر، نهج البَلاَغَة: من كتاب لهعليه السلام إلىٰ أَهْل مِصْر مع مالك الأَشْتَر لمّا وَلَّاهُ إمارتها رقم «٦٢».

(٢) أُنظر، تَأريخ الطبري: ٤٣٣/٣ و: ٩٧/٥ الطّبعة الحُسينية.

(٣) أُنظر، جَرِيدة الجمهُورِية المِصْرية بتَأرِيخ ٢٥ تَشرين الثّاني سَنَة ١٩٧٠م. (منهُ رحمه الله).

مِصْر[١]، والوَلِيد بن عُقْبَة بـن أَبِي مُـعَيْط مَشكُـوك فِي إسْـلاَمه[٢]، ووَلَّاهُ عُـثْمَانَ الْكُوفَة»[٣].

(١) عبدالله بن سعد بن أَبِي سرح الَّذي أسلم وهاجر إِلىٰ الْمَدِينَة...، ثُمَّ أرتـد مُـشركاً، وصـار إِلىٰ قُـرَيْش بمَكَّة.. وقَد أهدر رَسُول الله ﷺ دمه، وأمر بقتله ولو وجِد مُتَعلِّقاً بأستَار الكَعبة... ولَكِنَّهُ فرّ إِلىٰ عُثْمَانَ أخِيه من الرّضاعة فغيبه عنده مُدة، ثُمَّ وَلَّاهُ فِي زمن خِلاَفَته مِصْر. أُنظر، الإِسْتِيعَاب: ٣٦٧/٢ بـرقم: ٤٧١١، الإِصَابَة: ٣٠٩/٢، البداية والنّهاية: ١٥٢/٧، أبن الأثير: ٤٣/٣، تَأرِيخ الطّبريّ: ٤٩/٥.

(٢) هو الوليد بن عُقْبَة الَّذي ظهر منهُ شُرب الْخَمْرَ، وهو الَّذي نزلت فِيهِ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ ٱلْحُجُرَاتِ: ٦. ونزلت فِيهِ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾. ٱلسَّجْدَة: ١٨. فالْمُؤمن عليّ بن أَبِي طالب، والْفَاسِق هو الوليد بن عُقْبَة، وهَذَا ما عَلَيْهِ المفسرُون. أُنظر، الدُر المنثور: ١٧٧/٥، البداية والنّهاية: ١٧٣/٧.

وكَانَ يُصلي خَال إمارته وهو سكران حَتَّىٰ تَكَلَّم فيها، والْتفت إِلىٰ من خَلفه وَقَالَ: أزيدكم في الصَّلاَةِ؟ فقَالُوا: لا قَد قضينا صلاتنا. أُنظر، الجرح والتّعديل: ١٢/٩، معجم رجال الحديث: ١٩/ ١٩٧، تهذيب الكَمَال: ١٦/٣١.

وقد وصفه الْمَهدي العَبّاسيّ في مجلسه بقَوْله: «خلافة الله عِندهُ أجل من أنْ يجعلها في زندِيق»؟ أُنظر، تَأرِيخ أبن الأثير: ٧/١٠.

(٣) أُنظر، كتابه «اليَمِين واليَسَار فِي الإِسْلاَم»: ١٥٤.

الخطبة

-١٦٥-

الخَلْق العَجِيب...فِقْرَة ١ ـ ٢:

ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَ مَوَاتٍ، وَ سَاكِنٍ وَ ذِي حَرَكَاتٍ، وَ أَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَ مَسَلِّمَةً لَهُ، وَ نَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلاَئِلُهُ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَ مَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الأَرْضِ، وَ خُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَ رَوَاسِيَ أَعْلاَمِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَ هَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَ مُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَ الْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ[1]. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَ رَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَ مَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَ جَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً. وَ نَسَقَهَا عَلَىٰ ٱخْتِلاَفِهَا فِي الأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَ دَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَ مِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ[2].

اللُّغَة:

نَعَقَ الْغُرَاب: صَاح، ونَعِبَ: أَنْذَر بِالبين. وذَرَأَ: خَلَق. وأَخَادِيدَ: جمع أُخدُود،

أي شَقّ مُستطِيل في الأَرْض. وفِجَاج ـ بكسر الفَاء ـ جَمع فِج، وهو الطَّرِيق الوَاسع الوَاضح بَيْنَ جَبلِين. ورَوَاسِيَ أَعْلامِهَا: الرَّوَاسِي الثَّوَابت، والأعْـلاَم الجِـبَال، والهَاء تَعُود إِلىٰ الأَرْض. والحِقَاقِ ـ بكسر الحَاء ـ جَمع حُـق بـضمها أي مُجـتمع المَفصلِين. والعَبَالَةِ: الضَّخَامة: سُرْعَـة الحَـركة. ودَفِـيف الطَّـائِر: مـرُورة فُـوق الأَرْض، أو تَحرِيك جنَاحِيه. والأَصَابِيغ: الأَلْوَان. والمَـغْمُوس الأَوَّل: ذُو اللُّـون الوَاحد. والمَغْمُوس الثَّانِي: ذُو اللُّونين.

الإِعْرَاب:

خَلْقاً مَفْعُول مُطلق لاِبْتَدَعَهُمْ، مثل قُمت وقُوفاً، مَا ٱنْقَادَتْ «مَـا» مَـفْعُول بـهِ لأَقَامَ، ومُعْتَرِفَةٌ حَال من الْعُقُولِ، والْمَصْدَر من أَنْ يَسْـمُوَ مَجـرُور بمـن مَحـذوفة، وخُفُوفاً في موضع الحَال من الضَّمِير المُستتر بِيَسْمُو أي يَسْمُو مُسرِعاً.

الْمَعْنَىٰ:

(ٱبْتَدَعَهُمْ ـ أي الكَائِنَات ـ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَ مَـوَاتٍ، وَ سَـاكِـنٍ وَ ذِي حَرَكَاتٍ، وَ أَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ لَطِيفِ صَنْعَتِهِ... إلخ) الغَرض الأَوَّل مِن هَذِه ٱلْخُطْبَة هُو الاِستدلال عَلىٰ وُجُودِه تَعَالىٰ ووجُوب الإِيمَان بِهِ. ومن البدَاهة أنّ الشَّرط الأَوَّل، والأَسَاسِي فِي الاِستدلال أنْ تَكُون مَادته واضحة، ومعصومة عن الخَطَأ، ومتىٰ تَعرضت لاِحتمال الخَطَأ تَكُون مَحلاً للشّكِ، والرَّيب، ومن هُنا ٱشتهر علىٰ ألسُنة القُدامىٰ: إذَا طَرأ الاِحتمَال بَطل الاِستدلال... أَللَّهُمَّ إلّا إذا كَان الاِحتمَال موهُوناً لا تَعبأ بِهِ العُقلاء، كالّذي يُمتنع عَن الأكل، والشُّرب خَوْفاً من غَصّة تُمِيتَهُ، أو شَرقَة تُهْلِكَهُ.

والمَادَّة الّتي اعتمدهَا الإمَام هُنا كدَليل عَلىٰ وجُود الله هِي الكَائِنات، واختلافها طَبِيعةً، وشكلاً... فهَذا جَامد لا حَياة فيهِ، وذَاكَ نَامٍ لا حِس لهُ، وآخر يَحس ويَدرك، وأيضاً ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[1]... هَذَا، إلىٰ اختلاف فِي الأَلْوَانِ، واللُّغات، وتَنافر فِي الطِّباع، والصِّفَات... إلىٰ مَا لا نَهَاية... أمّا وَجه الدَّلاَلَة فِي هَذَا التَّبَايُن، والتَّنافُر عَلىٰ وُجُودِهِ تَعَالىٰ فهُو أنّ المَادَّة بِمَا هِي وبِلا توسط سَبب خَارج عَنْهَا ـ لا يُمكن أنْ تَستقل بإحداث شيء، كَما نَرىٰ بالحسِ، والوجدَان، وتَقَدَّم التَّفصِيل[2].

كُلّ مَا فِي الكَوْن عَجِيب:

(وَ مَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَ خُرُوقَ فِجَاجِهَا... إلخ) كلّ شيء فِي الكَوْن عَجِيب، ومُدهش يُحيِر العُقُول، ويُبهرها تَمَاماً كالكَوْن بأرْضِهِ، وسمائه... وأشَار الإمَام هُنا إلىٰ الطُّيورِ، وأنّ بَعْضهَا يَسكن شَقاً، أو حُفرة من الأَرْض، وبَعْضهَا فِي أعَالِي الجِبَال، والأشْجَار، وأنّ مِنْهَا الضَّخم الَّذي يَعجز عن السّمو فِي الهُواء، ومِنْهَا الَّذي يَعلو آلاف الأمتَار.

وألّف عَالِم من عُلَمَاء الطُّيُور ذَائع الصِّيت العَدِيد من الكُتب فِي الطُّيُور، وهو «روبرت لمن» ومِنْهَا كِتاب كلّ شيء عن الطُّيُور، تَرجمة الدّكتور مُصطفىٰ بَدْران، وفيهِ: «يَظن أنّ فِي الدُّنْيَا بأكملها حوالِي مئة بِليون طَائراً... وأكبر الطُّيُور حَجماً النَّعَامة، ويَبلغ علوهَا قَرابة مترِين ونصف المِتر، ووزنها (١٥٠) كيلو غراماً..

(١) النُّور: ٤٥.

(٢) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: (١٦٣) فِقْرَة «الكَوْن والنّظَام». (منهُ ﷺ).

وأصغر الطُّيُور الطَّنان، طُوله خَمسة سنتِيمترَات، يَطِير بسُرْعَة فَائقة، فيضرب بجنَاحية من خَمسِين إِلىٰ مِئتي ضَربة في الثَّانِيَة، وتَبلغ سُرْعَة طِيرانه فِي السَّاعة (٨٠ أو ٩٠) كيلومتراً... ويَسْتَطِيع الطَّيرَان جَانباً، والقَهقَرىٰ، وتَصوِيباً وتَصعِيداً، وأيضاً يُمكنه الوقُوف طَويلاً في الهَواء.

وبَعْض أنواع الطُّيُور تَزِيد خُطوته عَلىٰ سِتة أمتَار، ويَمشِي عَلىٰ رِجلِيه (٨٠) كيلومتراً في السَّاعة، ويُقَال لهُ التَّدرُج... ومن الطُّيُور مَا يَسْتَطِيع الاِرتِفَاع إِلىٰ سِتة آلاف مِتر كاللَّقَالِق، والكَرَارِي، ومِنْهَا يَغوص فِي المْاَء إِلىٰ عُمق (١٨) متراً وآسمه أطيش، ومِنْهَا يَمضِي مُعظم أوقَاته في التِّرحَال عَلىٰ المُحِيطَين: الهَادِي، والأطلنطِي، ومِنْهَا يَعُوم في المْاَء، وهو آبن يَوْم، أو يُومِين كالبَط، ومِنْهَا لرِيشه أَكْثَر من عَشرة أَلْوَان، ومنَاقِير بَعْض الطُّيُور أزهىٰ من قُوسِ قُزَح»[1]... إِلىٰ مَا

(١) مِمَّا يجدر ذكره، المْرَاد بقُوس قُزَح ما رواه السُّدِّي عن أشياخه: (أنَّ عَلِيّاً عليه السلام نَظر يَوْماً إِلىٰ السَّمآء، فرأىٰ قُوسَ قُزَح فقَالُوا: ما هَذَا؟ فَقَالَ: ما تقولون أَنتُمْ؟ فقَالُوا: نقُول: إِنَّهُ قُوسَ قُزَح، فَقَالَ: لا تَقولوا هَكذا، ولكن قُولوا قُوسُ الله، وأمانٌ من الغرقِ).

أُنظر، تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي: ٩٤، كنز العُمَّال: ١٣ / ١٦١ ح ٣٦٤٩٢، الدُّر المنثور لجلال الدِّين السّيوطي: ٣ / ١٤٠ و: ٣٣٠، الخِصَال للشّيخ الصَّدوق: ٤٤١، الإِحتِجَاج للطبرسي: ١ / ٣٨٧، الثّاقب في المناقب لِابْن حَمْزَة الطُوسي: ٣٢٠، البداية والنّهاية لِابْن كثير الدِّمَشْقِي: ٨ / ٣٣٤.

قَالَ سبط بن الجوزي: (وإنَّمَا سُمِّي قوسُ قُزَح؛ لأنّه أوَّل ما روِي في الجَاهِلِيَّة علىٰ الجبل المُسمَّىٰ بقُزَح بالمزدلفةُ). أُنظر، تذكرة الخواص: ٩٤، بالإِضافة إِلىٰ المصادر السّابقة.

وفي خبرٍ لأبي الطّفل: (أنّ عَلِيّاً عليه السلام خطبَ النّاسَ وَقَالَ: (سَلُوني)، وإنّ آبن الكوّا قام فسأله أسئلة مِنْهَا: أخبرنا عن قوسِ قُزَح فَقَالَ علي عليه السلام: (ثكلتكَ أُمّكَ لا تقلْ قوسُ قُزَح، قُزَح: هو الشَّيْطَان ولَكِنَّهُ قُوس الله تَعَالىٰ هِي علامةٌ كَانَتْ بين نوحٍ عليه السلام، وبين ربّه عزّ وجلّ، وَهِي أمانٌ لأَهْل الأَرْضِ من الغرق).

أُنظر، الإِحتِجَاج للطبرسي: ١ / ٣٨٧، المعيار والموازنة لأبي جعفر الإِسكَافي: ٢٩٩، الأذكار النّووية: ⇔

لا يَبلغهُ الإِحْصَاء[1].

وأغرب مَا فِي طِيُور من غَرائز غَرِيزَة هِي الْخَوْف، والحَذر، فَهِيَ تـقدّر لكـلّ لحَظَة من اللَّحظات، وتُراقب، وتُقلب عيُونها في كلّ جِهة: أثنَاء الأكـل، وحِـين الطّيرَان آستعداداً للهَرب من خَطر مُفاجىء، وتَلتقط حبّة، أو حبّتين بسُرعَة، ثُمّ تَطِير فُجأة، وبحَالة عَصبِية إلىٰ شَجرةٍ، أو حَائطٍ، أو أشَـبه، ثُمّ تَـعُود إلىٰ الحبّ، فالشَّجَرَة، وهكذا دواليك، وَهِي أيضاً تُحلق في السَّماَء حِين الطّيرَان، ثُمّ تَبهط إلىٰ الأَرْض فُجأة خَوْفاً من بَاشقٍ، أو صَقرٍ.. وهُنا يَكمن سرّ الحكَاية الْمَعْرُوفَة من أنّ عُصفُوراً قَال لِابْنِه، وهُو يُعلمهُ، ويُوصِيه: يَا بُنِي إذاَ رَأَيْت آبن آدَمَ يَـنحنِي نَحـو الأَرْض فاَحْذَر منهُ... إنّه يُرِيد أنْ يَتنَاول حَجَرَاً يرمِيك بِهِ.

فقَال الِابْن لأبِيه: ورُبَّماَ كَان الْحَجَرَ فِي كُمّه. فقَال لهُ الأب: اَذهب حَيْث شِئت فلا خَوْف عَلَيْكَ.

فَمَن الَّذي بَاين بَيْنَ الطُّيُور عَرضاً وطُولاً، وصُورة وشَكلاً، وبِطأً وسُرْعَة؟ هل البِيئة والاِقلِيم مع العِلم بأنّ هَذَا التَّبايُن، والتَّلَوُّن ثَابت بَيْنَ أبنَاء الوَطن الوَاحـد، وتَأكل من طعَامٍ واحد، وتُسقىٰ من ماءٍ واحد؟ وأيضاً مَن الَّذي أودَع فيها غَرِيزَة الحَذَر؟ هَل الصّدفة العَشوَاء، أو المَادَّة العَمْيَاء؟. فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي خَـلَقَ فَسَـوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ.

⇐ ٣٦٨، نظم درر السّمطين: ١٢٦، فيض القدير شرح الجامع الصّغير للمناوي: ٢ / ٣٢٩، كشف الخفاء للعجلوني: ٢ / ٣٥٨، تأريخ بغداد: ٨ / ٤٥٣، تأريخ دمشق: ٢٧ / ١٠٠، البداية والنّهاية: ٨ / ٣٣٤، كشف القناع للبهوتي: ٢ / ٨٧.

(١) أُنظر، البداية والنّهاية: ١١ / ٢٢١، معجم البُلدان للحموي: ٢ / ٥٢ و ٤٢١ و ٥٣١.

جَنَاح الطَّاوُس وَذَنَبَهُ...فِقْرَة ٣:

وَ مِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَ نَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَ ذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّه، وَ سَمَا بِهِ مُطِلًّا عَلَىٰ رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ. يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَ يَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ(٣).

اللُّغَة:

نَضَّدَ: رَتَّب، ونَظَّم. وأَشْرَجَ: جَمع ولاَءم. وقَصَبَهُ: عِظَامه، وقَصَبَةُ الإِصْبع: أَنْمُلتها، وقَصَبَةُ المَرِيء: مَجرىٰ الطَّعام، وقَصَبَةُ الأَنْف: عَظمه، وقَصَبَةُ الرِّئة مَجرىٰ النَّفس، والقِلْعُ: شِرَاع السَّفِينَة. والمُرَاد بالدَّارِيّ، والنُّوتِيّ الملاَح. وعَنَجَهُ: عَطفه. ويَمِيسُ: يَتبَخْتَر. وزَيَفَانِه: حَرَكَانِه.

الْإِعْرَاب:

مِنْ أَعْجَبِهَا خَبَر مُقدَّم، والطَّاوُس مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وخَلْقاً تَمْيِيز، ومُطِلًّا حَال.

الْمَعْنَىٰ:

قُلت فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (١٠٩): الله تَعَالىٰ يُؤَلِّف، وعليّ عليه السلام يُخْرِجْ، وهَا هُو الآن يَعرض، ويُخْرِجْ رواية خَلق الطَّاوُس بأبْدَع صُورة، وأروعَها، والغَرض بَيان قُدرته تَعَالىٰ، وعَظَمَته فِي خَلقه... ولا عَجب إِذَا أَبْدَع الإِمَام فِي الغَرض والإِخْرَاج، فإنّ من الرَّاسِخِين في العِلم باللهِ وعَظَمَته، وأَكْثَر الخَلق تَأمُلاً فِي الكَوْن، فَهماً لأسرّاره، ومن جَاء وصفَه لأي كَائن تَجسِيداً لحقِيقَة الطَّاوُس، ووَاقعه تَمَاماً

كَمَا خَلقه الله، وأوجَده... وبهَذه المُناسبة أُشِير إِلىٰ مَا ذَكر الفَيْلَقُوس الإِنجلِيزي العَالمي «برتراند راسل» قَال، وهو يَتكَلَّم عن سَبب آنْتصَار آلمُسْلِمِين: «لقَد حَافظ عَليّ صِهر النَّبِيّ عَلىٰ حَيوية الحَماسة الأصِيلة فِي نفُوس شَطر من المُـؤْمِنِينَ»[١] أي الَّذِين يُسِيطر عَلَيْهِمْ سُلطان الْعَقِيدَة. ويَدفعهم إِلىٰ التَّضحِية بأنْفسِهم مِن أجْلها.

(وَ مِنْ أَعْجَبِهَا ـ أي المخلوقات ـ خَلْقاً الطَّاوُسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَ نَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ) كلّ مَخلُوق يَمتاز بِصفَة تَخصه دُونَ غَيْره من الكَائنَات. فَالإِنْسَان يَمتاز بالْعَقْل، والعِلم، والأسَد بقُوَّة العَضلات، والكَلب بحَاسة الشَّم، والوَفاء، والحِمَار، والثّور بالصَّبر، والنِّسر بِحدّة الصَّبر، والعَندليب بِرقَة الصَّوْت، وعذُوبته، وآمتَاز الطَّاووس وبالشَّكلِ الجَمِيل، والذِّيل الطَّويل.

(بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ). جَمع عِظام الأجْنحة، وعرُوقها، وَرتْبهَا، ونظمَها، ولاءَم فِيمَا بَيْنهَا بدقةٍ، وإِحْكامٍ فَائقٍ يَسْتَطِيع معهُ أَنْ يَتصرف حَسب مصلحته، وكمَا يَشاء متىٰ يَشاء. وفي كتاب «كلّ شيء عن الطُّيُور»: «أنّ أَجْنِحَتِهَا تُؤَدّي وظَائف كَثِيرة ومُذهلة، وإِلىٰ جَانب الطّيرَان... ولَوْلاَ مَا فِيها من عَضلات لِتعَذَر ذَلِكَ... وثَمّة وَجه شَبه بَيْنَ جناح الطّير، ومروحَة الطَّائرة... ولا شكّ أنّ درَاسة طيرَان الطُّيُور قَد أسهمت فِي آخترَاع الطَّائرة»[٢].

(وَ ذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ) وجرّه عَلىٰ الأَرْض كالغَانِيات قَبل عَصر «المِنيجُوب». قَال مُؤلّف كِتَاب «كلّ شَيء عن الطُّيُور»: «يُساعد الذّيل الطَّائر عَلىٰ الطّيرَان، والتَّوقف، والدُّوران، فهُو للطَّائر كالدَّفة للطَّائرة، والزَّعنَفَة الذَّنبِية

(١) أُنظر، كِتَابه «السُّلْطَان»: ١٦٥ طَبعة سَنَة ١٩٦٢م، تَرجمة خَيري حمَّاد. (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، كِتَاب كلّ شيء عن الطُّيُور، ا «روبرت لمن»، تَرجمة الدّكتور مُصطفىٰ بَدرَان.

للسَّمَكَّة... وبَعْض الطُّيُور تَتكىء عَلَىٰ ذِيُولها»[1].

(إِذَا دَرَجَ إِلَىٰ الْأُنْثَىٰ نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ). كلّ ذَكرٍ مِن أي نَوْع كَان يَتضَاهىٰ، ويَتبَاهىٰ أَمَام أُنثَاه، وبالخصُوص حِين يَهتف بِهِ نداء الجِنْس، ويَقُول عُلَمَاء الطُّيُور: «أنّ الَّذي يُغنِي من الطُّيُور هو الذَّكر، أمّا الأُنَاث فتكَاد لا تُغني عَلىٰ الإطلاق، ومن جُملة الأَسْبَاب أنّ يُغري الأُنثىٰ بغنائِهِ... وكلّ طَائر يَطوي، ويَنشر ذِيله متىٰ شَاء تَمَاماً كَمَا يَفعل ٱلإِنْسَان بأنَامُله سوىٰ أنّ ذِيل الطَّاوُوس أجْمَل الذِّيُول، وأطـوَلها، وأعرضها بحِيث يَسْتَطِيع أنْ يَجعل منهُ مَظلة عَلىٰ رَأْسـه (كَأَنَّهُ قِـلْعُ دَارِيٍّ عَـنَجَهُ نُوتِيُّهُ... إلخ) القِلْعُ شرَاع السَّفِينة، والدَّارِي الملاَح الَّذي يَتَوَلَّىٰ الشّرَاع، ويُقَال: «مَا فِي الدَّار دَارِي» أي أَحد، ومثلهُ النُّوتِيّ، وإنّما كَره الإِمَام بكَلِمَة مُرادفة لُمجرد الخَطَابة، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين: المُرَاد بالدَّارِي هُنا جَالب العطر من دَارِين[2]!.. وهُو بَعيد عن سِياق الكَلاَم، وعَنَجَهُ عَطفَه (يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ) يَعجب بها (وَ يَمِيسُ) مُتبَختر (بِزَيفَانِهِ) بتمَايُله، وحرَكاتِه. هَذِه نظرة سَرِيـعة إِلىٰ دقـائِق هَـذَا الكَـائن العَجِيب، وإِلىٰ النَّظرَات الْبَاقِيَة.

الطَّاوُوسُ، وَالجِنْسُ...فِقْرَة ٤:

يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَ يَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ مُعَايَنَةٍ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَىٰ ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَ لَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ

(١) أُنظر، كِتاب كلّ شيء عن الطُّيُور، لـ «روبرت لمن»، تَرجمة الدّكتور مُصطفىٰ بَدرَان.

(٢) دَارِي منسوب إِلىٰ دَارِين، وَهِي بَلدة عَلىٰ البَحر يُجلب مِنْهَا العِطر، كمَا جَاء فِي شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لُمحَمّد عَبْدَه: ٢/٧٧، بحَار الأَنوَار: ٣٢/٦٢، لِسَان العَرَب: ٤/٣٠٠، مَجْمَع البحرين للطريحي: ٣/٥٤٣.

أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَ أَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لاٰ مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَىٰ الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ[٤]!

اللُّغَة:

يُفْضِي، وَيَؤُرُّ: كنَاية عن الجِنْسِ. ومَلَاقِحِهِ: مِن التَّلقِيح بالمَني، وقِيل: والمُرَاد بِهِ الأعْضَاء التَّنَاسُلِية، والقَصد وَاحد. والغَلِمَةِ: الشَّبَق. والضِّرَابِ: الجُماع. وتَسْفَحُهَا: وتَرْسلهَا. وضَفَّة النَّهر: جَانبه. وضَفَّة البَحر: سَاحله. وتَطْعَمُ: تَذُوق. المُنْبَجِسِ: النَّابع.

الْمَعْنَىٰ:

(يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَ يَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ) قِيل: الطَّاوُوس لا يَعْرِف الجِنْس إطلَاقاً، ومن البدَاهة أنّ تكوِين البِيضَة لا يَحتَاج إلىٰ الفَحل، ومَنِيه، وإنْ كَان ولا بُدّ من التَّلقِيح فإنَّه يَتمُّ بَيْنَ الطَّاوُوس، والطَّاوُوسة بأُسلوب آخر، وهُو أنْ تَدمع عَين الذَّكر فتقف الدَّمعة فِي طَرف جِفنَه، وعِندئذٍ تتنَاولها الأُنْثَىٰ بمنقَارها، وتَشربها... وأيضاً الغُرَاب لا يَعْرِف الجِنْس ـ كمَا زُعم ـ ويَتمُّ اللُّقاح بالزَّق أي بوضع مِنقَار كلّ من الذَّكر، والأُنْثَىٰ بمنقَار الآخر، بهَذا تَنتقل نُقطة من المَاء الَّذي فِي قَانِصة الذَّكر إلىٰ جُوف الأُنْثَىٰ[١]، وأشَار الإِمَام٧ إلىٰ هَذا

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لمُحَمّد عَبْدَه: ٢/٧٢، بحَار الأنوَار: ٦٢/٣٦، شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٩/٢٧٠، البُرهان للزّركشي: ٢/٣٠٣، مجْمَع البحرين: ٢/٣٧٨.

التَّطاعمُ المَزعُوم بقَوْله: (مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ).

وقَد نَفىٰ هَذَا الزَّعم صراحة بالنسبة إلىٰ الطَّاوُوس، وَقَالَ: إنّه يُؤدي عَمل الجِنْس تَمَاماً الدِّيك، والشَّاهد هو الحِس، والعيَان الَّذي أحَال عَلَيْهِ الإِمَام بقَوْله: (أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ مُعَايَنَةٍ، لاكَمَنْ يُحِيلُ عَلَىٰ ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ) أي لا أُحِيلُكَ علىٰ مَا تَسمع بل علىٰ مَا يُمكنك أنْ تَرَاه رأي الْعَيْن، ثُمّ لو سَلمنا ـ جَدلاً ـ بأنّ اللُّقاح عِند الطَّاوُوس بالدَّمعة لا بالفَحل، والجِنْس ـ كما هو الشَّأن عِند الْغُرَابِ عَلىٰ مَا قِيل ـ لكان أوضح في الدَّلاَلَة عَلىٰ قُدرة الله، وعَظَمَته.

وفي شَرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: أنّ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ وصف الطَّاوُوس، وهُو في الْكُوفَةِ، وقَد رَآه هُنَاك: «حَيْث كَانَتْ الْكُوفَة يَوْمَئِذٍ تُجبىٰ إِلَيْهَا ثمرات كلّ شيء، وتَأْتِي إِلَيْهَا هَدَايا الْمُلُوك من الآفَاق»[1].

كُلّ الأَلْوَان فِي الطَّاوُوس...فِقْرَة ٥ ـ ١٠:

تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَ مَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَ شُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ، وَ فِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ، قُلْتَ: جَنىً جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ. وَ إِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ. وَ إِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ[٥]. يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَ يَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَ جَنَاحَيْهِ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَ أَصَابِيغِ وِشَاحِهِ، فَإِذَا رَمَىٰ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ قَوَائِمِهِ زَقَا، مُعْوِلاً بِصَوْتٍ

---

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٩/ ٢٧٠.

يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اَسْتِغَاثَتِهِ، وَ يَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ. وَ قَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ[٦]، وَ لَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ. وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ، وَ مَغْرِزُهَا إِلَىٰ حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ، إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَ شِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ، وَ مَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأُقْحُوَانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَ قَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وَ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَ عَلاَهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ، وَ بَرِيقِهِ، وَ بَصِيصِ دِيبَاجِهِ، وَ رَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَ لاَ شُمُوسُ قَيْظٍ. وَ قَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ[٧]، وَ يَعْرَىٰ مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَىٰ، وَ يَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ اَنْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّىٰ يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَ لاَ يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَ إِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَ تَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَ أَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً. فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَىٰ صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ[٨]!

وَ أَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَ الْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَ مُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَ أَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَ قَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ[٩]!

وَ سُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ، وَ الْهَمَجَةِ إِلَىٰ مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ، وَ الْفِيَلَةِ! وَ وَأَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلاَّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلاَّ وَ جَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَ الْفَنَاءَ غَايَتَهُ[١٠].

اللُّغَة:

قِيل: المُرَاد بقَصَبَهُ هُنا عِظَام أَجْنِحَته، وقِيل: بل عَمُود الرِّيش، وهو الأرْجَح، والمَدَارِيَ: جمع مَدَارِيَ، وهو كالمُشط يُسرح بِهِ الشَّعر. والعِقْيَانِ: الذَّهب الخَالِصَ. وَفِلَذَ ـ بكسر الفَاء ـ جمع فِلَذَة أي القطعَة. والزَّبَرْجَدِ: حَجَر كَرِيم. وجُنِيَ: جمَع، أو قَطَف. والوَشِيُّ: النَّقش. والأناقَة: الحُسن. والعَصْب ـ بسكُون الصَّاد ـ نَوْع من الثِّيَاب. والفصُوص: الحِجَارة الكَرِيمَة. ونُطِّقَتْ: من النُّطَاق. واللُّجَيْنِ: الفِضَّة. والسِّرْبَال: كلّ لِبَاس. الوِشَاح: ضَرب مِن اللِّبَاس يُوضع عَلىٰ العَاتِق. وزَقَا: صَاح. ومُعْوِلاً: رَفع صَوْته بَالْبُكَاء. وحُمْشٌ: جَمع أحْمَشٌ أي دَقِيق. والخِلاَسِيَّةِ: نَوْع من الدَّجَاج. ونَجَمَتْ: نَبَتَت. الظُّنْبُوبِ: عَظُم حَرف السَّاق. والصِّيصِيَة: شُوكة فِي رِجل الدِّيك. والقُنْزُعَة: خِصلة من الشَّعر تُترك فِي وَسط الرَّأْس. والمَغْرِزُ مكَان الغَرز. والوَسِمَةِ: نَبَات يُخضب بِهِ. ومُتَلَفِّعٌ: مُتَلَحِّف. والمِعْجَر: ضَرب من الثِّيَاب. والأَسْحَمَ: الأَسْوَد. والمُرَاد بمَائِهِ هُنا رونَقه، ونضَارته. يَقَقٌ: شَدِيد البَيَاض. يَأْتَلِقُ: يَلْمَع. البَصِيص: اللَّمعَان. ويَنْحَسِرُ: يَتَكَشَف. وتَتْرَىٰ: عَلىٰ مَهلٍ. ويَنْحَتُّ: يَسقُط. وعَسْجَدِيَّةٌ: ذَهَبِيَة. والهَمَجَةِ: الذُّبَابَة. وَوَأَىٰ: وَعَد.

الإعْرَاب:

خَالِصَ مَفْعُول ثَانٍ لتَخَالُ، وضَاحِكاً حَال مُؤكدة مِن الضَّمِير فِي يُقَهْقِه، ومثلهُ مُعْوِلاً، ومِرْآةً مَفْعُول مُلْبَسَةٍ، وأَبْيَضُ صِفَة للخَطّ، ومَحْدُوداً حَال من الهَاء فِي أدْرَكْتَهُ.

الْمَعْنَىٰ:

(تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ). يَنْبُت رِيش الطُّيُور ـ عَلَىٰ وَجه العمُوم ـ مِن حُفرة صَغِيرة تحت الجِلد، تَترك عَلَىٰ سَطحه أثراً كالنُّقطة البَيْضَاء، وتَبدُو الرِّيشَة أَوَّل مَا تَبدُو زُغباً كأي نَبَات، ثُمّ تَنمُو شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّىٰ تَكتمل عَلَىٰ الشَّكل الْمَعْرُوف أي شَعرَات عَلَىٰ قَلَم محوَرِي، وهُو الّذي أشَار إِلَيْهِ الإِمَام بكَلِمَة القَصَب. والْمُرَاد بالمَدَارِيَ أنّ الشَّعرَات الّتِي عَلَىٰ اَلْقَلَمِ مُنَسَقَة كأسْنَان مُشطٍ من فِضَّةٍ (وَ مَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَ شُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ، وَ فِلَذَ الزَّبَرْجَدِ) أي أنَّ عَلَىٰ الرِّيشس رَسماً لهُ هَالات تَمَاماً كهَالات اَلْقَمَر، ومُستدِيرٌ كالشَّمس، وفِيهِ خُطُوط صَفْرَاء كالذَّهب، وأُخرىٰ خَضْرَاء كالزَّبَرْجَدِ.

(فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ، قُلْتَ: جَنىً جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ).

الْمُرَاد بالجَنِي مَا قُطف ثَمرة من سَاعتهِ. وزَهْر الرَّبِيع مُختلف الأنوَاع، والأَلْوَان، ويُقَال يُوجد فِي الفلْبين وحدَها عشرَة الآلاف نَوْع من الزّهر، ولو جُمعت الأزاهِير بشَتَّىٰ أنواعها، وأَلْوَانها فِي مَزهرِية وَاحِدَة، ونُسقت تنسِيقاً فَنِياً ـ لكَانَتْ شَبِيهة بالطَّاوُوس، أو الطَّاوُوس شَبِيهاً بِها (وَ إِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ). الْحُلَل جَمع حُلّة، وهو الثُّوب، وَوشِيُّه نَقشَه، وزُخرفته، والعَصْبِ نَوْع من الثِّياب، والمُونق مِنْهَا مايُعْجِبُكَ، ويسُرك (وَ إِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ).

الحُلِيّ مِن تحلّت بهِ الْمَرْأَة إذا لَبست حُليّاً مِن الذَّهب، والفِضَّة، والفُصُوص أحْجَار كَرِيمَة كاللُّؤلؤ، والمَاس، ونُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ جَعلت الفِضَّة لهَا نطَاقاً مُزيناً بالجُواهر.

(يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَ يَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَ جَنَاحَيْهِ... إِلىٰ وِشَاحِهِ). يَزهُو الطَّاوُوس، ويُفَاخر بجَمَاله، ويُقَهْقِهُ مُعجِباً بسِرْبَالِهِ، وكأنَّه بهـذا وذاكَ يَشكـر الله سُبْحَانَهُ، ويَتحدث بأنْعُمِهِ، ولكن مَا بَال ذِيَـاك الوَزِيـر، أو المُـدِير، أو صَـاحب الجَاه، والْمَال، ما بَاله يَشمَخ بأنْفِه، ويَنظر إِلىٰ النَّاس مِن فُوق ؟. هل أَضْفَت عَلَيْهِ الوَظِيفة، أو الثُّورة جَمَالاً كجَمَال الطَّاوُوس، أو جَعلتهُ من العبَاقِرة الخَالدِين ؟ (فَإِذَا رَمَىٰ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ قَوَائِمِهِ زَقَا... إِلىٰ خَفِيَّةٌ). قَهْقهُ الطَّاوُوس مُعجباً بِجَماله، لمّا نَـظر إِلىٰ سَاقِهِ الرَّفِيع، وعُرقُوبه، وشُوكته شَكىٰ، وبَكىٰ، وهَكذا كلّ شَيْء فِـيهِ جِـهةِ سَلبٍ، وجِهةِ إِيجَابٍ.

(وَ لَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ. وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ... إِلىٰ يَأْتَلِقُ). كلّ أشيَاء الطَّاوُوس جَمِيلةٌ، ورَائعَةٌ إلّا السَّاق، والصِّيصِيَة، فالتَّاج عَـلىٰ رَأْسَه يُضاهِي كلّ تِيجَان الْمُلُوك، فهُو ـ إِلىٰ جَانب جَماله ـ مِنْحَة مِنْهُ تَـعَالىٰ تَمـامَاً كالسَّمعِ، والْبَصَر، وفِي الطَّاوُوس شَيْء مِن مكَان العُنق إِلىٰ الْبَطْن يَشبه حَـرِيرة تَلمع كالمرآة المَصقُولة، ومَـلحفَة سُـودَاء، ولكـنّ الرَّائِي لكَـثرة رُونَـق المَـلحفَة ونضَارتها يَظنها خَضْرَاء مُزجت بالسُّواد، وفِي الطَّاوُوس أيضاً خَـطّ عِـند أُذُنِـهِ دَقِيق، ونَاصع البَيَاض، وإِلىٰ جَنبِهِ سوَاد زَادهُ جَمَالاً، وتَألُقاً.

(وَ قَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وَ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَ عَلاَهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ... إِلىٰ قَيْظٍ). مَا مِن لُون فِي الدُّنْيَا إلّا وللطَّاوُوس مِنْهُ نَصِيب، وفَاقه جَمَالاً، ورُونقاً، فهُو كـالأَزَاهِـيرِ المُتفرقة المتنوْعة إلا أنّ الأَزَاهِيرِ تحيَا بالْمَاء، والشَّمس، ورِيش الطَّاوُوس فِي غِنىً عن ذَلِكَ (وَ قَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَ يَعْرَىٰ مِنْ لِـبَاسِهِ، فَـيَسْقُطُ تَـتْرَىٰ... ـ إِلىٰ ـ عَسْجَدِيَّةً). قَد يَقف نُمُو الرِّيش، ويَمُوت لِانْسدَاد الشَّرَايِـين، أو لأي سَـبب مـن

الأَسْبَاب، فِيتَهَلهَل، ويَسقُط، ثُمّ يَنبت لهُ رِيش جَدِيد مكَان الأَوَّل. كَما يُلقِي أحدُنا ثُوبه البَالِي، ويَلبس جَدِيداً، والفَرق أنّ جَدِيد الطَّائر يَأْتِي كقَدِيمَه تَمَاماً كمّاً، وكِيْفاً بِلا تَقلِيم، وتَطعِيم. وفِي كِتاب «كلّ شيء عَن الطُّيُور: «قَد يَبلغ عَدد رِيش الطَّائر ثَلاثة، أو أَرْبَعَة آلاف... وقد تَكُون الرِّيشَة الجَدِيدة عَلىٰ دَرجَة بَسِيطة مِن الإِخْتِلاَف عن السَّابقة لهَا فِي المكَان عَينه، بِسبب نُمُو الطَّائر، أو تَغيِير الرِّيش فِي الرَّبِيع تَارةً، وفِي الخَرِيف أُخرىٰ»[1].

(فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَىٰ صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ) كَائن صَغِير تَحملهُ بِيدك، تَعجز العُقُول أنْ تُدرك السِّر لأَقل جُزء من أجزَائه كقَلَم الرِّيشَة!... إنّه لا يَبلغ فِي الوَزن شَيْئاً، ولذَا جُعلت الرِّيشَة بِمجمُوعها مَثلاً فِي الخِفَة، ومَع هَذِه تَرىٰ قَلَم الرِّيشَة كالفُولاذ في صلابته!.. قَال صَاحب كِتَاب «كلّ شَيء عن الطُّيُور»: «عِندما تَشق قَلَم الرِّيشَة تَجدهُ مُمتلِئاً بِشَبكَة من الألْيَاف الشَّدِيدة الصَّلابة، ولا يَفصل بَيْنَهَا سوىٰ الهُواء، وقَد تَكُون هَذِه الشَّبكَة فِي تَركِيبها، وتَنسِيقها أدَق الأَنْظِمَة الّتي تُوجب الْقُوَّة، والصَّلابَة مَع أَنَّهَا أخْف شَيء وَزناً فِي العَالَم»[2].

مِن أين جَاء هَذَا التَّنسِيق المُحكم بَيْنَ الألْيَاف فِي قَلَم الرِّيشَة حَتَّىٰ جَعله بِهَذه الْقُوَّة والصَّلابة عَلىٰ خُفته؟ هل من الصّدفة الهُوجَاء، أو الطَّبِيعَة الصَّمَّاء؟ (فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً.. إلخ) وأَعْجَزَها عن كَشف السِّر لأَحْقَر مَخلُوق من خَلقه تَعالىٰ، وَ (سُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ

(١) أُنظر، كِتاب كلّ شيء عن الطُّيُور، لـ«روبرت لمن»، تَرجمة الدّكتور مُصطفىٰ بَدرَان.
(٢) أُنظر، كِتاب كلّ شيء عن الطُّيُور، لـ«روبرت لمن»، تَرجمة الدّكتور مُصطفىٰ بَدرَان.

قَوَائِمَ الذَّرَّةِ ، وَ الْهَمَجَةِ إِلَىٰ مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ ، وَ الْفِيَلَةِ . . . إلخ) كلّ شيء في الكَوْن مُتقن ، ومُحكم من سَاق النَّمْلَة الْصَّغِيرة إلىٰ الفِيل ، ومِنْهُ إلىٰ المَجـرّات ، إلىٰ الكَوْن العَجِيب (وَأَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلاَّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ ، إِلاَّ وَ جَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ ، وَ الْفَنَاءَ غَايَتَهُ) كَتب سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا أنّ كلّ حَيٍّ إلىٰ زَوال خَـطِيراً كَان أم حَقِيراً ، وهُو وحده الحيّ القَيُّوم .

ونَقل ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد عن الحُكماء عَلىٰ حَدّ وصفَه : «أنّ الطَّاوُوس يَعِيش (٢٥) عَاماً ، ولا يَتجاوزَها ، ويَبِيض فِي السَّنة الثَّالثة مـن عُـمره ، وفِـيها يَـتم رِيشـه ، وأَلْوَانها ، ويَبِيض في السَّنة (١٢) بَيضَة في (٣) أَيَّام ، ويحضنها (٣٠) يَوْماً»[1] .

اَلْجَنَّة...فِقْرَة ١١ ـ ١٢:

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَىٰ الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا ، وَ لَذَّاتِهَا ، وَ زَخَارِفِ مَـنَاظِرِهَا ، وَ لَـذَهِلَتْ بِـالْفِكْرِ فِـي اَصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَىٰ سَوَاحِـلِ أَنْـهَارِهَا ، وَ فِـي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا ، وَ أَفْنَانِهَا ، وَ طُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَىٰ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَىٰ مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا[11] ، وَ يُطَافُ عَلَىٰ نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَ الْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ . قَـوْمٌ لَـمْ تَـزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَ أَمِنُوا نُقْلَةَ الأَسْفَارِ . فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ

---

(١) أنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢٧٨/٩ .

شَوْقاً إِلَيْهَا، وَ لَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَىٰ مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلَنَا اللهُ وَ إِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَىٰ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ(١٢).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِبَصَرِ الْقَلْب التَّفكُر، والتَّأمُل. وعَزَفَتْ: كَرِهَت، وَزَهَدَت. والزَّخَارِفِ: جَمع زُخْرُف، وهُو الذَّهب، وكلّ مُمَوه. وتَصَافَقَت الأَشْجَار: تضَاربت أوْرَاقها كأَنَّهَا تَصْفق، وكُثْبَانِ: جَمع كَثِيب أي التَّل. وكَبَائِسِ: جَمع كبَاسَة أي العِذق، وهُو من النَّخل كالعنقُود. وعَسَالِيجِ: جَمع عُسْلُوج أي مَا لاَن مِن قُضْبَان الشَّجر. وَطُلُوعِ: جَمع طَلع، وهُو أَوَّل مَا يَخرج من النَّخلة فِي أكمَامها. والْمُصَفَّقَةِ: المُصْفَاة. ومثلها الْمُرَوَّقَةِ: المُعَجَّبَة.

الإِعْرَاب:

بِبَصَرِك البَاء زَائِدَة، وبَصَرِك مَفْعُول رَمِيت، وقَوْمٌ خَبَر لِمُبْتَدأ مَحذُوف أي هُم قَوْمٌ، وشُوقاً مَفْعُول من أجلِهِ لَزَهِقَتْ، وبِرَحْمَتِهِ مُتَعَلِّق جَعَلَنَا.

الْمَعْنَىٰ:

خَلق سُبْحَانَهُ الْجَنَّة ثُوابَاً لِمَن اَستجَاب لهُ وأطَاع، وثُوابُ الكَرِيم عَلىٰ قَدر طَاقته، ولا حَدّ لقُدرته تَعَالىٰ، وإِذَنْ فَنَعِيم الْجَنَّة لا حَدّ لهُ إلّا مَا كَان مِنْهُ مَادِياً كالطَّعام والشَّراب، أمّا التَّنعم برضوَان الله، ورَحْمَتِه، وجُواره فإِنَّه فُوق التَّصُور، والأَوْهَام، وقَد وَصَف سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه العَزِيز جَانباً من نَعِيم الْجَنَّة المَادي فِي العَدِيد

مَن الآيَات، وجَمع بَيْنَه وبَيْنَ النَّعِيم الأدبِي في الآيَة: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1]. وقُول الإمَام هُنا عن الجَنَّة شَرح، وبيَان لِبعض آي الذِّكر الحَكِيم. قَال:

(فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَىٰ الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا، وَ لَذَّاتِهَا، وَ زَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا... إلخ) فِي الدُّنْيَا مُتع ومَلذات، وتَرف، وسُلطان، ومبَاهج، ومنَاظر، وحلاَوة، وسعَادة... ولكن أين هَذِه مُجتمعة إِلىٰ جَانب نَظرة فِي شَجرة ضَربت عرُوقها فِي تِلال من مِسكٍ عَلىٰ ضِفَة نَهرٍ من عَسلٍ، أمّا الوَرُود، والأنهَار، والأشجَار فَينسَجِم كلّ مَا فِيها مَع القَلْب والعَيْن، أمّا الثّمار فعَلىٰ أنوَاع نكهَة، ولُوناً (تُجْنَىٰ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَىٰ مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا) بل، وفُوق مَا تمنىٰ، وأرَاد. وفِي الحَدِيث: «مَا لاَ عَيْنٌ رَأت، ولاَ أُذُنٌ سَمعت، ولا خطَر عَلىٰ قلبِ بَشر»[2].

(وَ يُطَافُ عَلَىٰ نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَ الْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ) إشارة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3]. وقَوْله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٥.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٦/٤، صَحِيح مُسْلِم: ١٢١/١، مُسْنَد أحمَد: ٣٧٠/٢، سُنَن ابن مَاجه: ١٤٤٧/٢، سُنَن الدَّارمي: ٣٣٢/٢، الغَارَات: ٨٥٥/٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٤٧٨/١٠ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٢/٦، ثوَاب الأعمَال: ٥٦، نَيل الأوطَار: ١٥٥/٢، المُحلىٰ: ١٢/١.

(٣) الزُّخْرُف: ٧١.

خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1] . (وَ أَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ) ولا تَنَالُهُمُ الأسقَام، أو تَعرض لهُم الأَخْطَار، وتَقَدَّم مثلهُ[2] . (فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ . . . إلخ) . لو عَرفت نَعِيم الجَنَّة كما هُو لذهَبت نَفْسَكَ شُوقاً إِلَيْهَا ، فأوّل شيء يَستقبلك فِيها التَّحِية والتَّرحاب من الله ، ويَقُول لكَ : «أنتَ فِي دارِي ، وجُوارِي ، آسأل ، ولاَ تَستحِ ، وأطلب ، ولا تَحتشم ، فلا أقبض عَنك شَيْئاً» ، وقُول الإِمَام : (مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ آسْتِعْجَالاً بِهَا) مَعنَاه لتَعَجلت المَوْت ، رَغْبَةً فِي لِقَاء الله ، ونَعِيمه .

وبَعد ، فإنّ نَعِيم الجَنَّة لا يَشبهه شَيء مِن نَعِيم الدُّنْيَا إلّا في الاِسم . . . ولو لَم يَكُن فِي الجَنَّة إلّا آلحيَاة بلا خَوْف ، وقَلق لكفىٰ ، وهل في الكَوْن كلّه أرْوَع ، وأعظم مِن آلحيَاة بلا خَوْف ! ! جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ العَامِلِين عَملهَا . إنّه أرْحَم الرَّاحِمِين بِمُحَمّدٍ وآله الطَّاهِرِين ، سَلام الله عَلَيْهِمْ أجْمَعِين .

---

(١) مُحَمّد : ١٥ .

(٢) أنظر ، الشّرح في الخُطبَة : (١٠٩) . (مِنْهُ ﷺ) .

الخطبة

-١٦٦-

اَعْقِلُوا عَنِ اللهِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَ لْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَ لاٰ تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لاٰ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَ لاٰ عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَ يُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً[1].

اَفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَ تَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ. عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ! يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَ لَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَ لَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَ لاٰ حِدَابُ أَرْضٍ. يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَ يُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَ آيْمُ اللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ، وَ التَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ[2].

اللُّغَة:

قَيْضِ بَيْضٍ: كَسَرَها، وفي كُتب اللُّغَة: قَيْضِ البِيَضَّة قِشرَها الأَعْلىٰ[١]. وأَدَاحِي: جَمع أُدْحِية، وَهِي المكَان الَّذي تَبيض فِيهِ النَّعامَة. وقُزَعُ: قِطع مُتفرقة من السَّحَابِ. الرُّكَامِ: التَّرَاكم. ويُذَعْذِعُهُمُ: يُفَرِّقُهُم.

الإِعْرَاب:

كَجُفَاةِ الكَاف بِمَعْنىٰ مثل خَبَر لاٰ تَكُونُوا، كَقَيْضِ بَيْضٍ بَدل من كَجُفَاةِ الجَاهِلِيَّة ورُكَاماً فِي مُوضع الحَال مِن ضَمِير الجَمع فِي يَجمعهُم أي مُتَرَاكِمين، ويَنَابِيع مَنصُوب بنزع الخَافض أي فِي يَنَابِيع.

الْمَعْنىٰ:

(لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ) فِي الرَّويَّة، والوَرَع، والحِرْص عَلىٰ الإِسْلاَم، وتَعَالِيمِه، ومَا عَدا ذَٰلِكَ فَلا حَرج علىٰ الأَبْنَاء، لأَنَّ عَصرهُم عَصر الاِنقلابَات في العلُوم والْقِيَم، والعَادات، وعَن الإِمَام: «لا تَقسرُوا أَوْلاَدكم علىٰ آدابكُم، فإِنَّهُم مَخلُوقُون لزَمَان غَيْر زَمَانكم»[٢]، وَقَالَ الإِمَام الصَّادق: «خَير لِباس كُلّ زَمَان لِباس أَهْله»[٣]. (وَ لْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ). اَرْفِقُوا بأَبنَائِكُم، وَرَبُّوهُم تَربية تُساعدهُم علىٰ التَّوافق، والتَّكيُف مَع الحَاجَات الضَّرُورِية لحِياتهم فِي عَصر التَّغيُّرَات المُفَاجئة، والتَّطورَات السَّرِيعة (وَ لاٰ تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ). كَان أَهْل

(١) أُنظر، لِسَان العَرَب: ٧/٢٢٤.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢٠/٢٦٧، ٱلحِكْمَة (١٠٢).

(٣) أُنظر، وَسَائِل الشِّيعة: ٨/٨ ح ٢، الكَافِي: ١/٤١١ ح ٤.

الجَاهِلِيَّة يَتعَايشُون بالْقُوَّةِ، والفُوضىٰ، فلا عِلم، ولا شَرِيعة، ولا أخْلاَق حَتَّىٰ جَاء الإِسْلاَم فأقَام العِلاَقَات بَيْنَ النَّاس عَلىٰ أسَاس الأُخوة، والْعَدْل، والسَّلاَم، ومن انحرَف عن هَذَا الأسَاس فقَد سَار عَلىٰ سُنَّة الأوَّلِين الَّذِين (لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَ لاَ عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ).

(كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَ يُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً). إنّ وجُود الجَاهِل السَّفِيه سُوءٌ وشرٌّ، وقَتله وِزرٌ وإثمٌ، أمّا الأوَّل فوَاضح، وأمّا الثَّانِي فلأنّ الْقَتْل مُحرم إلّا أنْ يَكُون حَدّاً، أو قصَاصاً، وكَثِير من الأَشْرَارِ يَرتكبُون كلّ قَبِيح إلّا الأَسْبَاب المُوجِبَة للقَتل، وإذَنْ يَكُون قَتلهُم مُحرماً، ووجُودهم شرّاً... أمّا وَجه الشَّبه بَيْنَ كَسر البَيض، وبَيْنَ الشّرِير الَّذي يَضُرّ وجُوده، ويَحرم قَتله ـ فِيمكُن تَقرِيره، وتُوضِيحه بأنّ الْعَاقِل إذَا رأىٰ بَيضاً فِي مكَان مَا فَلن يَتعرض لهُ إطلاَقاً، لا بِكسرٍ، ولا بِحضَان للفَقس، لأنّ الكَسر بلا مُبرر كَقتل السَّفِيه الجَاهِل بلا سَبب مُوجب، أمّا الحضَان للفَقس فرُبَّمَا يَكُون البَيض لأفعىٰ، فِينتُج الحضَان شرّاً كوجُود الجَاهِل السَّفِيه.

(افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَ تَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ). يُشِير بِهَذا إلىٰ حَال الْمُسْلِمِين، وإنّهم كَانُوا عَلىٰ قَولٍ وَاحد فِي عَهد رَسُول الله ﷺ، ثُمّ افْتَرَقُوا بَعْدَه شِيعاً، وأَحْزَاباً، ومَا تَمسك بالثَّقلين: كِتَاب الله، وعِتْرَة النَّبِيّ ﷺ ـ كمَا أوصىٰ أُمّته ـ إلّا قَليلٌ، وقَد أشَار الإمَام إلىٰ هَذَا القَلِيل بقَوْله: (فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ) فالمُرَاد بالغُصْنِ الثَّقلاَن، وبالمِيل معهُ التَّمسك بهما (عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ) يُخبر الإمَام بهَذا أنّ الْمُسْلِمِين بَعد تَفرقُهم سَيَجْتمعُون يَداً، وَاحِدَة لِلْقَضَاءِ عَلىٰ سُلطة أُميّة الطَّاغِية الْبَاغِيَة (كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ!) أي يَجْتَمع

ٱلْمُسْلِمُون ضِد الأُمُويين كاجْتِمَاع قِطع السَّحَاب المُتفرقة فِي فَصل الخَـرِيف يتَرَاكَم بَعْضهَا فُوق بَعْض. وإلىٰ هَذَا التَّراكُم أشَار الإِمَام بقَوْله: (رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ).

(ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ) بَعد أنْ عَلِم سُبْحَانَهُ صِدق النِّيَّة من ٱلْمُسْلِمِين عَلىٰ حَرْب الضّلال، والثَّورَة عَلىٰ الظُّلم، مَهّد لهُم ٱلسَّبِيل وفَتح عَلَيْهِمْ أبواب النَّصر، فأنْطَلقُوا مِن مكَان ثُورتهم كَسَيل ٱلْعَرِم الَّذي سَـلطه سُبْحَانَهُ عَلىٰ جَنتِي سَبْأ، وقَد أشَار، عَظُمت كَلمته، إلىٰ هَذَا السَّيل بِقَوْله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾[1].

(حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ). ضَمِير عَلَيْه السَّيْل، والمُـرَاد بـالقَارَة هُـنا الجَـبل الْصَّغِير، وقَد غَمره السَّيْل (وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ) أي التَّل، أيضاً أخذَه السَّيْل (وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ) مضىٰ السَّيْل فِي جَريهِ، وتَدفُقه لا تمنعه عَـظمة الجِـبَال، وٱنْضِمَامها وتَلاصقها (وَلاَ حِدَابُ أَرْضٍ) وَهِي الرَّوَابِي (يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُـطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَـوْمٍ). ضَـمِير الجَمع فِي يُذَعْذِعُهُمُ يَعُود للأُموِيين، والمَعْنَىٰ أنّ الله سُـبْحَانَهُ يُشـتتهُم فِي أَطْـرَاف الأَرْض يُحاولُون الهَرب والاِختفَاء من النَّاس، ولكن الله سُبْحَانَهُ يُظهرهُم للعيَان كَمَا يَظهر المِيَاه من يَنَابِيعها، فيَتَخَطَّفَهُمُ ٱلنَّاسُ، ويَأخذُونهم بالدِّمَاء الّتي سَفكُوها، والأَمْوَال الّتي نَهبُوها.

(وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ). يُهلك الله الأُمُوِين، ويَسْتَخلف العَبّاسِيين (وَآيْمُ

---

(١) سَبإٍ: ١٦.

اللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ، وَ التَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَىٰ النَّارِ) يَذُوب مُلك أُمَيَّة تَمَاماً كَمَا تَذُوب الشَّحمَة عَلىٰ النَّار... وهَذِه نِهَاية كلّ طَاغٍ، وبَاغٍ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[1].

يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ...فِقْرَة ٣:

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَ لَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَ لَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ. لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَىٰ، وَ وَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ. وَ كُفِيتُمْ مَئُونَةَ الاِعْتِسَافِ، وَ نَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الْمَعْنَىٰ:

(لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ ـ أي ضَلَلْتُم ـ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الَّذِين ارْتَدُوا عَن دِين مُوسَىٰ وحَرّفُوا التُّورَاة، وجَعَلُوا شَعبهُم المُخْتَار إلٰهاً لكلّ الشّعُوب، واتَّخذُوا مِن تِلمُودهم حَاكماً حَتَّىٰ علىٰ الله الَّذي يَطلب الرِّضا، والبَرَكة من الحَاخَامَات، كَما جَاء فِي التِّلمود المُقدس (وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَىٰ، وَ وَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ) سَتَزْدَادُونَ عَلىٰ مَدىٰ الأَيَّام ذُلاً

(١) الْفَتح: ٦.

وضلالاً، لأنّكم تخذلُون الحَقّ، وأَهْله، وتُناصرُون الْبَاطِل، وشِيَاطِينه (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ ٱتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ) إِلىٰ الْحَقّ، والْعَدْل، والإِمَام يَعنِي نَفْسه (سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ). ولَيْسَ مِن شَكّ أنّ الإِمَام ٱمتدَاد لرّسُول اللهﷺ في كلّ شيء مَا عَدا النُّبوَّة، ونزُول الوَحِي (وَكُفِيتُمْ مَئُونَةَ الاِعْتِسَافِ) أي الضّلال، والضّيَاع (وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ) وهو ٱرتكَاب الْمُحَرَّمَات، والوقُوع في الشُّبهات.

الحَائِط الوَاطِيء:

ولمُنَاسبة هَذِه ٱلْخُطْبَة نَتساءَل: لماذَا نَحنُ كَالحَائِط الوَاطِيء يُقفز عَلَيْهِ حَتَّىٰ الأَقْزَام؟. هَزَائم مُتوَالِية، وحدُود مَفتُوحة لكلِّ طَامع، وقَتْل، ومُشردُونَ... إِلىٰ شَتَّىٰ أَلْوَان الخَسْف، والتَّخلف... أَلَسْنَا عبَاقرة الكلاَم؟ ومن الّذي يُجيد، ويُحسن الصُّراخ، والعُويل أَكْثَر مِمَّا نُجِيدهُ، ونُحسنهُ؟.

أجل، نَحْنُ الْعَرَب عَباقرة في الصِّياح، والمنَاح، ولكن هَذِه العَبقرِية لا تُطيِّر طَائرة، ولا تَصنع باخرة، ولا تُسكت مَدفعاً.

وَقَالَ قائِل: نَحْنُ نَسْتصرخ الضَّمِير العَالمي، ونُعلن عَلَيْهِ ظُلامتنا لِكي يَتأكد أننا عَلىٰ حَقٍ، وعدُوّنا عَلىٰ بَاطِل.

نُجِيب أوّلاً: ثُمّ مَاذا؟ وهل تَفهم قِوىٰ الشَّر إلّا بِلُغة الْقُوَّة؟ ثَانِياً: لا نَدرِي أي ضَمِير يَعني هَذَا القَائل؟ هَل أرَاد ضَمِير العَالم الرَّأسماَلِي، أو العَالم الأَشْتَراكِي، أو العَالم الثَّالث «النَّامِي»؟ والأَوَّل مِنْهُ الدَّاء، والْبَلاَء، والثَّانِي يَخشىٰ من حَرْبٍ ثَالثة تَأْتِي عَلىٰ مَتاعِبه، ومكَاسبه الّتي حَقّقها بَعد الْحَرْب الثَّانِيَة، ومن أجْلها تَبنّىٰ

المفَاوضَات لا المواجهات، والتَّعايش السّلمِي الَّذي وجدَت فيهِ الرَّأسماَلية الطَّاغِية مُناخاً خِصباً الْحُرِّيَّة النَّهب، والسَّلب، وأثَارت الْحَرْب البَاردة بـل والسَّـاخنة، ولكـن فِي نِطاق الشعوب الْمُسْتَضْعَفَة، وأجـرَت عَـلَيْهَا فَـلْسَفَة هِـتلر، ونِيتشَه... أَللَّهُمَّ إلاّ أنْ يَأْتِي الفَرج من التَّطور العَالمي الَّذي يَسير «بعقَارب السَّاعة» إِلىٰ الأمَام... ونَسأله تَعَالىٰ أنْ يُعجل فَرجه، ويُسهل مَخرجه.

وَقَالَ آخر: يَجب إيجَاد دَولة إسْلاَميّة تَشخص إِلَيْهَا الأَبْصَار، فَهِيَ وحدَها تَحل الْمُشْكِلاَت، وبِها تَندفق الخَيْرَات!... وهَذَا القَائل يَتحدث عَن الأحْلاَم، والْقِيَم فِي إطارها التَّصورِي، أمّا عَناصر التَّطبِيق، والْعَمَل فَمَا هِي بِالشّيء المُهم عِند جنَابه.

وبَعد، فلا سَبِيل لقُوَّة الإِسْلاَم، والْمُسْلِمِين إلاّ أنْ يَنطلقُوا من النُّقطة الّتي انطلَق مِنْهَا. وابتدأ بِها رَسُول الله ﷺ... فقَد بَدأ الإِسْلاَم ضَعِيفاً، وغَـرِيباً تُحِيط بِهِ الأَعْدَاء من كلِّ جَانب، وقَبل أنْ يُحرك النَّبِيّ ﷺ سَاكِناً آخىٰ بَيْنَ أَصْحَابه، وأَلَّف بَيْنَ قلُوبهم، وجَعلهم يَداً وَاحِدَة يَتعاونُون عَلىٰ نُصرة الْحَقّ، والْعَدْل، وبَعد هَـذَا دَفع بِهِمْ إِلىٰ المعرَكة، ومُواجهة الْعَدُوّ، فكَان من أَمر الإِسْلاَم، وأمْرهم مَاكَان، فإذَا أَرَاد الْمُسْلِمُون أنْ لا يَطمع فِيهِـمْ مَن لَيس مِثلهم، ولا يَـقوىٰ مـن قَـوِيّ عَـلَيْهِمْ فَلِيتأسُّوا بنَبِيِّهم، ويَبدأوا بتُوحِيد الصّفُوف كمَا بَدأ، وبَعد هَـذَا تكُـون لهُـم دَولة إسْلاَميّة تَشخص إِلَيْهَا الأَبْصَار كمَاكَان لرّسُول الله ﷺ، وإلاّ لَبسُوا الذُّل جِلبَاباً إِلىٰ أنْ يَشاء الله. وأشَار الإِمَام إِلىٰ ذَلِكَ بِـقَوْله: «وَاللهِ لَـتَفْعَلُنَّ، أَوْ لَـيَنْقُلَنَّ اللهُ عَـنْكُمْ سُلْطَانَ الإِسْلَامِ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّىٰ يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ»[1].

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٦٩). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٦٧-

حُرْمَة الْمُسْلِم:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ، أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَ أَحَلَّ حَلالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَ فَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَ شَدَّ بِالْإِخْلاصِ وَ التَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ»[1]. إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَ لاَ يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَ هُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَ إِنَّ

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٣/١ ح ١٠، مَجْمَع الزّوائد: ٢٦٨/٣، المُعْجَم الأوسط: ٥٦/٤ ح ٣٥٩٨ و ٣٧٤٥ و ٤٢٣١، مُسْنَد أحمد: ٢١٢/٢ ح ٦٩٨٢ و ٦٩٨٣ و: ٢٢/٦ ح ٢٤٠١٣، مُسْنَد الشَّاميين: ٤٤٣/٢ ح ١٦٦٧، المُعْجَم الكَبِير: ٢٩٣/٣ ح ٣٤٤٤ و ٣٤٦٢ و: ١٧٥/١٩ ح ٤٠٠، الزُّهد لهناد: ٥٤٧/٢ ح ١١٣١، كشف الخفاء: ٢٧٤/٢ ح ٢٣٠٤، الإيمَان لِابن منده: ٤٥٢/١ ح ٣١٥، التمهيد: ٢٤٤/٩، التّأريخ الكَبِير: ٣٣٤/٣ ح ١١٣٢، فيض القدير: ٢٧٠/٦.

السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

ٱتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَ بِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّىٰ عَنِ الْبِقَاعِ، وَ الْبَهَائِمِ. أَطِيعُوا اللهَ وَ لاَ تَعْصُوهُ، وَ إِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَ إِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

اللُّغَة:

ٱصْدِفُوا: أَعْرِضُوا. والسَّمْت: الجِهَة. وَغَيْرَ مَدْخُولٍ: لا ضَرَر فيهِ، أو فَسَاد يُوجب تَحْرِيمه، والنَّهي عَنْه. وَشَدَّ: رَبَط، وأوْثَق. ومَعَاقِدِ: جَمع مَعْقَد، وهو مُوضع العَقد المُبرم. والْبِقَاع: جَمع بُقعَة أيّ القِطعَة مِن الْأَرْض.

الإِعْرَاب:

الْفَرَائِضَ الْأُولَىٰ مَفْعُول لِفعل مَحذُوف أي أَدُوا الْفَرَائِضَ، والثَّانِيَة تُوكيد، وغَيْرَ مَجْهُولٍ صِفة لـ«حَرَاماً» وأَمَامَكُمْ ظَرف زَمَان مُتَعَلِّق بمحذُوف خَبَراً لأنّ أي مَضُوا قَبْلكُم.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ) مَنح سُبْحَانَهُ ٱلإِنْسَان الْعَقْل، والْقُدْرَة والإِرَادَة، وأَنزَل شَرِيعة تَهدِي إِلىٰ حَلاَله، وحَرَامه بَيَّنَهَا عَلىٰ لِسَان نَبِيِّه كِتَاباً، وسُنّة، ولَم يَدع عُذراً لمُعتذر (فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَـهْتَدُوا) إِلىٰ حَـيَاة لا صِعَاب فِيها، ولا مِشكلات، لأنّ كلّ مَا فيهِ صَلاح للنَّاس فهُو خَيْرٌ عِند الله، وكلّ مَا فِيهِ فسَاد، وضَرر فهُو شَرّ عِنده تَعَالىٰ (وَٱصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا) أي تَسْتَقِيمُوا عَلىٰ الطَّرِيقة المُثلىٰ.

وتَجدر الْإِشَارَة إِلىٰ أَنْ الْقُرْآن الكَرِيم يهدف أَوّلاً وقَبل كلّ شَيء إِلىٰ غرس الْإِيمَان في الْقُلُوب ونُموه، لأنّه الدَّافع، والْمُحرك إِلىٰ فِعل الخَيْر، وتَرك الشَّرّ، ومِن أجل التَّعلِيم، وتَربِية النُّفُوس عَلىٰ الْإِيمَانِ الْأَمْر الزَّاجر ـ أَكْثَر سُبْحَانَهُ في كِتَابه من ضَرب الْأَمْثَال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

(الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ، أَدُّوهَا إِلَىٰ اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ) وتَشمل كلّ مَا وَجَبَ، ولا تَختص بِالعبَادَات إلّا في إصطلاح الْفُقَهَاء. قَال تَعَالىٰ: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْكَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[2]... هَذَا، إِلىٰ أَنّ الْعِبَادَة لا تُؤَدِّي بِأحدٍ إِلىٰ الْجَنَّةِ إذَا لَمْ يَنته مَعَهَا عَن الفَحشَاء، والْمُنْكَر، وأَقصىٰ مَا هُنالك أنّه لا يُحاسب عَلَيْهَا إنْ جَاء بِها عَلىٰ الوَجه الأكمَل.

(إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ) أي بيّن لا شُبهة فيه، فَيجب تَركه، أمّا الْمُشتبه فيُترك من بَاب التَّقْوىٰ، لأنّ الوقُوع فِيمَا يُرِيب يجر إِلىٰ الوقُوع فِيما يُعيب. قَال الرَّسُول الْأَعْظَم ﷺ: «دَع مَا يُرِيبكَ إِلىٰ مَا لا يُرِيبك»[3] أي دَع مَا يُلقي الشَّك والقَلق فِي نَفْسَكَ إِلىٰ مَا يُوجب راحتها، واطمئنانها (وَأَحَلَّ حَلالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ) أي لا ضَرر فِي فِعله، ولا فِي تَركه. وفيهِ إِيمَاء إِلىٰ أنّ الفِعْل لا يَجب، أو يَحرم، لأنّ سُلطة

(١) ٱلزُّمَرِ: ٢٧.

(٢) ٱلنِّسَاء: ٧.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢/٧٢٤ ح ١٩٤٦، صَحِيح أبن حبّان: ٣/٤٩٨ ح ٧٢٢، صَحِيح أبن خُزَيْمَة: ٤/٥٩ ح ٢٣٤٨، مورد الظّمآن: ١/١٣٧ ح ٥١٢، الْمُستَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ١/١١٦ ح ١٦٦، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٦٦٨ ح ٢٥١٨، سُنَن الدّارمي: ٢/٣١٩ ح ٢٥٣١.

عُليا أرادت ذَلِكَ، وإنّ عَلينا أنْ نَسمع لهَا، ونُطِيع عَلىٰ كلِّ حَال حَتَّىٰ ولو كَان ضَرراً محضاً... كلاَّ، بل نَحْنُ نُطِيع السُّلطة العُليا الّتي لدِينا بالدَّليل القَاطع أَنَّهَا لا تَأمر إلّا بالطَّيِّبَات، ولا تَنهىٰ إلّا عن الخبَائِث: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. ومن هُنا أجمَع الْفُقَهَاء عَلىٰ أنّه حِيثَما تَكُون الْمَصْلَحَة فثَمّ شَرع الله.

كَرَامَة ٱلإِنْسَان:

(وَ فَضَّلَ ـ الله ـ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَ شَدَّ بِـالْإِخْلاَصِ وَ التَّـوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا). الْمُـرَاد بِـالْإِخْلاَصِ، والتَّـوْحِيدِ «الْإِسْـلاَم»... ولكلِّ إنْسَان حقُوق تَجب مُراعاتها عَلىٰ كلِّ النَّاس أيّاً كَان دِينه، ومَذْهَبه، ورَأيه، كحَقّه في ٱلْحَـيَاة، وحِمَـاية مـصَالِحه، وإنْـصَافه، وٱعْـتباره بَـريئاً حَـتَّىٰ تَـثبت إدانته... ولأَهْل كلِّ مِلة ودِين حـقُوق عَـلىٰ بَـعضهِم البَـعض يُحـددها دِيـنهم، وشَرِيعتهم. ومن الحقُوق الّتي فَرضها الإِسْلاَم عَلىٰ كلِّ مُسْلِم أنْ يُدافع جهد طَاقته عن أي بَلدٍ يَعتدِي عَلَيْهِ عَدُوّ الدِّين، والإِنْسَانِية إذا عَجز هَذَا ٱلْبَلَد عن صَد الْعَدُوّ، ورَدعَه، ومِنْهَا أنّ للمُسلِم المُعسر حقّاً مَعلوماً في أَمْوَال الْمُسْلِم المُوسر... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الحقُوق الوَاجبة، والمَندُوبَة.

(«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ)[2]. هَذَا حَدِيث عَن رَسُـول

---

(١) ٱلْأَعْرَافِ: ١٥٧.

(٢) تقَدَّم ٱستخراجه.

اللهِ ﷺ. والمُرَاد بِٱلمُسْلِمِين هُنا كلّ النَّاس، وإنّما خَصّ ٱلمُسْلِمِين بالذِّكر لأنّ الحَدِيث صَدر فِي بِيئةٍ إسْلامِيّة، ويَدل عَلىٰ إرَادَة العمُوم قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١).. هَذَا، إلىٰ جَانب الأَحَادِيث الكَثِيرة الآمِرَة بِكَفّ والأَذَىٰ عَن النّاس إطلاَقاً، وإنّ مُجرد الكَف صَدَقة يُثاب عَلَيْهَا بالرّغُم أنّ عَدم كَفّ الأَذَىٰ سَلبٌ، وعَدَمٌ، ومن أَقْوَال الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «إنّ شرّ النّاس مَنزلة عند الله يَوْم الْقِيَامَة من يخَاف النَّاس مِن شرّه»(٢). وَقَالَ الإِمَام فِي هَذِه ٱلخُطْبَة نَفْسَها: (اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَ بِلاٰدِهِ). وكلّ الخَلق عِبَادِه.

(وَ لاٰ يَحِلُّ أَذَىٰ الْمُسْلِمِ) ولا غَير المُسْلِم، كَما أشرنا (اِلاّ بِمَا يَجِبُ) لأنّ ٱلإنْسَان، أي إنْسَان، فِي حِمىٰ مُحرم حَتّىٰ يَنتهك هُو حُرمة نَفْسه، ويَنتزعها بِيدَه، ذَلِكَ بأنْ يَعتدِي عَلىٰ غَيْره، وعِندئذٍ تَرتفع عنهُ الحصَانَة، ويَقتص مِنْهُ القَانُون بقدر جِنَايته رَدّعاً للعُدْوَان، ودِفَاعاً عن حقُوق ٱلإنْسَان: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

(بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَ هُوَ الْمَوْتُ). ضَمِير هو يعود إلىٰ أمر الْعَامَّة والخَاصَّة، والمَعْنَىٰ بَادِرُوا إلىٰ الْعَمَل الصَّالح قَبل أنْ يَأخذكُم المَوْت الَّذي لا يَدع

(١) ٱلإِسْرَاء: ٧٠.

(٢) أُنظر، المُعْجَم الأوسط: ٢٧٧/٥، الجَامِع الصَّغِير: ٣٤٩/١ ح ٢٢٨٣، كنز العُمَّال: ٥٠٢/٣ ح ٧٦١٣، فيض القَدِير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٥٧٦/٢ ح ٢٢٨٣، ردّ اعتبار الجَامِع الصَّغِير لعبدالله ابن الصّدِيق المغربِي: ١٧ ح ١٨٦٤.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٧٩.

أحداً مِنكُم نَبيّاً كَان أم شَقِياً. وَقَالَ الشّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «أي عَاجلوا أَمـر الـعَامَّة بالإصلاح... وفِي تقديم الإِمَام أمر الْعَامَّة عَلىٰ أمر الْخَاصَّة دَلِـيل عَـلىٰ أنّ الأَوَّل أهم، ولا يَتم الثَّانِي إلّا بهِ، وهَذَا مَا تضَافرت عَلَيْهِ ٱلأدِلَّـة الشَّرعِـيَّة»[1]. وقَـول الشّيخ صَحِيح فِي نَفْسِه، ولَكِنَّهُ بَعِيد عن سِيَاق الكَلاَم وظَاهره، لأنّ الإِمَام فسّر مُراده صَراحة من أمر الْعَامَّة، والْخَـاصَّة، وَقَالَ: «وَهُوَ الْمَـوْتُ». وعَـلَيْهِ يكُـون تَفْسِير الشّيخ اِجْتِهَاداً فِي قِبال النَّص.

(فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ) سَبقُوكُم إِلىٰ الْمَوْت (وَ إِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِـنْ خَـلْفِكُمْ) ٱلقِيَامَة تَسُوقكُم إِلىٰ الحِسَاب، والْجَزَاء (تَخَفَّفُوا) من الذّنُوب (تَلْحَقُوا) الأبرَار فِي عِليين، وتَقَدَّم مثلهُ مَرَّات، وبالنَّص الحَرفِي (ٱتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَ بِـلاٰدِهِ... إلخ) وكلّ البِلاد بِلاد الله، وكلّ النّاس عِيال الله، وكلّ البهَائم من خَلق الله، وحقّها فَرض من الله، ونَحنُ مَسْـئُولُون عَـنْهَا، وعَـن آلامـها أمَـام الله، فكَـيْفَ بآلاَم الـعِبَاد، والبِلاد؟.

إنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق ٱلحَـيَوَان لِـمنفعة ٱلإِنْسَـان، لا لكِـي يَـظلمه فِي طـعَامه، وشَرَابه، أو يَحمّله فُوق طاقته، فكَيْفَ بالَّذِين يُمارسُون أعنف المـعَارك بأحـدث الأسْلحة المُدمرة ضِد الشّعُوب ٱلْمُسْتَضْعَفَة؟. بل أنْشأوا عِلماً خَاصاً لنَهب الْعِبَاد، والبِلاد، عِلماً لهُ خُطوطه، وقُواعده، وأسلحته، وأسَاطِيله، ولَيس هَذَا العِلم ٱسم يَدل عليهِ، ولكن لهُ دولةً، ورجالاً، ورجاله أَصْحَاب الشّركـات الإِحْـتِكَارية، وكلّ دولة تُساندهم هِي دولة هَذَا العِلم الجَاهِل القَاتل.

---

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٨٠/٢.

الخطبة

-١٦٨-

أُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ:

يَا إِخْوَتَاهْ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَ لَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَ الْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَ لاٰ نَمْلِكُهُمْ! وَ هَا هُمْ هٰؤُلاٰءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَ ٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَ هُمْ خِلاٰلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا، وَ هَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَىٰ شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَ إِنَّ لِهٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ مَادَّةً - إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَىٰ أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا تَرَوْنَ، وَ فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا لاٰ تَرَوْنَ، وَ فِرْقَةٌ لاٰ تَرَىٰ هٰذَا وَ لاٰ ذَاكَ. فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ النَّاسُ، وَ تَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَ تُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً. فَٱهْدَءُوا عَنِّي، وَ ٱنْظُرُوا مَا ذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَ لاٰ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَ تُسْقِطُ مُنَّةً، وَ تُورِثُ وَهْناً وَ ذِلَّةً، وَ سَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ. وَ إِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

اللُّغَة:

الْمُجْلِبُونَ: الْمُؤَلِّبُون، أو الْمُجْتَمِعُون. وشَوْكَتِهِمْ: قُوَّتِهم، وبأسهِمْ. وخِلاٰلَكُمْ: فِيمَا

بَيْنَكُمْ. يَسُومُونَكُمْ: يُكلفُونَكُم. ومُسْمَحَةً: سَهلَة، ومُنقَادة. والمُنَّةُ ـ بضم المِيم ـ الْقُدْرَة. والمُرَاد بالْكَيِّ هُنا الْقَتْل.

الإِعْرَاب:

يَا إِخْوَتَاهْ «يَا» حَرف نِداء، والأَلْف بَدل عن يَاء الإضَافة، والأصل يَا إِخْوَتِي، والهَاء للسَّكت، وكَيْفَ خَبَر مُقدَّم، وقُوَّة مُبْتَدأ مُؤَخَّر، والبَاء زَائِدَة، ولِي مُتَعلِّق بمحذُوف حَالاً من الْقُوَّةِ، وَهَا هُمْ «هَا» للتَّنبِيْه، وَهُمْ خِلاَلَكُمْ «هُمْ» مُبْتَدأ، وخِلاَلَكُمْ مُتَعلِّق بمحذُوف خَبَراً، وجُملة يَسُومُونَكُمْ حَال، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين: يَسُومُونَكُمْ خَبَر، وخِلاَلَكُمْ حَال، وهو آشتبَاه، ومُسْمَحَةً حَال من الحقُوق، وَمَا آستَمْسَكَ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة.

المَعْنَىٰ:

قَال لِلإِمَامِ بَعْض أَصْحَابِه: هَلاّ عَاقبت قُوماً مِمَّنْ أجْلبُوا عَلَىٰ عُثْمَانَ؟ فأجَاب بهَذه ٱلخُطْبَة، وَهِي واضحة لا تَحتَاج إِلىٰ طولِ شَرح، وتَتلخص بأنّ الَّذِين ثَاروا عَلىٰ عُثْمَانَ لَيسُوا عِشرِين، وإنّما هُم أُلوف تجمعُوا من هُنا وهُناك... هَذَا، إِلىٰ جَانب الوَضع الَّذي نَحْنُ فيهِ مع أَصْحَاب الْجَمَل، وصِفِّين، وقُوَّة الثَّائِرين عَلىٰ عُثْمَانَ، فاَصبرُوا حَتَّىٰ تَهدأ الثَّائِرة، وتَقسِيم الأُمُور، وعندئذٍ نَنظر فِي أَمرِ من ثَار، واَشترك فِي الْفِتْنَة.

قَال أحمد عبّاس صَالح المِصْري: «تَكاتف أَهْل الْكُوفَة، وأَهْل مِصْر، ومن المُؤكد أنّ كَثِيرِين من أَهْل الْمَدِينَة تكَاتبُوا والمِصْرِيين، فجَاءت الوفُود من مِصْر،

والْكُوفَةِ، والْبَصْرَةِ»(١). ويَدل هَذَا علىٰ الكَثرَة الكَثِيرة الثَّائِرة عَلىٰ عُثْمَانَ.

وَقَالَ عبد الكَرِيم الخَطِيب المِصْري: «روىٰ آبن سَعد فِي طَبقاته، والطَّبرِي فِي تَأرِيخه: إنّ المِصْريين الَّذِين حَاصرُوا عُثْمَانَ كَانوا ستمئة»(٢). وَقَالَ أيضاً: «كَان مَع الأَشْتَر أَلف رَجُل من الْكُوفَةِ... وتضَاعفت هَذِه الأعدَاد إِلىٰ تِلك الجمُوع الّتي أُجْلِب بِها الثَّائرُون من قَبل فِي دُفعات مُتتابعة، وتَلاقت هَذِه الجمُوع عِند بَيْتَ عُثْمَانَ حَتَّىٰ سَدت الطُّرق، والمسَالِك»(٣).

وإذَا عَطفنا عَلىٰ هَذِه الألُوف أَصْحَاب الجَمَل، وصِفِّين، وغَيْرهم كَان عَلىٰ الإِمَام أنْ يُجارب فِي آنٍ واحد الجَمَل، وصِفِّين، وأَهْل مِصْر، والْكُوفَةِ، وَالأَعْرَاب، والعَبِيد... وهل هَذَا سَائغ فِي شَرع، أو عَقل؟ وهل هُو تكلِيف بمقدُور؟ والمَنطق الصَّحِيح السَّلِيم مَا ذَكره آبن أَبِي ٱلحَدِيد فِي شَرحه حَيْث قَال: «ثَار مُعَاوِيَة، وأَهْل الشَّام عَلىٰ الإِمَام مُطالبِين بدَم عُثْمَانَ، ونَقَض طَلْحَةَ، والزُّبَيْر ٱلبَيْعَة، ونَهبا أَمْوَال ٱلمُسْلِمِين في الْبَصْرَةِ، وقَتلا الصَّالحِين من أَهْلها، ومَع هَذَا يَطْلُبُون من الإِمَام أنْ يَقتص لعُثْمَانَ، وكَان عَلىٰ مُعَاوِيَة، والزُّبَيْر، وطَلْحَةَ، ووَرَثَة عُثْمَانَ أَنْ يَدخلُوا أَوّلاً في طَاعةِ الإِمَام، ثُمّ يُحاكمُوا إِلَيْهِ المُتهمِين بِدَم عُثْمَانَ، فإنْ حَكَم بِالحَقّ آستدِيمت إمَامته، وإنْ حَكَم بالجَوْر تَعِين خَلعه، وهَذَا مَا طَلَبه الإِمَام

(١) أنظر، كتابه «اليمين واليسار في الإِسْلاَم»: ١٦١. (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب»: ٢١٦، وما بَعْدَها. (مِنْهُ ﷺ). تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥/ ١١١، أنْسَاب البلاذي: ٥/ ٦٤، آبن الأثير: ٣/ ٦٨، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/ ١٦٣، آبن كثير: ٧/ ١٧٢، الفتوح لِابْن أَعْثَم: ٢/ ٣٩٦، تَأرِيخ آبن خلدون: ق١ ج٢: ١٤٦، و: ٥/ ١٨٦.
(٣) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب»: ٢٣٧، وما بَعْدَها. (مِنْهُ ﷺ).

من مُعَاوِيَة حِيث قَال لهُ: «فَٱدْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ»[1].

ولَو كَان مُعَاوِيَة يُطالب حقّاً بِدَم عُثْمَانَ، وبِحُكم ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة لاِقتَص من قَاتليه بَعدمَا تَمَّ لهُ الأَمْر، ولَكِنَّهُ سَالمهُم، وقَرّب إِلَيْهِ البَعض مِنْهُم، وأغْدَق عَلَيْهِمْ الأَمْوَال، كمَا قَال المُؤرخُون، أمّا طَلْحَةَ، والزُّبَيْر فقَد حَرّضا عَلىٰ عُثْمَانَ، ثُمّ طَالبا بِدَمه، كمَا هُو شَأن الاِنْتهَازِيين مِن قَدِيم الزّمَان. وتَقَدَّم الكلاَم عَنهما، وعَن مُعَاوِيَة مُفصلاً، ومُطولاً.

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: من كتابٍ لهعليه السلام إلىٰ مُعَاوِيَة رقم (٦٤).

الخطبة

-١٦٩-

سُلْطَانُ الْإِسْلاَمِ:

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ، وَ أَمْرٍ قَائِمٍ، لاٰ يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاّٰ هَالِكٌ. وَ إِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلاّٰ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا. وَ إِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ، وَ لاٰ مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَ اللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلاٰمِ، ثُمَّ لاٰ يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّىٰ يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ. إِنَّ هَؤُلاٰءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَىٰ سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَ سَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَىٰ جَمَاعَتِكُمْ: فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَىٰ فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَ إِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا. وَ لَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَ الْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَ النَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

اللُّغَة:

المُرَاد بِالقَائم هُنا المُستَقيم، وبهَالِك مِن لا يَرتدعُ عن سَبِيل التَّهلكَة. المُبتَدعَاتِ المُشَبَّهَاتِ: السَّيِّئَات أُلبست ثُوب الحَسَنَات. ويَأرِزَ: يَرجَع، وتَمَالئُوا: اَجْتمعُوا

وتَعَاوَنُوا. وفَيَالَةِ الرَّأْيِ ضَعفه. والنَّعْشُ: الرَّفع.

الإِعْرَاب:

غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ حَال من طَاعَتَكُمْ، ويَأْرِزَ مُضارع مَنصُوب بأنْ مُضمرة بَعد حَتَّىٰ، وَمَا لَمْ أَخَفْ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة، وحَسَداً مَفْعُول من أجله لطَلَبُوا.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ، وَ أَمْرٍ قَائِمٍ، لاٰ يَهْلِكُ عَنْهُ اِلاّٰ هَالِكٌ) يُشِير بهَذا إِلىٰ أنّه لا سَبِيل لنّجَاح ٱلْمُسْلِمِين، وتَقدمهم إِلّا التّمسك، والْعَمَل بِكِتَاب الله وسُنَّة نَبِيّه، والتَّأرِيخ يَشهد بأنّ ٱلْمُسْلِمِين كَانُوا خَير أُمّة أخرجت للنَّاس حِين كَان الإِسْلاَم مَادَّة للتَّعلِيم فِي مدَارسهُم، ومَصْدَراً للأحْكَام فِي محَاكمهم، وأساساً للعِلاَقات، والمُعاملات مَع الغِير، ومَع بَعضهم البَعض.

(وَ إِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ اِلاّٰ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا). إنّ هَذَا البِدَع الّتي أُلبست ثُوب الأُجْتِهَاد فِي الدِّين هِي السَّبب المُوجب لاِنقسَام ٱلْمُسْلِمِين، وتَخلفهم، والله سُبْحَانَهُ سيعُاب غَداً بِمَا يَستحقُون (اِلاّٰ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا) أي وُقِي شرّ البِدع بِاَلتَّوْبَة، والاِنَابة (وَ إِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ). إنّ التّمسك بشرِيعة الله هُو الأَسَاس لِكِيان ٱلْمُسْلِمِين، وسُلطانهم، وهِيبتهم (فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ، وَ لاٰ مُسْتَكْرَهٍ بِهَا). أَطِيعُوا الله عَن طِيب خَاطر، وبَلا رِياء تَستحقُون عَلَيْهِ اللُّوم والعَذَاب.

(وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ، أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الإِسْلَامِ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً).

رَبط الْإِمَام بَيْنَ الطَّاعَة الخَالِصة لله، وبَيْنَ سُلطان الْإِسْلاَم بِحيث لا سُلطَان إطلاقاً إلّا بهذه الطَّاعَة، وأَكد ذَلِكَ بالقَسم مَع العِلم بأنّ سُلطان الْإِسْلاَم ثَبت من بَعد الْإِمَام للأُموِيين، ثُمّ للعبَّاسِيين، ولِمن بَعْدَهم، ٱستمر مئات السّنين بِلا طَاعة لله من الحَاكِمين، ولا المحكُومِين. فَمَا هُو الجوَاب عَن ذَلِكَ؟

وأجَاب الشَّارحُون بأجوبة أنْهَاها البَعض مِنْهُم إلىٰ خَمْسَة، ولا شَيء مِنْهَا تَركُن إِلَيْهِ النَّفس، أو يَدل عَلَيْهِ سِياق الكلاَم، وظَاهره. والَّذي نَراه فِي الجوَاب أنّ مُراد الْإِمَام بالطَّاعَة هُنا تَسلِيم ٱلخِلاَفَة لأَهْل ٱلبَيْت، وبِسُلطان الْإِسْلاَم تَطبِيق أحْكَامه وتَنفِيذها عَلىٰ الوَجه الأكْمَل، وأضَاف الْإِمَام سُلطان الْإِسْلاَم إلىٰ ٱلْمُسْلِمِين بالنَّظر إلىٰ أنّ الْإِسْلاَم للجَمِيع لا لِفئَة دُونَ فِئَة، أو فَرد دُون فَرد، وعَلَيْهِ يَكُون الْمَعْنَىٰ أنّ سُلطان الْإِسْلاَم هو الآن لِلْمُسْلِمِين جَمِيعاً، وسِيظل مَا دَام الْإِمَام هُو ٱلخَلِيفَة، فإذَا ذَهب إلىٰ رَبّه وٱنْتقَلت ٱلخِلاَفَة لأَهْل ٱلبَيْت ٱستمر سُلطان الْإِسْلاَم لِلْمُسْلِمِين، وإلّا تَداولته الأبَالِسة فِيما بَيْنَهمْ، ولَن يَعُود إلىٰ مَن يَجعل سُلطانه للجَمِيع عَلىٰ السّوَاء.

(إِنَّ هَؤُلاءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَىٰ سَخْطَةِ إِمَارَتِي... إِلىٰ الْمُسْلِمِينَ). هَؤُلَآء إشَارة إلىٰ الَّذين قَلبوا الأُمُور لِلإِمَامِ يَبتغُون الْفِتْنَة كطَلْحَةَ، والزُّبَيْر، ومُعَاوِيَة، والْإِمَام ـ بكلاَمه هَذَا ـ يُحدد مُوقفه مِنْهُم بأنّه يَتْجَاهَلهُم، ولا يَتعرض لهُم بسُوء، شَرِيطَة أنْ لاَ يُلحق الغَبن بالجَمَاعَة، والحقُوق الْعَامَّة، أمّا إذا مَضُوا عَلىٰ الغَي، وضَعف الرَّأي فإنَّه لَن يَسكت عنهم بحَال، وفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْله: «وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً»[1].

(١) أنظر، نَهج البَلاغَة: ٱلخُطْبَةُ (٧٤).

(وَ إِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ... إلخ) ثَاروا عَلَىٰ الْإِمَـام لِغل الْحَسَد عَلَىٰ مَنصب ٱلخِلاَفَة الّتي أرْجعَها الله إِلىٰ أَهْلها (فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا). حَاولُوا ٱنْتزَاع ٱلخِلاَفَة من الإِمَـام، وإرْجَـاعها إِلىٰ غَـيْره، كـمَا كَـانوا يَفعلُون مِن قَبل (وَ لَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَ الْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَ النَّعْشُ لِسُنَّتِهِ) الضَّمِير فِي حقِّهِ، وسُنَّتِهِ يعُود إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ، والْمُرَاد بالنَّعْش رَفع الشّأن، وإعْلاَء الكَلِمَة، والْمَعْنَىٰ أنّ لله، ولِلْمُسْلِمِين عَليّ حقّاً أنَا قَائم بِهِ، وهو الْعَمَلُ بِكتَاب الله، وسُنَّة نَبيِّه، وإعْلاَء كَلِمَة الرَّسُول، ورِسَالَته.

وبَعد، فَمَا لأحدٍ من الْصَّحَابَة شيء من الاِحْتِرَام، والقَداسة خَلِيفَة كَان، أَم غَيْر خَلِيفَة، ورَحماً كَان للنَّبِيّ ﷺ، أَم غَيْر رَحم إِلّا بالتَّقْوَىٰ، والْعَمَل بِسُـنَّة رَسُـول الله ﷺ من أَلفِها إِلىٰ يَائِها، ومُرَادنا بِسُنَّة الرَّسُول الأَعْظَم مَـا أَتىٰ بِـهِ عـلىٰ جِـهة الوجُوب، ومن أَمْسَك عَن غَيْره مِمَّا فَعله النَّبِيّ ـ وسِعَته السُّنَّة، ولا تَجُوز نسْبَتَهُ إِلىٰ البِدْعَة، أمّا قَوْله: «مَن رَغِب عَن سُنتِي فَـلَيْسَ مِـنِي»[1] فـالمَقْصُود مِـنْهُ السُّـنَّة الوَاجبة دُونَ المُستَحبَة، نَقُول هَذَا مَع العِلم بأنّ بَعْض الرِّوَايَات أُطلقت كَلِمَة السُّنَّة علىٰ المُستحب، وكَذَلِكَ أَكْثَر الْفُقهَاء، أو الكَثِير مِنْهُم يَقُولون: هَـذَا سُنَّة، وهُـم يُرِيدُون النَّدب... ولكن قَوْله ﷺ: «فَلَيْسَ مِنِي» دَلِيل عَلىٰ إِرَادَة الوجُـوب مـن السُّنَّة فقط.

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٩٤٩/٥ ح ٤٧٧٦، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٦١/٦، صَحِيح آبن حِبّان: ٢٠/٢ ح ٣١٧، سُنَن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٧٧/٧ ح ١٣٢٢٦، شعب الإِيمَان: ٣٨١/٤ ح ٥٤٧٧، أعتقاد أَهْل السُّنَّة: ٩٧/١ ح ١٣٨، التَّرغيب والتَّرهيب: ٣٠/٣ ح ٢٩٥٣، فتح الباري: ٥٤١/١٠ ح ٥٧٥١، سُبل السَّلام: ١١٠/٣.

الخطبة

ـ ١٧٠ ـ

الرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أَهْلِهِ:

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَ أَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ، وَ الْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَىٰ الْمَعَاطِشِ، وَ الْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ، وَ مُخَالِفَهُمْ إِلَىٰ الْكَلَإِ، وَ الْمَاءِ. فَقَالَ ـ عليه السلام ـ: فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عليه السلام.

وَ الرَّجُلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ.

اللُّغَة:

الرَّائِدُ: رَسُول الْقَوْم يَنظر لهُم مَكَاناً للنُّزُول. والْكَلَإِ: الرَّبِيع. الْمَعَاطِش: مُوَاضع العَطَش. وَالْمَجَادِبِ: مُواضع الْجَدْب، والمَحْل.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنَّ الَّذِينَ فَاعِل لِفعل مَحذُوف أي لَو ثَبت كُون الَّذِينَ.. إلخ، ورَائِداً

حَال، ومَا كُنْتَ «مَا» للاِسْتفهَام مُبْتَدأ، وجُملة مَا بَعْدَها خَبَر. والمَجمُوع جُواب لَو.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: إنّ قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أرْسَلُوا رَجُلاً إلىٰ الإِمَامِ عليه السلام: لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَة حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الجَمَلِ لِتَزُولَ الشُّبْهَةُ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَبَيَّنَ لَهُ عليه السلام مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُحْدِثُ حَدَثاً حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ.

فقَال لهُ الإِمَام: (أَ رَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ... إلخ) أرْسَلُوك لِتَبحَث عَن مكَان الأَمْن، والخَصب، وتَرشدهُم إِلَيْهِ، وقَد بَحثت، وٱهتدِيت، وأرْشَدتهُم إلىٰ مَا يَبتغُون، فَلو خَالفُوك وذَهبُوا إِلىٰ مكَانِ ٱلجَدْب، والخَوْف، فهَل تَذهب مَعهُم، أو إِلىٰ مكَانِ الخَصب، والأَمْن الَّذي شَاهدته بنَفْسَكَ؟. فقَال الرَّجُل: بل أَتْرُكهُم وأذهب إِلىٰ مَا رَأيتُ، وشَاهدتُ. فقَال له الإِمَام: إِذاً ٱمْدُدْ يَدَكَ وبَايَعَ فٱستجَاب، وَقَالَ: فَوَاللهِ مَا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ. وهَكذا كلّ من طَلِب الحَقّ لوجه الحَقّ، يُؤْمِن بسهُولة وتُلقائِياً إذَا قَام البُرهَان، أمّا صَاحب المِيُول، والأَهوَاء فِيقَع فِي التِّيه، والضّلال مُدَّة حيَاته.

الخطبة

-١٧١-

دُعَاء:

أَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَ الْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَ النَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ، وَ الْقَمَرِ، وَ مُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَ جَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ، وَ رَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ، وَ الْأَنْعَامِ، وَ مَا لاَ يُحْصَىٰ مِمَّا يُرَىٰ وَ مَا لاَ يُرَىٰ، وَ رَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَ لِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ، وَ سَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَ إِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَ اعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَ الْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

اللُّغَة:

الْجَوُّ: الْفَضَاء بَيْنَ جِرمين، أو أكْثَر. والمَغِيض: مُجتمع الشَّجر فِي المَاء.

والْهَوَامِّ: الْحَشَرات، والأفَاعِي. والذِّمَارِ: مَا تَلزَم حِمايته، والدّفَاع عنهُ. وَالْغَائِرُ: مَن يُغار عَلىٰ نِسَائه. والْحِفَاظِ: الوَفَاء، ورعَاية الذِّمم.

الْمَعْنَىٰ:

(أَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) أي رَبّ ٱلْسَّمَاوَات، وَهِي سَقْف بِالنَّظر إلىٰ العِلُو، وفِي رُؤيَة الْبَصَر لا فِي الوَاقع، تَمَاماً كما نَرىٰ الشَّمْس تَدُور مِن المَشرِق إلىٰ المَغرِب، والْأَرْض سَاكنة مُستريحة مَع أَنَّهَا تَدُور بِنا، والَّذي نَرَاه فُوقها كَان قَبل سَاعَات تَحت أقدَامنا، والَّذي عَلىٰ يَمِيننا كَان قَبل قَلِيل عَلىٰ يَسارنا[1]. (وَ الْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَ النَّهَارِ). بَيْنَ الشَّمْس، والْأَرْض فَضَاء وهَذَا الْفَضَاء يُسمىٰ جَوّاً، أمّا ٱللَّيْل، والنَّهَار فَهُما وصفَان، أو أثرَان لدُورَان الْأَرْض فِي مُحورها مرّة وَاحِدَة في الْيَوْم الوَاحد، وبهَذا يَتعاقب عَلىٰ أَطْرَافِهَا ٱلنُّور الَّذي نُسمِيه نَهاراً، والظَّلاَم الَّذي نُسمِية لِيلاً، وإذَنْ فٱللَّيْل، والنَّهَار تَابعان لا مُستقلان، يَحدث الْأَوَّل فِي الجَوّ لطَرف الْأَرْض غَيْر المُقابل للشَّمْس، ويَحدث الثَّانِي فِي الجَوّ المُحاذِي لطَرفها المُقابل للشَّمْس.

وبهَذا يَتَبَيَّن مَعنا أنّ ٱللَّيْل، والنَّهَار موجُودَان فِي الْأَرْض فِي آنٍ واحد، لكن كُلاً مِنْهُمَا في طَرفٍ مِنْهَا، وكلّ النَّاس يَعرفُون أنّ لِيل الشَّرق نَهار فِي الغَرب، وبالعَكس، وقَد عبّر الْإِمَام عَن مَجْمَع ٱللَّيْل، والنَّهَار في زَمَان واحد، عبّر عنهُ بِالمَغِيض من بَاب الاِستعَارة من المكَان إلىٰ الزَّمَان[2]. أمّا كَلِمَة مَكفُوف فإِنَّهَا تُشِير

---

(١) أنظر، كِتَاب «مَع الله فِي السَّمَاء» لأَحْمَد زَكِي، الفَصل الثَّالث «مَا السَّماء»؟ (مِنهُ ﷺ).
(٢) أنظر، مَعْنَىٰ المَغِيض فِي فِقرَة اللُّغَة. (مِنهُ ﷺ).

إلىٰ أنّ الكُواكب الموجُودة فِي الْفَضَاء مَكفُوفة، وممْنُوعَة عَن الفُوضىٰ، والسّقُوط، وإنّه تَعَالىٰ قَد أمْسكهَا بتُوسط الجَاذبِية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

(وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ، وَ الْقَمَرِ، وَ مُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ). الشَّمْس تَدُور حَوْلَ نَفْسها، والأَرْض تَدُور حَوْلَ الشَّمْس، ٱلْقَمَر يَدُور حَوْلَ نَفْسه وحَوْلَ الأَرْض، وَالجَوّ هُو ٱلسَّبِيل الَّذي يُمهد لدُورَان الشَّمْس، وٱلْقَمَر، والأَرْض، وغَيْرها من الكُواكب، والأَجْرَام، ولَولاَه لتعَذرت الحَرَكَة بشَتَّىٰ أنواعها، أمّا الكُواكب السَّيَارة فمِنْهَا عَطارد، والزُّهرة، والمرِيخ، والمُشْتَرِي، وزُحل وغَيْرها، وتُسمىٰ هَذِه بالمجمُوعة الشَّمْسِية.

وبَعد، فإنّ المُدبر الأَعْظَم سُبْحَانَهُ خَلق الكَوْن، وأودَع فيهِ القَوَانِين تَفعل فِعلها، وتَحدث أثرهَا المطلُوب بِدقةٍ، وعنَاية، وفِي كلّ آنٍ، ولحظَة، وإذَا كَان هَذَا مِن غَيْر قَصدٍ، وهَدفٍ لَم يَبق أي فَرق بَيْنَ الفُوضىٰ والنّظام، وبَيْنَ مَا تَجمعه الرِّياح من تلُول الرِّمَال فِي الصَّحراء، وبَيْنَ المُدن، والعوَاصم.

(وَ جَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ... إلخ) وهُم عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وبِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. هَذَا نُؤمن بِه، ولا خِبرة لنَا بِحَقِيقَة المَلائِكَة، وحيَاتهم، ولا نَقُول عَن جهلٍ، أمّا تَفْسِير الْكَلِمَات الّتي جَاءت فِي وصفهم فتَقَدَّم[2]. (وَ رَبَّ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلأَنَامِ... إلخ) نَحنُ، وٱلحيَوَانات، والطُّيُور، وٱلحَشْرَات، ومَا نَعرف ولا نَعرف من المخلُوقَات

---

(١) فَاطِرٍ: ٤١.

(٢) أُنظر، شَرح الخُطبَة: (١ و ٩١). (مِنهُ).

الأَرْضِية، الكلّ من تُربة هَذِه الأَرْض تُسِيطر عَلىٰ حَركاتهم، وسكناتهم، ثُمّ تَطوِيهم فِي جُوفها إِلىٰ أنْ يُبدل الله الأَرْض (وَ رَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً... إلخ) للجِبَال منَافع، مِنْهَا أنّ ٱلإِنْسَان بِهَا يَعتصم من السّيُول، والغَارات، وإِنَّهَا تُفجر الْعُيُون كَمَا سِيق فِي ٱلْخُطْبَة (٩١)، وأهم منَافعها إطلاقاً أنّ الأَرْض لَوْلاَ الْجِبَال لزَادت جَاذِبِية الشَّمْس لهَا، وتنَاثرت بِمَا فِيها فِي الْفَضَاء أشلاَء، وهَبَاء ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

(إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ... إلخ) مَهّد الإِمَام أوّلاً بالتَّضرُع إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ، وأثنىٰ عليهِ، سَأله مُخلصاً أَنْ يُجَنّبَه الْبَغْي، ويُسدده لإِقَامة الْحَقّ، ونُصرة الْعَدْل إنْ كَتب لهُ الغَلبة عَلىٰ أعْدَائه، وإنْ كَان قَد قضىٰ لهُم بِنصرٍ دونه فَليمُنّ عليهِ بالشَّهَادة فِي طَاعته، والْعِصْمَة عن مَعْصِيَته، وهَذَا الابْتِهَال، والسُّؤَال يُوحي بِمَا يَلي:

١ ـ شعُور الإِمَام بِجلاَل الله، وعَظَمته، وثِقته بعدلِهِ ورَحمته، وخَوْفه من غَضبِهِ، وعذَابه.

٢ ـ ٱعرَاض الإِمَام عن الدُّنْيَا وزُهده في الْحُكْم، والسُّلْطَان، بل والتَّفُوق عَلىٰ الأَعْدَاء، وتَفوِيض أمْرَه إلىٰ الله فِي كلِّ شيء، ولا يَطلب مِنْهُ شَيْئاً حَتَّىٰ النَّصر عَلىٰ الأَعْدَاء إِلّا شَيْئاً وَاحداً، وهُو الرِّضا، وبالخصُوص سَاعة الْمَوْت، ولأنّ الشَّهَادة أفضل الطَّاعَات عَلىٰ الإِطلاَق، ولِذَا طَلب من رَبّه أنْ يَجعلها خَاتمة حِيَاته.

---

(١) ٱلنّحل: ١٥.

٣ ـ إنْ كَانَ الله سُبْحَانَهُ قَد كَتب لهُ النَّصر عَلىٰ أعْدَائه فلْيَكُنْ مَع النَّصر التُّوفِيق لإقَامة الْحَقّ، والْعَدْل، والاِنْتصَاف للمظلُوم... وهَذَا هُو الفَرق بَيْنَ عَـليّ، وبَـيْنَ النَّاس، كلّ شَيء عِنده وَسِيلة لطَاعة الله، ومَرضاته: الجَاه، الْمَال، السُّلْطَان، النَّصر عَلىٰ الأعْدَاء، ٱلْحيَاة، أمّا النّاس فكلّ شيء عِندهُم حَـتَّىٰ الدِّيـن ـإلىٰ التَّـفاخر، والتَّكاثر، والتَّشفِي، والاِنتقَام.

وجُملة الْقَوْل أنّه لا فَرق أَبَداً عِند الإِمَام بَيْنَ أنْ يَنتصر، أو يَنهزم في هَذِه ٱلْحيَاة، ومَثَله الأعلىٰ مَرضاة الله، ومن أجلِ هَذَا لا يَقبل عَليّ بن أَبِي طالب النَّـصر عَـلىٰ أعْدَائه إلّا بشرط التُّوفِيق لإحقَاق الْحَقّ، وإبطَال الْبَاطِل.

(أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَ الْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ... إلخ) هَذَا حَثّ مِنْهُ لأصحَابه عَلىٰ الجِد فِي الْجِهَاد وإنّ جَزاءهم عند الله الفُوز، والنَّجاح دُنياً، وآخرة إنْ ٱستجَابوا طَائِعِين، وإلّا عَاشوا فِي ٱلْحيَاة الدُّنْيَا أذلاء صَاغرِين، وهُم في الْآخِرَة عَذَاب أَلِيم.

الخطبة
-١٧٢-

الْإِمَام وَقُرَيْش...فِقْرَة ١:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاٰ تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَ لاٰ أَرْضٌ أَرْضاً.

وَ قَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ يَا ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَ اللهِ لَأَحْرَصُ وَ أَبْعَدُ، وَ أَنَا أَخَصُّ وَ أَقْرَبُ، وَ إِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَ أَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ، وَ تَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لاٰ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَ مَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَ صَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ، وَ أَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلاٰ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ(١).

اللُّغَة:

لاٰ تُوَارِي: لا تحجب. قَرَّعْتُهُ: مِن القَرع بالعَصَا. هَبَّ: هَاج، وثَار. بُهِتَ: أُخذ بَغتة.

الإِعْرَاب:

لَحَرِيصٌ خَبَرَ إِنَّكَ، وعَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ مُتَعَلِّق بِهِ، والمَصْدَر من أَنْ تَأْخُذَهُ اسم إنَّ، وَفِي الْحَقِّ «فِي» معنَاها السَّببِية أي لَكَ أخذَ هَذَا الأَمْر بَسبب الْحَق.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَ لاَ أَرْضٌ أَرْضاً... إلخ) لَو تَرَاكمت الكُواكب بكلاِمها الوَاحد مِنْهَا فُوق الآخر لكَان عِلمَه تَعَالىٰ بالأدنىٰ المَحجُوب تمَامَاً كعِلمَه بالأعلىٰ المَكشُوف، والقَصد أنّ الله سُبْحَانَهُ مُحيط بكلّ شيء، ولا يَحجب عِلمَه شيء.

(وَ قَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ يَا ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ... إِلىٰ مَا يُجِيبُنِي بِهِ!). نَقل ٱبن مِيثَم وهو يَشرح هَذَا المَقطع من ٱلْخُطْبَة ـ عِبارة ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد بالحرف، وٱستوعبت أَكْثَر من صَفحة دُونَ أَنْ يُشير إِلىٰ الْمَصْدَر، كمَا هو شأن الأَوَّلِين، أو أَكْثَرهم!.. وروىٰ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: «إنّ الَّذي قَال لِلإِمَامِ: «إِنَّكَ لَحَرِيصٌ عَلىٰ ٱلخِلاَفَة هُو سَعد بن أَبِي وَقَّاص، وإنّ هَذَا الكَلاَم جَرىٰ مِنْهُ يَوْم ٱلشُّورَىٰ، وقِيل: بل الَّذي قَال هَذَا لِلإِمَامِ هُو أبو عُبَيْدَة ٱبن الجَرَّاح، وإنّه خَاطب بِهِ عَلِيَّاً يَوْم السَّقِيفَة»[1]... وأيّاً كَان القَائل فقَد أجَابه الإِمَامعليه السلام: «لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ»[2]، كمَا فَعل أَصْحَاب هَذَا القَائل فأُفحِم، وٱهتزت أعصابه لا يَدري مَا يَقُول.

---

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٣٠٥/٩، الغَارات: ٧٦٧/٢.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٦٦).

ويَدلنا هَذَا الحُوار أنّ الْصَّحَابَة كَانوا يَخْتلفُون، ويَـتنَاقضُون فِي الرَّأي، ولكـن ٱخْتلاَفهم كَان يقف عِند حَدّ النِّقَاش، والحُوار، وقَرع الحُجّة بِالحُجّة، ولا يَتجَاوزه إِلىٰ سَفك الدِّمَاء، والاِحْتكَام إِلىٰ السَّيْف حَتَّىٰ كَان من طَلْحَة، والزُّبَيْر، ومُعَاوِيَة مَا كَان حَيْث حُولوا سَيْف الإِسْلاَم، وبأسَه من أعْدَائه إِلىٰ أولِيَائه، وفـتحُوا بَـاب الحَرْب بَيْنَ أَهْل القِبلَة.

(أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَ مَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا... إِلىٰ هُوَ لِي).

تَألبت قُرَيْش عَلىٰ رَسُول الله ﷺ، وتفَنَنت فِي أذَاه، والتَّنكِيل بِمن صَدّق، وآمَن بِهِ، فأسْمَت النَّبِيّ ـ والعِياذ بالله ـ مَجْنُوناً، وكَـاهناً، وطَـالب مُـلك، وثُمّ شَرَدَتـه مـن مَوْطِنه، ثُمَّ جَمعت لِحَرْبه فِي بَدْرٍ، وأُحدٍ، وٱلأَحْزَابِ، وأخِـيراً ٱسْـتَسلم طُـغاتها للقُوَّة، ومَا أَسْلمُوا، بل نَافقُوا، وأرجفُوا، وبَعد أنْ ٱنـتقل النَّـبِيّ ﷺ، إِلىٰ الرَّفِـيق الأعلىٰ، وسَنحت الْفُرصَة لقُرَيْش مَثلّت نَفس الدَّور مع حَبِيبه، ووصِيه، أجْمَعت عَلىٰ مُنازعته فِي ٱلخِلاَفَة، وتَنَاقلتهَا من يَدٍ إِلىٰ يَدٍ، ولمّا عَادت إِلىٰ عَليٍّ أعلَن عليهِ الْحَرْب مَن أعلَن من قُرَيْش، ونَافق مِنْهَا مَن نَافق تَمَاماً كَمَا فَعلت مَع سيّد الكَوْنِين مِن قَبل.

(ثُمَّ قَالُوا: ـ أي قُرَيْش ـ أَلاٰ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَـتْرُكَـهُ).

ويَصدُق هَذَا عَلىٰ أَصْحَاب الجَمَل الَّذِين خَرجُوا يَجرّون زَوَّجَة الرَّسُول ﷺ، كَـمَا تَأْتِي الإِشَارَة بلا فَاصل، يَصدُق عَلَيْهِمْ لأنّهم بَـايعوا الإِمَـام، ثُمّ نَكـثُوا ٱلْـبَيْعَة، فحُجّتهم بأنّ بِيعَتهُم لهُ تُشكل ٱعترَافاً مِنهُم بأنّ ٱلخِلاَفَة حَقّ من حقُوقه، لا يَنْبَغِي لأحدٍ أنْ يُنازعه فِيها، وثُورتهم عَلَيْهِ بالْبَصْرَةِ تُشكل ٱعترَافاً بأنّ الإِمَام لا حَقّ لهُ فِي ٱلخِلاَفَة، وإنّ عَلَيْهِ أنْ يَتنَازل عَنْهَا!.. وهَذَا هُو التَّهافُت، والتَّناقُض بِعينَه.

أَصْحَاب الْجَمَل...فِقْرَة ٢:

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَىٰ الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَ أَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَ قَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَ سَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَىٰ عَامِلِي بِهَا، وَ خُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَ طَائِفَةً غَدْراً. فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَ لَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَ لاَ بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ(٢)!

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِحُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ، وحَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ زَوْجَته. والأصل فِي مَعْنَىٰ الصَّبر الحَبْس، والْقَتْل صَبْراً: الْقَتْل بَعد الحَبْس. والْغَدْر: الخِيَانة. والْعُدَّةِ ـ بضم الْعَيْن ـ الاِسْتعدَاد، وبكسرها العَدد، والجَماعَة.

الإِعْرَاب:

طَائِعاً حَال من الضَّمِير فِي سَمح، وغَيْرَ مُكْرَهٍ صِفَة مُؤكدْ لِطَائِع، وصَبْراً، وغَدْراً مَفْعُول مُطلق لِقَتَلُوا مُبيناً للنَّوْع مِثل جَلستُ القُرفْصَاء، ورَجُلاً مَفْعُول يُصِيبُوا، ومُعتَمِدِين حَال من واو يُصِيبُوا. ودَعْ مَا أَنَّهُمْ «مَا» زَائِدَة.

الْمَعْنَىٰ:

(فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ كَمَا تُـجَرُّ الْأَمَـةُ... إِلَىٰ الْـبَصْرَةِ).

أَخرج طَلْحَةَ، والزُّبَيْر أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ من خِدرها، وأَرْكبَاها الجَـمَل لِـيُؤدي مُهِمة قَمِيص عُثْمَانَ الَّذي نَشره مُعَاوِيَة فِي بَـلاد الشَّـام لِكَسب الأصوَات، وعَـلَىٰ الأَصَح لِكَسب السُّيُوف، والرِّمَاح ضِدّ جَمَاعَة ٱلْمُسْلِمِين، وكَانَتْ هَذِه أَوّل بِدْعَة فِي الْإِسْلَام، وتَلِيها الشَّهَادة بأنّ الكِلاب النَّابحة عَلىٰ الجَمَل لَيْست كِلاب حَوْأب[1].

---

(١) ذكر قِصّة الجَمَل، وكِلاَب الحُوْأب، الطبري في تأرِيخه: ٣/ ٤٧٥ بِإختلاف بسيط في اللّفظ، وخلاصتها: أعطىٰ يَعلىٰ بن منية عَائِشَة جملاً آسمه عسكر آشتراه لها بمئتي دينار، وقيل: بل كَانَ الجَـمَل لرجـل مـن عرينة، قَالَ العريني: بينما أنا أسير علىٰ جمل لي إذ عرض لي والبة بن الحباب قَالَ: أتبيع جملك؟ قلت: نعم، قَالَ: بكم؟ قلت: بألف درهم، قَالَ: أمجنون أنْتَ؟ قلت: ولِمَ وأنا والله ما طلبت عَلَيْهِ أحداً إلّا أدركته ولا طلبني أحد إلّا فتّه، قَالُوا: لا تعلم لمن نريده.

وآتفقت المصادر التَّأرِيخِية علىٰ أنّ آسم جَمل أمّ الْمُؤْمِنِينَ يسمّىٰ «عسكراً» وكَانَ عظيم الخلق شَدِيداً، فلمّا رأته أعجبها، وأنشأ الجمّال يحدّثها بقُوَّته، وشِدَّتِهِ، ويَقُول في أثناء كَلاَمه «عسكر» فلمّا سمعت هَـذِه اللّفظة آسترجعت، وقالت: ردّوه لا حَاجَة لِي فِيهِ، وذكرت حين سُئلت أنّ رسول الله ﷺ ذكر لها هَذَا الإسم، ونهاها عن ركُوبه وأمرت أنْ يُطلب لها غيْره، فلم يوجد لها ما يشبهه فغيّر لها بجلالٍ غيْر جَلاله، وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم مِنْهُ خلقاً، وأشدّ مِنْهُ قوّة، وأتيت به فرضيت! (أنظر شرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٦/ ٢٢٤، وبحار الأَنْوَار: ٣٢/ ١٣٨).

وأضاف آبن أبي ٱلْحَدِيد في: ٦/ ٢٢٧ أنّ عَائِشَة ركبت يَوْم الحَرْب الجَمَل المسمّىٰ عسكراً في هَودج قد أُلبس الرّفوف، ثمّ ألبس جلود النّمر، ثمّ ألبس فوق ذَلِكَ دروع ٱلْحَدِيد. ومثل ذَلِكَ جاء في تَأرِيخ آبن أعْثَمْ: ١٧٦. وزاد الطَّبَرِيّ تَأرِيخه: ٥/ ٢١٢ وآبن الأثير: ٣/ ٩٧ أنّ ضَبّة، والأزد أطافت بعَائِشَة يَوْم الجَمَل. وَإِذَا رجال من الأزد يأخذون بعر الجَمَل يفتّونه ـ يكسرونه بأصَابِعِهِمْ ـ ويشمّونه ويَقُولُون: بعر جمل أُمّنا رِيحه رِيح المِسك...

مع إضافة: لو تَعلم لمن تُريده ـ أي الجَمَل ـ لأحسنت بَيعنا. قَال: قُلت: ولمن تُريده؟ قَـال لأُمّك،

⇐ قُلت: لقَد تَركت أُمّي فِي بَيْتِها قَاعدة مَا تُريد بِرَاحاً. قَال: إنّما أُريده لأُمّ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَائِشَة. قُلت: فَهُوَ لك فخذه... وزادني أربعمئة، أو ستمئة درهم.

وأضاف الطَّبَرِيّ أيضاً: فَقَالَ لِي: يا أخَا عَرِينة هل لك دَلاَلَة بالطريق؟ قَالَ: قلت: نعم أنا من أدرك النّاس، قَالَ فسر معنا، فسرت معهم فلا أمرّ علىٰ وادٍ ولا مَاء إلاّ سألوني عَنْه حَتَّىٰ طرقنا مَاء الحَوْأب فنبحتنا كِلابها قَالُوا: أيّ مَاء هَذَا؟ قلت: مَاء الحَوْأب. قَالَ: فصرخت عَائِشَة بأعلىٰ صَوْتها ثمّ ضربت عضد بعيرها فأناخته ثمّ قالت: أنا والله صاحبة الحَوْأب طُروقاً رُدّوني ـ تقول ذَلِكَ ثلاثاً ـ فأناخت وأناخوا حولها وهم علىٰ ذَلِكَ وَهِي تأبىٰ حَتَّىٰ كَانَتْ السّاعة الّتي أناخوا فيها من الغد. قَالَ فجاءها ٱبن الزُّبَيْر فَقَالَ: النّجا النّجا فقد أدرككم والله عليّ بن أبي طالب. قَالَ: فٱرتحلوا وشتموني فٱنصرفت...

وذكر ٱبن أَعْثَمْ في ٱلْفُتُوح: ١ / ٤٦٠ بعد أنْ ذكر ٱلْوَاقِعَة أنّ عَائِشَة قد تَقَدَّمَت فيمن مَعَهَا من النّاس، حَتَّىٰ إِذَا بلغت إِلَىٰ مَاء الحَوْأب وذَلِكَ فِي وقت السّحر نبحت الكِلاب، فسمعت عَائِشَة رَجُلاً من أهل عسكرها يسأل ويَقُول: أيّ مَاء هَذَا؟ فقيل له: هَذَا مَاء الحَوْأب، فقالت عَائِشَة: ردّوني، فقيل لها: ولِمَ ذَلِكَ؟ فقالت: لأنّي سمعت رسول الله ﷺ وهو يَقُول كأنّي بإمْرَأة من نسائي تنبح عَلَيْهَا كلاب الحَوْأب، فاتقي الله أنْ تكوني أنتِ يا حُميراء. قَالَ: ونزل الْقَوْم هنالك، فما أَصْبَحوا إِذَا عبدالله بن الزُّبَيْر قد أتىٰ بخمسين رجلاً يَشهدُون عندها أنّ هَذَا المَاء لَيس بمَاء الحَوْأب وأنّهم قد جاوزوا مَاء الحَوْأب بليل، قَالَ: فَكَانَتْ هَذِهِ الشّهادة أَوّل شهادة زور شهد بها في الإسلام.

وَقَالَ أبو مخنف: ولما ٱنتهت عَائِشَة فِي مسيرها إِلَىٰ الحَوْأب ـ وهو مَاء لبني عَامِر بن صَعْصَعَة ـ نبحتها الكلاب حَتَّىٰ نفرت صعاب إبلها، فَقَالَ قائل من أصحابها: ألا ترون ما أَكْثَر كلاب الحَوْأب وما أشدّ نباحها؟ فأمسكت عَائِشَة زمام بعيرها، وقالت: وإنّها لكلاب الحَوْأب، ردّوني ردّوني، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يَقُول: كَيْفَ بإحداكنّ إِذَا نبحتها كلاب الحَوْأب... فَقَالَ لها قائل: مهلاً يرحمك الله، فقد جُزنا ماء الحَوْأب. فقالت: فهل من شاهد؟ فلفّقوا لها خمسين أعرابياً. فجعلوا لهم جُعلاً فحلفوا لها أنّ هَذَا ليس بماء الحَوْأب. فسارت عَائِشَة لوجهها. (أُنظر شرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٦/٢٢٥، مروج الذّهب: ٢/٣٦٦، البحار: ٣٢/١٣٩، أعيان الشّيعة: ١/٤٥١، تأريخ الطبري: ٥/١٧٨، وط أوروبا: ١/٣١٢٧).

وقد روىٰ الحافظ أبو بَكْر البزار عن ٱبن عبّاس كما أخرجه ٱبن كثير في تأريخه: ٦ / ٢١٢، والسيوطي في خصائصه: ٢ / ١٣٧ قَالَ: قَالَ رسول الله، ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجَمَل الأديب، تسير

⇐

↔ حَتَّىٰ تنبحها كلاب الحَوْأب، ويُقتل عن يسارها وعن يمينها خلق كثير... ثمّ تنجو بعدما كادت؟ فضحكت عَائِشَة فَقَالَ لها: أنظري يا حميراء أنْ لا تكوني أنت، تقاتلين عَلِيّاً وأنتِ له ظالمة.... وعلّق آبن عبد البرّ علىٰ الحديث في الاِسْتِيعَاب عندما ترجم لعَائِشَة قائلاً: وَهَذَا الحديث من أعلام نُبوَّته. وعصام آبن قُدَامَة ـ أحد رواة الحديث ـ ثقة وسائر الأسناد أشهر من أنْ يُحتاج لذكره.

وروى البَيْهَقِيّ عن أمّ سلمة قالت: ذكر النّبي خروج بَعْض أُمهات المُؤْمِنِينَ فضحكت عَائِشَة فَقَالَ لها: أُنظري يا حميراء أنْ لا تكوني أنْتَ، ثمّ آلتفت إِلىٰ عليّ وَقَالَ: يا عليّ إنْ ولّيت من أمرها شيْئاً فآرفق بها. أخرجه آبن كثير في: ٦/ ١١٢، والسيوطي في خصائصه: ٢/ ١٣٦، والخوارزمي في المناقب تحت عنوان قتال أَهْل الجَمَل، والمُسْتَدرَك: ٣/ ١١٩، والإِصَابَة: ٦٢، والعقد الفريد لِاِبْن عبد رَبّه: ٣/ ١٠٨، والسيرة الحَلَبِية: ٣/ ٣٢٠.

وفي مُسْنَد أحمد: ٦/ ٩٧ أنّ الزُّبَيْر قَالَ عند ذَلِكَ: ترجعين عسىٰ الله عزّوجلّ أنْ يصلح بك بين النّاس. قَالَ آبن كثير: ٧/ ٢٣٠ وَهَذَا أسناد علىٰ شرط الشّيخين ولم يخرجاه. وفي المُسْتَدرَك: ٣/ ١٢٠: قَالَ الزُّبَيْر: لا تقدمي ويراك النّاس... الحديث. وفي الطبري: ٣/ ٤٨٥ عن الزّهري: فأرادت الرُّجُوع فأتاها عبدالله بن الزُّبَيْر... وفي البداية والنهاية لِاِبْن كثير: ٧/ ٢٣٠ أنّ الزُّبَيْر قَالَ لها: إنّ الّذي أخبرك أنّ هَذَا ماء الحَوْأب قد كذب. وروى ذَلِكَ أبو الفداء في تَأرِيخه: ١٧٣.

أمّا المسعودي في مروج الذهب: ٢/ ٧ فقد ذكر أنّ آبن الزُّبَيْر قَالَ: بالله ما هَذَا الحَوْأب ولقد غلط في ما أخبرك به، وكَانَ طَلْحَة في ساقة الناس فلحقها، فأقسم أنّ ذَلِكَ ليس بالحَوْأب... وفي تَأرِيخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٧ والكنز: ٦/ ٨٣ أنّ عَائِشَة قالت ردّوني ردّوني... فأتاها القَوْم بأَرْبَعِين رجلاً فأقسموا بالله أنه ليس بماء الحَوْأب.

ومن أراد المزيد فليراجع آبن الأثير في مَادّة (الحَوْأب) من كتابه النهاية، والزّمَخشَري في الفائق، والحموي في معجم البلدان، وآبن الطقطقي في الفخري: ٧٨ ط المِصْرية، والزبيدي: ١/ ١٩٥ و٢٤٤، ومُسْنَد أحمد: ٦/ ٥٢ و٩٧، وآبن أعثَمْ في: ١٦٨، والسّمعَاني في ترجمة الحَوْأبي في الأنساب، والسيرة الحَلَبِية: ٣/ ٣٢٠، ومُنتَخَب الكنز: ٥/ ٤٤٤.

وَقْفَةٌ قَصِيرَةٌ مَع الطَّبَرِيّ:

بعد كلّ هَذَا وذَاكَ لا ندري بِمَّنْ جاء المؤرّخ الكَبِير الطَّبَرِيّ في تَأرِيخه: ٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٧ أو في: ↔

↔ ١ / ١٩٠١ ط أوروبا من حوادث السَّنَة الحادية عشرة للهجرة وفي «ذكر ردّة هوازن وسليم وعامر» أنّ أم زِمل سلمىٰ بنت مالك بن حُذَيْفَة بن بَدْر الفزارية أُمّ قرفة الصغرىٰ ابنة عمّ عيينة بن حصن ـ كما جاء في الإِصَابَة: ٤ / ٣١٥ ـ قيل: هِي حفيدة أُمّ قرفة وقيل: كَانَتْ تُشبّهُ بالعز (بأُمّها) أُم قرفة الْكُبْرَىٰ ـ الّتي قتلها زيد بن حارثة لمّا سبىٰ بني فزارة، وكَانَتْ سلمىٰ سبيت فأعتقتها عَائِشَة ودخل النبي ﷺ وَهِي عندها فَقَالَ: إنّ إحداكنّ تستنبح كلاب الْحَوْأب. قَالُوا: وكَانَ يُعلّق في بَيْت أُمّ قرفة خمسون سَيْفاً لخمسين رجلاً كلّهم لها محرم، فما أدري أهَذِه؟ أمْ أُمّه قرفة الْكُبْرَىٰ» انتهىٰ كَلاَم صاحب الإِصَابَة.

وأورد السَّيِّد العلّامة مرتضىٰ العسكري في كتابه خمسون ومئة صحابي مختلق: ٢ / ٢٣٤ ط صدر، خبران:

أحدهما في طَبقَات ابن سعد وعلّق عَلَيْهِ اليعقوبي. وروىٰ ابن هشام، والطبري أيضاً، والمقريزي وخلاصته: أصَابَ سلمة بن عَمْرُو بن الأكوع بنت أُمّ قرفة في تلك الغَزْوَة ـ غَزْوَة زيد بن حارثة إلىٰ الشّام ـ فوهبها لرسول الله فأهداها النَّبيّ لخاله حزن بن أبي وهب، فولدت له عبدالرحمن بن حزن.

أمّا الْخَبَر الثَّانِي فقد أورده الطبري في ذكر ردة هوازن، وسليم، وعامر وهو الْخَبَر الّذي ذكر فِيهِ أنّ أمّ زِمل سلمىٰ بنت مالك هِي صاحبة الجَمَل حين قَالَ: وعندها جمل أُمّ قرفة فنزلوا إِلَيْهَا فذمّرتهم، وأمرتهم بالحَرْب، وصعّدت سائرة مِنهم، وصوّبت تدعوهم إلىٰ حَرْب خالد... وساق الحديث إلىٰ أنْ قَالَ: ففعلت ذَلِكَ سلمىٰ حين ارتدّت، فسيّرت في ما بين ظفر، والحَوْأب لتجمع إِلَيْهَا كلّ فلّ، ومضيق عَلَيْهِ من تلك الأحياء. فلمّا بلغ ذَلِكَ خالداً سار إِلَيْهَا، واقتتل الفريقان... وَهِي واقفة علىٰ جَمل أُمّها... فاجتمع علىٰ الجَمَل فوارس فعقروه، وقتلوها، وقُتل حَوْلَ جملها مئة رجل... وأورد الحموي هَذِه الرّواية أيضاً في كتابه معجم البلدان، وابن حجر في الإِصَابَة ولَكِنّهما لم يسندوها إلىٰ راويها كما يَقُول العلّامة العسكري في كتابه عبدالله بن سبأ: ١ / ٢١٤ ط ٥ دار الزهراء بيروت.

ثمّ يضيف العلّامة العسكري: أنّ قِصَّة أُمّ قرفة كَانَتْ في سَرِيّة زيد إلىٰ بني فزارة في السَّنَة السّادسة من الْهِجْرَة. فقتل المقاتلة، وسبىٰ النِّسَاء، والذُّرية، وكَانَ لحُذَيْفَة بن بَدْر ثلاثة عشر ولداً قُتلوا وابنة اسمها جَارِيَة سبيت فأهداها النَّبيّ إلىٰ خاله....

أنظر المصادر التّالية: ابن هشام في السِّيرَة: ٤ / ٢٩١، طَبقَات ابن سعد: ٢ / ٩٠ ط بيروت، تَأريخ اليعقوبي: ٢ / ٤٤ ط بيروت، تَأريخ الطبري: ٣ / ٨٣ وط أوربا: ١ / ١٥٥٨، والمحبر لمحمّد بن حبيب:

↔

⇔ ٤٩٠، وعُيُون الأثر: ٢/ ١١١ والإمْتاع: ٢٦٩، وجمهرة أنْساب العَرَب: ٢٤٥. وأمّا ابن حجر فإنّ ما أورده في: ٤/ ٣٢٥ من ترجمة سلمىٰ أمّ زِمل فأنّها مستخرجة من أحاديث سَيْف...

ونكتفي بنقل كَلاَم العلاّمة العسكري حين قَالَ في: ١/ ٢١٤ من كتابه عبدالله بن سبأ الطبعة الخامسة: ولا أدري من أين جاء سَيْف بسلمىٰ أُمّ زِمل إلىٰ عَائِشَة وكَيْفَ أخرجها إلىٰ ظفر، والحُوْأب. وكَانَ قَوْم حُذَيْفَة بوادي القرىٰ بين الشّام، والمَدِينَة، والحُوْأب علىٰ طريق البَصْرَة... إنّما وضع سَيْف هَذِه الأسطورة دفاعاً عن أُمّ المُؤمِنِينَ عَائِشَة في ما ذكر المؤرّخون من نباح كلاب الحُوْأب علىٰ جملها عند ذهابها لحَرْب البَصْرَة...

ويضيف العلاّمة في كتابه خمسون ومئه صحابي مختلق: ٢/ ٢٣٩ ط ٦ فيَقُول: وبأختراع أسطورة جمل أُمّ قرفة، وركوب أُمّ زِمل أيّاه أيّام أرتدادها، ونباح كلاب الحُوْأب عَلَيْهَا، وأراد أنْ يطمس به خَبَر نباح كلاب الحُوْأب علىٰ جمل أُمّ المُؤمِنِينَ عَائِشَة من مَعَالِم النُّبُوّة ولم ينجح.

أيّها القارئ العزيز، أعلم أنّ الطَّبَرِيّ أثبت ـ في تَأرِيخه المَعْرُوف بتأريخ الأُمم والمُلُوك: ٣/ ٤٧٥ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت والّذي راجعه وصحّحه وضبطه نخبة من العُلَمَاء الاجلاّء وقابلوها علىٰ النسخة المطبوعة بمطبعة «بريل» بمدينة ليدن في سنة ١٨٧٩ م ـ أنّ عَائِشَة نبحتها كلاب الحُوْأب... قَالَ: فصرخت عَائِشَة بأعلىٰ صَوْتها ثمّ ضربت بعيرها فأناخته ثمّ قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحُوْأب طُروقاً ردّوني، تقول ذَلِكَ ثلاثاً... وقد أشرنا إلىٰ ذَلِكَ آنفاً فراجع، وحكّم ضَمِيرك في هَذَا التناقض.

وأنظر مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣/ ١١٩ و ١٢٠ روىٰ الحديث بسنده عن أُمّ سلمة قالت: ذكر النَّبيّ ٩ خروج بَعْض أُمّهات المُؤمِنِينَ فضحكت عَائِشَة فَقَالَ: أُنظري يا حميراء أنْ لا تكوني أنت... الحديث، وكنز العُمّال: ٦/ ٨٤ عن طاووس... وسنده صَحِيح، ومَجْمَع الزّوائد: ٧/ ٢٣٤، و: ٨/ ٢٨٩، و: ٩/ ١١٢، وفتح الباري: ١٦/ ١٦٥، الاسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ: ٢/ ١٨٥، مُسْنَد أحمد: ٦/ ٣٩٣ بسنده عن أبي رافع أنّ رسول الله ﷺ قَالَ لعليّ عليه السلام: إنّه سيكون بَيْنَكَ وبين عَائِشَة أمر، فَقَالَ: أنا يارسول الله؟ قَالَ: نعم، قَالَ: أنا؟ قَالَ: نعم، قَالَ: فأنا أشقاهم يا رسول الله، قَالَ: لا، ولكن إذَا كَانَ ذَلِكَ فأرددها إلىٰ مأمِنَها، وذكر ذَلِكَ المتقي الهندي في الكنز: ٦/ ٤١٠، ومَجْمَع الزوائد: ٧/ ٢٣٤. وروىٰ البُخَارِيّ في صحيحه في كتاب بدء الخلق، والتِّرمِذي في صحيحه بَاب الفِتَن، والنسائي في ج ٢ بَاب النهي عن أستعمال ⇔

(فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَ أَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا). ضَمِير التَّثْنِية الزُّبَيْر، وطَلْحَةَ اللَّذِين تَجْرءا عَلىٰ إِخْرَاج عَائِشَةَ من خِدرها وأظهراها للمَلأ، وأبقىٰ كلّ مِنْهُمَا زوّجتَه فِي الخِدر!. ووصَفَ الإِمَام عَائِشَةَ بالحَبِيس لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَاتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1]، أو لِأَنَّهَا مَحْبُوسَة عن الرِّجَال بَعد رَسُول الله ﷺ.

(فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ اِلاَّ وَ قَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَ سَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ.. إِلىٰ غَدْراً). كلّ أَصْحَاب الجَمَل كَان قَد بَايَعَ الإِمَام، أو رضِي بِبَيْعَتِهِ، القَائد مِنْهُم

↩ ٱلنِّسَآءَ فِي الحُكم. والخُلاَصة: أنّ النّبيّ ﷺ يحذّر عَائِشَة من أنْ تنبحها كلاب الحُوْأب.

وقد نقل أهْل السّير والأخْبار ذَلِكَ بألفاظ متعدّدة فمن شاء فليراجع المصادر السّابقة بالإضافة إلىٰ العقد الفريد: ٤ / ٣٣٠ الطبعة الثّانِيَة، و: ٢ / ٢٨٣ الطبعة الثّانِيَة، و: ٢ / ٢٨٣ ط آخر، والنهاية لِابن الأثير: ١ / ٤٥٦، و: ٢ / ٩٦، كفاية الطالب: ١٧١ ط الحيدرية و٧١ ط الغري، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبْصَار: ٦٤ ط العُثْمَانية و٦٥ ط السعيدية، الإسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٤ / ٣٦١، تاج العروس: ١ / ٢٤٤، الغدير: ٣ / ١٨٨.

ونلفت أنتباه القارئ الكَرِيم أنّ الرّسول ﷺ ذات مرّة قام خطيباً علىٰ منبره وأشار نحو مسكن عَائِشَة قائلاً: هاهنا الْفِتْنَة، هاهنا الْفِتْنَة، هاهنا الْفِتْنَة؛ حَيْث يطلع قرن الشَّيْطَان.

أُنظر صَحِيح البُخَاريّ كتاب الجِهَاد والسير بَاب ما جاء فِي بُيُوْت أزواج النّبي ﷺ: ٤ / ٤٦، و: ٢ / ١٢٥ ط دار الفِكْر أفست علىٰ طبعه استانبول، و: ٤ / ١٠٠ ط مطابع الشعب وط محمّد عليّ صبيح، و: ٢ / ١٨٩ ط دار إحياء الكتب، و: ٢ / ١٢٧ ط المعاهد بالقاهرة، و: ٢ / ١٣٢ ط الشرفية، و: ٤ / ٦٥ ط الفجالة، و: ٢ / ١٧٧ ط الميمنية بمِصْر، و: ٤ / ٤ ط بمبي.

ويوجد فِي صَحِيح مُسْلِم كتاب الْفِتَن من الشرق: ٢ / ٥٦٠ و٥٠٣ ط أخرىٰ، وط عِيسَىٰ الحلبي بمِصْر ولفظ الحديث: خرج رسول الله ﷺ من بَيْت عَائِشَة، فَقَالَ: رأس الكفر من هاهنا من حَيْث يطلع قرن الشَّيْطَان. وكَذَلِكَ فِي: ٨ / ١٨١ ط شركة الإعلانات، وط المكتبة التّجَارِيّة، و: ١٨ / ٣١ بشرح النووي ط المطبعة المِصْرية.

(١) ٱلْأَحْزَاب: ٣٣.

والمَقُود، ثُمّ نَكثُوا، وأعْلنُوا عَلَيْهِ الحَرْب، وأَسّروا عَامله عَلىٰ البَصْرَة عُثْمَانَ بن حُنَيْف، ونَكلُوا بِهِ، ومَثلُوا، وقَتْلُوا من ٱلْمُسْلِمِين خَلقاً كَثِيراً عَلىٰ حَدّ مَا قَال ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، قَتْلُوا بَعضهُم صَبْراً، وبَعضهُم غَدْراً، والأَوّل الْقَتْل بَعد الحَبْس، أو الأسر، والثَّانِي الْقَتْل خِيانة للدِّينِ، والضَّمِير[1].

(فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ). يُقْسِم الإِمَام بأنّ جَيْش الجَمَل بأكمله يَستحِق الْقَتْل لو قُتْلُوا عن قَصدٍ رَجُلاً وَاحِداً، وعَلل ذَلِكَ بقَوْله: (إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَ لَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَ لاَ بِيَدٍ). وتَساءَل الشَّارحُون، وغَيْرهم حَوْلَ هَذَا التَّعلِيل وقَالُوا: هَل يَجُوز قَتل مَن لَم يُنْكِر الْمُنْكَر مَع تَمكُنه من الإنْكَار[2].

وأجَاب البَعض: بأنّه يَجوز شَرعاً قَتل السَّاكت عن إنْكَار الْمُنْكَر مَع الْقُدْرَة عليهِ.

وَقَالَ آخر: مُراد الإِمَام أنّ من ٱعتقد جُواز الْقَتْل بِغَير الحَقّ فقَد أنْكَر ضَرورة دِينِية. ومن البَداهة أنّ هَذَا مُرتد، والمُرتد مُباح الدَّم... وفي كلّ من الجَوَابَيْن نَظر، لأنّه مَا مِن عَاقل يُحبذ، ويُحلل الْقَتْل بلا جَرِيمَة، وأيضاً الْفُقَهَاء لا يَستحلون دَم السَّاكت عن الْمُنْكَر، وإنْ ٱسْتطَاع الإنْكَار... والأُولىٰ في الجَوَاب أنْ يُقَال: أنّ الإمَام يَتحدث عن الَّذِين شَقُوا عَصَا الطَّاعَة بخرُوجِهم عَلىٰ إمَام الزّمَان ظُلماً، وعدوَاناً، وقَطعوا الطَّرِيق للإفسَاد في الأَرْض، فإذَا قَتل بَعْض هَؤُلاَء مُسلماً

(١) أنظر، شرح نهج البَلاَغَة لإبْن أبي ٱلْحَدِيد: ٩/٣٠٩ وما بعدها.

(٢) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لمحَمّد عَبْدَه: ٢/٨٦، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لإبن أبِي ٱلحَدِيد: ٩/٣٠٩ وما بعدها، الغارات: ١/٣١٠، كتاب الجَمَل لضامر بن شَدقم المَدني: ١١٥.

بَرِيئاً، ورضِي بَعضهُم الأخر، ولَم يَدفع مَع قُدرته عَلىٰ الدَّفع، فقَد حَلّ قَتل الجَمِيع بلا أستثنَاء.

وإنْ قَال قَائل: مَن خَرج عَلىٰ إمَام زَمَانه يَحلّ قَتله عَلىٰ كلِّ حَال، أفْسَد في الأرْض، أم لَم يُفسد. قُلنا في جوابه: كلاَ، لأنّ مَفهُوم الخرُوج عَلىٰ إمَام الزّمَان لا يَتحقّق شَرعاً، ولا عُرفاً إلّا بالإفسَاد، أمّا مُجرد عَدم السّمع، والطّاعَة فهُو ذَنْب، ولَكِنَّهُ لَيس بخرُوج، ولا تَجري عَلَيْهِ أحْكَامه.

(دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ) إنّ أَصْحَاب الجَمَل لَم يَكتفُوا بِقتل وَاحِدٍ، بل قَتَلوا مَايُضاهِي عَددهم، أو يَزِيد. وتَقدَّم الكلاَم عن أَصْحَاب الجَمَل مَرّات، وفِي شَرح خُطَبٍ كَثِيرة. ومَن أرَاد التَّفصِيل من الوجهة التّأرِيخِية فَعلِيه بشرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، فَقد أطنَب هُنا، وأطال[1].

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٩/٣١٠، وما بعدها، تحت عنوان: «ذِكر يَوْم الجَمَل مَسِير عَائِشَة إلىٰ القِتَال». وذَكر الطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٣/٥٤٣ عن مُحمّد، وطَلْحَةَ قَالا: كَان قتلىٰ الجَمَل حَوْلَ الجَمَل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب عَليّ، ونصفهم من أصحاب عَائِشَةَ، من الأزد ألفان، ومن سائر اليَمَن خمسمئة، ومن مضر ألفان، وخمسمئة من قَيْس، وخمسمئه من تميم، وألف من بني ضبّة، وخمسمئة من بَكْر بن وائل، وقيل: قُتل من أهْل البَصْرَة، في المعركة الأُولىٰ خمسة آلاف، وقُتل من أهْل البَصْرَة في المعركة الثّانِيَة خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهْل البَصْرَة، ومن أَهْل الكُوفَة خمسة آلاف. قالا: وقُتل من بني عَدِيّ يَوْمَئِذٍ سبعون شيخاً كلّهم قد قرأ القُرْآن سوىٰ الشّباب ومن لم يَقرأ القُرْآن، وقالت عَائِشَةَ: مازلتُ أرجو النّصر حَتَّىٰ خفيت أصوات بني عَدِيّ.

وَقَالَ ٱبن أَعْثَمْ فِي تَأرِيخه: قُتل من جيش عليّ ألف وسبعمئة ومن أصحاب الجَمَل تسعة الآف. وَقَالَ ٱبن عبد رَبّه فِي العقد الفريد: ٢ / ٢٨٠ ط القديم: قُتل يَوْم الجَمَل من جيش عَائِشَةَ عشرون ألفاً ومن أصحاب عليّ خمسمئة. وفي تَأريخ اليعقوبي: قُتل في ذَلِكَ نيف وثلاثون ألفاً. وورد فِي كشف اليَقِين: ١٥٦ أنّه قُتل من جُند الجَمَل ١٦ ألفاً و ٦٩٠ وكانوا ٣٠ ألفاً، وقُتل من أصحاب عليّ ١٠٧٠ وقيل: ١٩٠٠

⇔

⇐ وكانوا ٢٠ ألفاً. (أنظر شرح النّهج لِابْن أبي الحَدِيد: ٦ / ٢١٥، الإِرْشَاد: ١٣١، وتذكرة الخواصّ: ٦٦).

وأُنظر الطَّبَرِي: ٥ / ٢٢٥، والعقد الفريد: ٤ / ٢٢٦ ط لجنة التَّأْلِيف، آبن أَعْثَمْ، واليعقوبي عند ذكرهما الجَمَل من تَأْرِيخها، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٢ / ٢٢٨، أُسد الغَابَة لِابْن الأثير: ٣٨/٢ و ١١٤ و ١٧٨، و: ٤٦/٤ و ١٠٠، و: ٥ / ١٤٣ و ١٤٦ و ٢٨٦، شَرح النَّهج لِابْن أبي الحَدِيد: ٤٨١/٢ ط بيروت أُفست، مروج الذّهب للمسعودي: ٢ / ٣٥٨ ـ ٣٦٠، الإِصَابَة لِابْن حجر: ١ / ٢٤٨ و ٥٠١، و: ٢ / ٣٩٥، تَأْرِيخ الإسلام للذّهبي: ٢ / ١٤٩، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابْن سعد: ٦ / ٢٢١.

وقد قُتل من أصحاب الإِمَام عليّ عليه السلام يَوْم الجَمَل: زيد بن صوحان العبدي الَّذي شهد لهُ النّبيّ ٩ بالجَنَّة. كما جَاء في أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٢٤٤ وأُسد الغَابَة: ٢ / ٢٣٣، ومروج الذّهب: ٢ / ٣٦٩.

وآسْتُشْهِدَ أيضاً سيحان بن صوحان العبدي، وهند بن أبي هالة ربيب الرّسُول صلى الله عليه وآله أُمّه خَدِيجَة وقيل: إنّ عدد الصَّحَابَة الّذين شهدوا الجَمَل مع عليّ عليه السلام من المَدِينَة ٤٠٠٠ ومن الأَنْصَار ٨٠٠، ومن أَهْل بَدْر ١٣٠، ومن أَهْل بَيْعَة الرّضوان ٧٠٠. (أُنظر، المصادر السَّابقة).

الخطبة

-١٧٣-

أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَ خَاتَمُ رُسُلِهِ، وَ بَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَ نَذِيرُ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَ أَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ. فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَىٰ قُوتِلَ. وَ لَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لاٰ تَنْعَقِدُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَ لَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَىٰ مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَ لاٰ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلاٰ وَ إِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ، وَ آخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ[1].

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَىٰ الْعِبَادُ بِهِ، وَ خَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللهِ. وَ قَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَ لاٰ يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلاَّ أَهْلُ الْبَصَرِ، وَ الصَّبْرِ، وَ الْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ. فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَ قِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَ لاٰ تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّىٰ تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً[2].

اللُّغَة:

شَغَبَ: أثَار الشَّرَّ، وهَيَّجَه. واسْتُعْتِبَ: طُلب مِنْهُ أنْ يَرضىٰ بالحَقِّ، واسْتَعْتَبَ:

طَلَبَ هُو الرِّضَا عَن غَيْره. وغِيَرَ ـ بكسر الغِين، وفتح اليَاء ـ الأحْدَاث، والْمُرَاد بِهِ هُنا التَّغيير.

الإِعْرَاب:

أَمِينُ وَحْيِهِ خَبَر لمُبْتَدَأ محذُوف أي مُحَمّد أَمِينُ وَحْيِهِ، والْمَصْدَر من أَنْ يَرْجِعَ ٱسم لَيْسَ، وَرَجُلاً، وَآخَرَ بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل مِنْهُ «رَجُلَيْنِ»، وغِيَراً ٱسم إنّ مُؤَخَّر، ولَنَا خَبَر مُقَدَّم.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ) الأَمِين البَشِير النَّذِير الخَاتَم لمَا سَبق، والفَاتح لمَا ٱستَقبل هو رَسُول الله ﷺ، والضَّمِير فِي رَحْمَتِهِ، ونِقْمَتِهِ لله سُبْحَانَهُ، وقَد أدىٰ مُحَمّدﷺ أمَانَة الله، كَمَا أرَاد صَاحبها، وَهِي الدَّعْوَة إلىٰ الْحَقّ، والْعَدْل، وإلىٰ الْحُرِّيَّة، والمُسَاوَاة. وكَانَتْ هَذِه الدَّعْوَة، ومَا زَالت تَلقىٰ المَقَاومَة مِن المُستَغلِّين الطُّغاة، فحَاولو أنْ يَثنوا رَسُول الله عَنْهَا بِالمَال، وٱلْمُلْك، ولمّا صَمَد لجَأُوا إلىٰ إيذائِه بكلِّ أَلْوَان الإيذَاء، فَصَبَر إيمَاناً مِنْهُ بأنّ الْحَقّ لا بُدّ أنْ يَنتصر، وإنّ الْبَاطِل لا بُدّ أنْ يَندثر... وقَد نَصر الله مَن نَصره، وخَسر هُنالِك المُبطلُون.

مَنْ هُو ٱلْخَلِيفَة؟

(إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَ أَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ) قُلنا فِيمَا سَبق، ونُعِيد الآن: إنّ النّص أدَاة تُحكي، وتُخبر عمّا هُو كَائن، وموجُود بالفِعْل، وإنّه لا

يُنشىء، ويُؤسس، وإذَنْ فهُو فَرع لا أصل، وتَابع لا مَتبوع، ومن أجلِ هَذَا لَمْ يَقُل الْإِمَام: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذا الْأَمْرِ مَن وَرد النَّص فِي حقِّهِ، وإنّما أشَار إِلىٰ الأصل، والأَسَاس وَقَالَ: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بالحُكْمِ، والسُّلْطَان مَن ٱجْتمع فيهِ شَرطَان:

١ ـ أنْ يَكُون أقوىٰ النَّاس لا بالمَكرِ، والخِدَاع، وَالتَّـلَوُّن حَسب الظّـرُوف، والمُقتضيَّات، ولا بتُوطِيد سُلطَانه عَلىٰ أَسَاس الظُّلم، والجَوْر، بل يَكُـون أقـوىٰ النَّاس فِي إقَامه الْحَقّ، والْعَدْل، لا تَأخـذهُ فِي ذَلِكَ مُـغريَات الشَّـيَاطِين، ولومَـة اللائِمين.

٢ ـ أنْ يَكُون أعْلَم النَّاس فِيما يَعُود إِلىٰ مَنصبِهِ، وٱختصَاصه.. وهَذَا الشَّرط الأخِير يَرجع إِلىٰ الْأَوَّل، لأنّ الجَهْل عَجز، والعِلم شَرط أسَاسِي للتَّنفِيذ، والْعَمَل، وبدُونه يَسْتَحِيل أنْ يَصل ٱلإِنْسَان إِلىٰ شَيء مَعقُول، له وزنَـه، وقِـيمته... ومَـا عَرف التَّأرِيخ أقوىٰ، وأصْلب فِي الْحَقّ مِن عَليٍّ، ولذَا قَال الرَّسُـول الأَعْـظَمﷺ: «يَدُور الْحَقّ مَع عَلِيّ كَيْفَما دَار»[1]. أمّا عِلمَه فهُو عَن النَّبِيّﷺ، تَلقاه مِنْهُ مُباشرةً بأُذن وَاعية، وقَلب ذَاكِر، وعَقل حَافظ، وٱسـتمرَّ النَّـبِيّﷺ يُـغذِيه مِـن عِـلمَه وأخْلاقه لَيله، ونَهاره مُدَّة تَنوف عَلىٰ ثَلاثِين عَاماً، وبَـعد أنْ ٱطـمّأن إِلىٰ عِـلمَه أجْازَه بِهَذه الشَّهادة: «أنَا مَدِينة ٱلْعِلْم، وعَلِيٌّ بَابها»[2].

(فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ ٱسْتُعْتِبَ). إذَا تَمت ٱلْبَيْعَة لِلإِمَامِ الْقَوِيّ العَالِمِ الْعَادِل، ثُمّ شَقّ العَصَا شرِّير، وخَرج علىٰ الْجَمَاعَة ـ يُعرض عَلَيْهِ أنْ يَفيء إِلىٰ أَمر الله بالحُسنىٰ، فإنْ

(١) أُنظر، صَحِيح التِّرمِذي: ٢ /٢٩٨، طَبْعَة بُولاق سَنَة ١٢٩٨ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣/ ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٩، طَبْعَة الميمنية بِمِصْر سَنَة ١٣١٣ هـ، وراجع فَضَائِل الخَمْسَة: ٢/ ٢٤٨ و ٢٥٠. (مِنْهُ ﷺ).

فَاء فذَاك، وإلاّ فآخر الدُّواء الكِي، كمّا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِن طَآيِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[١].

(وَ لَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ.. إِلىٰ يَخْتَارَ). أثبَتنا فِيما تَقَدَّم أنّ الإِمَام تَسلم ٱلْخِلاَفَة من جمهُور ٱلمُسْلِمِين، وفِي طَلِيعتهُم المُهَاجِرُون، والأَنْصَار، ومِنْهُم طَلْحَةَ، والزُّبَيْر اللّذان بَايعا، ثُمّ نكثا، وكَان مُعَاوِيَة في الشَّام، وٱبن العَاص فِي فِلسْطِين حِين عقد ٱلْمُسْلِمُون ٱلْبَيْعَة لِلإِمَامِ (وَ لاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ) غَيْر الَّذي ٱخْتَاره ٱلْمُسْلِمُون تَجَنُباً لِلْفِتْنَةِ، ولأنّ مصَالح الجَمِيع مُشتركَة، والأَهْدَاف وَاحِدَة، والمُهم تَحْقِيقها، أمّا ٱلْبَيْعَة فوسِيلة لا غَايَة... هَذَا، إلىٰ أنّ ٱبن العَاص، ومُعَاوِيَة ٱعترفا بِخلاَفَة أَبِي بَكْر، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وكلّ النّاس يَعلمُون أنّ ٱلْبَيْعَة تَمت للأوّل بٱثْنَيْن: عُمَرَ، وأَبِي عُبَيْدَة، وللثَّانِي بوَاحد، وهُو أبو بَكْر، وللثَّالث بأَرْبَعَة أو خَمسَة، وهُم أَهْل ٱلشُّورَىٰ مَا عَدا المُخْتَار لِلْخِلاَفَة، وحضُور الأُمَّة بكاملها للبَيْعَة مُتعذر، ومُستحِيل.

وَقَالَ صاحب «المواقف»: «إنّ ٱلبَيْعَة بِالخِلاَفَةِ تَتم بِالرَّجُل الوَاحد والاثْنَيْن»[٢]، وفِي كِتَاب «المُغْنِي»: «إنّ عَبد المَلَك خَرَج عَلىٰ ٱبن الزُّبَيْر، فقَتَله، وٱستَوَلَّىٰ عَلىٰ البلاد، وأَهْلها حَتَّىٰ بَايعُوا طَوْعاً، وكَرْهاً، فصَار إمَاماً يَحرُم الخرُوج

---

(١) ٱلْحُجُرَاتِ: ٩.

(٢) أُنظر، المواقف للإيجي: ٨ / ٣٥٢ سَنَة ١٩٠٧م. (مِنْهُ ﷺ).

عَلَيْهِ»[١]. وفي كِتَاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة» أثبتنا بالنَّقل عن الكُتب الرَّئيسية عِند السُّنَّة أنَّهم يُبررُون كلّ مَا يَقع، ويَعتبرُونه شَرعِياً، والعبَارة الَّتي نَقلناها هُنا عن كِتاب «الْمُغْنِي» ـ وهُو من المَراجع المُعتبرة عِندهم ـ تُؤيد ذَلِكَ، وقَد مهَّد لهَا صَاحب ٱلْكِتَاب بقَوْله: «ولو خَرج رَجُل عَلىٰ الإِمَام، فقَهرَهُ، وغَلب عليهِ بِسَيْفه حَتَّىٰ أقرُوا لهُ، وأذْعنُوا بطَاعته صَار إمَاماً يَحرُم قِتاله، والخرُوج عَلَيْهِ»[٢].

ومُجمَل الْقَوْل أنّ غَرض الإِمَام مِن قَوْله «لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ» هُو مُجرد الإِحْتِجَاج عَلىٰ مُعَاوِيَة، وآبن العَاص، وأمثالهُما بصَرف النَّظر عَن تَحدِيد مَعنىٰ ٱلخِلاَفَة، ووَسَائِل ثبُوتها، وإثبَاتها.

(أَلاَ وَ إِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ٱدَّعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ، وَ آخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ) ٱلخِلاَفَة حقّ شَرعِي لِلإِمَامِ بٱتفَاق ٱلْمُسْلِمِين، ومَع هَـذَا صَرح الإِمَام بأنّه لا يَتعَرض بسُوء لِمَن يَرفض خِلاَفَته، ويُنْكِر حقّه فيها شَرِيطَة أنْ لا يرتكب جَرِيمَة السَّلب، والنَّهب، أو جَرِيمَة التَّمرد، والإمتنَاع عَن أداء الحَقّ.

(وَ قَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ). عَاش ٱلْمُسْلِمُون بَعد رَسُول الله ﷺ، بسلاَم فِيما بَيْنَهمْ حَتَّىٰ، ثُمّ الحِلف الثُّلاثِي لحَرْب عَليّ من إمْرأَة ورَجُلين: ولَوْلاَ عبد الله بن عُمَرَ لكان رُباعياً من امرأتين ورَجُلِين: طَلْحَةَ، والزُّبَيْر، وعَائِشَةَ وحَفْصَة[٣]، وهَكذا فُتحت أَوَّل جَبهة للحَرْب بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، وجرّت وَرَاءها

(١) أنظر، الْمُغْنِي لِابْن قُدَامَة: ج ٨، قتال أَهْل الْبَغي. (مِنْهُ ﷺ)، و: ٥٣/١٠.
(٢) أنظر، الْمُغْنِي لِابْن قُدَامَة: ج ٨، قتال أَهْل الْبَغي. (مِنْهُ ﷺ)، و: ٥٣/١٠.
(٣) هِي حَفْصَة بنت عُمَر بن الخَطَّاب، وَهِي أُخت عبدالله بن عُمَرَ لأمّه وأبيه، وأُمّها: زينب بنتُ مَظعُون

جَبهات مَزقت كلّ مُمزق، ولاقُوا من آثَارها كلّ ذُلٍ، وهُوان... إِلىٰ الْـيَوْم، وإِلىٰ آخر يَوْم... إلّا أنْ يَشَاء الله.

(وَ لاَ يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ ـ بفتح اللام ـ إِلاَّ أَهْلُ الْبَصَرِ، وَ الصَّبْرِ) عَلىٰ الْجِهَاد. وَقَد تَكَلَّم الْفُقَهَاء عَن حُكم مَن شَقّ عَصَا ٱلْمُسْلِمِين، وأفردُوا لهُم في كُتبهم بَاباً مستقلاً بِعنوان «قِتَال أَهْل الْبَغْي» واتفقُوا عَلىٰ وجُوب قِتَالهم حَـتَّىٰ يَـفيئُوا إِلىٰ أَمْـرِ الله، لقَوْله، تَعَالىٰ: ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (١). وقُول الرّسُولﷺ: «مَن خَرج عَلىٰ

⇐ (أُخت عُثْمَان). تزوجها رَسُول الله ﷺ سَنَة ثلاثٍ عند أكْثَر الْعُلَمَاء. وطلّقها تطليقةً ثُمّ ارتجعها، توفيت سَنَة خمسٍ وأرْبعِين. (أسد الغابَة: ٧ / ٦٥، الإصَابَة: ٤ / ٢٦٤، المعارف: ١٣٥).

وأرادت حفصة أُخت عبدالله بن عُمَرَ المَسِير مَعهم فنعها أخُوها عبدالله بن عُمَرَ من ذَلِكَ.

أُنظر، ابن أعْثَمْ في الْفُتُوح: ١ / ٤٧٨ حَيْث قَالَ: فخرجت عَائِشَةَ من عند أمّ سَلمة وَهِي حَنِقة عَلَيْهَا، ثُمّ إنّهَا بعثت إِلىٰ حَفْصَة فسألتها أنْ تخرج مَعَهَا إِلىٰ الْبَصْرَة فأجابتها حَفْصَة... لكن في الطَّبَرِيّ: ٥ / ١٦٧: أرادت حَفْصَة الخرُوج فأتاها عبدالله بن عُمَرَ فطلب إِلَيْهَا أنْ تَقعد فقعدت، وبعثت إِلىٰ عَائِشَة أنّ عبدالله حَال بيني وبين الخرُوج، فقَالت: يَغفر الله لعبدالله. (أُنظر، الكَامِل في التَّأريخ: ٣ / ١٠٦، تَأرِيخ الطَّـبَرِيّ: ٢ / ٤٦٩، بحَار الأَنْوار: ٣٢ / ١٤٤، شرح النَّهج لابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٦ / ٢٢٤).

ذكر ابن أبي الْحَدِيد في شَرح النَّهج: ٢ / ١٥٧ طَبْعَة إيران و: ١٢ / ١٥٤ و: ١٤ / ١٣، بهج الصّباغة: ٦ / ٣٩٢ و: ١١ / ١٠٤، الدُّر النَّظِيم ليوسف بن حاتم الشّامي: (مخطوط) ورق ١١٤، قاموس الرِّجَـال: ١٠ / ٤٧٢، قَالُوا: «لمّا نزل عليّ ذاقار كتبت عَائِشَةَ إِلىٰ حَفْصَة بنت عُمَرَ: أمّا بَعد، فإنّي أُخبرك أنّ عَلِيّاً قد نزل ذاقار، وأقام بهِ مَرعُوباً خَائِفاً لمّا بَلغه من عدّتنا وجمَاعتنا، فهُوَ بمنزلة الأشقر، إنْ تَقدّم عُـقر، وإنْ تأخرّ نُحر. فَدعت حَفْصَة بجواري لها يَتغنّين، ويَضْربْن بالدّفُوف فأمرتهنّ أنْ يقلن في غنائهن: ما الْخَبَر؟ ما الْخَبَر؟ عَليّ فِي السّفر، كالفرس الأشقر، إنْ تَقدّم عُقر، وإنْ تأخّر نُحر».

(١) ٱلْحُجُرَات: ٩.

أُمّتِي وهُم جَمع فَاضرِبُوا عُنقه كَائِناً مَن كَان»[١].

وَقَالَ الْإِمَام: «لا يجُوز قِتالهُم إلّا لأَهْل (الْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ) لأنّ البَاغِي يَقوم: لا إله إلّا الله مُحَمّد رسُول الله، ومن قَالها فدَمه، ومَاله، وعَرضه حَرام إلّا بمُبرر قَاطع، وهُو دَفع الضَّرر الأشد بالضَّرر الأخف[٢]، وقَدِيماً قِيل: «وفي الشّرّ نَجَاة حَيْث لا يُنجِيك إحْسَان»[٣] وفي قَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[٤] غِنىً عَن كلّ قَول. ومن البَداهة أنّ تَحدِيد الشّرّ، وتَحدِيد الْإِحْسَان الَّذي يُمكن أنْ يُدفع بِهِ الشّرّ، ثُمّ المُوازنَة بَيْنَ الشّرّ الأشَد، والأخَف، كلّ ذَلِكَ يَحتاج إلىٰ العِلم، والمَقدَرة عَلىٰ التّمييز، والتّنفِيذ.

والْإِمَام أعْرَف النّاس ذَلِكَ، وبالدِّين، وشَرِيعته بَعد سيّد الكَوْنين. ونَقل المُؤرخُون أنّ الْإِمَام كَان يَسأل الثّائرِين عَلَيْهِ، ويَقُول لهُم: «مَاذا تَنقمُون؟.

فإنْ ذَكرُوا شُبهة نَظَر فِيها بصِدقٍ، وإخْلاص، وإنْ ذَكرُوا عِلّة أزَاحها. ونُقل عن الشّافِعِي أنّه قَالَ: «لَوْلاَ عَليّ مَا عَرفنا أحْكَام أَهْل الْبَغْي»[٥]. وبَعد أنْ أستفرَغ

---

(١) أُنظر، المُعْجَم الْكَبِير: ١٤٢/١٧ ح ٣٥٤، مُسْنَد أَبِي عوانة: ٤١٣/٤ ح ٧١٤٥ و ٧١٧٠، السُّنّة لِابن عَاصم: ٥٢٦/٢ ح ١١٠٦، تهذِيب التّهذِيب: ١٦٠/٧ ح ٣٤٦، تهذِيب الكَمَال: ٥٥٦/١٩، المُغْني لِابن قُدَامَة: ٣/٩، بَاب قِتال أَهْل البَغي، المَسألة الخَامسة.

(٢) أُنظر، سُنَن أَبِي داود: ٤٥٢/٢ ح ٤٨٨٢، كنز العُمَّال: ٩٣/١ ح ٤٠٧، تَفْسِير أبن كثير: ٢٢٩/٤، جامع المقاصد: ٣٠٢/١٢، مُسْنَد أحمد: ٤٩١/٣، صَحِيح مُسْلِم: ١٩٨٦/٤ ح ٢٥٦٤، سُنَن أبن ماجه: ١٢٩٨/٢ ح ٣٩٣٣.

(٣) أُنظر، ديوان الحمَاسة بشرح التّبرِيزي: ٢٣/١ ـ ٢٦، شَرح نَهج البَلاغَة لِابن أَبِي الحَدِيد: ٢٧٧/٣ و: ٢٢١/١٩.

(٤) الأَنْعَام: ١١٩.

(٥) أُنظر، رِياض المَسَائل للسيّد عَليّ الطّباطبائي: ٤٥٨/٧، جواهر الكَلاَم: ٣٣٣/٢١، فِقْه الصّادق للسيّد صادق الرّوحاني: ١١٧/١٣.

الإمام كلّ وَسِيلة لرجُوع أَهْل الْبَغْي عَن بَغيهم، ويَأسه مِنْهُم، قَال لأصحَابه: (فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ) من الْقِتَال (وَ قِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ). من قَتل المُدبر، والإجْهَاز عَلىٰ الجَرِيح، وإزْعَاج ٱلنِّسَاء، والأَطْفَال (وَ لاَ تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّىٰ تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً) لا تَعْملُوا بالرّأي والاِجْتهَاد، فقَد يكُون الرُّشد فِي خِلاف مَا تَرُون، وإنْ رأىٰ أحدكُم رَأياً فِي شيء من الْحَرْب، وتُوابعها، فلِيعرضهُ عَليَّ، فإنّ لِي كُلّ الْحَقّ أنْ أُغيّر، وأعدل من آرائكُم عَلىٰ أسَاس الشَّرع، والْمَصْلَحَة.

الدُّنْيا..فِقْرَة ٣ ـ ٤:

أَلاٰ وَ إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا، وَ تَرْغَبُونَ فِيهَا، وَ أَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ، وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَ لاٰ مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَ لاٰ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلاٰ وَ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ، وَ لاٰ تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَ هِيَ وَ إِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَ أَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَ سَابِقُوا فِيهَا إِلَىٰ الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَ ٱنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا[٣]، وَ لاٰ يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَىٰ مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَ ٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلاٰ وَ إِنَّهُ لاٰ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلاٰ وَ إِنَّهُ لاٰ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا، وَ قُلُوبِكُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَ أَلْهَمَنَا وَ إِيَّاكُمُ الصَّبْرَ[٤]!

اللُّغَة:

الخَنِينَ: الْبُكَاء مَع إخْرَاج الصَّوْت من الأَنْف. وزُوِيَ: قُبِض. وقَائِمَةَ الدِّين:

أرْكَانه، أو القِيَام بأمرِهِ، ونَهيِه.

الإِعْرَاب:

جُمْلَة لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ خَبَر إِنَّ هَذِهِ الدَّار، ولَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ البَاء زَائِدَة، وحِفْظِكُمْ من إضَافة الْمَصْدَر إِلَىٰ فاعله، قَائِمَةَ مَفْعُول حِفْظِكُمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(لَيْسَتْ ـ الدُّنْيَا ـ بِدَارِكُمْ، وَ لاَ مَنْزِلكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ). هَل وُجِد الإِنْسَان بِعَقْله وجَمِيع طَاقَاته لِيُقِيم فِي هَذِه الأَرْض أمداً قَصِيراً، ثُمّ يَذهب بِلا رَجعة تَمَاماً كما يَدخُل مَطعماً، أو مَقهىً؟. وقَد أجَاب عَن هَذَا السُّؤال خَالق الإِنْسَان بقَوْله، عزَّ مِن قَائل: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. ﴿إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[2]. وإذَنْ فالإِنْسَان خُلق لدَار الخلُود، والبَقاء لا لدَار الزَّوال، والفنَاء. (وَ سَابِقُوا فِيهَا إِلَىٰ الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَ انْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا). مَا دَامت الدُّنْيَا مَمَرّاً لا مَقَرّاً فعَلاَم هَذَا التّكَالب، والتّهالك عَلَىٰ مَلْذَاتها، وشَهَوَاتِهَا؟ أَلَيس الأَجْدَر بِكُم أنْ تَعْملوا لدَار السَّلاَمة، والإقَامَة؟.

(وَ لاَ يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الأَمَةِ عَلَىٰ مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا) ارْضُوا مِن الدُّنْيَا بِمَا تَيَسَّر، ولا تَبْكُوا عَلَىٰ مَا فَاتكُم مِن حطَامها بُكاءَ سوداء عَلَىٰ سِوارٍ، أو مِحْبَسٍ ضَاع مِنْهَا (وَ اسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ) إنّه تَعَالىٰ أغْدَق

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٣٦.

(٢) غَافِر: ٣٩.

عَلَيْكُمْ الكَثِيرِ مِن نِعَمِه فٱتقوه ٱسْتِتَماماً لإِنْـعَامِهِ (وَ إِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ) من ٱحتَفَظ بِدِينه لا يَضُرَّه شيء يفُوته من مَالٍ، وجَاهٍ، أو صِحَةٍ، وَوَلدٍ، ومن خَسِرَ دِينَه فَقَد خَسِرَ كـلّ شيء، وإنْ مَـلك الدُّنْـيَا بكَاملها: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]؟. وبكَلِمَة الإمَـام: «الْـغِنَىٰ وَالْـفَقْرُ بَـعْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ»[2]. لاَ الآن، ولا بِالثَّرَوات، وإشْبَاع الشَّهوَات.

وتَكَـرَّر الحَـدِيث عـن الدُّنْـيَا فِيمَا سَـبق مـن ٱلخُـطَب، ولذَا أسرعـنَا، وأوْجزنَا... عَلىٰ أنّ مَن لَم يَكُن لنَفْسِه وَاعِظاً فَلا يَنْفَعُه وَاعِظ، ولا وَاعِظَة.

---

(١) ٱلكَهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكمَة (٤٥٢).

الخطبة

-١٧٤-

تَهْدِيد الإِمَام بالْحَرْبِ:

قَدْ كُنْتُ وَ مَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَ لاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَ أَنَا عَلَىٰ مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَ اللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الْأَمْرُ، وَ يَقَعَ الشَّكُّ. وَ وَ اللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ـ كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ـ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَ أَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَ لَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ. وَ لَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ، وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَ يَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاَثِ، وَ جَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَ لَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

اللُّغَة:

تَجَرَّد لِلأَمْرِ: تَفَرَّغ لهُ، وجَدّ فيهِ. وَقَالَ الشّيخ مُحَمّد عَبْدَه: كأنّه سَيْف تَجَرَّد من

غِمده. والمَظَنَّة: مُوضع الظَّن. وأَجْلَبَ: أَلَّبَ. واللُّبس: الشُّبهَة والإشْكَال، ولكن الْمُرَاد بِهِ هُنا الدَّلس، والمَكر، والخِدَاع. يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ: يَنصُر من قَتَله. يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ: يُحَارِب من نَصَرَه. والْمُنْهِينَ عَنْهُ: الزَّاجِرِينَ عَنْهُ.

وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ: المُعْتذِرين عَن فِعله. وَيَرْكُدَ: يَسْكن لا يَتحرك سَلباً، ولا إيجَاباً. ومَعَاذِيرُ جَمع مَعْذَرَة.

الإِعْرَاب:

كُنْتُ كَان تَامة، والتَّاء فَاعِل، ومُتَجَرِّداً حَال من فَاعِل اَسْتَعْجَلَ، وخَوْفاً مَفْعُول من أجله لاِسْتَعْجَل، والْمَصْدَر من أَنْ يَكُونَ فَاعِل يَنْبَغِي، وجَانِباً مَنصُوب عَلىٰ الظَّرفِيَة.

الْمَعْنَىٰ:

أرسَل طَلْحَةَ إِلىٰ الإِمَام تَهدِيداً، وإنْذَاراً بالْحَرْبِ... فقَال الإِمَام: (قَدْ كُنْتُ وَ مَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَ لاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ). عَليّ هُو قَاتلُ مَرْحَب، سيّد فُرسَان اليَّهُود، وٱبن ودّ الَّذي كَان يُعد بألف، عَليّ هَذَا يُهاب الْحَرْب، والضَّرْب؟ وهل أَدبَر عَليّ من مُنَاجز، أو نَاجزَه فَارس فَسَلِم؟.. أَللَّهُمَّ إلاّ ٱبن العَاص، وٱبن أَرْطَاة! ودَع قُوَّة عليّ، وبطُولته، وٱستمع إِلَيْهِ فِي هَذِه الأُمنِية أو «الأُغنِية»: «وَاللهِ لاَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»(١). ولأُنسه، وسعَادته بالْمَوْت في مَرضَاة

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٥).

الله بَات عَلىٰ فِراش رَسُول الله لَيْلَة الهِجْرَة، والسُّيُوف تَلمع فُوق رأسه، وكأنَّها قُوارِير من عِطر، أمّا الفِراش فمن الوَرد، والرَّيحَان[1].

(١) لا نُريد التَّعليق علىٰ هٰذَا الكَلاَم الَّذي أطال فِيهِ أهْل التَّاريخ، والسِّيرَة، والحَدِيث، بل ننقل مُلخصه، من خلال الآيَة الكَريمَة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٠٧. والّتي أطبق المؤرّخون علىٰ أنَّها نزلت في عَليّ٧، وسبق وأن دللنا علىٰ ذٰلِكَ بالمصادر الّتي ذكرناها سابقاً كشواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني: ١/١٢٣ ح ١٣٣ وما بعده، والثّعلبي في الكشف والْبَيَان: ١/١١٧، والرّازي في تَفْسِيره: ٢/١٥٢، وغَيْرِهم كثير.

إذاً أوّل من شرىٰ نفسه لله عزّوجلّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقد ذكر أبو جعفر الإسكَافي علىٰ ما رواه ابن أبي الحَدِيد في شرحه علىٰ نَهج ٱلبَلاَغَة: ١/٧٨٩ ط الحديثة ببيروت قَالَ: وقد روي أنّ مُعَاوِيَةَ بذل لسَمُرَة بن جُنْدُب مئة ألف درهم حَتَّىٰ يروي أنّ هَذِه الآيَة نزلت في عليّ بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ ٱلبَقَرَة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وأنّ الآيَة الثَّانِيَة هِي في ابن مُلْجَم وَهِي قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فَلم يقبل، فَبذل له مئتي ألف درهم فَلم يقبل، فَبذل له ثلاثمئة ألف فلم يقبل، فبذل أربعمئة ألف فقبل وروىٰ ذَلِكَ. فلاحظ بَعْض مخازي سَمُرَة في الشّرح المُخْتَار المذكور: ٧٩٢. فَإِذَا كَانَتْ المقارنة من هَذَا الباب فلا عتب، ولا استدلال. هَذَا أوّلاً.

وثانياً: يَقُول صاحب كتاب مطالب السؤول نقلاً عن الإحقاق: ٣/٤٥ بأنّه عليه السلام بات في المضطجع والمشركون مجمعون علىٰ أخذه، وقتله، ولم يَضطرب لذلك قلبه، ولا اكترث بِهِمْ... وأقام بمَكَّة وحده بَيْنَهمْ ثلاث ليالٍ بأيامها يردّ الودائع....ثمّ خرج وحده من مَكَّة مع شدّة عداوتهم. فلو لم يكن الله تَعَالىٰ قد خصّ قلبه بقوّةٍ، وجنانه بثباتٍ، ونفسه بشهامةٍ لاضطرب في هَذَا المقام. والنّبيّ موسىٰ عليه السلام مع درجة النُّبوّة لكن لمّا أمَرَه بإلقاء عصاه فألقاها فلمّا صارت حيّة خاف، واضطرب وولّىٰ مُدبراً كما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٰمِنِينَ﴾ ٱلْقَصَص: ٣١. فلم يمكنه أنْ يخالف الأمر، وكَانَ عَلَيْهِ كساء فلفّ طرف الْكِسَاء علىٰ يده ليأخذها فَقَالَ: مالك يا موسىٰ؟ أرَأَيت لو أذِن الله تَعَالىٰ لها في أذاكَ أرادّ عنك كساءك؟ فَقَالَ: لا، ولكنّي ضعيف ومن ضعفٍ خُلقت، فالنّفس البشرية هَذَا طبعها.

وكَذَلِكَ أُمّ موسىٰ عليها السلام لَوْلاَ أنْ ربط الله علىٰ قلبها فلم تنطق مع اضطراب القَلْب. فلَوْلاَ أنّ الله تَعَالىٰ منح عَليّاً عليه السلام قلباً مُتصفاً بالقُوّة الثّابتة لكان مع امتثال أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله وأمنه من تطرّق الأذىٰ إِلَيْهِ لقول

(وَ أَنَا عَلَىٰ مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ). كَان النَّبِيّ ﷺ قَد أخبَرَ الإمَام بخَبَر الجَمَل، وأَصْحَابِه، وإنّ الله سُبْحَانَهُ كَتب لهُ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ، وأيضاً رَوت عَائِشَةَ أنّ

⇐ النّبيّ ﷺ يضطرب بالنّفس البشريّة، وَهَذَا لما حدث لغيره ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ٱلتَّوْبَة: ١٤٠.

وثالثاً: روىٰ في المناقب لإبن شهرآشوب: ٢ / ٥٨ وغَيْره عن مُجاهد قَالَ: فَخَرت عَائِشَة بأبيها ومكانه مع رسول الله ﷺ في الغَار. فَقَالَ عبدالله بن شدّاد بن الهاد: فأين أنتِ من عليّ بن أبي طالب حَيْث نَام في مكانه، ويرىٰ أنّه يُقتل؟ فسكتت ولم تحر جواباً. وشتّان بين قَوْله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ وبين قَوْله ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وكَانَ النّبيّ معه يقوّي قلبه، ولم يكن مع عليّ، وهو لم يصبه وجع، وعليّ يرمىٰ بالحجارة، وهو مختفٍ بالغَار، وعليّ ظاهر للكفار.

وأُنظر المسترشد في إمَامَة أمِير المُؤْمِنِينَ: ٤٣٣، الخصائص لإبْن البطريق: ٩٨، كشف ٱلْيَقِين: ٩٠، بحَار الأَنْوَار: ٣٨ / ٢٨٩، و: ٣٦ / ٤٨ و ٤٩، إعلام الورىٰ: ١٩١، الطّرائف: ٣٣، العمدة: ٣٤٠، دَلاَئِل الصِّدْق: ٢ / ٥٣٨، الشّافي للسيّد المرتضىٰ: ٤ / ٢٥، الغدير: ٢ / ٤٨، تذكرة الخواصّ لسبط أبن الجوزي: ٤٠، تَأريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٣، الطّرائف لإبْن طاووس: ٤٠٧، أختيار مَعْرِفَة الرّجال: ١ / ١٣٠، كفاية الطالب: ١١٥ ينابيع المَوَدَّة: ١٠٥.

وهاهو شعر الصاحب بن عبّاد الّذي شرحه القاضي جعفر بن أحمد البهلولي اليماني: ٨٥ ط بغداد:

قالت: فَمن بَات من فَوق الفِراش فَدىً
فَقُلْتُ: أثبَتُ خَلْقِ الله في الوَهَلِ

ورابعاً: قَالَ الإسترآبادي في هامش رجال الكشّي: ١ / ١٣١: إنّ همّه، وحزنه، وفزعه، وأنزعاجه، وقلقه حين إذ هو مع النّبيّ ﷺ المأمور من تلقاء رَبّه الحفيظ الرّقيب بالخروج، والهِجْرَة، والموعود من السّمآء علىٰ لِسَان روح القدس الأَمِين بالتّأييد والنُّصرة ممّا يكشف عن ضعف يقينه وركاكة إيمَانه جداً.

وخَامساً: أنّ إنزال الله السّكينة عَلَيْهِ ﷺ فقط لا علىٰ صاحبه ولا عَلاَيْهِمْ جميعاً مع كون الصّدِيق أحوج إلىٰ السّكينة، حينئذٍ فقلقه، وحزنه يدلّ على أنّه لم يكن أهلاً لذلك، وإرجاع الضّمِير في «عَلَيْهِ» علىٰ أبي بَكْر كما يَقُول البَيضاوي هو فرق لإتفاق المفسّرين، وذَلِكَ لأنّ الضّمِير في «أيّده» و«عَلَيْهِ» في الجملتين المعطوفة، والمعطوفة عَلَيْهَا يعودان إلىٰ مفاد واحد. (أُنظر للمزيد كتاب الإِحْتِجَاج: ٢ / ٤٩٩ ـ ٥٠١، وكنز الفوائد للكراجي: ٢ / ٤٨، والكشكول للبحراني: ٢ / ٥).

النَّبِيّ قَال لأزوّاجه: «أيَتكُنَّ صَاحبَة الجَمَل»[(١)]، وإذَا كَان الإمَام عَلىٰ يَقِين مِن وَعد الله بالنَّصْرِ فكَيْفَ يَخاف التَّهدِيد، والوَعِيد!

طَلْحَة، وَعُثْمَان:

(وَ اللهِ مَا آسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ) المَقصُود بهَذا طَلْحَة... وكلّ مَا قَرأته من القَدِيم، والحَدِيث يُؤكد أنّ طَلْحَة أَلْهَب الثُّورة عَلىٰ عُثْمَانَ، وإنّ قَسوته عَليهِ تجَاوزت كلّ حَدّ حَتَّىٰ أرسَل رِجَاله يَرمُون جَنازة عُثْمَانَ بالحِجَارة، كمَا أصرّ عَلىٰ دَفنه فِي مَقبرة اليَهُود[(٢)]!.. واتفق عُلمَاء المُسْلِمِين كَافة عَلىٰ استحبَاب دَفْن المُسْلِم فِي مَقبرة يَكثر فِيها الصَّالحُون[(٣)]، أمّا عُلَمَاء الشِّيعة فقَالُوا: «لا يُدفن المُسْلِم إلّا في مقابر المُسْلِمِين، ولا يُدفن فِيها غَيْر

(١) أنظر، ابن كثير في تَأريخه: ٦/ ٢١٢، والسّيوطي في خصائصه: ٢/ ١٣٧.

(٢) اتفقت الرِّوَايَات علىٰ أنّ عُثْمَانَ تُرك ثلاثاً لم يُدفن حَتَّىٰ توسّط عليٌّ في ذَلِكَ. وروىٰ الطَّبَرِيّ: ٥/ ١٤٣ ـ ١٤٤ أنّهم كلّموا عَلِيّاً في دَفنه، وطلبوا إلَيْهِ أنْ يَأذن لأهله ذَلِكَ، ففعل وأذن لهم عليٌّ، فلمّا سُمِعَ ذَلِكَ قَعدوا له في الطّريق بالحِجَارة، وخَرج بِهِ ناس يَسير من أهله، وهم يُريدون بِهِ حَائِطاً بالمَدِينَة يُقَال لهُ حشّ كوكب كَانَتْ اليهُود تَدفن فِيهِ موتاهم، فلمّا خرج به علىٰ النّاس رَجموا سرِيره وهمّوا بطرحه، فبلغ ذَلِكَ عَلِيّاً، فأرسل إلَيْهِمْ يعزم عَلَيْهِمْ ليكفّن عَنْه ففعلوا ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ ودُفن عُثْمَانَ بين المغرب، والعُتمة، ولم يَشهد جنازته إلّا مَرْوَان بن الحكم، وثلاثة من مواليه، وابنته الخَامسة، فناحت ابنته ورفعت صَوتها تندبه، وأخذ النّاس الحجارة فقَالُوا: نعثل، نعثل وكادت تُرجم... الحديث. وأنظر، الكَامِل لابن الأثير: ٣/ ٧٦، وتَأريخ ابن أعثم: ١٥٩ و ١٩٠، والرّياض النَّضرة: ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢. كنز العُمّال: ٣/ ١٦١ ح ٢٤٧١.

(٣) أنظر، إعانة الطّالبين: ٢/ ١٣٣، كشف القناع: ٢/ ١٤٦، فِقه السُّنَّة: ١/ ٥٥٩، أحكام الجنائز للألباني: ١٣٦.

الْمُسْلِم بحَال»[1].

وشرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد[2] قُول الإِمَام: (خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ ـ طَلْحَةَ ـ بِدَمِهِ) شَرحه بأَقْوَال الطَّبَرِي[3]، والوَاقدي، والمدَائِنِي[4]، وتَتلخص هَذِه الأقوال مُجتمعة بأَنّ عُثْمَانَ عِندما حُوصر دَخل الإِمَام عَلِيّ دَار طَلْحَةَ، فوجدها زُحاماً من الثُّوار، فلاَم صاحبها عَلىٰ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا هَذَا الأَمْر الَّذي وقعت فِيهِ يا طَلْحَةَ؟. فقَال طَلْحَةَ: لقَد بَلغ الحِزام الطُّبْيين[5]. فتركه الإِمَام، وذَهب إِلىٰ بَيْت الْمَال، وأخرج مَا فِيهِ، وأعطاه للنّاس، وبهَذه الضَّربة المُحكمة فَوت الْفُرْصَة عَلىٰ طَلْحَةَ، فقَد تَفرق الَّذِين تَجمعُوا حَوله، وبَقِي وحَيداً. وقد شَكر عُثْمَانَ هَذِه اليَد لِعَلِيّ. وبَعد أَنْ قُتل عُثْمَانَ أَبىٰ الثُّوار أَنْ يَسمحوا بِدَفنه، فَعزم عَلَيْهِمْ الإِمَام أَنْ يَكفُوا عن جُثمان القَتِيل فٱستجَابُوا، وكفّوا، ولمَّا حُملت الجنَازة إِلىٰ مَقرها الأَخِير أرسَل طَلْحَةَ جلاوزته يَرمُونها بالحِجَارة، ويَصِيحُون: نَعثل!. وَقَالَ طَلْحَةَ: ٱدفنُوه بِدَير سَلع يَعنِي مقَابر اليَهُود[6].

(١) أُنظر، الذكرىٰ: ٦٥، جامع المقاصد: ١/٤٤٨، التّذكرة: ١/٥٤، مستمسك الْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ: ٤/٢٥٢، كلمة التَّقْوَىٰ: ١/٢٣٠.

(٢) أُنظر، شَرح النَّهج: ١٠/٣.

(٣) أُنظر، تَأريخ الطبري: ١/٣٠٣٧، وما بعدها، طَبْعَة أُربا.

(٤) أُنظر، تَأريخ الطبري: ٨/١٤٣ و: ٦/١٥٤، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣/٧٠، تَأريخ ٱبن خُلدون: ٢/٣٩٧، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥/٤٤، تَأريخ الخميس: ٢/٢٦٠، تَأريخ أَبن عساكر: ٧/٨٤، تذكرة السّبط: ٤٤، مروج الذّهب: ٢/١٠، العقد الفريد: ٢/٢٧٨.

(٥) الطُّبي: حِلمة الضَّرع، وهو كناية عن المُبالغة في تجاوز حدّ الشّرّ والأذىٰ. أُنظر المستقصىٰ للزمخشري: ٢/١٣، مَجْمَع الأَمْثَال: ١/١٦٦، النّهاية: ١٣/٧٥، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/١٤٧.

(٦) أُنظر، تَأريخ الْمَدِينَة: ٤/١١٩٩، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣/٣٩٦، تَأريخ دمشق: ٣٩/٣٦٢، تَأريخ ٱبن خلدون:

فعل طَلْحَةَ هَذَا بِعُثْمَانَ حيّاً، ومَيّتاً، ثُمّ طَالب بدمهِ!.. وَلِمَاذَا طَالب بِهِ؟ لأنّه (أَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الْأَمْرُ، وَ يَقَعَ الشَّكُّ) فِي جَرِيمَتِهِ، ومَسْئُولِيتِهِ عَن دَم عُثْمَانَ خَوْفاً أَنْ يُؤخذ بِهِ، ولكن سَهم مَرْوَان حَفر لطَلْحَةَ حُفرته كَمَا حَفر هو حُفرة عُثْمَانَ[1]... ونقل عبد الكريم الخطيب، عن تَأرِيخ آبن أَعْثَم: «إن مَرْوَان قَالَ يَوْم الْجَمَل: إنّي لأعجب من طَلْحَةَ لَم يَكن أشد مِنْهُ عَلىٰ عُثْمَانَ، والْيَوْم جَاء يَطلب ثأره!. ثُمّ أخرج سَهماً مَسموماً من كِنَانته، فرمَاه بِهِ، فشكّ قدمه إِلىٰ رِكابه»[2].

(وَ وَ اللهِ مَا صَنَعَ ـ طَلْحَةَ ـ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاثٍ.... إلخ) سؤال وَاضح وبَسِيط يُوجهه الإِمَام لطَلْحَةَ الَّذي جَمع لحَرْبه ثائراً لدَم عُثْمَانَ: هل يَعتقد طَلْحَةَ أنّ عُثْمَانَ يَستحق الْقَتْل لأنّه آستبد، وجَار ـ كَمَا كَان يَزعم طَلْحَةَ ـ وإذَنْ فَلِمَاذَا يُطالب بدَمه؟ بل عَلَيْهِ أنْ يَنصر، أو يُسالم ـ عَلىٰ الأقل ـ مَن قتل عُثْمَانَ، وأَنْ يُخذل مَن نَصره، ودَفع عنهُ كمَرْوَان مع أنّه تَحالف معهُ للطَلب بدَم عُثْمَانَ، أو أنّ

⇐ ق ١/ج ١٤٧/٢، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٥٠/١، مَعَاني الأَخْبَار للشّيخ الصّدوق: ٣٥٨، أمالي الطّوسي: ٧١٢.

(١) تَقدَّم آستخراج ذَلِكَ، والتَّعلِيق عليهِ، ولكن أنظر، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ١/ ٤٨٤، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٩٧، أبن عبد البرّ فِي الاِسْتِيعَاب: ٢٠٧، أبن حجر فِي الْإِصَابَة: ٢/ ٢٢٢، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ٣/ ٣٧١، وأبن عساكر فِي تهذيبه: ٧/ ٨٤، وأسد الغَابَة: ٣/ ٦٠، العقد الفريد: ٤/ ٣٢١، والذّهبي فِي سِيَر النّبلاء: ١/ ٨٢، شرح النّهج لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ٢/ ٤٣١.
وكَانَ طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله يَوْم قُتل عُثْمَانَ مُقنعاً بثوبٍ أستتر بِهِ عن أعيُن النّاس، وكَانَ يَرمي دَار عُثْمَانَ بالسّهام كَمَا ذَكر آبن أَبِي آلحَدِيد، ولطَلْحَةَ قِصَّة مَشهورة مَع عُثْمَانَ عندما أشرف من الخَوْخَة علىٰ الثّوار. أنظر، شرح النّهج لِابْن أَبِي آلْحَدِيد: ٢/ ٤٠٤، الفتح الرّبانيّ: ١١٢/٢٣، تَأرِيخ الطّبريّ: ١٢٢/٥.

(٢) أنظر، كِتَابه عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوَّة، وخَاتَم الْخِلَافَة: ٢٦٤ وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م، عن تَأرِيخ آبن أَعْثَمْ: ١/ ٤٨٤.

طَلْحَةَ يَعتقد أنّ عُثْمَانَ قُتل مظلوماً، وإذَنْ كَان عَلَيْهِ أنْ يَذب عنهُ، ويَمنع، ولا يُحرض النَّاس عَلىٰ قَتله ـ كما كَان يَفعل ـ أو أنّ طَلْحَةَ فِي لُبْسٍ، وشَكٍ من أَمر عُثْمَانَ لا يَدرِي هل هو مُحق، أو مُبطل، وإذَنْ كَان عَلَيْهِ أنْ يَعتزل جَانباً، ولا يُحرك سَاكِناً، ولَكِنَّهُ (فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ) وهُو نَكث ٱلْبَيْعَة، والطَّلب بدَم عُثْمَانَ (لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ) أي وَجهَه، وسَبَبه (وَ لَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ) من التَّدلِيس، والتَّضلِيل.

الخطبة

-١٧٥-

أَيُّهَا الْغَافِلُون:

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَ التَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَ إِلَىٰ غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَىٰ مَرْعىً وَبِيٍّ، وَ مَشْرَبٍ دَوِيٍّ، وَ إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَىٰ لاٰ تَعْرِفُ مَا ذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَ شِبَعَهَا أَمْرَهَا. وَ اللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ، وَمَوْلِجِهِ، وَ جَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَ لَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ - ﷺ -.

أَلاٰ وَ إِنِّي مُفْضِيهِ إِلَىٰ الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَ اصْطَفَاهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَ قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَ بِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَىٰ مَنْ يَنْجُو، وَ مَآلِ هَذَا الأَمْرِ. وَ مَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَ أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَ اللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَىٰ طَاعَةٍ إِلاَّ وَ أَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَ لاٰ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَ أَتَنَاهَىٰ قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

اللُّغَة:

نَعَمْ ـ بفتح النُّون والْعَيْن وسكُون المِـيم ـ حَرف جُواب، وبفتحها فِعل مـاضٍ، تقُول: نَعَمَ فُلاَن بولده، وإذا أُعربت، وحُركت المِيم بَحسب مَا قَبلها كمَا هُنا فَهِيَ جَمع للإبل والبَقر، والْغَنَم، ولا وَاحد لهُ من لفظِهِ، ويُذكر، ويُؤنث، وجَمع الجَمع أَنْعَام. وأَرَاحَ بِهَا: ذَهَب بِها. والسَّائِق: الرَّاعِيَ، وفي بَعْض النّسخ «سَائِمٌ» من سَائِمَة أي الرَّاعِية. الوَبِيء: الرَّدِيء. والدَّوِيّ: الفَاسد العَلِيل. والْمُدَىٰ ـ بضم المِيم ـ جَمع المِديَة بكسرها، وَهِي السّكِين. وَالمَوْلِج: المُـدْخِل. ومُـفْضِيهِ: مُخْـبر بـهِ، إِلىٰ الخَـواص المَأْمُونِين.

الْإِعْرَاب:

غَيْرُ صِفَة للنَّاس، ومَا لِي مُبْتَدَأ، وخَبَر، وذَاهِبِينَ مَفْعُول ثانٍ لأَرَاكُمْ، وعَنِ اللهِ مُتَعَلِّق بذَاهِبِينَ، ولَفَعَلْتُ جُواب لَوْ شِئْتُ، وصِدقاً حَال من الضَّمِير فِي أَنْطِق.

الْمَعْنَىٰ:

(أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ). الغَافل هُو الَّـذي يَـنقاد إِلىٰ هـوَاه، ويَجـري الْأُمُور علىٰ مِيُوله، ويَهمل العُواقب... ولَيْس من شَكٍّ أنّ مَآل هَـذَا إِلىٰ الفَشـل، والهَلاك. وَقَالَ الشَّارحُون: «إنّ الَّذي لا يَغفل عنّا هُو الله سُبْحَانَهُ، فإنَّه يَـعلم مَـا نُخْفِي، ومَا نُعلن، ويَسألنا عن كلّ كَبِيرةٍ، وصَغِيرة»[1]، وهَذَا صَحِيح لا رَيب فيهِ،

(١) اقتباساً من الآية: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّـهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي
⇔

ولكن هُناك أيضاً ظرُوف، وأحداث تَفعل فِينا فعلها، وتُؤثر أثرَها، ومَن ذَهل عَنْهَا فقَد ٱسْتَهان بنَفسِه، ومُسْتَقْبَله. وبالخصُوص في هَذَا العَصر، عَصر التّطورات والمُفاجآت... وهل من سَرّ هـزَائم الْـعَرَب، والْمُسْلِمِين، وفَشلهُم إلّا الذّهُول واللاَمُبادلاة بالعقُوبات؟. وهَل من أُمّة طَرِيقها إلىٰ ٱلْحَيَاة إلّا بَعد إعدَاد للطّوارىء والخَاطر؟.

(وَ التَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِـنْهُمْ). الْأَيّـام تَمّـر بسُرْعَة، وتَأخـذ مـنا الأنـفَاس، والْأَعْمَار، ويَسْتَحِيل أنْ تَعُود، ومَع هَـذَا يَسْـتَطِيع ٱلإنْسَـان أنْ يَـغْتنم الْـفُرْصَة، ويَصنع من أَيَّامه أُمّة، لهَا تَأرِيخ، كمَا صَنع مُحَمّدﷺ، أو يَترك أثراً نَبِيلاً يَدل عَلَيْهِ، ويُذكر بِهِ، ولَو إلىٰ حِين، وبهَذا يَأخذ ٱلإنْسَان من أَيَّامه غَالياً، كمَا أخـذَت مِـنْهُ غَالِياً، ومَن تَرك، وأهْمَل فقَد غَبن نَفسه حَيْث أخذت مِنْهُ الْأَيَّام أعلىٰ شَيء دُونَ أنْ يَأخذ مِنْهَا شَيْئاً (مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَ إِلَىٰ غَـيْرِهِ رَاغِـبِينَ!). الْمُرَاد بالذّهاب عنهُ تَعَالىٰ إلىٰ غَيْره ـ الاِنْقِياد للأهوَاء، والغَفلة عن العُواقبِ، والْحِسَاب، والْجَزَاء.

(كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَىٰ مَرْعىً وَبِيٍّ، وَ مَشْرَبٍ دَوِيٍّ) لعَل أبرَز الفرُوق بَيْنَ ٱلإنْسَان، وٱلْحَيَوَان، هو الطّمُوح، والنّظر إلىٰ المُسْتَقْبَل، فـنشَاط ٱلْحَـيَوَان الْحُدُود الضّرُورِيـة كـالطّعام، والشّراب، والدّفـاع عـن نَـفْسِه، وفـلا مُجـتمع، ومُسْتَقْبَل، ولا شُهرة، وشَخصِية... أَبَداً لا شَيء إلّا إشْـبَاع الْحَـاجَة العُـضْوِية،

⇐ الشّعَراء﴾ ٣٨ من سُورَة إبْرَاهِيم. أنظر، فيض القدير شرح الجامع الصّغير: ٦٢٤/٢، الكَافي: ٣٣/٨ ح ٥، بحَار الأنْوَار: ٨٣/١٢، البَيَان للطوسي: ٣٠١/٦، زاد المسير لاِبن الجوزي: ٢٧٠/٤، تَفْسِير ٱبن كثير: ٥٦١/٢، البداية والنّهاية: ١٨٧/١.

وكفىٰ، ويُقَال: أنّ نَوْعاً من الأفَاعي يَنام فور شِبعه، ولا يُفِيق من سُباته إلّا عِند حَاجَته للأكل، فإذَا أكَل عَاد إلىٰ النَّوْم.

أمّا ٱلإنْسَان دَائماً أمَام هَدف يتُوخَاه، ويَعمل من أجله، وأيّاً كَانَ نَوْع الهَدف فهُو المِقْيَاس الوَحِيد لشخصِية ٱلإِنْسَان، وحَقِيقَته... ومن كَان هَدفه مُجرد الطَّعام، والشَّراب فلا فَرق بَيْنَه وبَيْنَ ٱلْحَيَوان إلّا بالشّكل، والهَيئة، وهَذَا هو مُراد الإمَام بقَوْله: «كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ» لا هَمّ لهَا إلّا العَلف (تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا) تَعِيش بالحَاضِر، ولا يمتد نَظرها إلىٰ المُسْتَقْبَل (وَ شِبَعَهَا أَمْرَهَا) أي لا هَدف لهَا عَلىٰ الإطلاَق إلّا الشَّبع.

(وَ اللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ، وَمَوْلِجِهِ... إلخ) ظَاهر هَذَا الكلاَم يَدل عَلىٰ أنّ الإمَام يَعلم الْغَيْب، وأنّه لا يُخبر بِهِ خَوْفاً أنْ يُقَال فيهِ من الغلوّ مَا يُوجب الْكُفْر بالله ورسوله ﷺ، ثُمّ قَالَ: إنّ مَصْدَر عِلمه هَذَا هو رَسُول الله ﷺ (وَ قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَ بِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَىٰ مَنْ يَنْجُو، وَ مَآلِ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَ أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ). ويَتفق هَذَا مَع صَرِيح الآيَة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[1]، وأيضاً الرَّسُول لا يُظهر عَلىٰ هَذَا الْغَيْب أحَداً إلّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ من إمَام، والإمَام لا يُظهر عَلَيْهِ إلّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ من خواص الْمُؤْمِنِينَ، وإلىٰ هَذَا أشَار بقَوْله: «وَ إِنِّي مُفْضِيهِ إِلَىٰ الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ واني إلىٰ الْخَاصَّة مِمَّنْ يُؤْمِن ذَلِكَ مِنْهُ» أي لا يَخْشىٰ عَلَيْهِ الشَّك، والرَّيب، والخرُوج عن

(١) ٱلْجِنّ: ٢٦ ـ ٢٧.

الدِّين.

وتَسْأَل: أنّ هَذَا مُمكن بالسُّنَّة إلىٰ العِلم بالكُليات، أمّا إحْصَاء الجُزئيات، وحصرَها فلخَالِق الكَائنات وَحده؟.

وقَد أُجِيب عَن ذَلِكَ: بأنّ الله يُلقي إلىٰ نَبيِّه أُصُولاً كُلِية يَستخرُج مِنْهَا حوَادث جُزئية، والنَّبِيّ بدوره يُلقي بهَذه الأُصول إلىٰ الإمَام.

(إنِّي، وَ اللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَىٰ طَاعَةٍ إلاَّ وَ أَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَ لاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إلاَّ وَ أَتَنَاهَىٰ قَبْلَكُمْ عَنْهَا) هَذِه الحَقِيقَة يَشهد بِها الأَعْدَاء قَبل الأَصْدقاء، ولَو تَخلىٰ الإمَام عن بَعْض مثَالِيَاته لكَسب الجَولة يَوْم الشُّورَىٰ حِين قَال لهُ ابن عُوف: أُبايعك عَلىٰ كِتاب الله، وسُنَّة نَبيِّه، وسِيرة الخَليفتين... فأبىٰ إلّا عَلىٰ الكِتَاب والسُّنَّة، ومَبلغ عِلمه بِهما[1]، ولو خَادع آنذاك لَمْ يَكُن لوَقْعَة الجَمَل، وصِفِّين، والنَّهْرَوان، ولا لِلأشْعَث بن قَيْس من أثرٍ... ولكن هَل يكُون ابن أبِي طالب إمَام الحَقِّ، والْعَدْل إذَا لَم تنسجم أقْوَاله مع أفْعَاله؟.

(١) أنظر، شَرح النّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ٥١/٩ و: ٢٧٤/١٢، التّمهيد للباقلاني: ٢١٠، تأرِيخ ابن كثير: ١٤٦/٧، تأرِيخ الطَّبَري: ٤٠/٥ و٢٣٨، مُسْنَد أحمد: ٧٥/١، الكَامِل في التّأرِيخ: ٧١/٣، تأرِيخ اليعقوبي: ١٦٥/٢.

الخطبة

-١٧٦-

النَّارَ وَالشَّهَوَاتِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أنْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ، وَ اتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، وَ اقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَ اتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَ بَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ مَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَ تَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَ إِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»[١].

وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَ مَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَ قَمَعَ هَوَىٰ نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَ إِنَّهَا لاٰ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً.

وَ اعْلَمُوا ـ عِبَادَ اللهِ ـ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لاٰ يُصْبِحُ، وَ لاٰ يُمْسِي إِلاَّ وَ نَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلاٰ يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا وَ مُسْتَزِيداً لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَ الْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَ طَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ[٢].

اللُّغَة:

أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ رَفع عنهُ اللُّوم، أو لَم يُبق لكُم من عُذرٍ. وجَلِيَّة: واضِحَة. ونَزَعَ عَنْ

كَذا رَجع وأقْلَع عَنْه. ومَنْزِعاً: رِجُوعاً عن الْبَاطِل. الظَّنُون: مَن يُسيء الظَّن، وإذَا أخبر بشيء فَلا يُوثق بخَبره. وزَارِياً: عَائِباً. وَمُسْتَزِيداً: طَالِباً المَزِيد. الْمُرَاد بقَوَّضُوا هُنا ذَهبُوا، ورَحلوا.

الإِعْرَاب:

بِالْجَلِيَّةِ صِفَة لمُوصُوف مَحذُوف أي بالأعْذَار الجَلِيَّة، ومَنْزِعاً تَمْيِز.

الْمَعْنَىٰ:

(ٱنْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ). الْمُرَاد بالاِنْتفَاع هُنا الْعَمَل، وكلّ مَا يَحكي، ويُعبر عن الْحَقّ والوَاقع فَهُوَ حُجّة، وبَيان من الله حِساً كَانَ أم عَقلاً أم نَقلاً، وإذَا قَال قَائل: النَّقل تَقلِيد قُلنا فِي جوَابه: التَّقلِيد للحَقِّ عَملٌ بِالْحَقِّ، والصّواب، ولذَا قَلد الْعُلَمَاء الكبَار فِي شَتَّىٰ العلُوم، فأَخَذُوا نَظرِية الجَاذبِية عن نيُوتن، والنّسبِية عن إينْشتَاين، ودُوران الأَرْض عن جَالِيليو... إلىٰ لا يَبلغه الإحصَاء... حَتَّىٰ الْفُقَهَاء الَّذِين حَرَّموا التَّقلِيد يُقلد بَعضهم بَعضاً فِي كَثِير من الأحْكَام من حَيْث لا يَشعرُون، وكفَىٰ بقول الله شَاهداً عَلىٰ جواز التَّقلِيد فِي الْهَدىٰ، ودِين الْحَقّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَايَهْتَدُونَ﴾[1] ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ تَقلِيدهم الْآبَاء حَق، وصُواب لو كَانوا عَلىٰ الهُدىٰ، والعِلم.

(١) ٱلْمَائِدَة: ١٠٤.

(وَ ٱتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، وَ ٱقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ). الدُّنْيَا كلّها مواعِظ، ونصَائح من الله، ولكن لا نمد إِلَيْهَا الْبَصر، أو نرىٰ، ولا نعتبر، ونَسمع النُّصح، ولا نَنتصح (فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَ ٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَ بَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَ تَجْتَنِبُوا هَذِهِ). إنّ الله سُبْحَانَهُ مَنحنا الْعقْل، والْقُدْرَة والإِرَادَة، وبَيّن لنَا الأَسْبَاب، ونتَائِجها، لكِيلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ من حُجَّة، ولا لدِيهم من عُذرٍ إذَا أخذَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون.

الْقُرْآن وَفَنّ الإِعْلاَن:

(إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَ إِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ)[1]. لو كَانَتْ الْجَنَّة الصَّلاَة والصِّيام، والْحَجّ إِلىٰ بَيْتِ الله ٱلْحَرَام، لكان الطَّرِيق إِلَيْهَا سَهلاً يَسِيراً بخَاصَّة فِي عصرنا هَذَا، فإِنّ السَّفر فيهِ إِلىٰ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة رِحلة للتَّرفِيهِ والنُّزهة بأقل التَّكالِيف، إِنّ الطَّرِيق إِلىٰ الْجَنَّة، أو ثَمنهَا يُحدده صَاحب الْجَنَّة وخَالقها تَمَاماً كمَا يُحدد الْبَائِع بالذَّات ثَمن سِلعته، وبضَاعته.

أَمّا فَنْ الإعْلاَن عَن البضَاعة، وبَث الدّعَاية لهَا لإقْنَاع النَّاس بِهَا، وإقْبَالهم عَلَيْهَا ـ أمّا هَذَا الْفَنْ بأصُوله وقوَاعده ـ فغِير بَعِيد أنْ يكُون مَصْدَره الْأَوَّل هو الْقُرْآن الكَرِيم الَّذي شَوّق، ورَغّب فِي جنّة الخُلد بِمَا لا عَينٌ، ولا أُذن سَمعت، ولا

---

(١) أنظر، سُنن الترمذي: ٦٩٣/٤ ح ٢٥٥٨، صَحِيح أبن حبّان: ٤٠٦/١٦ ح ٧٣٩٣، مَجْمَع الزّوائد: ٢٣٥/١٠، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ١٠٣/٧ ح ٣٤٥٢٧، مُسْنَد الرّوياني: ٣٨٨/٢ ح ١٣٧٦، مُسْنَد إسْحَاق بن راهويه: ٤٠٨/١ ح ٤٥٨، المُعْجَم الْكَبِير: ١٠٤/٩ ح ٨٥٤٦، الزُّهْد لهناد: ١٧١/١ ح ٢٤٤، التّمهيد لِابْن عبد البَر: ١١٦/١٩، نيل الأوطار للشّوكاني: ١٢٢/٩.

خَطر عَلىٰ قَلب بَشر[1]... وبهٰذه المُناسبة قِيل لِمليُونير من تُجار أمريكا: لو خَسرت كلّ مَا تَملك، ولَم يَبق لدَيك إلّا ألف دولار، مَاذا تَصنع بِها؟ قَال: أستأنف التِّجارَة من جَدِيد، وأجْعَل مِئة لرأس المَال وتَسعاً للدّعَايةِ، والإعْلاَن.

وقَد أوضح سُبحَانَهُ ثَمن الجَنَّة فِي العَدِيد من آياته، مِنْهَا الآيَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]. ومِنْهَا الآيَة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[3].. إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الآيَات الّتي أَناطت الجَنَّة بالجِهَاد، والتَّضحِية بالنَّفْسِ، والمَال، والصَّبر عَلىٰ المشَاقِ، والآلام... وهَذَا مَا أرادهُ الرَّسُولﷺ بقَوْله: «الجَنَّة حُفَّتْ بالمَكَارِه».

أمّا النَّار فطرِيقها المَلذات، والأهواء، والتَّرف، والثَّراء قَال، عزَّ مَن قَائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[4]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٦/٤، صَحِيح مُسْلِم: ١٢١/١، مُسْنَد أحمَد: ٣٧٠/٢، سُنَن ابن مَاجه: ١٤٤٧/٢، سُنَن الدَّارمي: ٣٣٢/٢، الغَارَات: ٨٥٥/٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٤٧٨/١٠ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٢/٦، ثوَاب الأَعمَال: ٥٦، نَيل الأَوطَار: ١٥٥/٢، المُحلىٰ: ١٢/١.

(٢) ٱلتَّوْبَة: ١١١.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.

(٤) ٱلتَّوْبَة: ٣٤ ـ ٣٥.

مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1]. ومِثلُ ذَلِكَ كَثِير فِي كِتَاب الله.

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ). لأنّ طَاعته تُلزم بِالْحَقِّ، والطَّرِيق إِلَيْهِ شَائِك مُرهق تَكتنفهُ الصّعُوبَات، والْعَرَاقِيل، وَقَالَ بَعْض المُفكرِين: «الْحَقّ هو الْإِنْتِصَار عَلىٰ جَاذبية الْأَرْض، والتّحرر من ثقل الجَسد» أي من الأهواء، والشّهوات (وَ مَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ) تَتفق تَمَاماً مَع الرَّذِيلة عَلىٰ عَكس الفَضِيلة ولو ٱتْفقت الفَضِيلة مَع الشَّهْوَة أيضاً لما كَان للقِيَم، والْأَخْلاَق، والشَّرَائِع عَينٌ، ولا أثرٌ، وكَان النّاس كُلهم سواء لا خَبيث فِيهِمْ، ولا لَئِيم.

(وَ قَمَعَ هَوَىٰ نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَ إِنَّهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً). الضَّمِير فِي إِنَّهَا يَعُود إِلىٰ النَّفْس، وَهِي تُشاكس، وتُعاكس، ولا تَقلع عن مَلذاتها بالحُسنىٰ، لا بُدّ من جِهادها وإعداد العِدة لكبحها. وقَد يُقَال: أنّ هَذَا الكَلاَم بظاهره يُؤيد، ويَدعم أَصْحَاب نَظرِية الْخَطِيئَة، وإنّ ٱلإِنْسَان مُجرم بالْفِطْرَة، ورِجس بالطَّبِيعَة!... ولكن كَلاَم الْإِمَام بَعِيد عن التَّعرِيف بطَبِيعَة ٱلإِنْسَان، وتَحدِيدها من حَيْث هِي، وإنّما يَتكَلَّم عن مِيول ٱلإِنْسَان، ورغبَاته الّتي تَدفعه إِلىٰ الحَركة بصَرف النَّظر عَن طَبيعتِه، وحَقِيقَته، وهَذِه المِيول، والرَّغبات قَد تَتولد من الخَارج لا من الدَّاخل، ومن المُحيطِ، والبِيئة لا من الْفِطْرَة، والطَّبِيعَة.

والَّذي نَراه أنّ ٱلإِنْسَان يُخْلَق صَحِيفة بَيْضَاء لا طَاهراً بطَبعه، ولا دَنِساً، ولكن فِيهِ الاِستعداد التّام، والمُؤهلات الوَافية للوصفَّين مَعاً، والمُحِيط هو الَّذي يُقرر

---

(١) إِبْرَاهِيم: ٣٠.

حَياته ومَصِيره تَمَاماً كالصَّفحة البَيْضَاء تَرسم فيها ما شئت من صوابٍ ، أو خَطأ ، وهَذَا مَا عنَاه بَعْض الفَلاسفة بقَوْله : «ٱلإِنْسَان مَشرُوع وجُود» . أجل ، إنّ ٱلإِنْسَان نَاطق بطَبعه أي عَاقل ، ومُدرك كمَا عَرّفه الفَلاسفة القُدامىٰ ، والهَدف الأَوّل من الْعَقْل أنْ يَقِيك مِن شرّ المَخاطر ، فمَن ٱستعمل عَقْله لهَذه الْغَايَة فهُو إنْسَان شَكلاً ، ومُحتوىً ، وإلّا فهُو إنْسَان بالاِسمِ ، والجِسم فقط .

(أَنَّ الْمُؤْمِنَ لاٰ يُصْبِحُ ، وَ لاٰ يُمْسِي إلاّٰ وَ نَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلاٰ يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا وَ مُسْتَزِيداً لَهَا) كلّ عَاقل ـ مُؤمِناً كَان أمْ غَيْر مُؤمِن ـ يَتهم نَفْسه ، ويُعِيب عَلَيْها التَّقْصِير ، ويَطلب مِنْهَا ، وهَا المَزِيد من الكَمَال ، والتَّحرر من الرَّذَائِلِ ، والْعُيُوب ، ومن أكْبَر الْعُيُوب أنْ يُبرِّىء ٱلإِنْسَان نَفْسه من العِيبِ ، والخَطَأ . . . ولا مَصْدَر لهَذا الغُرُورُ إلّا الجَهْل المُركب ، فإنّ ٱلإِنْسَان كُلما ٱزدَاد عِلماً ٱزدَاد تُوقعاً للخَطأ ، وقَبُولاً للنَّقد (فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ) من أَهْل الخَيْر ، والصَّلاح (وَ الْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ) عَطف تَفْسِير (قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ) الَّذي لا يَنوي العُودَة إلىٰ مكَانه الأَوَّل (وَ طَوَوْهَا) أي حِياتهم فِي الدُّنْيا (طَيَّ الْمَنَازِلِ) وَهِي مَراحل السَّفر ، ومسَافَاته .

الْقُرْآن...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاٰ يَغُشُّ ، وَ الْهَادِي الَّذِي لاٰ يُضِلُّ ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لاٰ يَكْذِبُ . وَ مَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إلاّٰ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ ، أَوْ نُقْصَانٍ : زِيَادَةٍ فِي هُدىً ، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً . وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَ لاٰ لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً ، فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ ، وَ ٱسْتَعِينُوا

بِهِ عَلَىٰ لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَ هُوَ الْكُفْرُ وَ النِّفَاقُ، وَ الْغَيُّ وَ الضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَ تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَ لَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمِثْلِهِ[٣]. وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَ قَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَ أَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَ مَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَ عَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَ أَتْبَاعِهِ، وَ اسْتَدِلُّوهُ عَلَىٰ رَبِّكُمْ وَ اسْتَنْصِحُوهُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَ اتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَ اسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَ الاِسْتِقَامَةَ الاِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَ الْوَرَعَ الْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ نِهَايَتِكُمْ»، وَ إِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَ إِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ غَايَتِهِ. وَ اخْرُجُوا إِلَىٰ اللهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَ حَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ[٤].

اللُّغَة:

لَأْوَائِكُمْ: شَدَائِدكُم. ومُشَفَّعٌ: مَقبُول الشَّفَاعة. وَمَحَلَ بِهِ: أَضَرَّ بهِ. وعَلَم ـ بِفتح اللاَّم ـ مَا يُهْتَدىٰ بهِ. ووَحَجِيجٌ عَنْكُمْ: أُدَافع عَنْكُم بالحُجّة أي مُحَامِي عَنْكُمْ.

الإِعْرَاب:

هُوَ النَّاصِحُ «هُو» ضَمِير الفَصل، والنَّاصِحُ خَبَر أَنَّ، ومُشَفَّعٌ صِفَة لشَافِعٌ، وغَيْرَ صِفَة لمُبْتَلي، والْعَمَلَ مَفعُول مَحذُوف أي الْزَمُوا الْعَمَلَ، ومثلهُ ما بَعْدَه.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْـقُرْآنَ هُـوَ النَّـاصِحُ الَّـذِي لاٰ يَـغُشُّ ، وَ الْـهَادِي الَّـذِي لاٰ يُضِلُّ . . . إلخ) أنّ كلّ إنْسَان يُريد أنْ يَعْرِف مَا يَنْبَغِي لهُ أنْ يفعل ، ومَا يَنْبَغِي لهُ أنْ يَترك لِكي يَحيا حَيَاة طَيِّبَة . وسواء أوجد هَذِه الْمَعْرِفَة عِند الْعَقْل ، والتَّجْرِبَة ، أَم عِند الْفِطْرَة والغَرِيزَة فإنّ الله قَد أضَاء بالْقُرْآن الطَّرِيق لحيَاة أصلَح ، وأنْفَع بإعتراف الْعَقْل والْفِطْرَة . . . عَلىٰ أنّ التَّجْرِبَة أقوىٰ بُرهان ، وهَذَا التَّأرِيخ يَشهد للَّذِين سَلكُوه بأنّهم كَانوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وإذَا خَسِرَ ٱلْمُسْلِمُون الْيَوْم كلّ شيء فلأنّهم ٱنْحَرفُوا عن طَرِيق الْقُرْآن ، وتَجَاهْلوه ، وإذَنْ فالعيب فِيهِمْ ، ولَيْس فِي دِينهم وكتَابهم ، وقول الإِمَام : (وَ مَا جَالَسَ هَذَا الْـقُرْآنَ أَحَـدٌ إلاّٰ قَـامَ عَـنْهُ بِـزِيَادَةٍ ، أَوْ نُقْصَانٍ . . . إلخ) يُرِيد بِالأحَد مَن كَان لهُ قَلبٌ يُطِيع مَن يُهدِيه ، ويُعصي مَن يُردِيه .

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ . . . إلخ) مَن تَفَهَّم الْقُرْآن وعَمِل بِهِ فهُو فِي غِنىً عن كلّ هَادٍ ، ومُرشدٍ ، ومن جَهله ، أو أعرَض عَنْه فلا يَنْتَفع بالهُدَاة مُجْتَمِعِين ، ومثلهُ مَن لَم يَكُن لهُ واعظ من نَفْسِه فلا تَنْفَعه المُواعظ (فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ) الْعَقْلِيَة كالْجَهْل ، والتَّقلِيد ، والخُرَافة . والخَلِيقة كالْكَذِب ، والخِيَانة وغَيْرها من الأسوَاء ، والأدوَاء .

(وَ ٱسْتَعِينُوا بِهِ عَـلَىٰ لَأْوَائِكُـمْ) وَهِـي الْمُشْكِلاَت الاجْتِمَاعِية ، والأَوْضَاع الفَاسدة ، وقَد رَأينا بَعْض البِلاد المُتحضرة تَضع حلُولاً لِبعض مَا تُعانِيه من مِشكلات تَلتقِي مَع أَحْكَام الْقُرْآن ، ومَبادئه ، وآخر مَا قَرأتُ فِي هَذَا البَاب خَبَرٌ : «إنّ مِئات مِن أَهْل الاِخْتصَاص في المَانيا الدِّيمقرَاطِية عَقدُوا مُؤتمراً لِعلاج بَعْض الْمُشْكِلاَت ، وٱنتهُوا إلىٰ جَواز ٱلطَّلَاق عَلىٰ رأي الدِّين الإِسْلاَمِي ، وتَحرِيم الرِّبا ،

وٱفْتتَاح أَوَّل بَنك غَيْر رَبوي»[١].

(فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَ هُوَ الْكُفْرُ وَ النِّفَاقُ، وَ الْغَيُّ وَ الضَّلاٰلُ). هـٰذا تَفْسِير وبيان لقَوْله: «فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ». إنّ الْقُرْآن كِتَاب دِين، وهدَايـة، وحقُوق، وواجبَات تُوجه ٱلإِنْسَان فِي سلوكَه مع نَفْسِهِ، وخَالِقه، ومُجتمعه عَـلىٰ أُسس سَلِيمة تَهدف إِلىٰ تَنزِيه الْعَقْل، والْعَقِيدَة من الجَهْلِ، والخَرافة، وإلىٰ إصْلاَح الْفَرْد والمُجتمع، ولَيْس الْقُرْآن كِـتَاباً فِي الطِّب كِـي يُسـتَشفىٰ بـهِ مـن الأَمْـراض، والأسْقَام، ومَع هَذَا فإنّ بَعْض ٱلْمُسْلِمِين يَتداوُون بِتلاوتهِ، أو بِحمله كَحرز يُخفف عَنهم الأوجَاع، أو يُقِيهم الكوَارث، والأَخْطَار.

(فَٱسْأَلُوا اللهَ بِهِ). إذا كُنتم تَخافُون حقّاً من غَضب الله، وعذَابه، ويَطْلُبُون مِـنْهُ الْعَفُو والرَّحْمَة فعَلَيْكُمْ أَنْ تَعملوا بكتَابه مُخلصِين لهُ الدِّين (وَ تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ) أي برعَاية أحْكَامه، وتَعالِيمه (وَ لاٰ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ) لا تتخذُوا من تِلاوته مِهنة للكسب وٱلرِّزْق (إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمِثْلِهِ. وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ... إِلىٰ شُفِّعَ فِيهِ). الْقُرْآن يَشفع عِند الله، والله يَقبل شفَاعته، وأيضاً يَقبل سُبْحَانَهُ الشَّفَاعة مِمَّنْ شَفع له الْقُرْآن، والْمُرَاد بشفَاعة الْقُرْآن إنّه يَشهد بِلِسَان الحَال أنّ هَذَا الْمُؤْمِن قَد أئتمر بأَمْرِه، وٱنتهىٰ بنهيه[٢] (وَ مَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ). الْمُرَاد

---

(١) أُنظر، جَرِيدة الجمهُورية المِصْرية تَأرِيخ ٢١ تموز سَنَة ١٩٧٢م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) لقَد أرسل الله الأَنْبيَاء، والرُّسل مُبشرين، ومُنْذِرين، وبَعثهم للخَلق رَحْمَة، وهُداة للـنَّاس أجـمعِين، ثُمّ أرسل عَلىٰ فَترة منهم رَسُولاً عَظِيماً، ونَبِياً رَحِيماً، يَحرص عَلىٰ هُداهم رَحْمَة بِهِمْ، ويَدعُوهم إِلىٰ مَـا فِـيهِ سعَادتهم، وحياتهم شفقة عَلَيْهِم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنـفُسِكُمْ عَـزِيزٌ عَـلَيْهِ مَـا عَـنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَـلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٱلتَّوْبَة: ١٢٨، وماكَانَتْ هَذِه الشَّفقة، ولاتِلك الرَّحْمَة إلاّ مـن فـيض العـطايا ↞

⇔ الرَّبانية والمِنح الإلهية الّتي جَاد بها عَلىٰ رَسُول الله ﷺ لخيرِ الإِنْسَانية، وسعَادة البَشرية ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ٱلإِسْرَاءِ: ٢٠. ولذلك فإنّها تُضاعف وتزداد في الآخِرَة إكرَاماً لنَّبيه، وتَقدِيراً لسمُو مَنزلتِهِ، ورَحْمَة منهُ لعبادِهِ عزَّ وجلَّ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ٱلأَحْزَابِ: ٤٣. وإذَا كَانَ يَوْم القَضَاء، وأشتد الكَرب، وهَال الأمر، وعظُم المُوقف، وتَمنىٰ الخَلائق أنْ لو أنصرفُوا من شِدة هَذَا الهَوْل، وجَلال القِيَامَة، وزلزلة السّاعة، وفَزع النّاس إلىٰ الأَنْبِيَاء والرُّسل، وأحَالوهم بدُورهم عَلىٰ نَبي الرَّحمَة، وشَفِيع الأُمَّة، ومُغيث الخلائق، تَجلت الرَّأفة، وتدفقت الشَّفقة، وتَحركت العُواطف للأخذ بيد المُتوسلين، وإنقاذ المُستشفعِين، والإستجابة للمُستغيثِين، ولاعَجب فإنَّه كَعبة الفَضْل، وقبلة الرَّجاء، وغَاية الأُمم، ومحط الآمال، فالتَّوجه، والإستغاثة، والإستشفاع بِهِ ﷺ، وبغيره من الأَنبِيَاء، والأَوْلِيَاء، والصَّالحِين لَيس لهُ عِند ٱلمُسْلِمِينَ، وفي قلوبِهِمْ غَيْر ذَٰلِكَ المَعْنَىٰ المُشار إِلَيْهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ الزُّمَرِ: ٤٤. إنّه لم يعطها لِما عُبد من دُونه، ولا لِمن عُبد وكَانَ راضياً، فالقَصر في هَٰذِه الآيَة إضافي، المُرَاد منهُ نَفي شفَاعة الأوثَان في عَابديها، ونَفي شفَاعة جَمِيع المَعبُودِين في عَابديهم.

فقد روىٰ أحمد، والتِّرمذيّ، وأبن ماجه عن أبي سَعيد الخُدريّ ؓ قَالَ: «أنا سيّد ولد آدَمَ يَوْم القِيَامَة ولافخر، وبيدي لواء الحَمْد ولافخر، ومَا من نَبي يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فمن سواه إلا تَحت لوائي، وأنا أَوَّل شَافع، وأَوَّل مُشفع ولافخر» وروىٰ البزار، والطَّبرانيّ عن عَليّ بن أَبي طالب ؑ أَنَ رَسُول الله ﷺ قَال: «أشفع لأُمتي حَتَّىٰ يُنادي رَبي تبارك تعالىٰ فيَقُول: قَد رضيت يامُحمّد؟ فيَقُول: إي رَبِّي رَضيت». أُنظر صَحِيح مُسْلِم: ١٣٤/١ مطبعة محمّد عليّ صبيح وأَوْلاَده طَبْعَة مِصْر، والمُستَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين للإِمَام الحَافظ أَبي عبد الله الحَاكِم النَّيسابُوريّ، وبذِيله التَّلخِيص للحافظ الذّهبيّ: ٦٦/١ ط دار المَعْرِفَة / بيروت لتجد الكَثِير عن بحث الشّفاعة.

وأُنظر، السِّيرَة النَّبويَّة لابْن هشام: ٥٩/٢ / دار إحياء التّراث العَرَبي بيروت، تهذيب سُنن أَبي داود / بَاب الشّفاعة، ح ٤٧٣٠. وقد تَضمنت أحاديث الشّفاعة خَمسة أنواع من الشّفاعة، وَهِي:

«١» الشّفاعة العَامَّة الّتي يَرغب فيها النّاس إلىٰ الأَنْبِيَاء، نَبياً بَعد نَبي حَتَّىٰ يُريحهم الله من مقامهم.

«٢» الشّفاعة في فتح الجَنَّة لأهلها.

«٣» الشّفاعة في دخُول من لا حساب عَلَيْهِمْ الجَنَّة.

«٤» الشّفاعة في إخراج قَوْم من أَهْل التَوحيد من النّار.

⇔

بِمَحَل بِهِ أضرَّ بِهِ، والْمَعْنَىٰ أنّ الْقُرْآن تُقبل شهَادته عَلىٰ الطُّغاة الأَشْرَارِ تَمَاماً كَما تُقبل لِلْمُتَّقِينَ الأخْيَار.

(فَإنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... إلخ) الْمُرَاد بالحَارِثِ العَامل، وبِمُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ ـ بسكُون الرّاء ـ المَسْئُول عَن عَمله، والْمُرَاد بحَرْثَةِ الْقُرْآن ـ بفتح الرّاء والثّاء ـ العَاملون بهِ، والْمَعْنَىٰ أنّ أَهْل المحشر يَسمعُون مُنادِياً يَقُول: كلّ إنْسَان مَسْئُول عن عَمله، ومُحاسب عَليْهِ، وعَلىٰ عوَاقبِهِ، وآثَاره، فَيَعم الفَزع، والهَلَع النّاس أجْمَعِين من هَذَا النّداء إلّا العَامِلِين بالْقُرْآن فإنّهُم فِي أَمنٍ، وأمَان (فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَ أَتْبَاعِهِ) العَامِلِين بهَديه، وأحْكَامه (وَ اسْتَدِلُّوهُ عَلَىٰ رَبِّكُمْ) اتخذُوه رَائداً ودَلِيلاً إلىٰ مَرضاة اللهِ، وثُوَابه (وَ اسْتَنْصِحُوهُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) لا تَقبلوا النُّصح إلّا مِنْهُ، ومن الرَّاسخِين فيهِ عِلماً، وعَملاً (وَ اتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَ اسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ). كلّ مَا خَالف الْقُرْآن فهُو جَهل، وضَلال لا يُوثق بهِ، ولا يُركن إلَيْهِ.

وبَعد، فإنّ غَرض الإمَام من حَديثه هُنا حَوْلَ الْقُرْآن هو بَيان مَنزلتهِ، وتَأثِيره فِي توجِيه الإنْسَان إلىٰ الْغَايَة الّتي وجِد من أجْلها، وَهِي من غَيْر شكٍّ العِلمُ من أجل الْعَمَل الصَّالح: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ

«٥» الشّفاعة في تَخفيف العَذاب عن بَعْض أَهْل النّار.

ويَبقىٰ نَوْعَان يذكرهما كَثير من النّاس:

«أ» الشّفاعة في قَوْم استوجبوا النّار فيشفع فِيهِمْ أنْ لا يَدخلوها. وهَذَا النّوْع لم أقف إلىٰ الآن علىٰ حديث يَدل عَلَيْهِ، وأكْثَر الأحَاديث صَرِيحة في أنّ الشّفاعة في أَهْل التوحيد من أربَاب الكبائر، إنّما تكُون بَعد دخولهم النّار، وأمّا أنْ يَشفع فِيهِمْ قبل الدّخول فلا يدخلون، فلم أظفر فِيهِ بنصّ.

«ب» شَفاعته ﷺ لقوم من الْمُؤْمِنِينَ في زِيادَة الثّوَاب، ورفعة الدّرجَات، وهَذَا قد يُستدل عَلَيْهِ بدعاء النَّبيّ ﷺ لأبي سلمة وقَوْله ﷺ «اللّهُمَّ اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين».

ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1] . ولِذَا قَال الإِمَام مُكرراً ، ومُؤكداً :

(الْعَمَلَ الْعَمَلَ) الصَّالح فإِنَّه ٱلسَّبِيل الوَحِيد للنَّجاة دُنياً ، وآخره (ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ) . لكلِّ عَمَل عَاقِبَة حُلوة ، أو مُرة ، وقَد أضَاء سُبْحَانَهُ طَرِيق هَذهِ ، وتِلك وَقَالَ لِلإنْسَان : ٱختر لنَفْسَكَ ، والإِمَام يُحذِّره من عَاقِبَة السُّوء (وَ الاِسْتِقَامَةَ الاِسْتِقَامَةَ) عَلىٰ سَبِيل الْحَقّ ، والْعَدْل ، والمُسَاوَاة (ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ) عَلىٰ مَرّ الْجِهَاد والنّضال من أجل الْحُرِّيَّة ، وٱلْحَيَاة بأمَان ، وٱستقرار (إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَٱنْتَهُوا إِلَىٰ نِهَايَتِكُمْ ، وَ إِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَٱهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ . . . إلخ) الْمُرَاد بالعَلَم ـ بفتح اللاَّم ـ ٱلْكِتَاب ، والسُّنَّة ، وبنهَاية النَّاس أنْ يَختموا حَياتهم بالْخَيْر ، والصّلاح ، وبغَاية الإِسْلاَم العِلم النّافع ، والْعَمَل الصَّالح ، وبوظائفه تَعَالىٰ أحْكَامه ، وتَعالِيمه ، وبِحقّه الطَّاعَة ، والْعَمَل بهَذه التَّعالِيم ، والأَحْكَام .

(أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ) عِند الله بالاِسْتِقَامَةِ عَلىٰ الهُدىٰ ، ودِين الْحَقّ (وَ حَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ) . قَال الشّيخ مُحَمّد عَبْدَه : «الإِمَام كَرم الله وجهَه بِعلُو مَنزلته من الله يَشهد للمُحسنِين ، ويقُوم بالحُجّة عن المُخلصِين»[2] . والشَّيخ يُشِير بهَذا إلىٰ الآيَة : ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۢ بِإِمَـٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[3] .

اللِّسَان وَالاِسْتِقَامَة...فِقْرَة ٥ ـ ٦:

أَلاَ وَ إِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَ الْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ ، وَ إِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ

(١) ٱلْمُلك : ٢.
(٢) أُنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة : ٩٣/٢.
(٣) ٱلإِسْرَاء : ٧١.

اللهِ وَحُجَّتِهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] ، وَ قَدْ قُلْتُمْ : «رَبُّنَا اللهُ » ، فَاسْتَقِيمُوا عَلَىٰ كِتَابِهِ ، وَ عَلَىٰ مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، ثُمَّ لاٰ تَمْرُقُوا مِنْهَا ، وَ لاٰ تَبْتَدِعُوا فِيهَا ، وَ لاٰ تُخَالِفُوا عَنْهَا . فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[5] . ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَ تَهْزِيعَ الْأَخْلاٰقِ وَ تَصْرِيفَهَا ، وَ اجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً ، وَ لْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ . وَ اللهِ مَا أَرَىٰ عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَىٰ تَنْفَعُهُ حَتَّىٰ يَخْزُنَ لِسَانَهُ . وَ إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَ إِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ : لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ ، وَ إِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ ، وَ إِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ لاٰ يَدْرِي مَا ذَا لَهُ ، وَ مَا ذَا عَلَيْهِ . وَ لَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ : «لاٰ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ . وَ لاٰ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ » . فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَ هُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَ أَمْوَالِهِمْ ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَلْيَفْعَلْ[6] .

اللُّغَة:

تَوَرَّدَ : مِن الوُرُود أي وَرَد شَيْئاً بَعد شيء ، والعِدَة ـ بكسر الْعَيْن ، وفتح الدَّال ـ الْوَعْد ، وبكسر العَيْن ، وتشديد الدّال الجَماعَة ، وبضَم العَيْن ، وتشديد الدّال الاِسْتعدَاد . والمِنْهَاج : الطَّرِيق الوَاضح ، والتَّهْزيع : التَّكسِير . والتَّصْرِيف : التَّقلُّب .

---

(١) فُصِّلَتْ : ٣٠.

والرَّاحَةِ: الكَف. والأعْرَاضِ: جَمع عِرض بكسر الْعَيْن، وهو ما يَصُونه ٱلإِنْسَان من نَفْسِهِ، وأَهْله.

الإِعْرَاب:

تَورَّدَ مُضارع لأنّ الأصل تَتَورَّد، وأَلَّا تَخَافُواْ «أَلَّا» كَلمتَان: أنْ ولا، وَقَالَ ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد: «يَجوز أنْ تَكُون «أنْ» مُفسرة بِمَعْنَىٰ أي، وأنْ تَكُون مُخففة من الثَّقِيلة»[1] ولَيس هَذَا ببعِيد، ولكن يَجوز وَجهٌ ثَالث، وهو أنْ تَكُون مَصْدَرِيَة، والْمَصْدَر المُنسبك مَجرُور بِبَاء مَحذوفة، ويَكُون تَقدِير الكَلاَم هَكذَا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ بِعَدم الْخَوْف أي بِالبُشرىٰ، ومثلهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾[2]. وإِيَّاكُمْ الأصل أُحَذِّرُكُمْ، ثُمّ حُذف الفِعْل، وٱنفصل الضَّمِير، وتَهْزِيع مَفْعُول أُحَذِّرُكُمْ، أمّا الوَاو فَقِيل: إِنَّهَا عُوض عن الفِعْل المَحذُوف.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلَا وَ إِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَ الْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ). قِيل فِي تَفْسِيره: إِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ... إِشَارة إِلىٰ بَيْعَة الإِمَام، وإِنَّ الْمَاضِيَ إِشَارة إِلىٰ الْفِتَن الّتي حَدثت بَعد ٱلْبَيْعَة... ومهما يَكُن فإِنّ الأَسْبَاب المُؤثرة هِي بمشِيئَة الله سُبْحَانَهُ، لأنّه أبىٰ إلّا أنْ يَجري الأُمُور علىٰ أسبَابها، وأشَار، جَلت كَلمته، إِلىٰ ذَلِكَ فِي العَدِيد مِن

(١) أُنظر، شَرح النّهج: ١٠/٢٧.
(٢) هُودٍ: ٦٩.

الآيَات. مِنْهَا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[١] مَع العِلم بأنّ الّذي جَعل النُّطْفَة في الرَّحم مُباشرة هو الأب. ومِنْهَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[٢]... حَتّىٰ الأَسْبَاب الاِجْتمَاعِية أسندَها إِلَيْهِ تَعَالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٣]. أمّا المُبرر لهَذا الإِسْنَاد فهُو أنّه تَعَالىٰ خَالق الكَوْن بمَا فيهِ، وإِلَيْهِ يَنتهِي كلّ شَيء.

(وَ إِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ... إِلىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). يُشِير الإِمَام إِلىٰ مَا وَعَد الله بِهِ الْمُؤْمِنِينَ في الآيَة السَّابقة[٤]، ومعناها أنّ مَن آمن باللهِ، وآنسجمت أفْعَاله مَع إِيمَانه ـ فأنّ لهُ من الله الجَنَّة، ومن ٱلْمَلاَئِكَةُ الْبُشْرَىٰ بِها عِند المَوْت، وفِي القَبر، وسَاعة ٱلْحَشْرِ، وإِذَنْ فالْمُسْتَقِيم حقّاً، وصِدقاً عِند الله هو الْمُؤْمِن المُلتزم قولاً، وفِعلاً بمُوجب إِيمَانه، ومن آمن باللهِ نَظَرِياً دُونَ أنْ يَلتزم، ويَنسجم عَملياً مَع إِيمَانه فهُو مُنحرف عن الصّراط الْمُسْتَقِيم، ولذَا قَالَ الإِمَام لأَهْل التَّوْحِيد: (وَ قَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللهُ»، فَٱسْتَقِيمُوا عَلَىٰ كِتَابِهِ)، والجُمل المَعطُوفة عَلىٰ هَذِه الجُملة بَيان لهَا وتَفْسِير.

(ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَ تَهْزِيعَ الأَخْلاَقِ وَ تَصْرِيفَهَا). هَذَا نَهي عن التَّلوُّن فِي السّلُوك، والاِنْتقَال من حَالٍ إِلىٰ ضدها مع الْمَنَافِع، والأَغْرَاض... وهَذِه الصِّفَة يَشترك فِيها

---

(١) الْمُؤْمِنُون: ١٣.

(٢) ٱلْفُرْقَانِ: ٤٥.

(٣) ٱلْفُرْقَانِ: ٣١.

(٤) فُصِّلَتْ: ٣٠.

العَالِم، والجَاهِل، وَهِي مُشْكِلَة المُشْكِلاَت، ولا سَبِيل إِلىٰ حَلها إلاّ بِسَد الحَاجَات، وتَيسِير العِيش لكلِّ فَرد... وفي أسوَأ الحَالات يَقل عَدد ٱلْمُنَافِقِين، والخَائِنِين.

(وَ ٱجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً) فِي الحضُور، والْغَيْبَة، ومَن كَان لهُ لِسَان، فِي الأمَام، وآخر في الخَلف فهُو مُنافق، ويُحشر يَوْم ٱلْقِيَامَة، ولهُ لِسَانَان من نَار من بَيْنَ يَدِيه ومن خَلفَه (وَ لْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ) عن الفُحشِ، والْكَذِب، والتَّقعر فِي الكَلاَم والفُضُول فِي السّؤال، والتَّطوِيل بِلا طَائِل (فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ) يَقُوده إِلىٰ المهَالِك، وفِي الحَدِيث: «من يَتكفَل لِي بِمَا بَيْنَ لِحيِيه، ورِجْلِيه أتكفَلُ لهُ بِالجَنَّة»[1]. وفيِهِ إيمَاء إِلىٰ أنّ الدَّاء يَكُون فِي الأعْلىٰ كمَا يَكُون فِي الأسْفَل.

بَيْنَ الْعَقْل، وَاللِّسَان:

(وَ اللهِ مَا أَرَىٰ عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَىٰ تَنْفَعُهُ حَتَّىٰ يَخْزُنَ لِسَانَهُ). قَد يَصُوم المَرْء، ويُصلِي ويَحجّ، ويُزكِي، ورُبَّمَا جَاهد بالنَّفس، والْمَال، ومَع هَذَا لا يَسلم من غَضب الله وعذَابه، لكَلِمَة يُناصر بها ظَالِماً، أو تخذل مَظلوماً، أو تتهم بَرِيئاً (وَ إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَ إِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ... إلخ). هَل بَيْنَ اللِّسَان، والْقَلْب صِلة وعِلاَقَة؟ وفي حَال وجُود الصِّلة بَيْنَهما فمِن أي نَوْع هِيَ؟

وأجَاب الإِمَام بأنّ الحَال تختلف الأشخَاص، فَبيْن لِسَان الْمُؤْمِن الْعَاقِل، وقَلبه عِلاَقَة قوية جداً، وَهِي من نَوْع العِلّية، والسَّببية، وذَلِكَ أنّ الْمُؤْمِن الْعَاقِل يَزن

(١) أنظر، تَفسِير الثّعالبي: ٢/١٧٦، سُبل السّلام: ٤/١٨٠، مجمَع الزّوائد: ١٠/٣٠٠، الوَرع لِابْن أبي الدُّنيا: ٩٢، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٤/٨٤، المُعجَم الأوسط: ٥/١٧٢، مُسْنَد الشّهاب: ١/٣٢٤، نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلحَدِيد: ١٠/١٣٦.

كَلامه، ويَفكر طوِيلاً قَبل أنْ يَنطق بِهِ: هَل هُو لهُ، أو عَلَيْهِ، خَوْفاً من سوء الْعَاقِبَة. وبَعد التَّثبت من صدَقه، ومَرَضاة دِينه، ووجدَانه يُلقِيه عَلىٰ السَّامِعِين، وبِهَذا يَكُون لِسَانه تَابعاً، ونَابعاً من قَلبِهِ، وعَقْلِهِ، ودِينه. أمّا الْمُنَافِق فلا يَشعر بِالمَسْئُولية، وَلا يَخشىٰ دَائِرة السُّوء، ولذَا يُلقِي الكَلاَم جُزافاً من غَيْرِ تَفكِير ورُوّية في أنّه له، أو عَلَيْهِ، حَتَّىٰ إذَا ذَاق، وبَال كَلاَمه أفاق من كَبُوته، وشَعر بِالمَسْئُولية... ولكن بَعد فَوات الأوَان، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ كَلامَه سَابق لشعُوره وتَفكِيره.

(قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَ لاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» يَدل هَذَا الْحَدِيث بظاهرهِ علىٰ أنّ سلاَمة الإِيمَان تَنبع من سَلامة الْقَلْب، وهَذَا حَقّ لا رَيب فِيهِ، وأيضاً يَدل الْحَدِيث عَلىٰ أنّ سَلامة الْقَلْب تَنبع من سَلامة اللِّسَان!... والَّذي يَبدُو أنّ العَكس هُو الصَّحِيح، وأنّ سَلامة اللِّسَان من سَلامة الْقَلْب.

ويُمكن الجَوَاب: بأنّه لا مَحل للإِيمَان إلّا الْقَلْب، ويَسْتَحِيل وُجُودِه بدُونه، أمّا الكَلاَم فقَد يَنبع من الْقَلْب كما هو الشّأن فِي كلاَم الْمُؤْمِن، وقَد يَكُون كَذِباً، ورِيَاء كما هِي حَال الْمُنَافِق، ومُراد الرّسُول الأَعْظَم ﷺ من قَوْله: (لاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ). أنّ الإيمَان لا يَتم إلّا إذَا انْسَجَم الْقَلْب مَع اللِّسَان، وبدُون ذَلِكَ فلا إيمَان، بصَرف النَّظر عَن نَوْع الصِّلة، والعُلاقة.

(فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَ هُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَ أَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ) هَذَا الكَلاَم أُسلوب من أَسَالِيب الوَعظ، والإِرْشَاد، ولَيْس تَحدِيداً لِحُكم الدِّمَاء، والأَمْوَال، وشُرُوطه كِي يُقَال: إنّ

الاِسْتطاعة من الشُّرُوط لجـمِيع الأحْكَام، والتَّكـالِيف، ولَـيْس لتَـحرِيم الدِّمَـاء والْأَمْوَال، والْغِيْبَة فقط.

الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللهُ... فِقْرَة ٧ ـ ٨:

وَ اَعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اَسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ، وَ يُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ؛ وَ أَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَـلَيْكُمْ، وَ لَكِـنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَ الْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ. فَـقَدْ جَـرَّبْتُمُ الْأُمُـورَ وَ ضَـرَّسْتُمُوهَا، وَ وُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَ ضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَ دُعِيتُمْ إِلَىٰ الْأَمْرِ الْوَاضِحِ، فَـلا يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَ لا يَعْمَىٰ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَعْمَىٰ. وَ مَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ، وَ التَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَ أَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَ يُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَ إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعُ شِرْعَةً، وَ مُبْتَدِعُ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلا ضِيَاءُ حُجَّةٍ(٧).

وَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ ﴿حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ﴾، وَ سَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَ فِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَ مَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَ بَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَـأَعِينُوا عَـلَيْهِ، وَ إِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاَذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كَانَ يَقُولُ: «يَـا اَبْـنَ آدَمَ، اَعْـمَلِ الْخَيْرَ، وَ دَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ»(٨).

اللُّغَة:

ضَرَّسْتُمُوهَا: جَرَّبْتُمُوهَا تَجْرِبَة مُحْكَمَة. والأَصَمُّ: الصُّلب الْمَتِين، والأطْـرَش،

وهُو المَقصُود هُنا. والقَاصِدَ: المُعتَدل لا إفْرَاط ولا تَفْرِيط.

الإِعْرَاب:

أَوَّلَ صِفَة لِعَام، وممنُوع من الصَّرف للْوَصْف ووزن الفِعْل، ومُتَّبعٌ ومُبْتَدِعٌ بَدل مُفصل من مُجْمَل، والمُبدل مِنْهُ رَجُلاْنِ، وشِرْعَةً مَفْعُول مُتَّبعٌ، وبِدْعَةً مَفْعُول مُبْتَدِعٌ، وجِلَاءٌ غَيْرُهُ مُبْتَدأ، وخَبَر، ولِلْقَلْبِ مُتَعَلِّق بجِلَاءٌ.

التَّحْلِيل وَٱلتَّحْرِيم بَيْنَ الإِسْلَام وَٱلْمَسِيحِيَة:

(أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَ يُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ... إِلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ). كلّ مَا ثَبت وجُوبه، أو تَحرِيمه بِنَصّ ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة مُطلقاً مِن غَيْر تَقيِيد بزَمَان، أو مَكان فهُو كَذَلِكَ أَبَداً، ودَائِماً، لأنّ سُلطة التَّحلِيل عِند ٱلتَّحْرِيم عِند ٱلْمُسْلِمِين لله وَحدَه، ولَيْس لأحدٍ مِنْهَا شيء حَتَّىٰ ولو كَان نَبِيّاً مُرسلاً، أو مَلكاً مُقرباً، أو حَاكماً عَادلاً، أو بَرلماناً مُنْتَخَباً، قَال سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1]. أمّا حَدِيث: «حَلاَل مُحَمّد حَلاَل أَبَداً إِلَىٰ يَوْم ٱلْقِيَامَة، وحَرَامه حَرَام أَبَداً إِلَىٰ يَوْم ٱلْقِيَامَة»[2]. فالمُرَاد مِنْهُ مَا نَزل الوَحي بِهما عَلَىٰ مُحَمّد ﷺ.

ومن أحَلَّ حَرَامه تَعَالَىٰ، أو حَرّم حَلاله فَلَيْسَ من الله فِي شيء. وتَجدر الإِشَارَة إِلَىٰ أمرين:

(١) ٱلْمَائِدَة: ٤٤.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ١/٥٨ ح ١٩، وَسَائِل الشِّيعة: ١٨/١٢٤ ح ٤٧، بصائر الدَّرجات: ١٦٨، الوَافي: ١/٦١.

الْأَمْر الْأَوَّل: لا وجُوب، ولا تَحـرِيم من غَيْر نصّ، ومَا سَكت عنهُ فهُو عـفوٌ، ومُباح عند الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. أجل، إذَا ٱتفق العُقلاء جَمِيعَاً حَتَّىٰ المُلحدِين مِنْهُم عَلىٰ وجُوب شيء، أو تَحرِيمه، وَجَبَ الإلتِزَام بهَذا الاتِّفَاق الَّذي لَم تَنْه عَنْهُ الشَّرِيعة.

الْأَمْر الثَّانِي: لِلكنِيسَة فِي الدِّين ٱلْمَسِيحِي أنْ تُحلل كمَا تَرىٰ، لأنّ السَّيِّد ٱلْمَسِيح هو الَّذي مَنحها سُلطة التَّشرِيع، والتَّحلِيل، وٱلتَّحْرِيم، كمَا جَاء في الإصحَاح: «مَا تَربطُونَه عَلىٰ الْأَرْض مَربُوطاً فِي السَّماَء، ومَا تَحْلُونه عَلىٰ الْأَرْض يَكُون مَحْلُولاً فِي السَّماَء»[2]. وَقَالَ: «إنْ ٱتفَق ٱثنان مِنْكُم عَلىٰ الْأَرْض فِي أي شَيء يَطلبَانه فَإِنَّه يَكُون لهَما مِن قِبل أبِي الَّذي فِي السَّماَء»[3]. والخطَاب في الآيتِين مُوجه إلىٰ تَلامِذة السَّيِّد ٱلْمَسِيح.

وأشَارت إلىٰ ذَلِكَ الآيَة فِي الْقُرْآن الكَرِيم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]. وَقَالَ عَدي بن حَاتم ـ وكَان مَسِيحِياً ـ لرَسُول الله ﷺ أنّهم لَم يَعبدُوهم!. فقَال لهُ الرَّسُول: بَلىٰ، أنّهم حَرمُوا عَلَيْهِمْ الحَلاَل، وأحلُّوا هُم

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٩.

(٢) أُنظر، إنْجِيل متّىٰ: الآيَة (١٨)، (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، إنْجِيل متّىٰ: الآيَة (١٩)، (مِنْهُ ﷺ).

(٤) ٱلتَّوْبَة: ٣١.

ٱلحَرَام فٱتبعُوهم، فذَلك عِبَادتهم إيَاهم[1].

(فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَ ضَرَّسْتُمُوهَا...) أَنْتُمْ تعلمُون عِلم الْيَقِين أنّ نصُوص الْإِسْلاَم واضحة، وأنّ النَّص لا يَنقض بالرّأي، والاِجْتِهَاد، وأيضاً تَعلمُون مَاذا أَصَابَ الَّذِين حَرفُوا دِينهُم من قَبل كاليَهُود، وقَد ضَرب الله لَكُم الْأَمْثَال بِهِمْ، وبغيرهم كِي تَعتبرُوا، فلماذَا لا تَتعظُون؟ (فَلاَ يَصَمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَ لاَ يَعْمَىٰ عَنْ ذَلِكَ إِلاَّ أَعْمَىٰ) أي مَن هُو جَدِير بهَذا الْوَصْف، وقَد دَلتنَا الأَحْدَاث أنّ هَذَا العَمىٰ، والصَّمم يَأْتِي ـ فِي الغَالب ـ من التَّرف، والتُّخمة. وَقَالَ الْإِمَام لأحد المُتْرَفِين: «فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَىٰ مِنْكَ مَجْرَىٰ الرُّوحِ، وَالدَّمِ»[2].

(وَ مَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلاَءِ، وَ التَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ). الْبَلاَء والتَّجَارِب لا يَنْفصلان عَن الفِعْل، والفِعْل لا يَنفصل عمّن فَعله، وأَصَابَه، ومن لا يَتعظ، ويَنْتَفع بِمَا أَصَابَه، وحَدث لهُ بالذَات فهَل يَتعظ، ويَنْتَفع بِمَا يَحدث لِغيره؟.

وبالْأُولَىٰ أنْ يَنْتَفع بالذِّكر الحَكِيم، وٱلْكِتَاب المُبِين. وإنّ الْعَاقِل يَنتَقد نَفْسه فِي ضُوء بَلائِهِ، وتَجاربه، ويَأخذ مِنْهَا دَرساً نَافعاً لا يَنساه، ومَن لَم تَحْدث لهُ أيّة خُبرة عِلمِية، أو صِفَة خُلقِية من تَجاربه فهُو وَاحد من ٱثْنَيْن: إمّا قَاصر لا ٱستعدَاد فيهِ عَلىٰ الْإِطلاَق، وإمّا مُقصر ٱستحوذ عَلَيْهِ الشَّيْطَان حَتَّىٰ عن نَفْسِه، ومَا مرّت بهِ من أطوار، وأحدَاث.

(وَ أَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَ يُنْكِرَ مَا عَرَفَ). مَا مِن

(١) أنظر، تَفْسِير ٱبن كثير: ٢/٣٦٢، فتح القدير: ٢/٣٥٣، المُسترشد في الإمَامَة: ٥١٨.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كِتابٍ لهُ ﷺ إلىٰ مُعَاوِية، (١٠).

مُفرط، ومُهمل إلّا وتُجابهه الأَيَّام بأسْوَائِه، وأخْطائِه، وتَستقبلهُ بها وَجهاً لوَجه. وحِينذاك يَنكشف النّقاب، ويَقُول: «يَالَيْتَنِي آمَنْتُ بِمَا كَفَرْتُ، وكَفَرْتُ بِمَا آمَنْتُ!.. ولكنْ بَعد أنْ فَات مَا فَات. (وَ إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلاَنِ: مُتَّبِعُ شِرْعَةٍ، وَ مُبْتَدِعُ بِدْعَةٍ... إلخ) الشِّرعَة مَا يَعتمد عَلىٰ حُجّة واضحة من كِتَاب الله، أو سُنَّة ثَابتة عن رَسُول الله، ومَا عَدا ذَلِكَ فبِدْعَة، ولذا قيل في تَعرِيفها: «إحْدَاث فِي الدِّين»[1]. وَقَالَ آخر: «هِي كَذب عَلىٰ الله، ورَسُوله»[2]، والمَعْنَىٰ واحد. وسُئل الإمَام عن السُّنَّة والبِدْعَة، والفُرْقَة، والجَماعَة، فَقَالَ: «السُّنَّة سُنَّة رَسُول الله ﷺ، والبِدْعَة مَا خَالفها، والفُرْقَة أَهْل الْبَاطِل، وإنْ كانوا كَثِيراً، والجَماعَة أَهْل الحَقّ، وإنْ كَانوا قَليلاً»[3].

وتَجدُر الإِشَارَة إلىٰ أنّ الأحْكام الشَّرْعِيَّة عَلىٰ نَوْعَين:

الأَوّل: أَحْكَام أَسَاسِية مُطلقة مِن قَيد الزَّمَان، والمكَان، وإنّما شُرعت لحَيَاة ٱلإِنْسَان بِمَا هو إنْسَان بصَرف النَّظر عن أُسلوب ٱلحَيَاة ومَا يُحِيط بها، مثل كلّ إنْسَان برِيء حَتَّىٰ تثبت إدانته[4]، والضَّرر الأشد يُزال بالضَّرر الأخَف حَيْث لا

---

(١) أنظر، الذّكرىٰ للشَّهيد الأَوّل: ٩٤، مَجْمَع الفائدة: ٤٤٨/١٢، مشارق الشموس: ١٣٤/١، فِقْه ٱبن أبي عَقِيل العماني: ٨٥، عون المعبود: ٢٨٦/٣، رسائل المرتضىٰ: ١٦٤/٢.

(٢) أنظر، مُنْتَهىٰ المطالب: ١٢١/٢، حَوَاشِي الشّيرواني: ١٥٦/٣، إعانة الطالبين: ٣١٣/١، تنوير الحوالك: ٤. وراجع حَدِيث: «كلّ بِدعة ضلالة، وكلّ ضلالة إلىٰ النّار». سُنَن أبي داود: ٢٠٠/٤ ح ٤٦٠٧، سُنَن الدّارمي: ٤٤/١، سُنَن ٱبن ماجه: ١٥/١ ح ٤٢، الكَافِي: ٥٦/١.

(٣) أُنظر، مَعَاني الأَخْبَار للشّيخ الصَّدوق: ١٥٤ ح ٣، بِحَار الأَنْوَار: ٢٦٦/٢ ح ٢٣.

(٤) أُنظر، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة الكوفي: ٤٨٩/٦.

مَندُوحة إلّا بتَحمل الضَّرر الأخَف[١]، ومثل الضَّرُورات تُبيح المحظورَات[٢]، والمَرْء مُؤاخذ بِإقْرَاره، ومَسْئُول عن عَمله[٣]، ومثل رُفع ٱلْقَلَم عن الصَّبي حَتَّىٰ يَحتلم، وعن المجنُون حَتَّىٰ يُفِيق، وعن النَّائم حَتَّىٰ يَستيقظ[٤]... وهَذَا النَّوْع يَسْتَحِيل أنْ يَتبدل، أو يَتعدل، لأنّه مَنوط بطَبِيعَة ٱلإِنْسَان مِن حَيْث هِي.

النَّوْع الثَّانِي: أَحْكَام تَابعة للأوضَاع، ولأُسلوب ٱلْحيَاة عِند صدُور التَّشرِيع بحَيث يَكُون الْحُكْم وثِيق بتلك الأَوْضَاع، مثل حَدّ الطَّرِيق سَبعة أذرُع حَيْث لا سيارات وشَاحنات، ولا مُدن تَغص بالملاَيين[٥]، ومثل قول الْفُقَهَاء القُدامىٰ: من أتلف كِتاب غَيْره فعلِيه قِيمته لا مِثله، لأنّ المثل مُتعذر آنذاك حَيْث لا مَطابع، وتصوِير، أمّا الْيَوْم فٱلْكِتَاب المطبُوع، أو المصُور فَهُوَ مثليٌّ، لا قِيمي. وَسُئِلَ الإِمَام عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»؟ فَقَالَ ﷺ: إِنَّمَا قَالَ ﷺ ذَلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا ٱلآنَ وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُهُ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ، فَٱمْرُؤٌ وَمَا ٱخْتَارَ»[٦].

---

(١) أنظر، الدُّر المُخْتَار للحصفكي: ٦/٤٩١.

(٢) أنظر، العهود المحمدية: ١٥٤، فيض القدير: ١/٧٢، كشف القناع: ٢/٣٥ ح ١٦٤٠، الحَدَائِق النَّاضرة: ٨/٣٤٣، رياض المسائل: ١/١٥٢.

(٣) أُنظر، كشف اللثام: ٢/٣٦٧، فتح الباري: ٨/٣٦٥، صَحِيح ٱبن حبّان: ٧/٤٣١.

(٤) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨/٢٠٤، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٣٢ ح ١٤٢٣، مُسْنَد أحمد: ٦/١٠٠، الخِصَال: ٩٣، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/٥٩، تَلخِيص الحبير: ١/١٨٣، السُّنَن الْكُبْرَىٰ للبيهقي: ٦/٨٤ و ٢٠٦، سُنَن أبي داود: ٤/١٤١ ح ٤٤٠٣.

(٥) أُنظر، مَجْمَع الزّوائد: ٤/١٥٩، المُعْجَم الأوسط: ٩/٩٦، الجَامِع الصَّغِير: ١/٥٧٠ ح ٣٦٩٠، كنز العُمَّال: ٩/٢٤٠ ح ٢٥٨٢٨.

(٦) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٧).

وفي سَائر الأَحْوَال فإنّ غَايَة الشَّرِيعة الإِسْلاَمِيّة أنْ تجعل ٱلْحَـيَاة أفضل ، وأنْ تقُوم بَيْنَ النّاس عَلاقات مُنتزعة من مـصالحهم بـالتّساوِي فأيـنما كَـانَتْ ٱلْحَـيَاة الْفُضْلىٰ فَثمَّ دِين الله ، وشرِيعة رَسُول الله .

(وَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ) فِي أُسلُوبِه ، وأمثَاله ، وحَرَامه وحَلاَله (فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ) مَن تَمسك بِه نَجا (وَ سَبَبُهُ الْأَمِينُ) من التَّهلكة (وَ فِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ) أي صحتها ، وسلامتها من الأوبَاء (وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ) باللهِ ، وصـفَاته ، وبكَثير من الكَـائنات ، وأسرَار ٱلْحَـيَاة ، وبـالأُمم المَـاضِية ، والقـرُون الخَـالِية ، وبقوَاعد السّلوك الّتِي لا يُنْكِرها عَاقل عَلىٰ وَجه الأَرْض ، وغَيْر ذَلِكَ من الكنُوز الّتي يَعرفها الرَّاسخُون فِي تَأوِيله .

(وَ مَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ) إلّا إذَا كَانَ مُستمداً مِـنْهُ ، أو يَـلتقي مـعهُ فِي مـبادئهِ ، وتَعالِيمه ، لأنّه كِتَاب ٱلْحَيَاة الَّذي يَطلق الْعُقُول ، ويُحطم قيُود الْجَـهْل ، والتّـخلف ، ويَسِير مع عَجله التَّقدم ، بل يَدفع بها إِلىٰ الْأَمَام ، ولِذَا عَاش ، ويبقىٰ حيّاً إِلىٰ الأبد (مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ) أي أنّ الْقُرْآن عَاش علىٰ الرَّغم من ذِهـاب الَّـذين عَملوا بِهِ (وَبَقِيَ النَّاسُونَ) وهُم الَّذِين لا يَعرفُون شَيْئَاً من أحْكَامه (أَوِ الْمُتَنَاسُونَ) وهم الَّذين يَعلمُون ولا يَعْملون . (فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ) بتَشجِيع فـاعله ، ومُناصرته ، والذَّب عَنهُ (وَ إِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ) واتقُوه وإلّا سَرت إِلَـيْكُمْ العَدْوىٰ مِنْهُ من حَيْث تَرِيدُون أو لا تَريدُون (فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كَانَ يَقُولُ : «يَا ٱبْنَ آدَمَ ، ٱعْمَلِ الْخَيْرَ ، وَ دَعِ الشَّرَّ ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ) أي سَائر عَـلىٰ الصّراط الْقَوِيم لا تَنحرف عَنهُ يَميناً ، أو شمالاً . وقَد يظّن أنّ مثل هَذِه المَوعِظه أي «ٱعْـمَلِ الْخَيْرَ ، وَدَعِ الشَّرَّ » نَافلة لا حَاجَة إِلَيْهَا ! . ولكن قَد تَكُون المَوْعِظَة لقِيام الحُـجّة

عَلىٰ فَاعِلِ الشَّرّ، وتَأْكِيدها، كما تَكُون لكشف النِّقاب، أو التَّرغِيب، والتَّرهِيب.

الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ...فِقْرَة ٩:

أَلا وَ إِنَّ الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لا يُغْفَرُ، وَ ظُلْمٌ لا يُتْرَكُ، وَ ظُلْمٌ مَغْفُورٌ لا يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1]. وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَىٰ، وَ لا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَ لَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَ التَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَىٰ، وَ لا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ» وَ طُوبَىٰ لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَ اشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، ﴿وَ بَكَىٰ عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ﴾ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ[9]!

اللُّغَة:

الْقِصَاصُ ـ بكسر القَاف ـ الْجَزَاء عَلىٰ الذَّنب بالمِثل. والْمُدَىٰ ـ بضم المِيم ـ جَمع مُدْيَة، وَهِي السِّكِين. وطُوبَىٰ: مِن طَاب، وَهِي تَأنيث الأَطْيَب.

والْمُرَاد بطُوبَىٰ هُنا الْخَيْر.

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٤٨.

الإِعْرَاب:

أَمَّا حَرف تَفصِيل، ويَجب أنْ يُربط جوابها بالفَاء وَظُلْمُ الْعِبَادِ «الظُّلْمُ» مُبْتَدَأ، وخَبَره محذُوف دَلَّ عَلَيْهِ الموجُود أي لا يُتْرَكُ، وبَعْضِهِمْ مِن الْعِبَادِ، بَعْضاً مَفْعُول الظُّلْمُ. الْقِصَاصُ مُبْتَدَأ، وخَبَره شَدِيدٌ، وهُنَاكَ مُتَعَلِّق بمحذُوف. حَالاً من الْقِصَاص. ومِمَّنْ مَضَىٰ مُتَعَلِّق بمحذُوف صِفَة لأَحَدٍ.

لاَ إِسْلاَم مَع ظُلم:

لا أَكشف جَدِيداً إذَا قُلت: كلّ القَوَانِين قَدِيمها، وحَدِيثها تُحرم الظُّلم، لِسبب واحد، وهو أنّ الْحَيَاة لا تَستقِيم، وتَستقر مَع الْبَغْي، والاِعتدَاء. أيضاً لا أُغالي إذَا قُلت: إنّ من يَتربص بعِباد الله شَرّاً، ثُمَّ الإِيمَان باللهِ فهُو كَاذب في دعُواه، وإنّ إِيمَانه مُجرد خِيال وصُورة، وهِيمة لا وَاقع لهَا ولا أَساس إلّا في ذَات صاحبها... وأي عَاقِل يُصدق من يَقُول له: أَنا مُحب مُخلص، وفي الوَقت نَفْسه يَفعل الأَفَاعِيل وعِياله؟.

أنا لَست من القَائلِين بأنّ من يَرتكب كَبِيرة فهُو كَافر، لأنّي لَستُ خَارِجياً، ولا من قَائلِين بأنّه في مَنْزِلَة بَيْنَ الْكُفْر، والإِيمَان، لأنّي لُست من الْمُعْتَزِلَة بل من الإِمَامِيَّة، ومَع هَذَا فإنّي أعتقد جَازماً بأنّ ظُلم الْعِبَاد بالخصُوص أفحش من الشِّرك والاِلحاد، وإنّ الظَّالِم كَافر باللهِ، والنّاس، ومُعتدٍ عَلَيْهِمْ، وأمّا من كُفر، ولَم يُعتد عَلىٰ أحد فهُو كَافر بالله فقط، ومن البَدَاهة أنّ الجَرِيمَة وَاحِدَة أيسر من اثنتين.

أمّا الدَّلِيل علىٰ ذَلِكَ فهُوَ أنّ الله سُبْحَانَهُ قَد ساوىٰ بَيْنَ الظَّالِم، والْكَافِر، ووصف

كلاً مِنهُمَا بالآخر قَال، عزَّ من قَائل: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[(١)].

وَقَالَ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(٢)] ومَعْنَىٰ الآيتين معطوفة أحداهُما عَلىٰ الثَّانِيَة أنّ كلّ كَافر ظَالِم، وكلّ ظَالم كَافر بآيَات الله، وإنْ اعترف بلِسَانه، والتَأويل يَفْتَقِر إلىٰ الدَّلِيل. وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «من أعَان ظَالماً، وهو يَعلم أنّه ظَالم فَقد بَرىء من الإِسْلاَم»[(٣)]. البَرَاء من الإِسْلاَم كُفر وإلحَاد، وإذَا كَان هَذَا حَال مَن أعَان فكَيْفَ بِحَال المُباشر، والفَاعل؟.

ومن تَتَبّع آي الذّكر الحَكِيم الّتي حَثت عَلىٰ قِتال ٱلْمُشْرِكِين وجِهَادهم ـ يَجد أنّ الكَثِير مِنْهَا يَحمل السَّبب المُوجب للقتال، وإنّه الرّدع عن الْبَغْي، والدّفاع عن ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وضمَان حُريتهم، وأقواتهم، لا لمُجرد الشّرك، والإلحَاد. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[(٤)]. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾[(٥)]. ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[(٦)]. وغَيْر ذَلِكَ كَثِير.

إنّ الأنْظمَة، والقَوَانِين بكَاملها تُحاسب، وتُعاقب المُعتدِين ـ كَمَا أشرنا ـ ولَكِنَّهُ

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٥٤.

(٢) ٱلْأَنْعَام: ٣٣.

(٣) أنظر، المُعْجَم الصَّغِير: ١/١٤٧ ح ٢٢٤، المُعْجَم الأوسط: ٣/٢١١ ح ٢٩٤٤، مُسْنَد الشَّامِيين: ١/١٦ ح ٦٣، المُعْجَم الكَبِير: ١/٢٢٧، فيض القدير: ٦/٧٢، ميزان الإعْتِدَال في نقد الرّجال: ٢/١٩٩ ح ٣١٧٥، لِسَان الميزان: ٣/٢٨ ح ٩٧.

(٤) ٱلنِّسَاء: ٧٥.

(٥) ٱلْحَجّ: ٣٩.

(٦) ٱلْبَقَرَة: ١٩١.

تَترك حُرِّيَّة الْعَقِيدَة للنّاس، ولا تَتعرض لأحدٍ بسوء من أجلِ عقيدته إنْ عَزَل شَرّه عن غَيْره، ولَم يَتعرض لعقيدة الآخرين... هَذَا، إلىٰ أنّ الدِّين اعتقاد، وتَصدِيق، ولا مَكان لهُ إلّا الْقَلْب، ولا سُلطان عَلىٰ أعماقه إلّا لخَالقه. وإذَا كَان الإكرَاه مُحالاً فالتّكلِيف بِهِ تَكلِيف بالمُحال، وإذَنْ فلا يَأمر الله بِهِ، وبالْقِتَال من أجلِه، وقُلنا فِي «التَّفْسِير الكَاشف»: أنّ الأَمْر بِالإِيمَان أمْر بوجُود أسبَابه الّتي بَيْنَهَا سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه من التَّفكِير فِي الأنفُس، وفِي خَلق ٱلسَّمَاوَات، والأَرْض، وإنّ النَّهي عن الْفِكْر نَهي عن تَرتِيب آثَاره، وإذَا وَجَبَ الْقِتَال عَلىٰ الْبَغْي دُونَ الْكُفر فمعنىٰ هَذَا أنّ جَرِيمَة الاِعْتدَاء أعْظم من جَرِيمَة الْكُفْر، والشّرك... أجل، من ظُلِم وهُو يَنطق بالشّهادتِين يُعامل مُعَامَلَة الْمُسْلِم فِي الدُّنْيَا من حَيْث الزّوَاج، والإرْث ونَحوه، وفِي الآخِرَة عَلَيْهِ مَا علىٰ ٱلْمُشْرِكِين، والمُلحدِين. وعن الإمَام الصَّادق عليه السلام: «مَا أَكْثَر مَن يَشهد لهُ الْمُؤْمِنُون بِالإِيمَان، ويَجري عَلَيْهِ أحْكَام الْمُؤْمِنِينَ، وهو عِند الله كَافر، وقَد أَصَابَ من أجرىٰ عَلَيْهِ أَحْكَام الإِيمَان بظاهر قَوْله وعَمله»[1].

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ):

١ ـ (الظُّلْمُ الَّذِي لا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ). قَال تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2]. وبَيْنَ هَذِه الآيَة الكَرِيمَة، وآيَة ٥٣ من سُورَة ٱلزُّمَرِ، وآية ٨٢ من سُورَة طَه ـ صِلة وثقىٰ

(١) اُنظر، أُصول الكَافِي: ٢/ ٤٠ ح ٨، شرح أصول الكَافِي: ٨/ ١١٧.
(٢) ٱلنِّسَاء: ٤٨.

بحَيث لا يَجُوز الأخذ بظاهر وَاحِدَة إطلاَقاً إلّا بَعد الجَمع بَيْنَ الثّلاث، وعَطف بَعْضهَا علىٰ بَعْض، ثُمّ آستخرَاج المَعْنَىٰ من الثّلاث، وتَقول آية: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُواْمِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١]. فَقَد دَلت هَذِه الآيَة أنّ الله يَغفر كلّ ذَنب حَتَّىٰ الشِّرك، سوَاء أتَاب المُشرك أم لَم يَتُب، ولكن آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ خَصَصت آية ٱلزُّمَرِ، وآستثنت المُشرك مِنْهَا، وتَقول آية طَه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٢] فخصصت هَذِه الآيَة قَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وآستثنت التَّائب مِنْهَا تَمَامًاً كمَا أخرجت هِي المُشرك من آيَة ٱلزُّمَرِ، وبكَلِمَة: إنّ آية ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ مُخَصِصة (بالكَسر) بالقِياس إلىٰ آيَة ٱلزُّمَرِ، ومُخَصَصَة (بالْفَتْح) بالقِياس إلىٰ آيَة طَه.

٢ ـ (وَظُلْمٌ لا يُتْرَكُ) وهُو ظُلم العِبَاد بَعضهم بَعضاً، وجزَاء الظَّالِم عِند الله غَداً عَذَاب الحَرِيق، ولَيْسَ من شكٍّ أنّه آلم وأوجع من ضَرب السِّياط، والسُّيُوف، وأثْبتنا فِي صَدر البَحْث أنّ الظَّالِم كَافر، ويُعذب بعذَابه.

٣ ـ (الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ) وهُو ظُلم الإنْسَان نَفْسه إمّا بِالشُّح عَلَيْهَا، والتَّقتِير مَع اليُسر، وإمّا بالإلمَام بذنُوب صِغَار «لا يَنفك عَنْهَا إنْسَان، ووقوع الصَّغِيرة مكفرة، ولا تَحتاج إلىٰ تَوْبَة» كمَا قَال صَاحب الجُواهر[٣]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ

(١) ٱلزُّمَر: ٥٣.

(٢) طَه: ٨٢.

(٣) أنظر، جواهر الكَلاَم: ٢٧/٤١.

كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[١]. وَقَالَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٢]. وَقَالَ النَّبِيّ الرَّحِيم: «إنْ تَغفر أَللَّهُمَّ تَغفر جَمّاً، وأي عَبدٍ لَك لا أَلمّا»[٣].

وللفُقهاء آراء مُتضاربة في تَحدِيد الذَّنب الْكَبِير، الصَّغِير. وفي رَأينا أنّ كلّ مُحرم لا ضَرر فيهِ عَلىٰ النَّفْس، ولا عَلىٰ الغَير فهُو من الصّغائِر كلِبس الحَرِير للرِجَال، والأكل، أو الشُّرب من آنِيَة الذَّهب، والفِضَّة، وتنَاول جُرعة من مُتنجس، والغنَاء غَيْر الخَلِيع بناءً عَلىٰ تَحرِيمه، وسَقاطات اللِّسَان، بل، والزَّهُو، والغُرُورُ، كلّ ذَلِكَ بشرط عَدم الإضرَار، كَما أشرنا.

الْوحْدَة الْوَطَنِيَة:

(فَإِيَّاكُمْ وَ التَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ). وكَلِمَة التَّلوُّن فِي الدِّين تُومىء إِلىٰ النِّفَاق بإخْفَاء الْكُفْر، وإظهَار الْإِيمَان ولكن الْمُرَاد بِها هُنا الفُرقَة، وشتَات الكَلِمَة، لأنّ الخِلاَف والصِّراع لا يَستدعِي إخفَاء البُغض، والكرَاهِية، وإظهَار الوّد، والْمَحبّة، وهُو لُون من النِّفَاق (فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ). يُشِير بهَذا إِلىٰ مَا يُسمىٰ الْيَوْم بالْوحْدَة الْوَطَنِيَة، أو الْقَوْميّة، أو بالجَبهَة

---

(١) ٱلنَّجم: ٣٢.

(٢) ٱلنِّسَاء: ٣١.

(٣) أنظر، سُنن التِّرمِذي: ٥/٧١ ح ٣٣٣٨، كشف القناع: ٦/٥٣٠، الجوهر النَّقي للماردِيني: ١٠/١٨٥، الْمُغني لِابْن قُدَامَة: ١٢/٣٢، مُسْتدرَك الحَاكِم: ١/٥٤، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٠/١٨٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٧/١١٥، الجَامِع الْصَّغِير: ١/٤٠٨ ح ٢٦٦٢، فيض القدِير: ٣/٣٨ ح ٢٦٦٢.

الدَّاخلِية ، والمَعْنَىٰ أنّ وحدَة الصُّفُوف ، ودَفن الخِلافَات مَـهما تَـنوعت ، وتـعَاون الجَميع بلا آعتبَار لدِينٍ ، أو لَونٍ لتحقِيق الهَدف المُشترك هو سَبِيل التَّقدم ، ومِفْتَاح النَّصر عَلىٰ الْعَدُوّ الخَارجي ، وإذَا كَانَ للخِلاَفات في وِجـهَة النَّـظر حَـوْلَ بَـعْض القضَايا ، إذَا كَان لهَا مَا يُبررها فِي الظّرُوف العَادِية فَلِيْسَ لهَا أي مُبرر فِي ظـرُوف مواجهَة الْعُدْوَان ، أو أية مَصلحة من المصَالح الكُـبْرَىٰ ، بـل هِـي ضَرر مَحـض لا يَستفِيد مِنْهَا إلّا مَن يَتربص بالوَطن شَرّاً ، والوَطن للجَميع لا لِفِئَة دُونَ فِئَة . وقَد رأينا الدّول ، والشّعُوب تَتعاون وتَعقد الأحلاف لحَلّ مِشكلاتها المُشتركة عَلىٰ ما بَيْنَهَا من تَباعُد ، وتَبايُن في اللُّغة ، والدِّين ، والتُّراث ، والنّظام ، فكَيْفَ بأبْنَاء الوَطن الوَاحد ، والدِّين الوَاحد ، واللُّغَة الوَاحِدَة ؟ .

(وَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَىٰ ، وَ لاَ مِمَّنْ بَقِيَ) . أَبَداً مَا مِن قَوْم من الأُمم الخَالية ، أو البَاقِية أنْجزُوا شَيْئاً يَعُود عَلَيْهِمْ بالنَّفع ، وهُم شَتَّىٰ قُلوباً وأهدَافاً ، يَسِيرُون ، ولكن بِلا هَدف مُوحد ، ويَتحركُون ، ولكن بِلا قَاسم مُشترك .

(طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ) . الخَيْر كلّ الخَيْر لمِن نَظر إلىٰ نَفْسِهِ ، وذَاتِهِ ، وآنتقدهَا فِي ضوء مِيُولها ، وأهوائها ، وكَفّ لِسَانه عن أذىٰ النّاس ، والبَحْث عن عيُوبهم ، وذنُوبهم . وتَقَدَّم مثلهُ[1] (وَ طُوبَىٰ لِمَنْ لَزِمَ بَـيْتَهُ) مَـع عَـجزه عـن الإصلاح ، ولَم يُجدِ أمْرَه بمعروفٍ ، ولا نَهي مِنْهُ عن مُنكر (وَأَكَلَ قُوتَهُ) بِكَد اليَمِين وعَرق الجَبِين (وَ آشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ) لا بطَاعة مَن يَدفع ثَمن الذّمم ، والضَّمَائر (وَبَكَىٰ عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ) نَادِماً عَلىٰ تَقصِيره ، وإهمَاله (فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ) عَن الحَرَام

---

(١) أنظر ، شَرح الخُطبَة : (١٣٩) . (مِنهُ ﷺ) .

والقِيل، والقَال (وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ). وشرّ النّاس مَن تَخَاف النّاس من شرّه، وَقَالَ الرَّسُول الأَعْظَمﷺ، لأَبِي ذَرّ: «كُفَّ أذَاكَ عن النّاس، فإنَّه صَدقة تَتصدَق بِها عَلىٰ نَفْسَكَ»[١]. فَسلب الشّرّ عِند الله سُبْحَانَهُ إيجَاب للخَير يُثاب عَلَيْهِ.

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٥/١٥٠، كنز العُمّال: ١٥/٩٥٠ ح ٤٣٦٥١، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٩/٢٨٨، نوادر الرّاوندي: ٣.

الخطبة

-١٧٧-

مَهْزَلَة الحَكَمَيْن:

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ أَنِ ٱخْتَارُوا رَجُلَيْنِ: فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَ لاَ يُجَاوِزَاهُ، وَ تَكُونُ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ، وَ قُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَ تَرَكَا الْحَقَّ، وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَ الاِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا. وَ قَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ. وَ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَ جَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَ الثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَ أَتَيَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

اللُّغَة:

أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ: أنْ يُقِيما عِنْدَه، ويَحْبِسَا نَفسَيهِما عليهِ، كما فَسرَهُ الإمَام بقَوْله: «وَ لاَ يُجَاوِزَاهُ» والْمُراد بالثِّقَة هُنا الحُجّة. ومَعْكُوسِ الحُكْمِ: عَكس الحَقّ وضدّه.

الإِعْرَاب:

وَهُمَا الوَاو للحَال، وٱسْتِثْنَاؤُنَا فَاعِل سَبق، وسُوءَ رَأْيِهِمَا مَفْعُول.

الْمَعْنَىٰ:

يُشِير الْإِمَام إِلىٰ مَهْزَلة الحَكَمَيْن، وتَقَدَّم مثلهُ[1]. وشَرحنَاه بِمَا لا مَزِيد لدِينَا، وأشرنا إِلىٰ قِصَّة الحَكَمَيْن فِي العَدِيد من المُنَاسبات، ومُجمل الْقَوْل فِي هَذَه المَهْزَلة أنّ مُعَاوِيَة حِين أَيقنَ بالخسَارَة، والهَزِيمة في صِفّين، ٱلتجأ إِلىٰ الحِيلةِ، والخِدَاع يَرفع ٱلْمَصَاحِف، فحذَّر الْإِمَام أَصْحَابَه، وَقَالَ لَهُم: أَنَّهَا حِيلةً، وغِيلة، وإِنّ الْقُرْآن مَعِي مَا فَارقته مُنذ صُحبته، فنَابذُوه وأصرُّوا علىٰ التَّحكِيم، فقَال: لَو يُطاع لقَصِير أمْر.

وٱخْتَار مُعَاوِيَة حَكَمَاً، وٱخْتَار الْإِمَام ٱبن عبّاس لمُقابلته، فأبىٰ أَصْحَابه إِلّا الْأَشْعَرِيّ، فأخذ الإِمَام عَلىٰ الحَكَمَيْن أنْ يَعملا بالْقُرْآن، وإِلّا فلا حُكم لهُما، فخَالفاه جِهاراً!.. فمن هو المُؤول؟. الإِمَام الَّذي نَصحَ، وأنذَر من شرّ التَّحْكِيم وعُواقبه، أم الَّذِين رَفضُوا النَّصِيحة، والإِنْذَار؟.

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٣٥ و ٣٦ و ١٢١ و ١٢٧). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٧٨-

الله، وَمُحَمّد....فِقْرَة ١:

لاٰ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَ لاٰ يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَ لاٰ يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَ لاٰ يَصِفُهُ لِسَانٌ. لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَ لاٰ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَ لاٰ سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَ لاٰ دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَىٰ الصَّفَا، وَ لاٰ مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَ خَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ. وَ أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ إِلاّٰ اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَ لاٰ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَ لاٰ مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَ لاٰ مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَ صَفَتْ دِخْلَتُهُ، وَ خَلَصَ يَقِينُهُ، وَ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ الْمُجْتَبَىٰ مِنْ خَلاَئِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَ الْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَ الْمُصْطَفَىٰ لِكَرَائِمِ رِسَالاٰتِهِ، وَ الْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَىٰ، وَ الْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَىٰ[1].

اللُّغَة:

لاٰ يَعْزُبُ: لا يُغيب، ولا يَخْفىٰ. وسَوَافِي: جَمع سَافِية مِن سَفّت الرِّيح التُّراب إذَا أذْرَته. والدَّبِيبُ: الشّيء البَطيء. والمَقِيلُ: الاِسْتِرَاحة وإنْ لَم يَكُن نَوم. والطَّرْفِ: ـ

بسكون الرّاء ـ الحَركة، وطَرْفِ الْعَيْن: تَحريك جَفْنَيْها. الأَحْدَاقِ: الْعُيُون. وتَكْوِينُهُ: خَلْقه. ودِخْلَتُهُ: ـ بكسر الدّال وضمها ـ بَاطنه. الْمُعْتَامُ: الْمُخْتَار. والعَقَائِلِ: الكرَائِم، والعَقِيلة من ٱلنِّسَاء الْمُخَدرَة. وأَشْرَاطُ: عَلاَمَات. والغِرْبِيبُ: الأَسْوَد الحَالِك، والْمُرَاد بغِرْبِيبُ الْعَمَىٰ الضَّلاَل.

الإِعْرَاب:

غَيْرَ مَعْدُولٍ حَال من كَلِمَة الْجَلاَلَة، وأَشْرَاطُ نَائب فَاعِل لِلْمُوَضَّحَةُ، وغِرْبِيبُ نَائب فَاعِل لِلْمَجْلُوُّ بِهِ.

الْمَعْنَىٰ:

(لاَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ). إنّ قُدرته وعِلمهُ تَعَالىٰ يَسْعَان كلّ شَيء تَمَاماً كَرحمته، ونَسْبَة الْأَشْيَاء إِلَيْهِ واحدة، فلا قَرِيبٍ وبَعِيد، وخَطِير وحَقِير، وإِذَنْ فَلا يَصح الْقَوْل فِي حقّه تَعَالىٰ: إنّه يَشغل عَن هَذَا دُونَ ذَلِكَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[1]. (وَ لاَ يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ) لأنّه وَاجب الوجُود لا قَبل له، ولا بَعد (وَ لاَ يَحْوِيهِ مَكَانٌ) لأنّه لَيْسَ بِجِسْمٍ (وَ لاَ يَصِفُهُ لِسَانٌ) للجَهلِ بذَاته الّتي لا يُشبهها شَيء، ولا يُشاركهَا شيء في المَاهِية، والصِّفَات، وإثبَاتُ وجُودها بالخَلقِ، والآثَار لا يَستعدي العِلْم بحَقِيقَتها، فنحنُ نَعرف أنّ «أَدِيسُون» كَان مُوجِداً للكهرُباء، ولا نَعرف عَن نَسْبَه شَيْئَاً (لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَ لاَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَ لاَ سَوَافِي

(١) غَافِر: ٧.

الرِّيحِ ... إلخ) يُشِير إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] .

(غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ) لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (وَ لاٰ مَشْكُوكٍ فِيهِ) كَيْفَ وفِي كـلّ شَيء لهُ آية ؟ (وَ لاٰ مَكْفُورٍ دِينُهُ) ومن كَفَر فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (وَ لاٰ مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ) لأنّ الكَوْن الَّذي خَلقه تَعَالىٰ ثَابت بالحِس ، والعَيان (شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِـيَّتُهُ ، وَ صَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَ خَلَصَ يَقِينُهُ ، وَ ثَقُلَتْ مَوَازِيـنُهُ ... إلخ) أي يُـوافـق فِـيها السّر الإعْلاَن ، والْقَلْب اللّسَان كَمَا جَـاء في اَلْخُـطْبَة (١٠١) (وَ رَسُـولُهُ الْـمُجْتَبىٰ مِـنْ خَلاَئِقِهِ) اَصْطَفىٰ سُبْحَانَهُ مُحَمّداًﷺ لأنّه خِيرة الخَلق أجْمَـعِين (وَالْـمُعْتَامُ لِشَـرْحِ حَقَائِقِهِ) الُمخْتَار لِبَيان الحقَائِق الإلهية (وَ الْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ) وَهِي الفضَائِل ، والمنَاقب (وَ الْمُصْطَفَىٰ لِكَرَائِمِ رِسَالاٰتِهِ) اَخْتَاره الله بَلاَغاً لِـرِسَالاته الكَـرِيمَة (وَ الْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَىٰ) بِرَسُول الله عَرفت دلاَئِل الْحَقّ ، والْعَدْل (وَ الْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَىٰ) بِهِ اَنكشفت الظُّلمات ، واَهتدت الأجيَال إِلىٰ اَلسَّبِيلِ .

الدُّنْيَا...فِقْرَة ٢:

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا ، وَ الْمُخْلِدَ إِلَيْهَا ، وَ لاٰ تَنْفَسُ بِمَنْ نَـافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا . وَ اَيْمُ اللهِ ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَـيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاّ بِذُنُوبٍ اَجْتَرَحُوهَا ، لأَنَّ اللهَ لَيْسَ ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] وَ لَوْ أَنَّ النَّاسَ

(١) الأَنْعَامِ : ٥٩.
(٢) آلِ عِمْرَانَ : ١٨٢.

حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَ تَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَ وَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَ أَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَ إِنِّي لأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ. وَ قَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَ لَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ. وَ مَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ، وَ لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ[٢]!

اللُّغَة:

أخْلَدَ إِلىٰ الشَّيء: مَال إِلَيْهِ، ورَكن. ونَفِسَ بِهِ، بكسر الفَاء ـ بَخُل بِهِ، وحَرَص عَلَيْهِ، ونَافَسَ فِيهِ: بَارىٰ، وزَايد. اَجْتَرَحُوهَا: اَقْتَرَفُوهَا واَرْتكبُوهَا.

الإِعْرَاب:

تُستعمل قَطُّ بِمَعْنَىٰ حَسْب مثل قَطيّ، وقَطك، أي حَسْبِي، وحَسْبك، واَسم فعل مثل قَطْنِي أي يَكفِينِي، وقطُّ ظَرف زَمان لاِستغراق المَاضي، وتَختص بالنَّفي، مثل ما فَعلته قَطّ أي فِيما مضىٰ، وجُملة فَزِعُوا خَبَرَ أَنَّ النَّاس، ولَرَدَّ عَلَيْهِمْ جُواب لَوْ.

المَعْنَىٰ:

(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا، وَ الْمُخْلِدَ إِلَيْهَا). قَد يَغْتَرُّ الْمَرْء، ويَركن إِلىٰ جَاهه ومَاله، أو إِلىٰ عَلمه وذكَائه، ويَظن أنّه فِي غِنىً بِذَلِكَ عن كلّ شيء! وهَذَا هو الْجَهْل، والغبَاء، فإِنَّ الدُّنْيا كالسَرَاب يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْئَانُ مَآءً، ولا يَركن إِلَيْهَا من

عَرف أمرَهَا، وغُورَهَا (وَ لاَ تَنْفَسْ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا) أحرِص عَلىٰ الدُّنْيَا مَا شِئت، أمّا هِي فلا تهتم بِكَ عَلىٰ الإطلاَق (وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَـلَيْهَا) لا تـفرحْ إذَا فُـزْت بِمنصبٍ، أو رِبحِ فيهِ مَن نَافَسَ، فرُبَّمَا دَارت عَلَيْكَ الدّوائِر، وشَمُتَ بِكَ من شَفِيتَ غِيظك منهُ بالأمْس.

(وَ ايْمُ اللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَـيْشٍ فَـزَالَ عَـنْهُمْ إلاَّ بِـذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا). ظنّ بَعْض الشّارحِين أنّ الإمَام يَتكَلّم هُنا عَن كلِّ ذِي نِعْمَة فَرداً كَان أم جَمَاعَة، وإنّ النِّعْمَة تَزول بالذّنُوب أيّاً كَانَ نَوْعها[1]! . وأوقعهم هَـذَا الظّـن فِي إشْكَال، وهو أنّ كَثِيراً مِن النّاس يَغرقُون فِي التّرفِ، والخَطَايا مَعاً، ومَع هَذَا تَنمُو ثَرُوتهم، وتَزدَاد.. وأجَاب عن هَذَا الإشْكَال من أجَاب بأنّ كَلاَم الإمَام مَحـمُول عَلىٰ الأغْلب لا عَلىٰ العمُوم، أو أنّ الله إذَا أنْعَم من جِهة أنتقم من جِهة ثَانِيَة.

والأرْجَح أنّ الإمَام يَتكَلّم عن الجَمَاعَة دُونَ الأفرَاد، كمَا هو الظّاهِر من كَـلِمَة «قَوْمٌ» وإنّ مُرَاده من النِّعْمَة الحيَاة الكَرِيمَة بالخصُوص، ومـن الذّنُـوب الفُـرْقَة، والشّتَات، وعَلَيْهِ يَكُون المَعْنَىٰ: إنّ أي قَوْم أنْعَم الله عَلَيْهِمْ بدُولة كَرِيمَة تصُونهم من الإعْتدَاء، وتُحقّق لهُم الطّمأنِينَة، والاِستقرَار، ثُمّ تَشاحنُوا، وتبَاغضُوا ـ تَزول عَنهم هَذِه النِّعْمَة، ويُصبحُون لُقمَة سَائغة لكلِّ طَامع.. وتَفْسِيرنا هَذَا يَتفق مَع الوَاقـع، ومَـع قَـوْله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2]. وصَرح الإمَـام بِـذَلِكَ لأصْحَابه: «شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ... يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَـوْمٌ قَـطُّ فِي عُـقْرِ

---

(١) أنظر، شِرح نَهج البَلاَغة لِمُحَمّد عَبْدَه: ٢/ ٩٨، شِرح نَهج البَلاَغَة لِابْن أبِي الحَدِيد: ١٠/ ٦١.

(٢) الأنفَال: ٤٦.

دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا...[١]، بِٱجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ...، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ»[٢].

(وَ لَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ). إذا مَرَّ بِالْمُؤْمِن لحظَات مِن المَخاوف يَلجأ إِلىٰ الله، ويَطلب مِنْهُ العَون، والفَرج، والله يَسمع، ويُجيب دَعْوَة الدَّاعي شَرِيطة أنْ يَستجِيب هُو بدُوره إِلىٰ الله كما جَاء في الآيَة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾[٣]. ولَيْسَت الإِسْتجَابة لهُ تَعالىٰ بِالْكَلِمَات، والإبتهالات، ولا بِمجرد الصّوم، والصَّلاةِ، بل بالْعَمَل، والأَخذ بأسبَابه سُبْحَانَهُ، وسُنَّنه فِي جَمِيع خَلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٤]. أَبَداً لا تَبْدِيل، ولا تَحْوِيل فِي سُنَّنه، جَلت حِكمته، وَهِي أنّ لكلّ شيء سَبباً طَبِيعياً كَانَ، أم اِجْتَمَاعِياً، والبطَالة لَيْسَت بِسبب لشيء من الأَشْيَاء وٱلْهَمّ، وٱلْغَمّ، والتَخلُّف، والإِنْحِطَاط: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٥]. وَقَالَ الإِمَام: «مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ٱبْتُلِيَ بِالْهَمِّ، وَلَا حَاجَةَ للهِ فِيمَنْ لَيْسَ للهِ فِي مَالِهِ، وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ»[٦].
وَقَالَ الْإِمَام: «الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ»[٧].

(وَ إِنِّي لَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ) مِن الإِسْتقرَار يَعقُبها خَوْف وٱضْطِرَاب (وَ قَدْكَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٧).
(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٥).
(٣) ٱلْبَقَرة: ١٨٦.
(٤) فَاطِر: ٤٣.
(٥) ٱلشُّورَىٰ: ٣٠.
(٦) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٢٧).
(٧) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٣٧).

مَحْمُودِينَ) . مَا صَرح الْإِمَام بِتلك الْأُمُور ، ولا دَلِيل عَلَيْهَا من غَيْره ، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين : يُشِير الإِمَام بالْأُمُور إِلىٰ تَقدِيم عُثْمَانَ يَوْم ٱلشُّورَىٰ ، وَقَالَ آخر : يُشِير إِلىٰ مَا سَبق ٱلشُّورَىٰ ! .. وكلا الْقَوْلِين حَدس بلا أساس ... وأية عُلاقة للمُخلِيصِين بِٱلشُّورَىٰ والسَّقِيفَة ، ويَكفِي لصحَة الخِطَاب أنْ يكُون المُخاطب عَلىٰ عِلم بمُراد المُتكَلِّم[1] .

(وَ لَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ) من جَمع صفُوف ، ووَحْدَة الكَلِمَة (إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ) بحَيَاة الاِسْتقرَار ، وحَقن الدِّمَاء (وَ لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ) مَا حَدث مِنْكُم ، وأَسْكُت عَنْهَا لا عَن نِسْيَان ، بل (عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ) . والْعَفُو أقرَب لِلتَّقْوَىٰ . وَقَالَ فِي مَكان آخر : «مَتَىٰ أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ ؟ أَ حِينَ أَعْجِزُ عَنِ الاِنْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي : لَوْ صَبَرْتَ ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي : لَوْ عَفَوْتَ ؟ »[2] .

---

(١) أُنظر ، الشّافي : ٣/٢٢٧ ، العِقد الفريد : ٤/١٥٧ الطّبعة الثّالثة .

(٢) أُنظر ، نَهج ٱلبَلاغَة : ٱلحِكْمَة (١٩٤).

الخطبة

-١٧٩-

مِنْ صِفَاته تَعَالىٰ:

لا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَ لَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لا بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لا بِجَارِحَةٍ لَطِيفٌ لا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ رَحِيمٌ، لا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ. تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَ تَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

اللُّغَة:

الهِمَّة: الاهْتِمَام، وشدّة العِنَاية جَلباً لنَفعٍ أو دفعاً لضررٍ. والجَارِحَة: العُضْو. واللَّطِيف: غَيْر المَحسُوس. وتَعْنُو: تَخْضَع. وتَجِبُ: تَضْطَرِب.

الإِعْرَاب:

لا تُدْرِكُهُ الضَّمِير لله سُبْحَانَهُ. وقَرِيبٌ ومَا بَعدَه من الأوصَاف أخْبَار لمُبْتَدَأ

مَحذُوف أي هُو ، وغَيْرَ حَال .

الْمَعْنَىٰ:

قَال قَائل للإِمَامِ عليه السلام : «هَل رَأيْتَ رَبّك ؟ فـقَال لهُ : أفْأعْـبُد مَـا لاَ أَرَىٰ : قَـالَ السَّائِل : وكَيْفَ تَرَاهُ ؟ قَال الإمَام : (لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ) . الْمَعْرِفَة عَلىٰ أنوَاع : مِنْهَا : حِسِّيَّة ، وتَـقُوم عَـلىٰ مَـوْضُوعَات مـن مَـرئيات ، ومَسـمُوعات ، ورُوائح ، ومذَاقَات ، ومَلمُوسات وهَذِه كلّها مَادية ، والله مُنَزَّه عن المَـادِية ، وإذَنْ فالطَّرِيق إلىٰ مَعرفة وجُوده لا يَقف عِند الحسّ وَحده .

ومِنْهَا : عَقْلِيَة ، وَهِي أنْ يَنتقل بِنا الْعَقْل مِـن مَـعلومٍ إلىٰ مَجـهُولٍ ، مِـن شَـاهِدٍ مَحسوس إلىٰ وَاقعةٍ تَترتب عَلَيْهِ ، ولا تَنكف عنهُ بحَال ، من شَاهِدٍ إلىٰ غَائبٍ ، مَهما شِئت فَعبِّر . وقَد شَاهدنا الكَوْن بقَوَانِينه الثَّابته الْعَامَّة الشَّـاملة لكـلِّ رُكـن مـن أرْكَانه ، شَاهدنا ذَلِكَ بالحِسّ ، فاَنتقَل الْعَقْل بِنا إلىٰ وجُود سُلطة خَالِقة مُدبرة تَمَاماً كمَا اَنتقَل عَقْل «نِيُوتن» مِن مُشاهدة التُّفاحة تَسقط من الشَّـجَرَة عَـلىٰ الأَرْضِ ـ اَنتقَل من ذَلِكَ إلىٰ حَقِيقَة قَانون الجَاذِبية ، واَمتلأَ قَلبه إيمَاناً بهذه الحَقِيقَة ، وقَلّده كلّ الْعُلَمَاء ثِقّة بصِدقه .

لقد رَأت الْعُيُون الخَلق ، وحَكَم الْعَقْل ، وجَزم بوجُود الْخَالِق ، واَعتقد الـقَلْب وآمن . وهَذَا ما عَناه الإمَام بقَوْله : (وَ لَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيـمَانِ) . أي آمن الْقَلْب حقّاً واقعاً لأنّه رَأىٰ بعَين الحِسّ ، والْعَقْل (قَـرِيبٌ مِـنَ الأَشْـيَاءِ غَـيْرَ مُلَابِسٍ ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ) هُو قَرِيب من الأَشْيَاء ، لأَنَّهَا فِي قَـبضته ، وعِـلمه وتَدبِيره ، وهُو غَيْر مُلاَمِسٍ ، لأنّه لَيْس بجِسْم فَيُلمَس ، وهُو بَعيد عن الأَشْيَاء بذَاته

وصِّفَاته، وآثاره، وتَقَدَّم مع الشَّرح[١].

(مُتَكَلِّمٌ لا بِرَوِيَّةٍ) وجُولة فِكرٍ فِي مَعْنَىٰ الكَلاَم، وإنشَائه، بل يَخلق الكَلاَم كـمَا يَخلق الأَعْيَان، لإفْهَام قَصده، ومُراده، وبِيَان أمْرِه، ونَهيه (مُرِيدٌ لا بِهِمَّةٍ). إذَا أرَاد الإِنْسَان شَيْئَاً فَلا يوجد هَذَا الشّيء بمُجرد أنْ يُرِيد، بل لا بُدّ من الاِهتمام بالأَسْبَاب المُوجِبَة، والسَّعي، والْعَمَل، ومَع هَذَا الاِهتمام، والسَّـعي قَـد يُـوجِد المُـرَاد وقَـد تَعترض طرِيقة الصّعُوبات، والْعَرَاقِيل... هَـذَا بـالنّسبة إِلىٰ المَخـلوق، أمّـا إِرَادَة الخَالِق فَهِيَ لا تَنفك عن المُرَاد، ويُوجد بمُجرد وجُودها بل هِي هو «مَـا شَـاءَ اللهُ كَان، ومَا لَمْ يَشأ لَم يَكُن»[٢]. وبِكَلِمة: مُراد الإِنْسَان إمْكَان، ومُرَادة تَعَالىٰ وجُوب أي بلا سَبب إلّا الإِرَادَة وحدَها.. هَذَا، إِلىٰ أنّ الإِنْسَان يَعلم بِالمَصْلحَةِ فيُرِيد، ثُمّ يُصمم ويَعزم فِي قَلبه عَلىٰ الفِعْل بجَوَارِحه. وأيـن هَـذَا مِمَّـنْ يَـقُول للـشّيء كُـن فيكُون!.

(صَانِعٌ لا بِجَارِحَةٍ) أي عُضو، بل بكلمة «كُن». (لَطِيفٌ لا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ). المُرَاد باللَّطِيف هُنا غَيْر المَحسوس. ولِكَيلا يَقُول قَائل: «إِنّ الجِسم الَّذي بَلغ مـن الصِّغر هو أيضاً خَفِي لا يُحس، وعَلَيْهِ يكُون لله شَبيه، ونَظِير من هَذِه الجِهة ـ قَال الإِمَام: (لا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ) أي آحتجب الـصَّغِير عَـن الـعُيُون لصِـغَرِهِ ودقـتِه، ورِقته، واللهُ سُبْحَانَهُ آحتجب عَنْهَا، لأَنّه لَيْس بِجسم، ومَع هَذَا فهُو ظاهر بخَلقه، وآثاره (كَبِيرٌ لا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ). أنّه تَعَالىٰ كَبِير وأكـبر ذَاتاً ووصـفَاً وأثـراً، لا

(١) أنظر، شرح آلخُطبَة: (٤٩). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، الإِقْتِصَاد للشّيخ الطّوسي: ٥٣، بـدائـع الصـنائع: ١٥٧/٣، الكَـافِي: ٥٧٢/٢ و: ٨٢/٨، كشـف القناع: ٣٥٩/٥، الخِصَال: ٦٣١، البحر الرّائق: ٤٥٠/١، مصباح المتهجد: ٥٧.

غِلظة، وجَفَاء (بَصِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ) أي بالْعَيْن بل بالعِلم (رَحِيمٌ، لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ) بل بِالْإِحْسَانِ، والإفضَال، والرّقة، إنْفعَال وتأثر، والله مُنَزَّه عنهُ (تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَ تَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ). كلّ الخَلق خَاضع لعَظَمَتِهِ، وخَائِف من سطوتهِ.

الخطبة

-١٨٠-

أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ مِنْ أَمْرٍ، وَ قَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَ عَلَىٰ ٱبْتِلاٰئِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَ إِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَ إِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ. وَ إِنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَ إِنْ أُجِئْتُمْ إِلَىٰ مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لاٰ أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَ الْجِهَادِ عَلَىٰ حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَومِي- وَ لَيَأْتِيَنِّي -لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَ بَيْنِكُمْ وَ أَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَ بِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ[1]. للهِ أَنْتُمْ! أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَ لاٰ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَ وَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَعُونَةٍ، وَ لاٰ عَطَاءٍ، وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ ـ وَ أَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلاٰمِ، وَ بَقِيَّةُ النَّاسِ ـ إِلَىٰ الْمَعُونَةِ، أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَ تَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لاٰ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَ لاٰ سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَ إِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاٰقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَ فَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَ عَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَ سَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَىٰ يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَ أَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةَ! وَ مُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ[2]!

اللُّغَة:

أُمْهِلْتُمْ: أُرفق بِكُمْ. وخُضْتُمْ: فِي الْبَاطِلِ. وخُرْتُمْ: ضَعفتُم، وَجبُنْتُم. وأُجِـئْتُمْ: أُلجِئْتُمْ، أوجِىء بِكُم. والمُشَاقَّة ـ بضم الميم ـ المُخَاصمَة، والْمرَاد بها هُـنا الحَـرْب، ونَكَصْتُمْ: رَجَعْتُم القَهْقَرىٰ، أو أحْجَمْتُمْ. وقَالٍ: كَارِهٍ. وتَشْحَذُكُمْ: تحَرُكُكُم، مِن شَحَذَ السِّكِين إذاَ سَنّها، وحدَدها. وتَرِيكَةُ الإِسْلاَمِ: خَلف لمِن جَـاهد فِي سَـبِيل الإِسْلاَمِ. وَفَاتحُتُكُمُ: حَاكَمْتُكُم، وقَاضِيْتُكُم.

الإِعْرَاب:

لاَ أَبَا «لاَ» نَافِية للجنس، وأَبَ اسمها، ولمّا أُشبعت فَتحة البَـاء صَـارت ألفاً، ولِغَيْرِكُمْ خَبَر. وَبِكُمْ مُتعَلِّق بكَثِيرٍ، وغَيْرُ خَبَر لمُبْتَدَأ محَذُوف أي وأنا غَـيْرُ كَـثِيرٍ بِكُمْ، أمّا حَرف طَلب وتحَضِيض مثل إلاّ علَىٰ مَذْهَب «المَالقي الأُنـدلسي» ودِيـنٌ فَاعِل لِفعل محَذُوف أي أَ مَا يجَمْعُكُمْ دِينٌ، ويجُوز أنْ يَكُون دِينٌ مُـبْتَدَأ، والخَـبَر محَذُوف أي أَ مَا لَكُم دِينٌ يجَمْعُكُمْ، والجُملة من هَذَا الفِعْل، والفَاعِل صِفَة لدِينٌ، وأَقْرِبْ بِقَوْمٍ اللّفظ لفظ الأَمْر، والمَعْنَىٰ خَبَر مَع التَّعجُب، والبَاء زَائِدَة، وقَوْمٍ فَاعِل أَقْرِبْ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ مِنْ أَمْرٍ، وَ قَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَ عَلَىٰ ٱبْـتِلاَئِي بِكُـمْ أَيَّـتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَ إِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ). كَانَتْ مُهِمَة الإِمَامِعليه السلام مَـع أَصْحَابه عَسِيرة أَشدّ العُسر، أَرَادهُم للدّفَاع عَن أَنْفسهِم، وعَن الإِسْـلاَم الَّـذي

بَدأت شَمسَه تَمِيل إلىٰ الغُرُوب.. فآثرُوا حيَاة الدَّعَة مع الذّل، والهُوان عَلىٰ الكَرَامَة مع الجِهَاد، فشكىٰ الإِمَام، وتَألَم، وحَذّرهُم من سُوء العَاقِبَة، وقَرّعهم في العَـدِيد مِن خُطبهِ وأَقْوَاله.. ولكن بلا جدوىٰ حَتّىٰ كأنّه كَان يَطلب النَّصر مِنْهُم لِمَصْلحته، لا لمَصْلحَة الإِسْلاَم، والْمُسْلِمِينَ، فصَبرَ عَلىٰ الخَطْب، بل حَمد الله عَلَيْهِ تَمَاماً كَـمَا يَحْمَدَهُ عَلىٰ السَّراء.

(إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَ إِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ. وَ إِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَ إِنْ أُجِئْتُمْ إِلَىٰ مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ). الخِطَاب للرُّؤسَاء، وأَصْحَاب النّـفُوذ، والمَـعْنَىٰ لا أدرِي مَاذا يُصْلحكُم؟. إنْ تَلطفتُ بِكُم وأرفقت تَمَادَيْتُمْ فِي البَاطِلِ، وإِنْ ألجَئْتُكُمْ إِلىٰ الحَـرْب تَخَـاذلتُم، وضَـعفتُم، وإِنْ رَأيـتُم قـلُوب اَلْمُسْلِمِينَ مَـعي شَـاغَبْتُم، وتآمَرتُم... (لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ). تَسْتَعمَل العَرَب هَذِه الكَلمَة عِـند المَسألة والطّـلب، وَهِي تُوميء إِلىٰ الدُّعاء بفقد الأب، أو التَّعيير بجَـهله، ولكـن الإِمَـام تَـلطف في الأُسلوب حَيْث وجَه الدُّعاء، أو الذَّم إِلىٰ غَيْرهم في الظَّاهِر، وهُم القَصْد حقِيقَةً، ووَاقعاً.

(مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَ الْجِهَادِ عَلَىٰ حَقِّكُمْ؟). الْعَدُوّ يَسْتَفزّكُم، ويَـتَغلغَل فِي أرْضُكُم، ويَعتدِي عَلىٰ كَرَامتكُم، وأَنْتُمْ لا تُحركُون هَل تَنتظرُون قُـوَّة تَـنزل مـن السَّماء لِنصرتكُم، أو قُوَّة أجْنبِية تَأتِي من أقصىٰ المَعمُورة تُدافع عنكُم؟ (الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟). أَبَداً لا شَيء يُلِيق بكُم إلاّ واحد من اَثْنَيْن: الذُّل، والهَوَان مَا دُمـتُم علىٰ هَذِه الحَال، أوالْمَوْت يُفنِيكُم عن آخركم، فهُو خَـيْرٌ لكُـم وَللإِنْسَـانِية مِـن حيَاتكُم. قَال اَبن أَبِي اَلْحَدِيد: «هَذَا دُعَاء من الإِمَام عَلَيْهِمْ... وقَد اَستجاب الله

دُعاءه، فإنّ شِيعته أَيَّام الأُمَويين ذلّوا كَفَقع قرقر»[١]. والفَقع أو الفُقاقِيع نُفَاخات تَعلو المَاء، وأراد بالقَرقَر -كما نظن- لُعاب الجَمَل حِين يهدر، ويُجرجر.

(فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَومِي -وَ لَيَأْتِيَنِّي- لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَ بَيْنِكُمْ وَ أَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَ بِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ). سأفارقكم بالمَوت لا محالَة، ولكن عَن بُغضٍ وكَراهِيَة لكُم ولصُحبتكُم، لأنّي ما كُنت بكُم قوياً عَلىٰ البَاطِلِ، وأهْله... ومن أجل هَذا نَطق الإمَام بكَلمة السُّرور، والفَرحة حِين ضَربه اللَّعِين ابن مُلجَم: «فُزتُ وربِّ الكَعْبَة»[٢] (أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَ لاَ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ!)؟. أتدّعون الإسْلاَم، والخِلافَات تَستَنزِف مِنكُم الدِّين، وكلّ مَا تَملكُون من طَاقات؟. وإذَا لَم يَكُن لَكُم دِينٌ فَلتكُن لكُم حَمِيّةٌ، وأنفَةٌ تبعثكُم عَلىٰ الدِّفَاع عن أرْضكُم، وكَرامتكُم.

---

(١) أنظر، شَرح النّهج: ١٠/٦٩. والفَقع: ضَرب من أرداً الكَمأة، والقَرقر: المكان المُستوي الأملس، ويُشبه الرّجل الذّلِيل، فيُقال: هو أذلّ من فَقع بقَرقر، لأنّ الدّواب تَجلِه بأرجلها، قَال النّابغة يَهجو النّعمان بن المُنذِر:

حَدثُونِي بَني الشَّقِيقة مَا يمـ ... ـنع فَقعاً بقَرقر أنْ يَزولا

أنظر، الغَارات: ٢/٤٣٣، مُستقصىٰ الأمثَال للزّمخشري: ١/١٣٤، جواهر المطالب لِابن الدِّمَشقِي: ١/٣٦٤، الصِّحاح: ٣/١٢٥٩، لِسَان العَرَب: ٨/٢٥٥، أمالي المرتضىٰ: ٣/١٤٩.

(٢) أنظر، تَأريخ الطَّبَريّ: ٥/١٤٣، مقاتل الطَّالبين: ٢٩ و٤٧، طَبقَات ابن سعد: ٣/٣٥، أنسَاب الأشْرَاف: ٢/٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذّهب: ٢/٤١١، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/١٥٩، تَأريخ ابن عساكر: ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وص ٣٦٧ ح ١٤٢٤ و: ٣٨ /٩٧، الكَامِل فِي التّأريخ: ٣/٣٨٩، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب ابن شهرآشوب: ٣/٣١١، البلاذري فِي الأنساب: ١/٤٨٨ و٤٩٠، كنز العُمّال: ١٣ /٦٩٧، الفَتح الرّبّاني: ٢٣ /١٦٣، والحَاكِم فِي المُستدرك: ٣ /١٤٤، ذَخائر العُقبَىٰ: ١١٠ فَضائِل عليّ عليه السلام، الصَّوَاعِق المُحرِقَة: ١٣٣ بَاب ٩ فصل ٥ مع تقديم وتأخير بِمَا يناسب السّيَاق، ويحفظ أسترسال المَعنَىٰ واللفظ. الفُتُوح لِابن أعثَم: ٢ /٢٧٦، الاِسْتِيعَاب: ٣ /٥٩ بإضافة «... لا يفوتنكم الكلب»، أُسد الغَابَة: ٤ /٣٨، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٦٤، أرجح المطالب: ٦٥١.

(أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَعُونَةٍ... إِلَىٰ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ). الطَّغَامَ ـ بفتح الطّاء ـ الأَرَاذِل، والْمُرَاد بالْعَطَاءِ الرَّاتب المُعَيَّن لكلّ فَرد، والمَعُونة العِلاوة الّتي تُعطىٰ للمُحارب لإصلاح سِلاحه، أو عَلَف دَابته، كالعِلاوة الّتي تُعطىٰ الآن للموظف من أجل مَرضٍ، أو نحوه، وكَان بَيْت الْمَال آنْذَاك يُوزِّع عَلىٰ الْجُنْد، وغَيْرِهم من المُعوزِين، ومَا كَانَتْ وزَارة للأشغَال، وثَانِيَة للصّحة، وثَالثة للتَّربية... إلخ. وكَان الإِمَام يُقسم الْمَال بالسّوية لا يَحرم أحداً من حقّه، ولا يُرضي الْأَقْوِيَاء عَلىٰ حِساب الضُّعفاء، ويَقُول: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَاللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»[1]؟

أمّا مُعَاوِيَةَ فكَان يُعطي من أجلِهِ، لاَ من أجل الله، وسَد حَاجَة المُعوزِين، فيأخُذ أَمْوَال الْجُنْد، وسَهم الْفُقَرَاء، ويُغري بمَال الله، وبالمَناصب أربَاب الجَاه، والنفُوذ، ويُبِيح لهُم كلّ حَرام دَعماً لحُكمِهِ، وسُلطانه... ومن أجل هَذَا وحدَه ٱتبعُوه، وكَانوا أطوع له من بَنانه، ولو أنّ مُعَاوِيَةَ عَدل، وساوىٰ في الْعَطَاء، والمعُونة لكَان المَتبُوعُون معهُ كمَا كَان أَمْثَالُهُمْ مَع الإِمَام. قَال ٱبن أبي ٱلْحَدِيد في شَرح هَذِه ٱلْخُطْبَة: «كَان الرّؤساء يَحقدُون عَلىٰ الإِمَام، لأنّه يُساوي بَيْنَهُمْ، وبَيْنَ الأتبَاع، فَيخذلونَه بَاطناً، وإنْ أظهرُوا لهُ النّصر، وإذَا أحسَ الأتبَاع بتخَاذُل الرّؤساء تواكلوا أيضاً، وتخَاذلوا، لأنّ ٱنتصَار التّابع مَع تخاذُل الرَّئيس المَتبُوع لا يتصور وقُوعه»[2].

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلخُطْبَة (١٢٦).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٧١/١٠.

وهُنا يَصدُق قول القَائل: «أُريد حيَاته، ويُـريدُ قَـتلي»(١). وقَـف الإِمَـام مـع

(١) رويت القِصَّة لِهَذا البَيْت تَارةً عن الحَسَن بن مَحبوب عن أبي حَمْزَة الثّمالي عن أبي إِسْحَاق السَّبيعي عن الأصبغ بن نُباتة قَالَ: أَتىٰ ابنُ مُلجَم أَمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام فبَايعه فيمن بَايَعَ، ثُمّ أَدبَر عنهُ فدعاهُ أَمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام فتوثق منهُ، وتوكّد عَلَيْهِ أَنْ لا يَغْدر، ولايَنكث ففعل، ثُمّ أَدبَر عنهُ فدعاهُ عليه السلام الثَّانِيَة فتوثّق منهُ، وتوكّد عَلَيْهِ أَنْ لا يَغْدر ولايَنكث ففعل، ثُمّ أَدبَر عنهُ فدعاهُ عليه السلام الثّالثة فتوثق منهُ، وتوكد عَلَيْهِ أَنْ لا يَغْدر ولايَنكث، فَقَالَ ابن مُلجَم: والله يا أَمِير المُؤْمِنِينَ مارأيتك فعلتَ هَذا بأحدٍ غَيْري! فَقَالَ أَمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام هَذا البَيْت.

ثُمّ قَالَ: هَذا والله قَاتلي لا مَحالَة. قُلنا: يا أَمِير المُؤْمِنِينَ أفلا تَقْتُلُه؟! قَالَ: لا، فَمن يقتلني، ثُمّ قَالَ عليه السلام:

فـقَد أعـرفُ أقـوَاماً ... وإنْ كَـانوا صـعَاليكا
مـصَاريع إلىٰ النَّـجْدَة ... ولِـلغيِّ مـتَاريكا

أُنظر الخَرائج والجَرائح: ١/ ١٨٢ ح ١٤، بحار الأَنْوار: ٤٢/ ١٩٢ ح ٦.

وتارةً روىٰ هَذِه القِصَّة جعفر بن سليمان الضّبعي عن المُعلّىٰ بن زياد قَالَ: جَاء عبد الرَّحْمَنِ بن مُلجَم إلىٰ أَمِير المُؤْمِنِينَ يَستحمله فقَالَ له: يا أَمِير المُؤْمِنِينَ، احملني، فنظر إلَيْهِ عليه السلام ثُمّ قَالَ له: أنت عبدُ الرَّحْمَنِ بن مُلجَم المُرادي؟ قَالَ: نعم، قَالَ: يا غزوَان، احمله علىٰ الأشقر، فجاء بفرس أشقر فركبه ابن مُلجَم المُرادي وأخذ بعنانه، فلمّا ولّىٰ قَالَ أَمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام، هَذا البَيْت....

قيل: إنّ البَيْت لعَمْرُو بن معدي كرب كما في كتاب سيبويه: ١/ ٢٧٦، والأغاني: ١٠/ ٢٧، والعقد الفريد: ١/ ١٢١، وخُزانة الأدب: ٦/ ٣٦١. وأنظر المصادر التّالية لذكر القِصَّة الأُولىٰ في المناقب لِابن شهرآشوب: ٣/ ٣١٠، والبحار: ٤٢/ ١٩٢ ح ٧ ونقل عن كشف الغمّة بيْت الشّعر هكذا. والقِصَّة الثَّانِيَة أيضاً وردت في الإرْشَاد للشّيخ المُفيد: ١/ ١٢ و١٣، وذكر البَيْت وبإسناده عن جَابر قَالَ: إنّي لشاهد لعليّ وقد أتاه المُرَادي يَستحمله فحمله ثُمّ قَالَ:

عذيري من خَليلي من مُرادِ ... أُريد حَـبَاءه ويُـريد قَـتلي

وورد أيضاً في كشف الغمّة: ٢/ ١٢٨ ـ ١٣٠، وكَذَلِكَ الخوارزمي في المناقب، وابن شهرآشوب في: ٣/ ٣١٠، والرّاوندي في الخرائج والجرائح: ١/ ١٨٢ ح ١٤، طَبقَات ابن سعد: ٣/ ٢٢، وشرح النّهج لِابن أبي الحَدِيد: ٢/ ٤٢، وشرح الشّافية لأبي فراس: ٩٩، والكَامِل للمبرّد: ٥٥٠، وسمط النّجوم العوالي لعبد الملك العصامي: ٢/ ٤٦٦ ولكن بإختلاف يَسير في اللفظ، بل قَريب من لفظ المَاتن، وكَذَلِكَ

⟺

الأتْبَاع ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وأنْتَصر لهُم من الأَقْوِيَاء المُسْتَغلِين، فَتركهُ الأتْبَاع، وٱنضمُوا إلىٰ أعْدَائهم ضِدَّ الإِمَامِ ﷺ... حَدث هَذَا من قَبل، ويَحدث الآن: تَقوم الثّورة فِي الشّرق، أو في الغَرب لتُحرر الكَادحِين من الطُّغاة، وتَدُور الحَرْب بَيْنَ الأحرَار والْفِئَة الطّاغِية عَلىٰ الضُّعفاء، فَينتقض جَمَاعَة من هَؤُلآء عَلىٰ ثُورتهم، ويَنضمُون إلىٰ الثّورة المُضادة لهُم، ولحيَاتهم جَهلاً، أو خِيَانةً، ويَنتحرُون بأَيْدِيهم من حَيْث لا يَشعرُون.

(وَ إِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ) حَيْث لا سَبِيل إلىٰ الخلاَص مِمَّا هُو فِيهِ إلّا الْمَوْت. قِيل لفِيلسوف هل من مُصيبة أعظم من الْمَوْت؟ فَقَالَ: «المُصِيبة الّتي تَتمنىٰ مَعَهَا الْمَوْت» (قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ) أي درّستكُم وبَيَّنتُ لكُم مَا فِيهِ، وبخَاصَّة آيَات الْوحْدَة، والأخُوة، والجِهَاد لإحقاق الحَقّ، وإقَامة الْعَدْل (وَ فَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ) حَاكمتَكُم إلىٰ الْعَقْل، ووَسَائِل الإقنَاع الّتي يَحتج بِها الله غَداً عَلىٰ عِبَاده (وَ عَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ). أنْكَر الرُّؤسَاء عَلىٰ الْإمَام أنْ يُساوي بَيْنَهمْ وبَيْنَ الأتبَاع فِي المعُونة والْعَطَاء، فَعرّفَهُم أنّ هَذَا هُو حُكم الله، ورَسُوله، ومَا هو إلّا مُنفِّذ لا مُشرّع، ووكِيل لا أَصِيل.

(وَ سَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ). سَاغ الشّرابُ سَهُل مَدخله فِي الحَلق، ومَجّه رَمىٰ بِهِ

↔ شَرح النّهج لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ١٧٠.

وأُنظر الْفُتُوح: ٢ / ٢٧٧، مقاتل الطالبين: ٤٥، أنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٥٠٢. وزاد في الاسْتِيعَاب: ٢ / ٦٠ عن ٱبن سيرين بن عُبَيْدَة قَالَ: كَانَ عليّ ﷺ إِذَا رأىٰ ٱبن مُلْجَم قَالَ: ـ وذكر الْبَيْت ـ، فَضَائِل الْخَمْسَة من الصّحاح السّتّة: ٣ / ٦٠، الرّياض النّضرة: ٢ / ٢٤٥، كنز الْعُمَّال: ٦ / ٤١٢، و: ١٣ / ١٩١، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٨٠، أساس البَلاَغَة للزّمخشري: ٢٩٥، وقد نسبه إلىٰ عَمْرُو بن معدي كَرب.

من فَمِهِ، والْمَعْنىٰ بَذلتُ كلّ مَا أملُك من جُهدٍ لإرشَادكُم وهدِايتكُم، ولَكِنّكُمْ تمَامَاً كالأعْمَىٰ، والْميّت لا تحسُون، ولا تُبصرُون: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1]. (وَ أَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةَ! وَ مُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ) الْمُرَاد بِالقَوْمِ هُنا أَهْل الشّام، والْمَعْنىٰ لا أحد أَقْربُ إِلىٰ الْجَهْل باللهِ، ودِينه مِن قَوْم يَتصرف بِهِمْ مُعَاوِيَةَ، وٱبن العَاص، ويَلعبَان بعقُولِهِمْ كَيْفَ شَاءا، وأرَادا. والْحَقّ أَنّ الْمَال هُو الَّذي تَصرف بالْعُقُول، والْقُلُوب، وَكَنّىٰ الْإِمَام عنهُ بمُعَاوِيَةَ لأنّه ٱشترىٰ الْعُقُول، والضَّمائِر، ودَفع الثَّمن كَاملاً، أمّا ٱبن العَاص فلهُ دَور الوَسِيط بَيْنَ الْبَائِع، والْمُشْتَرِي.

ونَختمُ هَذَا الشَّرح بِكَلمة لأَحْمَد عَباس صَالح: «أبىٰ عَليّ أنْ يَفعل شَيْئَاً من هَذَا الَّذي يَفعلهُ مُعَاوِيَةَ، لأنّ ٱنتصَاره عِندئذٍ يَكُون ٱنتصَاراً نَاقِصاً خَيْراً منهُ الهَزِيمَة»[2].

---

(١) ٱلأَعْرَاف: ١٧٩.

(٢) أُنظر، كتابه «اليَمين واليَسَار في الإِسْلاَم»: ١٦٠.

الخطبة

-١٨١-

بُعْداً لَهُمْ:

«بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ»[1] أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَ صُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَىٰ هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ، وَ هُوَ غَداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَ مُتَخَلٍّ عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَىٰ، وَ ارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلاٰلِ وَ الْعَمَىٰ، وَ صَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَ جِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ.

اللُّغَة:

بُعْداً لَهُمْ: دُعَاء عَلَيْهِمْ بالهَلاك. وأُشْرِعَتِ: امْتَدت وصُوبَت. وهَامَاتِهِمْ: رُؤُوسِهم. وتَفَلَّلَ وانفلَّ الْقَوْم: انْكَسَرُوا، وانْهَزَمُوا. واسْتَفَلَّهُمْ الشَّيْطَان دَعَاهُم للانْشقَاق، والانْهزَام عَن الجَماعَة. وارْتَكس: انْتَكس، وانْقلب. وتَاهَ: ضَلّ وَجِمَاحِهِمْ: إسْرَاعِهِمْ.

---

(١) اقتباساً من الآيَة (٩٥) في سُورَة هُودٍ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

الإِعْرَاب:

بُعْداً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَرِيَة، وأَمَا تَكُون حَرف ٱسْتِفتَاح، وتَكُون بِمَعْنَىٰ حقاً، أو أحقاً عَلىٰ خِلاف فِي ذَلِكَ، وكَمَا فِي مُغني ٱبن هُشام، وَهِي هِنا بالْمَعْنَىٰ الثَّانِي بقَرِينة السِّيَاق، ولَقَدْ نَدِمُوا جُواب لَوْ، وحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ «حَسْبُ» مَصْدَر مُبْتَدَأ، والبَاء زَائِدَة، وخُرُوجِهِمْ خَبَر، أي كِفَايَتِهِم خُرُوجِهِمْ عَن الْجَمَاعَة، مِثل عُذرهم جَهْلهم.

الخِرِّيت بن رَاشد:

كَان الخِرِّيت بن رَاشد من بَنِي نَاجِية، وشَهِد صِفِّين مَع الإِمَام، وَقَالَ لهُ فِي ذَات يَوْم: أنَا لا أُطيع أمرَك، ولا أُصلي خَلفك، وإنّي غَداً لمُفارقك.

فقَال لهُ الإِمَام: «أُذكر لِي كلّ مَا يَدُور فِي ذِهنك حَولِي من الشُّبهات، وعَليّ أنْ أُزيلها، وأدفعها بالحَقّ. فقَال: آتِيك غَداً. قَال لهُ الإِمَام: إنْ ٱستَرشدتَنِي لأُهدِينّك سَبِيل الرَّشاد، ثُمّ نَهاه أنْ يَتعرض لأحدٍ بسُوء وإلاّ أدّبهُ، وٱقتصَ منهُ.

فقَال رَجُل للإِمَام: لِمَ لا تَأخذهُ الآن قَبل أنْ يَخرج، ويُفسد فِي الأَرْضِ؟.

فَقَالَ الإِمَام: لَو فَعلنا هَذَا بكلّ مَن يُتهم لملأنَا السّجون، ولا يَسعني أنْ أُعاقب أحداً حَتَّىٰ يُظهر الخِلاَف. وٱنْتظرَ الإِمَام عَودة الخِرِّيت فِي الغَد، ولَكِنَّهُ لَم يأتِ، وكَان معهُ (٣٠) رَجُلاً، وَقَدْ أَرْسَلَ عليه السلام رَجُلًا مِنْ أَصْحَابه يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالهم، قَدْ هَمُّوا بِاللِّحَاقِ بِالْخَوَارِج، وَكَانُوا عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْهُ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ، قَالَ لَهُ: أَ أَمِنُوا فَقطَنُوا أَمْ جَبَنُوا فَظَعَنُوا؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ ظَعَنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ عليه السلام: بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ... إلخ[1].

---

(١) أنظر، قِصّة الخِرِّيت بن راشد، وخرُوجه عَلىٰ الإِمَام عَليّ عليه السلام، وقد بعث إِلَيْهِ كَتِيبة مَع مَعقل بن قَيْس

⇔

خَرج الخِرِّيت فِي جمَاعته، وقَطعُوا طَرِيق الآمْنِين... لَقُوا رَجُلاً يُقَال لهُ زَادَان فَرُوخ. فقَالُوا لهُ: «أمُسلِمٌ أنتَ أمْ كَافرٌ؟ قَال: بل مُسلِمٌ. قَالُوا: مَا تَقول فِي عَليّ؟. قَال أقولُ خَيْراً، إنّه أَمِير المُؤْمِنِينَ، وسيّد البَشر، وَوصِي رسول الله ﷺ. قَالُوا لهُ: كَفرتَ. وقَطعُوه بأسيَافِهم. ثُمّ رَأوا رَجُلاً آخر، فقَالُوا لهُ: أمُسلِمٌ أنتَ أمْ كَافرٌ؟ قَال: أنَا يَهُودِي. قَالُوا: خَلوّا سَبيله»[(١)].

ولمّا عَلِمَ الإمَام أرسل إلىٰ حَرْبهم زِياد بن أبِي خَصْفَة[(٢)] في (١٣٠) رَجُلاً، فَقَتل نَفراً مِنهم، وفرّ الخِرِّيت يجمع العلُوج، والأكراد ومن إليْهِمْ، فَندب الإمَام ألفين من أَهْل الكُوفَة، وأرْسَلهُم لِقتال الخِرِّيت بقِيادة مَعْقِل بن قَيْس الرّياحي[(٣)].

⇐ الرِّياحي لقتاله هو، ومن أنضم إلَيْهِ فأدركته الكَتِيبة بسَيْف البَحر بفَارس، وبَعد دعُوته إلىٰ التَّوبَة، وإبَانه قَبُولها شدّت عَلَيْهِ فَقُتل، وقُتل معه كَثِير من قَومه، وسُبي من أدرك في رحَالهم من الرّجال، والنِّسَاء، والصِّبيان، وكانوا خمسمئة أسير، ولمّا رَجع مِعقل بالسَّبي مَرّ عَلىٰ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة الشَّيباني، وكَانَ عَاملاً لِعَليّ عَلىٰ آزدشِير خَرَة، فبكىٰ إلَيْهِ النِّسَاء، والصّبيان، وتَصايح الرّجال يَستغيثون في فكاكهم فأشتراهم من معقل بخمسمئة ألف دِرهم، ثُمّ أمتنع من أدَاء المَبلغ ولمّا ثقلت عَلَيْهِ المُطالبة بالحَقّ لَحِقَ بمُعَاوِيَة فِراراً تحت أستار اللّيْل.

أُنظر، شَرح نَهْج البَلاغَة لمحَمّد عَبْده: ٩٦/١، شَرح نَهْج البَلاغَة لابْن أبي الحَدِيد: ١٢٨/٣، تحت عنوان: «الخِرِّيت بن رَاشد النّاجي وخرُوجه عَلىٰ عَليّ»، الغارات: ٣٣٠/١، مِنْهَاج البرَاعة: ٦٣/٢، بحَار الأنْوَار: ٤٠٦/٣٣، تَأريخ الطّبَرِيّ: ١١٣/٥، الكَامِل في التّأريخ: ١٨٣/٣، أُسد الغَابَة: ١١٠/٢، الإصَابَة: ٢٣٥/٢، الفِتْنَة ووَقْعَة الجَمَل: ١٥٤، إكمال الكَمَال لابْن ماكولا: ٤٣٢/٢ و: ٤١٢/٧.

(١) أُنظر، الغارات: ٣٣٧/١، بحَار الأنْوَار: ٤٠٨/٣٣.

(٢) هُو زِيَاد بن خَصْفَة التيمي من تَيْم الله، بَطن من بَكْر، ومن خُلص أَصْحَاب الإمَامِين عَليّ بن أبي طالب، والحَسَن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام.

(٣) مَعْقِل هو من وِلد رِياح بن يَربوع بن حَنْظَلَة بن مالك بن زيد بن مُناة أبن تميم، وهو من رجال الكُوفَة، ⇐

فَسَار مَعْقِل بجَيْشَه يَسأل عن مَكان الخِرِّيت. فقِيل لهُ: إنّه في أسياف البَحر بفَارس، فقصده، ولمّا سَمع الخِرِّيت بمسِير معقل تَأهب للحَرْب، ودَارت المعركة عَلىٰ أشُدها، فَقُتل الخِرِّيت، ومئة وسبعون من أَصْحَابه، وذَهب البَاقون في الأَرْضِ يَميناً، وشمالاً، وكَانَتْ منِيّة الخِرِّيت بيد النُّعمان بن صَهيان الرّاسي من أَصْحَاب مَعْقِل[1].

هَذِه خُلاَصَة لِقِصَّة الخِرِّيت، ومن أرَاد التَّفصِيل فليرجع إلىٰ شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد لِلخُطْبَة: «٤٤»: ٢٦٤، من المُجلد الأَوَّل الطَّبعة القَدِيمة، وقَد ٱستغرقت حوالي عشرِين صَفحة بقَطع هَذَا الكِتَاب[2].

← وأبطالها، ولهُ رياسة وقِدم. أوفده عَمَّار بن ياسر إلىٰ عُمَرَ بن الخَطَّاب مع الهُرْمُزَان لفتح تُسْتَر، ووجهه الإمَام عليّ إلىٰ بني ناجية، فقتل منهم، وسبىٰ، وحارب المستورد أبن علفة الخارجي من تَيْم الرّبَاب. أنظر، الإِصَابَة: ٢/٢٣٥ و: ٦/٢٤١، أُسد الغَابَة: ٢/١١٠، تَأريخ دمشق: ٥٨/٢٧١، إكمال الكَمَال: ٦/٢٥٩، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣/١٣٦ و: ١٥/٩٢، بحَار الأَنْوَار: ٣٣/٤١٠، الغارات: ١/٥٢ و ٣٥٤ و: ٢/٥٠٦ و ٧٨٢، وفي الإشتقاق لِابْن دُريد: ١٣٦، كَانَ من قواد عَليّ وأنصاره، تأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥/٢٣٧ و: ٦/٣١.

(١) هو النُّعمان بن صَهبان الرَّسِبي، وقِيل: الرَّأسِبي، وَهِي نِسبة إلىٰ بَني رَاسب، وَهِي قَبيلة نزلت البَصْرَة يُنسب إِلَيْهَا أبو شُعْبَة نوح الرَّاسِبي ـ وهو رَاسب بن مِيدغان بن مَالك بن نَصر بن الأزد ـ بَطن من الأزد منهم عبدالله بن وهب الرَّاسِبي، رَئيس الخَوَارِج يوم النَّهْرَوَان.

أنظر، الغَارت: ١/٣٦٠، بحَار الأَنْوَار: ٣٣/٤٥١، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣/١٤٢، أنسَاب الأَشْرَاف: ٤٥١، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤/٩٨، الفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٤/٧٨، البداية والنّهاية: ٧/٣٥١.

(٢) أنظر، أُسد الغَابَة: ٢/١١٠، الغَارات: ١/٣٣٧، أنسَاب الأَشْرَاف: ٤١٣، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤/٥٩ طَبعة مِصْر سَنَة ١٣٥٧ هـ.

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٧٦٥٩
التاريخ: ١٠/٥/١١